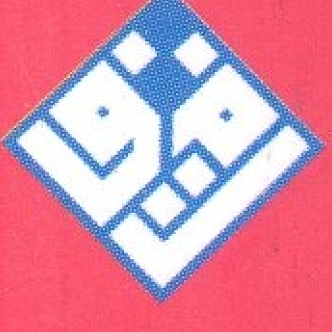




المشروع القومي للترجمة

تاريخ الموريسكيين

مأساة أقلية

تأليف : دومينغيث أورتيث
برنارد فينسينت
ترجمة : عبد العال صالح
مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن

1026



تاريخ الموريسكيين

(مأساة أقلية)

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٢٦

- تاريخ الموريسكيين (مأساة أقلية)

- دومينغيث أورتيث ، وبرنارد فينسينت

- عبد العال صالح

- جمال عبد الرحمن

- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Historia de los moriscos

Vida y tragedia de una minoría

Por : Antonio Domínguez Ortiz

Bernard Vincent

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

المشروع القومى للترجمة

تاريخ الموريسكيين

(مأساة أقلية)

تأليـــــف : دومينغيث أورتيث

وبرنارد فينسينت

ترجمـــــة : عبد العال صالح

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أورتيث ، دومنغيث
تاريخ الموريسكيين : (مأساة أقلية)
تأليف : دومينغيث أورتيث وبرنارد فينسينت ؛ ترجمة : عبدالعال صالح /
مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن
ط١ ، القاهرة ؛ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧
٥٠٤ ص ؛ ٢٤ سم
١ - الأقليات
أ - صالح ، عبد العال (مترجم)
ب - عبد الرحمن ، جمال (مقدم)
جـ - العنوان ٣٠١,٤٥

رقم الإيداع ٤١٧٤ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-207-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

فهرس الموضوعات

تقديم المراجع

يحلو للبعض من مؤرخينا ومن المشتغلين بالكتابة فى التاريخ إطلاق عبارات لا يأخذها الباحث (المحاور) الأوروبى على محمل الجد . يقول أحدهم - مثلاً - "إن مسيحيى إسبانيا قد أحرقوا الآلاف من مسلمى الأندلس" دون أن يكون لديهم دليل واحد مستخرج من الوثائق .

هل أحرق مسيحيو إسبانيا بعض المسلمين الذين تمسكوا بالإسلام ؟ نعم حدث ذلك . هل كان أولئك الشهداء بالآلاف ؟ لا بالقطع . كم كان عددهم ؟ تقول الوثائق إنه لا يتجاوز بضع عشرات . هل يعنى هذا عدم ارتكاب جريمة ؟ لا. من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا . ما الفرق إذن بين الحديث عن قتل الآلاف وقتل العشرات ؟ الفرق يكمن فى أن المبالغة تفقد الموضوعية . إذا تحدثنا فليكن حديثنا مبنيا على الوثائق . يستطيع كل منا أن يدلى برأيه كما يشاء ، لكن دون التخلى عن لغة الأرقام .

لا أستطيع هنا مقاومة إغراء الحديث عن مقال كتبته الزميلة غارثيا أرينال منذ سنوات بعنوان "آخر الدراسات عن الموريسكيين : الوضع الحالى للقضية" (١) . تشير المؤلفة فى هذا المقال إلى أن "القضية الموريسكية لا تزال تثير اهتمامًا حيا ، وستؤدى إلى دراسات كثيرة وستظل تدور حولها وتتشكل قضايا أخرى تبتعد عنها ، وستجد هذه القضايا من يدافع عنها" . وقد رأينا فى عالمنا العربى من يتحدث عن القضية الموريسكية وهو يضع نصب عينيه أحداثًا تقع فى الوقت الحالى . صحيح أن الاستفادة من أحداث التاريخ القديم شيء مطلوب ، لكن الفائدة لا يمكن تحصيلها إلا إذا درسنا التاريخ القديم بشكل موضوعى يعتمد على الوثائق ويتحدث بلغة الأرقام . أما أن نسقط على القضية الموريسكية أحداثًا لم تقع إلا فى الوقت الحالى فهذا ليس تأريخًا .

أشارت غارثيا أرينال فى مقالها المذكور إلى أن التأريخ الموريسكى "لا يزال يتضمن جرعة مذهبية كبيرة" ، وقد لمست بنفسى أن بعض الباحثين الأوروبيين لم يستطيعوا تجاهل انتماءاتهم الفكرية فى أثناء معالجة الموضوع الموريسكى ، لكنهم - إحقاقًا للحق - لم يتخلوا مطلقًا عن لغة الأرقام ، ولم تظهر انتماءاتهم إلا عند تحليل البيانات . أما بعض مؤرخينا فلم يعتمدوا الأرقام منذ البداية .

الكتاب الذى نقدم له يطأ هذ الأرض الوعرة بشىء من الثقة ، فهو يتحدث عن وثائق موجودة ، ويستند إلى هذه الوثائق نفسها لطرح افتراضات لا نظن أن الصواب يجانبها كثيراً، ويصحح معلومات كان الدارسون يتداولونها على أنها حقائق مسلم بها.

لا يتوقف كتاب الزميل ميغيل أنخيل بونيس "الموريسكيون فى الفكر التاريخى" (٢) كثيراً عند الكتاب ، ويكتفى بالقول إنه "يمثل فترة انتقال البحث الموريسكى من البعد السياسى للقضية إلى الأبحاث ذات الموضوع الواحد ، وقد اعتمد الباحثان على الوثائق لإضافة معلومات جديدة ، هذا بالإضافة إلى أنهما قدما تلخيصاً للدراسات السابقة عليهما" .

على أن عدم توقف بونيس كثيراً عند الكتاب لا يقلل من أهميته ، فقد لاحظنا أن الدراسات الموريسكية اللاحقة تعتمد الكتاب مرجعًا أساسيا وتفرد له مكانة خاصة .

ينقسم الكتاب إلى اثنى عشر فصلاً ، وسنحاول فى السطور التالية الإشارة بإيجاز إلى محتوى كل فصل ونبدى بعض الملاحظات .

يتناول الفصل الأول تاريخ الموريسكيين بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٦٨ ، وهى الفترة التى شهدت نهاية التعايش السلمى والقيام بعمليات التنصير الإجبارى وصدور قرارات الحظر ، ويبين كيف أن تلك المرحلة شهدت كذلك فترات هدنة . يتعرض الفصل الأول أيضًا لموضوع قيام بعض الأتراك والمغاربة بمهاجمة سواحل إسبانيا وهو ما أطلق عليه الأوروبيون مشكلة "القراصنة" وتناوله مؤرخونا على أنه "جهاد بحرى" (٣) .

يقول المؤلف "إن الطرفين قد انتهكا المعاهدة" ، ولا ندرى كيف يستطيع الطرف المسلم الذى يمثل الأقلية المغلوبة على أمرها أن ينتهك اتفاقية وقعها مع قوة عظمى فى ذلك الوقت .

يقول المؤلف كذلك إنه لا يدرى ما إذا كان ثيسنيروس يريد أن يعيد إلى المسيحية أولئك المسيحيين الذين دخلوا فى الإسلام ، أو أن يفرض المسيحية على المسلمين ونحن بدورنا لا ندرى هل استطاع المسلمون فى أوج أزمتهم دعوة المسيحيين إلى الإسلام .

يتبنى المؤلف هنا وجهة نظر مسيحية خالصة ، فهو يتأسف لأن الموريسكيين لم يعتنقوا المسيحية، ويذكر أن ذلك لم يكن بسبب تقصير السلطات الكنسية ، بل نظراً للمقاومة التى أبداها المسلمون ، كما يتبنى وجهة النظر القائلة بوجود مؤامرة كان الموريسكيون فيها طابوراً خامساً ، وهو هنا يعارض تماماً قراءة ماركيث بيانويبا للأحداث (٤) .

الفصل الثانى يتعرض لفترة زمنية قصيرة (١٥٦٨ - ١٥٧٠) ولكنها شهدت أحداثاً بالغة الأهمية تمثلت فى ثورة مسلمى غرناطة . يقسم المؤلف تلك الفترة الصغيرة إلى أربع مراحل ، ويقدم بيانات عن عدد قوات كل فريق والمناطق التى اشتركت فى الثورة ، وطلب الموريسكيين مساعدة العالم الإسلامى ومساعدة الأتراك لهم ، وانتهاء الأمر بنفى مسلمى غرناطة إلى أقاليم إسبانية أخرى .

الفصل الثالث يتناول موضوع التوترات بين المسيحيين والموريسكيين ، وكيف أن جو التوتر قد أفرز إشاعات ، منها إشاعة الاستعانة بالأتراك والبروتستانت ، ونظراً لذلك الجو من التوتر كان هناك اقتراح بطرد الموريسكيين من إسبانيا .

يتحدث الكتاب عن نشاط مجموعات من الموريسكيين يطلق عليهم بالإسبانية **monfies** وقد وردت ترجمات عديدة للكلمة : منفيون ، أو رجال عصابات ، أو رجال الجبل ... إلخ ، وكل هذه الترجمات صحيحة فى نظرنا لأن تلك الجماعات كانت تطاردها السلطات ،

ومن ثم كان ابتعادها إلى الجبال نوعاً من النفى الاختيارى أو الإجبارى ، وكان أولئك الأفراد يعيشون فى جماعات أو عصابات مسلحة ، وكانوا بشكل عام يقيمون فى الجبال لوعورتها وصعوبة ملاحقتهم فيها .

يذكر المؤلف أن أهمية الموريسكيين من الناحية الاقتصادية كانت تفوق اعتبارات خطرهم من الناحية السياسية . هذا ما يفسر عدم تنفيذ قرارات بطرد الموريسكيين من أقاليم لتوزيعهم على أقاليم أخرى ، إذ كان السادة من أصحاب الأملاك - بل والحكام أنفسهم - يعطلون تنفيذ قرارات الطرد .

يشير الكتاب كذلك إلى أن طرد الموريسكيين كان أحد خيارات مطروحة : الطرد الجماعى ، أو تحديد إقامة المسلمين فى أحياء مغلقة عليهم ، أو القضاء عليهم بشكل تدريجى . النص الذى يورده الكتاب يتضمن فكرة السماح للموريسكيين بالعيش فى أحياء منفصلة ومغلقة عليهم تحت حكم المسيحيين ، يصرح لهم فيها بإقامة شعائر الإسلام بحرية ، وهكذا يمكن تجنب أن يتحول المسيحيون القدامى إلى الإسلام . كان هناك خيار آخر يقضى بإرسال الشباب الموريسكيين للقيام بأعمال شاقة مثل التجديف ، على أن يمنعوا من التغذية الجيدة ، وهكذا ينتهى أمرهم بالانقراض .

الفصل الرابع يتناول التوزيع السكانى للموريسكيين فى مناطق فالنسيا وأراغون وقطالونيا وغرناطة وقشتالة وجزر الكنارى ، ويتطرق إلى موضوعات زيادة أعداد المواليد من الموريسكيين .

يتناول المؤلف موضوع ارتفاع نسبة الخصوبة بين الموريسكيين ، ويعتمد على الأرقام لكى يثبت أن عدد الموريسكيين ظل متجمداً بين عامى ١٥٧٠ و ١٦١٠ ، وهو ما يتناقض مع أقوال المسيحيين التى كانت تتحدث عن خشيتهم من زيادة عدد المسلمين الذين "لا يمارسون الرهبنة ولا يذهبون إلى الحرب". على أن المؤلف لا يقاوم الرغبة فى دراسة أسباب ارتفاع الخصوبة فيؤيد الدراسات التى ذهبت إلى أن الزواج المبكر كان أحد تلك الأسباب .

وفى نهاية الفصل يفجر المؤلف مفاجأة مهمة : أن عدد المسلمين الذين لم يشملهم الطرد كان أكبر مما كنا نظن حتى الآن . هذه النتيجة التى توصل إليها المؤلف تفسر لنا سر بقاء التراث الأندلسى الإسلامى حيًا فى إسبانيا بعد تاريخ الطرد بقرون . إن المؤلف يتفق هنا مع ما ذهب إليه خوليو كارو باروخا [٥] وآخرون فى هذا الصدد .

الفصل الخامس يتناول موضوع الحياة الدينية للموريسكيين ، فيعرض عباداتهم ونشاط محكمة التفتيش ، ويبين بالوثائق أن حوالى ٥٪ فقط من الموريسكيين هم الذين تعرضوا لإجرءات محكمة التفتيش .

الفصل السادس يتناول مهن الموريسكيين ومستوى معيشتهم فيقول إنهم اشتغلوا بالزراعة والعمارة وأعمال المعادن والتجارة ونقل البضائع وغيرها . يدرس الباحث كمية من الوثائق ليخلص إلى أن الموريسكيين لم يكونوا كلهم فقراء ، بل تراوح مستواهم الاقتصادى بين الفقر والثراء ، وهذا يتعارض مع الفكرة الشائعة عنهم .

الفصل السابع يتحدث عن صعوبة التعايش بين الموريسكيين والمسيحيين بسبب الحقد والتعصب . ويخلص المؤلف إلى القول بأن المشاكل فى معظمها كانت دينية . والمتابع للقضية الموريسكية فى إطارها الشامل لا يسعه إلا الاتفاق مع المؤلف فيما ذهب إليه .

الفصل الثامن يتحدث عن مقدمات عملية الطرد فيورد الأسباب التى أدت إليه والإجراءات التى اتخذتها السلطات الإسبانية تمهيداً لعملية الطرد . ينفى المؤلف هنا أن يكون فيليبى الثالث – المتردد دائمًا – هو الذى اتخذ قرار الطرد من تلقاء نفسه ، وينفى كذلك أن يكون دوق ليرما – الذى كان متحدثًا باسم النبلاء – هو الذى أوعز إلى الملك باتخاذ القرار . إذا عملنا أن النبلاء كانوا يعارضون القرار لأسباب اقتصادية ، وإذا علمنا أيضًا أن معظم رجال الكنيسة كانوا يعارضون الطرد لأسباب خاصة (طرد الموريسكيين يعنى أنهم فشلوا فى تنصيرهم) ، فإن هذا الكتاب بدلاً من أن يجيب على تساؤل واحد يضيف أسئلة أخرى ويطرح قضايا لا تزال فى حاجة إلى توضيح .

أغلب الظن أن ريبيرا كان متردداً وأنه عندما صدر قرار الطرد كان عليه تأييده رغم ندمه على صدوره .

الفصل التاسع بعنوان "النفى" ويتحدث فيه المؤلف عن موقف النبلاء المؤيد للموريسكيين ، ويروى فيه وقائع طرد الموريسكيين من قشتالة وأندلوثيا ومرسية وإكستريمادورا .

يقول الكتاب إن ريبيرا – وقد فشل فى مساعيه لتنصير المسلمين – اعتبر الطرد انتصاراً يعوض فشله السابق ، ومن المعلوم أن بيانويبا يرى أن البطريرك قد فرض عليه القرار فرضاً وأن دوره لم يتجاوز تقديم دعم الكنيسة لقرار اتخذته السلطة الملكية بمفردها .

يتحدث الكتاب عن مشاكل تعرض لها الموريسكيون عند وصولهم إلى البلاد الإسلامية دون أن يحدد مصدراً لما يقول . كنا قد بحثنا هذا الأمر فى معرض تقديمنا لكتاب آخر عن القضية الموريسكية [٦] ووجدنا أن الكتب الإسبانية فى القرن السابع عشر تنفرد بالحديث عن هذا الموضوع ، وذكرنا أننا – لأسباب عديدة – لا نطمئن إلى كتابات المؤرخين الإسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . أما المصادر العربية التى أشارت إلى الموضوع فلم نجد إلا كتاب " نفح الطيب " للمقرى ، وهو لا يتحدث عن مجازر على الإطلاق، بل يشير إلى تعرض بعض الموريسكيين لعملية سلب على يد بعض البدو فى تلسمان وفاس ، ويذكر أن السلطات هناك قد وضعت حداً لذلك التجاوز .

يذكر الكتاب أن ريبيرا قد ألقى موعظة شكر فى الكاتدرائية تنبأ فيها بالصعوبات التى ستواجه إسبانيا بعد طرد الموريسكيين وأنه أشار إلى أن الأضرار الناتجة ستكون أفضل من بقاء الموريسكيين فى إسبانيا . والجدير بالذكر أن ماركيث بيانويبا له قراءة أخرى لتلك الموعظة الشهيرة ، فقد فسرها على أنها نتاج صراع داخلى للبطريرك الذى كان معارضاً للطرد لكنه – فى الوقت نفسه – كان مضطراً لتبريره أمام الناس دعماً للملك .

الفصل العاشر يتناول الآثار الاقتصادية التى ترتبت على عملية الطرد وبالتحديد فى مجال الزراعة . يستخدم المؤلف لغة الأرقام لكى يحدثنا عن الآثار الاقتصادية التى ترتبت على طرد الموريسكيين . يعرض المؤلف آراء المؤرخين حول الموضوع ويذكر أن توجيه النقد لقرار الطرد فيما بعد قد اعتمد على المبالغة استناداً إلى أسباب سياسية لا علاقة لها بالموريسكيين ، ويذكر أيضًا أن مؤيدى قرار الطرد لم يكن بوسعهم سوى الاعتراف بالآثار السلبية التى ترتبت عليه . ويخلص المؤلف إلى القول بأن الموريسكيين الذين طردوا فى عامى ١٦٠٩ و ١٦١٠ بلغ عددهم ٣٠٠ ألف ، أى ٤٪ من عدد السكان ، لكنه يشير كذلك إلى أن أولئك الذين طردوا لم يكن من بينهم نبلاء ولا محتالون ولا جنود ولا رهبان ولا متسولون ، أى أنهم كانوا جميعًا من الفئات العاملة .

الفصل الحادى عشر يتناول الأماكن التى هاجر إليها الموريسكيون مثل فرنسا وإيطاليا وتركيا وشمال إفريقيا . يتحدث المؤلف عن المهجر الموريسكى ويعود إلى الإشارة إلى مقتل الموريسكيين فى إفريقيا لأنهم اعترفوا بأنهم مسيحيون ، ونحن من جانبنا لا نظمئن إلى صحة المعلومة ، فلو كان الموريسكى مسيحيًا لما تعرض للطرد أصلاً ، ولو طرد - من باب الاحتياط فالأمر الطبيعى أن يهاجر إلى بلد مسيحى ، لا إلى إفريقيا المسلمة .

يتحدث المؤلف عن وجود مظاهر الفن الإسلامى الموريسكى فى بلاد العالم الجديد، وهو موضوع لم يكن مطروقا فى الدراسات الموريسكية ، ونشير إلى أنه منذ صدور الكتاب نشرت دراسات متفرقة تؤكد وجود موريسكيين فى العالم الجديد ، فقد ثبت مثلاً وجود نسخة من كتاب "مختصر السنة" - الذى وضعه عيسى بن جابر - فى المكسيك ، وليس ثمة تفسير مقبول لوجود كتاب إسلامى هناك إلا أن أحد المسلمين حمله معه ليكون زاده فى أثناء السفر وبعده . ثم إن محاكم التفتيش قد حاكمت أشخاصًا فى أماكن متفرقة من أمريكا بتهمة أداء شعائر الإسلام . وقد أشارت الدكتورة ثاغارثاثو إلى أن قرية فى الأرجنتين كانت تدفن موتاها على الطريقة الإسلامية وأن الناس هناك كانوا لا يأكلون لحم الخنزير . يضاف إلى كل ذلك أن بعض ذوى الأصول الموريسكية قد تولوا مناصب مهمة فى العالم الجديد .

يقول المؤلف إن اختيار الموريسكيين السفر إلى فرنسا – بعد طردهم من إسبانيا – يدل على تمسكهم بالدين المسيحى . ولنا أن نختلف مع المؤلف فى هذا الرأى (٧) ، فمن المعلوم أن قرار الطرد كان يلزم الموريسكى بترك أطفاله الصغار فى حال توجهه إلى بلد مسلم ، أما إذا ذهب إلى بلد مسيحى فكان بإمكانه أن يصطحب أطفاله معه . لذلك كان الموريسكى يتوجه إلى بلد مسيحى أولاً – حتى يصطحب أطفاله – ثم يتوجه بعد ذلك إلى بلد إسلامى هو وأسرته . إن بعض السفن التى خرجت من إسبانيا فى طريقها إلى فرنسا لم تصل إلى فرنسا أصلاً وتوجهت مباشرة إلى شمال إفريقيا ، فقد كان ذكر اسم فرنسا مجرد حيلة لاصطحاب الأطفال .

الكتاب يشير أيضًا إلى الأماكن العديدة التى توجه إليها الموريسكيون والدور الذى لعبوه فى البلاد التى توجهوا إليها ، وهو هنا يعالج بإيجاز موضوعا تناوله بالتفصيل ميكيل دى إيبالثا فى كتاب "الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى" الذى ترجمناه ونشره المجلس الأعلى للثقافة فى العام الماضى .

ونحن لا نتفق مع المؤلف حين يقول إن الموريسكيين اعتنقوا الإسلام حين وصلوا إلى شمال إفريقيا ، فالثابت – بشهادة رجال الكنيسة وأعضاء محكمة التفتيش – أن الموريسكيين كانوا مسلمين قلبًا وقالبًا ، ونظن أن الذى حدث عند وصولهم إلى شمال إفريقيا هو ممارسة شعائر الإسلام علنا بعد أن كانوا يمارسونها فى الخفاء .

يتحدث المؤلف عن موريسكيين قتلوا لأنهم تمسكوا بالمسيحية ، ولا نعد ذلك سوى من باب التجنى على تاريخ البلاد الإسلامية التى عاش فيها مسيحيون ويهود ، ولم يحدث أن قتل أحد بسبب تمسكه بعقيدته . إن يهوديا مثل باياتشى يعلن أنه – وإن كان يجد بعض صعوبة فى الحياة فى المجتمع الإسلامى – لكن المسلمين "أفضل كثيراً من المسيحيين من حيث معاملة اليهود" (٨) .

ويعترف المؤلف بأن أحد المؤرخين الإسبان قد شوه مدينة الجزائر عند وصفه لها ، ويحاول تلمس الأسباب ، لكننا نقول إن التشويه كان من سمات كتابات المؤرخين الإسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

الفصل الثانى عشر يتناول مسألة الوجود الموريسكى فى إسبانيا بعد الطرد ، وهو موضوع مهم للغاية ، وأعتقد أن الكتاب فريد فى هذا الجانب الذى لم يتوقف عنده الباحثون إلا قليلاً (خوليو كارو باروخا فى كتاب "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢" ، دراسة لمؤلف آخر بعنوان Los moriscos que no se fueron) . الجديد هنا فى الكتاب الذى نقدم له هو كمية الوثائق التى يشير إليها .

يقول المؤلف هنا إن بعض الموريسكيين استطاعوا البقاء بصور مختلفة استناداً إلى العلاقة الطيبة التى تربطهم بالمسيحيين ، ومن الموريسكيين من استطاع العودة إلى إسبانيا بعد طرده منها . هذا بالإضافة إلى أن فترة حكم فيليبى الرابع شهدت مرحلة من الاعتدال مما سمح ببقاء بعض الجماعات .

بالإضافة إلى الفصول التى عرضناها ينشر الكتاب اثنتى عشرة وثيقة جديدة تتناول موضوعات مختلفة .

أما عن أسماء الأعلام فقد اجتهدنا فى كتابة الأسماء الصحيحة للمدن والقرى الصغيرة ، وكذلك بالنسبة للشخصيات التاريخية غير البارزة ، ونحسب أن الصواب كان حليفنا فى معظم ما ذهبنا إليه ، ونعترف أن الصواب جانبنا أحياناً ، وعزاؤنا أننا نترك أمر التحقيق للمؤرخين فهم أكثر قدرة منا على الوصول إلى الحقيقة . نحسب كذلك أن المؤرخين لو تعاملوا مع المادة الوثائقية التى يقدمها هذا الكتاب - وكتب التاريخ الموريسكى الأخرى التى ترجمت إلى العربية - لصححوا كثيراً من المعلومات الموجودة فى الكتابات التأريخية فى العالم العربى وفى أوروبا على السواء .

فى كثير من الأحيان أشرنا إلى توافق الرؤى بين هذا الكتاب وكتاب "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" لماركيث بيانويبا الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة منذ أقل من عام ، ولعل هذا يؤكد أن تقديم وجهة النظر الأخرى يكاد يشكل تياراً فى الفكر التأريخى الإسبانى المعاصر .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ؛

جمال عبد الرحمن

القاهرة فى ٢٥ أبريل ٢٠٠٦

الهوامش

(١) Al Qántara, IV, 1983, pag. 101-114 .

(٢) انظر : ميغيل أنخيل بونيس "الموريسكيون فى الفكر التاريخى" ، ترجمة وسام محمد جزر ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥

(٣) انظر : رأفت غنيمى الشيخ "ارتباط خروج المسلمين من الأندلس بحركة الجهاد البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط" ، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية حول الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة" ، الجزء الثانى ، زغوان ، تونس ، ١٩٩٣ .

(٤) انظر : ماركيث بيانويبا "القضية الموريسكية من وجه نظر أخرى" ، ترجمة عائشة سويلم ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥

(٥) انظر : خوليو كارو باروخا "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢" ، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣

(٦) انظر : ميكيل دى إيبالثا "الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى" ، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥

(٧) كان يمكن أن نتفق مع المؤلف فيما ذهب إليه لو أن الموريسكى الذى وصل إلى فرنسا استقر فيها ولم يغادرها إلى بلاد إسلامية .

(٨) انظر : غارثيا أرينال وجيرارد ويغرس "بين الإسلام والغرب" ، ترجمة ممدوح البستاوى ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥

مقدمة

كان الموريسكيون يمثلون أقلية محتقرة ولكن ليست منسية. وحتى فى لحظات الانتصار الكبرى، احتلت هذه الأقلية موضعًا متميزًا فى الأعمال ذات الطابع التاريخى. إن التناقض بين تاريخ هذه الأقلية مع أقلية مشابهة لها - وهم اليهود المرتدون - تناقض كبير، فقد نسيت الأقلية اليهودية بالكامل، حيث اعتُقد أن صفحة وجود أتباع الدين اليهودى فى تاريخنا قد أغلقت تمامًا بطردهم عام ١٤٩٢، لكن المصائب والأحداث الأليمة التى مرَّ بها الموريسكيون حتى إخراجهم ظلت تحرك أقلام مؤرخينا، فما الأسباب؟. لا شك أن السبب هو التفاعل المختلف لكلتا الأقليتين داخل المجتمع الإسبانى فى ذلك الوقت .

حاول أحفاد اليهود عدم لفت الأنظار إليهم والاندماج فى مجتمع الأغلبية، وقد حققوا هدفهم. ومن ناحية أخرى كان من بينهم عائلات عريقة وأشخاص من ذوى النفوذ، ولم يكن من المناسب نشر عوراتهم. وفى عام ١٦٢٣م صدر قرار بتحريم الكتب (الخضراء)(*) مثل كتاب "وصمة النبلاء". وعلى الرغم من هذا فإن تلك الكتب تابعت حركتها السرية، فلم يكن يصرح بطباعتها لأنها كانت تحكى المصائب التى مرت بها هذه المجموعة البشرية التى لم يكن لها تاريخ تبعًا للمعنى الأصلى لتلك الكلمة .

أما بالنسبة للموريسكيين فإن الأمر يختلف تمامًا، فعدم إخلاصهم كان واضحًا، وكذلك موقفهم السلبى من الاندماج فى المجتمع(**). ولم يكن هناك أى خطر على الذين

(*) كتب ممنوعة رسميا، كلمة خضراء تشير حاليًا فى إسبانيا إلى الأعمال الأدبية والفنية الإباحية. (المترجم)

(**) لم يكن المسلمون يعارضون الاندماج فى الثقافة الإسبانية ، فقد كانوا هم من أبناء إسبانيا أصلا، بل كانوا متمسكين بالإسلام وكانوا يرفضون التنصير. (المراجع)

ينكرون عليهم عقد اجتماعات مزعجة مع السلطات الرسمية والسادة ذوى النفوذ. ومن الغريب أن هذه الأقلية على الرغم من تعاستها وبؤسها، فإنها كانت قادرة على أن تكون موضوع مادة تاريخية قيمة، ليس فى حرب الاسترداد فقط وما يُنسب إليهم خلالها من بطولات، وإنما بعد ذلك بكثير أيضاً، حيث كان الموريسكيون أبطال حدثين تاريخيين لهما طابع (درامى) كبير: الأول: تمرد أعوام (٦٨ – ١٥٧٠م)، والثانى: خروجهم الأخير، وهما حدثان تاريخيان لم يحسن الاستفادة منهما بعد .

والكتاب التأريخى "حرب غرناطة" لمؤلفه دييغو أورتادو، خير مثال للأعمال ذات المحتوى الأدبى والسياسى ويمثل أحد الأعمال الكلاسيكية فى تاريخنا، أما رواية لويس ديل مارمول كارباخال فيمكن مقارنتها بكتاب برنال دييث ديل كاستيو، إذ يمثل أسلوب المؤرخين الجنود، حيث تختفى الميزات الأدبية، ويظهر بوضوح الهدف الإخبارى، وهذا النوع موجود بكثرة فى العصر الذهبى لأدبنا الإسبانى .

والجدير بالذكر أن طرد أعوام ١٦٠٩ – ١٦١٤م كان سبباً فى كتابة أعمال أدبية كثيرة، ذات قيمة إخبارية متباينة، ومحتواها الأدبى متدنٍّ جدا وربما لا تكون لها أية قيمة أدبية. وسنذكر ذلك فى مكانه المناسب من الكتاب. ويكفى هنا أن نشير إلى بعض الأعمال المهمة، مثل: كتاب "تاريخ مسلمى إسبانيا" للراهب الدومنيكى خايمى بليدا وكتاب "تاريخ طرد الموريسكيين العظيم" للراهب ماركوس دى غوادالخارا. والكتاب الجدير بالذكر "الطرد العادل لموريسكيى إسبانيا" لدميان فونسيكا، وكتاب "طرد موريسكيى إسبانيا المقبول" لأثنار كاردونا. هذا بالإضافة إلى كمية كبيرة من الأعمال التاريخية الصغيرة. والأحاديث المطولة عن هذا الموضوع فى كتب التاريخ العامة. أما الأدب المعاصر الذى عالج تلك الأحداث حينذاك فكثير جداً لدرجة أننا لم نستفد منه حتى الآن كما يجب .

وبالطبع فإن هذه الأعمال ذات طابع تبريرى دفاعى لأن الرقابة لم تكن تسمح بنقد موضوع الطرد بصورة علنية لأنه اعتبر أمراً مقدساً وعادلاً ولا يمكن العدول عنه . وبعد موت فيليبى الثالث تغير الوضع، ففى فترات الحكم التالية تم نقد قرار الطرد

بعبارات مباشرة وغير مباشرة فى كتب المؤرخين والسياسيين والاقتصاديين، أما فيما بعد – فى عصر التنوير– فقد أصبح النقد صريحاً وقاسياً، حيث تمثل تلك الفترة بدء عصر الأعمال الأدبية ذات الطابع التأريخى والأسلوب التحررى فى القرن التاسع عشر، ولعل الجديد فى ذلك القرن هو أنه بالإضافة إلى المؤرخين الذين كان دورهم يقتصر على إطلاق أحكام على الأحداث التاريخية، فقد ظهر الباحثون الذين جددوا وأكملوا الروايات التقليدية. لهذا فإن بعض الأعمال مثل "الوضع الاجتماعى للموريسكيين" لمؤلفها خانير عام ١٨٥٧م، وكذلك كتاب "طرد الموريسكيين الإسبان" لمانويل دانبيلا فى عام ١٨٨٩، تمثل خطوة مهمة لما تحتويه من وثائق كثيرة. منذ ذلك الحين عرفت الأمور الأساسية حول أسباب الطرد، حيث قام دانبيلا بدراسة تقارير المجالس واللجان التى أعدت عملية الطرد .

لكن يجب أن نذكر أن تاريخ الموريسكيين لا يقتصر فقط على خروجهم من إسبانيا، إذ يسبق هذا الخروج تاريخ طويل ومؤلم ملىء بالصدمات والصراعات أغلبها وصل إلى محاكم التفتيش. لهذا ظلت بعض النقاط تمثل فراغًا فى ذلك التاريخ حتى ظهر كتابان فى وقت واحد: الأول لهنرى تشارلز "تاريخ موريسكيى إسبانيا: من التنصير حتى الطرد"، فيلادلفيا عام ١٩٠١م، والثانى للكاهن الفالنسى باسكوال بورونات "موريسكيو إسبانيا وقرار الطرد" فالنسيا عام ١٩٠١، وهو كتاب من جزءين، أما الكاتب الأول لتشارلز فقد كان متخصصًا فى موضوعات حول محاكم التفتيش، وقد اعتمد على وثائق المحكمة العليا التى كانت موجودة فى ذلك الحين فى سيمانكاس. أما باسكوال فقد اعتمد على وثائق أكثر تنوعاً: قليلاً من وثائق محاكم التفتيش، أما الجانب الأكبر فقد كان من أرشيف سيمانكاس، وكذلك أرشيف فالنسيا. ويعتبر كتابه مهما وأساسيا وإن كان قد أفقده قيمته الشعور العدائى للموريسكيين من جانب مؤلفه والذى أخذ شكل هوس، وقد استخدم بكثرة من جانب المؤرخين فيما بعد، أما الكتاب الأول فمن الصعب الحصول عليه فى إسبانيا وكان له تأثير أقل بكثير .

بعد ذلك مرت عشرات السنين بدا فيها أن الاهتمام بهذا الموضوع قد قل. ظهرت خلالها أبحاث قيمة مثل بحث الراهب بدرو لونغاس "حياة الموريسكيين الدينية"(*). ولكن لم يظهر أى كتاب شامل عن حياتهم من جميع نواحيها، وربما اعتقد الباحثون أن هذا المجال قد تمت دراسته، لكن بلا شك منْ يعتقد هذا فهو مخطئ، بل لا يزال كثير من المجالات فى حياة هذا الشعب معروفة بطريقة مشوهة أو مجهولة تماماً .

وفى الخمسينيات أعيد النظر باهتمام كبير جدا فى موضوع اليهود المرتدين، وقد بدا للكثيرين كما لو كان اكتشافًا حقيقيا، وبخاصة عند معرفة انتماء عدد من كبار شخصياتنا الأدبية لتلك الأقلية، فقد كان ذلك مفاجأة كبرى، وفى بعض الحالات (مثل لويس بيبس) Luis Vives كان له وقع القنبلة. أما فى حالة الأقلية الموريسكية فلم يكن من الممكن انتظار مثل هذه المفاجآت، لهذا كان يعاد دراسَة حياتهم من زاوية (علم الاجتماع الجماهيرى)، وأصبح لها حضور وبخاصة فى بحث توليوهالبرين حول موريسكيى فالنسيا، وكذلك فى الكتاب العام "جغرافية إسبانيا الموريسكية" لمؤلفه هنرى لابيرى، وهو كتاب أساسى، ومن بين حسناته أنه حدد بدقة عدد المطرودين الذى بولغ فيه كثيراً فى السابق .

وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٩٥٩، وسبقه بعامين كتاب كاروباروخا "موريسكيو مملكة غرناطة"(**) وقد وصف براوديل هذا الكتاب بقوله : " إنه كتاب رائع، وهو واحد من أجمل الكتب فى التاريخ والأنثربولوجيا الثقافية التى أعرفها حتى الآن ". ومنذ ذلك التاريخ وحركة الأبحاث حول الموريسكيين قد تزايدت. ومن الصعب هنا أن نذكر إنتاج مائة باحث تقريبًا ممن اهتموا بهذا الموضوع وستظهر أسماؤهم فى صفحات هذا الكتاب. وقد يكون من الظلم أن ننسى خوان ريغلاء، الذى مات فى قمة نضجه كاتبًا ومعلمًا، والذى أنشأ خلال وجوده فى جامعة فالنسيا مدرسة بها طلاب لامعون يتركز

(*) ربما تصدر الترجمة العربية لهذا الكتاب قريباً ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة. (المراجع)

(**) ترجمنا هذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢"، وصدر عن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ .(المراجع)

اهتمامهم حول هذا الموضوع. وهناك مؤشر آخر حول الاهتمام بهذا الموضوع ظهر فى عشرات الأبحاث التى قدمت فى المؤتمر الأول لتاريخ الأندلس .

ومن المنطقى أن تقدم كل من أندلوثيا وفالنسيا ومرسية وأراغون إمكانيات أكثر للبحث، وذلك بسبب الثروة التى تحتويها الأرشيفات الموجودة بها من مواد حول هذا الموضوع وللآثار الباقية التى تركها الموريسكيون بها، لكن لا يعنى ذلك أن مدنًا وأقاليم أخرى ظلت بعيدة عن تقدم هذه الدراسات، وبقى الكثير للدراسة والبحث. فعلى سبيل المثال إذا كان وجود الموريسكيين فى بيادوليد (بلد الوليد) قد دلل عليه بصورة موفقة الباحث ابن نصار فلا يوجد مثل ذلك بالنسبة لطليطلة .

والإسهام الذى وصل إلينا من مجالات غير تأريخية ليس مهمًا، لكنه يعين كثيرًا على توضيح الوجود الموريسكى، ومن المستحيل فهمه دون دراسة أبحاث المؤرخين للدين (لونغاس، كارداياك) وكذلك الأبحاث العلمية، كما يوضح هذا باختصار كتاب لويس غارثيا بايستير حول الطب الموريسكى، وأعمال النقاد الأدبية مثل (سوليداد كراسكو وفرانثيسكو ماركيث بيانويبا)، وخاصة هذا الأخير فى بحثه عن (موريسكيى ريكوتى)، حيث قدم أحد التحاليل الأكثر دقة وعمقًا حول موضوع الموريسكيين بكامله .

ولهذا ففى مثل هذه الظروف قد يكون من المفيد تجميع نتائج كل هذه الأبحاث مضافًا إليها نتائجنا الخاصة، وبالطبع فنحن لا ندَّعى أننا قد عالجنا الموضوع بالكامل، فهناك كثير من المجالات استبعدناها من بحثنا؛ إما لكونها موضوعات متخصصة وإما لكونها مشهورة جدا. ونتمنى أن يكون كتابنا مفيدًا، سواءً للقراء العاديين أم لباحثى التاريخ، وسنقبل من حيث المبدأ النقد الموجه والإضافات التى يمكن أن يثيرها .

ونحن نثق بأنه يمكن إكمال بعض موضوعات الكتاب عن طريق نشر المقالات والأبحاث فى نقاط لم نعالجها، أو عالجناها بطريقة غير كافية. أما تبادل المعلومات بين المؤلفين فقد كان مستمرا ولهذا يصعب الإشارة إليه بصورة دقيقة توضح إسهام كل واحد منهما. وقد يمكن الإشارة إلى ذلك بصورة تقريبية فى هذا الكتاب. فالأبحاث

الواردة في الفصول: الأول، والثاني، والثالث، والرابع، والخامس، والسابع، من تأليف السيد برنارد فنسنت، والباقي للسيد أنطونيو دومينغيث أورتيث، بالإضافة إلى ترجمة الأبحاث الأخرى من الفرنسية إلى الإسبانية .

الفصل الأول

من التنصُّر إلى الثورة (١٥٠٠ - ١٥٦٨م)

هناك إجماع عام حول فترات ثلاث من الصراع بين المسيحيين والموريسكيين فى إسبانيا، وتلك الفترات يمكن ربطها بثلاثة أحداث مهمة هى: تنصير مسلمى قشتالة فى الفترة (١٥٠٠ - ١٥٠٢م) ، وثورة مسلمى غرناطة (١٥٦٨ - ١٥٧٠م) ، وأخيراً (١٦٠٩ - ١٦١٤) حيث كان الطرد النهائى .

ونحن لن نقوم بمناقشة ذلك التقسيم الزمنى؛ حيث أحدث كل تاريخ مما ذكر آنفًا تغيراً جذريًا فى العلاقات بين الطائفتين المتصارعتين، فالتاريخ الأول يمثل النهاية الرسمية لسياسة التعايش التى كانت موجودة فى العصور الوسطى، وأما الثانى فقد مثل خيبة الآمال فى إيجاد مجرد تفاهم متبادل بين الفئتين، بينما يمثل الثالث انفراد الكاثوليكية بالنفوذ فى إسبانيا . ومن خلال تلك التواريخ نلاحظ التحول من الثنائية (أى وجود جماعتين) إلى الوحدة .

ويبدو جفاف هذا التقسيم بوضوح كبير إذا اعتبرنا أن الأحداث كانت متحركة بقوة دفع تاريخية، فإنه إلى جانب وجود الجماعتين المسيحية والمسلمة كلتيهما وجوداً لا يخلو من أحداث مؤسفة، وجد الصراع الذى امتد أكثر من قرن، وانتهى بتصفية كاملة للموريسكيين. وبين محاولات الاحتواء الأولى التى قامت بها الأغلبية وبين ثورة الأقلية توجد فترة زمنية تصل إلى سبعين عامًا. بينما مدة الصراع من هذه الثورة حتى الطرد العام لم تستغرق إلا أربعين عامًا . ومما لا شك فيه أن التطور كان أكثر تعقيداً مما يبدو للنظرة الأولى، ومن العجلة التصور أن الفئتين كانتا فى مواجهة مستمرة مع بعضهما .

وكذلك من الخطأ أيضًا معالجة مشكلة الموريسكيين بصورة منفصلة واعتبارها الوحيدة التى عانت منها إسبانيا فى القرن السادس عشر، ولهذا فإلى جانب الأحداث التاريخية الثلاثة الرئيسية المذكورة سابقًا هناك تواريخ أخرى ليست أقل أهمية مما ذكر، منها عام ١٥٢٦م حيث كان ارتداد موريسكيي ولاية أراغون وإقامة كارلوس الخامس فى غرناطة، ومنها عاما ١٥٥٥ و ١٥٥٦ حيث تجدد نشاط المسلمين فى البحر المتوسط من ناحية الغرب، وتنازل الإمبراطور عن العرش، ومنها عام ١٥٨٢م حيث كان اجتماع لشبونة الذى صدر فيه قرار يقضى بطرد الموريسكيين، ومنها عام ١٥٩٨م حيث تم عقد معاهدة سلام بين إسبانيا وفرنسا، وكانت وفاة فيليبى الثانى. هذه التواريخ السبعة التى ذكرناها تقسم القرن إلى ست وحدات تعطينا فكرة عن مدى تعقد مأساة الموريسكيين .

إن ألفاظًا جـــدت فى ســـاحة الـعـــلاقات الاجـتمـــاعية مثل: مسيحى جديد، أو موريسكى، لم تكن تُستعمل قبل (يناير) عام ١٥٠٠م، حيث بدأ حينذاك التنصير الجماعى للمسلمين. لكن هذا لم يحدث إلا نتيجة نهائية لمرحلة طويلة تطور خلالها الوضع السياسى للأشخاص أنفسهم (المسلمين) من مسلم إلى مدجن، ثم إلى موريسكى .

كان المسلم والمسيحى يتعايشان منذ زمن طويل فى إسبانيا، وكان كل واحد منهما سيداً فى أرضه، ويتعامل مع الآخر على قدم المساواة .. ولكن منذ الثانى من يناير عام ١٤٩٢م – وهو تاريخ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة – أصبح المسلم فى أى مكان من إسبانيا مهزوماً، وإن كان الظاهر من الناحية القانونية أنه مازال يتمتع بنفس حقوق المواطنة ويمكن الحديث عن وجود مزدوج للجماعتين. لكن فى الحياة الواقعية العامة بدأ ضغط المنتصرين وقهرهم يشتد يوماً بعد يوم، حتى وصل إلى التفكير فى إنهاء وجود الأقلية نفسها. أما النصوص القانونية التى كانت تعكس بتسامحها ميراث المعايشة السلمية والاحترام المتبادل، فقد انتُهكت يومًا بعد يوم بتعارض أصم

بين الجماعتين(*) اللتين كانتا تبحثان عن أى فرصة للتعبير عن نفسها بعصبية وعنف. ودلالة على هذا ما سجلته وثائق بلدية غرناطة حيث تم إحالة شئون المدينة عام ١٤٩٢م إلى لجنة مختلطة. وفى ٣ أكتوبر عام ١٤٩٧ سجل الحاضرون امتناع الفريق المسلم عن الحضور. وقد سجل تاريخ مملكة غرناطة هذا الحدث فى الفترة بين عامى ١٤٩٢ و ١٥٠٠م[1]، ولائحة المدجنين التى كانت تنطبق على كل المسلمين الموجودين فى إسبانيا، تحولت إلى شىء غير مناسب لزمانه .

وفى الفصل الأخير من حرب الاسترداد بين عامى ١٤٨٤ و ١٤٩٢م، لم يحدث قتال إلا فى التاريخ الأخير (مثل ما حدث فى مَلَقةَ MALAGA حيث تم تسلمها دون شروط) وعقدت مواثيق بين منتصرين ومهزومين. وقد أبرز ميغيل أ. لاديرو ثلاثة أنواع من المواثيق كانت النقاط المشتركة فيما بينها هى الاعتراف بالحرية الشخصية، والإبقاء على الهيكل الاجتماعى والتنظيم الدينى والقانونى والثقافى للمهزومين[2] .. وتتميز الاتفاقيات التى وقعت عام ١٤٨٧م بإمكانية محافظة المسلمين على أموالهم كلها .. وآخر المواثيق كانت عام ١٤٩١م، وقد منحت الأسرى الحرية بطريقة تلقائية. وهكذا يتضح أن الكرم فى منح الحقوق، وهى السمة العامة لتلك المواثيق، كان يتزايد مع مرور الوقت واقتراب نهاية الحروب .

ولكن هذه النوايا الحسنة التى تميز المواثيق النظرية لم تصمد طويلاً أمام الواقع، فبعضها لم يطبق مطلقًا: مثل السماح للمسلمين بحمل السلاح الذى حُرِّمَ عليهم بسرعة، وكذلك حق شراء الأراضى حُرِّمَ على مسلمى غرناطة؛ وذلك تسهيلاً لتوطين النصارى فى المنطقة. ولعل أكثر ذلك خطورة ما حدث فى عامى١٤٩٥، و١٤٩٩م حيث فرض الملك ضرائب جديدة على المسلمين فقط[3]، وقد أُصيب المسلمون بخيبة أمل، وهم الذين توقعوا نظامًا ضرائبيا أفضل من النظام الذى كان مطبقًا فى الماضى .

(*) لا ندرى كيف تستطيع الأقلية الموريسكية انتهاك اتفاقية ترمى إلى التعايش السلمى مع المسيحيين الإسبان. (المراجع)

وقد حاولت السلطات بصفة عامة الالتزام بالمواثيق، لكن التعديلات التى أدخلت عليها توضح إلى أى مدى كانت المعايشة صعبة، ولم تصمد تلك المعايشة وقتًا طويلاً أمام الواقع الجائر. ففى ١٨ ديسمبر١٤٩٩م ثار مدجنو(*) البيازين فى غرناطة ضد عملية التنصير الإجبارى التى كان رمزًا لها الكاردينال سيثنيروس الذى وصل إلى تلك المدينة فى أكتوبر من العام نفسه ولا يعرف ما إذا كانت حملته موجهة إلى المسيحيين أو إلى أبنائهم من الذين كانوا قد أسلموا لردهم عن دينهم الجديد أو إلى المسلمين كافة، والجدير بالذكر أن طريقته فى التنصير كانت تتناقض مع الطريقة التى اتبعها أسقف غرناطة الأول الراهب إيرناندو دى تالابيرا التى كانت تعتمد على الصبر والإقناع على مهل. *استسلم الثائرون* بعد ثلاثة أيام مقابل عفو يخص كل منْ يتنصر .

وإذا كان الغرناطيون قد عادوا إلى الهدوء، فسرعان ما اندلعت الثورة فى أماكن أخرى فى المملكة. فى منطقة البشرات **Alpujarra** عام ١٥٠٠م، استولى الثائرون بقيادة إبراهيم بن أمية على العديد من الحصون الساحلية، واستمرت العمليات لمدة ثلاثة أشهر وانتهت باستيلاء المسيحيين على لانخارون **LANJARON** فى الغرب وأندراكس **ANDARAX** فى الشرق، ثم اندلعت ثورة أخرى فى ألميرية، وصمد الثائرون فى بيليفيكى وينخار حتى يناير عام ١٥٠١م، وفى أماكن أخرى حتى منتصف العام. أما الثورة الرابعة والأخيرة فقد كان مسرحها جبال روندا، ودارت منذ يناير إلى مايو فى العام نفسه ، وحضر أعمالها الحربية الملك فرناندو شخصيا بعد هزيمة منكرة للمسيحيين، ومات فيها السيد ألفونسو دى أغيلار فى مارس، ثم وضع الملك حداً للعمليات الحربية بعد أن تحول المدجنون جماعات إلى النصرانية بعد أن ساد بينهم الرعب؛ وذلك لإنقاذ أرواحهم وللحصول على شروط أفضل للتسليم[٤] .

(*) هذه أول مرة يتحدث فيها أحد عن " مدجنى " غرناطة، فالمدجن هو المسلم المقيم فى بلد يحكمه المسيحيون قبل عام ١٤٩٢، أما بعد هذا التاريخ فقد تحول كل مسلمى الأندلس إلى موريسكيين أى مسيحيين فى الظاهر ومسلمين فى الخفاء. (المراجع)

أما مدجنو المنطقة الباقية من قشتالة **Castilla** فقد كانوا يختلفون بالكامل عن سكان أندلوثيا الشرقية **Andalucia Oriental**، فهم يعيشون حياة بلا تاريخ فى أحياء معزولة تحت الحماية الملكية تم تخصيصها لهم، وكانوا مجبرين على حمل علامات خاصة فى أزيائهم. وعلى الرغم من هذه الممارسات وغيرها من وسائل الإذلال العنصرية التى اتخذت ضدهم خلال القرن الخامس عشر فإن ذلك لم يكن يصل فى قسوته إلى درجة التنصير الإجبارى، حيث إن أحداث غرناطة جعلت منهم ضحايا لأحداث لم يشاركوا فيها على الإطلاق. حيث صدر فى ١٢ فبراير ١٥٠٢ قانون ملكى يخيرهم بين التنصير الإجبارى أو النفى، فتنصروا جميعًا(٥) .

لقد كان التنصير فى تلك الأحوال نقطة بداية، وكانت السلطة على يقين بأنه ليس من الممكن أن يتحول الموريسكيون إلى نصارى حقيقيين بسرعة بين يوم وليلة. ولهذا ففى السنوات التالية أى حتى عام ١٥١٠م اتبعت سياسة خاصة بتنفيذ الوسائل الضرورية بغية الوصول بهم إلى تنصير حقيقى صريح، فأنشئت بصورة نهائية شبكة من الكنائس والإرساليات، وحتى عام ١٥٠٦ كان يتم تعميد صبيان فى منطقة البشرات. ومما يكشف عن الوضع النفسى الذى كان سائدًا بين المتنصرين فى تلك الفترة تلك المواثيق التى وُقِّعت بين الدولة ومجموعات من المسلمين فى مملكة غرناطة مثل طابيرناس **Tabernas** فى ١٨سبتمبر عام ١٥٠٠ وباثا **Baza** فى ٣٠ من الشهر نفسه والسنة نفسها ، وأويسكار **Huescar** فى ٢٦ فبراير عام ١٥٠١م(٦). فى تلك المواثيق يتمنى الموقعون أن يندرج المسيحيون الجدد فى النظام العام (أى أن يحصلوا على كل الحقوق) وأن يلغى النظام الضريبى الذى كان مطبقًا فى فترة حكم بنى نصر، بحيث يدفع الموريسكيون الضرائب نفسها التى يدفعها المسيحيون الآخرون، وأن تُمنح لهم الإعفاءات نفسها، وأن يشتركوا فى إدارة الشئون المحلية، وأن لا يقرر شىء جديد فى الاستغلال الجماعى للمراعى الخاصة بهم، وأن يُعاقب النصارى القدماء الذين يسخرون من الموريسكيين فينادونهم بلفظ مسلمين. وقد صدرت مواد قانونية فى ذلك تستحق اهتمامًا أكبر، وتبدو تافهة عند أول وهلة: "على أن يكون للموريسكيين قصّابوهم وسماكوهم وأن يذبحوا حيواناتهم تبعًا لأحكام المسيحيين وطريقتهم وليس بطريقة أخرى"،

"وأن لا يُضغط عليهم حتى يتخلوا هم ونساؤهم عن ثيابهم الإسلامية القديمة إلى أن تُبلى ويستبدلوها بثياب جديدة مناسبة"، "وألا يُمنعوا من استخدام الحمام الآن وفى أى وقت آخر" .

هذه المواد القانونية لا تخلو من غموض، ولقد اعترف فيها للموريسكيين ببعض الميزات الثقافية التى يُنتظر اندثارها بمرور الوقت. كما لم يحدد موعد معين (استهلاك الملابس يمثل تعبيراً غامضاً) ولم ينص على عقوبة للمخالفين .

هذه المواثيق لا تختلف كثيراً عن مواثيق عام ١٤٩٠م إلا فى الناحية الدينية الصرفة؛ حيث يبدو أنه الموضوع الأكثر أهمية، ولهذا ففى ١٢ أكتوبر١٥٠١ صدر أمر يقضى بإحراق كل الكتب التى لها علاقة بالإسلام. وفى هذا الخط نفسه صدرت تعليمات بشأن ذبح الحيوانات حيث اعتبر أمراً دينيا تم تحريمه فى اتفاقيات عامى ١٥٠٠ و ١٥٠١م(٧). بينما لم تعتبر الحمامات والثياب الخاصة أمراً دينيا على الرغم من اختلافها عن الأخرى الخاصة بالمسيحيين، وهكذا فرقت هذه الوثائق بين ما هو دينى وما هو ثقافى. وهذا يعنى أن سياسة الإدماج كانت تعالج الجانب الدينى فقط. ومن المحتمل أن روح نصوص ومواثيق تسليم المدن لم تُنس بالكامل بعد، وبهذه الطريقة أعلنت السلطات ثقتها الساذجة فى جدوى الوسائل المتخذة للوصول بالمسلمين إلى تنصير حقيقى وتبين عدم فهم السلطات العميق لطبيعة الحقائق الثقافية حيث كان الموريسكى فى نظرهم يعتبر مسيحياً سيئ التدين مؤقتاً .

وعلى الرغم من ذلك تُعتبر السنوات العشر التالية أى ما بين ١٥٠٠ و ١٥١٠م هى السنوات التى عاصرت تغيراً جذريا فى طريقة إدراك المشكلة وتصورها.. حيث ترجم ذلك فى شكل مجموعة من الأوامر الملكية التى صدرت ابتداء من عام ١٥١١م. فلقد فشلت حملات التنصير فشلاً ذريعًا وثبت خطأ اعتقاد أن المسلمين غير القابلين للتنصير قد رُحِّلُوا جماعات، وأنه قد بقى فقط فى مملكة غرناطة الذين يميلون إلى تقبل المسيحية بسرعة، وأدركت السلطات أن الإسلام إلى جانب أنه من المستحيل استئصاله، يبدو فى الظاهر أنه قد قلل من أهميتها فى البداية. ومن ناحية أخرى كان

أكثر الموريسكيين يعتقدون أنهم بمجرد تعميدهم سيُتركون وشأنهم بسلام، لكن الإجراءات التى اتخذت فى الفترة (١٥٠٠ – ١٥٠٢م) أظهرت أنهم كانوا على خطأ كبير. إن الخروج الجماعى لبعض الموريسكيين ورحيلهم عن البلاد فى تلك الفترة يعبر عن خيبة الأمل التى عانوها، وكذلك عن عُمْق جذور الثقافة الإسلامية والإيمان، كما يعبر عن عدم إمكانية الجمع بين ثقافتين فى شخصية واحدة[٨] .. وكانت المساعدة التى قدمها الموريسكيون للحملات الجريئة والمتكررة للقراصنة من البربر علامة أخرى على معارضتهم ونقمتهم وكانت سببًا فى قلق كبير، كما استمرت أعمال النهب[٩]. وبعد مراجعة مطردة تم التوصل لتعريف جديد للحالة الموريسكية، أكثر شمولاً من السابقة .

وفى الفترة بين ١٥١١ و١٥٢٦م تراكمت مجموعة أخرى من القوانين التى إذا نظر إليها بصورة منعزلة تبدو قليلة الأهمية (وهذا ما يفسر الاهتمام القليل الذى وجه إليها) لكننا عند تجميعها نجد أنها تمثل ميزات عامة لسياسة تتأكد على مر الأيام وإن كنا لا نعرف دائمًا هوية واضعيها. أول هذه النصوص يرجع إلى عام ١٥٠٨م حيث يشير نونيث مولاى فى مذكراته الشهيرة إلى لائحة ملكية تحدد استعمال ملابس الموريسكيين[١٠] ومازال النص الأصلى لها مجهولاً. كما صدرت خمس وثائق عام ١٥١١م إحداها فى ٢٠مايو تحدد استعمال وشكل بعض الأدوات كالسكاكين التى يخشى استعمالها كأسلحة، وأخرى فى ١٠ يونيو تدور حول الكتب العربية، بالإضافة إلى ثلاثة قرارات أخرى بشأن ذبح الحيوانات، وتحديد ولى الشخص من الرجال وولى الشخص من النساء[١١] عند التعميد والزواج[*] .

هذه الإجراءات كانت نتيجة لسياسة مدروسة خططت لها السلطات الرسمية التى قررت استئصال خصائص الثقافة الموريسكية كلها. ولما كان تطبيقها فى البداية

(*) لا ندرى هل يشير المؤلف إلى نص القرارات أو إلى نص مذكرة نونيث مولاى، فالتعبير الإسبانى يحتمل الأمرين. عمومًا فإن مذكرة نونيث مولاى قد حذفت منها فقرات كثيرة كما يؤكد خوليو كارو باروخا. انظر "مسلمو غرناطة..." ترجمة جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

محدوداً فقد صدرت بها قرارات مرة أخرى فى فبراير عام ١٥١٢م، كما تم التركيز على طريقة الذبح الإسلامية والثياب، كما حرم على الموريسكيين العمل بمهنة سك النقود، وكان الهدف من ذلك منع المساعدة التى يقدمونها للقراصنة من البربر، وقد صدرت قوانين مكملة لذلك فى ٢٩ يوليو عام ١٥١٣ و مايو عام ١٥٢٠م(١٢) .

وهكذا يمكننا أن نستنتج " أن تكرار هذه اللوائح القانونية يمكن أن يُفهم على أنه أمر روتينى أو أنه يدل على عجز السلطات عن تحقيق تطبيق كامل، ولكن الحقيقة أن هذا الفهم يُعتبر خاطئًا تمامًا لأن كل نص من هذه اللوائح كان نتيجة لتوترات مستمرة. فالموريسكيون يحاولون بكل الطرق إبعاد الخطر الذى تمثله تلك اللوائح حيث كانوا يرسلون لجانًا إلى أعلى السلطات تشكو الابتزاز والجور اللذين كانوا ضحية لهما، ويقترحون دفع غرامات تتيح لهم عند قبولها كسب الوقت لكن الحصار كان يضيق قليلاً قليلاً، فمن نص واحد منعزل إلى مجموعة من اللوائح ثم بعد ذلك برنامج متكامل يهدف إلى تدمير ثقافى كامل فصارت سياسة الاحتواء أكثر شمولاً وتناسقًا .

إن نقطة التحول فى التطور الذى بدأ فى ١٥٠١، ١٥٠٢م حدثت فى عام ١٥٢٦ عندما أعلنت نتائج وصلت إليها لجنة انعقدت فى غرناطة بقرار ملكى وذلك فى ٧ ديسمبر(١٣). وهذه الوثيقة التى صدرت عن اللجنة المذكورة كانت تميل إلى إزالة كل خصائص الموريسكيين وسماتهم، فقد حرم أو حدد استخدام اللغة العربية كتابة أو مشافهة. وكذلك الملابس مثل الملحفة(١٤) والتعاويذ وغير ذلك من الرقى أو الحلى أو أى رمز له صلة بالدين الإسلامى مثل الختان أو امتلاك العبيد والأسلحة أو الطريقة الإسلامية لذبح الحيوانات، وقد تعرضت لتنقلات السكان. أما عقود الزواج فقد كانت موضع مراقبة خاصة. ولكى تطبق هذه القوانين بصورة حازمة صدر قرار يقضى بإنشاء محكمة التفتيش فى غرناطة .

يبدو للناظر من أول وهلة الطابع الأساسى لهذه الوثيقة حيث حوت قائمة مطولة بعادات تلك الأقلية ستُستخدم خلال وقت طويل كحجر المحك ووسيلة تعرف جديدة للانتماء إلى الإسلام فى إسبانيا، فلم يعد المسلم هو ذلك الذى لا ينتمى للدين

المسيحى فقط، وإنما هو ذلك الذى يحتفظ بأى عادة مهما كانت صغيرة تكشف عن أصله. إن المنتصرين المسيحيين الذين اهتموا فى البداية بالناحية الدينية فقط، وتسامحوا فى الجانب الثقافى والعادات، اكتشفوا أهمية تلك المظاهر، ولذلك فقد كتبوا قائمة بها من أجل استئصالها بالكامل. ففى البداية كانوا يرفضون الكافر، أما الآن فيرفضون الآخر .

وكم كانت سياسة الاستيعاب السريعة لونًا من المثالية المفرطة، فقد تم إهمالها بسرعة وسوف يقسِّم المجتمع من الآن فصاعداً إلى مسيحيين قدامى ومسيحيين جدد أو بصورة أوضح بين مسيحيين حقيقيين ومسيحيين مزيفين. كذلك فإن وثائق عام١٥٠١م - التى كانت تقر المساواة الضريبية بين كل الرعايا - لم تستمر طويلاً، ففى عام ١٥١٠م فُرِضَ نظام ضريبى معقد وشائك يُسمى الفارضة وُضِعَ على الموريسكيين فقط. تنقسم هذه الضريبة إلى أربعة أنواع. الثلاثة الأول أو ما يُعرف بالفارضة الكبرى تشمل: ضريبة عادية سنوية قيمتها ٢١ ألف دوقية، وأخرى غير عادية وقيمتها ٥ آلاف دوقية، وأخرى قيمتها ١٠ آلاف وتُخصص لدفع تكاليف إنشاء قصر الملك كارلوس الخامس فى غرناطة. أما الفارضة الصغرى وتُسمى أيضًا " فارضة البحر"، وكان يشارك فى دفعها[١٥] المسيحيون القدامى، فقد كانت تُستخدم لدفع رواتب حرس السواحل. وهكذا ففى كل المجالات كان يعامل الموريسكى كشخص مختلف .

* * *

لم تكن الإجراءات المتخذة نحو الموريسكيين القشتاليين لتمر دون أن تلفت انتباه المدجنين فى مملكة أراغون. فبين عامى ١٥٠٢ و١٥٢٠م كان المدجنون الأراغونيون يخشون صدور قرار بطردهم أو تنصيرهم إجباريا، ولقد تدخل سادتهم النبلاء من المسيحيين أمام المجلس البرلمانى لمدينة برشلونة للحصول على ضمانات بشأن إبقائهم، وذلك فى عام ١٥٠٣م، أما فى عام ١٥١٧م فلقد اضطر الملك كارلوس الأول إلى تكذيب ما يُنسب إليه من نية بطردهم[١٦]. ولكن - كما كان يحدث فى مملكة غرناطة - فقد

كانت الخصومة بين النصارى والموريسكيين على المستوى الشعبى على أشدها فى أراغون. وقد أسهمت حركة الجماعات فى تفجير الموقف. ففى عام ١٥٠٩م سمح لرجال الجماعات حمل السلاح لرد اعتداءات القراصنة الأتراك، ولقد أفصح هؤلاء الرجال عن عدائهم للمدجنين بصورة مكررة وعنيفة: فعندما اغتال المسلمون اثنين من السود، فى ٢٠مايو عام ١٥٢١م، كان رد الفعل عنيفًا واضطرت السلطات إلى إرسال قوات كبيرة للحد من انتقام المسيحيين. فى يونيو قام المسيحيون بمهاجمة بعض قرى المدجنين، وكذلك فى ١٥يوليو هاجم ٤٠٠ مسلح قرية موربيدرو. وفى أغسطس أُجبر ١٥٠٠٠ مسلم على التنصير الإجبارى وبخاصة فى قرية بولوب التى حاصرها أحد زعماء رجال النقابات بيثنتى بيريس. وفى مارس عام ١٥٢٢م قام المسيحيون الثائرون بقيادة الزعيم الغامض بالإغارة على بعض القرى المسلمة مثل البيريكى(١٧) والقصير، وبعد نهاية حركة النقابات أصبحت مشكلة المدجنين مطروحة بكل خطورتها فلقد عاد هؤلاء لإيمانهم القديم. تُرى ما موقف الحكومة أمام هذه الأحداث ؟

فى مارس عام ١٥٢٣م تمت معالجة هذا الموضوع من خلال مراسلات محاكم التفتيش، حيث حاول المفتش العام عقد اجتماع عام ١٥٢٤م من أجل معالجة موضوع المدجنين المتنصرين فى عام ١٥٢١م. وبعد تأجيل ذلك الاجتماع عدة مرات افتُتحت أولى جلساته فى ١٩فبراير عام ١٥٢٥، وامتدت مداولاته حتى ٢٢ يونية من العام نفسه. وكانت النتيجة النهائية لذلك هى إقرار التعميد واعتباره سليمًا(*)، وأن الذين فعلوه ينبغى أن يعيشوا مسيحيين. ونتيجة لذلك عين مسئولون لإعادة الإيمان إلى الموريسكيين فى الجانب الجنوبى من مملكة فالنسيا. ولقد تبين أن المهمة صعبة حيث قاوم ذلك بعض المسلمين فى مرتفعات بيرنيا فى أليكانتى **Alicante** ولما أحسوا بعدم جدوى حركتهم انصاعوا للأمر، وهكذا تمت الخطوة الأولى الحاسمة فى الطريق(١٨) .

(*) حدث التعميد بشكل إجبارى وجماعى. وكان زعماء الجماعات يهدفون من وراء تعميد المسلمين إلحاق أضرار بالنبلاء، فعندما يتحول المسلم إلى مسيحى فلن يدفع ضرائب باهظة للنبلاء. لهذا كانت شرعية ذلك التعميد محل شك. (المراجع)

أما المدجنون فى الأماكن الأخرى من مملكة أراغون فقد تمتعوا بهدنة صغيرة فقط، فلقد حاول كارلوس الخامس تغيير موقف المقاومة الذى أبداه بعض النبلاء دفاعًا عن رعاياهم من الموريسكيين؛ فقد كان هؤلاء يفضلون لأسباب نفسية ومادية بقاء رعاياهم على دينهم. لكنهم سرعان ما حُرموا حق تغيير مكان إقامتهم ونُظمت حملة جديدة لتنصيرهم، وفى النهاية صدر أمر يقضى بتنصيرهم وذلك فى ٨ ديسمبر عام ١٥٢٥م. لقد وصل إلى بلاط الملك رسولان مسلمان فلم يستطيعا أن يغيرا شيئًا رئيسيا فى الموضوع الرئيسى الخاص بفرض التنصير عليهم، فقد كان ذلك أمرًا لا مفر منه، لكنهم حصلوا على بعض التسهيلات عند نهاية المحادثات فى يناير عام ١٥٢٦م مقابل دفع ٤٠٠٠٠ ألف دوقية (والمبلغ يساوى سبعين مليون بيزيتا إسبانية). وتمكنوا بذلك من منع محاكم التفتيش من التدخل فى شئونهم (يُلاحظ أن القرار غامض)، وقد سمح لهم أيضًا باستعمال لغتهم لمدة عشرة أعوام. وكذلك ثيابهم واعترف بعقود الزواج التى أجريت، واعترف لهم بمقابر خاصة وأن يُدفع للفقهاء الذين تنصروا راتب من أوقاف المساجد التى صودرت لصالح الكنيسة، وأقرت المساواة بينهم وبين المسيحيين القدامى فى الضرائب .

لكن هذا الإنفاق الذى ظل من الناحية الرسمية سريا حتى عام ١٥٢٨م لم يحل كل المشاكل. فلقد أثبت كل من ثيسار وغاراثيا كراثيل أن المبعوثين المسلمين كانا من الأغنياء ومن المعتدلين سياسيا، ومن ناحية أخرى فإن بعض نبلاء المسلمين مثل هاثينتلا (عمدة قرية بال دى شلبا)، وكذلك عبدالله بن عامر، حصلا من الملك على هدايا كبيرة نتيجة تعاونهم فى عملية التنصير. لكن الطبقات العامة لم تكن غنية. وإذا كان الأراغونيون قد بقوا هادئين فإن بعض مناطق فالنسيا قد اشتعلت بالثورات. وعلى الرغم من قصور أعمالهم الحربية لافتقادهم الجيش النظامى فإن مقاومتهم كانت شرسة، مثل ما حدث فى بناغواثيل وإسبادان التى لجأ إليها عدد كبير من سكان وادى بالنثيا Palancia وكانوا مسلمين مخلصين. إن الصراع بين تلك الجماعات غير المنضبطة والقوات النظامية كان إلى حد بعيد غير متكافئ لهذا لم تستمر الثورات وقتًا طويلاً. ففى الموناثيد استسلموا فى ١٤فبراير عام ١٥٢٦م، وفى بناغواثيل فى ١٧مارس، أما فى إسبادان فقد قاوموا حتى ١٨ سبتمبر، وواصلوا مقاومتهم فى مويلا حتى ١٠ أكتوبر، وكان ذلك يمثل البؤرة الأخيرة للثورة[١٩] .

في نهاية هذا العام، لم يبق مسلمون في الأرض الإسبانية من الناحية النظرية على الأقل(*). والحقيقة فإن الفترة الطويلة التي مضت، وهي ربع قرن تقريباً تحققت خلالها الوحدة الدينية، كذلك استطاعت السلطات أن تحدد المناهضين والمقاومين لسياستها التنصيرية وذلك من خلال تفاصيل دقيقة لسلوكهم، كما تم التوصل لطرائق مؤثرة للوصول إلى تنصير حقيقي بالإضافة إلى إعداد قائمة طويلة بالمحرمات، تحولت إلى سيف مصلت على رقاب الموريسكيين. ومنذ ذلك الحين اختفت من الناحية النظرية كل ألوان الغموض وأصبح وجود تلك الأقلية نفسها موضع نقاش. وأخذت المشكلة مظهرين: قهراً مسيحيا، ومقاومة موريسكية، وكان لدى كلا الطرفين إمكانياته التي قد تؤدي إلى تجميد الإجراءات المتخذة أو الصراع المفتوح والحرب الشاملة " .

سجل عام ١٥٢٦م توقفًا ملحوظًا لعملية القهر ضد الموريسكيين. وكان لذلك عدد من الأسباب أهمها: إمكانية الاندماج بين الفئتين والنتائج الكثيرة لذلك، والتي بدت مشجعة أمام الحكام. ومن ناحية أخرى فإن التنصير الرسمي للمدجنين أرضى جميع الأطراف المتدخلة في الصراع في مملكة أراغون، حيث كان مصحوباً ببعض مظاهر الإجراءات الرحيمة؛ من أجل تهدئة النبلاء الخائفين على مصالحهم[٢٠]. ولم يكن هذا الموقف يختلف عن الوضع في غرناطة حيث جُمِّد إلى حين قرار ٧ ديسمبر لعام ١٥٢٦م وتوقف كل ما يقضي بتحريم عادات الموريسكيين. وفي يونيو عام ١٥٢٦م وصل كارلوس الخامس إلى غرناطة وبقي فيها حتى ديسمبر، وقد استقبل الملك ممثلي الطرفين؛ مما ساعده على فهم كل أبعاد المشكلة. ورغبة منه في استكمال دراسة المشكلة قام بتكليف كل من: غاسبار دي أبالوس، وأنطونيو دي غيبارا، وخوان دي كنتانا والقسيسين: فرانثيسكو دي أوتيل، وبدرو لوبيث، وذلك لإجراء تحقيق، وقد أنهوا مهمتهم في شهر سبتمبر[٢١]. وكانت النتائج التي وصلوا إليها تدعو للأسف وخلاصتها أن الموريسكيين كانوا يعانون من ابتزاز مستمر ومتعدد من جانب

(*) ليس بوسعنا أن نتفق مع المؤلف في هذه الجملة التي تتجاهل أن الإسلام ظل حيا في إسبانيا حتى لحظة الطرد نفسها . أما الناحية النظرية فهي شيء آخر. (المراجع)

المسيحيين، فهم يُشتمون ويُستغلون ويُنزع الحجاب عن نسائهم ... إلخ. وفى هذه الظروف اجتمع المجلس الملكى فى غرناطة، ورأى الجميع ضرورة حصر الإجراءات الممنوعة وتعدادها، كما أنه ركز على تحديد إلى أى مدى يُعتبر الموريسكيون غير مسئولين عن كفرهم. وفى ١٤ ديسمبر كتب كارلوس الخامس رسالة إلى البابا جاء فيها: "إن اعتناق المسيحية من قبل الموريسكيين لم يكن بإرادة الكثير منهم، ثم إنهم بعد ذلك لم يتعلموا عقيدة إيماننا الكاثوليكى"(٢٢). وفى ٢٩ سبتمبر وقع الملك ٤٠ قرارًا ملكيا تقضى بإلغاء أو بوضع حد للاستغلال الذى كان الموريسكيون يتعرضون(٢٣) له. وبالإضافة إلى توصيف الحالة الموريسكية، الخاص بـ ٧ ديسمبر عام ١٥٢٦م، تم الأخذ فى الاعتبار تعليمات أسقف غرناطة السيد بيدرو دى ألبا التى حاول فيها إجراء حملة كنسية فى أقل وقت ممكن لتعليم الموريسكيين وتنصيرهم(٢٤). وفى النهاية تجب الإشارة إلى أن الموريسكيين عرضوا من جانبهم أن يدفعوا ضريبة خاصة قدرها ٩٠٠٠٠ دوقية خلال ست سنوات .

ثم تبع ذلك مرحلة من الهدوء النسبى لمدة ثلاثين عامًا تعايش فيها الموريسكيون والمسيحيون القدامى تبعًا للقواعد المقررة عام ١٥٢٦م. وكانت السياسة المتبعة فى معاملة الموريسكيين تتأرجح بين الاحتواء والقمع، وبشكل عام فقد سادت سياسة الاحتواء فى هذه الفترة على الرغم من كل الصراعات التى تعارض هذه السياسة. ومن الصحيح أن وعود عام ١٥٢٦ لم تكن دائمًا موضع الاحترام. فمحاكم التفتيش بدأت منذ عام ١٥٢٦ فى مطاردة الموريسكيين فى فالنسيا وعام ١٥٢٩م فى غرناطة، كما احتفظ النبلاء بكل حقوقهم نحو رعاياهم لاسيما الاقتصادية منها وغيرها ورقصة السامبرا وهى رقصة غرناطية موريسكية كانت تُمارس فى الأعياد، بدأ النقاش بشأنها فى بداية عام ١٥٣٢م(٢٥) .

لقد كانت الميزة الرئيسية لهذه الفترة من الزمن تكثيف حملات التنصير وتنظيم دقيق لدورات تعليم قواعد الدين. فلقد أشارت المجالس البرلمانية فى سيغوبيا إلى الطريقة المناسبة لذلك فى قشتالة عام ١٥٣٢م. وبلد الوليد **Valladolid** عام ١٥٣٧م(٢٦)

ومجالس مونثون البرلمانية[٢٧] فى أراغون عام ١٥٣٧م، وأكدت هذه المجالس على ضرورة التنصير بمستوى رفيع. وبالطبع لم يطبق برنامج التنصير كما يجب، فالاجتماعات الكنسية التى كانت يجب أن تُعقد بصورة عادية كل ٥ سنوات عقدت مرات قليلة حينذاك، والزيارات الرعوية للكنائس التى كان من المقرر أن تتم سنويا لم تتم إلا نادراً. وعلى الرغم من كل هذا يجب الاعتراف بأهمية الجهود التى بُذلت واستمراريتها. وإذا كان الموريسكيون حتى منتصف القرن مازالوا مسيحيين سيئين فذلك يعود لقدرتهم على المقاومة، وعدم رغبتهم فى الدين الجديد. ونعلم أنه فى مملكة غرناطة فقط تم إنشاء المدارس وحملات تنصير منظَّمة؛ وقام مجلس الأساقفة بزيارة إلى المنطقة فى عام ١٥٣٧م، وكذلك قام أسقف غواديكس Guadix بزيارتين بين عامى ١٥٥٠ و١٥٥٤م، كما عُقد مجلسان كنسيان: الأول فى غرناطة عام ١٥٤١م والثانى فى غواديكس عام ١٥٥٤[٢٨].

إن إصرار القيادة المسيحية على تنصير الموريسكيين وإنهاء مشكلتهم يمكن أن يظهر فى نقطتين: النقطة الأولى هى السياسة الملكية التى وضعت تحت تصرفها خبراء حقيقيين فى المشكلة الموريسكية مستفيدة فى ذلك من سلطة الملك فى تعيين الأساقفة؛ للاستفادة من خبراتهم الواسعة فى هذا المجال، والمثال على ذلك الأسقف المذكور سابقًا وهو الراهب أنطونيو دى غيبارا، وهو واعظ ملكى وكاتب مهم فى نثر عصر النهضة. ففى عام ١٥٢٥م قام بالوعظ بين الموريسكيين فى فالنسيا. وفى نهاية العام التالى اشترك فى اجتماع غرناطة، وفى عام ١٥٢٩م عُيِّن أُسقفًا لغواديكس، وبقى فى هذا المنصب حتى عام ١٥٣٧م[٢٩]. ومثال آخر هو السيد غاسبار دى أبالوس وتشبه حياته حياة الأول إلى حد كبير، فقد عُيِّن أسقفا لغواديكس عام ١٥٢٥م، واشترك فى حملات التنصير فى فالنسيا، وكذلك فى مجلس غرناطة قبل أن يصبح أُسقفًا لها من عام ١٥٢٨م إلى عام ١٥٤٢م، ومن بين رجاله يمكن أن يُذكر السيد مارتين بيريث دى أيالا وهو أستاذ فى جامعة غرناطة، وأسقف فى غواديكس بين عامى ١٥٤٨ و١٥٦٠م. وبعد أن أقام فترة صغيرة فى سيغوبيا عمل أسقفًا فى فالنسيا عام ١٥٦٤م ومات بعد ذلك بعامين[٣٠]. ويمكن أن يُضاف إلى هذه القائمة السيد بيدرو غيريرو مطران

غرناطة بين عامى ١٥٤٦ و١٥٧٦م، وجميع هؤلاء كانوا أساقفة إصلاحيين (وقد لعبوا دوراً ليس بالقليل فى اجتماع ترينتو) كما كانوا هم المسئولين الرئيسيين عن سياسة الاحتواء فى تلك الفترة التى ندرسها .

ومن ناحية أخرى فإن دراسة النصوص المستخدمة فى التنصير تكشف بصورة واضحة عن استمرارية الأهداف. فهناك تعليمات ١٠ ديسمبر عام ١٥٢٦م، وتعليمات مطران غرناطة، وكذلك تعليمات المجلس المنعقد فى يناير وفبراير عام ١٥٥٤م، بالإضافة إلى تعليمات "ملاحظات حول طريقة تعليم الموريسكيين العقيدة المسيحية" التى يعود تاريخها إلى فترة ١٥٣٠م، ويُلاحظ أن التجديد كان قليلاً[٣١]، كما كانت التعليمات تهدف إلى احتواء الموريسكيين، وهى لا تدعو القساوسة والأساقفة فقط إلى التعاون فى تلك المهمة، وإنما تدعو الشعب المسيحى كله كى يتعاون فى ذلك .

كان الأساقفة على وعى بأن التنصير الكامل لا يمكن أن يتم إلا بعمل متواصل، ولهذا فبالإضافة إلى ضرورة القيام بالنشاطات فى المناسبات المهمة ؛ مثل صلاة الأحد وصوم الأربعين والاعتراف، يجب تكميلها بالتعليم اليومى، وبنشاط التجمعات الدينية. وهذه الطريقة يمكن وصفها فى هذا المجال بالشعبية؛ وقد ألغت الطريقة التى كانت تدعو إلى تنصير صفوة القيادات الموريسكية التى كانت موضع احترام وهى التى اتبعت فى الفترة الأولى وكان الهدف من ذلك أن يقلد الشعب تلك النخبة المتنصرة، وقد تبنى اليسوعيون كذلك هذه السياسة نفسها فيما بعد ولم تترك تماماً، ولم تعد تمثل الطريقة الرئيسية .

الآن توجه محاولة الدمج إلى الموريسكيين كافة بدون استثناء، وبخاصة للنساء والأطفال الذين أصبحوا موضع اهتمام مركز فى كل مواد الوثائق التى وردت بهذا الشأن، ولم تنس كذلك العقوبات فى تلك الوثائق، لكنها كانت على وجه الإجمال خفيفة، وتقتصر على الغرامات المالية، وتأتى فى المقام الثانى .

ومن المعلوم أن عملاً من هذا النوع يرتكز على الإقناع أكثر من قيامه بإجراءات قمعية، يحتاج إلى وقت وصبر طويلين. ولكى يتوج هذا العمل بالنجاح فإنه يجب أن

يعطى أدلة مطردة على فاعليته، وبدون ذلك فإن العداوة المتأصلة بين الفئتين وصراع المصالح الناتج عن ذلك لابد أن يظهرا من جديد .

وكمثال على ذلك فإن الجلسة المنعقدة فى سان بدرو مارتير فى طليطلة التى استمرت منذ ٤ فبراير إلى ٢٧مارس عام ١٥٣٩م؛ أظهرت استمرار التوتر العميق بين المجموعتين[٣٢]، وفى هذه الجلسة درست طلبات الموريسكيين الغرناطيين وكان يدور معظمها حول ممارسات محاكم التفتيش من حيث التفريق بين الشعائر الإسلامية واليهودية (حيث اتهم الموريسكيون كثيراً بممارسة الشعائر اليهودية)، والإبلاغ بالاتهام، والعفو العام عن العقوبات السابقة، ولقد أجيب طلبهم الأول فقط كما سمح لهم بممارسة رقصة السامبرا، وأما الطلبات الأخرى فقد رفضت وبعبارات واضحة ومباشرة .

ولم تكن هذه الجلسة فى الحقيقة تهدف إلى منح امتيازات للأقلية الموريسكية، ولكنها على العكس من ذلك ، فقد كانت تهدف إلى استئصال صفاتهم الخاصة كلها عاجلاً أو آجلاً، وأما الذين تجرأوا على الدفاع عنهم من النبلاء فقد عوملوا دون اعتبار ولا احترام، وعومل ماركيز مونديخار - الذى كان يؤيد طلبات الموريسكيين الغرناطيين - بجفاء. وخلاصة القول إن نظام المعايشة الذى قررته مواثيق عامى ١٥٢٥ و ١٥٢٦م أصبح فى حالة متردية، وكذلك التوازن الذى تحقق بكل صعوبة خلال ثلاثين عاماً قد انهار، فى الفترة بين ١٥٥٥ و١٥٦٨م .

* * *

بدأ التوتر فجأة يزيد بين الجماعتين بعد أن فشلت سياسة الاحتواء كما تؤكد ذلك الوثائق. فالموريسكيون أصبحوا أكثر تمسكاً بالإسلام وعاداته من أى وقت مضى، وقرروا هذا وعزموا عليه واكتشفوا أن النية الاحتوائية للمسيحيين لم تتغير؛ بالإضافة إلى أن المبالغ التى دفعوها لم تحقق لهم شيئًا؛ فالهوة التى تفصل بين الموريسكيين والمسيحيين ازدادت عمقًا مع نهاية تلك السنوات .

ومن بين أهم المشاكل السياسية التى كانت تشغل الحكام حين ذاك برزت مشكلة الموريسكيين باعتبارها أهم المشاكل خطورة؛ حيث بدأ القراصنة البربر والأتراك يهددون الشواطئ الإسبانية على البحر المتوسط بصورة متزايدة. واسترد الأتراك طرابلس عام ١٥٥١م كما هزم الأميرال الجنوى أندريا دى أوريا فى بونثا، وفقد الإسبان مضيق بينيون دى بيليث ودى لاغوميرا فى عام ١٥٥٤م، وبجاية عام ١٥٥٥م(*) .

ومع بداية حكم فيليبى الثانى بقى فقط لإسبانيا على الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط: مليلة، ووهران، ومزالكبير، وحلق الوادى، وأصبح الموريسكيون بمثابة الطابور الخامس الإسلامى داخل إسبانيا يمكنهم أن يسهلوا ويساعدوا هجمات الأعداء. والحقيقة أن الاتصالات بين القسطنطينية من ناحية، والغرناطيين والفالنسيين من ناحية أخرى كانت واقعًا مستمرًا. وقليلاً قليلاً اكتشفت المراسلات المتبادلة بين الطرفين، وكثير منها كان يعود إلى عام ١٥٦٠م. فعلى سبيل المثال هناك مشروع التحالف بين سلطانى المغرب وتركيا ضد فيليب الثانى، وقام بدراسة ذلك الراهب داريو كابانيلاس وكذلك مناشدة الموريسكيين الإمبراطورية العثمانية لمساعدتهم وقام بنشره مونروى(**)(٣٣). فى هذه الظروف تزايد الخوف بين المسيحيين، وكبر الأمل بين الموريسكيين حتى كثرت التنبؤات المتداولة بينهم ومعظمها يشير إلى مجيء الأتراك لنجدتهم(٣٤)، وأعلن أحد الموريسكيين ويُدعى زكريا أمام محاكم التفتيش أنه تبعًا لما ذكر فى الكتب والحكايات التى كان يملكها فستعود هذه البلاد إلى مسلمى البربر مرة أخرى بعد فقدها(٣٥)".

(*) يتبنى المؤلف هنا وجهة النظر القائلة بالتهديد التركى لسواحل إسبانيا، لكن ماركيث بيانويبا يؤكد أن هجومًا تركيًا على سواحل إسبانيا لم يكن ممكنًا من الناحية العملية وأن القادة الإسبان كانوا يعلمون ذلك لكنهم أشاعوا الأسطورة لتحقيق مصالح سياسية. (المراجع)

(**) صحيح أنه كانت هناك مراسلات بين الموريسكيين والدولة العثمانية - نشر بعضها د. عبدالجليل التميمى - لكن هذا التعاون لم يكن ممكنًا من الناحية العملية، نظرًا لاعتبارات منها أن الدولة العثمانية كانت تخوض حروبًا على جبهات أخرى. (المراجع)

إن الخطر الموريسكى لم يكن شيئًا خياليا فقد ظهر فى شكل عصابات وقراصنة، وكان الكثير من رجال العصابات الذين تختلف تسميتهم من إقليم لآخر ما بين مجرمين ولصوص ومنفيين من الشعب الموريسكى فى القرن السادس عشر، وقد تحول أمر القضاء عليهم إلى مشكلة مقلقة للسلطة. ولكن على الرغم من صدور اللوائح القانونية المتكررة والدقيقة بين عامى ١٥١١ و١٥١٤ فإن هذا لم يتم، ولم تتمكن السلطة من القضاء على أعمال العصابات مطلقًا، بل لوحظ زيادتها فى الستينيات من القرن السادس عشر. وفى أعوام (١٥٦٤ - ١٥٦٦)، وصل نشاط العصابات فى إقليم أراغون إلى درجة خطيرة نظرًا للدعم الذى كان يقدمه لها أتباع كالفينوس الفرنسيون الذين كانوا يهربون من بلدهم[٣٦]. وفى الفترة نفسها انتشرت العصابات التابعة للنبلاء فى جنوب فالنسيا كما لو كانت وباء. ومرد انتشار هذه الظاهرة يعود إلى التسهيلات التى وجدها النبلاء فى استخدام رجالهم من الموريسكيين فى أعمال الثأر والانتقام الخاصة[٣٧]. كان المنفيون فى إقليم أندلوثيا - وبمساعدة ذويهم من الموريسكيين - يتمكنون من صد القوات المرسلة لمطاردتهم؛ وقد تمكن بعض رجال العصابات مثل: ألبرتال أوغونثالو ألسنيث من زرع الرعب فى قلوب المسيحيين فى الفترة ما بين ١٥٦٥ و١٥٦٨م[٣٨].

وتطورت القرصنة البربرية والموريسكية بالطريقة نفسها حيث كانت محدودة منذ نهاية حرب الاسترداد ولكنها اشتدت منذ عام ١٥٦٠م. وفى ٢٠ يوليو من ذلك العام اضطر حاكم فالنسيا إلى منع الموريسكيين من الصيد لأنهم جميعًا كانوا موضع شبهة بتعاونهم مع القراصنة[٣٩].

لقد أصبح البحر المتوسط يحكمه المسلمون. وأصبحت هجمات القراصنة أكثر جرأة، وقد أحدث بعضها انطباعًا خاصا عندما تغلغل بعضهم داخل البلاد مثل: هجوم عام ١٥٦٠م والذى نزل فيه القراصنة فى كستيل دى فيرو Castel de Ferro إلى أن وصلوا إلى نوتايث Notaez وهى قرية تابعة للبشرات. وكذلك هجوم عام١٥٦٥م الذى كان هدفه أورخيبيا. وأخيرًا هجوم عام ١٥٦٦م الذى كانت ضحاياه بعض قرى ألمريَّة

Almeria مثل تابيرناس ولوكانينا[٤٠]. وعلى الرغم من نظام حراسة الشواطئ المعقد والمحكم، وقيام العديد من الميليشيات بحراسات مستمرة فإن القراصنة كانوا يهاجمون دون أن يستطيع أحد ردهم. فخلال الحملة على أورخيبيا ظل ٤٠٠ رجلٍ من القراصنة أربعين ساعة دون أية مقاومة، وفى حملة أخرى ضد تابيرناس ظلوا أربعة وعشرين ساعة دون أن يطاردوا (ثم طوردوا عد ذلك دون جدوى) .

أما الموريسكيون المجاورون للأماكن المهاجمة فكانوا ينتهزون الفرصة للهرب مع القراصنة إلى شمال إفريقيا. لقد أفصح السيد لوبى دى إوبريغون عضو مجلس بلدية غرناطة بدقة عن الانطباع الذى تحدثه هذه الهجمات عندما كتب بعد أحداث أورخيبيا للملك بخطاب جاء فيه: "ما حدث كان شيئًا جديداً فى هذه المملكة، لقد أحدث دهشة كبيرة لدى الجميع، فالمسيحيون القدامى الذين يعيشون فى أماكن موريسكية عانوا من خوف كبير لدرجة أنه بدا لهم أن مجموعة أخرى من القراصنة ستأتى لمهاجمتهم، كما ظهر أن للموريسكيين دوراً فيما حدث حيث إنهم على اتصال بالمسلمين فى الجانب الآخر، بالإضافة إلى أن الدفاع كان ضعيفًا والاتصالات بطيئة "[٤١] .

لقد رد المسيحيون على الخطر المتزايد بصور متعددة بإجراءات تراوحت بين القمع والابتزاز. إن التسامح النسبى الذى مُنِحَ للموريسكيين عام ١٥٢٦م، كان يمثل جزءًا من سياسة أطلق عليها بيير شانو: سياسة انفتاحية، وكانت تمارس هذه السياسة أيضًا مع أتباع إبراسمو وكذلك مع اليهود المتنصرين[٤٢] .

وتقريبًا منذ عام ١٥٥٥م أى عند وصول فيليبى الثانى للحكم أصبح من المستحيل التساهل مع المنشقين، حتى إن كارلوس الخامس نفسه الذى كان فى استراحته بجوستى انزعج عند معرفته بدخول البرتوستنتينية لإسبانيا ونصح ابنه بالحزم. وهكذا اتخذت المملكة الكاثوليكية موقفًا دفاعيا أكد أبعاده السياسية الباحث الفقيد ريغلا إلى درجة كبيرة جدا. فماكينة محاكم التفتيش تعمل بكل قوتها وكان الموريسكيون ضحية لغيرتها الدينية، ووقعوا تحت سلطان هذا الإجراءات التى كانت قد توقفت سابقًا أو أخذت لونًا من الاعتدال ثم بدأت تأخذ بُعْدًا جديداً .

من الأمور التى كانت تقلق كثيراً امتلاك الموريسكيين الأسلحة، ولهذا فليس من الغريب أن تتخذ محاكم التفتيش فى أراغون إجراءات للوصول إلى نزع سلاح كامل فى عام ١٥٥٩م[٤٣]، وقد أسهم فى فشل هذه السياسة معارضة النبلاء الذين كان يضرهم نزع سلاح رعاياهم كثيراً، وكانت المحاكم تسعى لنزع سلاح الفالنسيين أيضاً إلا أن النبلاء تضايقوا من ذلك واستطاعوا تأخير إصدار هذا القرار .

ولكن وقوع بعض الحوادث المزعجة مثل ضياع ٢٥ سفينة محملة بالأسلحة فى إيرادورا التابعة لغرناطة فى أكتوبر عام ١٥٦٢، وكذلك استعداد الجزائريين لمهاجمة وهران؛ كل ذلك ساعد على الإسراع بصدور قرار نزع السلاح الذى وُقِّعَ فى ٢ يناير عام ١٥٦٣م[٤٤] .

وبذلك فقد فتش ١٦٣٧٧ منزلاً موريسكيًا موزعة بين ٤١٥ قرية، وكانت المحصلة المصادرة: ٣٣٠ قطعة سلاح نارية و ٢٧١٤٥ قطعة سلاح أبيض[٤٥]، وفى عام ١٥٦٥ كانت مدينة غرناطة بدورها مسرحًا لعملية تحريات. وعلى الرغم من أهمية الأسلحة المكتشفة فإن المشكلة لم تُحل بالكامل، فالكثير من الأسلحة أُخفى، ثم اكتشف فى الفترة بين عامى ١٥٦٤م و١٥٦٦م أن الموريسكيين فى أراغون فى مناطق كلاتايود وبيافيلتشى يصنعون الأسلحة ويصدرونها لإخوانهم فى فالنسيا[٤٦] .

وأما ابتزاز المسيحيين فلم يتوقف بل سجل زيادة فى تلك الفترة، وهذا ما أعلنه أحد رؤساء الموريسكيين وهو فرانثيسكو نونيث مولاى فى مذكراته بقوله: "كل يوم يزداد حالنا سوءاً، والمعاملة السيئة تزيد فى كل الأحوال وبمختلف الطرق، وذلك من قبـل إدارات القضـاء المدنى ورجالها الرسميين، وكذلك الكنيسة، وهذا واضح جداً ولا يحتاج لتأكيد"[٤٧] .

ولقد أحس الموريسكيون الغرناطيون أنهم ضحية عملية نهب كبيرة وذلك بين عامى ١٥٥٩و١٥٦٨م عندما صدر قرار من مستشارية بلد الوليد **Valladolid**؛ وذلك بإرسال القاضى الدكتور سنتياغو ليراجع حدود الأراضى ووثائق الملكية. وفى حالة عدم حيازة تلك الوثائق – وكان ذلك حال الأغلبية – فيجب دفع غرامة، وإذا لم تُدفع الغرامة فى

حينها تصادر الأرض ويعاد بيعها، وهكذا تم تغيير ملاك ۱۰۰۰۰۰ هكتار[٤٨]، ومن بين الذين استفادوا من هذه العملية رجال الإدارة (البيروقراطية) فى غرناطة وكذلك الأديرة، وقد كتب السيد بدرو دى ديثا رئيس مجلس السكان إلى الملك بتاريخ ٢ مايو ١٥٧٣م قائلاً: " إنه نتيجة لهذه العملية استلم المحاسب إيرناندو دى باريلا مبلغ ٢٤٢٠٩٩٧ مرابطيا وهو ما يعادل ٧١٠٠٠ دوقية"[٤٩] .

ويمكن تخيل حقد الموريسكيين الذين كانوا ضحية هذه الابتزازات. يُضاف إلى ذلك مصاعب تربية دودة القز التى بدأت تزداد منذ عام ١٥٥٠م. إن تربية دودة القز ومعالجة المادة الخام وتسويقها كانت تمثل منذ زمن طويل النشاط الاقتصادى الأكثر ربحًا فى تلك المقاطعة، حيث إن أغلب قرى المنطقة كانت تمارس تلك المهنة المربحة. وكانت فى منطقة البشرات الحرفة الوحيدة تقريبًا، فقد كان الفلاحون يُعدُون الحرير خلال الشتاء ويبيعونه صيفًا فى غرناطة وألمريَّة وملقة **Malaga**. والأمر الأساسى فى ذلك هو أن الحرير كان مهنة الآلاف من العمال فى الحضر. وكان الحرير الغرناطى مشهوراً عالميا، لكنه كان يعتبر مرتفع السعر بسبب الضرائب الباهظة المقررة عليه، ولهذا عانى الموريسكيون من منافسة الحرير الرخيص من منطقة مرسية **Murcia** وعليه ضرائب أقل والمهرب بكميات كبيرة متزايدة إلى غرناطة[*]، وهذه الظروف الجديدة أثرت كثيراً على صغار الفلاحين فى إقليم أندلوثيا[٥٠] .

تفاقمت القطيعة بين الفئتين ولم تعد تحتاج لأسباب أكثر لتكون خطيرة، وقام الأساقفة بالخطوة الحاسمة فى الإجراءات القهرية بعد أن خاب أملهم فى نتائج حملات التنصير، ففى عام ١٥٦٥م عُقد مجلس كنسى فى غرناطة كان لقراراته أهمية خاصة، لأنها وضعت بصورة مدروسة نهاية لسياسة الملاينة من جانب الأساقفة حتى تلك الفترة[٥١]، فقد حوى نص القرار النهائى تسع مواد تدعو إلى تطبيق كل اللوائح

(*) الحقيقة أن الحرير الغرناطى فقد مكانه أيضًا أمام منافسيه الأوروبيين من خارج إسبانيا، وهكذا أضرت السلطات الإسبانية بمصلحة بلدها فى غمار اضطهادها للموريسكيين. (المراجع)

الصادرة قبل ذلك والتى توقف تطبيقها منذ عام ١٥١١م. ولم تعد تستعمل تلك الكلمات مثل: التبشير والوعظ وتعليم العقيدة المسيحية، بل استعملت كلمات تحمل صبغة القهر والإكراه، ولم تترك تلك الوثيقة أى مظهر من مظاهر الثقافة الموريسكية إلا وذكرته؛ مثل اللغة والثياب والحمام والشعائر الدينية ... إلخ. ونصح الأساقفة الملك باستئصال تلك الخصوصيات كلها إلى جانب منع الموريسكيين من امتلاك العبيد وأصبح الموريسكيون الوافدون من ذوى الأصل الإفريقى، غير مسموح لهم بالإقامة فى مملكة غرناطة حيث تبين أن تأثيرهم على السكان كان غير مرغوب فيه، كما طلبوا من محاكم التفتيش أن تكثِّف نشاطها وحزمها وأن تشدِّد عقوبتها بإصدار أحكام أكثر بالتجديف فى السفن وتناولت الوثيقة كل شىء حتى السكن، حيث أمروا بأن تقيم اثنتا عشرة عائلة على الأقل من المسيحيين فى كل قرية من قرى الموريسكيين، وينبغى أن يستقبلهم السادة ثم يقدمون لهم أماكنهم ومساكنهم، وذلك ليقوموا بزيارات دورية لبيوت الموريسكيين أيام الجمع والسبت والأعياد؛ ليتأكدوا من صدق تطبيق الموريسكيين للتعليمات، ثم نصح فى النهاية بأن يعار كبار الموريسكيين ورؤساؤهم عناية خاصة حيث يراقبون بدقة ويعاملون معاملة خاصة ليكونوا مثالاً يحتذى للآخرين، وقد كتبوا فى هذا يقولون: "نرجو من صاحب الجلالة أن يأمر بإرسال أبناء أمراء الموريسكيين إلى قشتالة القديمة، وعلى حساب أولياء أمورهم؛ كى يربى هؤلاء على العادات والتعاليم المسيحية فينسوا عاداتهم ودينهم القديم إلى أن يصيروا رجالاً". وقد نفذ ما أمر به رجال الدين، لأنه فى العام التالى اجتمع رجال لاهوت وقانونيون وعسكريون فى مدريد، وتبنوا طلبات رجال الدين، وأضافوا إليها تحريم الكتب العربية لمدة ثلاث سنوات. وقد نُشِرَ القرار النهائى لذلك الاجتماع فى ١ يناير عام ١٥٦٧م[٥٢].

وكالعادة فقد حاول الموريسكيون التفاوض من أجل إلغاء تلك الإجراءات التى تهددهم، ولما كان الوضع خطيراً فقد أرسلوا فرانثيسكو نونيث مولاى، وهو شيخ مهيب لا يشك أحد فى ولائه إلى الرئيس الجديد للمستشارية العُليا بدرو دى ديثا، الذى لم يستمع للرجاء المعبر الذى قدمه مولاى، وعلى الرغم من فشل هذه المحاولة فقد توسلوا إلى خوان أنريكيث - وهو مسيحى قديم - أن يقوم بالدفاع عنهم، وصاحبه اثنان من

كبار الموريسكيين وهما: إرناندو الحاباقى، وخوان إيرناندث مودافال، حيث ذهبوا إلى مدريد واجتمعوا بالكاردينال دييغو دى إسبينوسا - رئيس مجلس قشتالة - ولم يغير الكاردينال موقفه، وفشلت هذه اللجنة كما فشل تدخل ماركيز مونديخار(٥٣) .

كانت الفئتان ولمدة عامين فى انتظار الحدث التالى وعلى استعداد له، أما الموريسكيون فقد "بدءوا يدعون إلى الثورة"(٥٤)؛ كما يقول مارمول. وازداد عقد الاجتماعات السرية بينهم فى البيازين من خلال مظاهر مصطنعة مثل اجتماعات الرابطة الموريسكية لقيامة المسيح، أما المسيحيون فكانوا يخافون أن تحدث الثورة خلال الخميس المقدس لعام ١٥٦٨م، ولتجنب ذلك زادوا من الإنذارات واحتجاز الموريسكيين، وأما رجال الإدارة فكانوا يُعدون لطرد الموريسكيين الغرناطيين واستبدال سكان من الشمال بهم(٥٥)، وهكذا يتم تنفيذ طلبات عديدة بهذا المعنى قد رُفِعَتْ إلى المسئولين فى الأشهر السابقة .

لقد أصبحنا الآن بعيدين عن تلك الأجواء التى كانت تُناقش فيها وسائل الاحتواء التدريجى، أما الآن فإن أُولى الأمر يريدون احتواءً سريعًا وكاملاً بأية وسيلة (وذلك يعنى موت حضارة بكاملها)، أو بالطرد، وأما الموريسكيون فقد اتخذوا الخطوة الحاسمة وذلك بإعلان تمرد الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٥٦٨م(*) .

(*) يعتمد المؤلف هنا على وجهة نظر واحدة هى الكتابات التأريخية التى خلفها مسيحيون معاصرون للأحداث، ولا يضع فى الاعتبار وجهة النظر الأخرى، ومن المعلوم أن الكتابات التأريخية الإسبانية فى القرن السادس عشر طابعها دعائى ولا يمكن أن تكون موضوعية. (المراجع)

هوامش الفصل الأول

(١) نشر هذا النص كل من غاييغو بورين وساندوبال فى كتاب

Los moriscos del reino de Granada segun el sinodo de Guadix de 1554.
(Granada, 1968), p. 158.

(٢) M.A.ladero Quesada : ***los mudejares de Castilla en tiempo de Isabel I*** (Valladolid, 1969) pp. 29 – 53

(٣) Id. pp. 57 – 58

(٤) انظر أيضا ملحق الوثائق المهم (الموجود فى آخر هذا الكتاب) .

(٥) Id. pp. 15 – 26

(٦) لقد نشر النص الخاص بقرية تابيرناس في M.A. Ladero, op. cit. p. 274 -277.

أما بالنسبة لمدينتى باثا و هويسكار فانظر:

Gallego y Gamir Sandoval, op. cit., 163 – 169.

(٧) النص الخاص بمحاكم التفتيش نشر فى كتاب السيد لاديرو المذكور، ص ٣١٨ .

(٨) انظر جدول الموريسكيين الهاربين .

(٩) انظر الفصل رقم ١٣.

(١٠) K . Garrad: ***The original memorial of don Francisco Nunez Muley*** . (Atlante , II, a . 1954) pp. 198- 226.

(١١) النص الخاص بالأسلحة يوجد محفوظا فى أرشيف بلدية غرناطة فى

" Provisiones", I, fol. 471 vo.

أما النص الخاص بالكتب ففى أرشيف بلدية غرناطة

A.M.G. "Provisiones", I, fol. 202 vo.

أما النصوص الخاصة بـ ٢٠ يونيو فقد نشرها كل من بورين وساندوفال فى كتابهما المذكور ص ١٧١ -١٧٥ .

(١٢) اللوائح الصادرة فى فبراير عام ١٥١٢م توجد فى أرشيف بلدية غرناطة . أما المتعلقة بالبهائم فتوجد فى : " Provisiones", I 254 vo

والخاصة بالملابس فتوجد فى : Id. fol. 247

والتحريم الخاص بمنعهم من مزاولة مهنة سك العملة فيوجد فى : Id. fol. 468

ولقد كان العمل فى دار سك العملة يجلب الكثير من المنافع والإعفاءات، ولا يسمح به إلا للأشخاص الذين لم يثبت عليهم أدنى شبهة . وسوف نرى فيما بعد كيف أن الموريسكيين وبخاصة البلنسيين ، تم اتهامهم بتداول وتصنيع عملة مزيفة فى الوقت السابق مباشرة على الطرد. وتوجد أربعة نصوص خاصة بشهر يونيو عام ١٥١٣م، تم نشرها فى كتاب غاييعو وغامير ص ١٧٦ – ١٨٢ .

توجد قرارات مايو عام ١٥٢٠ فى أرشيف بلدية غرناطة .

(١٣) Gallego – Gamir, op. cit. , pp. 198 – 207.

(١٤) المالافا كانت عبارة عن ثوب يغطى الجسم كله.

(١٥) توجد النصوص الخاصة بتجديد الفارضة كل ستة أعوام فى أرشيف بلدية غرناطة . انظر أيضا كتاب

A. Gamir : ***Las fardas para la costa granadina***, en el volumen en homenaje a Carlos V publicado por la Universidad de Granada (1958).

وللمؤلف نفسه كتاب :

Repartimientos ineditos del servicio de la guarda de la costa granadina (siglo XVI) , en " Homenaje a don Ramon Carande", tomo I.

(١٦) E. Ciscar y R. Garcia Carcel: ***Moriscos i Agermanats***. Valencia, 1974), pp. 31 – 32

(١٧) Id. pp. 122 – 125 .

(١٨) حول تحول موريسكيى مملكة أراغون إلى المسيحية انظر :

A. Redondo: ***Fray Antonio de Guevara, et la Espagne de son temps***, Paris, segunda seccion, capitulo 5 . "las actividades inquisitoriales".

(١٩) E. Ciscar y R. Garcia Carcel, op. cit., capitulo III, " L agermanament morisc de 1526" y R. Redondo, op. cit.

(٢٠) لقد تم التأكيد للنبلاء أن تحول الموريسكيين للمسيحية لن يغير من علاقة التبعية الموجودة بينهم وبين تابعيهم من الموريسكيين .

(٢١) A. Redondo, op. cit. segunda seccion, capitulo VI : "Les morisques grenadins".

(٢٢) A. H. N. Inquisicion, libro 237, fol. 177.

(٢٣) هذه النصوص توجد مجموعة فى : A.G.S. "Camara" , cedulas, libro 255.

(٢٤) نص نشر فى كتاب غاييغو وغامير ص ٢٠٦ – ٢١٣.

(٢٥) قرار ١٠ مارس عام ١٥٣٢م. Id. P. 234.

(٢٦) انظر الفصل الخامس .

(٢٧) " Cortes de Leon Y Castilla", tomo IV (1476 – 1537), pp. 562 y 660.

(٢٨) توجد معلومات كثيرة حول الزيارة الخاصة بعام ١٥٣٧ فى :

Historia de Albendin de la Vega de B. Ponce de Leon (Madrid, 1960).

أما عن زيارات دون مارتين دى إيبيلا فانظر :

A. Garrido Aranda: ***Papel de la Iglesia de Granada en la asimilacion de la sociedad morisca,*** en " Anuario de Historia moderna y contemporanea", no 2 y 3 (1975 -1976), p. 95.

وتوجد نتائج لمجلس الأساقفة الخاص بعام ١٥٤١ فى :

A.C.G., " Libros de asuntos varios", III , fol. 86,

أما مجلس عام ١٥٥٤م فقد قام كل من غاييغو وغامير بدراسته فى كتابهما المذكور .

(٢٩) A. Redondo, op. cit.

(٣٠) Gallego – Gamir, op. cit. pp. 27 -28 y A. Garrido Atienza, op. cit.

(٣١) أما وثيقة " ملاحظات حول كيفية تعليم العقيدة المسيحية للموريسكيين " فتوجد فى أرشيف كاتدرائية غرناطة .

وقد قام غاريدو أراندا بنشرها فى الكتاب المذكور .

(٣٢) توجد مجموعة الوثائق الخاصة بمجلس ١٥٣٩ فى :

AGS." Patronato Real ", leg. 28, pp. 50, 52 y 54 y en " Diversos de Castilla ", leg. 8 fols. 83 -87 y 94 – 97.

أما المجموعة الثانية منها فقد نشرت فى كتاب غاييغو المذكور ص ٢٤٢ – ٢٦٠ .

(٣٣) Dario Cabanelas: ; ***Proyecto de alianza entre los sultanes de Marruecos y Turquia contra Felipe II.*** (M.E.A. 1957, pp. 57-76), J.T. Montroe : ***A curious appeal on the ottoman Empire*** , (Al andalus, 1966, pp. 280 – 303) , Andrew C. Hess: ***The moriscos : An Ottoman Fifht columan in XVI century Spain***. ("The American Historial Review" LXXIV, 1968, pp. 1-25)

(٣٤) L. Cardaillac : ***Le Turc , supreme espoir des morisques*** (inedito)

(٣٥) A.H.N. Inquisicion, legajo 2.603 I.

(٣٦) J. Regla : ***Estudios sobre los Moriscos*** , 2. edicion, Valencia , 1971, pp. 44.

(٣٧) T. Halperin Donghi : ***Un conflicto nacional : Moriscos y Cristianos viejos en Valencia***. (Cuadernos de Historia de Espana , 1955, p. 66. S. Garcia Martinez : ***Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II*** (Estudis, 1972, p. 85 – 167).

(٣٨) B. Vincent: ***Les bandits morisques en Andalousie au XVI siecle***, (" Revue de istoire moderne et contemporaine" , 1974, p. 389 – 400).

(٣٩) S. Garcia Martinez, op. cit. 107.

(٤٠) حول قرية نوتايث انظر :

A.G.S Diversos de Castilla, legajo 8 fol. 93, sobre Orgiva, Instituto Valencia de don Juan (IVJ) envoi I p. 174 (dos textos) y A.G.S. " Camara de Castilla ", leg. 2.180, sobre Tabernas , J. Tapia Garrido : *La costa de los piratas* (Revista de Historia Militar , 1972, pp. 97 - 98).

(٤١) I. V. J. envio I, p. 174

(٤٢) P. Canunu: *la* ***Espagne de Charles – Quint***, Paris 1974.

(٤٣) M. S. Carrasco Urgoiti: ***El problema morisco en Aragon al comienzo del reinado de Felipe II***, Valencia , 1969.

(٤٤) S. Garcia Martinez , op. cit. pp. 108 -109

(٤٥) M. Danvila : ***Desarme de los moriscos en 1563***, " Boletin de la Real Academia de la Hitoria" , 1887, pp. 275 y 306.

(٤٦) J. Regla, op. cit. , p. 44.

(٤٧) K. Garrad, op. cit. , p. 212.

(٤٨) J. Caro Baroja: ***Los moriscos del reino de Granada*** , Madrid, 1957,

M. A. Ladero : ***Granada, Historia de un pais islamico*** (12320 1571), p. 169.

(٤٩) A.G.S. "Camara de Castilla" , leg. 2.174.

(٥٠) R. Carande: ***Carlos Quinto y sus banqueros***, tomo II, Madrid , 1962. K. Garrad: ***La industria sedera granadina en el siglo XVI y su conexion con el levantamiento de las Alpujarras***, (Miscelanea de Estudios Arabes, 1956, pp. 73 – 104 .

(٥١) I.V.J. Envio I, p. 174.174

(٥٢) Caro Baroja, op. cit. 150 -1534. A. Gallego Burin y A. Gamir Sandoval, op. cit. p. 273.

(٥٣) L. del Marmol Carvajal: ***Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada*** (" Biblioteca de Autores Espanoles, t. XXI, p. 123 y ss.)

(٥٤) ID.P.169

(٥٥) لقد نشرت رواية السفير الفرنسي فوركيف في :

B. Vincent: ***L expulsion des Morisques du Royaume de Grenade et leur repartition en Castille*** (1570 – 1571), en " Melanges de la casa de Velazquez" , 1970, p. 14.

الفصل الثانى

تمرد موريسكيى غرناطة (١٥٦٨ - ١٥٧٠)

عشية أعياد الميلاد عام ١٥٦٨م اجتمع المتمردون وأعلنوا عصيانهم وثورتهم، وذلك فى قرية بيثنار Beznar (فى وادى لكرين) Valle de Lecrin، وقد أعلنوا إيرناندو دى كوردوبا ملكًا لهم، وقد اتخذ له اسمًا إسلاميا هو (ابن أمية)، وفى اليوم نفسه تمرد العديد من قرى مناطق: أورخيبا، وبوكيرا، وخوبيليث، ثم تبعتهم أغلب قرى البشرات، وفى ليلة ذلك اليوم توجه مساعد ابن أمية، فرج بن فرج على رأس العشرات من أتباعه إلى البيازين، وحاول دفع سكانه للثورة ولكنهم لم يتحركوا؛ فترك الحى وعاد أدراجه مع مئات من تابعيه المخلصين .

وفى الأول من نوفمبر عام ١٥٧٠م صدر قرار بترحيل موريسكيى غرناطة كلهم إلى أقاليم قشتالة، وأندلوثيا الغربية، وإكستريمادورا، وخلال أيام قليلة غادر خمسون ألف شخص تقريبًا مساكنهم الأصلية ولم يعودوا إليها مطلقًا. وفى ٣٠ نوفمبر غادر السيد خوان دى أوستريا غرناطة بعد أن أنهى مهمته، فهو الذى قاد العمليات العسكرية فى الجانب المسيحى .

وفى ١٥مارس عام ١٥٧١ قام غونثالو إلسنيث باغتيال (ابن عبو) خليفة ابن أمية زعيم المتمردين، ومن الجدير بالذكر أن القاتل كان واحداً من أتباع المقتول القدامى، أما المقاومة الموريسكية فلم تعد إلا نارًا بدأت تنطفئ ببطء .

بين هذه السلسلة من الأحداث توجد فترة زمنية مدتها عامان كان الصراع فيها وحشيا ومستمرا، وكان الوضع متقلباً، فأى انتصار لأحد الجانبين لم يكن حاسماً ولا نهائيا، ولما كان مسرح العمليات متنقلاً باستمرار، فقد تأثرت مملكة غرناطة كلها من جراء تلك الحرب. إن ما بدا فى البداية صراعًا محدوداً تحول مع الوقت إلى الشغل الشاغل والأهم لفيليبى الثانى؛ حيث وصل به الأمر إلى أن دعا برلمان قشتالة للانعقاد فى قرطبة ليكون قريباً من مسرح العمليات وذلك فى ديسمبر عام ١٥٦٩م .

من المناسب فى البداية رسم جدول تاريخى للأحداث[1]. فالحرب مرت بأربع مراحل:

- من ديسمبر عام ١٥٦٨م إلى مارس عام ١٥٦٩م .
- ومن نهاية مارس إلى ديسمبر من العام نفسه ١٥٦٩م .
- ومن يناير عام ١٥٧٠م إلى أبريل من العام نفسه .
- ومن أبريل إلى نوفمبر من العام نفسه.

المرحلة الأولى: تميزت بأن الحملات كان يقودها من الجانب المسيحى كل من ماركيز مونديخار وماركيز فيليث. أما مونديخار فقد خرج من غرناطة فى يناير واجتاز البشرات حتى لاوخار. وأقام معسكره العام فى أورخيبا. وأما جيش فيليث فقد خرج فى ١ يناير، وأقام معسكراً فى تيركى شرق البشرات وذلك فى ٣ يناير. وعلى الرغم من بعض التراجعات قليلة الأهمية التى منى بها المسيحيون، فقد كانوا يأملون فى نهاية سريعة للأحداث .

استسلم كثير من الموريسكيين، وكاد المسيحيون أن يلقوا القبض على اثنين من كبار قادتهم وهما: ابن أمية، والصغير، إلا أن الجيش المسيحى كان يسوده كثير من الشقاق لأن الماركيزين اللذين يتزعمان الجيشين كان كل منهما يكره الآخر، كما تعرض مونديغار لحملة قوية من الشكاوى قدمها رجال المستشارية العُليا واتهموه أمام الملك، وبذلك فقد فقدت القوات نظامها وارتكبت أنواعًا مختلفة من الأخطاء ونتيجة لذلك استعاد المتمردون قوتهم. وعند ذلك أسند فيليبى الثانى قيادة العمليات إلى أخيه خوان دى أوستريا، وبدأت المرحلة الثانية التى طالت كثيراً ولم تحقق أية نتيجة

إيجابية، فازداد اتساع المناطق المتمردة وتجاوزت الجبال ووصلت إلى السهول، واستطاع الموريسكيون لمدة شهور أن يمتلكوا القدرة على المبادرة؛ فهاجموا بيرخا Berja حيث يوجد معسكر جنود فيليث فى ٢٢ مايو، وحاصروا سيرون فى ١٠ يونيو واستولوا عليها فى ١١ يوليو وكذلك حاصروا قرية فيرا Vera فى سبتمبر، وأورخيبا فى أكتوبر، وفشلوا فى الاستيلاء عليهما .

وعلى الرغم من وفاة الصغير فى يوليو واغتيال ابن أمية فى ٢٠ أكتوبر من قبل أتباعه فإن ذلك لم يحدث تغيراً سريعًا فى الوضع ، وأصبح (ابن عبو) زعيمًا بلا منازع. إن تغير سير الحرب حدث فى الفترة من ديسمبر عام ١٥٦٩ إلى يناير عام ١٥٧٠م[٢]، فلقد أصبح الوضع خطيراً بصورة لم يسبق لها مثيل، ففى ١٩ يناير استولى (ولد على) أمير الجزائر على تونس دون مقاومة، وكان ذلك بلا شك عبارة عن امتداد لحرب غرناطة .

وفى الوقت نفسه بدل خوان دى أوستريا قيادة جيش بيليث عندما كانت قواته تحاصر غاليرا منذ بداية ديسمبر، واستولى عليها فى ١٠ فبراير بعد معارك وحشية .

فى ذلك الوقت كانت تُوجد ثلاثة جيوش: الجيش الأول بقيادة دى أوستريا وقد استولى على سيرون فى مارس بعد أن انهزم فى البداية (حيث مات فى ذلك الحين مربيه لويس دى كيخادا)، فواصل سيره متجهًا إلى البشرات التى وصل إليها فى نهاية أبريل، وهناك أقام معسكره العام فى لوس بادوليس، حيث انضم إليه جيش ماركيز سيسا قائد الجيش الثانى، وكان قد خرج من غرناطة فى فبراير واجتاز البشرات من غربها إلى شرقها. وأما الجيش الثالث فكان يقوده السيد أنطونيو دى لونا وقد خرج من أنتكيرا ووصل إلى جبال بنتوميث فى الأيام الأولى من مارس .

وأما الموريسكيون فقد تحولوا إلى الحرب الدفاعية، وانقسموا إلى قسمين فى تقييمهم للموقف الذى يتخذونه. فبينما كان بعضهم ومن بينهم (ابن عبو) يفضلون مواصلة القتال مهما تكن النتائج، نجد آخرين برئاسة الحبقى يرغبون فى التفاوض من أجل الاستسلام .

ولهذا تميزت المرحلة الرابعة بمزيج من الاتصالات غير الواضحة؛ وعمليات عسكرية غير منتظمة، كما يبدو أن الاتصالات الأولى بين أحد ساكني غواديكس ويسمى إيرناندو دى باراداس والحبقى تعود إلى مارس، وربما إلى فبراير، ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة؛ إلى أن تمت اجتماعات فوندون فى أنداراكس التى جرت من ١٣ إلى ١٩مايو (ويبدو أن هذه اللقاءات كانت بقصد مناقشة التوقف عن القتال)، وهكذا توقف الكثير من الموريسكيين عن متابعة القتال، وهرب بعضهم إلى شمال إفريقيا؛ لاسيما بعد أن حدث خلاف بين "ابن عبو" و"الحبقى" وقد أثار غيرة "ابن عبو" الدور الذى لعبه الحبقى ولهذا أمر باحتجاز غريمه وقتله .

وأما من الناحية العسكرية فإن أهم المعارك دارت فى إقليم روندا حيث نهب الموريسكيون قرية ألوثاينا، ثم جمعوا قواتهم فى آوربوتو؛ إلا أن دوق أركوس تمكن بقواته والفرق الأخرى التى انضمت إليه من أن يجبرهم على الجلاء، وذلك فى ٢٠ سبتمبر، ومنذ ذلك الوقت أصبح من الممكن تنفيذ المشروع القديم الخاص بإجلاء الموريسكيين الغرناطيين من كل مملكة غرناطة .

إن الوصف الكبير الذى قدمه كل من دييغو أورتادو دى ميندوثا، ولويس ديل مارمول كارباخال. وخنيس بيريث دى إيتا وما به من التفصيلات يسمح لنا بأن نبرز المميزات العامة للصراع. أما خوليو كارو باروخا فقد أعطى صورة مفصلة. ويمكننا من ذلك كله أن نستخلص أن الموريسكيين كانوا يستفيدون بشكل جيد من جغرافية الأرض، ويتحصنون بالأماكن المنيعة ويتخذونها قاعدة لعمليات سريعة وجريئة. كانوا يحاولون نشر المجاعة فى صفوف أعدائهم وذلك بحرق الحقول وتحطيم الطواحين، وكانوا يتجنبون – وبكل حرص – القتال فى أرض مكشوفة؛ فقد كانوا ينهزمون فى كل المرات التى قاتلوا فيها فى الأراضى المكشوفة؛ وباختصار كانوا يمارسون حرب العصابات. وأما المسيحيون فقد كانوا يتقدمون من الناحية النظرية حسب نظام عسكرى وضمن قواعد نظامية لجيش مكون من فريق من المشاة من جنود الوحدات الإيطالية أو المليشيات والمدفعية، وكانوا يقعون دائمًا ضحايا للكمائن التى يقوم بها الموريسكيون ؛ عندئذ كانت القوات النظامية تتجاوز قواعد الانضباط وتمارس عمليات النهب وبخاصة الاستيلاء على الماشية والحرير والذهب والعبيد؛ بالإضافة إلى ما تميز

به بعضهم من وحشية وهمجية؛ وقد أدى كل ذلك إلى تركهم مملكة غرناطة فى حالة خراب كامل .

ويمكننا أن نضرب ثلاثة أمثلة من بين الكثير مما تميزت به تلك الحرب الشاملة التى لم تكن منضبطة بنظام ولا مراعية لحقوق، ففى الثالث من فبراير عام ١٥٦٩م توجه ٨٠٠ رجل بقيادة فرانسيسكو دى كوردوبا، إلى قرية إينوكس بالقرب من ألمرية فاستقبلهم الموريسكيون بالحجارة؛ ليدفعوا عن أنفسهم شر تلك القوة المهاجمة؛ لكن المعركة حُسِمَتْ بعد ثمانى ساعات بقوة السلاح الأبيض، وتداعت المقاومة الموريسكية بعد أن قُتِلَ ٤٠٠ من الموريسكيين وهرب الكثيرون وأسر ٥٠ رجلاً حيث أُرسلوا للعمل فى السفن باستثناء فرانسيسكو لوبث وكان حاجبًا فى مدينة ثابيرناس الذى شنق بعد ذلك بشهر فى ألمرية. أما عن ضحايا المسيحيين فقد جُرح أكثر من ٣٠٠ رجل؛ تبعًا لما ذكره مارمول. وأسر المسيحيون ٢٧٠٠ من النساء والأطفال أصبحوا عبيدًا، واستولوا على أموال الموريسكيين كلها. وقد سبب توزيع هذه الغنائم شقاقًا بين زعماء المسيحيين[٣]. ثم بعد ذلك بأيام استولى ماركيز مونديخار – بعد صعوبات جمة – على حصن غواخار؛ فقتل كل من بداخله من النساء والرجال[٤] .

ولم يكن الموريسكيون يتصرفون بوحشية أقل من المسيحيين فعند استيلائهم على سيرون استعبدوا ٨٠ امرأة، وقتلوا ١٥٠ رجلاً من بينهم أربعة شيوخ، على الرغم من الوعود التى أعطيت فى السابق[٥] .

كذلك كان يوجد عيب خطير فى الجيشين: الخلاف بين القيادات، الذى وصل إلى درجة الكراهية الشديدة. فثلاثة من زعماء الموريسكيين قتلوا بأيدى أتباعهم وهم: ابن أمية، والحبقى، وابن عبو، وقد أصيب فرج بن فرج بعد محاولة اغتيال دبرها أحد رجاله. أما فى المعسكر المسيحى فلم تصل الأمور بين الزعماء إلى هذه الدرجة – وإن كانت المنافسات ظهرت فى أشد صورها – حتى إن القائد ريكيسنس عصى أوامر الملك فى يونيو عام ١٥٦٩م؛ إذ بدلاً من أن يستمر فى بلدة أدرة ليساعد قوات بيليث قرر محاصرة فريخيليانا. وكذلك ترك دوق سيسا غرناطة بعد مغادرة السيد خوان لها

بساعات ثم تقدم عليه فى اتجاه غواخار سيراً، وذلك بإجهاد قواته فى سير متتابع ثم هزم الموريسكيين وخطف شرف النصر من السيد خوان .

وفى كتاب "حرب غرناطة" لدييغو أورتادو دى ميندوثا تلخيص للمشاعر التى كانت تحرك الجميع، فقد قال المؤلف:"يُقال إن دوق سيسا وماركيز بيليث كانا صديقين وذلك برغبة من الماركيز تفوق رغبة الدوق، رغم أن أحدهما خال للآخر. وأما ماركيز مونديخار والدوق فقد كانت علاقتهما تمتد إلى آبائهما وأجدادهما، وقد كانا يتنافسان حول البقاء فى غرناطة، وقد كان كل منهما يتصنع الصداقة أمام العامة وقد تجددت العداوة القديمة بينهما بسبب النزاع على المناصب، والشىء نفسه حدث مع ماركيز مونديخار والرئيس، فقد رفع كل منهم دعاوى قضائية ضد الآخر، وتبادلا خلالها السباب .

أما لويس كيخادا فقد كان موضع حسد من ماركيز دى بيليث، وأهين من قبل ماركيز مونديخار لأنه عندما كان كونتًا لقرية تنديا لم يوافق أن يزوج أباه فتاة كان الماركيز الآخر قد طلب يدها، وكان صديقًا حميماً لإيراسو وأعداء آخرين للماركيز. أما دوق فريا فقد كان عدواً طويل اللسان لعائلة مونديخار حيث كان يتجرأ عليهم شفاهة وكتابة، وذلك منذ أيام دون برناردينو دى ميندوثا حيث لم يكونا يقبلان نفوذه وسلطته. ولقد كان دوق سيسا ولويس كيخادا أحيانًا يتفقان إذا كان هناك أمر ضد الماركيزين وأحيانًا أخرى يتظاهران بالود وذلك من أجل المغانم، كانا يتحدثان حديثًا طيبًا لكنهما كانا حاقدين وكلاهما مشكوك فيه بصورة كبيرة(٦) " .

ما عدد الجنود المتاح لكلا المعسكرين ؟

من الصعب معرفة الأرقام الحقيقية للموريسكيين، فالمؤرخون (الإسبان) يبالغون فى زيادة أعداد أعدائهم بدون حد وهم بذلك يتبعون سيرة القادة المسيحيين. فتبعًا لما ذكره دوق سيسا نجد عدد المتمردين قد وصل فى فبراير عام ١٥٦٩م إلى ١٥٠٠٠٠ من بينهم ٤٥٠٠٠ فى عمر يمكنهم حمل السلاح فيه. ولاشك أن هذا الرقم مبالغ فيه، وذلك لأن عدد سكان ولاية غرناطة كلها يتجاوز الـ ١٥٠٠٠٠ بقليل .

وأما بيانات النصر التى كانت تُعلن حين ذاك فقد كانت تتبع الأسلوب نفسه، فتبعًا لما ذكره مارمول؛ فإن جيش ماركيز مونديخار قتل فى الحملة الأولى مائتين من الأعداء

في دوركال ...إلخ، وهذا كله مبالغ فيه من جانب القادة العسكريين؛ حيث كانوا يرغبون في إخفاء المتاعب والمصاعب التى كانت تواجههم، وكذلك كانوا يقللون من قيمة الخسائر التى يعترفون بها كما يشهد بذلك مارمول الذى يقول: "مات فى هذه الحملة ٢٠٠ من المسلمين وأسر ٨٠٠ من النساء والأطفال، وتم الاستيلاء على كميات كبيرة من الغنائم، أما المسيحيون فقد مات منهم بين الثمانية والعشرة وربما وجد بعض الجرحى[٧] ..."، ولكن المؤرخ نفسه يقول فى مكان آخر بأنه: "مات ٤٠٠ مسيحى والكثير من الجرحى، وفقدت كميات كبيرة من الأسلحة، وهذا تبعًا لما يقوله المسلمون، أما تبعًا لرأينا فلقد تعلمنا فى هذه الحرب أن نخفى خسائرنا فلم يمت إلا ستون رجلاً بعد أن سببوا الكثير من الأضرار للأعداء"[٨] .

ومع كل هذا فإن هذا لا يعنى عدم وجود بعض الإشارات التى توضح الحقيقة. فبالنسبة لعدد الجنود الموريسكيين فالمعلومات الأكثر صحة، هى التى يمدنا بها المراقبون الأجانب الذين كثيراً ما يكون لديهم معلومات جيدة مثل فوركيى سفير فرنسا، أو ساولى سفير جنوة. فإذا قبلنا الأرقام التى ذكروها يكون عدد الموريسكيين المتمردين فى البداية ٤٠٠٠، وفى يناير عام١٥٦٩م بلغوا ثلاثين ألفًا فى أوج التمرد، بينما بلغوا فى ربيع عام ١٥٧٠م خمسة وعشرين ألفًا؛ منهم أربعة آلاف من الأتراك والبربر. وهذه الأرقام تبدو مقبولة بشرط أن نأخذها كحد أعلى، ورقم الآلاف الثلاثين يعنى أنه بجوار الرجال رؤساء العائلات كان يوجد كثير من الصبية يحملون السلاح أيضًا؛ ولعل ميزة هذه التقديرات أنها تبين إلى أى مدى تحركت الأغلبية الساحقة من الموريسكيين[٩] .

أما عن الجانب المسيحى فإن تقديرات المؤرخين تستحق التصديق، نظراً لأنهم اشتركوا فى العمليات واستطاعوا الحصول على معلومات مؤكدة. وبالفعل فإن أورتادو دى مندوثا ومارمول كاربخال يعطيان أرقاماً متقاربة. فالقوات المسيحية كانت ضعيفة خلال عام ١٥٦٩م؛ فحصن أينوكس Inox هوجم بقوة تبلغ بين ٧٠٠ و٨٠٠ من حاملى البنادق و ٤٠ فارساً[١٠]. أما الجيش الأكبر بقيادة ماركيز مونديخار فعدده فى البداية ألفان من المشاة وأربعمائة من الفرسان[١١] .

ومنذ ديسمبر عام ١٥٦٩ تمت تقوية الجيش حيث بلغ عدد جنود حملة غويخار بقيادة خوان دى أستوريا، ودوق سيسا ٩٠٠٠ من المشاة و٦٠٠ من الفرسان(١٢)، وفى حصار غاليرا كان لدى دون خوان ١٢٠٠٠رجل، والدوق دى سيسا لديه بين ٨ و١٠ آلاف رجل، وهذا يعنى أن حوالى ٢٠٠٠٠ استُعملوا فى المرحلة الحاسمة من الحرب. وهى أعداد مهمة ولكنها لا تُقارن بالأعداد الموجهة إلى إيطاليا والدول الشمالية، ومع ذلك فإن الفرق الأهم يكون فى النوع وليس فى العدد. وقد أصبح جليًا لكل أوروبا أن قوة إسبانيا العسكرية الكبرى ترتكز فى الحقيقة على عدة آلاف من الجنود الخبراء الذين يقاتلون خارج حدود بلادهم، وأما فى الداخل فقد أصبحت الدولة فى وضع خطير وبلا حماية .

ولهذا فعند حدوث التمرد اتجه التاج إلى نظام قديم وغير فعال، حيث طلبوا من كل مدينة تشكيل فرق عسكرية. هذه المليشيات فى العادة كانت تنقصها الخبرة والحماس، ولهذا فيجب عدم الاستغراب إذا لاحظنا أن إنتاجها كان ضعيفًا. ويكفى مراجعة بعض الوثائق لنأخذ ذلك فى اعتبارنا، فعلى سبيل المثال نقول: طُلِبَ من قرية فى قشتالة تُسمى سان كلمنتى **San Clemente** تقديم ٤١ جنديا، فأجابت البلدية فى ١٥٧٠/٣/١٢ قائلة: "لا يوجد رجال يمكن إرسالهم فقد هرب بعضهم إلى الصحارى، وإلى قرى ساداتهم؛ حيث يظنون أنهم فى مكان آمن، والحاجة إلى الرجال شديدة لدرجة أن القمح لم يجد من يحصده، وكذلك كروم العنب، وإذا كان شىء يتم عمله من ذلك كان النساء هن اللاتى تقمن به"(١٢مكرر) .

ويجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن هذا التاريخ يقع فى المرحلة الأشد صعوبة، والتى كثر فيها الموريسكيون وأصبحوا يقاتلون باستماتة وكانوا يسببون أضرارًا كثيرة للمسيحيين. ومما يُلاحظ أن شهرة قسوة المعارك (وربما بصورة مبالغ فيها كما يحدث عادة) قد انتشرا فى معظم قشتالة مما أضعف حماس أولئك الذين أرادوا فى البداية الانضمام للجيش على أمل الحصول على غنيمة كبيرة بتضحية قليلة، وهو ما أحدث رعبًا جماعيا كما تشهد بذلك السطور المنقولة .

بقى لنا موضوعان للمعالجة هما: من هم المتمردون، وما سبب تمردهم؟. ومن ناحية أخرى ما حجم التضامن الإسلامى مع الموريسكيين ؟

بالنسبة للسؤال الأول أعطى كل من كارو باروخا، وكينيث غاراد إجابات جزئية، فالأول منهما أشار إلى أن: "هناك حدثًا له أهمية فى تطور وقائع المعركة، ويدعو للاهتمام؛ وهو أن زعيمى التمرد اللذين كانا يتنافسان ويكره كل منهما الآخر كانا ينتميان إلى أسرتين بينهما عداوة منذ القديم"[١٣]، إن هذه الملاحظة قد أثيرت منذ عشرين عامًا ومازالت تحتفظ بكل قيمتها إلى الآن، ولذلك كان من الضرورى دراسة العلاقات بين العائلتين وحياة العديد من زعماء الموريسكيين المذكورين من قبل المؤرخين لما لذلك من ارتباط فى قضية التمرد .

ومن ناحية أخرى ومن خلال افتراضات كينث غاراد برزت أهمية أزمة الحرير بين العديد من أسباب التمرد[١٤]، وأشار فى الوقت نفسه إلى أن كثيرًا من زعماء الموريسكيين كانت حياتهم الحرفية ترتبط بالحرير .

وهناك ملاحظة ثالثة أشار إليها كل من: ف. براوديل، وكارو باروخا لا تخلو من أهمية لكشف موقف الشعب الموريسكى، فى تلك المعركة القاسية – حيث يقول الأول: "فى مارس عام ١٥٦٩م امتد التمرد من الجبل إلى السهل"، ويضيف الثانى: "بدأت الثورة فى مركز جبلى ثم انتشرت منه إلى نقاط هامشية فى السهول"، ويرى أن الصراع الذى نشأ ما هو إلا تعبير عن تعصب وخشونة أهل الجبال المعارضة لتهاون أهل المدن ولينهم[١٥]. وهكذا توجد ثلاثة افتراضات تستحق الدراسة بعمق ويجب أن تسمح لنا أن نقطع بعض الخطوات فى الطريق الطويل لدراسة ديموغرافية الحركة الموريسكية وسيكولوجيتها؛ وهى دراسة لم تتم حتى الآن؛ وقد أثبتت جدواها فى دراسة تمرد رجال الجماعات، ستتيح لنا معرفة السبب الحقيقى للثورة الموريسكية[١٦] .

فى هذا الموضوع يعتبر مارمول كارباخال مرشدًا حقيقيا؛ سواء أكان على مستوى الحديث عن الجماهير أم الزعماء، فخلال شرحه للموضوع يهتم كثيرًا بتحديد المناطق التى تمردت، كما يهتم – ولكن بصورة أقل – بالمناطق التى لم تتمرد، ويمكننا

كذلك أن نستدل من الطلبات التى قدمتها بعض تجمعات الموريسكيين بعد الحرب حيث أكدوا عدم مشاركتهم فى التمرد مما يجعلهم من وجهة نظرهم لا يستحقون الطرد. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعد قائمتين :

أولاً – المناطق التى تمردت: مناطق أورخيبا، وبوكييرا: خويليس، وسهل أوغيخار، وأنداراكس، وبيرخا، وداليـاس، ولوتشار، ومارتشينا، وإقليم سالوبيرنيا ماعدا مدينة سالوبيرنيا، وإقليم ألمِريَّة (ماعدا مدينة ألمرية)، وأبلا، وألبروثينا، وقد تمردت هذه المناطق فى الفترة ما بين ١٤ ديسمبر ١٥٦٨م و ٣ يناير عام ١٥٦٩م. وقد تمردت مناطق وادى ليكرين (ماعدا بادول، ودوركال، ونيغويلاس، وألبرنيولاس، وساليريس) وإنستان، وماركيزات سينيت، وألبونيولاس، وساليرس، ولا بيثا، وغويخار ودودار، وكينتارت، وسهول بن توميز (مايو١٥٦٩م)، ووادى المنصورة، ومرتفعات فيلابريس (ما عدا ليرون، ولاس كويباس، وأوريا، وبيليث بلانكو) فى يونيو عام ١٥٦٩م، وسيرون فى يوليو ١٥٦٩م، وغاليرا فى أكتوبر ١٥٦٩م، ولاس كويباس فى سبتمبر عام ١٥٦٩م، مرتفعات روندا فى أبريل ١٥٧٠م .

ثانيًا– المناطق التى لم تتمرد: مدينة غرناطة، ومرج غرناطة، وهويتور تاخار، وبادول، ودوركال ونيغويلاس، وألمرية، وفينيانا، وبيليث بلانكو، وأوريا، وغواديكس، وأراضى غواديكس (ما عدا لابيثا)، وباثا، وأويسكار، وأراضى باثاوبسكار (ما عدا غاليرا وكاستييخا) وموتريل، وألموخيا، وبيناكى، وإثناتى، وماتشارابياجا، ومونتيخاكى، وبيناأوخان، والغاتوسين، وبنى عرابة (التابعة لهضاب روندا) .

وهناك الكثير من القرى التابعة لروندا والتى يشك فى موقفها، لكنها تنتمى بكل تأكيد للمجموعة المسالمة وهى كما يلى: موندا، وتولوكس كاسارابونيلا، وألباندير، وخوثكار[١٧]، وفاراخان .

من هذه القائمة نستخرج بعض النتائج الأساسية. يجب التفريق بين اندلاع الحركة التلقائى فى ديسمبر عام ١٥٦٨م وأوائل يناير ١٥٦٩م، وبين امتدادها نتيجة لمباحثات مبعوثى المتمردين الذين أقنعوا أهل القرى بالمشاركة فى التمرد، وذلك فى مايو ١٥٦٩م، بل يبدو أيضًا أن الموريسكيين فى لابيثا وبعض قرى وادى المنصورة

اشتركوا فى التمرد على غير رغبتهم. أما قرى جبل روندا فتمثل حالة ثالثة، حيث تمردت ولكن بصورة متأخرة، بسبب ابتزازات جيش ألفارو دى لونا .

ولاشك أن الحركة كانت ذات طابع جبلى، وفى بعض الأحيان كان ينضم إليها سكان كل المرتفعات ذات الأهمية، وكانت البشرات - خلال عامين - هى مركز المقاومة، وكذلك فإن كثيراً من رجال السهول والهضاب اشتركوا فى الانشقاق، وأحياناً اشتركوا منذ البداية مثل القرى القريبة من سالو بيرينيا، أو التابعة لماركيز ثينيتى بحيث إن افتراض نشأة الحركة فى السهول والجبال - على الرغم من صلاحيتها - لا تكفى لشرح كل المسائل، ولهذا فدراسة أسماء القرى التى لم تشترك لها فوائد عديدة: فالموريسكيون فى المدن لم يشتركوا بصورة نشيطة، وكذلك سكان السهول المرتبطة بالمدن، وبعض سكان القرى المعزولة مثل فينيانا، وبيناكى، ومتشارابياجا، وأثناتا رفضوا المشاركة على الرغم من قُرْب القرى الثلاثة الأخيرة من مَلَقَة. فما أسباب ذلك الموقف ؟

كانت فينيانا ولمدة عامين مثل الجزيرة فى وسط بحر من المتمردين، والسبب الرئيسى المرجح لهذا هو طابع السكان المختلط، ففى عام ١٥٦٢م كان فيها تسعون منزلاً مسيحيًا، ومائة وعشرون منزلاً موريسيكيا، وفى عام ١٥٦٨م مائة منزل مسيحى ومائة وخمسون منزلاً موريسيكيا. وعلى الرغم من أن الأغلبية كانت موريسكية فإن الموريسكيين لم يتحركو وكذلك كان الحال فى: أرثناتا، ومارتشاربياجا، وبيناكى، فقد كانوا فى وضع مماثل على الرغم من ارتفاع نسبة السكان الموريسكيين، ففى ألموخيا كان يعيش عام ١٥٦١م أربعون عائلة مسيحية من بين مائة وثمانية وعشرين منزلا هى عدد بيوت القرية. وإلى جانب هذه الأمثلة يمكن أن يُضاف لابيثا، فقد تركها سكانها من الموريسكيين مجبرين ومكرهين وسكنوا فى الجبل، وتبعًا لما قاله مارمول فقد كان يوجد فيها ٢٦١ عائلة، منها ٤١ عائلة مسيحية؛ بينما كان الأمر فى البشرات على العكس تمامًا حيث كانت توجد أسرتان أو ثلاثة من المسيحيين فى كل قرية، وكانت القرية الوحيدة فى دائرة مَلَقَة التى تمردت هى قرية أينستان عام ١٥٦٨م؛ حيث كان يوجد فيها ١٤٧عائلة من الموريسكيين، وكان القسيس إيسكالانتى هو المسيحى الوحيد بينهم. ومن المحتمل أنه فى كثير من القطاعات كانت تسود بين الطرفين المعايشة نظراً إلى عوامل كثيرة .

هذه الظاهرة كانت أكثر وضوحًا في المدن وإلا فكيف يمكن فهم فشل محاولة فرج بن فرج في البيَّازين ؟. ومما لا شك فيه أنهم لو اشتركوا في الحرب لكان لها نتائج أخرى، لكن نتيجة محاولة فرج لم تكن غريبة كما تبدو لأول وهلة، فالموريسيكيون قضوا في البيازين عشرات السنين وهم يتعايشون مع المسيحيين، والتفرقة بين السكان لم تكن واضحة – كما كان يعتقد .. ويثبت هذا من خلال إحصاء للبيوت الموريسكية قبل الطرد في عام ١٥٧٦م. وهذا مختصره:

٩١بيتًا مقابل ٦٩٥ بيتًا في دائرة كنسية كبرى

١٤٨ مقابل ٦٣٦ في كنيسة سان أندريس

٧٦ مقابل ٥٢٣ في كنيسة سانتياغو

١١ مقابل ٣٧٦ في كنيسة سان خيل

٢٤ مقابل ٥٢٧ في سانتا أنا

١٥٦ مقابل ٢٨٦ في سان بدرو وسان بابلو

٥٨١ مقابل ٧٢٥ في سان خوان دي لوس رييس

٣١٢ في سان خوستو كونلا أنكارناثيون

٨ مقابل ٤١٢ في لا ماغدلينا

٥٨٥ سان ماتيس

٢ مقابل ٦٢٣ في سانتا أسكولاستيكا

١٠٣ مقابل ٤٩٠ في سان سيسينو

١٤٨مقابل ٥٠١ في سان خوسيه،

٢٩٣مقابل٤٠١ في سان ميغل

٥٢٩مقابل ٧٣٦ في سان نيكولاس

٢٣١مقابل ٢٤٩ فى سان غريغور

٣٣٣مقابل ٢٧٤. فى سان لويس

٢٨٦ مقابل ٢٥٧ فى سان بارتولومو وسان لوروينثو

٢٧٢مقابل٢٧١ فى سنتا إيسابيل

٥١٣مقابل ٦٥١ فى سان كريستوبال وسان ماتيو

١٥٨مقابل ٦٧٥ فى سان أيلدوفونسو

٨٥٦مقابل ٨٨٣ فى سان سلفادور، وسان بلاس، وسان مارتين وسنتا أينيس

-١٧٠ فى سنتا مريا دى لا الهمبرا

٥٩ فى سان خيل ولا ماغدلينا

المجموع ٤٨٢٨ منزلاً [١٨] .

ويُلاحظ وجود ثلاث دوائر من بين ٢٣ لا يوجد فيها أى منزل للموريسكيين و٨٨٤ بين منزل ومنزل - دكان موريسكية، أى ما يوازى نسبة ١٨٪ كانت توجد فى دوائر ذات أغلبية مسيحية .

وعلى العكس بفضل مقابلة الوثائق مع بعضها بعضًا يتبين أن المسيحيين كانوا يوجدون فى كل الدوائر التى كانت فيها أغلبية موريسكية، بل كانوا فى سان خوان دى لوس ريبس يشكلون تجمعًا مهما، أما فى المنطقة العليا من البيازين فقد كان الموريسكيون الغرناطيون يمثلون أغلبية ساحقة[١٩]، حيث توجد هناك المجموعة الضئيلة التى حملت السلاح من الغرناطيين، فعند دراسة ٩٠٠ حالة تبين أنه اشترك منهم خمسون فقط فى التمرد، منهم ٤٤ موريسكيا ينتمون إلى الدوائر التى تقع فى الجهة المرتفعة من السهل[٢٠]. وكان الاشتراك فى الموطن يمثل مظهرًا واحدًا من المعايشة .

والعنصر الأهم هو علاقات العمل بين الطرفين، ففى هذه النقطة - وفى وسط غرناطة - حول باب الرملة وبخاصة فى القيصرية؛ كانت الحركة الرئيسية للعمل، وكان هناك عالم مختلط يموج بالمسيحيين والموريسكيين على حد سواء، و كان لكل منهم دكانه، وبين هؤلاء كثير من موريسكيي البيازين، حيث كان العمل فى الحرير، الذى برز فيه الموريسيكيون ولم يكونوا يحتكرونه، ومهنة التجارة أو النقل بواسطة البغال، فقد كان يشاركهم فيها ١٥ مسيحيا من سان إيلديفنسو فى عام ١٥٦١م. وهذه الملاحظات نفسها يمكن ذكرها فى حالة غواديكس وباثا، وألمرِيَّة، وموتريل وفى هذه المدينة الأخيرة كان يعيش عام ١٥٦١م ١١٧ عائلة موريسكية و٢٨٦ مسيحية(٢١). وهذا الوضع يختلف فى الأرياف التى حول المدن، فبعضها كان سكانه من الموريسكيين بالكامل وبخاصة فى غواديكس وباثا، ولكن هذه القرى كانت بصورة عامة مراكز تنقل، وكانت تعانى من تغير مستمر حيث يتركها السكان للذهاب إلى المدن حيث توجد الأسواق، فربما كانت الحملات التبشيرية فيها أكثر نجاحًا حيث يكون القساوسة أكثر عددًا ونشاطًا من وضعهم فى القرى الجبلية، بالإضافة إلى عامل الرهبة الذى يمثله مرور القوات المسيحية بها .

ولاشك أن عدد الذين حملوا السلاح بصفة فردية من بعض سكان تلك المناطق أكثر من عددهم فى المدن، لكنه لم يحدث فيها تمرد عام. ومع ذلك فإن هذه الافتراضات تحتاج إلى أدلة وإثبات. لكن يجب أن نهتم كثيرًا بقسم من رواية مارمول حول موقف سكان وادى ليكرين، حيث ذكر: "أن الأماكن السفلى والبعيدة من وادى ليكرين تمردت فى اليوم الثانى من أيام العيد، وأما فى البادول، ودوركال نيوغوبيلاس، ولاس ألبونيولاس، وسالارس، فقد كانت أكثر قربًا من غرناطة ، فلم تتمرد فى ذلك الوقت على الرغم من هجرة عدد كبير منهم إلى الجبل"(٢٢)، وبالطبع فإن الموريسكيين الذين بقوا فى أماكنهم لم يتعاونوا مع المسيحيين، وكان تعاطفهم إلى جانب المتمردين، وكانوا يمدونهم بالمعلومات والأغذية بطريقة غير منتظمة .

إن النظام الإقطاعى يمكن أن يكون له أيضًا أثر فى القرار الذى اتخذه الموريسكيون فى بعض المناطق الريفية، وهذا العامل من المحتمل أن يكون ثانويا، ولكننا يجب ألا نرفضه من حيث المبدأ، فمن بين القرى التى لم تتمرد نجد أوريا

وبيليث بلانكو، وهما تنتميان إلى دائرة ماركيز لوس بيليث مثل كويباس ديل المنصورة، التى اشتركت مع المنشقين فيما بعد فى أكتوبر عام ١٥٦٩، وأورسى وغاليرا، وسيدها هو إنريكى إينريكيت، الذى تولى أخوه الدفاع عن الموريسكيين أمام الملك عام ١٥٦٧م، وأويسكار تنتمى لدوق ألبا، وتنتمى سيرون وتولوكس وموندا للماركيز دى بيينا وبيناوخان ومونتخاكى لماركيز أرداليس، والغاتوسين وبينارابا لدوق دى مديناسيدونيا. ومن الحق أيضًا يمكن أن نذكر أمثلة على عكس ذلك، مثل دائرة ماركيز سينيت التى تنتمى لدوق سيسا وفيه توجد أورخيبا، والتى كانت توجد فى قلب البشرات، ورجال ماركيز سينت كانوا دائمًا فى دعاوى قضائية مع سيدهم. وكقاعدة عامة فإن السادة كانوا يحمون تابعيهم من الموريسكيين، وهؤلاء بالمقابل ظلوا فى حالة هدوء تام، ولم يتمردوا فى معظم المناسبات .

الملاحظات السابقة نفسها نجدها عند دراسة انتماء زعماء التمرد وقد يوجد فى الحقيقة بينهم بعض الغرناطيين مثل: ابن داود، وفرج بن فرج، وابن عبو، تبعًا لرأى ك. غاراد، لكن ابن عبو لم يكن ينتمى إلى مدينة، وإنما إلى قرية تابعة للبشرات تُسمى ميسينا بون بارون، وابن أمية كان عضواً فى مجلس بلدية غرناطة، ولكنه كان مرتبطًا بشدة مع قريته دى بالور، وإرناندو ديل صغير كان حاجبًا فى كاديار، و كان ميغيل دى روخاس مواطنًا من أوخيخار، والحبقى كان حاجبًا للكوديا، والرامى كان من قرية إنستينيثون، وإرناندو إيل دارا ينتسب لحاجبى بلدية فريخيليانا، وخيرونيمو المالح كان عضواً فى مجلس بلدية فيريرا. وكل هؤلاء ينتمون إلى مناطق جبلية ماعدا الحبقى الذى كانت له علاقات ودية مع المسيحيين، مما أتاح له أن يكون مفاوضًا - فيما بعد - فى عقود الاستسلام (على عكس الآخرين) .

إن دراسة الوضع الاجتماعى للزعماء ستكون مهمة أيضًا؛ فكلهم بلا استثناء كانوا شخصيات مشهورة وعظيمة، ومن المناسب أن نذكر أن النظام العشائرى القديم كان لايزال ساريًا، وله تأثيره وقوته منذ بداية العمليات الحربية؛ وعلى هذا الأساس فكان يكفى أن يقرر أحد هؤلاء الحُجاب فعل أى شىء حتى يتبعه الشعب كله، ولا يحدث مثل هذا فى الأوساط الحضرية حيث الأسر العريقة؛ وصحيح أنها كانت تحوز احترام الشعب إلا أنها لم تكن مرتبطة مع جماهير الموريسكيين لقربهم من المسيحيين

المنتصرين؛ ولهذا عندما غيَّر إرناندو دى بالور أى كوردوبا (ابن أمية) محل إقامته من غرناطة إلى بالور، قام بعمل رمزى وهو العودة إلى المصادر، أى إلى أصول الحضارة الإسلامية التى ظلت فى القرى لم تتغير. ولهذا كان طابع الحرب - خلال الأسابيع الأولى - يتسم بالتعصب الذى أخذ شكل قتل القساوسة، وخدام الكنائس بعد تعذيبهم، وكذلك إلى تدمير الكنائس وانتهاك مقدساتها(٢٣) .

وكذلك فإن هذا يفسر لنا أن المنفيين وهم رجال عصابات كانوا يقومون بحملات انتقامية، انضموا إلى الثورة بسهولة وشكلوا قوات الهجوم الأولى، ومن المعروف أنهم كانوا جميعًا من أصل ريفى(٢٤) .

لقد كشف التمرد أيضًا عن احتفاظ علاقات القرابة بقوتها، فلم تحدث انشقاقات داخل المجموعات العائلية، بل حافظت كل عائلة على تماسكها(٢٥)، واختارت كل عائلة الولاء للقيادة المختارة أو التمرد عليها، فبنى بالور، الذين كانوا يفخرون بأنهم ينحدرون من نسل عبدالرحمن اندفعوا مع حلفائهم جميعًا فى المعركة. وكان بجانب ابن أمية صهره ميغل دى روخاس، وعمه إرناندو الصغير، وأخوه لويس دى بالور، وأبناء أعمامه: ابن عبو، والغالبى، وكلهم لعبوا أدوارًا بارزة(٢٦) .

فأنطونيو دى بالور والد ابن أمية يمكن أن يكون هو الذى أرشد أقرباءه للطريق، وعند بداية الأعمال الحربية كان سجينًا فى المناجم واستطاع الهرب، ثم أُعيد ومعه ابن آخر له إلى غاليثيا. أما إرناندو الحبقى فقد كان بجواره خلال العمليات زوجته ماريا دى بنابيديس، وأبناؤها وصهره لويس بن عمر؛ الذى ذهب عند وفاة الحبقى على رأس مجموعة من الجنود الموريسكيين إلى البشرات لإقناع المقاتلين بالاستسلام(٢٧) .

أما المنتمون إلى عائلة الثغرى فقد كان منهم عضو مجلس البلدية فرانثيسكو، وكذلك ابن أخيه وزوجته وأولاده ظلوا مخلصين(٢٨)، وأما عائلة بلاثيوس فقد كانوا مترددين بعض الوقت، وهم أصدقاء لعائلة بالور، (ميغل كان ضامنًا لإيرناندو فى دعوى قضائية). ميغل ووالده خيرونيمو وعمه إيرنان بايى نائب مجلس بلدية غواديكس، ظلوا مخلصين للجانب الواقعى. وإرنان كان له دخل كبير فى المفاوضات مع الحبقى(٢٩)،

والموقف الغامض فى البداية لميغل وخيرونيمو جعلهما فى حالة من القلق أثناء عملية تصفية الحسابات بدون أن يكون لذلك نتائج خطيرة .

فـى هـذه الأمثلة الأربعة كان لكل عائلة بمجموعها خيار واحد، وهذا لا يعنى عدم وجـود خـلافات بين الذين أجمعوا على هذا الخيار. فقد كان بين فرج الذى يدعى أنه ينتمى إلى بنى سراج وبين عائلة بالور وكذلك بين "الحبقى" و "ابن عبو" خلافات. كما كانت توجد خلافات بين أفراد العائلة الواحدة وبخاصة بين أبناء العم، فعلى سبيل المثال: كانت هناك خلافات بين "ابن أمية" من ناحية و"ابن عبو"، "والغالبى" من ناحية أخرى .

إن تعقد دراسة الأسباب التى أدت إلى التمرد الموريسكى لا يمكن أن يخفى طابعه الريفى، فالعدد المحدود من صناع الحرير الذين اشتركوا فى إعداد التمرد وتنفيذه بصورة فعالة يعتبر استثناء، وكانت الأوساط الريفية هى التى عانت من أزمة الحرير وابتزازات السلطات المسيحية؛ وكذلك لم يكن لسياسة الاحتواء الثقافى الأثر الكبير، وكان الشعور السائد بين الجماعتين سواء فى البشرات أو سهل بنتوميث هو شعور الكراهية الذى تراكم على مدى عشرات السنين، وقد تحالف الشعب بكامله وبصورة تلقائية خلف زعمائه الذين عادوا إليه، وكانت هذه الحركة تعبيراً عن يأس أقلية تريد المحافظة على هويتها، وحفرت الهوة التى تفصل بين حضارتين بصورة نهائية .

* * *

أكدنا صورة التضامن الموريسكى داخل مملكة غرناطة، فقليلون أولئك الذين قطعوا علاقتهم مع أبناء دينهم، وقد بدا ذلك بصورة واضحة فى فدية الألوف من الأسرى الموريسيكيين. وقد زودنا نيكولاس كابريانا ببعض الأمثلة المعبرة، ومن ذلك: رجل وزوجته يُسميان غارثيا نابارو، ولينور ساتا، رهنا أرضهما لمساعدة ثلاثة من الموريسكيين كانوا يجمعون مبلغًا لفداء أحد سكان تابرناس[٢٠]. فهل وُجِدَ التضامن نفسه بين الموريسكيين من جهة والبربر والأتراك من جهة أخرى ؟.

كان المسيحيون قلقين من تطور حرب غرناطة، حيث عاشوا عامى الحرب وهم فى حالة من القلق من مواجهة اتحاد إسلامى، وكان هذا التوجس هو موضوع كل مراسلاتهم، وخصوصًا عندما كانت الحرب فى صالح الموريسيكيين. وذلك فى النصف الثانى من عام ١٥٦٩م .

كتب السفير الفرنسي فى ألابا فى أوائل أغسطس قائلاً: " ادعوا الله أن يعاقب متمردى البشرات قبل أن يتسلح ذلك الكلب "– السلطان التركى –"[٣١] وكذلك أشار السفير فوركيفى بعد ذلك بأيام أنه لو تدخل موريسيكيو أراغون فى التمرد وهو أمر كان منتظرًا وكان يخاف منه فإن المتمردين سيزيدون من ثلاثين ألف إلى مائة ألف. فى الربيع التالى، وعلى الرغم من تحسن موقف الجيش المسيحى فقد كان هناك خوف من تدخل مفاجئ من كل من موريسكيي أراغون والأتراك، ولقد أوضح فيليبى الثانى هذا الخوف برسائل إلى حاكم سردينيا وأساقفة المملكة[٣٢] .

أما سفير فينيسيا دوناتو فيشير فى عام١٥٧٠م إلى أن الرعب كان يسود بين المسيحيين القدامى فى فالنسيا[٣٣]، وكذلك شهادة لوبى دى مندييتا فقد كانت تحمل المعنى نفسه حيث يكتب من هورناتشوس ويقول: "إن فى القرية (التى تبلغ نسبة الموريسكيين فيها ١٠٠٪) تجهيزات كبيرة لدرجة أن الأطفال يتدربون على الأسلحة"، ويضيف: "إن الجميع يؤكدون على وجود تحالف مع المتمردين فى غرناطة، وإن بعض المتمردين جاءوا إلى هنا وتنقلوا من مكانٍ إلى آخر لينضموا إلى الفئات الأخرى المتمردة، وأن لديهم طرقًا خاصة يتنقلون فيها جيئةً وذهابًا دون أن يدخلوا فى العمران، وبذلك يمكن أن يسببوا أضرارًا كبيرة لصاحب الجلالة حيث ينقلون أعدادًا كبيرةً من الذخائر والطلقات داخل الجِرار لأقاربهم، وإن التعامل والاتصالات زادت كثيرًا عن أى وقت مضى قبل التمرد[٣٤] مع الموريسكيين فى ماغاثيلا وبن كيرينثيا" .

وعلى الرغم مما يبدو من مبالغة فى ما ذُكِرَ سابقًا فإنه من المناسب أن نشير إلى أن الخطر كان حقيقيا، ومن المحتمل وجود اتصالات بين موريسكيين غرناطيين وفالنسيين، كما أرسل الموريسكيون عددًا من الرُّسُل إلى شمال إفريقيا والجزائر

وتطوان والقسطنطينية، ويمكننا أن نتخيل أن سكان تلك المدن الثلاثة من الموريسكيين الذين هاجروا سابقًا لم يبقوا مكتوفى الأيدى. وقد ضبط المسيحيون خطابًا من ابن داود أحد زعماء المتمردين فى وقت مبكر، وكان موجهًا إلى البربر، ويتضمن مناشدة للسلطان، ويلتمس توصيلها إليه بواسطتهم[٣٥] .

وفى يناير ١٥٦٩م سافر لويس دى بالور أخو إيرناندو إلى الجزائر، ومن هناك إلى القسطنطينية. أما الحبقى فقد حصل فى الجزائر على وعود أكيدة فى أغسطس من ذلك العام من (ولد على) لمساعدته، وكانت هناك شائعات عن غزو محتمل من جانب المسلمين فى الخريف القادم. وفى فبراير عام ١٥٧٠م أرسل ابن عبو مبعوثين جدد إلى المدن الصديقة، وقد أرسل (ولد على) أسلحة وخطابًا لابن عبو يقول فيه: "بهذه الأسلحة نستجيب لرغبتكم فى المساعدة لأننا وإياكم جسد واحد فى يومنا هذا"[٣٦] .

قام أندريه هيس بدراسة العلاقة بين الموريسكيين والحكومة العثمانية، ولأول مرة عن طريق وثائق تركية[٣٦مكرر]، فلم يعثر فى الأرشيف على طلب مساعدة من جانب المتمردين، ولكنه وجد بعض الأوامر التى تدل على الاهتمام الذى أولاه السلطان سليم الثانى للموضوع، فقد كتب إلى الموريسكيين قائلاً: " لقد أبلغتمونى أن لديكم عشرين ألف رجل يحملون السلاح، وأن هناك مائة ألف آخرين لا يملكونه، وأنه بوصول السلاح من الجزائر زادت الثقة وأوقعتم الكثير من الهزائم بالمسيحيين الملاعين". كان السلطان إذن يفكر فى مساعدتهم بطريقة مباشرة وذلك بعد استيلائه على قبرص، وحتى يتمكن من هذا فقد أكد لهم متابعة تموينهم بالأسلحة من الجزائر(*). وأكد هيس أن السلطان العثمانى لم يحاول استغلال الموريسكيين فقط كطابور خامس ضد إسبانيا، بل حاول استغلال البروتستانت أيضًا .

ولكن مع هذا فالمساعدة الحقيقية التى حصلوا عليها كانت قطعًا محدودة ، على الرغم من أن الحركة لم تتوقف بين ضفتى البحر المتوسط، ففى أغسطس عام ١٥٦٩م

(*) درس د. عبدالجليل التميمى أيضًا العلاقة بين الموريسكيين والأتراك فى كتابه "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين"، زغوان، تونس، ١٩٩١ . (المراجع)

وصل ٤٠٠ رجل بقيادة الحسين، وفى ربيع عام ١٥٧٠م ربما كان يوجد حوالى ٤٠٠٠ تركي وبربرى من بين ٢٥٠٠٠ مقاتل. وصلت مساعدات أخرى فى يونيو وتم ضبطها، وكشفها فى الوقت المناسب .

ومن ناحية أخرى يتحدث أسكولانو عن اشتراك الموريسكيين الفالنسيين، وعن تمرد قرية تابعة لتلك المملكة فى مارس عام١٥٧٠م[٣٧]؛ لكن كل ذلك كان شيئًا قليلاً لا يتساوى مطلقًا مع المساعدات التى كان يمكن أن يقدمها لمسلمى غرناطة تمرد عام لأبناء دينهم مصحوب بتدخل خارجى مهم، وبخاصة أن القوات الإسبانية الرئيسية كانت فى ذلك الوقت مشغولة فى إيطاليا وفنلندا .

كان الموريسكيون الغرناطيون على وعى بأن المساعدة المقدمة غير كافية، وكانوا يشكون من عدم إمكانية وصول مساعدة كافية، ففى فبراير كتب (ولد على) خطابًا لابن عبو يقول فيه: "ومن ناحية قولكم إننا لم نساعدكم فذلك لأن المدن هنا قليلة السكان"[٣٨] .

ويحق لنا أن نتساءل عن سبب عدم وصول مساعدة أكثر جدية من الخارج؛ فنجد الأتراك مشغولين بغزو جزيرة قبرص؛ هذا بالإضافة إلى بعض المشاكل التى كانت بينهم وبين روسيا المجاورة، وعلى الرغم من أن الأتراك فتحوا قبرص فى خريف عام ١٥٧٠م فإن ذلك لم يتح لهم تقديم المساعدة للموريسكيين فقد كان الوقت متأخراً . وفى العام التالى حدثت موقعة الليبانتو. وشيئًا فشيئًا تركت تركيا الاهتمام بأحداث البحر المتوسط من الجهة الغربية لدرجة أنها وصلت إلى هدنة غير معلنة مع فيليبى الثانى[٣٩] .

وأما عن صاحب الجزائر - ولد على - ففى أكتوبر عام ١٥٦٩م جمع سفنه الحربية باتجاه تونس حيث فتحها عام ١٥٧٠م. وباختصار فإن الحليفين الرئيسيين كانا يفضلان متابعة سياستهما الخاصة واستغلال التوقف المؤقت للنشاط العسكرى الإسبانى، كما ذكر بعض المؤرخين أن ولد على احتجز بعض المتطوعين الذين كانوا يرغبون فى الذهاب إلى إسبانيا، واستخدمهم فى فتح تونس، ولم يترك للغرناطيين إلا مقاتلين ذوى مستوى هابط .

وعلى الرغم من ذلك فقد لعبت المساعدات التركية والبربرية دورًا لا يُستهان به فى الدفاع عن أينوكس، فقد دافع القائد التركى العشالى وقاتل بشجاعة حتى الموت، وكذلك القواد الآخرين مثل حسين كراكاس ونبيل وعلى ومحمادى، وكان لهم دور فى لحظتين حرجتين؛ فقد أيدوا اغتيال ابن أمية فى أكتوبر عام ١٥٦٩م، وأقنعوا "ابن عبو" فى يونيو أنه يجب مواصلة الأعمال الحربية، لكن كان يبدو أنهم على كل حال يؤيدون بأى شكل المقاومة التى قد تفيد مصالح الجزائر والقسطنطينية .

ثم إن امتناع موريسكيى أراغون عن المشاركة يبدو غريبًا لأول وهلة، فهل يمكن أن نقبل القول بأن الفروق بين العديد من العناصر المكونة للأمة الموريسكية أصبحت كبيرة ؟ .

يجب أن لا ننسى أن موريسكيى فالنسيا- وهم الأكثر عددًا - قد تم نزع سلاحهم، وسواء هم أو الأراغونيون، كانوا هدفًا لحراسة شديدة، ويبن غارثيا كراثيل فى محاضرة له، قدمها للمؤتمر الأول لتاريخ الأندلس أنه تم إنشاء "عازل صحى" يعزل الغرناطيين عن الفالنسيين. وبلا شك فقد كانوا على وعى من أن تدخلهم لم يكن ليفيد إلا فى مد الآثار السيئة لحرب لا يمكنهم الانتصار فيها، كما أن التفكير السائد من إمكانية استرداد إسبانيا وإعادتها للإسلام مرة أخرى كان وهمًا أو حلمًا لا سبيل لتحقيقه، وفى جميع الأحوال فقد أدرك الموريسكيون الغرناطيون أن التضامن الإسلامى له حدود(*) .

* * *

فى الأول من نوفمبر جُمع الموريسكيون عنوة من قراهم حيث أُجبروا على الهجرة نفيًا إلى خارج مملكة غرناطة تحت حراسة مشددة. وهذا الإجراء كان فى صورة

(*) هذا ما ذهب إليه ماركيث بيانوبيا عندما تحدث عن "أسطورة المؤامرة " فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

مشروع منذ عدة سنوات وكان قد قرر منذ عدة شهور (على الأقل منذ شهر مارس) ووضع فى النهاية موضع التنفيذ. وقد شمل قرار النفى جميع الموريسكيين إلا قليلاً منهم. لقد تم نفى جميع الذين حملوا السلاح ثم استسلموا والذين لم يحملوا السلاح وكانوا يدعون "موريسكيى السلام" دون أى تفريق بين الفئتين. وأصبح هذا الحل هو الوحيد المؤثر من أجل إنهاء الثورة، وبهذه الطريقة فقط أمكن عزل الذين لم يقبلوا الهزيمة واندفعوا إلى الجبال لمواصلة القتال .

أما طريقة التهجير هذه فقد تمت على الشكل التالى: قُسمت المملكة إلى سبع مناطق، ووضع كل منها تحت رعاية مسئول أو أكثر، ليقودوا عمليات الترحيل من خلال مراكز التجميع التالية: (روندة، مالقة، غرناطة، غواديكس، باثا، بيرا، ألمرية)، وكان يساعد هؤلاء آخرون، وكل واحد منهم مسئول عن جمع عشر قرى[٤٠] .

استمرت هذه المرحلة أسبوعًا؛ عانى منها الموريسكيون على الرغم من العديد من المصاعب التى واجهتهم، وتمكن بعض الموريسكيين من الاختفاء والبعض الآخر من الهرب، فى حين قاومت مجموعة ثالثة قوات المسيحيين، وكانت تلك المقاومة بصورة عامة لرد استفزازات تلك القوات .

وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعوا أن يجمعوا داخل المصحات والكنائس فى الأماكن السبعة المذكورة سابقًا، أكثر من خمسين ألف شخص؛ منهم خمسة آلاف من ملقةَ وروندا واثنى عشر ألفًا من غرناطة، واثنى عشر ألفًا من غواديكس، وستة آلاف من بيرا، وثمانية آلاف وخمسمائة من ألمِريَّة، وبالإضافة إلى الأشخاص الـ ٤٣٥٠٠ ينبغى إضافة مجموعة باثا؛ التى تتكون من ٢٤٠٠ رجل أعمارهم بين أربع عشرة سنة وستين سنة، وبصحبتهم عدد لا يحصى من العجائز والمسنين والأطفال، فالمجموع يتعدى خمسين ألفًا وهو الرقم الذى أثبته المسئولون عن الطرد. وقد كتب أحدهم فى ذلك يقول: إن أكثر من خمسين ألف موريسكى أرسلوا إلى قشتالة[٤١]، أما فرانثيسكو غوتيريث – فقد أثبت بدقة الرقم فى خطاب موجه إلى كاردينال سيغوينثا – قائلاً: "قلت لك فى خطاب سابق إنه قد أخرج أكثر من ٣٥٠٠٠ شخص من الموريسكيين؛ لكنى

عرفت فيما بعد أنه أخرج من جانب نهر المنصورة ١١٠٠٠ آخرين، وهكذا يكون مجموع ما أخرج من المملكة كلها ٥٠٠٠٠ تقريباً[٤٢] .

إن المرحلة الثانية من الخروج كانت عبارة عن مسيرة شاقة نحو الشمال أو الغرب. لقد أُعِدَّ كل شيء من البداية؛ حيث قُسمت المجموعات إلى فِرق، وكل فرقة تكونت من ١٥٠٠ شخص ومعهم ٢٠٠ جندي لحراستهم، وكان من الواجب أن يقطعوا كل يوم حوالي ٢٠كم، ويتبع هذا الحشد عربات تحمل حقائبهم ومتاعهم. أما التغذية فلقد أُمنت أيضًا، بحيث كان يتم توزيع وجبتين كل يوم: الأولى خفيفة في الصباح، والثانية كبيرة بعد نهاية السير .

صدرت الأوامر إلى الوكلاء، بأن يستعملوا كلمات طيبة مع الموريسكيين قبل المسير. وسُمح لهم أيضًا بأن يبالغوا في الآمال الكاذبة لحفز الموريسكيين على المسير، وهذا ما يمكن فهمه من الأوامر الموجهة إلى وكيل باثا، ألونسو دي كاربخال: " نظرًا لأن الأرض لم تزرع نتيجة اضطرابات الحرب، ونتيجة لذلك قلَّ محصول العام؛ فقد أصبح من المستحيل على هذه المحافظة أن تغطي حاجاتها الغذائية، لهذا فإن صاحب الجلالة قرر أنه سيخرج المسيحيين الجدد من هذه المملكة ويرحلهم إلى قشتالة وإلى محافظات أخرى حيث يوجد الكثير من الغذاء، لأنها لم تعان الحرب، والمحصول فيها وفير. وبذلك يستطيع كل منهم أن يجد الراحة والغذاء في عامهم هذا، وسوف يتم دراسة متى وكيف يمكنهم العودة إلى منازلهم بعد ذلك، ويمكنهم حمل أموالهم دون أن يؤخذ منهم أي شيء – باختصار يجب أن يُقال لهم كل الكلمات الودودة التي يعرفونها"[٤٣] .

أما ما حدث فعلاً فلا يتفق مع هذه الصورة الخيالية. فقد أهملت الخطة الأساسية التي كانت ترمي إلى ترحيل أعداد كبيرة إلى إلباثيتي وإشبيلية. وسبب ذلك أن الظروف الجوية التي لم تكن مواتية جعلته غير قابل للتنفيذ، فالعواصف الواردة من البحر المتوسط عطلت النقل، والمطر والثلج عرقلا عملية التموين على طول طريق إلباثيتي، وقد حدث كثيراً أن تم تغيير الخطة الأصلية في اللحظات الأخيرة، واضطر الموريسكيون إلى السير في ظروف صعبة جدا لمدة أسابيع، مما أثار الشفقة في قلوب

المسئولين عن الترحيل. وشهادة خوان دى أوستريا مشهورة فى هذا المجال بفصاحتها، ويمكن أن نثبت شهادات أخرى لمثل خيرونيمو دى فوينتس، أرسلها من إلباثيتى إلى الكاردينال دى سيغوينثيا: "إنه لشىء مؤسف يدعو إلى الحزن رؤية هذا العدد من الأطفال والنساء؛ يصاحبهم الفقر والحرمان الذى يصعب القضاء عليه مع سوء الأحوال الجوية وكثرة العدد .. لقد كان من الصعب إكمال كل ما يجب مهما كانت طبيعة الحاجات"(٤٤) .

وفى النهاية وصل ٥٥٠٠ إلى إشبيلية و ٢١٠٠٠ إلى ألباثيتى و١٢٠٠٠ إلى قرطبة، و٦٠٠٠ إلى طليطلة. وكان ما حدث بالنسبة للكثيرين هو نهاية المرحلة الثانية فقط لسياحتهم الإجبارية، لأن السلطات لم تكن تسمح بترك هذه الأعداد مجتمعة بهذا الشكل فى مكان واحد، فستة آلاف من الموريسكيين الذين وصلوا إلى قرطبة، تابعوا طريقهم إلى إكستريمادورا و٧٥٠٠ انطلقوا من ألباثيتى إلى وادى الحجارة أو طليطلة أو تلابيرا دى رينا، و٦٠٠٠ تركوا طليطلة إلى سيغوبيا وبلد الوليد وفالنسيا وسلمنكا. بعد هذه المراحل بقيت المرحلة الأخيرة، وهى توزيع الموريسكيين على القرى التابعة لكل من المدن المذكورة بهدف تشتيتهم بأكبر صورة ممكنة، ويمكن اعتبار أن هذه المرحلة انتهت فى ٢٠ ديسمبر بعد عملية ترحيل كانت مليئة بالمعاناة وعذاب استمر لمدة شهرين .

وليس من الغريب أن تكون النتيجة النهائية للعملية سلبية. إن لابيرى يظن أن نسبة الوفيات الحادثة من الأول من نوفمبر عام ١٥٧٠م حتى ربيع عام ١٥٧١م وهو التاريخ الذى تم فيه الإحصاء تصل إلى حوالى ٧و٢٠٪(٤٥)، وهذا الرقم أقل من الواقع، ففى إكستريمادورا وصلت النسبة إلى ٣٠٪، وهذا بالإضافة إلى أن الذين بقوا على قيد الحياة كانوا فى حالة يُرثى لها؛ فقد انتشر بينهم التيفود وأُدخل عدد كبير منهم المصحات. إن انتشار هذا المرض الذى كانوا هم حاملين له لم يكن ليوفر لهم استقبالاً جيداً فى المدن التى ذهبوا إليها. وبالفعل حاولت بعض المدن رفض السكان الجُدد ولكن دون جدوى، فقد كان على هؤلاء التعساء أن يستقروا فى مكانٍ ما .

المواطن الأصلية للموريسكيين

والأماكن التى تم توطينهم فيها

الأماكن التى تم توطينهم فيها	المواطن التى أتوا منها
– إلباثيتى، تشينَشسيا	– غواديكس، دائرة ماركيز لوس بيليث، بورتشكيانا، باثا، أويسكار، أوخيجار .
– ألكالاء دى إناريس	– باثا، كانيليس
– إلكانتارا	– ألموخيا . أنتاس، وأوهانير، وتيخولا
– الكاثار دى سان خوان، كرنسويقيرا	– دائرة ماركيز دى ثينيتى، بينا ماوريل
– الماغرو، مانثاناريس	– دائرة ماركيز دى ثينيتى .
– فالديبينياس	– دائرة غواديكس .
– كاثيريس	– فيريرا، أورخيبا .
– كارمونا	– غرناطة، ألفْاتوسيين وتولوكس .
– قرطبة	– غرناطة. ريف غرناطة. البشرات، ريو ديل المنصورة، سورباس، بيدار، لورين، توروكس، كانياس دى أسيتونا، كوماريس .
– أشيخا، إيستيبا، أوسونا .	– كاساربونيلا، غرناطة، جبال روندا، تولوكس، موندا، غوارو .

- غوادالكانال - إيرناتى .
- غوادألخارا، زوريتا - دائرة ماركيز دى ثينيتى .
- جيان - غرناطة، البشرات، غواديكس، روندا .
- لوركا - أويسكار
- مارتوس - غرناطة، ريف غرناطة
- كينتانار دى لا أوردن - دائرة ماركيز لوس بيليث .
- سيغورا دى ليون - هويا دى ملقَة .
- سيغوبيا . - غواديكس، أرياف غواديكس .
- إشبيلية - ألمِريَّة
- تيمبليكى - إلسالار
- طليطلة - أرياف غواديكس، البشرات، دائرة ماركيز دى ثينيتى .
- أوكليس – أويتى . - ريو دى المنصورة
- قشتالة، لا بيخا (القديمة) - غرناطة، ريف غرناطة، موتريل، تريفيليث[٤٦] .

إن طرد نوفمبر عام ١٥٧٠م لم يكن الطرد الوحيد الذى عانى منه الموريسكيون ؛ لكنه الأكثر أهمية والمحورى فى عملية تتكون من ثلاث مراحل .

فمن ناحية – وقبل الوصول إلى ذلك الطرد العام – كانت السلطات ترغب فى تسهيل العمليات الحربية فى بعض القطاعات، ولهذا قامت بإجراء طرد جزئى سريع، ومن

ناحية أخرى فبعد نوفمبر عام ١٥٧٠م بقى بعض الموريسكيين المتخفين والثائرين فى أرض غرناطة، فتم البحث عنهم والقبض عليهم. تُرى ما حجم تلك العمليات الجزئية(*) ؟

يتحدث مارمول كاربخال عن العمليات الواقعة فى البيازين فى يونيو عام ١٥٦٩م. وفى ويسكار فى نوفمبر، وفى البورخى، وكوتار، وكومارس، وبينامارغوسا فى ريف غرناطة فى مارس عام ١٥٧٠م، وفى تولوكس وموندا فى مايو[٤٧]. وفى كل هذه العمليات رحل جزء كبير من السكان، وبعضهم استثنوا من ذلك والبعض الآخر هربوا[٤٨]، وفى نوفمبر عام ١٥٧٠م بقى ١٦٥شخصاً فى كوماريس، وبلا شك عدة آلاف فى البيازين. كانت السلطة على معرفة بأن الإجراءات المقررة لم تنفذ بكاملها، ومع ذلك فقد رضيت بالنتائج التى وصلت إليها واعتبرتها واقعية، وهذا ما عبر عنه بدرو لوبيث دى ميسا فى خطاب موجه إلى الكاردينال دييغو دى إسبنوسا بشأن طرد يونيو عام١٥٦٩م حيث قال: "بإضافة عدد المحجوزين إلى عدد المسجونين يصل الرقم إلى ٤٠٠٠ باستثناء المسنين والأطفال، على الرغم من تغيب بعضهم واختباء البعض الآخر، لكننا مع ذلك نحن سعداء، لأن إخراج ٤٠٠٠ من الأعداء من غرناطة – حيث يعيش الأغنياء والمهمين من الشخصيات – أمر سيكون له آثاره الكبرى، لأنهم حينما يخرجون سيتركون أبناءهم ونساءهم وأموالهم رهينة لدينا"[٤٩] .

إن موقف الرضا عن النتائج التى تحققت لا يعنى التخلى تماماً عن الهدف الأصلى، فعندما سمحت الظروف تم جمع الموريسكيين ونفيهم خارج المملكة، مثلما حدث فى غرناطة والأماكن الأخرى .

عمليات الترحيل مثل المذكورة سابقًا لم يدون المؤرخون أحداثها مطلقًا على الرغم من كثرتها، وقد وصف لنا بيدرو لوبيث دى ميسا إحداها وقد نفذت فى ديسمبر عام

(*) يبدو أن عدد الموريسكيين الذين بقوا فى غرناطة كان كبيراً. يُضاف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من المطرودين قد عادوا سرا أو علانية إلى غرناطة. هذا يفسر بقاء التراث الإسلامى فى غرناطة حتى وقت متأخر. (المراجع)

١٥٦٩م فقال: " لقد أمرنى السيد خوان دى أوستريا أن أحتجز كل الموريسكيين الذين بقوا فى هذه المدينة فى أربع كنائس من أجل ترحيلهم إلى خارج المملكة، وقد احتجزنا ٢٨٠٠ شخص، ومن هؤلاء تم ترحيل أكثر من النصف، أما الباقون فقد تركوا لكونهم من المرضى والعجزة، وبقى ١٥٠ حرفيا بين خباز وحداد ومهن أخرى وأشخاص آخرين أصحاب تجارة ومعاملات كثيرة ليباشروا أمر محلاتهم وممتلكاتهم، حيث أمهلوا مدة خمسة عشر يوماً، ثم قام كل منهم بتجهيز أمواله للرحيل، ويوماً بعد يوم يخرج بعضهم ..."(٥٠).

وقد تبع طرد الغرناطيين فى ديسمبر عام ١٥٦٩م ترحيل سكان كويباس دى المنصورة فى فبراير عام ١٥٧٠م، وسكان مدينة باثا فى مايو، وسكان غرناطة ربما فى يوليو(٥١)، وقد بقيت آثار لأقلية منهم فى كامبو دى مونتيل، بينما اقتيد الأغلبية إلى أندلوثيا الغربية .

إن عدد الذين طُردوا من مملكة غرناطة قبل الطرد الرئيسى لن يكون دقيقًا وإنما تقريبيًا حيث بلغ عدد الذين رحلوا ٢٠٠٠٠ تقريبًا، منهم ما بين ٤ و٥ آلاف من غرناطة، فى يونيو عام ١٥٦٩م، وأكثر من ٢٠٠٠ فى ديسمبر ويناير، وبين ٥ و٦ آلاف من مرج غرناطة فى مارس عام ١٥٧٠م، و١٠٠٠من تولوكس وموندا وغواروا، دون أن يُحسب فيها عدد الأطفال والنساء وذلك فى مايو عام ١٥٧٠(٥٢). ومن ناحية أخرى كقاعدة عامة لهذا الطرد كان يتم التخلص من الرجال أولاً، ثم يتبعهم بعد ذلك النساء والأطفال، ولهذا يجب اعتبار الآلاف العشرين حدا أدنى، وليس حدا أقصى .

أما الحملة الأخيرة من الطرد فتبدأ من عام ١٥٧٠م وهى الأكثر تعقيداً، ومن الصعب معرفة الفريق الذى تنتمى إليه ضحايا هذه الحملة بدقة. فهم ما بين أناس بقوا فى أرضهم الأصلية حتى ذلك التاريخ، أو هم المتمردون الذين استمروا فى المقاومة ثم وقعوا أسرى، أو هم موريسكيون عادوا إلى أرضهم بطريقة غير قانونية بعد طردهم منها؛ كما أن عدداً كبيراً منهم ينتمى إلى أرض تابعة إلى بعض الإقطاعيين، وحاول هؤلاء السادة الإقطاعيون الإبقاء على رعاياهم، ومن أجل ذلك دخلوا فى مفاوضات مع

الملك، ليسمح لتابعيهم بالبقاء، وبعد إصرار شديد منهم سمح لأولئك بأن منْ له أراض في قشتالة يمكنه إرسال تابعيه الذين رحلوا من غرناطة إلى هناك حيث تم إرسال ٣٥٠٠ في ديسمبر عام ١٥٧٠م ، وتبعهم بعد ذلك ٥١ موريسيكيا من دائرة ماركيز لوس بيليث وصلوا إلى طليطلة في أبريل عام١٥٧٤م .

تحولت طليطلة إلى مركز لاستقبال الموريسكيين الغرناطيين حيث استُقبلت مجموعة كبيرة في يونيو عام ١٥٧١م، ثم بعد ذلك ٧٤ شخصًا قادمين من ألمِريَّة في نوفمبر عام ١٥٧٢م، و٣٢ من بورتشينا وموتريل في فبراير عام ١٥٧٣م، و١١من المونيكار وموتريل في أغسطس من العام نفسه، وهكذا يمكن أن يزيد عدد ضحايا هذه الحملة من الطرد – بعد نوفمبر عام١٥٧٠م – عن ٥٠٠٠ وربما يصل إلى ١٠٠٠٠شخص .

نخلص من كل ما قلناه سابقًا إلى أن عدد ضحايا المراحل الثلاثة هو ٨٠٠٠٠ شخص، وهذا العدد الإجمالي الذي نقدره يقترب كثيراً من الحقيقة. ويمكن الحصول عليه بجمع الأرقام الجزئية التي تبلغ عشرين ألفًا من المرحلة الأولى، وخمسين ألفًا من المرحلة الثانية، وعشرة آلاف من المرحلة الثالثة .

كان هذا يمثل النتيجة الرئيسية للتمرد، أما تأثيراته الأخرى فهي واسعة جدا في الحياة الإسبانية وفي المصير النهائي للأقلية الموريسكية كلها .

* * *

هوامش الفصل الثانى

(١) تعتبرالروايات التاريخية التى أوردها بيريث خينث دى هيتا مهمة جدا فى دراسة أحداث الحرب ، انظر :

Gines Perez de Hıta (***Guerras civiles de Granada*** . Primera parte, Madrid , 1913).

Don Diego Hurtado de Mendoza (***Guerra de Granada***, ed. B. Blanco Gonzalez , Madrid, 1970) y sobre todo,

Luis del Marmol de Carvajal : ***Historia del rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada*** (Bıblioteca de autores Espanoles, XXI, Madrid 1946).

وقد فسر وشرح السيد كارو باروخا بصورة ممتازة المواد الموجودة فى تلك المراجع وذلك فى :

Julio Caro Baroja : ***los moriscos del reino de Granada***, Madrid , 1957, capitulo VI.

(٢) F. Braudel : ***La Mediterranee et le monde mediteraneen a l époque de Philippe II***, 2. ed. Paris , 1966, t. II, pp. 364 – 365.

(٣) Marmol Carvajal, op. cit. pp. 241 – 244.

(٤) Id. P. 247.

(٥) Ibid. p. 280

(٦) Hurtado de Mendoza, op. cit. pp. 265 – 66.

(٧) Marmol , op. cit. p. 304, Alboloduy , noviembre de 1569.

(٨) Id. P. 298. Acequias, noviembre de 1569.

(٩) F. Braudel, op. cit. t. II, pp. 359 – 3562 -365

(١٠) Marmol, op. cit. p. 243 y Hurtado de Mendoza p. 209

(١١) Marmol, op. cit. p. 219.

(١٢) Id. P. 307 y Hurtado de Mendoza p. 326.

(١٢ مكرر) Diego Torrente Perez: ***Documentos para la historia de San Clemente***, II, 109 (Madrid, 1975).

حول أثر الحرب فى إحدى البلديات الحدودية يمكن مراجعة المقال المطول للسيد Emilio Lopez ***La Guerra contra los moriscos vista desde Jaen***, basado en las actas capitulares de esta ciudad (" Boletin del Instituto Giennenses", no 60, ano 1969, pp. 9- 97.

(١٣) Caro Baroja , op. cit. pp. 50 -51

(١٤) K. Garrad: ***La industria sedera granadina en el siglo XVI y su conexion con el levantamiento de las Alpujarras*** (" Miscelanea de Estudios Arabes y Hebraicos" , ano 1956, pp. 73 – 104).

(١٥) Braudel, op. cit. II, p. 360 y Caro Baroja p. 173.

(١٦) J. Perez : ***la Revolution des " Comunidades" de Castille*** (1520 – 1521) Burdeos, 1970, R. Garcia Carcel : *las Germanias de Valencia* (Barcelona , 1975).

(١٧) لقد تم إعداد هذا الجدول من خلال بيانات تم استخراجها من روايات تاريخية ووثائق متنوعة للأرشيفات التالية :

Instituto de Valencia de don Juan, envoi 62, pieza 465 (Huetor – Tajar), Archivo General de Simancas, camara de Castilla, legajos 2.170 (Almogia), 2.173 (Gor), 2.179(Caniles), 2.181 (Galera, Huescar, Zujar), 2.188 (Benaque, Iznate), 2.192 (Granada) y archive de la Chancilleria de Granada, libro de apeo de Instan.

(١٨) إن الرقم الأول يقدمه لنا إحصاء تم عام ١٥٧٦م، ويبين الوضع قبل الثورة بقليل. ومصدر هذه الوثيقة هو : A.G.S. Camara de Castilla, leg. 2.192.

وبالفعل ربما كان موجودا فى غرناطة عام ١٥٦٨م (٥٢٨٠) منزلاً موريسكيا . ولهذا يجب أن يضاف إلى الـــ (٤٨٢٨) منزلاً التى تم تسجيلها فى التعداد ٣١ منزلا تعتبر مبانى رسمية (حكومية)، و ٤٢١ منزلاً تم هدمها قبل ذلك. أما الرقم الموجود بين قوسين فهو عدد المنـــازل فى عام ١٥٦١م التابعة لكل دائرة كنيسة، وذلك من خلال بيانات مأخوذة من كتاب :

F. Ruiz Martin: ***Movimientos demograficos y economicos en el reino de Granada durante la segunda mitad del siglo XVI*** ("Anuario de Historia economica y social " 1968, pp. 144 – 145).

(١٩) لقد حدثت عمليات التدمير فى الجزء الأعلى من البيازين ، ولهذا فإن الوجود المسيحى كان محدودا جدا فى سان نيكولاس وسان كريستوبال ، على عكس ما يبدو لأول وهلة .

(٢٠) B. Vincent : ***la Albaicin de Grenade au XVI siecle*** (1526 – 1587) ("Melanges de la casa de Velazquez" 1971, p. 205)

(٢١) A.G.S. Expedientes en Hacienda , le. 131.

(٢٢) L. del Marmol , op. cit. p. 213.

(٢٣) J. Caro Baroja, op. cit. pp. 175 – 180 .

(٢٤) Vease pp. 144-145.

(٢٥) لقد كانت عشيرة أبناء سراج استثناء ، وهذا ما يفسر عزلة فرج بن فرج .

(٢٦) Marmol, op. cit. p. 188 :

لقد اجتمع كل أبناء قرية بالورييس والذين كانوا يمثلون عائلة كبيرة . وفيما يتعلق بقرية الغاليب انظر:

Ibid. p. 351 .

(٢٧) A.G.S. Camara de Castilla , le. 2.178 y A. Dominguez Ortiz : ***Algunos documentos sobre moriscos granadinos*** (Miscelanea A. Marin Ocete, pp. 247 – 254)

(٢٨) A.G.S. Camara de castilla, le. 2.168, 2.172 , 2.178 y 2.181.

(٢٩) Id. Leg. 2.172.

يلاحظ أن جميع المفاوضين الرئيسيين من سكان إقليم غواديكس وينتمون بصورة أو بأخرى إلى المعسكر المعتدل .

(٣٠) Nicolas Cabrillana : ***Esclavos moriscos en la Almeria del siglo XVI*** (Al-Andalus, 1975, p. 112) .

(٣١) F. Braudel, op. cit. p. 302.

(٣٢) J. Regla : ***Estudios sobre los moriscos*** , 2 ed. Valencia 1971, pp. 146-147.

هناك نص آخر بهذا المعنى صادر فى ٢ أبريل عام ١٥٧٠م وموجود فى :

A.H.N.Osuna, leg. 419, fol. 115.

(٣٣) S. Gracia Martinez : ***Bandolerismo , pirateria y control de moriscos de Valencia durante el reinado de Felipe II*** (Estudis , 1972, p. 123)

(٣٤) Instituto de Valencia de don Juan , envio 1, p. 73.

(٣٥) Marmol , op. cit. p. 179.

(٣٦) Id. P. 318.

(٣٦ مكـرر) ***The moriscos: An Ottoman Fifth column in XVI century Spain*** ("the American Historial Review" , LXXIV (1968), pp. 1- 25).

(٣٧) G. Escolana : ***Decada primera de la historia de... Valencia***, II, col. 1775 (cit por Garcia Martınez , op. cit. 123).

(٣٨) Marmol, op. cit. p. 318.

(٣٩) Braudel , op. cit. tomo II, p. 365 y si.

(٤٠) B. Vincent : ***la expulsion des morisques***, pp. 211- 246.

(٤١) I.V. J. Envio 62, p. 515.

(٤٢) Id. Envio 62 p. 466, documentos del 14 – XI-1570.

(٤٣) ibid. envio 1, p. 35.

(٤٤) ibid. envio1, p. 49

(٤٥) H . Lapeyere : ***Geographie de l Espagne morisque***, p. 125.

(٤٦) هذا الجدول تم إعداده تبعا للجدول الموجود فى المقال المذكور لـ" بنثنت" ص ٢٢١، وتـم استكماله بالبيانات الموجودة فى :

A.G.S. Camara de Castilla, leg. 20165, 2.167 y 2.169.

(٤٧) Marmol, op. cit. pp. 278, 300, 318 – 319, 325, 342-44. B. vincente: ***Combien de morisques ont –ils ete expulses du royaume de Grenade*** (Melanges de la Casa de Velazquez , 1971, pp. 397 – 398).

(٤٨) A.G.S. Camara de Castilla, leg. 20166, fol. 1.

فى ملقة تم احتجاز العديد من الأشخاص بتهمة إخفاء موريسكيين من قرى تولوكس ومونـدا وغوارو .

(٤٩) Archivo de la Casa de Medinaceli (Sevilla) Marquesado de Comares.

(٥٠) I.V.J. Envio 1 , p. 68.

(٥١) ذكر أن " ميغل جونبران ذهب منذ عامين إلا شهرين تبعا لما يشير إليه الإعلان الرسمى"، والمؤرخ فى ٢٣ سبتمبر عام ١٥٧٢م.

(Arch. Chancilleria Granada, cabina 209, libro 77. Parroquia de San Miguel).

(٥٢) بالنسبة لقرى تولوكس وموندا وغوارو انظر : I.V.J. envio 1, p. 6

الفصل الثالث

التوترات المستمرة بين الموريسكيين والمسيحيين
(١٥٦٨ - ١٥٩٨م)

إن تاريخ عام ١٥٧٠م يمثل التغير الأكثر صعوبة فى تاريخ الموريسكيين. فتغير التوزيع الجغرافى للموريسكيين - وهو أحد نتائج التمرد - غيَّر بطريقة كاملة البيانات الخاصة بطرح المشكلة الموريسكية، فقد أصبح موريسكيو إقليم أراغون منذ ذلك الوقت وبفارق كبير هم أكثر عدداً وتركيزاً، ولقد استقطب هؤلاء اهتمام الحكومة بمشكلتهم، وذلك لأن إحدى نتائج الطرد الرئيسية كانت زيادة العداء بين الجماعتين فى مناطق واسعة من إقليم قشتالة التى ظلت حتى ذلك الوقت فى حالة ركود. ومن ناحية أخرى فإن المواجهة عام ١٥٧٠م كشفت حقيقة الأوضاع وأصبحت الجماعتان على وعى بما يفصل بينهما، فقد كانت الجراح عميقة وكان من الصعب أن تلتئم بسرعة .

وعلى الرغم من أن التضامن الإسلامى لم يظهر خلال الصراع بطريقة واضحة فإنه تحول إلى تهديد دائم كما لو كان سيفاً مصْلتًا على رقاب المسيحيين. فقد كان كل موريسكى مشتبهًا فيه، كما أن كل مسيحى أصبح من وجهة نظر الموريسكيين جاسوسًا لحساب السلطة. وفى مثل هذه الظروف كان الجانبان يتطلعان إلى حلول جذرية، فزمان الاحتواء عن طريق الإقناع ذهب ولم يعد يُجدى نفعه، وإما على الأقل لم يعد يُسمَع إلى الذين يدعون إليه، وكانت هناك ثلاثة احتمالات للتغلب على مشكلة الموريسكيين التى أخذت مع الزمن حجمًا كبيراً وهى: إما السلاح، وإما احتواء الأقلية عن طريق إجراءات قهرية، وإما الطرد، وقد رجح الاحتمال الأخير فيما بعد، ولهذا ينبغى أن ندرس الطرق الموحشة التى قادت إليه .

استولى الرعب على المسيحيين، والحقيقة أنه قد أصبح من الصعب تحديد مكان إقامة الموريسكيين أكثر من أى وقت مضى؛ لأن طرد الغرناطيين من مكانهم الأصلى أدى إلى حركة تنقل مستمرة، إلى جانب أولئك الذين كانوا يحاولون إعادة تجميع أعضاء أسرهم، يوجد الذين يحاولون باستماتة العودة إلى أرضهم الأصلية، ومن ناحية أخرى نجد الكثير من الأراغونيين والفالنسيين يقطعون أراضى مملكة أراغون من شمالها إلى جنوبها لإقامة شبكة قوية من الاتصالات مع البلاد الإسلامية فى شمال إفريقيا، أو مع الأتراك، أو مع البروتستانت الذين كان على رأسهم أمير بيرنى Bearne .

إن الأمر الذى أصبح يُخشى منه الآن ليس مؤامرة من قبل اتحاد المسلمين فقط، وإنما تحالف كل أعداء الملك الكاثوليكى فيليبى الثانى، وطبعًا أصبح الموريسكيون العنصر الفعَّال فى هذا الموضوع الواسع، فلقد كانت تصل إلى الملك تحذيرات من مختلف الجهات؛ منها ما أرسله إليه أسقف طليطلة الذى يقول: " أتوسل إلى صاحب الجلالة بكل تواضع راجيًا أن يأخذ فى اعتباره احتمال قدوم الأسطول التركى إلى بحارنا مندفعًا، كما هو فى العادة، وله من الأعوان فى ولاية فالنسيا خمسون ألف مقاتل من حملة البنادق، هذا غير مقاتلى أراغون وغرناطة وهم كثيرو العدد، يتحدون فيما بعد جميعًا مع الآخرين الذين يعرفون الطرق بدقة، كيف يكون حال تلك الممالك، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار نقص الخيول والأسلحة والجنود المدربة فى صفوفنا، وهى أمور لا يجهلها الموريسكيون الذين كانوا يعرفون سابقًا كل شىء بدقة، فإذا اجتمع هؤلاء جميعًا مع أتباع كالفيس وغيره من الهراطقة واتحدوا؛ فإن الخطر سيكون كبيرًا[1] ". وكذلك التحذير القادم من رجال محاكم التفتيش فى سرقسطة Zaragoza الذى جاء فيه: "إن الترتيب الموجود لديهم للتمرد يتمثل فى أن السيد أنطونيو أمير البرتغال وأمير أورانج اتفقا مع مسلمى المغرب عن طريق بعض التجار البرتغاليين والموريسكيين الغرناطيين الذين يترددون على تلك البلاد، وكذلك فإن أمير بيرنى شوهد مع ملك فرنسا يطلب منه ما وعد به عند زواجه بأخته من مدِّه برجال للاستيلاء على نافارا، كما أنه على صلة بالموريسكيين فى أراغون؛ والذين سيساعدونه بالإضافة إلى الأسطول التركى فى عملية استيلائه على فالنسيا، وهم لا يعرفون من

أين سـيـأتى ذلك الأسطول، لكنهم يعـرفـون أنه يجب أن يكون فى الجـزائر فى ١١ أغسطس، وقد اتفق كذلك الفرنسيـون مـع الموريسكيـين على أن يمدوهم بكرات من القطران ليحرقوا بها سفن المسيحيين ومراكبهم"[٢] .

يرجع أصل هذه التحذيرات التى كانت تصل إلى الملك إلى إشاعات كثيرة؛ بعضها يرجع إلى سبب حقيقى والبعض الآخر إلى سبب خيالى أو إلى شهادات تلقائية من بعض الأفراد أو مأخوذة من آخرين تحت التعذيب. ولقد وصل ذلك الهاجس إلى حالة مرضية لدرجة أن أعطوا قيمة إثباتية لبعض المظاهر التى لا تستحق الاهتمام، من ذلك: أن حداداً موريسكيًا من موراديلو فى عام ١٥٧٣م أخبر رجال الكنيسة ومأموراً قضائيا عن مشروع تمرد عام فقال: "إن كل الموريسكيين الذين أُخرجوا من مملكة غرناطة يرغبون فى الثورة مرة أخرى، والعودة إلى الجبل إذا حانت لهم الفرصة، وأنهم يفكرون فى القيام بذلك فى موسم الحصاد؛ حيث سيذهبون إلى أراغون، ومن هناك سيتمردون مع موريسكيى تلك المملكة متنقلين من مكانٍ إلى آخر"[٣] .

ينبغى أن نعلم أن أصل هذه الأخبار التى كانت تصل حتى إلى المكتب الملكى ربما كان مجرد محادثة بسيطة بين اثنين أو ثلاثة من الموريسكيين من فونتيدوينيا. فى أحيان أخرى كان عدد من الذين يعملون فى نقل التجارة بالبغال وقد تجمعوا فى قرية أو قريتين هم الذين أثاروا خوف رجال محاكم التفتيش فى فالنسيا فى بداية عام ١٤٨٢م[٤] .

هذه الإشارات على الرغم من عدم قوتها تمثل الجو المناسب لتكوين أسطورة مؤامرة التحالف الذى كان يخيف الأغلبية، حتى عندما لم يعرها الملك فيليبى الثانى أية أهمية مطلقًا. لقد كان البعض يعيش فى خوف مستمر فى انتظار القتل فيه، بينما كان البعض ينتظرها لتكون وسيلة لتحرره النهائى من الأسر، وهكذا فقد اعتقد الجميع بالتنبؤات التى كانت تنتشر بسرعة كما لو كانت طلقًا ناريا، ففى عام ١٥٧٤م تنبأ أحد الأتراك فى أراغون بانتقام الموريسكيين الذى قد اقترب وقوعه"[٥] .

وفى عام ١٥٨٢ احتفل الموريسكيون فى أراغون بعودة أليخاندرو كاستيانو أحد موريسكيى كالندا (طرويل) بعد ذهابه إلى تركيا عام ١٥٦٠م، وعودته إلى بلده الأصلى

ليتأكد من تمام حدوث التكهنات التى راجت حول انهيار المسيحيين وسقوط حكمهم، وتبعًا لذلك التنبؤ فإنه سيولد غلام ذو جسم غير متناسب وبعد خمسة أو ستة أشهر يفقد أباه، وحينما يكمل الأعوام الثمانية والعشرين أو الثلاثين سيتحول إلى زعيم للموريسكيين فى تلك الولاية، ويصاحبه النصر فى معاركه كلها. وقد كشف كاستيانو ملامح هذه الشخصية ووصفها قائلاً: "إن عدم تماثل الأطراف يكون فى سمك الذراعين؛ فسيكون جسيمًا وله بكل يد ستة أصابع"[٦] .

وخلال مثول أحد الموريسكيين أمام محكمة التفتيش فى كوينكا عام ١٥٨٤م كشف عن أمل شعبه فى أن يصل الأتراك لإنقاذهم، وأن العلامة التى سيتعارف بها الموريسكيون والأتراك هى رفع الإصبع .

وكذلك كان للمسيحيين تنبؤاتهم. ففى عام ١٥٧٢م أرسل بدرو دى ديثا رئيس مجلس سكان مملكة غرناطة خطابًا للكاردينال إسبينوسا رئيس المجلس الملكى؛ يحكى له فيه عن محتوى كتاب سلمه له صانع أحذية موريسكى عند بداية التمرد، حيث يعلن فيه مجىء مخلص يسمى المغطى (وهو نفس اسم زعيم رجال الجماعات الفالنسية الشهير)، وتبعًا للوصف المكتوب فإنه يشبه السيد خوان دى أوستريا، كما أعلن السيد بدرو عن محتوى كتاب آخر مكتوب بالإيطالية، وفيه بيان بتنبؤات مثل: انتصار الليبانتو، متبوع بدمار الإمبراطورية التركية قبل عام ١٥٧٥م، وعلى الرغم من بعض التحفظات فإن صاحب الخطاب يعبر عن الأمل الذى تولده التنبؤات لديه فيقول: "وكما رأيت أن كل التنبؤات السابقة قد تحققت فإنى على ثقة بالله أن تنهض آمالنا وتحقق التنبؤات الباقية"[٧] .

وظهرت بسرعة تنبؤات أخرى مفادها: أن الموريسكيين سيُطردون، وأن سلطان الأتراك سيسقط فى بداية القرن السادس عشر وسيختفى من الوجود.

وهناك نبوءة أخرى تنسب للأمير فرناندو بن فيليبى الثالث تشير إلى انتصاره على العدو المسلم[٨]، وفى الحقيقة – كما هو معروف – فإن جدارته العسكرية جعلته يتمكن من هزيمة السويديين فى نوردليخن .

وصلت سرعة تصديق هذه التنبؤات إلى قمتها، وهذا ما أوحى ببعض الأفكار لدى بعض الأفراد، مثال ذلك: القصة الغريبة حول عودة الغرناطيين المحتملة إلى أرضهم؛ وقد حدثت فى شهر أبريل عام ١٥٧٧ تقريبًا؛ فقد شاعت موجة من الآمال فجأة بين الجماعات الموريسكية المقيمة فى كل من إقليمى قشتالة وأندلوثيا الغربية، ومفادها أن الملك كان على وشك أن يسمح لهم بالعودة مقابل ارتفاع فى الضرائب، وأن المفاوضات التى يشترك فيها ألونسو دى بينغاس كانت قد وصلت إلى مرحلة متقدمة، وقد تمت مراسلات بين كثير من المدن بهذا الشأن، والدليل على ذلك الخطاب الذى وقعه ثمانية من موريسكيى طليطلة وأرسلوه إلى السادة المبجلين: إيرناندو مولاى، خيرونيمو إنريكيث دى بيدرا إيتا، ألونسو هيرنانديث كاميو، ولكل السادة والأصدقاء فى إشبيلية بتاريخ ١١ أبريل، ويبين الموقعون فيه أن الإجراء سيكون فى صالح الذين لم يشتركوا فى التمرد على الأقل، وربما يشمل الجميع، وأن الأموال التى صودرت ستتم إعادتها وهم يطلبون نقوداً لمواصلة الإجراءات. وبالفعل فقد نظم ذلك بسرعة، وبدأت بعض التجمعات من الموريسكيين بتعيين المسئولين عن إرسال الإعانات مثل مدينة أنكالا دى هيناريس .

ويمكن أن نتصور الآثار التى كانت لذلك الخبر على الرغم من أنه من المحتمل أن لا يكون له أساس من الصحة، وربما سبب ذلك أن الموريسكيين لم يكونوا يفكرون فى شىء آخر، "فالذين يعيشون فى إشبيلية وقرطبة ومناطق أخرى كانوا فى حالة ثورة، فهم لا يهتمون بتجارتهم ولا بأرضهم، بل يعيشون على الآمال التى يعطيها إياهم الأفراد الذين يشتركون فى تلك المحادثات"(٩)، وقد استمر انتشار هذا الهياج حتى وصل إلى بلد الوليد وغوادالخارا وباسترانا، وهوايتى، وألكالا دى هيناريس، وأوكانيا، وجيان، وقرطبة، وإشبيلية، كان مركز الإشاعة فى طليطلة، ولهذا كتب قاضى هذه المدينة إلى الملك يثنيه عن تنفيذ هذا الإجراء فيقول: إنه من الصعب معالجة الأضرار التى سيحدثونها فى الشاطئ عند إعادتهم، لأن الأتراك يتمنون النزول على الشاطئ، وسيسهل لهم هذه المهمة الموريسكيون لأنهم مازالوا مسلمين مثل اليوم الأول، ويبدو لى أنهم يقومون بذلك بناء على نصيحة الأتراك ورأيهم، وأنا أقول هذا باعتبارى رجلاً لديه خبرة لمدة سبعين عاماً وعشت أحداثًا عظيمة" .

من ناحية أخرى نقل بدرو دييثا لوعة المستوطنين الجدد فى غرناطة فقال: " لقد انتشرت إشاعة أقلقت السكان الجدد مفادها أن الأرض ستُنزع منهم، ولهذا فقد تركوا زراعتها والاهتمام بها كما كانوا يفعلون قبل انتشار الأخبار الجديدة وذلك فى انتظار ما سيحدث ". وكان من الضرورى إنهاء حماس الموريسكيين ولكن بحكمة حتى يمكن تجنب انفجار جديد. وفى نهاية يوليو عاد الهدوء يسود كل مكان(١٠) .

كيف يمكننا تفسير ظاهرة كهذه، منطلقين من استحالة الاعتقاد بأن هناك مفاوضات حقيقية ؟.

إن كل النصوص تشير إلى الإخوة لورينثو وميلتشور بيريو وغاسبار دى ريا كمحركين للعملية، ونعرف فقط عن الأخير منهم أنه كان يعيش فى طليطلة، أما الأخوان الآخران فهما أكثر شهرة، وهما تجار شموع كان لديهما ثروة طائلة ومن أصل غرناطى؛ حيث كان لديهما فى غرناطة محل للشمع، كما كان لديهما منزلان فى البيازين، وحديقتان وطاحونة، كما كانت لهما صلات تجارية واسعة حيث كان لديهم معاملات تجارية مع تجار من ميدينا ديل كامبو. وقد اتهما بأنهما كانا رأس التمرد وأنهما أعداً مكان الاجتماعات التحضيرية للتمرد، وأنهما صديقان لهرناندو دى بالور، فاعتقلا فى أبريل عام ١٥٦٩م، ثم أُطلق سراحهما، ونُفيا إلى طليطلة فى أكتوبر عام ١٥٧٢م. تُرى هل استغل الثلاثة الجو المسيطر لاختلاس أموال طائلة من أبناء دينهم ؟!. هل كانت لهم أهداف سياسية (ولم لا؟) لاستمرار جو التوتر وإحداث ثورة أخرى ؟.

وللإجابة على هذه التساؤلات يجب علينا أن نحاول أن نعرف ما إذا كان يتحرك فى الظل بعض الشخصيات المهمة. هل كان السيد ألونسو دى غرانادا من بين المشتركين، أو هل دس باسمه حجة ؟.

ما يمكن أن نؤكده هو أن العملية كانت مخططة بطريقة جيدة، فقد سبق أن عُقد كثير من المحادثات التى حاولوا فيها إرضاء الملك عن طريق زيادة الضرائب، ومن ناحية أخرى فإنها تكشف الاهتمام الذى يوليه الموريسكيون لأقل إشاعة وتنبؤ وما يحدثه ذلك، كما تؤكد أيضاً استمرارية التضامن الموريسكى وشدته(١١) .

كانت هناك حاجة إلى جو نفسى وكذلك لحقائق عملية كى تستمر الإشاعات والآمال الكاذبة. هذه الحقائق كانت موجودة .. فالخطر الموريسكى كان لايزال مستمرا، وعلاقة الموريسكيين بالقسطنطينية لم تنقطع، وقد حاول الأتراك تجهيز أسطول كبير لإنقاذهم عام ١٥٨٩م وكذلك عام ١٥٩١م(١٢) .. كما ضبطت خطابات بين الجزائر والموريسكيين فى فالنسيا، واعتقل موريسيكيون كانوا يعبرون شاطئ البحر المتوسط(١٣). ولكن الذى كان يقلق فيليبى الثانى بشكل متزايد ودون نقاش هو إقامة علاقات طبيعية بين الموريسكيين - بخاصة من أراغون - والبروتستانت فى بيارنى Bearne، وكان لذلك أسباب حقيقية.. فمنذ بداية السبعينيات من القرن السادس عشر كان يسافر بعض مبعوثى المسيحيين الجُدُد إلى ذلك الإقليم فى جنوب فرنسا بهدف توقيع عقد تحالف بينهما، وقد وصل الأمر إلى أن حاكم برينى السيد دى روس أعلن ما يلى: "سنذهب إلى إسبانيا وسننتصر ونستعيد نافارا ". واقترح على الموريسكيين من جديد عام ١٥٧٥م أن يساعدهم عسكريا مقابل دعم مالى مقداره بين ١٠٠٠٠ و١٢٠٠٠ أوسكودو. ودرس الموريسيكيون العرض على الرغم من أن الدعم المطلوب كان مبالغًا فيه، وقد أخبر الموريسيكيون حلفاءهم بأن لديهم الكثير من الأسلحة المخبأة(١٤)، وفى الوقت نفسه ذهب ممثلوهم إلى القسطنطينية لطلب معونة مادية .

أثار هذا الدعم الخارجى حماس الموريسكيين؛ ولهذا كثيراً ما حاولوا القيام ببعض العمليات .. وأول إنذار خطير من هذا النوع حدث فى أندلوثيا فى يوليو عام ١٥٨٠م حيث كانت هناك مؤامرة مركزها إشبيلية وفروعها فى العديد من المدن الأندلوثية: قرطبة، إيثيخا، جيان ... إلخ. وحيث توقعوا هجوم جنود قادمين من شمال إفريقيا، كما وضع المتآمرون خطة للهرب فى حالة اكتشاف مؤامرتهم أو فشل خطتهم وذلك بالتوجه إلى الجبال أو البرتغال، ولكن قبض عليهم قبل أن ينفذوا مؤامرتهم .. والحقيقة أن بعض أخبار تلك المؤامرة أدلى بها موريسكيون من أراندا ديل دويرو الذين كشفوا عن أن هناك شيئًا يتم التخطيط له فى أندلوثيا وذلك فى فبراير مما جعل السلطات تضع نفسها فى حالة تأهب(١٥)، ومن المحتمل أن يكون زعيم هذه الحركة فرناندو إينريكيث "ويعرف أيضًا بفرناندو مولاى" وقد كان له دور فى عملية العودة

المزعومة للموريسكيين إلى غرناطة عام ١٥٧٧م. وعلى الرغم من اكتشاف المؤامرة بسرعة فإن الرعب ساد بين المسيحيين فى المدن المهددة مصحوبًا بعمليات انتقامية موجهة إلى تجمعات الموريسكيين وبالذات فى إشبيلية وجيان .

ثم سرى خبر مفاده أن عدة مئات من الموريسكيين استطاعوا التجمع فى جبل البينار – جنوب قادش – وأنهم يستعدون للعبور إلى مالقة، ومنها إلى ماربيا[١٦]، فجهزت عدة حملات لاحتجازهم إلا أنهم لم يجدوا أى أثر لأى أحد، واتخذت إجراءات احتياطية وذلك باحتجاز العبيد من الموريسكيين والبربر فى مالقة .. وبعد ذلك بعام أى فى مايو ١٥٨١م كان القلق لا يزال يسود إشبيلية حيث أُلقى القبض على ثلاثة من الموريسكيين اشتُبه فيهم، ثم أُطلق سراحهم بعد العديد من الاستجوابات وقد تدخل بعض الجيران المسيحيين لصالحهم .

وفى ٢٣ يناير عام ١٥٨٢ أُلقى القبض فى كاوديل، وهى قرية تابعة لفالنسيا بالقرب من سيغوربى على موريسكيٍّ أراغونى يُدعى ثاماروديلو، وقد ساعد ذلك على اكتشاف شبكة اتصالات كبرى سرية مركزها فى أراغون وفروعها تصل من قشتالة وبيرنى إلى شمال إفريقيا، وضُبِطَتْ رسائل مكتوبة بالعربية وبالألخميادية توضح دور الموريسكيين المقيمين بالجزائر وهى المدينة التى قدم منها ثاماردويلو؛ حيث نزل فى كارتاخينا ثم أجرى اتصالات فى مرسية، واشترك فى اجتماعات سرية فى سيغوربى، ومن الممكن أن تكون هناك مبالغة فى وصف الأحداث من جانب أسقف سيغوربى، ورجال محاكم التفتيش فى سرقسطة الذين تخيلوا الأمر تمرداً وشيكًا، ولا ريب أن قلقهم كان له سبب[١٧]، فبعد ذلك بعام اكتشفت محكمة التفتيش فى فالنسيا مؤامرة أخرى كان قد اشترك فيها موريسكيون وبيرنيون وذلك فى شهر مارس عام ١٥٨٣م[١٨] .

فى عام ١٥٨٥ بدأ الصراع بين المسيحيين القدامى والموريسكيين (سكان السهول) وذلك فى أراغون واستمرت الهجمات بينهما على مدى ثلاث سنوات بدون رادع. وهذا ما يؤكده أحد رهبان الدير البندكيتى فى رويدا حيث يقول: " لقد أنتج الصراع على مدى تسعة أشهر كثيراً من القتلى، ولم يُعاقب طيلة ذلك الوقت أحد فى

سرقسطة إلا رجلٌ فقير لمخالفته قرار الطرد، فكم هى سيئة العدالة هنا ..."[١٩]. وبعد اغتيال اثنين من الجبليين فى كودو فى أغسطس عام ١٥٨٦م على أيدى بعض الموريسكيين، وخمسة عشر آخرين فى بنتا دى لا روميرا فى أكتوبر عام ١٥٨٨م، قام المسيحيون بنهب القرى الموريسكية التالية وتدميرها: (كودو، وساستاغو، وبينا) .. وذلك بواسطة عصابات لوبيرسيو لاطراس، وميغل خوان بربير، وهم يهتفون: "المسلمون الكلاب" .

استمر الرعب والخوف عدة سنوات فى المنطقة المجاورة لنهر الأيبرو وسرقسطة وقد أصبح الصراع خطيراً حيث زاد الاشتباه فى أنه قد اندس خلف الموريسكيين حُماتهم مثل النبلاء والبروتستنت فى بيرنى. وهناك خطر آخر سبب توترًا أكثر فى تلك الفترة، وقد حدث بين عامى ١٥٩٢ و١٥٩٣م، حيث لا يوجد أدنى شك فى أن أنطونيو بيريث الذى كان لاجئًا فى فرنسا ويساعده إنريكى الرابع كان يتعاون مع الموريسكيين وهو يُعَدُّ لغزو أراغون[٢٠] .

وفى نهاية الأمر كان الخوف دائمًا أكبر من الأخطار الحقيقية[*]، فالموريسيكيون لم يقوموا بأحداث جماعية أبداً لكن المهم أن خصومهم كانوا يعتقدون فى إمكانية قيام تمرد عام، وكان لهم فى ذلك أدلة وبيانات.. إلى جانب أنه خلال فترة (١٥٧٠ – ١٥٩٨م) لم تتوقف العصابات الموريسكية عن بث الرعب المستمر. وكانت الأقاليم التى لم تعان من هذا الوباء قليلة جدا. ففى غرناطة زرعت العديد من العصابات الرعب بين المسيحيين بعد طردهم منها، وكان أعضاء تلك العصابات من الموريسكيين المجرمين الذين يعرفون جغرافية الأرض بدقة، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلتها السلطات فقد تأخر القضاء على تلك العصابات كثيرًا[٢١]، وكانت العصابات الأكثر خطورة هى عصابة الخُريقى فى ألمرية بين عامى ١٥٧١ و١٥٧٣م، وعصابة خوان أسبيلاى وماركوس المليجى فى مالقة وروندا، بين عامى١٥٧٣ و١٥٧٦م، ولم تستطع السلطات القبض على أى منهم، فالخُريقى ذهب إلى شمال

(*) هذا ما يؤكده ماركيث بيانوبيا فى كتابه " القضية الموريسكية من وجهة نظر آخرى". (المراجع)

إفريقيا بعد مفاوضات فاشلة، والعصابتان الأخريان استسلمتا بعد أن حصلتا على ضمانات، لكن المليجى قبض عليه مرة أخرى عام ١٥٧٩م .

وبعد أن تم القضاء على العصابات الموريسكية فى أندلوثيا الشرقية عادت فظهرت مرة أخرى فى الشمال.. فمن عام ١٥٧٧م وحتى نهاية القرن ارتكب المنفيون اعتداءات تثير الإعجاب، كم فعل سابقوهم، وكان من الصعب القبض عليهم لأنهم كانوا يستفيدون من تواطؤ الجماعة الموريسكية معهم، وقد عانت كل من بلد الوليد، وياستارنا، وأوبيدا، وإشبيلية، وبداخوث، من اعتداءاتهم، وقد كُلف الدكتور فرانسيسكو إرنانذث دى ليبانا رئيس المستشارية العامة فى بلد الوليد بمهمة القضاء عليهم وقد أثبت الدكتور مسئولية ٦ أو ٧ عصابات عن قتل حوالى ٢٠٠ شخص، وذلك فى الفترة بين ١٥٧٧و١٥٨١م وفى عام ١٥٨٢قدم تقريراً إيجابيا عن نشاطه ولكن نجاحه كان مؤقتًا .

ولقد عانت الولايات التابعة لتاج أراغون من المشاكل نفسها، فأعمال العصابات الموريسكية كانت تشبه الوباء ومتركزة فى مملكة فالنسيا وبخاصة فى سنة ١٥٨٠ وما بعدها، ففى الأول من أكتوبر اغتيل كونت تشيلبا على أيدى أتباعه من الموريسكيين[٢٢]. وشنق ستة من الموريسكيين الغرناطيين فى ١٨يناير عام ١٥٨٤م فى فالنسيا .

وأهم تلك العصابات كانت عصابة السولاى التى قامت بعدد من الاغتيالات زرعت الرعب. وقد احتاج الأمر إلى مهارة الوالى فرانسيسكو دى مونكادا، كونت أيتونا الذى جمع بين الدبلوماسية والشدة فى القضاء على رجال العصابات. ثم صدر قرار فى يونيو عام ١٥٨٦م بوضع عقوبات شديدة على أعضاء العصابات وشمل كذلك أقاربهم والمدافعين عنهم وكل من لا يطاردهم بالقوة اللازمة[٢٣]، كما قضى القرار بترحيل أقاربهم إلى قشتالة. ثم تفاوض كونت أيتونا مع عائلات سولايا ورجاله ووعدهم باحترام حياتهم إذا استسلموا[٢٤]، وخلال أيام قليلة من صيف عام ١٥٨٦م استسلم ٢١ فرداً من رجال العصابات بما فيهم سولايا، أما الوعد بعدم الحكم عليهم بالإعدام فقد كان فخا للقبض عليهم؛ ففى ٤ نوفمبر أخذوا وعذبوا ثم

حكم عليهم بالعمل ثلاثين عامًا فى المناجم فى منطقة المعادن، وذلك كان يعنى موتهم فى وقت قصير .

وفى أراغون خلال حرب الجبليين والموريسكيين، نشط الموريسكى توريركو حيث لم تكن أعماله أقل من أعمال لوبيريثو، ثم قبض عليه فى يونيو عام ١٥٩١م واعتبر ذلك حدثًا مهما، لدرجة أن مجلس أراغون كتب خطابًا وجه لفيليبى الثانى جاء فيه: " إن توريركو شرير وقاتل كبير، وإنه سبب الصراع بين الجبليين والموريسكيين وقد جاء به من البرتغال أحد رجال الطرق، حيث كلفه بذلك ماركيز ألمينارا"[٢٥] .

والجدير بالذكر أن المسيحيين كانوا يردون على أعمال عنف بما يوازى الموريسكيين، بل ربما سبقوهم فى هذا المضمار. وإذا استثنينا حملات التنصير فى إقليم فالنسيا، والتى حدثت خلال الفترة (١٥٨٧-١٥٩٩م) فقد كانت سياسة الاحتواء تتم باستخدام الوسائل الأكثر قمعًا، وكما أثبت توليو هالبرين، فإن القائمين على تلك السياسات لم تكن لديهم ثقة فى نجاح حملاتهم، بل كان الدافع لتلك الحملات تهدئة خواطر رجال الدين وضمائرهم فقط. كما يجب أن نشير إلى تغير مهم فى أسلوب الوعظ، فبينما كان لديهم فى الماضى الكثير من الصبر على الموريسكيين، ويحاولون إقناع المخالفين باللين والتلطف أصبحوا الآن يستفزونهم ويهددونهم، ومثالاً على ذلك، يقول الأب بارغاس فى أبريل عام ١٥٧٨م موجهًا كلامه للموريسيكيين: "إنكم لا ترغبون أن تزيلوا من قلوبكم القاسية تلك النحلة الملعونة والجهنمية، نحلة محمد، فلتعلموا أنه قد وُلِدَ اليوم الأمير الذى سيُخرجكم من إسبانيا"[٢٦] .

والتغير نفسه يمكن أن يُلاحظ على مستوى التواجد المشترك، فبينما كانوا يدعون خلال وقت طويل إلى امتزاج الجماعتين عن طريق الزيجات المختلطة، فإنهم الآن يفضلون الفصل التام، لهذا طالب الراهب ألونسو تشاكون فى يناير عام ١٥٨٨م فى خطاب وجهه للملك أن يأمر الموريسكيين بحمل إشارات مميزة لهم[٢٧] .

من بين الإجراءات التى اتخذتها السلطة لتجنب الأخطار التى يخافونها ينبغى أن نضع فى المقام الأول محاولة نزع سلاح الموريسكيين الأراغونيين والفالنسيين. أما

بالنسبة للفالنسيين فكان ذلك عام ١٥٦٣م، إلا أنه من المنطقى أن الأسلحة أُخفيت وأُبعدت عن الأنظار وأنه تم إحضار أسلحة أخرى جديدة، ولهذا لم يتجاوز هذا الإجراء المحاولة فقط ؛ وبذلك بقيت المشكلة دون حل. وأما الأراغونيون فقد استطاعوا التهرب من إجراء مماثل عام ١٥٥٥م بفضل تدخل النبلاء ومعارضتهم. لقد شغلت هذه المشكلة حكام فالنسيا واحداً بعد الآخر. فى الثلث الأخير من القرن السادس عشر تم وضع حد لامتلاك الموريسكيين الأسلحة، وكان أول من اتخذ إجراء بهذا الشأن هو كونت بينابنتى حيث أصدر أمره فى ١٦ يونيو عام ١٥٦٧م، وكرر الأمر فى عام ١٥٧٣ وعام ١٥٧٥م وعام ١٥٧٨م وعام ١٥٨١م، وكان القرار يهدف إلى وضع حد لعملية امتلاك السلاح بالنسبة للسكان كلهم، لكنه - كما أوضح بورونات - كان الهدف الأساسى منه حصر سلاح الموريسكيين وجمعه(٢٨) .

رغم ذلك أصدر كونت أيتونا عام ١٥٨٨م قراراً بذلك وكان يبدو أنه يخص المسيحيين الجُدد فقط، وهذه السلسلة من القرارات التى تحرم ملكية السلاح أكملت بإصدار لائحتين أخريين: الأولى فى ٦ أكتوبر ١٥٧٥م، وكررت بتواريخ أخرى، وكانت تحرم على الموريسكيين الفالنسيين الاقتراب من الساحل بدون إذن الحاكم، وكانت عقوبة ذلك التجديف فى السفن لمدة ثلاثة أعوام، ويُستثنى من ذلك البغَّالون فقط. وفى النهاية صدرت لائحة فى أغسطس عام ١٥٨٦م تكرر مواد لائحة أخرى صدرت فى عام ١٥٥٩م، وهى تُعاقب كل من يغير محل إقامته، وتقضى بطرد غير الفالنسيين .

وإذا اضفنا إلى هذه المواد الإجراءات التى اتخذت ضد قطاع الطرق، بالإضافة إلى الجهود التى تهدف إلى تحسين حراسة الشواطئ يمكن لنا تكوين صورة عامة للسياسة المتبعة خلال السنوات الثلاثين الأخيرة ضد الأقلية الموريسكية. ويمكننا أن نفسر تكرار اللوائح بأنه ناتج عن محدودية مفعولها، لكن لا يمكن أن ننفى أن الاستمرار فى إصدارها كان له بعض النتائج، خصوصاً فى بعض الأمور، حيث أصبح نشاط القراصنة وقاطعى الطرق محدوداً بعد عامى ١٥٨٥ و١٥٨٦م وهو التاريخ الذى يتفق مع الحملة القمعية الكبيرة، وهى الخاصة بالفترة الثانية لحكم كونت أيتونا(٢٩) .

لقد كان لنزع سلاح الموريسكيين فى أراغون أهمية خاصة، فإلى جانب خطورتهم على المسيحيين فهم لا يتوقفون عن مد أبناء دينهم فى فالنسيا بالأسلحة، وقد لقى الإجراء الأول عام ١٥٧٥م معارضة من بعض النبلاء مثل دوق بيا إيرموسا وكونت أراندا، والسيد فرانسيس إرينيو وهذا يعنى أن الموريسكيين التابعين للسادة هم فقط الذين كانوا يملكون أسلحة على الرغم من ذلك فقد صودر ما بين ٣٠٥٢ و٥٤٠٦ بندقية، و٩٦٠ قوسًا فولاذيا، و١٣٨٢ حربة، وهذا يعنى أن هناك قطعة سلاح لكل منزلين من منازل الموريسكيين، ومن هنا يبدو أن الأسلحة المصادرة لم تكن قليلة.. لكن المؤشر الحقيقى يمكن معرفته من خطاب كتبه العديد من النبلاء للملك فى فبراير عام ١٥٨١م جاء فيه: "فى عام ١٥٧٥ نزعنا سلاحهم ليخدموا صاحب الجلالة، ولكن كل هذا لم يصلحهم فلم يتركوا عاداتهم السيئة..(٣٠) .

والقرار النهائى للاجتماع المنعقد فى الباردو عام ١٥٨٨ حول الموريسكيين الأراغونيين كان له الأهداف نفسها ويقول:" نظرًا لأن عددهم كبير جدا وأنهم مسلحون تسليحًا جيدًا، وعددهم كبير، مازالوا أوفياء لعقيدتهم الضالة والمنحرفة". لهذا اقترح نزع سلاحهم من جديد وبخاصة فى الشتاء(٣١)، لكن تطبيق الإجراء لم يتم فى الحال. وكان لابد من وجود تهديد بتمرد موريسكى عام مصحوب بغزو يسانده أنطونيو بيريث وذلك لكى يتم تنفيذ الإجراء. وفى عام ١٥٩٣م نزع سلاحهم من جديد على الرغم من الدعاوى القضائية بين نائب الملك؛ وكونت ساستاغو؛ وماركيز كامارسا؛ لكن تلك العملية لم تتم بدقة كما حصل سابقًا؛ لأن مجلس الدولة فى مذكرة موجهة لكونت ساستاغو كلف النبلاء أنفسهم عام ١٥٩٦م بنزع سلاح تابعيهم .

كان التوزيع الجغرافى وحركة التنقلات الموريسكية يمثلان المشكلة الثانية بالنسبة للسلطات فى قضية الموريسكيين حيث كانت تلك السلطات تحاول إبعادهم عن السواحل وتحرم تنقلاتهم إذا لم يكن لذلك ضرورة، وقد رأينا كيف أن القلق كان مستمرا فى إقليم فالنسيا، ولكن نجد الشىء نفسه فى إقليم قشتالة، فتوزيع الموريسكيين المطرودين من غرناطة لم يكن مرضيًا.. فهناك الكثير منهم فى مكان واحد

وهناك تجمعات كبيرة من الموريسكيين قريبة جدا من البحر المتوسط، وعلى مشارف إقليم غرناطة وفالنسيا، ولم يقف الموظفون الملكيون مكتوفى الأيدى، بل حاولوا معالجة ذلك الوضع بسرعة وذلك فى ديسمبر عام ١٥٧٠م، فوضعوا خطة كبيرة لبعثرة المسيحيين الجدد وإبعادهم بأكبر قدر ممكن عن أندلوثيا، ولهذا فإن كل الموريسكيين المطرودين فى ١ نوفمبر ١٥٧٠م كان يجب أن يعانوا عمليا من متاعب انتقال آخر. ولما كانت الخطة معقدة وتحتاج لإمكانيات كبيرة غير متاحة فقد أُهملت[٣٢] .

وعندئذٍ ركز الموظفون الملكيون اهتمامهم ووضعوا خطة أكثر تواضعًا ترمى إلى تغيير أماكن إقامة التجمعات المقيمة فى أندلوثيا، وهذا يخص عشرين ألف شخص تقريبًا. ولقد كان خوان باثكس سكرتير الملك فيليبى الثانى يفكر فى ذلك منذ مارس عام ١٥٧١م، وإن كان قد اعترف أنه لا يمكن تأمين عملية التموين[٣٣]، وبعد كثير من التردد حددت تفصيلات العملية فى أكتوبر وأعلن عنها فى ٢٢نوفمبر، وفى ديسمبر بدأ آلاف الموريسكيين - ربما يبلغ عددهم أكثر من عشرة آلاف - فى ترك أندلوثيا متجهين إلى أراض أخرى فى الشمال، فقد اتجه سكان أوبيدا بايثا، وكاثورلا، نحو أوكانيا، أما سكان جيان وأندوخار فاتجهوا نحو غوادالاخار، واتجه سكان الكامبودى كالاترابا نحو طليطلة، وسكان إيثيخا نحو بلاسنثيا[٣٤] .

وكان على المدن التى ستأخذهم أن توزعهم من جديد وأحيانًا لمسافات بعيدة جدا فمثلاً الذين ذهبوا إلى طليطلة تابعوا رحلتهم إلى ميدينا ديل كامبو، أما الذين ذهبوا إلى بلاسنثيا فرحلوا إلى ثيوداد رودريغو، حيث وصل فى ٣ يناير عام ١٥٧٢م ٥١٣ موريسكيا. أما الذين ذهبوا إلى قرطبة فقد بقوا فيها وذلك للتدخل الحاسم من قبل سلطات المدينة[٣٥] .

كان المقصود من طرد ديسمبر عام ١٥٧١م معالجة جزء من أخطاء الطرد الحادث فى السنة السابقة. وبهذه الطريقة بدا أن مشكلة توزيع الموريسكيين فى قشتالة قد حلَّت. لكن هذا الأمر ليس صحيحًا؛ لأن التجمعات التى تكونت فى إشبيلية وقرطبة بلغت آلاف الأفراد كانت تُعتبر خطيرة، ومن ناحية أخرى فقد عاد كثير من

الموريسكيين إلى إقليم غرناطة سرا(*)، وذلك من المدن القريبة أو من ولاية جيان .. وهذا إذا صدقنا ما عبر عنه السيد بدرو دى ديثا فى خطاب له مؤرخ فى أول نوفمبر من عام ١٥٧٣م[٣٦] .

وخلال عشر سنوات ابتداء من ١٥٧٠م كافحت السلطات بعزم وحزم من أجل احترام التوزيع السكانى السابق، وكان نجاح هذه العملية عاديا وليس متميزًا، حيث أحدث موقف مدينة قرطبة فى خريف عام ١٥٧١م مواقف مشابهة، فلقد تمسك حكام المدن ببقاء الأقلية من الموريسكيين لأسباب اقتصادية. وهذا يعنى أنه على المستوى المحلى يبدو أن الميزات التى تتحقق من وجود الموريسكيين وهم أقلية مجتهدة تفوق المخاطر السياسية المحتملة التى قد يسببونها، فقد رفضت كل من مدينتى ألكلا لا ريال، وأنتيكيرا رحيل ٢٥٠ من العبيد الموريسكيين من المدينة الأولى، و٣٣٧ من المدينة الثانية عام ١٥٧٣م، وتكرر الرفض فى العالم التالى. وقد نقل بدرو دى ديثا شهادة نائب ألكلا لاريال بخطاب وجهه للملك جاء فيه: "إن السكان حاولوا رميه بالحجارة، لأن إخراج الموريسكيين كان بالنسبة لهم كإخراج أبنائهم حيث يحبونهم حبا شديدًا، ويضايقهم كثيرًا تنفيذ ما تأمرهم به"[٣٧]. وبعد ذلك بعدة سنوات – أى فى عامى ١٥٧٩ و١٥٨٠، احتجّت كل من كارمونا وبايثا ومرسية للسبب نفسه، وكان رد مرسية أكثر وضوحًا حيث قالوا: " إن قرار مجلسكم الذى يأمر بإخراج الموريسكيين وإعادتهم إلى أرضهم القديمة يسبب ضررًا لنا، وخطرًا عظيمًا على المدينة، كما سيؤدى إلى انخفاض فى حصيلة الضرائب الملكية، ولهذا فهم يرجون صاحب الجلالة أن لا يسمح بإخراج العائلات الـ ٥٠٠ الموريسكية من هذه المدينة، والذين سُجلت أسماؤهم كى يخرجوا منها..."[٣٨]. كان الوضع داخل ولاية غرناطة مماثلاً لما سبق، فالشعب الموريسكى يتزايد بانتظام، وتبعًا لإحصاء عام ١٥٧٧م كشف عن وجود ١٤٧٨ أسرة موريسكية[٣٩]، وبإحصاء آخر أكثر دقة، وبالتالى فهو أكثر أهمية كشف

(*) هذا – بالإضافة إلى عوامل أخرى – يفسر لماذا ظل التراث الإسلامى حيا فى غرناطة بعد طرد المسلمين منها. (المراجع)

عن وجود ٨٦٩٨ موريسكيا عام ١٥٨٠م[٤٠]، وهذا العدد لا يشمل الذين هربوا من عملية الإحصاء .

هؤلاء الموريسكيون المجتمعون فى المدن (تبعًا لرأى النائب خيرونيمو ثاباتا يوجد فى غرناطة ما لا يقل عن ٣٠٠٠) كانوا يمثلون خطراً حقيقيا لا يمكن السكوت عليه، ولهذا فإن القرارات الملكية الصادرة فى ٦ مايو عام ١٥٧٦م، و ٢١يوليو عام ١٥٧٨م، و٤ أبريل عام ١٥٧٩م، و٢٦يناير عام ١٥٨١، أمرت بإعادة ترحيل أغلب هؤلاء، وكان هذا الإجراء يتعارض مع رغبة السكان المسيحيين دائمًا، وبالفعل فإن نصف عدد الموريسكيين البالغ ٨٦٩٨ حسب إحصاء عام ١٥٨٠م كانوا من العبيد الذين اعتاد السادة المسيحيون على خدماتهم، ومع ذلك فقد صدرت القرارات الخاصة بطردهم عام ١٥٨١م، وكان له مفعول وذلك بعد ثلاثة أعوام من الوعود .

وفى عام ١٥٨٤م حاول أسقف غرناطة وأسقف غواديكس وأنتيكرا وكذلك مدن لوخا وغواديكس وألكلا لا ريال أن يغيروا الموقف الملكى. وربما كانت نتيجة هذه الضغوط إنقاص عدد الموريسكيين المطرودين، فلقد جمع نخبة من الوكلاء فى النصف الثانى من يناير من العام نفسه ما بين ٣٠٠٠ و٣٥٠٠ شخص ورحلوهم إلى إقليم قشتالة، وأرسل أكثر من مائتى شخص إلى العمل فى مناجم مدينة المعادن، كما رحل ٤٠٤ أشخاص غرناطيين إلى إكستريمادورا وذلك فى أغسطس عام ١٥٨٥م وكانت هذه هى المجموعة الأخيرة التى قامت برحلة إجبارية قبل الترحيل العام أعوام ١٦٠٩-١٦١٤م. وذلك لأن السلطات كانت لا تستطيع - أو ربما لا تريد على الرغم من التنقل المستمر للموريسكيين - تنظيم عمليات ترحيل جديدة .

* * *

إن فترة العمليات المحددة قد تم تجاوزها، ما معنى إعادة عملية التوزيع السكانى والقيام بالعديد من الإحصاءات، ودفع القساوسة والرهبان من أجل حملة تبشيرية

أفضل ؟ فالموريسكيون يصرون على أخطائهم ولا يحفلون بالتحذيرات، ومازالوا أعداء خطيرين، فيجب القيام بحلول جذرية أكثر جدوى، يمكن بها تجنب خطرهم .

وهناك سابقة أظهرت جدواها إلى حد كبير وهى طرد الغرناطيين من بلدهم الأم، فلقد ظهر هذا الحل فى وقته ممتازًا، فهو إلى جانب حله للصراع تحول إلى مثال أو تحذير للتجمعات الموريسكية الأخرى وخلال فترة تم تقليد إجراء عام ١٥٧٠ حتى كان آخر مظاهره الطرد المضحك فى أغسطس عام ١٥٨٥م: وبعد هذه الفترة أرسل الكثير من الجهات والأفراد تقارير وآراء للملك تقترح عليه إجراءات جديدة، وكان الطابع المميز لتلك الاقتراحات هو مظهرها المتشدد .

ربما كان الإجراء أو الاقتراح الذى تغلّب على الاقتراحات الأخرى هو طرح فكرة الطرد العام (ولقد كانت قائمة الاقتراحات التى قدمها رجال دين ومستشارون وقضاة طويلة جدا) والذى بالإضافة إليه ظهر بإصرار كبير اقتراحان آخران: الاقتراح الأول يقضى بإنشاء أحياء مغلقة خاصة بالموريسكيين، والآخر يقضى بالقضاء التدريجى على الأقلية. ولهذا فإن هذين الاقتراحين يستحقان منا أن نتوقف عندهما . ومن بين المؤيدين للاقتراح الأول نجد الراهب فرانسيسكو دى ريباس. لقد أخطأ بورونات عندما نسب للراهب فرانسيسكو دى ريباس موافقته على الطرد، وقدم نسخة غير كاملة ومليئة بالأخطاء للتقرير الطويل لذلك الراهب[٤١]، والحقيقة أن ما كان يدافع عنه ريباس ويقترحه هو منح الحرية للموريسكيين، أى أن يكون لديهم القدرة فى الاختيار بين اندماج كامل ودون تحفظات للجماعة المسيحية، وبين أن يستمروا على وفائهم للإسلام .

ففى الحالة الأولى تجب حراستهم بقوة من جانب المسيحيين القدامى، وفى الحالة الثانية يجب أن ينفوا إلى الأحياء الخاصة بهم وبذلك ينتهى غموض الموريسكيين الذى لا يُطاق، وفى هذا الموضوع ورد ما يلى: "من أراد أن يُعَمِّد ابنه فليعمده، ومن لم يُرِد أن يفعل ذلك فهو حر. وهؤلاء الذين يعمدون أبناءهم بإرادتهم، ويقبلون الدين الكاثوليكى برغبتهم، يجب أن يظهروا ذلك علانية، ثم يضمون للمسيحيين ويُجبرون على الاعتراف والقيام بكل الشعائر المسيحية، وينبغى أن يُعرف كيف يعيشون فى بيوتهم، ويزوّجون

من مسيحيات، مع تحذيرهم بأنهم سيُعاملون بشدة إذا ابتعدوا عن الكاثوليكية، وسيُعاقبون مثل عقاب أتباع لوثر، وهؤلاء يجب أن يُعلَّموا، ويمكن أن يُنتَظر منهم تحقيق الآمال. وأما الذين لا يعمدون أبناءهم فسيُعرفون بعدائهم، ويجب أن نعتبرهم مسلمين ولا ينبغى بذل الجهد فى تنصيرهم، وحيثما وُجِدوا يجب أن يُراقبوا – وعلى حسابهم – بعددٍ كافٍ من الجنود ليؤمن شرهم، وأن يكون قضاتهم وحكامهم من المسيحيين، أما من ناحية العقيدة فلا يُساعدون، كما أنهم لا يُمنعون من إنشاء مكان متواضع يستطيعون أن يمارسوا به شعائرهم الدينية؛ مادام لا يوجد خطر فى أن يتحول أحد المسيحيين إلى الإسلام ..."(٤٢) .

وبروح التقرير السابقة نفسها – وإن كان يختلف عنه فى الإجراءات – عبر خطاب ألونسو غوتيريث(٤٣) المرسل من إشبيلية عام ١٥٨٨م، حيث اقترح أن يتم إعادة تجميع الموريسكيين تبعًا للقرابة بمعدل ٢٠٠ عائلة، وأن يوضع لهم زعيم مسيحى يمارس عليهم إشرافًا مستمرا؛ فلا يتم عقد قران دون إذنه ويُحرَّم عليهم امتلاك الأسلحة، ويدفع كل تجمع ضريبة عالية للملك، ويكون للملك الحق فى خُمس الميراث، كما يقترح ألويسو عقوبات شديدة فى حالة عدم احترام اللوائح، وهذه العقوبات تتراوح بين العبودية ومصادرة الأموال والأعمال الإجبارية الشاقة فى المناجم أو التجديف فى السفن، كما يحرم عليهم التنقل وأن يحملوا علامات مميزة لهم مثل: "حرف" أو "علامة على الوجه" فى مكان لا يمكن تغطيته حتى يُعرف أنهم موريسكيون(٤٤) .

أما مؤيدو القضاء على السلالة الموريسكية فقد ظهروا بشكل عنصرى، ومنهم على سبيل المثال بدرو بونثى دى ليون الذى قضى عشرين عامًا فى الخدمة الملكية، وكان على معرفة بالمشاكل المتعلقة بالعمل فى السفن، ولهذا كان يفكر منذ عام ١٥٨١م فى حل المشكلة الموريسكية، وينصح بإرسال الشباب الذين هم بين الثامنة عشرة والأربعين للعمل فى السفن، وأن يُحرموا من التغذية الجيدة، وبهذا لا يهددون الدولة وينتهى أمرهم بالانقراض ويقول: "إن قدرة الذين هم فوق الأربعين على التناسل قليلة، وبهذا يمكننا فى وقت قصير طرد هذا الجنس الملعون من أعداء حقيقيين لصاحب الجلالة ..."(٤٥) .

وقبل ذلك بسنوات أى فى عام ١٥٧٣م وصل المثقف توريخوس إلى نتائج مماثلة، وهذا الشخص كان قسيسًا فى داريكال عند حدوث تمرد غرناطة. وهو يحتاج منا لاهتمام أكبر، فلقد نجا من الموت لكونه ابنًا لأب مسيحى وأم موريسكية فدافع عنه أقرباء أمه[٤٦]، وكل هذا لم يمنعه من وضع خطة للقضاء على الموريسكيين، وذلك باختطاف الأطفال الذين هم دون ست سنوات؛ ثم يُرعَون ويُربون من قبل نصارى حقيقيين، وأن يُحَرَّم الزواج بين الموريسكيين حتى ينتهى أمرهم فى وقت قصير، وكان فيما قال: "إنه ابتداء من اليوم ينبغى أن يأمر الملك بمنع زواج أى موريسكى بموريسكية، وإذا رغب بعضهم فى الزواج فليكن مع نصارى قدماء، وهذا ما يجعل رجالهم ونساءهم يبقون بلا زواج، وبذلك يتناقص هذا الجنس وينقرض، والذين سيتزوجون من نصارى قدامى سيكونون قلة، وبذلك يمكن أن تراعى عملية النظافة – يقصد نظافة الدم – ويحدث معهم ما حدث مع اليهود فى قشتالة، فقد كانوا كثيرين ثم انتهوا الآن بهذا الأسلوب، وعندما يتزوج موريسكى من نصرانية فإنه سيتركها تربى أبناءه على النصرانية خوفًا منها، والشىء نفسه يحدث عند زواج موريسكية من مسيحى، وفى حالة عدم زواجهم ينقصون وينقصون .."[٤٧]. لقد دافع عن هذا الرأى أسقف سيجوربى السيد مارتين دى سلباتيرا الذى كتب عام ١٥٨٧م: "سوف ينقرضون من كل مكان إذا تم خصى الرجال والنساء"، وكذلك ألونسو غوتيريث، الذى يرى فيه إجراء يرمى لتحديد عددهم فقط[٤٨].

وهكذا يتضح أنه كان هناك اتجاهان من الأفكار ينتشران بسرعة على الرغم من أن أصحابهما أقلية وذلك فى السنوات العشرين الأخيرة من القرن السادس عشر لكن الاتجاه الأقوى الذى كان مسموعًا فى الإدارات الحكومية كان ذلك الذى يتبنى الطرد، وقد اتضح هذا من خلال الآراء المتداولة في اجتماعات لشبونة ذات الأهمية الكبرى؛ حيث كان يحضرها فيليبى الثانى الذى نُصِّب ملكًا على البرتغال، وقامت لجنة مكونة من الراهب دييغو شابيس، ورودريغو باثكيث، وديلغادو، ودرست الوضع الحرج الداخلى والخارجى والخطر الذى يمثله الموريسكيون، والاقتراحات المعروضة لحل المشكلة، وقد عقدت هذه اللجنة جلساتها فى ٤ ديسمبر عام ١٥٨١، وكذلك عقدت لجنة أخرى فى

١٩ يونيو و ١٣ سبتمبر عام١٥٨٢م، وقد انتهى كلا الاجتماعين إلى اقتراح الطرد العام الذى أعده مجلس الدولة فى ١٩ سبتمبر للعام نفسه .

إن أغلب الآراء التى يعتمد عليها الحل النهائى كانت تقوم على دراسة الفوائد والأضرار الناتجة عن الطرد؛ أما الأضرار فقد كانت اقتصادية قبل كل شىء؛ حيث سينخفض دخل الملك والنبلاء، وكذلك هناك أخطار سياسية منها الخوف من الحوادث التى قد تصاحب التنفيذ. أما الأخطار الدينية فهى خسارة المسيحية لتلك الأعداد بصورة نهائية. لكن كل هذه الأضرار كانت تُعتبر أقل من الفوائد التى قد تترتب على الطرد لصالح السلام والوحدة؛ ولهذا كان أغلب رجال الدين تقريبًا من مؤيدى الطرد(*)، ومنهم أسقف طليطلة وأسقف فالنسيا، ورجال محاكم التفتيش فى فالنسيا، وكان بعضهم يرغب فى أن لا يفيد منهم الإسلام وذلك بإرسالهم إلى جزيرة جرداء مثل تيرنويا، حسب اقتراح أسقف سيغوربى(٤٩) .

وهكذا فقد وضع قرار الطرد ولم ينفذ فى البداية، وذلك بسبب معارضة النبلاء الذين يتضررون من هذا الإجراء مثل ماركيز دينا، بالإضافة إلى الترتيبات المادية الكبرى التى يتطلبها الإجراء وكذلك بسبب الوضع الدولى الخطير الذى استولى على اهتمام الملك .

وهكذا فإن التوتر بين الجماعتين خفت حدته قليلاً، لدرجة أنه نصح بإجراء حملة تنصير جديدة؛ وذلك فى اجتماع ١٧ يونيو عام ١٥٨٧م بمدريد، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون فى جدواها، فأصبح الطرد هو الحل الوحيد، وفى عام ١٥٩٨م وقعت معاهدة سلام مع فرنسا، وكان ذلك بداية لمرحلة من السلام العام؛ كما بدأت الطبقة الأرستقراطية فى أراغون وفالنسيا تفكر فى الفوائد التى يمكن تحصيلها فى حالة استبدال مهاجرين جُدداً بالموريسكيين(٥٠)، وهكذا فقد تحدد منذ عام ١٥٩٨م مستقبل الموريسكيين .

(*) لسنا متأكدين من تأييد رجال الدين لطرد الموريسكيين. إن دراسات ماركيث بيانويبا تضع هذا الأمر محل شك. انظر كتاب "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى". (المراجع)

هوامش الفصل الثالث

(١) I.V.J. Envio I, p. 138, Madrid , 17-III-1582

(٢) Id. p. 144, 15-III- 1582.

يمكن إجراء مقارنة بين هذا الخوف من مؤامرة وآخر مشابه له انتشر فى المستعمرات الجديدة فى أمريكا وكان أبطاله الهنود سكان أمريكا الأصليين . انظر:

J.P. Duviols: ***La lutte contre les religions autochtones dans le perou colonial.*** Paris- Lima, 1971, p. 176 -181.

(٣) A.G.S. Camara de castilla, le. 2.174.

(٤) I.V.J. Envio 1, p. 138.

(٥) A.G.N. Inquisicion, le. 4.529. citado por Cardaillac: ***Morisques et chretiens: un affrontement polemique***(1492 – 1640) Paris, 1977, p. 51

(٦) I.V.J. Envio I, p. 163.

(٧) Id. Envio I, 29-I-1972.

(٨) T. Halperin Donghi: ***Un conflicto nacional***...p. 117.

(٩) من بيدرو دى ديثا إلى الملك فى ١٥٧٧/٤/٢٨م.

(١٠) يوجد الملف كاملا فى A.G.S. Camara de Castilla, leg. 2.179.

(١١) يبدو أن سكان كل من مدينة وقرى ديل الكامبو وديل الكامبو دى مونتييل هم الذين أبدوا نوعا من اللامبالاة أو القنوط واليأس.

(١٢) F. Braudel, op. cit. t. II, p. 480.

(١٣) I.V.J. Envio I. 183.

(١٤) L. Cardaillac : ***Morisques et protestants***. (Al-Andalus, 1971, p. 44)

(١٥) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.178.

(١٦) Id.id. leg. 2.182,

خطاب موجه من دون بيدرو دى كاسترو إلى خوان باثكيث فى ١٩/٧/١٥٨٠م . وبالنسبة لتمرد عام ١٥٨٠م ، انظر المرجع التالى :

Celestino Lopez Martinez : ***Mudejares y moriscos sevillanos*** (Sevilla, 1935) y Ruth Pike: ***An urban minority : the moriscos of Seville*** ("International Journal of Middle East studies", pp. 368 -377).

(١٧) I.V.J. Enviol, envio183.

(١٨) S. Garcia Martinez : ***Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II,*** Estud is 1972, p. 144)

(١٩) A. Melon: ***Lupercio Latreas y la guerra de moriscos y montaneses en Aragon a fines del siglo XVI***, Zaragoza, 1917, pX.

(٢٠) G. Maranon: ***Antonio Perez***, t. II, pp. 639-640 (Madrid, 1954). J. Regla: ***Estudios sobre los moriscos*** , los 150 – 151.

(٢١) B. Vincent : ***Les bandits morisques en andalousie au XVI siecle*** ("Revue de Histoire moderne et Contemporaine" , 1974, pp. 397 – 399)

(٢٢) S. Garcia Martinez, op. cit. p. 145 y APENDICE XII

(٢٣) Id. P. 150 .

(٢٤) Ibid . p. 154.

(٢٥) J. Regla, op. cit. p. 151

(٢٦) T. Halperin Donghi, op. cit. pp. 118-119. يقصد فيليبى الثالث.

(٢٧) Id. p. 119.

(٢٨) P. Boronat , op. cit. t. I, p. 285.

(٢٩) S. Garcia Martinez, op. cit. p. 155.

(٣٠) I.V.J. Envio I, p. 185.

(٣١) J. Regla, op. cit. 44 – 48 .

(٣٢) B. Vincent : ***l expulsion des morisques du royaume du Grenade***...pp. 227 – 229.

(٣٣) A. G. S. Camara de Castilla, le. 2.161, fol. 15.

(٣٤) Id. id. Le. 2.167, fol, 24.

(٣٥) استمرت عملية طرد الموريسكيين فى مجموعات صغيرة من مملكة غرناطة . ومن بين هؤلاء يوجد أنطونيو، والد أنطونيو دى بالور، وأخوه فرانسيسكو. وقد كانا مسجونين منذ عام ١٥٦٩م وقد تم ترحيلهم إلى إقليم جيليقة فى عام ١٥٧٢م، وقد استطاعا الهرب عام ١٥٧٥ م بمساعدة عبد موريسكى ، وتم القبض عليهما من جديد فى أوبورتو فى يناير عام ١٥٧٦م، حيث تم ترحيلهما إلى بعض الأديرة ، حيث أودع أنطونيو فى دير مونتديرامو فى (أورنسى) ، أما فرانسيسكو فأودع فى دير ساموس فى (لوغو) . وبعد ذلك لا نعلم أين ذهب أنطونيو ، أما فرانسيسكو فقد تم ترحيله عام ١٥٧٩ إلى الدير البنديكيتى دى سان بيثنتى . وفى عام ١٥٨٣م أو ١٥٨٤م أعلن رغبته فى أن ينضم إلى السلك الكنسى ، وهو ما أزعج رئيس دير ساهاغون . انظر :

A.G.S. Camara Cedulas, libro 257, fol. 50b y Camara de Castilla, leg. 2.172, 2.178 y 2.187.

(٣٦) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.174.

(٣٧) Id. id. 2.175, 2-XI-1574.

(٣٨) Ibid. le. 2.182, 12-I-1580.

(٣٩) Ibid. le. 2.179, Pedro de Deza, 9 – VI -1577.

(٤٠) Ibid, le. 2.181, ver N. Cabrillana: ***Esclavos moriscos en la Almeria del siglo XVI*** . (Al-Andalus, 1975, pp. 53 – 128).

(٤١) P. Boronat y Barrachina, op. cit. pp. 296 – 297.

(٤٢) I.V.J. Envio I, p. 183. هذا النص يعود إلى عام ١٥٨٢م.

(٤٣) P. Boronat y Barrachina, op. cit. pp. 634 y ss.

(٤٤) Ver supra, p. 65.

الاقتراحات نفسها لألونسو تشاكون.

(٤٥) I.V.J. Envio I, p. 110

(٤٦) L. del Marmol Carvajal : ***Historia del rebelion***..., op. cit. pp. 196 y 234.

(٤٧) A. G.S. Camara de Castilla, le. 2.178, Madrid, 29 – VIII- 1573 .

(٤٨) P. Boronat y Barrachina, p. 346 y p. 634.

(٤٩) Id. P. 606 y p. 633.

(٥٠) J. Regla, op. cit. p. 8.

الفصل الرابع

التوزيع السكانى للموريسكيين

إن كتاب "جغرافية إسبانيا الموريسكية" لمؤلفه هنرى لابيرى الذى صدر عام ١٩٥٩ يُعتبر واحداً من ثلاثة أو أربعة أعمال رئيسية فى دراسة الأقلية التى نقوم بها، ويُعتبر ذلك الكتاب هو المرجع الأساسى لهذا الباب. لكن أى كتاب - مهما كانت قيمته - لا يُعتبر مرجعًا وحيداً، لهذا يجب أن نقوم بإيجاد توازن بين الاعتبارات التى تبدو مؤكدة، وبين تلك التى مازال مشكوكًا فيها. فعندما رغب لابيرى فى القيام بمهمته استعمل المراجع الوثائقية، وخاصة وثائق كل من فالنسيا وسيمانكاس. والمعلومات التى قدمها لم تكن محل جدال أبداً لدى مؤرخى مملكة أراغون، ابتداءً من خوان ريغلا، الذى اختصر كل إسهام المؤرخ الفرنسى لابيرى، فى كتابه الأول "دراسات حول الموريسكيين" الصادر عام ١٩٦٠م. وعلى العكس من هذا تمامًا يجب أن ننبه إلى عدم وجود أية معلومات عن الموريسكيين الغرناطيين (على الأقل قبل عام ١٥٦٨م) فى كتاب "جغرافية إسبانيا الموريسكية". فلابيرى لم يناقش مشكلة عددهم ولا إعادة توزيعهم، أما حول الجزء الباقى من إقليم قشتالة فقد أعارها الكاتب اهتمامًا أكبر، لكن الدراسات الحديثة التى ظهرت مؤخراً تضع شكوكًا حول بعض افتراضاته أو تضيف معلومات مهمة تكمل تلك النقطة. وسنستفيد من تلك النتائج التى تم التوصل إليها متبعين بشكلٍ دائمٍ خطة ذلك الكتاب الرائد وطريقته. ومن الممكن تقديم خطة جغرافية جديدة لإسبانيا الموريسكية التى اختفى الغموض حول الكثير من مناطقها، وللأسف ليس منها كلها .

استند لابيرى بالنسبة لمملكة فالنسيا إلى سبع وثائق، أربع منها حول الموريسكيين (الإحصاء الكنسى عام ١٥٢٧ - ١٥٢٨م)، وتقرير حول نزع سلاح الموريسكيين عام ١٥٦٣م (الإحصاء الكنسى أعوام ١٥٨٥-١٥٨٧م)، و (الإحصاء الضريبى عام١٦٠٢م)، وثلاث وثائق أخرى حول سكان المملكة كلها: وصف مملكة فالنسيا لمؤلفه أ. مونيوث (١٥٦٥- ١٥٧٢م) ، وكذلك إحصائيات عام (١٦٠٩ - ١٦٤٦م)[1]، وإلى جانب هذا يمكن أن يُضاف الإحصاء الكنسى لعام ١٦٢٢م الذى نشره "روبليس" وإحصاء بشأن الموريسكيين فى أسقفية تورتوسا عام ١٥٨٧م الذى لم يُنشر بعد[2]. فهل يمكن أن توجد علاقة بين هذه الوثيقة وتلك التى لها التاريخ نفسه، والتى يذكرها لابيرى دون أن يعتمد عليها؟ من المحتمل أنها ليست إحصائية دقيقة، بل افتراضات حول الموريسكيين فى تلك الأسقفية، ويؤيد ذلك كثرة الأرقام المبالغ فيها: تورتوسا لابيلانوبا ٤٥ منزلاً، وميرابيت ١١٠، وبنى كاتيت٦٠، وأسيون ١٥٠، وريباروخا ٤٠، (هؤلاء تقريباً مثل سكان مملكة فالنسيا، وإن كانوا يتخفون)، وتيينس ٣٠، وبنى فاجت ٧٠، ومورا ٣٠٠، وتيبيثا ٣٠٠، وغارثيا١٥٠ . فى هذه الأماكن يمثل المسيحيون القدامى الأغلبية .

أما فى مملكة فالنسيا: تشبرت ٧٥، وبوريول٦٠، وماسكاريل ١٥، ولابيلابيا٥٠، تاليس٤٠، سويرا١٤٠، وأرتيسا٤٥، وفانثارا١٥٠، ولالوتيثا٤٠، ولا ألكوديا دى فانثارا٥٠، وأسليدا٩٠، وبنى تندوز٤٠، وعينة٥٠، وبيو٣٠، وألكوديا دى أسليدا٤٥، وأرتانا١٥٠، وتشنيس ١٠، ولايوسا٥٠، ولابال دى أوكو٤٠، وأوندا٢٥، وكاستيلو٢٠[1مكرر] .

وباستثناء كل من تشنشيس وكاستيلو، فإن الأماكن الـ ٢١ الباقية من مملكة فالنسيا وردت فى جداول ص ٣٣ - ٣٥ فى كتاب "جغرافية إسبانيا الموريسكية". وهذه الأرقام لعام ١٥٨٧م تبدو لأول وهلة ممكنة باستثناء ١٤٠ منزلاً فى سويرا؛ لأنها لا تتفق مع المنازل الـ ٦٥ التى كانت فيها عام ١٥٧٢م (٦٧ منزلاً عام ١٦٠٢م). ويُعتبر إحصاء عام ١٥٨٧م بصورة عامة محتملاً .

وعلى كل الأحوال فإن هذه الوثيقة لا تتناقض مع النتائج التى توصل إليها كل من: لابيرى وهالبرين دونغى وتبعًا لوثيقة (١٥٦٥ -١٥٧٢م) فإن عدد بيوت الموريسكيين

يصبح بين ١٩٠٠٠ و٢٤٦٩٥ منزلاً فى عام ١٦٠٢م، و٣١٧١٥ فى عام ١٦٠٩م ويبدو أن الرقم الأول منخفض قليلاً، والثانى مرتفع. ويضرب هذا الرقم بـ ٥و٤ كرقم متوسط لعدد أفراد الأسر للحصول على عدد الأفراد، يكون عددهم فى عام ١٥٧٢ حوالى ٨٥٠٠٠ شخص، وفى عام ١٦٠٢م يكون عددهم ١١١٠٠٠ شخص على الأقل، وفى عام ١٦٠٩م يكون عددهم ١٤٣٠٠٠ . إذن فالموريسكيون يمثلون أقلية مهمة؛ حيث تبلغ نسبتهم فى عام ١٥٧٢م حوالى ٢٩٪ من عدد سكان مملكة فالنسيا البالغ (٦٤٠٦٥ منزلاً)، و ٣و٣٠٪ عام ١٦٠٩م. وهذه النسب الإجمالية تعكس بطريقة غامضة توزيع السكان بين الحضر والريف، فباستثناء المناطق الصغيرة لخاتيبا وغانديا فإن الموريسكيين لا يعيشون فى مناطق الرى بالأمطار **regadio**. العكس من ذلك تمامًا يحدث فى أغلب الأماكن الجبلية الواقعة بين نهرى ميخارس، وخوكار. وبهذا الشكل فإن أغلبية الموريسكيين يعيشون فى الأرياف ماعدا بعض الألوف الذين يسكنون المدن التالية : كاستيون، وألسيرا، وشاطبة، وفالنسيا .

وهناك خاصية أخرى وهى أن الأغلبية يعيشون فى أراضٍ تابعة لأحد الإقطاعيين المدنيين، ويوجد أيضًا من يعيش فى إقطاعيات كنسية وأميرية، لكن هذه النسبة قليلة مقارنة بالأخرى. وهذه الطريقة فى التوزيع كانت من نتائج حرب الاسترداد وخطوطها الرئيسية التى وضعت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فحيث قاوم المسلمون بقوة تم طردهم؛ كما حدث فى شمال الإقليم وفى العاصمة. وفى حالة استسلامهم وتوقيع عهود معهم؛ تمكنوا من البقاء، أما الأماكن التى بقيت خالية فأعطيت للمسيحيين .

ولمعرفة توزيع الموريسكيين فى أراغون لدينا أربع وثائق: الأولى إحصاء عام١٤٩٥م وهو ذو أهمية كبيرة، والذى يقوم أنطونيو سيرانو مونتالبو بالبحث فيه، وننتظر نشره قريبًا . وبهذه الوثيقة بلغ عدد المدجنين (وهم الذين لم يكونوا موريسكيين بعد) حوالى٥٠ ألفًا، ويجب أن نطرح من هذا العدد من هاجر عند فرض التنصير الإجبارى، ومن المحتمل أنهم قليلون .

الوثيقة الثانية يرجع تاريخها إلى عام ١٥٧٥م ونتائجها ١٠٨٢٥ منزلاً أى ٤٨٧١٢ فردًا تقريبًا . الوثيقة الثالثة هى إحصاء عام ١٥٩٣م، وسببه قرار نزع السلاح، الذى

كشف عن وجود كميات هائلة من الأسلحة. وتبعًا للموجز الذى نشره ألفونسو ألباريث باثكيث[٣] كان يوجد فى أراغون حينذاك ١٦٨٦٥ أسرة، لكن الأرقام مبالغ فيها؛ مما يجعلنا نعطيها قليلاً من الثقة ويحتمل أنها تجنح إلى الزيادة، بينما نعطى قيمة أكبر لإحصاء عام ١٦٠٩م، الذى سجل ١٤١٠٩ أسرة أى ٦٣٤٩١ فرداً، وقد أجرى هذا الإحصاء قبيل الطرد بقليل، وكانت نسبة الموريسكيين فيها ٢١٪ من السكان .

كذلك فإن توزيع السكان فى مملكة أراغون كان متباينًا، فالقليل من الموريسكيين كانوا يعيشون فى المناطق الجبلية، والأغلبية يتجمعون على طول نهر الأيبرو وتفريعاته التى على الجانب الأيمن فى: خالون، وهويربا، وأغواس. وكذلك توجد ثلاثة مراكز: واحد فى الشمال حول أويسكا، والآخر فى الجنوب حول الباراثين، والثالث فى الغرب. وفى بعض المدن مثل سرقسطة وطرويل وكلاتايود كان للموريسكيين أحياء خارج الأسوار[٤] .

أما فى قطالونيا فإن الموريسكيين كانوا دائمًا قليلين؛ ومع هذا فإن عددهم كان يُقدر لمدة طويلة بحوالى خمسين ألفًا إلى أن أثبت كل من ج. ندال، وأى. جيرالت أن الرقم مبالغٌ فيه، واقترح المؤلفان مقدار عشرة آلاف، وقد تبع ريغلا هذا الرأى. أما لابيرى فقد اختصر الرقم إلى خمسة آلاف، وفى الحقيقة إن هذا التأكيد لا قيمة له، وكل ما نؤكده قلة عدد الموريسكيين فى قطالونيا. ويؤكد هذا الرأى الوثيقة المؤرخة عام ١٥٨٧م التى ذكرناها سابقًا، حيث نشير إلى وجود عشر قرى موريسكية تقع بجانب وادى نهر إبيرو. وهذه القائمة لا تتفق مع القوائم التى ذكرها مؤرخون آخرون، لكنها لا تختلف كثيراً عنها، ففى وثائق أعوام (١٤٩٧ - ١٥١٥ - ١٦١٠) يذكر القرى التالية: فينابرى، فلكس، إسكو. هذه القرى لم تذكر فى وثيقة عام ١٥٨٧م فى حين ذكرت بنى كانت وأسيون. وإذا تركنا هذا التعدد فى التفصيلات جانبًا ينبغى أن نؤكد أن عدد سكان محافظة تاراغونا الحالية من الموريسكيين عام ١٥٨٧م يصل إلى ١٢٥٥ منزلاً، أى حوالى ٥٦٥٠ فرداً، أو ٦٢٧٥ وذلك بالضرب فى ٥، ويجب أن نضيف إليهم الموريسكيين الذين يعيشون فى ثلاث قرى فى ليريدا، وقد كان عددهم عام ١٦١٠م حوالى ١٥٠٠ فرد. إذن يكون حاصل عدد الموريسكيين القطالونيين هو بين سبعة

وثمانية آلاف، وهذا يؤكد الضعف العددى، كما يؤكد أن تقدير لابيرى كان منخفضًا عن العدد الحقيقى(٥) .

أما الوضع فى مملكة غرناطة فقد كان مختلفًا بطريقة جذرية، حيث إن الموريسكيين أكبر عدداً . ففى دراسة حديثة استطاع فيليب رويث مارتين أن يضع بدقة التطور السكانى لتلك المملكة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، وفى هذا المثال كما فى باقى الأمثلة لدينا معلومات قليلة جدا عن النصف الأول من ذلك القرن(٦). ففى عام ١٥٦١م كان يوجد ٦٠٨٥٧ أسرة، أى ما يساوى ٢٧٤٠٠٠ فرد، وفى عام ١٥٨٧م كان يوجد ٤٤٤٨١ أسرة، أى ما يساوى ٢٠٠٠٠٠ ساكن، وفى عام ١٥٩٧م كان يوجد ٤٧٣٢٥ أسرة؛ أى ما يساوى ٢١٣٠٠٠شخص. ومن هذه الأرقام المؤكدة يصعب التمييز بين نسبة السكان المسيحيين ونسبة الموريسكيين، وقد حصر رويث مارتين عدد المفقودين بين عامى ١٥٦١م و١٥٨٧م وعدد السكان الجدد؛ مما جعله يقدر أن العدد قبل بداية التمرد كان ١٥٥٠٠٠ مسيحى، و ١٢٠٠٠٠ موريسكى تقريباً(٧)، وهذه الأرقام لها معنى كبير، لأنها تبين أن الموريسكيين كانوا أقلية كبرى مؤثرة، أى حوالى نسبة ٤٣٪ من عدد سكان غرناطة وهى أعلى نسبة فى كل إسبانيا، ومع ذلك فهم أقلية .

ولكن يجب أن نعلم أن هذا التقسيم بين المسيحيين والموريسكيين مقبول ولكن مع بعض التحفظات. وقبل أى شىء يجب أن ننبه إلى أن عدد السكان الجدد ١٢٥٠٠ أسرة، والمفقودين بين عامى ١٥٦١ و١٥٨٧م حوالى ١٦٣٨٦ أسرة ومحصلتهم ٢٦٠٠٠ أسرة أى ١٣٠٠٠٠ شخص، وتقدير ف. رويث لا يعنى فقط أن السكان المسيحيين لم يزد عددهم بين عامى ١٥٦١ و١٥٨٧م، وهذا يبدو مقبولاً، لكنه يقول أيضًا إنه تم طرد كل الموريسكيين وهذا غير صحيح. ففى عام ١٥٨٧م كان هناك حوالى عشرة آلاف مازالوا يعيشون داخل مملكة غرناطة، وإذا أضفنا هذا الرقم إلى ١٣٠٠٠٠ الذى ذكرناه سابقًا يكون المجموع ١٤٠٠٠٠ موريسكى وهو أكثر بقليل من عدد المسيحيين عند بداية نُذُر الطرد .

ومن الضرورى أن نؤكد أنه من خلال الوثائق يعتبر هذا الرقم تقريبيا؛ ولهذا نستعمل إحصائيات تفصل بوضوح بين السكان المسيحيين والموريسكيين فى كل قرية، ويوجد من هذا النوع من الوثائق اثنتان على الأقل يمكن الاعتماد عليهما فى السنوات السابقة للتمرد عام ١٥٦٨م. هذه الوثائق عبارة عن إشارات تقدمها لنا كتب ألفت من أجل إعادة توطين سكان المملكة فى الفترة بين عام ١٥٧١م و١٥٧٨م، ومن ناحية أخرى فعن طريق الإحصائيات التى تمت عامى ١٥٧٤م تحت إشراف مجلس السكان[8]. وفى الحالتين كلتيهما فإن الباحثين كانوا يسألون السكان الباقين عن وضع القرى فى السابق، وهذا يعنى أن هذه الأرقام تقريبية، لكن إجراء مقارنة بين أرقام الوثيقتين والإحصائيات، والتى تعتمد على معايير أكثر دقة لعام ١٥٦١م يسمح بقبول النتائج التى قدمها الباحثون بصورة إجمالية أكثر من نتائج إحصاء الباحثين الذين كانوا يعدون المنازل وتوجد بعض الأرقام المبالغ فيها[9] .

وهناك صعوبة أخرى سببها عدم وجود تناسق بين الوثائق، فبعض كتب إعادة التوطين – ومن حُسن الحظ أنها قليلة – قد ضاعت أو فسدت، والبعض الآخر – وهو قليل أيضًا – لا يحدد بدقة ما إذا كانت الأرقام هى عدد كل السكان أم الموريسكيين فقط. ويُعتبر إحصاء عام ١٥٧٤م أكثر فائدة، لأنه يحسب عدد الموريسكيين فقط، ولكن للأسف ينقصه معظم المعلومات عن محافظة مالقة، ودائرة ماركيز لوس فيلييس والمدن، ولهذا سنثبت فيما يلى البيانات، ونحاول إكمالها مستعينين بإحصائيات عامى ١٥٦١ و١٥٦٨م وذلك بالنسبة للمناطق والمدن التى نسيت فى وثيقة سيمانكاس. وقد وصلنا إلى الإجمالى التالى: ريف غرناطة، وادى ليكرين، موتريل والأرض التابعة لها، البشرات، دائرة الماركيز دى سينيت، إقليم باثا (دون عاصمته)، ألمرية وإقليمها، وادى المنصورة (دون دائرة ماركيز لوس فيليس)، ويبلغ ذلك ٢٣٧٧١ أسرة، وذلك تبعًا لوثيقة سيمانكاس .

أما باقى المملكة وذلك بالرجوع إلى إحصائيات عامى ١٥٦١ و١٥٦٨م فهى: غرناطة : ٥٢٨٠ أسرة موريسكية[10]، باثا : ٦٠٠، غواديكس : ١٠٠٠، فينيانا،

إبيلا، البروثينا : ٤٨٠، دائرة ماركيز فيليس : ١٣٥٠ على الأقل، أراضى روندا وماربيا : ١٥٠٠ على الأقل، أراضى مالقة وفيليس مَلَقة ١٧٠٠ على الأقل .

وإذا أخذنا فى اعتبارنا تزايد بعض التقديرات ونقص بيانات ٢٣ مكانًا، فإن رقم ٣٥٦٨١ أسرة أى حوالى ١٦٢٠٠٠ فرد هو الرقم الإجمالى المناسب. وهو أكثر من الـ ١٢٠٠٠٠ التى ينسبها ف. رويث مارتين لتلك المملكة، كما أنه أكثر من الـ ١٤٠٠٠٠ التى نسبناها نحن سابقًا. فهل يجب أن نعتبر هذا الرقم هو الحد الأقصى ؟ من الصعب اعتبار ذلك حتى ولو أخذنا كل الاحتياطات. ولهذا فإذا كان إجمالى السكان ٢٧٥٠٠٠ شخص، منهم ١٢٥٠٠٠ مسيحى يكون عدد الموريسكيين ١٥٠٠٠٠. وهكذا يكون الموريسيكيون أغلبية .

هذا التقدير فى مظهره المبسط يخفى كثيراً من الاعتبارات الإقليمية المهمة، فالموريسكيون كانوا أقلية فى غرب المملكة من لوخا إلى ماربيا مع بعض الاستثناءات، مثل مرتفعات بنتوميز شرقى ملقة، وكذلك مرتفعات روندا. وكانوا أغلبية فى ريف غرناطة، ويمثلون كل السكان تقريبًا من وادى ليكرين حتى دائرة الماركيز دى فيليس، مروراً بالبشرات، وإقليم ألمريَّة وغواديكس وباثا ووادى المنصورة، وهنا كما فى مملكة أراغون يتبع توزع السكان المعروف فى منتصف القرن السادس عشر نتائج أحداث حرب الاسترداد، فحينما كانت المقاومة باسلة - كما حدث فى مالقة - هاجر المسلمون، وفى الأماكن الأخرى تمكنوا من البقاء فى أرضهم .

وكما لاحظنا فى مملكة فالنسيا فكذلك يلاحظ فى مملكة غرناطة عدم وجود موريسكيين غرناطيين فى المدن مع خمسة استثناءات لخمس مدن. وقد كانت هذه المدن فى وسط أو فى شرق المملكة وهى: باثا، وغواديكس، وألمرية، وموتريل، حيث كانوا يمثلون بين ٣٠-٤٠٪ من عدد السكان، وقد وصل عددهم إلى النصف تقريبًا فى غرناطة، كما أن هناك خصائص أخرى تشارك فيها مملكة غرناطة مملكة أراغون؛ وهى أن الموريسكيين الغرناطيين لم يكن لديهم الحق فى أن يعيشوا فى المناطق الساحلية، فمن فيرا إلى أستيبونا من النادر أن يكون لهم وجود .

وهكذا اتضحت لدينا الصفات العامة للموريسكى العادى فى أندلوثيا، فهو يملك أرضه ويملك زمام نفسه، وهذا على العكس من فالنسيا وأراغون، كما أن الموريسكى الغرناطى كان من النادر أن يتبع سيداً أو نبيلاً، فإقطاعيات النبلاء لم تكن تزيد على ١١-١٢٪ من أراضى غرناطة كلها، وإذا كانت أغلب هذه الإقطاعيات مسكونة بموريسكيين فإن التابعين منهم للسيد أو النبيل لا يزيدون على ١٥٪ من العدد الإجمالى لأبناء دينهم(١١) .

* * *

قبل عمليات ترحيل عام ١٥٧٠م لم يكن الموريسكيون فى مملكة قشتالة (المدجنون القدامى) كثيرين والموريسكيون فى أراغون وقشتالة فقط هم الذين لدينا حولهم وثائق ذات أرقام دقيقة خاصة ببداية القرن السادس عشر. فلقد قام أنخيل لاديرو بنشر وثائق ضرائبية خاصة بالسنوات ١٤٩٧-١٥٠٢م، وأثبت أن عدد المدجنين الذين تحولوا إلى موريسكيين منذ عام١٥٠١م لا يزيد عن ٢٠٠٠٠، موزعين فى إقليمى قشتالة وإكستريمادورا ومرسية وأندلوثيا الغربية(١٢)، وكان الطابع العام لتلك التجمعات الصغيرة [ما عدا الوادى المرسى المعروف بوادى ريكوتى] هو سكنهم فى الحضر، حيث كانوا يعيشون دائمًا فى أحياء خاصة خارج المدن ومعزولة عنها ويطلق عليها "أحياء المسلمين"، وقد وجدت هذه الأحياء فى كل المدن القشتالية والأندلوثية ذات الأهمية، وهؤلاء الموريسكيون الموزعون والقليلون - وكلهم ذوو أصل مدجن - كانوا فى طريقهم للاندماج عند انفجار أعوام ١٥٦٨م - ١٥٧٠م. ومنذ عام ١٥٦٩م طرد الموريسكيون من غرناطة، ورحَلوا إلى نقاط مختلفة من مملكة قشتالة، والجزء الأعظم هو الذى خرج فى نوفمبر عام ١٥٧٠م .

ثم تبعته مجموعات أخرى فى السنوات التالية حتى بلغ إجمالى المطرودين حوالى ثمانين ألفًا، كما خرج بين ٣ آلاف و٤ آلاف فى الفترة بين عامى ١٥٨٤و١٥٨٥م(١٣)، وعلى الرغم من عدم وصول الموريسكيين كلهم إلى نهاية المرحلة فإن التجمع الموريسكى

القشتالى الذى كان ضعيفًا أصبح قويا، ولا نعرف عدد الموريسكيين القدامى، وقد سموا بذلك ليميزوا عن المهاجرين من غرناطة، ويقودنا التفكير المنطقى إلى القول بأن تلك الأقلية - وهى تعيش فترة نمو سكانى ولم تعان من أحداث ذات أهمية - قد زاد عددها بنسبة محسوسة، وقد بلغت الزيادة من ٢٠ ألفًا فى بداية القرن السادس عشر إلى ٢٥ ألفًا فى نهايته، وقد درس لابيرى إحصائيات عام ١٥٨١ وعام ١٥٨٩م التى كان قد استخدمها سابقًا توماس غونثاليث واستنتج - مع اعترافه بعدم دقة التقديرات - أن عدد الموريسكيين فى مملكة قشتالة كلها يصل إلى حوالى ثمانين ألفًا .

وهذا التقدير يجب أن نتعامل معه بكل تحفظ فهو يبدو منخفضًا جدا، لأن الوثائق إما أنها غير واضحة وإما أنها درست بطريقة غير صحيحة؛ ولهذا تجب إعادة دراسة الوثائق كلها، ومحاولة إكمال البيانات الموجودة لدينا عن عامى ١٥٨١م و ١٥٨٩م إذا كان ذلك ممكنًا. وكذلك يجب بحث عناصر الإحصاء الذى تم فى عام ١٥٩٤ الذى قام به مكتب محكمة التفتيش، وهذه الوثيقة المهمة تتوزع أوراقها فى أكثر من مكان، والأجزاء الثلاثة التى وجدت منها ودرست هى التى تخص دائرة بلد الوليد وكوينكا وجيرينا، وهى تمثل أجزاء من إقليمى قشتالة وإقليم إكستريمادورا كلها[١٤]. وها نحن نجمع من جديد البيانات التى تقدمها تلك الوثيقة: فى الأراضى التابعة لمحكمة تفتيش بلد الوليد ٨٣٣٦، وفى الأراضى التابعة لمحكمة تفتيش كوينكا ٤٧٥٣، وفى الأراضى التابعة لمحكمة تفتيش جيرينا ٩٦٢٦، هذا بالإضافة إلى (٤ - ٥) آلاف من سكان هورناتشوس، فيكون الإجمالى ما بين ٢٦٧١٥ و٢٧٧١٥ .

ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن المناطق المذكورة سابقًا هى مناطق كان يقطنها الموريسكيون بصورة قليلة، إذ من المعروف أن عدد الموريسكيين فى قرطبة كان أكثر من أربعة آلاف فى عام ١٥٨٠م، وفى إشبيلية وضواحيها حوالى٦٠٠٠، كما كانوا كثيرين فى طليطلة، وثيوداد ريال، وأوبيدا، وبايثا، ومرسية، ولوركا. وبدون أن ننسى الذين بقوا فى مملكة غرناطة - سواء بطريقة رسمية أو دونها - وكان عددهم حوالى عشرة آلاف. ولا يمكننا أن نقدم رقمًا مؤكدًا لعدد سكان مملكة قشتالة فى نهاية القرن

السادس عشر، ولكن يمكننا أن نفترض- دون احتمال خطأ كبير - أن الحد الأدنى هو مائة ألف ويمكن أن يزيد هذا العدد إلى ١١٠ -١٢٠ ألفًا مع حدوث الطرد .

هل يجب أن ندخل فى حسابنا موريسكيى جزر كانارياس. يبدو لنا أنه ليس منطقيا اعتبارهم من الموريسكيين الحقيقيين الإسبان، ولا يمثلون سكانًا أصليين وإنما يمثلون تجمعًا من البربر، كانوا يغيرون دينهم عندما يؤسرون للحصول على أوضاع معيشية أفضل، ثم عند عودتهم لأرضهم الأصلية يعودون للإسلام بكل سهولة، ولهذا نجدهم كثيرًا ما يذكرون فى وثائق محاكم تفتيش الجزيرة. وفى عام ١٥٦٨م كان رئيس المحكمة أورتيث دى فونيس يشك فى إيمانهم؛ ولهذا أصدر أمرًا بأن يعيشوا على الأقل فى حى منفصل فى كناريا، حيث تم إعداد قائمة بالموريسكيين المقيمين فى لاس بالماس وجمعوا فى حى تريانا، حيث مازال يوجد شارع يُعرف باسم "الموريسكيون" .

إن الأمر العام بتسجيل الموريسكيين فى محل إقامتهم الصادر من قبل محاكم التفتيش تم تطبيقه فى جزر الكنارى .

وفى الوثائق التى وصلت إلينا - وتُعتبر غير كاملة - يمكن ملاحظة تجمع موريسكى كبير فى الجزر الصحراوية لانثاروتى وفويرتبنتورا التى توجد على مقربة من السواحل الإفريقية، حيث يوجد أكثر من ٣٠٠ أسرة موريسكية من الأحرار وعدد غير قليل من العبيد، أما الجزر الأخرى فقد كانت النسبة فيها أقل: تنيريفى١٩٦، غران كناريا١٤٢، لاس بالماس ٧٧، غوميرا ٥٢، وهذه الأرقام أقل من الأرقام الحقيقية بكل تأكيد. وقد يوجد فى جزر الكنارى حوالى ألفين من أشباه الموريسكيين، أغلبهم من العبيد[١٥] .

* * *

قبل أن نواصل دراستنا من المفيد أن نذكر تقديرًا مؤقتًا بمثابة تجميع لبيانات الإحصائيات المعروفة ويمكن تجميعها فى ثلاث وحدات تاريخية :

أولاً - الفترة بين عامى ١٤٩٥ و١٥٠٤م .

ثانيًا - الفترة بين عامى ١٥٦٨ و١٥٧٥م .

ثالثًا - نهاية عام ١٦٠٩م .

والتواريخ الثلاثة تسجل علامات مميزة، فكل واحد منها يصاحبه حدث تاريخى حاسم فى تاريخ الموريسكيين تبعًا للأحداث التالية :

١ . التنصير الإجبارى للموريسكيين فى قشتالة .

٢ . تمرد الموريسكيين فى غرناطة .

٣ . الطرد النهائى من إسبانيا .

ولا نستطيع مقاومة الرغبة فى القيام بعملية إحصاء أرقام إجمالية من خلال مستندات متباينة وغير متجانسة .

إن التقدير الأولى لا يقدم لنا إلا القليل؛ حيث لا توجد معلومات حول التجمعات الموريسكية الأكثر أهمية كغرناطة وفالنسيا، (أما بالنسبة لغرناطة فالنقص يُعتبر مؤقتًا؛ حيث إننا بانتظار نشر قوائم القرى التى تنصرت عام ١٥٠٤م والتى يُعدُّها: م.أ. لاديرو ومن الأفضل انتظار هذا الإسهام المهم). أما التقدير الثالث بشان عام ١٦٠٩م فقد أعده هـ. لابيرى. ويتبين من هذه الإحصاءات أن العدد الإجمالى للموريسكيين يبلغ ٢٩٠ ألف موريسكى[١٦] .

وقد قمنا بإجراء دراسة للتأكد من هذه الإحصائيات؛ فوصلنا إلى أن العدد الإجمالى الحقيقى قد بلغ ٣١٩ ألفًا، موزعين على المناطق التالية: فى فالنسيا١٣٥ ألفًا، وفى أراغون٦١ ألفًا، وفى قطالونيا ٨ آلاف، وفى قشتالة ١١٥ألفًا، ويوجد أكثر من ألفين فى الكانارياس .

أما مجموع الموريسكيين فى الفترة بين عام ١٥٦٨م - وعام١٥٧٥م، فلم يحاول أحد معرفته بدقة، ومن الأمور الغريبة أننا قد وجدناه برقم مشابه للرقم السابق، حيث بلغ

٣٢١ ألفًا، حسب التفصيلات التالية: في فالنسيا٨٥ ألفًا في عام ١٥٧٢م، وفي أراغون ٤٨٧١٣ في عام ١٥٧٥، وفي غرناطة ١٥٠ ألفًا عام ١٥٦٨م، وفي قشتالة ٣٠ ألفًا (وهو تقدير تقريبي)، وفي قطالونيا ٧ آلاف (وهو تقدير تقريبي) .

والتقديرات الإجمالية لأعوام ١٥٧٠و١٦٠٩م تتصف بميزة خاصة وهي أنه ينبغي اعتبارها الحد الأدنى للأرقام المتوقعة، فهل يجب علينا أن نستنتج أن الشعب الموريسكي الذي كان يُتهم بأنه يتزايد بصورة هائلة؛ كان في ذلك الوقت في حالة توقف عن الإنجاب والزيادة ؟!.

يجب ألا ننسى أن الأرقام المجردة تخفي وراءها أحداثًا مؤسفة، فقد كان الشعب الموريسكي الغرناطي هو الذي دفع الضريبة الكبرى بسبب الحرب والطرد، كما يجب ألا ننسى أيضًا أن هـ. لابيري أثبت بدراسته لتسعين قرية في مملكة فالنسيا؛ أن عدد السكان قد انخفض بين عامي ١٥٢٧و١٥٦٣م من٣٤٢٩ أسرة؛ إلى ٣٣١٨ أسرة[١٧]، وهذه الإشارات سواء على نطاق ضيق أو نطاق واسع تسمح لنا أن نؤكد أن إجراء مسح لعدد سكان الموريسكيين بين تاريخين – وبواسطة الإحصائيات – يُعتبر عملية صعبة، فالوثائق تقدم لنا عدد السكان وتوزعهم في فترة معينة فقط، ولهذا يجب دراسة ثلاثة عناصر تؤثر في الخطة السكانية، وقد كانت هذه العناصر قد أغفلت أو لم يوجه إليها الاهتمام الكافي على الرغم من أهميتها وهي: الخصوبة، والتنقلات، وتعريف الموريسكي .

بين عناصر الاختلاف التي كانت بين الفئتين يحتل عامل خصوبة الموريسكيين مكانة متميزة. فالكُتَّاب المسيحيون مثل بليدا وفونسيكا مثلاً يؤكدان على أن الموريسكيين لا يمارسون الرهبنة المسيحية، بل يتزوجون كلهم، وكذلك فهم لا يهاجرون إلى أمريكا، كما أنهم لا يتطوعون جنوداً بالجيش الإسباني[١٨]، وكل هذا يكفي لقبول افتراض وجود خصوبة مرتفعة بين الموريسكيين .

ومن المؤكد أن الأسباب المذكورة ذات قيمة مؤثرة في الخصوبة المشار إليها، وقد قبلها أغلب الشعب الإسباني، ولكن ما قيمتها في الناحية الديمغرافية على وجه الخصوص ؟

لم يحاول أحد أن يحدد ذلك. ألم تكن هناك عناصر أخرى تبين بوضوح سبب الخصوبة الموريسكية، وقد فات ذلك السبب على ذكاء معاصريهم؟ وأخيراً علينا أن نتساءل: هل كانت هذه الخصوبة المرتفعة حقيقة فعلية ؟.

يبدو أن موضوع خصوبة الموريسكيين كان حقيقة واقعة، وذلك إذا اتبعنا رأى هـ. لابيرى، فإذا قارنا نتائج الإحصائيات فى فالنسيا للسنوات ١٥٦٥-١٥٧٢م، وعام ١٦٠٩، فإننا نجد أنه بينما زاد المسيحيون بنسبة ٧و٤٤٪، فإن الموريسكيين زادوا بنسبة ٦٩,٧٪، وهذا الفرق الكبير يمكن أن يفسر بارتفاع الخصوبة، ولكن إذا استعنا بعنصر التنقلات الحادثة بين الموريسكيين، فهل يوجد بين الموريسكيين الفالنسيين لعام ١٦٠٩م عدد كبير من الموريسكيين الغرناطيين الذين دخلوا بصورة غير مشروعة منذ طرد عام ١٥٧٠م .

أما غارثيا كارثيل فهو ينفى هذا الأمر وذلك فى محاضرته فى المؤتمر الأول لتاريخ الأندلس محتجًا بشدة على الحراسة التى أقامتها السلطات الفالنسية لتجنب تلك الهجرة غير المرغوب فيها. ولكن من المحتمل أن تكون بعض المجموعات قد اخترقت ذلك الحاجز "الصحى" واستطاعت أن تجمدها. ومن ناحية أخرى فإن الزيادة الظاهرية المفرطة للشعب الفالنسى تتناقض مع تجمد الرقم الإجمالى للموريسكيين الإسبان فى الفترة بين عامى ١٥٧٠و١٦١٠م .

لكن هذه التحفظات لا ينبغى أن تحول دون محاولة مواصلة البحث حول أسباب خصوبة الموريسكيين.. فهناك مثلاً سبب ينبغى أخذه بعين الاعتبار فى هذا الموضوع، وهو عمر زواج الفتيات وهو العنصر الرئيسى على الرغم من العناصر الأخرى مثل الفترات التى قد لا يحدث فيها حمل بسبب صغر السن، ثم المدة التى يستمر فيها الزواج، وسن اليأس قد يكون أحد عناصر دراسة الخصوبة. فهل الموريسكيات كنَّ يتزوجن فى سن مبكرة ؟ هل كن يتزوجن فى سن أصغر من المسيحيات؟. هناك إجابات جزئية ظهرت أخيراً حول هذه الموضوعات، وذلك بإحصاء الموريسكيين فى قرطبة عام

١٥٧٢م وإكستريمادورا عام ١٥٩٤م، وقد أمكن معرفة سن الزواج التقريبى للنساء اللاتى كانت أعمارهن أقل من ٣٠ عامًا عندما تم إجراء الإحصاء. والطريقة التى اتبعت فى تحديد هذا العمر؛ تكمن فى طرح عمر الابن الأول بإضافة عام إليه من حاصل عمر المرأة، وبذلك يتضح عمر الأم أثناء الزواج، فمثلاً قرطبية عمرها ٢٨ عامًا ولديها ابن عمره ١٠ سنوات فتكون قد تزوجت ولها من العمر ١٧سنة، وقد أجريت هذه الدراسة على ٢٩١حالة فكان متوسط عمر الزوجة بين ١٨و١٩ عامًا .

لقد استعان جيمس كاسى بطريقة أكثر دقة وهى معرفة وقت إنشاء الأسرة، فكانت نتيجة دراسته التى لم تنشر بعد أن متوسط عمر المرأة الموريسكية عند الزواج ١٨ سنة، بينما هو عند المسيحية٢٠ سنة. وقد وصل إلى هذه النتيجة بدراسة أجراها على إحدى قرى فالنسيا - لكننا نواجه صعوبة فى تطبيق هذه الطريقة على الموريسكيين - لأنهم لم يكونوا يسجلون أبناءهم عند الولادة فى السجل المعد لذلك، بل كان البعض منهم فقط هو الذى يفعل هذا .

هذا النموذج له أهمية كبرى لأنه يشير لأول مرة عن طريق الوثائق الثابتة إلى الفرق فى هذا الأمر بين الجماعتين، إلى جانب ما يؤكده حول أعمار المسيحيات القديمات عند الزواج: عشرين عامًا مثلما فى بلد الوليد[١٩]. ويبدو واضحًا أن الفتيات كنَّ يتزوجن فى سن مبكرة فى إسبانيا فى القرن السادس عشر، وظاهرة تأخر عمر الزواج إلى سن ٢٥-٢٦عامًا التى وجدت فى أوروبا الشمالية الغربية حينذاك كانت غير معروفة فى إسبانيا، وتبرز هذه الظاهرة بالنسبة للموريسكيات بصورة أكبر[٢٠] .

بقى علينا دراسة أسباب ذلك، ويمكن أن نفترض ثلاثة افتراضات لتوضيح إقبال الموريسكيات على الزواج المبكر وهى: العادات الإسلامية، والنمو الجسمانى المبكر للموريسكيات، والرغبة فى البقاء .

ومن المناسب أيضًا - لكى يكون موضوع ارتفاع الخصوبة أكثر إقناعًا بجانب التبكير فى عمر الزواج - إمكانية إثبات أن العائلة الموريسكية كان لديها عدد أكبر من الأبناء، وأن نسبة وفيات الأطفال لم تكن مرتفعة بينهم كما كانت فى المسيحيين. لقد

وجد جيمس كاسى فى بيدرأليا أن نسبة وفاة الأطفال كانت منخفضة بين الموريسكيين، لكن هذا الحادث يُعتبر فريداً يحتاج لحالات أخرى لتأكيده، ونظراً لقلة الأبحاث التى تتبع طريقة إنشاء الأسرة، والتى يمكن أن تثبت بصورة نهائية ارتفاع خصوبة الموريسكيين؛ فإن الافتراضات الإيجابية تتنوع لأنه بالإضافة إلى العوامل المعروفة عادة يوجد عامل سن البلوغ المبكر والذى يجب أن نوليه أهمية كبيرة فى فترة كانت فيها احتمالات الحياة محدودة بسبب ارتفاع نسبة الوفيات .

لقد أحس الشعب عامة بحركة تنقل الموريسكيين الكبرى اللافتة للنظر؛ ففى عالم كان الاستقرار فيه هو الميزة الواضحة لا يمكن للتنقلات أن تمر دون أن تلفت الانتباه، وكان من المناظر المألوفة للموريسكيين حركة تنقل البغَّالين والبائعين المتجولين لأنواع من الحلوى، وكانت هذه الشخصيات مقلقة بالنسبة للأغلبية فقد كان يشك فى أن هؤلاء المتنقلين كانوا يقومون بأعمال غير شرعية؛ إلى جانب النشاطات الواضحة للعيان، فقد كان بإمكانهم نقل الأخبار والإشارات، أو ربما كان بعضهم أعضاء لنشر الدين، ولا يمكن أن نرفض فكرة أن وجود الترابط الاجتماعى بين الموريسكيين كان بفضل تنقلهم المستمر بين الأقاليم، فالاتصالات بين هورناتشيين وغرناطيين وبين غرناطيين وفالنسيين كانت كثيرة. وهذه التنقلات التى كان يشتكى منها المسيحيون كان سببها المسيحيين أنفسهم بما فعلوه منذ عام ١٥٧٠م، وهذا ما يجعلنا نميز من الناحية الديمغرافية بين عهدين قبل وبعد عام ١٥٧٠م .

ففى العهد الأول مارس الموريسكيون الهجرة إلى شمال إفريقيا هاربين من الاستعباد المسيحى، فقد كان سكان قرية أو أكثر يجهزون أنفسهم بكل دقة وبمساعدة البربر أو الذين هاجروا سابقًا من الموريسكيين ليهاجروا مغادرين نهائيا الأراضى الإسبانية، ومعظم الأقاليم الساحلية التى سكنها الموريسكيون عانت من هذه الظاهرة. ولكى يفسر لنا لابيرى انخفاض عدد سكان ٩٠ قرية موريسكية فى فالنسيا فى الفترة بين عامى ١٥٢٧و١٥٦٣م اعتمد على نتائج ثلاث حملات هجرة جماعية سرية. ويمكن القيام بالتحليل نفسه فى أقاليم أخرى وفى عهود مختلفة. ونوضح فيما يلى بعض الهجرات الجماعية التى وجدنا لها وثائق وهى :

المنطقة	التاريخ
قرية تيرسا بكاملها (غرناطة)	قبل عام ١٥٠٥م
قرية إيستان (غرناطة)	١٥٠٦م
قرية الماغاتى بكاملها (غرناطة)	قبل عام ١٥٠٦م
٤٠ أسرة من قرية دالياس (غرناطة)	سبتمبر ١٥٠٩م
قرية أوخيين بكاملها (غرناطة)	أبريل عام ١٥٠٩م
قرية إيستان بكاملها (غرناطة)	
٥ من قرية مارو (غرناطة)	١٥١٠-١٥١١م
قرية تشيلتشيس (غرناطة)	سبتمبر عام ١٥٠٩م
٥ أسر من قرية موتريل (غرناطة)	١٥٠٩م
٥٠ شخصاً من قرية دالياس (غرناطة)	١٥١٢م
٥٠ شخصاً من موتريل (غرناطة)	أكتوبر ١٥٢٣م
١٧٠ شخصاً من كاجوسا دى أنسارا (فالنسيا)	١٥٢٦م
٢٠٠ شخص من أوليبا (فالنسيا)	١٥٣٤م
٢٠٠ شخص من إقليم كوجيرا	١٥٣٢م
قرية فيريخليانا (غرناطة)	١٥٦٠م
بارسنت	١٥٣٤م
٢٩ شخصاً من نيخار وهوبيرو (غرناطة)	أبريل ١٥٦٢م
جزء من سكان قرية نوتايز(غرناطة)	١٥٦٠م

المنطقة	التاريخ
قرية طاربال (غرناطة)	يناير ١٥٦٤م
٤٣ شخصاً من قرية هوبيرو ولوكانانيا (غرناطة)	يناير ١٥٦٣م
١٥٠ أسرة من تابيرناس ولوكاينا (غرناطة)	
٥٠٠ شخص من أورخيبا (غرناطة)	١٥٦٥م
١٤٠ من دى لا بارونيا دى بولوب	١٥٨٤م
عزبة غانديا (فالنسيا)	١٥٦٩م

قرى توروكس وتوربيسكون والبونيول وأمليوث (غرناطة) فى تواريخ غير محددة ولكن قبل عام ١٥٠٩م[٢١] .

القائمة السابقة تقدم لنا ٢٧ حالة هروب جماعى حدثت قبل عام ١٥٧٠م ما عدا واحدة وهى بلا شك غير كاملة، وقد اعتمدت على مصادر خاصة لمعرفتها، مما يجعلنا نتوقع أن تكشف لنا الأبحاث الأخرى عن مزيد من المعلومات، لكنها لن تغير الخطوط العامة التى عرفناها .

عمليات الهروب تتركز فى ثلاث مجموعات تاريخية: المجموعة الأولى بين عامى ١٥٠٢ و١٥١٢، المجموعة الثانية بين عامى ١٥٢٦ و١٥٣٢م، المجموعة الثالثة بين عامى ١٥٦٠ و١٥٧٠م. والتواريخ الأولى سواء فى غرناطة أو فى فالنسيا تشهد بأن كثيراً من الموريسكيين لم يكونوا يطيقون مضايقات المسيحيين وتحقيقاتهم بعد عملية التنصير الإجبارى. ثم بعد ذلك، أى بعد هدنة طالت ٢٥عاماً، ازداد الصراع بين الجماعتين واحتد وانتهى بتمرد أعوام (١٥٦٨-١٥٧٠م)، والنفى التطوعى يؤكد مرور الموريسكيين بعهود اشتدت فيها حركة الاحتواء .

وبعد عام ١٥٧٠م أُبعد الموريسكيون الغرناطيون عن سواحل البحر المتوسط وعن شواطئ مملكة فالنسيا كما وضعت حراسات أكثر فعالية، وفى الوقت نفسه خفت سيطرة الأتراك والبربر على البحر، وهم الذين كانوا يساعدون الموريسكيين على

الهرب ؛ لهذا فالهجرة الجماعية المهمة فى الفترة بين عامى ١٥٠٢ و١٥٧٠م لم تعد منذ ذلك التاريخ الأخير تتكرر ثانية وتلعب دوراً مهماً، لكن الهجرات الفردية بقيت متواصلة، بل نستطيع القول إنها زادت عن ما كانت عليه. والهجرة إلى شمال إفريقيا كانت تعتبر ظاهرة مستمرة من الصعب معرفة أبعادها، وكانت السلطات المسيحية تعرف ذلك، ولهذا ـاقبت الهاربين بمصادرة أموالهم وانشغلت بإعادة تسكين القرى المهجورة بسكان جدد، ويشهد على ذلك قرارات ملكية تضمنت هذا المعنى وقد جاء فيها: "العمدة دييغو دى باديا عضو مجلس البلدية – فى غرناطة – أحاطنى علماً بأنه فى العام الماضى هاجر بعض الموريسكيين، وقد أمرته بالبحث عن سكان لقرية تيريسا التابعة لفيرا؛ لأن سكانها قد رحلوا[٢٢].. كما أنه أحاطنى علماً بعد رحيل سكان ماور أن المدينة قد أصبحت غير مسكونة[٢٣] .. وربما يختفى فيها المسلمون الذين يأتون للنهب". وعلى العكس من ذلك فإن التنقلات داخل شبه الجزيرة – إسبانيا– على الرغم من مظهرها المقلق سياسيا لم يكن لها أى أثر من الناحية الديمغرافية ". وبعد عام ١٥٧٠م تغير الوضع؛ فقد أصبحت التنقلات الداخلية كثيرة ونشيطة، ونتيجة طبيعية لترحيل الموريسكيين الغرناطيين خارج إقليمهم الأصلى، وبعد أن تم توزيعهم فى مجموعات صغيرة متباعدة حاولوا التجمع فى بعض المدن المهمة. وقد شجعهم على ذلك الترابط الاجتماعى والاستقبال الحار من مسلمى الأماكن التى وصلوا إليها؛ بالإضافة إلى أن بعضهم الآخر كان يريد تجميع أفراد أسرته التى تبعثرت بطريقة مقصودة أو غير مقصودة، وحاولت مجموعة ثالثة بكل الطرق العودة إلى مكانها الأصلى[٢٤]. أما السلطات فقد كانت تعارض هذه التنقلات التى تمت دون إذنها، وأمرت بإجراء ترحيلات أخرى زادت الأمر غموضاً، مثل ما حدث مع ١٤٢ من الموريسكيين الذين عادوا سرا إلى أيسيخا عام ١٥٧٦م، ثم طردوا إلى طليطلة[٢٥].

وفى عام ١٥٧٩م تأكدت سلطات مدينة الباثيتى أن المدينة لا يوجد فيها إلا سُدس المجموعة التى وصلتها منذ تسع سنوات؛ فقد رحلت الأغلبية إلى مرسية ولوركا، وفى عام ١٥٨٤م رُحِّل ما بين ٣ و٤ آلاف موريسكى من غرناطة إلى المادن وطليطلة وتروخيو أو ثيوداد رودريغو. وفى العام التالى رحل ٥٠٠ آخرون إلى إكستريمادورا، وبالتاريخ

نفسه كان قد اختفى ١٢٦ موريسكيا من أصل ١٦٦[٢٦] كانوا قد وصلوا إليها فى العام السابق؛ أما فى بلد الوليد فقد طُرِدَ ٦١ موريسكيا، حيث لم يكن لهم حق الإقامة فى تلك المدينة وذلك فى يناير عام ١٥٨٦م .

ويُضاف للتنقلات الخاصة بمملكة قشتالة التنقلات الأخرى من غرناطة إلى مملكة فالنسيا، وقد أعرب عن هذا إسكولانا قائلاً: " لقد جاء الكثيرون ضائعين وهاربين، وقد انضموا لإخوانهم فى مملكة فالنسيا، جاءوا ومعهم مرارة فَقْد الوطن والحرية، وهم لا يتعبون من تحريض موريسكيى مملكتنا وإقناعهم بتمرد جديد"[٢٧]. لقد تحول الموريسكى الغرناطى إلى رحالة أبدى على الرغم من عدم رغبته فى ذلك.

إذن فالتنقل هو إحدى المميزات الأساسية فى الديمغرافية الموريسكية، وقد أوقفت الهجرة التى حدثت فى المرحلة الأولى زيادة عدد شعب ربما يتميز بارتفاع خصوبته، وأما التنقلات فى المرحلة الثانية فقد أخفت العوامل الرئيسية فى تطور الشعب الموريسكى، وداخل إطار قشتالة من الأمور المخادعة إجراء مقارنات بين الإحصائيات المتعددة فى فترة زمنية محدودة، وربما كان من الأفضل محاولة إعداد تقديرات عامة متى كان ذلك ممكناً. يمكن إعداد هذه التقديرات عن طريق ثلاث علامات تخص ثلاثة تواريخ حاسمة فى ذلك القرن، وهى عام ١٥٠٠، وعام ١٥٦٥، وعام ١٦١٠م، فبين التاريخين الأول والثانى توجد ظاهرة استعادة للقوة الديمغرافية وقد يسر ذلك الهدوء الذى ساد لمدة ربع قرن من عام ١٥٣٥إلى عام١٥٦٠م، حيث عوض وبزيادة واضحة الخسائر البشرية الناتجة عن التمرد الغرناطى لعام ١٥٠٢م، والفالنسى لعام ١٥٢٦م، والهجرة أيضًا، ولكن تأتى مشكلة أعوام ١٥٦٨-١٥٧٠م وما سببته من نقص بشرى كبير نتج عن القتلى فى الأعمال الحربية وظروف ترحيل الموريسكيين الغرناطيين الذى سبب خسارة بشرية كبيرة، لهذا مضى زمن كبير، ربما حوالى ٤٠ عامًا، حتى أمكن تعويض الخسائر البشرية التى حدثت قبل ذلك. وأخيراً فإن رقم ٣٢٠ ألف موريسكى يبدو لنا أنه الحد الأقصى وربما أمكن تجاوزه بقليل فى ثلاث مناسبات، كما يمكن أيضًا افتراض أن عدد السكان فى بداية القرن السادس عشر كان أقل من عدد السكان فى عامى ١٥٦٥ و١٦١٠م .

بقيت أمامنا نقطة من الضرورى أن نعالجها وإن كانت أهميتها ليست بالقليلة .. وهى ماذا تعنى تسمية موريسكى فى الإحصائيات ؟ كيف كانت تعرف السلطات والشعب المسيحى الموريسكيين ؟ (من هم الموريسكيون بالنسبة للآخرين؟) .

هذا الموضوع مهم، والغريب أن المؤرخين لم يعالجوه .. ترى هل كانت تطبق معايير عرفية أم دينية أم ثقافية للتفريق بين الموريسكى وغيره ؟. المشكلة معقدة جدا وبخاصة أن الموريسكيين كانوا يعتبرون مسيحيين من الناحية الرسمية(*) .

يبدو أن رجل القرية كان من السهل عليه تمييز الموريسكيين عن طريق بعض التفصيلات الدقيقة، ولكن بعض الموريسكيين لم يكونوا يختلفون ظاهريا عن المسيحيين فى أى شىء، فهل كان هؤلاء يصنفون باعتبارهم موريسكيين أم مسيحيين ؟.

يؤكد كارو باروخا أنه كان يؤخذ بعين الاعتبار فقط نسب الأب ودينه(٢٨)، فقد يكون هناك نصرانى قديم ابنًا لموريسكية وحفيداً لموريسكيين، ولهذا نرى فعلاً أحد ساكنى كاستريل، ويُدعى ألونسو غوميث كان يرغب فى تجنب الطرد العام عام ١٥٨٤م؛ فأكد أن والده كان مسيحيا(٢٩)، بينما كان أحد سكان باثا متزوجًا بموريسكية واسمه ميغيل بايون، وطرد على الرغم من أنه ابن وحفيد لمسيحيين(٣٠) .. وهكذا يتبين لنا أن التعريف الرسمى لم يكن يُحترم كثيراً، وكان أبناء الزيجات المختلطة يعتبرون موريسكيين حتى يثبتوا مسيحيتهم. وفى مملكة غرناطة كان هناك نوع آخر من الحالات عرف فيها بعضهم بأنه مسيحى وهو ابن لآباء مسلمين، مثل حالات الذين تنصروا قبل نهاية حرب الاسترداد فى عام ١٤٩٢م.. وهذا الأمر كان يُطبق على العائلات الكبرى بالذات مثل عائلة الثغريين؛ فأعضاء هذه العائلات لم تظهر أسماؤهم فى القوائم الضريبية الخاصة بالموريسكيين مثل الفارضة. وفى عام ١٥٦٤م

(*) تعريف الموريسكى من جميع النواحى موضوع تناوله بتوسع خوليو كارو باروخا فى كتابه "مسلمو غرناطة بعد عام ١٤٩٢"، ترجمة وتقديم جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ .(المراجع)

فى دائرة الكنيسة الغرناطية فى البيازين كان يذكر اسم ميغيل غونثالو الثغرى، وخيرونيمو دى بلاثيوس(٣١)، عندما يذكر أسماء المسيحيين الذين لديهم أسلحة. على الرغم من أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم وأبناءهم مروا بمرحلة قلق عندما وضعوا فى قائمة الموريسكيين المسموح لهم بمواصلة الإقامة فى منازلهم(٣٢) .

هذه الأمثلة تثبت لنا كم كان صعبًا أن يمحو الإنسان وصمة نسبه الموريسكى، فلقد وصل الأمر إلى تمييز بضع مئات عن أبناء دينهم لكنهم لم يصلوا إلى مستوى المسيحى ذى الحق الكامل حيث كانوا يعيشون بين عالمين، واستحقوا هذه المعاملة وهذا الوضع الاجتماعى المتوسط، بفضل الخدمات التى قدموها على مدى أجيال، وبفضل وصولهم إلى مرحلة الاندماج التى يمكن أن نصفها بأنها كاملة؛ لهذا كانت الوثائق الرسمية تستعمل تعبيرات خاصة وكاشفة عند الحديث عن هؤلاء مثل: "يجب أن يُعاملوا كمسيحيين قدامى" و "يجب أن لا يدفعوا الضرائب". أما الموريسكيون الذين دخلوا السلك الكنسى فلم يشك أحد فى إخلاصهم مطلقًا(٣٣) .

بعد هذه الأمثلة من مملكة غرناطة يتبين لنا أن تعريف الموريسكى هو كل منْ له نسب إسلامى بأى شكل أو من أى درجة. ومن الممكن أن يكون الحال مختلفًا فى أقاليم أخرى؛ مثل قشتالة حيث كانت اتصالات المدجنين والمسيحيين أكثر قدمًا، فعلامة التميز لم تكن واضحة، وبفضل عامل الزمن الذى كان يغطى آثار النسب فإن عدداً معينًا وربما كان كبيرًا من الأشخاص ذوى النسب الإسلامى قد أصبحوا مندمجين اندماجًا كاملاً فى المجتمع المسيحى، ويزداد عدد هؤلاء مع مرور الزمن .. فهم فى عام ١٥٧٠م أكثر منهم فى عام ١٥٠٠، وكذلك هم أكثر فى عام ١٦١٠ عنهم فى عام ١٥٧٠، ومن المحتمل أيضًا أن بعض الغرناطيين الذين اعترف باندماجهم الكامل عام١٥٧٠م لم يعانوا من أية مضايقات فيما بعد .

لهذه الأسباب، مضافًا إليها عنصر السرية التى كانت ظاهرة عامة - والتى شجعها المسيحيون القدامى - لنا الحق فى أن نستنتج ما يلى: إذا كان قليل من

الموريسكيين استطاعوا الهرب من الإحصائيات فى بداية القرن السادس عشر ومنتصفه؛ فإن التقديرات التى افترضناها لأوائل القرن السابع عشر تُعتبر أقل من الحقيقة بقليل .

وهكذا فإن الشعب الموريسكى يتراوح عدده على ما يبدو بين ٣٤٠ و٣٥٠ ألفًا وربما أكثر من ذلك بقليل، وهذا افتراض يجب إثباته، وفى حالة إثباته ينبغى قبول القول: إن حركة الاندماج (الاحتواء) قد واصلت نشاطها، وإن عدد الذين لم يعانوا من الطرد كانوا أكثر مما نظن حتى الآن .

هوامش الفصل الرابع

(١) H. Lapeyre : op. cit. , pp. 18-25

(٢) R. Robles : ***Catalogo y nuevas notas sobre las rectòrias que fueron de moriscos en el arzobispado de Valencia y su repoblacion*** (1527 – 1663) "Antoloica Annua, X , ano 1962. Para 1587, I.V.J. Envio I, p. 183.

(٣) ***Notas sobre la poblacion morisca de Aragon a fines del siglo XVI*** (" Estudios, Zaragoza, 1976)

(٤) H . Lapeyre, op. cit. pp. 96 – 98 . Regla, op. cit. pp. 42 – 64.

(٥) H. Lapeyre, op. cit. pp. 98 -99. E. Giralt y J. Nadal: **la population catalane de 1533 a 1717**(Paris , 1961). J. Regla, op. cit. pp. 64 -68.

(٦) F. Ruiz Martın : ***Movimientos demograficos y economicos en el reino de Granada***, pp. 127 – 183.

(٧) F. Ruiz Martin, op. cit. pp. 142 y 181

(٨) A. Ch. Gr. : Libros de apeos. Archivo Historico Provincial de Almeria : Libros de apeos(A.G.S.) Camara de Castilla, le. 2.201.

(٩) Para 1561, ver A.G.S. Expediente de Hacienda .

(١٠) هذا الرقم بالنسبة لغرناطة هو نتيجة لإحصاء تم عام ١٥٧٦م.

(A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.192, sin folıacion)

(١١) Ruiz Martin, op. cit. pp. 169 – 176.

(١٢) M. A. Ladero : ***Los mudejares de Castilla en tiempo de Isabell*** (Valladolid, 1969), pp. 17 -21 .

(١٣) B. Vincent: ***l expulsion des morisques***, pp. 211 – 246. B. Vincent: ***Combien de morisques ont- ils ete expulses du royaume de Grenade ?*** (Melanges ....1971, pp. 397 – 398). H. Lapeyre, op. cit. pp. 127 – 128.

(١٤) بالنسبة لبلد الوليد انظر المرجع التالى:

J.P. Le Flem: ***Les´Morisquees du Nord-Ouest de la Espange en 1594 de après un recensement de la Inquisition de Valladolid* (Melanges ....1965, pp. 223 – 240).**

بالنسبة لكوينكا انظر المرجع التالى:

M. Garcia-Arenal Rodriguez: ***los Moriscos y la inquisicion de Cuenca*** , tesis inedita, Madrid, 1975.

بالنسبة لإكستريمادورا انظر المرجع التالى :

J. Fernandez Nieva : ***Un censo de moriscos extemenos de la Inquisicion de llerena (ano 1594)*** (" Revista de Estudios Exteremenos", 1973, pp. 151 – 169)

B. Vincent : ***Les Morisques de Estremadure au XVI siecle***("Annals de demograpie historique", 1974, pp. 431 – 448).

(١٥) لقد جمع روبيرت ريكارد أخبارًا كثيرة عن الموريسكيين فى جزر الكنارى فى كتابه :

Recherches sur les relations des Ils Canaries et de la Berberie au siecle ("Hespe XX, 1935).

وقد تم نقل هذه المعلومات فى : ***Etudes hispano-africaines***, Tetuan, 1956.

أما المعلومات الخاصة بإحصاء عام ١٥٩٤م فتوجد فى الدراسة التالية غير المنشورة :

Millares Carlo :" Notas sobre los moriscos que poblaban el archipielago en el siglo XVI tomadas de los padrones formados por la Inquisicion " .

أما مقال إيميلو سانشيث فالكون فلا يضيف شيئا جديدا وبياناته كالتالى :

Emilio Sanchez Falcon : ***Evolucion demografica de las Palmas*** ("Anuario de Estudios Atlanticos ", no 10, ano 1964).

ونظرا إلى أننا لن نتعرض للموريسكين فى جزر الكنارى مرة أخرى فإننا نقول إنه بناء على طلب ماركيث لاتثاروتى فقد استثنى الملك فيليب الثالث السكان الذين كانوا يسكنون فى تلك الجزيرة من قرار الطرد، وكذلك المقيمين فى فويرتى بينتورا ، لكن غارات البربر قضت عليهم جميعا تقريبا . Joaquin Blanco : ***Breve noticia historica de las Islas Canarias.*** *Las Palmas*, 1957, p. 235.

وقد أشار ريكارد إلى أن كل موريسكيى جزر الكنارى قد تم استثناؤهم من الطرد ، وذلك لأسباب اقتصادية ." لقد كان المسيحيون القدامى يمقتون الموريسكيين ولكن لم يكونوا يستطيعون الاستغناء عنهم" . انظر المقال السابق ص ١٠٨.

(١٦) H. Lapeyre, op. cit. p. 204.

(١٧) Id. pp. 29-30

(١٨) Jaime Bleda: ***Defensio fidei in causa neophytorum sive Morischorum Regni Valentiae***...Valencia 1610.

Demian de Fonesca : ***Justa expulsion de los moriscos de Espana.*** Roma, 1612.

ويعبر إثار كاردونا عن الرأى الشائع حول كثرة تناسل الموريسكيين بالشكل التالى: " لقد كانوا يزوجون أبناءهم فى سن مبكرة جدا ، حيث كان من وجهة نظرهم أنه يكفى جدا أن يكون عمر الفتاة أحد عشر عاما والفتى اثنى عشر لكى يتزوجا . ولا يثقلون على أنفسهم كثيرا ولا يبالغون كثيرا فى المهر ، حيث يكتفون بسرير وفرشه وعشرة جنيهات وهذا يسعدهم كثيرا ويجعلهم يحسون بالثراء والرفاهية . لقد كان التكاثر يمثل هدفا لهم، وأن يزيد عددهم مثل الحشائش الضارة... كانوا يتزوجون جميعا ، سواء منهم الفقير والغنى والأصحاء والمعوقون ، ولا يفعلون مثل المسيحيين القدامى الذين إذا كان لديهم خمسة أو ستة أولاد فإنهم يكتفون بزواج أكبرهم فقط". وعلى الرغم من المبالغات الضخمة الموجودة فى هذه الفقرة فإن بها بعض الحقيقة .

(١٩) B. Bennassar : ***Valladolid au siecle de or***, Paris, 1967, p. 197.

(٢٠) لقد ظهر حديثا بحث عن ، لوك الموريسكيين الجنسى، حيث ثبت أنه لا يختلف عن الخاص بالمسيحيين القدامى ، وذلك فى البحث التالى :

Maria del Carmen Anson Calvo : ***Un estudio demografico con ordenadores: la parroquia de San Pablo de Zaragoza de 1600 a 1660***("Estudios " Zaragoza, 1976).

وكما يبدو واضحا من المنحنيات... لم يغير طرد الموريسكيين بصورة كبيرة توزيع المواسم التى يتم فيها عقد (حفلات) التعميد والزواج ، وهذا يجعلنى أخلص إلى أن الموريسكيين من الناحية البيولوجية والحياتية لم يكونوا يختلفون عن المسيحيين القدامى . لقد كانوا يتزوجون بالطريقة نفسها ، وربما كان سبب ذلك هو مجموعة العادات المتوارثة لديهم ، وكانوا يتكاثرون بالمعدل نفسه. وقد سمحت لنا البيانات الإجمالية الخاصة بحالات الميلاد والزواج بأن نستنتج أنه بقسمة عدد المولدين الذين تم تعميدهم على عدد حالات الزواج يتبين أنه زاد فى الفترة (١٥٩٠ – ١٦٠٩)، حيث كانت نسبة المعمدين إلى حالات الزواج ٣,٥ عنه فى الفترة من ١٦١٠ إلى ١٦٥٠ حيث كانت النسبة ٢,٩٤ ، وهو ما يدل على أن الموريسكيين كانوا أكثر خصوبة بنسبة ضئيلة من المسيحيين القدامى. وتبدو هذه النتيجة صحيحة، ويجب أن نضيف أنه لو تمت هذه الدراسة على دائرة كنيسة ريفية ذات أغلبية موريسكية بدلا من الكنيسة الحضرية لظهر ذلك الفرق بصورة أكبر وأوضح.

(٢١) لقم تم إعداد هذا الجدول الخاص بفالنسيا بناء على بيانات من كتاب لابيرى وكذلك مقال غارثيا مارتينث التالى :

Bandolerismo, pirateria y control de Moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II(" Estudis", 1972, pp. 85 – 167).

وبالنسبة لمملكة غرناطة فقد تم استخدام المراجع التالية :

Tapia Garrido: ***La costa de los piratas*** ("Revista de Historia Militar ", 1972, pp. 73 – 103).

E. Meneses Garcia: ***Correspondencia del conde de Tendilla*** (1508 – 1509) (Madrid, 1973 , tomo I , pp. 204 – 212) y

Diversos textos de A.G. S. Camara, Cedulas , libro 27.

(٢٢) A.G.S. Camara, cedulas, libro 27, fol. 183 vto.

(٢٣) Id. fol. 66 vto.

(٢٤) B. Vincent: ***L expulsion des morisques du royaume de Grenade*** ...pp. 233 – 237.

(٢٥) A.G.S. Camara de Castilla , le. 2.178, sin foliacion.

(٢٦) Id. Id. Le. 2.192. s.f.

(٢٧) G. Escolano : ***Decadas de ....Valencia***, t. II, columna 1776, Valencia 1878-1880 (cit. por S.Garcia Martinez, op. cit. pp. 124- 125)

(٢٨) ***Los moriscos de reino de Granada*** , p. 65 (Madrid, 1957).

(٢٩) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.178, s. f. (30 – X-1575).

(٣٠) Id. Id. Leg. 2.179, s.f.

(٣١) B. Vincent : *La Albaicin de Grenade au XVI siecle* (Melanges C. Velazquez, 1971, p. 197)

(٣٢) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.172, s. f. (16-III-1572) y 2.168s.f. (30-XI-1572).

(٣٣) على الرغم من هذا ففى عام ١٥٩٤م تمت إضافتهم فى القائمة العامة للأقليات .



الفصل الخامس

الحياة الدينية عند الموريسكيين

منذ الأبحاث التى أجراها الأب بدرو لونغاس[١] أصبحت الفرائض الدينية التى حافظ عليها الموريسكيون معروفة لدينا جيداً ونجد من المناسب ذكرها من جديد، فمنها التقويم الإسلامى وفيه شهر رمضان الذى يمثل العنصر الرئيسى وهو الشهر القمرى التاسع وخلال ذلك الشهر يجب على كل مؤمن أن يهتم بصورة أكبر بالصلاة والصوم، حيث كان الموريسكيون يمسكون عن تناول الطعام خلال النهار، ثم يتناولون وجبة فقط أو ربما وجبتين منذ غروب الشمس حتى طلوعها، وهاتان الوجبتان كانتا عادة من أنواع المخبوزات التى تصنع من الزيت والجبن .

وعند نهاية رمضان يقع العيد الأول من الأعياد الأربعة الكبرى، وهو العيد الأصغر ويسمى كذلك عيد الفطر الذى هو عيد نهاية الصيام، وتتركز أهميته فى أعمال البر التى تتجلى بالتصدق على الفقراء، وفى مثل هذه المناسبة كان مسلمو غرناطة يدفعون ضريبة من القمح وذلك فى عصر بنى الأحمر(١٢٣٢-١٤٩٢) .

والعيد الثانى هو العيد الأكبر الذى يحتفل به لمدة ٤ أيام ويسمونه عيد الأضحى وكان يطلق عليه المسيحيون عيد الخروف حيث تذبح فيه الخراف إحياء لذكرى تضحية إبراهيم بابنه، وبعد هذا العيد بأربعين يوماً يحتفلون بيوم عاشوراء وهو يوم الأنبياء ويتم الاحتفال بصومه، ثم بعد ذلك بثلاثة أشهر يحتفل بيوم التوسعة Atheucia، ولا نعرف أى شىء عنه، ومن ناحية أخرى فإن الموريسكيين كانوا يجعلون يوم الجمعة للأمور الدينية متى كان ذلك ممكناً لهم، وذلك بالصيام والصدقة والصلاة، حيث

يتوجهون ظهراً لأداء الصلاة بقيادة الفقيه وهو الزعيم الروحى لهم، كما اعتادوا تغيير ملابسهم الداخلية، ويجتمعون فيأكلون ويغنون ويرقصون(*)(٢) .

ومن المناسبات الدينية المهمة أيضًا؛ التى ترافق بعض الأحداث العائلية الرئيسية: يوم الميلاد والزواج والوفاة. أما بالنسبة للميلاد فالعادات المهمة هى الفضض ويعنى ذلك أن يوهب الطفل لله، وعندما يكمل أسبوعًا يرسل من أجل تطهيره ويكتبون على جبهته بعض الكلمات ويعلقون فى رقبته الأحجبة التى تتضمن آيات قرآنية ويسمى باسم إسلامى. ويذبح بهذه المناسبة ذبيحة، ويضاف إلى هذه العادات الختان الذى يجرى فى اليوم التاسع، ثم أُجِّل فيما بعد حتى وصل إلى العام التاسع، أما عادة التطهُّر فتكون عند الزواج ، بالإضافة إلى أن العروس ينبغى أن تضع وردة ملونة على رأسها وتدخل بيت زوجها بقدمها اليمنى. وعند موت أحد الموريسكيين تغسل جثته بماء معطر ويلف بأحسن ثيابه ثم تقرأ بعض الآيات القرآنية ويدفن فى أرض لم تزرع ووجهه إلى الشرق وذلك فى المقبرة خارج العمران، ويوضع فوق القبر ماء وخبز وبعض عناقيد العنب. وامتناعهم عن بعض الأطعمة كان أيضًا لوازع دينى، ويمكن أن نختصرها فى ثلاثة: عدم تناول لحم الخنزير، وعدم شرب الخمر، وعدم تناول لحم حيوان ذبح ولم يذكر اسم الله عليه أو ذبح على غير الطريقة الشرعية .

ويذكر كارداياك أن محمداً قد لعن الخنزير ؛ لأنه مسه ولوَّث ثوبًا جديداً كان يلبسه(٣)، وتحريم الخنزير أدى إلى أن يمتنع الموريسكيون عن أكل الفجل والجزر لأنهم يعتقدون أنها أشياء شبيهة بالخنزير(٤) .

وباختصار فإن الموريسكيين كانوا يحافظون على الواجبات التى يحافظ عليها المسلمون متى كان ذلك ممكنًا من صوم وطهارة وصدقة وصلاة، وكل ذلك كان له أهمية كبرى عندهم؛ ولهذا فإن مرثيديس أرينال تذكر أن الحمامات تحولت إلى هوية

(*) أميل إلى الظن أنه يصف هنا حلقات ذكر، فيها إنشاد وبتمايل الجسم خلالها. (المراجع)

ثقافية بالنسبة للموريسكيين(٥)(*)، فمن الواجب على المؤمن الطهارة قبل صلاة الفجر؛ كما كان الموريسكيون يغسلون أفواههم بعد كل طعام، وماء الطهارة المعتادة يجب أن يكون نظيفًا خاليًا من اللون والطعم والرائحة، كما يحرم تسخين الماء بواسطة الشمس، أما الصلاة فتتضمن القيام والركوع والسجود، وربما ظلت تؤدى إلى وقت متأخر من وجودهم فى إسبانيا.. حيث يمكن أداؤها سرًا دون أن يراهم المسيحيون، وكذلك فقد كانوا يتداولون كتب الصلاة بطريقة سرية، وكانوا يقرءون الفاتحة كثيرًا وهى السورة الأولى من القرآن(٦).. أما أصعب الفروض بالنسبة لهم فهو الحج؛ لأنه فرض مشروط بالاستطاعة وتتم به زيارة الأماكن المقدسة فى الحجاز، ومع هذا فقد وجدت فى أراغون مخطوطة بعنوان: "قصائد رحلة حج لبوى مونثون، رحلة إلى مكة فى القرن السادس عشر"، وهى تحكى عن تلك الزيارة، مما يعنى أن الحج - وإن كان نادرًا بينهم- فإنه لم يكن مجهولاً. يبدو واضحًا أن الموريسكيين من وجهة نظر دينية لم يكونوا يختلفون تقريبًا عن باقى المسلمين(**) .

ومع تحول الموريسكيين إلى المسيحية لم تختف الشعائر الإسلامية بين مسلمى قشتالة ولم تختف الشعائر الإسلامية كذلك فى عام ١٥٢٦ بين مسلمى أراغون، ومنذ اللحظة الأولى أثير نقاش حول مدى صلاحية هذا التحول وما إذا كان للتعميد الإجبارى قيمة. خلال القرن السادس عشر بكامله ارتفعت أصوات تنادى بعدم صلاحية التعميد الإجبارى، وكان الأسقف بدرو دى ألبا يرى عدم صلاحيته لسببين: الأول أنه تم بالقوة، والثانى أن شروط تسليم غرناطة الواردة فى الوثيقة الموقعة من طرف المسيحيين عام ١٤٨٦ وعام ١٤٩٢م لم تحترم(٧)؛ ولهذا كان الراهب الفرانسيسكانو سوبرينو يقول: "إن عدم تحول الموريسكيين إلى المسيحية حدث بسبب

(*) جاء ذلك فى كتابها "محاكم التفتيش والموريسكيون"، وقد صدرت ترجمته العربية عن المجلس الأعلى للثقافة. (المراجع)

(**) ذكرنا فى مقدمة ترجمتنا لكتاب لونغاس "حياة الموريسكيين الدينية" أن شعائر الموريسكيين لم تكن كلها تتفق مع صحيح الإسلام، وأنها كانت تتراوح بين الإسلام الصحيح والبدع والتأثر بالثقافة المسيحية. (المراجع)

أخطائنا"[٨]، وحتى الحكام أنفسهم لم يكونوا دائمًا متأكدين من أن لهم الحق فى ذلك، وهذا واضح فى ترددهم فى تنصير مسلمى فالنسيا، فبين الوقت الذى حولت فيه المساجد إلى كنائس وبين ١٣ سبتمبر عام ١٥٢٥م حيث صدر قرار التنصير أو الارتداد الإجبارى، يفصل عام ونصف .

ومع ذلك فإن أحداثًا من هذا النوع لا يمكن أن نعتبرها إلا تأخيرًا فى خطة لم يكن ممكنًا التراجع النهائى عنها، شذوذًا فى قاعدة عامة. بالنسبة لجموع المسيحيين الإسبان لم يكن فى ذلك شك : إن الإجبار لا ينفى الاختيار، حيث كان المسلمون يستطيعون الاحتفاظ بدينهم الأصلى والهجرة ، وأن الأغلبية فضلت البقاء وبالتالى فقد تخلت عن دينها. كان هذا هو الموقف الرسمى الذى لم يتغير أبداً. وإلى جانب هذا الاعتقاد كان الجميع على يقين بأن التنصير الظاهرى لا يكفى دون إعداد الموريسكيين له، ولقد بدأت عملية التنصير منذ عام ١٥٠١م – إن لم يكن قبل ذلك – واستمرت خلال القرن السادس عشر، وكان لها وجهان أساسيان على مستويين مختلفين: الأول يمكن أن يسمى علميا والآخر شعبيا .

الجانب الأول يتعلق بالجدال الذى لم يتوقف قط بين علماء اللاهوت المسيحيين والمسلمين[٩]، أولئك يحاولون إثبات تفوق الإنجيل على القرآن والتعميد على الختان، وقد كان هذا هو الموضوع الرئيسى لكتاب: "فى مواجهة القرآن" **Anti Al Coraan** لبرناردو بيريث، الذى ظهر فى إشبيلية عام ١٥٢٨م وفى فالنسياعام ١٥٣٢م، وكتابات أخرى تؤكد على فظاظة محمد وفحشه، الذى فرض القرآن بالسيف وجمع أتباعًا عن طريق إغرائهم بالشهوات، وفى النهاية فإن الفقرات القليلة المقبولة فى القرآن أصلها مسيحى أو يهودى، ومن بين الكتب الأولى المهمة فى هذا الموضوع كتاب "دحض القرآن" **Improbatio Alcorani** للراهب الفلورانسى ريكولدو دى هونتكروثى، عاش فى الدول الإسلامية بين المسلمين سنوات كثيرة فى آسيا، وقد عرض على رجال الدين المسيحى مواد لم تكن فى حوزتهم. إن تاريخ نشر هذا الكتاب وترجمته بواسطة الراهب أنطونيو دى لابينيا لهما مغزى كبير، فقد ظهر فى إشبيلية عام ١٥٠٠م باللغة

اللاتينية، وبعنوان "إدانة القرآن" Reprobación del AL Coran عام ١٥٠١م فى إشبيلية أيضاً، ونشر أيضاً فى طليطلة عام ١٥٠٢م(١٠) .

ومن بين الكتابات التى ظهرت فيما بعد نذكر "نور الإيمان ضد القرآن" Lumbre de la fe contra el Al Coran من تأليف خوان مارتين وقد ظهر فى فالنسيا عام ١٥١٩م، وهذا المؤلف يدين فيه اللذات الحسية الموجودة فى الجنة وكذلك شهوانية محمد .

نجد النوايا نفسها وبأدلة مشابهة فى كتاب "مواجهة ضد القرآن وضد النحلة المحمدية من خلال كتابها وحياة محمد نفسه" وهو من تأليف لوبى أوبريغون، وهو مطبوع بإشراف محاكم التفتيش فى غرناطة عام ١٥٥٥م. وكتاب آخر صغير لخوان أندريس يحوى اثنى عشر باباً وهو يستحق اهتماماً خاصاً- ليس بسبب محتواه فهو يشبه الكتب الأخرى ولا للهجته فهو مثير للجدل [حيث يركز المؤلف على التناقض بين نزول القرآن فى ليلة واحدة بواسطة الملاك وبين استمرار هذا النزول عشرين عاماً] وإنما يستحق الاهتمام بسبب النجاح الذى حققه وبسبب شخصية مؤلفه، وقد طبع هذا الكتاب فى بداية عام ١٥١٥م فى فالنسيا ثم فى إشبيلية عام ١٥٣٧م وأخيراً فى غرناطة عام ١٥٦٠م. كان خوان أندريس ابناً لأحد الفقهاء، وكذلك هو نفسه كان فقيهاً وزعيماً روحيا لمسلمى شاطبة وكان يسمى ابن عبد الله، وقد تحول للمسيحية عام ١٤٨٧م وأصبح قسيساً وتسمى باسمى اثنين من الحواريين وذلك عن عمد. وقد عينه الملكان الكاثوليكيان راهباً، وأسندت إليه مهمة تنصير أبناء دينه فى غرناطة ثم فى أراغون، وينسب إليه ترجمة القرآن ، وكذلك كتب السنة السبعة(١١) .

الكتب المذكورة سابقاً كانت موجهة إلى جمهور محدود ولكن كان يمكن أن تكون قاعدة لعملية تنصر جماهيرى عام ، وهو عمل لا يمكن القيام به دون إعداد عدد كبير من القسيسين الأكفاء والنشيطين، ولقد اجتهد الملكان الكاثوليكيان بتوزيع عدد كبير من القسيسين فى قرى مملكة غرناطة، وكذلك ساعدا فى محاولات الأسقف الأول لغرناطة الراهب إيرناندو دى تالابيرا منذ عام ١٤٩٤م؛ حيث حاول توزيع قسيسين

يجيدون اللغة العربية. ولقد أشرف هذا الراهب عام ١٥٠١م على طبع كتاب قواعد وقاموس عربيين من إعداد الراهب بدرو دي ألكالا من أجل الإسهام في إعداد القسيسين لهذه اللغة، وقد ضرب هو نفسه مثلاً بفهمه لبعض مبادئها(١٢) .

ولقد كان لهذه الجهود بعض الثمار قبل ثورة عام ١٤٩٩م - وقد اقتصر ذلك على أقلية محدودة جدا - ولهذا فبعد قرار التنصير العام استجاب الملكان الكاثوليكيان بسرعة لطلب رجال الدين في قشتالة إرسال جيش من القسيسين إلى غرناطة، وربما كان هذا هو ما تضمنه القرار الملكي الصادر في مدينة سانتا في ٢٤ أكتوبر عام ١٥٠٠م. أما الهدف فقد كان يجب تحقيقه على أفضل الوجوه في السنوات التالية، ولهذا فقد كان من النادر وجود كنيسة بدون قسيس في مملكة غرناطة .

لم يحدث الشيء نفسه في فالنسيا فقد تأخرت إقامة شبكة من الكنائس عشر سنوات وذلك لاستيعاب الموريسكيين بعد تنصيرهم عام ١٥٢٥م، وقد حدث هذا فعلاً عندما أمر أسقف ثيوداد رودريغو واسمه أنطونيو راميريث بإنشاء كنائس في أماكن وجود الموريسكيين؛ حيث تم إنشاء ١٢٠ كنيسة(١٣)، وكانت المشكلة الكبرى في هذا الأمر هي تمويل هذه الكنائس، حيث إن الكنائس سواء في غرناطة أو فالنسيا لم تكن تملك شيئًا؛ لهذا منحت جزءًا من العشور أو الممتلكات الخاصة بالمساجد والأحباس أو أوقاف مساجد غرناطة، وهي عبارة عن أراض وطواحين وغير ذلك يدفع خراجها لمسجد معين. في كثير من الأحيان لم يكن ذلك يكفي واضطروا للبحث عن مصادر أخرى. وفي عام ١٥٣٥م منحت إحدى أسقفيات كنائس فالنسيا ٢٠٠٠ دوقية لهذا الغرض .

لكن يجب أن ننبه إلى أن إنشاء كنائس في القرى والمدن، لم يكن يعني تحقيق مجهود فعال، فالقساوسة الموزعون على قرى الموريسكيين كانوا بصورة عامة دون المستوى المطلوب؛ بل كانوا في أغلب الأحيان بمستوى مؤسف. كانوا أفرادًا مشكوكًا فيهم، أو غير مناسبين، وكان يوجد بينهم مراهقون أو متهمون من قبل محاكم التفتيش، وكثيرًا ما رفع الموريسكيون ضدهم الكثير من الشكاوى خلال ذلك القرن، فأحيانًا كان

الموريسكيون يشتكون من الابتزازات التعسفية المبالغ فيها، وأنهم يتعرضون لذلك فى كل مناسبة، وبعض القساوسة كان يجبر الموريسكيين على التنازل عن بعض أملاكهم للكنيسة، وبعضهم الآخر يجبرهم على العمل يوم الأحد فى حديقته الخاصة؛ كما اتُهم بعض القسيسين بإقامة علاقات غير شرعية مع النساء اللاتى يترددن على الكنيسة(١٤) .

وأغلب هذه الشكاوى كان لها أساس حقيقى، وقد استغرب كارلوس الخامس كثيراً- من نتيجة بحث أجرى خلال وجوده فى غرناطة عام ١٥٢٦م- حيث غرم ٦٠٪ من القسيسين، وحرم عليهم الغياب عن مناطق عملهم، للتفرغ لإنتاج الحرير، وأن يكرسوا كل وقتهم للقيام بمهام رعوية(١٥) .

لكن ما الأشياء التى كان يلزم بها الموريسكيين؟. إننا نعرف هذه الأشياء من خلال قرارات المجالس الكنسية ومن الزيارات الرعوية، مثل المجلس الكنسى بغرناطة المنعقد فى عام ١٥٤١م، ومجلس غواديكس عام ١٥٥٤م، وزيارة منطقة غرناطة ١٥٣٧م وزيارات أخرى(١٦). كان يجب على القسيس أن يعلم الموريسكيين الصلوات الأربع الأساسية وهى: "أبانا الذى فى السماء" و "السلام عليك يامريم"، Salve , credo و"الوصايا العشر"، و"مبادئ الإيمان". كذلك كان يجب تعليمهم الإشارة بالصليب. كان القسيس يراقب حضورهم الصلاة فى أيام الأعياد وممارسة الشعائر الخاصة بذلك. وفى أيام الآحاد كان يفسر لهم الإنجيل فى أثناء الوعظ، لو كان فى إمكانه ذلك، أما فى الأيام الأخرى فكان يقوم بعملية التدريس للنساء (أيام الأربعاء والجمعة) وكان يعلم الأطفال الذين يجب تعليمهم العقيدة كل يوم. كما كان يعقد امتحاناً فى هذه الأمور للتابعين للكنيسة ثلاث مرات كل عام. وهذا يمثل الجزء الجوهرى، ومن المحتمل أن مجمل البرنامج لم يكن يطبق بالكامل، وفى كل الأحوال فإن هذا دليل على اهتمام الملك ومثابرة كبار رجال الدين. ومن خلال الزيارات الرعوية التى تمت عام ١٥٨١م للمناطق المختلفة لقشتالة يمكن أن نقيس النتائج وأنه قد تم تطبيق جزء على الأقل من الأشياء التى كانت قد قررت فى السابق. ففى منطقة كوينكا، على سبيل المثال، كان كل الموريسكيين الغرناطيين الذين انتقلوا إليها وأقاموا فيها مؤخراً يعرفون الصلوات

الأربع والوصايا العشر وأركان الإيمان، وذلك باستثناء قليلين(١٧). ومما لا شك فيه أن ذلك كان بالنسبة لهم مجرد ترديد لنصوص دون أي اقتناع .

ولما تبين أن التوزيع الدائم للقساوسة لم يكن كافيًا، كان من الضروري البحث عن وسائل استثنائية. من بين هذه الوسائل يبرز تنظيم حملات التبشير وإنشاء المدارس المخصصة لأبناء الموريسكيين فقط. فعلى مدى القرن السادس عشر تم القيام في مملكة فالنسيا بست حملات تبشيرية ضخمة(١٨). الحملة الأولى كانت تهدف لوضع الإطار لقرار التنصير الإجباري الصادر في ٢٠ أكتوبر عام ١٥٢٥م. وفي مارس التالي تم تعيين بعض الشخصيات للقيام بعملية التبشير في جنوب تلك المملكة. هؤلاء القساوسة هم أسقف غواديكس: غسبار دابالوس، والراهبين الفرانسيسكيين: أنطونيو دي غيبارا وخوان دي سلامنكا، وكل من لويس دي لابويرتا وخوان سونيير، بالإضافة إلى مندوبين تابعين لمحاكم التفتيش. وقد قام كل من غيبارا وسونيير في ثلاثة أشهر (من مايو إلى يوليو) بزيارة المناطق التالية: قرى ماركيزية سينيت والقرى التابعة للسيد خيرونيمو بيش وللسيد رودريغو دي بورخا ولدوق غانديا ولدوق أوليبا ولكونت كونثينتاينا. وقد قام الأشخاص أنفسهم في نوفمبر وديسمبر بزيارة شمال المملكة(١٩) .
إن حملة تبشير سريعة بهذا الشكل لا يمكن أن تكون نتائجها إلا سطحية. ولما تبين أن نشاط رجال الدين غير الرسميين الذي حدث فيما بعد كان يدعو للإحباط؛ تقرر تنظيم مجموعة ثانية من حملات التبشير. وقد تم اتخاذ هذا القرار نتيجة لاجتماع نواب مونثون (أويسكا) عام ١٥٣٧م، ولمجلس مكون من قسيس الاعتراف الخاص بالملك، بدرو دي سوتو، ولأسقف كارتاخينا، خوان سيليثيو، وأسقف كلاأورا، راميريث دي هارو وبعض أعضاء محاكم التفتيش. وكان الشخص الرئيسي في هذه المهمة الراهب الفرانسيسكاني بارتولومي دي لوس أنخيليس. إن هذا الأندلوثي الذي كان يجيد العربية كان قد اشترك في حملة عام ١٥٢٥م. وبين هذين التاريخين (١٥٢٥، و١٥٣٤) تم تعيينه مشرفًا على الأديرة الفرانسيسكية في أندلوثيا .

وفى عام ١٥٤٣م توجه إلى قرى جنوب مملكة فالنسيا وبصحبته شمامس، كان موريسكيا من قرية أوليبا، وقد حققت الحملة نجاحًا محدودًا، حيث واجه الراهب بارتولومى معارضة من قبل السادة والقساوسة، وقد استغل هؤلاء موقفه المتسامح نحو الشعائر الإسلامية، ويبدو أنه قد وصل به الأمر إلى أن سهل عملية حصول المسلمين الأسرى على الحرية. لقد تم اتهامه وأدين ولكنه استطاع الهرب من الدير الفرانسيسكان فى فالنسيا، وحكم عليه بالعصيان والتمادى فى الخطأ. أما الحملة فقد توقفت عام ١٥٤٧م[٢٠] .

الحملة الثالثة نظمها أساقفة تلك المملكة عام ١٥٦٧م. حيث وعظ أسقف تورتوسا فى مايو فى منطقة بال دى أوكسو. وقد باءت هذه الحملة أيضًا بالفشل. تم تنظيم حملات أخرى مشابهة عام ١٥٨٧م، وهو العام الذى تمت فيه حملة تحت إشراف رجال الدين الفالنسيين بواسطة خمسة من الفرانسيسكيين واليسوعيين، وفى عام ١٥٩٩م، تم إسناد هذه المهمة إلى رجال الدين المحليين. أما المجهود الأخير فى هذا المجال فقد تم بناء على توصية من البابا عام ١٦٠٦م، وتوقف بسبب الطرد .

وقد أجريت محاولات مماثلة فى مملكة غرناطة، فالمحاولة الأولى تشبه عملية عام ١٥٢٥م فى فالنسيا، ولكنها تسبقها تاريخيا حيث تعود لعام ١٥٠٢م، وكانت هذا المحاولات تركز على تعميد جميع أبناء الشعب المسلم وتعليمه أصول الإيمان المسيحى. ومما لا شك فيه أنه قد نظمت حملات أخرى – وإن كانت معروفة لنا بدرجات أقل عن تلك التى تمت فى فالنسيا – فمثلاً الفرنسيسكانى خوان دى أوليبا كان مكلفًا بالدعوة المسيحية فى حى البايزين الغرناطى، وقد حصل على ١٥٠٠٠ من العملة المرابطية عام ١٥١٣م وقد أثيرت الشبهات حول نشاطه؛ فكتب عمدة غرناطة للملك يخبره بأن مواعظه قد سببت هياج المسيحيين الجدد[٢١] .

ويبدو أن فرانسسكانيا آخر يدعى خورخى دى بينابيدس قد سكن مدة طويلة فى البشرات للسبب نفسه ، وقد أعطى عام ١٥٥٣م مبلغ ١٥٠٠٠ ريال مرابطى ليتقاسمها مع رجل دين آخر من أموال الأحباس "من أجل تعليم العقيدة للذين تنصروا حديثًا فى البشرات"[٢٢] .

وعند الحديث عن هذه الحملات يجب أن نؤكد على الدور الرئيسى الذى قام به رجال الدين المحليون الكاثوليكيون، وعندما ظهر أن نشاطهم العادى لم يكن كافيًا كان من الطبيعى أن يطلب الملك مساعدة الدومنيكيين والأوغسطيين وكذلك وبصورة أكبر الفرانسيسكيين واليسوعيين. وهناك دليل آخر على حماس الفرنسيسكيين وهو وجود دير لهم فى مدينة هورناشوس. ونحن لا نعرف تاريخ إنشائه، ولكن ينبغى أن يكون فى وقت مبكر من القرن السادس عشر ومن المؤكد أيضًا أن الراهبين التابعين له كانا هما المسيحيين الوحيدين اللذين يعيشان فى تلك المدينة حتى تاريخ طرد الموريسكيين عام ١٦١٠م[٢٣] .

والطريقة بنفسها فإن مجمع عام ١٥٢٦م الذى عُقد فى غرناطة كان قد قرر إنشاء أربعة أديرة: اثنين للفرانسيسكيين فى المونيكار وموتريل وآخرين للدومنيكيين وأندراكس وأوغيخار ولكن هل أنشئت فعلاً تلك الأديرة ؟

أما ما كان يُطْلب من اليسوعيين فقد كان ذا طبيعة مختلفة، إذ كان المطلوب منهم المساهمة فى تعليم أطفال الموريسكيين وهو عمل تبشيرى مهم. كانت السلطة تهتم بشكل رئيسى بتنصير مجموعتين وهما الأطفال والوجهاء، لما كان للوجهاء من أثر حقيقى فى حدوث تنصير الشعب الموريسكى حيث يمثلون قدوة له، أما الأطفال فعندما تتم تربيتهم وتنشئتهم منذ سن مبكرة بطريقة مغايرة لتربية آبائهم يكون تنصيرهم حقيقيا وليس مجرد أمر شكلى. كانت هذه سياسة واعية وضعها الملوك الإسبان ومارسوها على نطاق واسع، كما كانت المحاولات نفسها تتم فى الوقت نفسه وفى مكان آخر مع السكان الأصليين فى أمريكا(*). ولقد عبر كارلوس الخامس عن ذلك بوضوح فى توجيهاته لوعاظ مملكة فالنسيا عام ١٥٢٥م قائلاً: " فى حالة إصرار الموريسكيين على تمسكهم بعقيدتهم وقرارهم الخروج من بلدنا يجب عليهم أن يتركوا أبناءهم ليصبحوا

(*) كثير من الباحثين يربط تنصير مسلمى إسبانيا بتنصير الهنود الحمر، ويذكر أن العمليتين تندرجان فى إطار واحد. انظر مثلاً مقال غارثيا آرينال المنشور فى مجلة جامعة غرناطة. (المراجع)

مسيحيين، وهكذا نؤثر في الآباء كما نؤثر في الأبناء ". وفي حديثه لبعض رعايا دوق سيغوربى الذين كانوا يرغبون في الهجرة حيث قال: " يجب أن تتركوا أبناءكم ليتعلموا كلمة الرب ويتحولوا إلى عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة.(٢٤)" .

وفي عام ١٥٢٦م قرر المجلس الغرناطي إنشاء مدارس خاصة للأطفال الموريسكيين في غرناطة وفي ألمرية وغواديكس، ولكن لا يوجد أي دليل حتى الآن على الإنشاء الفعلي لمدارس في تلك المدينتين. الذي نعرفه أنه قد افتتحت في غرناطة مدرسة قادرة على استيعاب ١٠٠ تلميذ عام ١٥٣٠م، والنشرة التي تؤكد هذا تعود إلى عام ١٥٣١م. وقد مُنحت مدرسة سان ميغيل مبلغ ٥٥٠٠٠٠ ريال مرابطي، ما يعادل ٣ ملايين بيزتا من العملة الحالية، وكان المدير الأول لهذه المدرسة هو فرانسيسكو دي أوتيل - وهو كاهن بكاتدرائية غرناطة - لكن المدرسة لم تقم بمهامها الأساسية وقتًا طويلاً؛ فبعد عام ١٥٥٨م كان تلاميذها كلهم من أبناء المسيحيين القدامى .

بُذلت مجهودات مشابهة في غانديا بإشراف الدوق، الذي سيتحول فيما بعد إلى القديس فرانثيسكو دي بورخا، ففي عام ١٥٤٤م كُلف اليسوعيون بإدارة مدرسة تستوعب ثمانية عشر طالبًا بمنحة، كان منهم اثنا عشر موريسكيا إلا أن المشروع فشل سريعًا؛ كما يثبت ذلك القرار الصادر في ٣١ أغسطس عام ١٥٤٨م الذي يعفي المدرسة من شرط قبول تلاميذ موريسكيين. أما مدرسة فالنسيا فربما كانت أسعد حظا، حيث إنه في نهاية القرن السادس عشر كان يخطط أن يقوم خريجوها من الموريسكيين بمساعدة المبشرين في مهامهم .

ويجب أن نشير إلى أن أكثر المدارس شهرة هي : "دار العقيدة" التي أنشئت بديلاً عن مدرسة سان ميغيل. كانت المدرسة في البيازين؛ حيث كانت أغلبية السكان من الموريسكيين وقد رعاها السيد الأسقف بدرو غيريرو الذي عهد بإدارتها إلى تسعة من اليسوعيين برئاسة الأب إمبروسيو ولكن بسرعة فائقة تحول الأب فرانثيسكو ألبوتودو إلى شخصية لامعة وهو موريسكي من أب حداد وكان تلميذًا سابقًا في مدرسة سان ميغيل، وقد قبل عام ١٥٥٨م في جماعة يسوع (التي لم تكن لائحتها الخاصة تشترط

نقاء الدم)، وكان يُعلم أبناء دينه باللغة العربية وقد لاقى بعض النجاح - إذا أخذنا فى الاعتبار ما ذكره فى كتاباته - إلا أنه يجب أن نشير إلى أنه قبل طرد موريسكيى غرناطة عام ١٥٧٠م فإن مدرسة "دار العقيدة" كانت تعانى من مشاكل حقيقية(٢٥) .

* * *

إن مجموع الوسائل الهادفة إلى تنصير الموريسكيين تُترجم رغبة المسيحيين فى إدماج الأقلية الموريسكية فى الأكثرية المسيحية؛ ولتفهم المعنى العام لهذا الجانب "الإيجابى" إلى حدٍ ما من سياسة الاحتواء الثقافية يجب أن نربطه بالجانب التدميرى الذى تمثله، بمعنى القهر ومحاولة فرضها بالقوة .

ويميل توليوها ليبرين دونغى فى كتابه الذى ألفه حول موريسكيى فالنسيا إلى وجود مرحلة إدماج فى النصف الأول من القرن السادس عشر تبعتها مرحلة أخرى من القهر فى النصف الثانى من ذلك القرن وبخاصة بعد عام ١٥٧٠م، والكاتب فى هذا على حق فى بعض ما ذهب إليه؛ فإن السلطة حينما خاب أملها إزاء ضآلة النتائج ضاعفت من وسائل القهر، وتجب الإشارة إلى أن وسائل القهر لم تكن منفصلة فى الواقع عن الرغبة فى الإدماج، لكن وسائل القهر والاحتواء لم ينفصلا مطلقًا عن بعضهما، فقد حلت وسائل القهر بسرعة محل الوسائل الأخرى وإذا كانت فى بعض الأحيان تأتى فى المقام الثانى، فإنها وفى كثير من الأحيان كانت تستعمل منذ البداية .

والقهر فى المجال الدينى تجلى فى صورتين رئيسيتين: فهو يستند إلى جهاز تشريعى متشعب تم إعداده منذ تاريخ مبكر، وتحسينه بشكل متتالٍ، وكان عمله محو أى مظهر فردى أو جماعى ينتسب للإسلام، ولقد حاول الموريسكيون من جانبهم إلغاء أو تأجيل أو تغيير القوانين التى كانت تهددهم وتضيق عليهم ، وقد نجحوا فى ذلك بعض الأحيان، ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك بشكل كامل، بالإضافة إلى وجود من يخالفهم من ناحية أخرى، وقد استخدمت السلطات أجهزة قضائية عديدة ضدهم، مثل المحكمة

العامة والقيادة العامة فى غرناطة، ولكن جهاز القهر الأكثر أهمية والأكبر تسلطًا كان محاكم التفتيش .

وقد يكون نموذج غرناطة أفضل دليل على ذلك، الخاص بغرناطة ، فمنذ عامى ١٥٠٠ و١٥٠١م تحددت روح السياسة العامة التى يجب تطبيقها خلال كل ذلك القرن. يعبر عن ذلك بوضوح نص غير مؤرخ ومن المحتمل أن يعود إلى عام ١٥٠٠م أو بداية عام ١٥٠١م صادر عن الأسقف الراهب إيرناندو دى[٢٦] تالابيرا وهو ما يجعل له معنى خاصا، قبل أن يعدد هذا الأسقف الشعائر المسيحية التى يجب الإصرار عليها وأن يتبناها المبشرون، يذكرهم قائلاً: " فى البداية يجب أن تنسوا كل شعيرة من شعائر الموريسكيين فى الصلاة والصيام وفى الأعياد وميلاد الأطفال والأفراح والحمامات والأموات وفى كل الأشياء". وبوجه عام لم يوجد أى تسامح مطلقًا مع أى شعيرة إسلامية، فقد كانوا يهدفون إلى استئصال تام للإسلام؛ مع إعدادهم باعتبارهم مسيحيين جدداً حقيقيين .

كانت القرارات الملكية الأولية التى فُرضت تعود إلى عام ١٥٠١م وتدور حول الأمور التالية: الحمامات (ذلك فى قرار ٣٠ يوليو)، والكتب (فى قرار ١٢ أكتوبر)[٢٧]. القرار الملكى الأول يتعرض لمدينة غرناطة فقط، ويقضى بمنع الرجال من الذهاب إلى الحمامات فى الساعة المخصصة للنساء، أما الثانى فكان له مدى عام أوسع بكثير عن طريق حرق الكتب الدينية التى كانت فى حوزة الموريسكيين فى ذلك الوقت، فقد ورد فى ذلك ما يلى: " يجب إحضار الكتب التى فى حوزة الموريسكيين دون السماح بإبقاء أى شىء من يوم إجراء هذا الإعلان ولمدة ثلاثين يومًا؛ سواء كانت الكتب قرآنًا، أو أى كتاب حول الطائفة المحمدية، ويجب حرقها علنًا" .

ثم بعد ذلك بقليل صدرت قائمة حقيقية بالمحرمات، وتدرج الأمر قليلاً قليلاً بين عامى ١٥١١ و١٥١٣م حتى أصبحت جميع جوانب الحياة الدينية الإسلامية ممنوعة، ثم أعيد تحريم اقتناء الكتب فى ٢٠ يونيو ١٥١١م[٢٨] وكان على كل من يملك بعض هذه الكتب أن يسلمها فوراً للسلطات خلال خمسين يوماً، ولم يستثن من ذلك إلا كتب الطب

والفلسفة والتاريخ، ومع ذلك كان يجب إحضار هذه الكتب لمراجعتها؛ وذلك لأننا نعرف أن الموريسكيين يخفون كتبًا ممنوعة داخل المسموحة(*)، وقد صدر قرار ملكى آخر عام ١٥٦٥م فى هذا الصدد .

كانت مقاومة الموريسكيين حية دائمًا فى هذه النقطة، واكتشفت كتب عربية عديدة فى ذلك القرن؛ ففى فبراير عام ١٥٧٠م مثلاً فى حى البيازين "وجد بعض الجنود فى تجويف فى جدار أكثر من ستين نسخة من القرآن والكتب الدينية التى تتبع طائفة محمد والصلوات وكانت جيدة التجليد ومكتوبة بخطوط دائرية ذهبية. وبعد أن بدأت هذه الحرب فى البشرات وفى كل مكان، أحضر الجنود عددًا لا يحصى من كتب هذه الطائفة، ويفهم من هذا أن الموريسكيين كانوا يعيشون مسلمين حيث توجد كتب كثيرة من شريعتهم السيئة"(٢٩) .

وقد وجدت مرثيديس غارثيا أرينال فى مدينة أركوس دى خالون الصغيرة اثنين يملكان نسختين من القرآن، وفى مَلَقة عام ١٥٦٧م عثر رجال محاكم التفتيش على مقتنيات من هذا القبيل .

كانت طريقة ذبح الحيوانات ذات الطابع الدينى هدفًا لملاحقة كبيرة، كان المسلمون يذبحون الحيوانات وينزلون دماءها موجهين رأسها ناحية الشرق. ولتجنب مثل هذه الممارسات أمروا فى عشرين يونيو عام ١٥١١م بأن يستدعوا قصابًا مسيحيا للذبح، ثم تكرر ذلك فى ٨ فبراير عام ١٥١٢م، وفى ٢٩ يوليو عام ١٥١٣م وأخيرًا فى ١٠ مايو عام ١٥٢٠م، ونتيجة لطلب الموريسكيين إلغاء هذا القرار بسبب الأضرار التى لحقت بهم - وبخاصة عندما لا يوجد مسيحيون أو حتى لا تفسد اللحوم، أو يشترط المسيحيون أجرًا مرتفعًا - فقد بحث هذا الموضوع فى ٢٩ سبتمبر عام ١٥٢٦م، وسمح كارلوس الخامس أن يقوم أحد الموريسكيين بهذا العمل عندما لا يوجد مسيحيون يقومون به، ولكنه اشترط أن يعين ذلك الموريسكى من قبل القسيس(٣٠) .

(*) فى بعض الدول التى تحظر كتابًا ما يلجأ الناس إلى هذه الحيلة نفسها؛ فيضعون الكتاب المحظور بين دفتى غلاف كتاب آخر. (المراجع)

كما كانت الحمامات العامة هدفًا لقانون خاص ودقيق، فقد كانوا يخافون أن تُستخدم هذه الأماكن لممارسة شعائر إسلامية؛ ولهذا كانوا يحاولون عدم السماح بترميم أبنيتها، وتنظيم الدخول إليها، وفى هذا الجانب فإن القرار الأكثر أهمية هو الصادر فى ١٢ نوفمبر ١٥٣٢م الذى يحرم على الموريسكى أن يكون صاحب حمام، وكذلك حرم على الموريسكيين الذهاب إلى الحمامات فى غير أيام الآحاد أو أيام الأعياد(٣١) قبل الصلاة .

أما النقطة الرابعة التى كانت موضوع العديد من القرارات الملكية فهى حول الميلاد والزواج ودفن الموتى؛ فالأمر الذى تكرر كثيراً هو الخاص بشعائر الميلاد، فقد حرم على النساء الموريسكيات أن يعملن قابلات (وذلك للحد من ممارسة الختان)، وقد اشترط أن يكون وليا الطفل أثناء تعميده من المسيحيين القدامى وذلك فى القرار الصادر فى ٢٠ يونيو عام ١٥١١م. كان هؤلاء يستغلون ذلك الشرط ويطلبون أجراً مقابل عملهم، مما اضطر الموريسكيين إلى رفع شكوى للملك، وقد أدين استغلال المسيحيين القدامى فى بيان صدر بتاريخ ٢٩ يونيو عام ١٥١٣م، ومع هذا لم يتوقف المسيحيون القدامى عن استغلال الموريسكيين مما دفع هؤلاء إلى الشكوى مرة أخرى، ولهذا ظهر إشعار ملكى فى ١٠ مايو عام ١٥٢٠م ويسمح – إلى جانب المسيحيين القدماء حيث تم الإبقاء على شرط حضورهم عملية التعميد – بإمكانية أن يكون أحد الموريسكيين وليًا للطفل، ولكن هذا الإشعار يبدو أنه لم يطبق كثيراً، لأن طلبًا قدم من قبل فرنسيسكو نونيث مولاى، أدًى إلى إجراء بحث فى ٢٥ أغسطس عام ١٥٢٣م يتناول تصرف المسيحيين القدامى بهذا الموضوع(٣٢)، ومن ناحية أخرى نعرف بالتأكيد أن مجمل هذه القوانين قد تم تطبيقها بالفعل، ففى قرية الهندين **Alhendin** كما فى كنيسة سان نيكولاس فى غرناطة وجد مسيحى قديم أصبح وليًا لكثير من الأطفال الموريسكيين، وفى تلك القرية كانت ماريا دى ثياس وزوجها خوان دى كاسترو وليين لـ٢٥ طفلاً موريسكيا بين عام ١٥٣٨ و١٥٥٩م، وفى سان نيكولاس قام إستيبان ريبيل وزوجته فرانثيسكا دى ألاركون بالعمل نفسه. حيث أصبحا وليين ثماني مرات عام ١٥٥٥، أما ألونسو رويث وفرانثيسكو دى بيلاسكو فقد قاما بذلك ٦ مرات(٣٣) .

كذلك فإن عملية منع استخدام الأسماء الإسلامية تمت بطريقة شبه رسمية وصدرت أوامر بمنع استخدام الأسماء الإسلامية، مما جعل كثيراً من الموريسكيين يستخدمون اسمين لأطفالهم: أحدهما إسلامي ويكون سريا، والآخر مسيحي ويكون علنيا. وفي أرشيف الموثقين في غرناطة يلاحظ تطور واضح، فحتى عام ١٥٠٠ كان يوجد في الوثائق الأسماء والألقاب الإسلامية، وبعد التنصير بعدة سنوات وحتى عام ١٥١٠م كان يستعمل الشكل التالي: " أنا (اسم ولقب نصراني) كنت أدعى سابقًا (اسم ولقب إسلامي) "، ثم بعد ذلك استعمل الاسم المسيحي فقط .

كما بذلت جهود كثيرة من أجل أن يتوقف الموريسكيون عن دفن موتاهم في أرض غير مزروعة في مقابر خارج العمران دائمًا، مع محاولة نشر العادة المسيحية الخاصة بالدفن داخل الكنيسة أو الدير بينهم، كان هذا هو ما تضمنه قرار بلدية باثا في ٣ يونيو ١٥٢٤م، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر وجود المقابر الإسلامية مدة طويلة .

كما نلاحظ أيضًا من بين العادات التي تصاحب التواريخ المهمة في حياة الفرد (السمبرا)(*)، وقد كان لها مصير خاص. هذه الرقصة كانت خاصة بالموريسكيين الغرناطيين في أيام أعيادهم وقد ظلت لفترة طويلة مسموحًا بها. ولقد سمح بها السيد فيرناندو دي توليدو في الأوامر التي كتبها لرعاياه الموريسكيين في ويسكا وكاستييخا. ولا يمكن أن ننسى مواعظ الراهب هيرناندو دي تلابيرا كانت تلقى أثناء رقص الموريسكيين رقصة السمبرا. ومع هذا فمنذ عام ١٥٢٦ بدأت محاولة التقليل من استخدامها حيث اعتبرت رقصة إباحية. وفي عامي ١٥٢٩و١٥٣٠م صدرت النصوص التشريعية بالتوجة نفسه لكن الموقف الغامض للسلطات حول السمبرا يتناقض بطريقة واضحة مع الطابع القهري لسياسة التثقيف المسيحي .

* * *

(*) رقصة شعبية أندلسية، ربما يعود أصلها إلى البربر، وليس لها أي معنى ديني؛ وهذا يفسر تساهل السلطة بشأنها. (المترجم)

إن تكرار القوانين فى حد ذاته دليل على النجاح المحدود الذى حققته السلطات، وهذا صحيح سواء فى فالنسيا أو أراغون كما فى غرناطة، ولهذا فقد تُرك لمحاكم التفتيش الدور البارز، وذلك لاجتثاث الشعائر الإسلامية القائمة، ولدفع الموريسكيين إلى الاندماج التام فى العقيدة المسيحية؛ وفى هذه الظروف تمكنت محاكم التفتيش من التدخل فى جوانب الحياة اليومية كلها، واستطاعت أن تسهل كثيراً لكل مسيحى أن يقوم بدوره فى إدانة الملحدين متى كانت لديه معلومات؛ ولهذا يجب ألا نستغرب أن تكون محاكم التفتيش فى نظر الموريسكيين رمزاً للإرهاب والقهر، فكل موريسكى يمكن أن يطارد فى أى وقت من قِبل تلك المحاكم، ومن أجل ذلك كان الموريسكى مضطرا للشك فى كل من يحيطون به .

إن الكتاب الموريسكيين يصفون محاكم التفتيش بأنها محكمة الشيطان: رئيسها شيطان ومستشاروه إما مخادع وإما أعمى، وهم بذلك يقصدون الطابع السرى لإجراءات محاكم التفتيش ويشير إلى ذلك بالكلمات نفسها مخطوط آخر حين يتحدث عن: " الكفار رجال محاكم التفتيش وهم مدفوعون بواعز شيطانى وبأسلوب شيطانى؛ يريدون أن يكونوا قضاة للنفوس، ويحاولون إجبار الناس بالقوة على اتباع طريقتهم الشيطانية الملعونة وبدون أدلة"(٣٤) .

هذه النصوص تؤكد وتشير إلى التعسف وإلى جشع تلك المحاكم ، وتشير إلى أن مصادرة أموال الناس كانت إجراء عاديا؛ كما توحى بذلك الضرائب التى كانت مفروضة على موريسكيى بلنسية، وتدفع مرتين فى العام فى مارس وسبتمبر. والإشارة الأخيرة – فيما تقدم – مهمة؛ فهى توضح سياسة محاكم التفتيش نحو الموريسكيين طيلة ذلك القرن .

أما نشاط محاكم فالنسيا وسرقسطة وغرناطة (وقد أُنشئت المحكمة الأخيرة عام ١٥٢٦م) فقد كان فى البداية محدوداً، وقد منح رئيس المحكمة الكاردنال مانريكى مسلمى غرناطة عفواً لمدة ثلاث سنوات؛ ولم يحاكم إلا ثلاثة موريسكيين حتى عام ١٦٢٩ حيث مَثُلَ فقط ثلاثة موريسكيين أمامها، وأما فى فالنسيا فقد حدث اتفاق بعدم

تدخل محاكم التفتيش لمدة أربعين عامًا فى شعائر إسلامية قليلة الخطورة، كما طلب كارلوس الخامس فى ١٢ يناير عام ١٥٣٤م من رجال محاكم التفتيش فى فالنسيا ألا يصادروا أموال الموريسكيين المطاردين بسبب الهرطقة، وفى عام ١٥٣٥م نصحهم رئيس المحكمة بعدم تطبيق عقوبة الإعدام .

أما فى أراغون فقد أصدرت مجالس مونثون قرارًا يقضى عمليا بإيقاف نشاط محاكم التفتيش عام ١٥٢٨م[٣٥]، وقد اتخذ هذا القرار بضغط من الإقطاعيين الذين كان يهمهم المحافظة على حياة وأموال تابعيهم من الموريسكيين .

وهذه التسهيلات التى منحت للموريسكيين، وخففت من صرامة محاكم التفتيش كان لها ثمنها، فلم يتوقف الموريسكيون عن مد تلك المحاكم بالأموال، ففى فالنسيا عقد اتفاق عام ١٥٧١م يدفع بمقتضاه الموريسكيون إلى المحكمة خمسين ألف عملة سويلدو[*] سنويا[٣٦]، أما موريسكيو غرناطة فقد عرضوا على المحكمة والملك ١٢٠ ألف دوقية عام ١٥٤٣م، كما عرضوا ٢٠٠ ألف عام ١٥٥٥م، وأخيرًا فى عام ١٥٥٨م عرضوا ١٠٠ ألف للملك وثلاثة آلاف سنويا للمحكمة، وبعد كثير من التفاوض فإن هذه العروض لم تقبل .

وإذا كان كثير من الخلافات بين الموريسكيين والمحكمة يحل عن طريق دفع مبالغ؛ فإن سبب ذلك كما يقول غارثيا كارثيل: "إن تلك المحكمة كانت مؤسسة خربة غارقة فى الانتهازية بسبب تناقضاتها الهيكلية وجهازها البيروقراطى العقيم"[٣٧]، ويؤكد هذا الرأى من خلال قائمة بمصاريف محاكم التفتيش فى فالنسيا عام ١٥٩٨م .

(*) عملة إسبانية آنذاك. (المراجع)

الوظيفة	المرتّب	
	بالجنيه	بالسويلدو
قضاة محاكم التفتيش	٢١١٣	١٩
النائب	٤٧٩	٣
قاضى أموال	٥٢	٢
مستقبل	٣١٠	–
الحاجب	٢٨١	١٧
موثق مصادرات	١٥٥	–
أمناء السر الأربعة	١٠٠١	١٩
قائدان	٣٤١	١٥
قاصدان رسوليان	٢٢٥	٩
وكيل موثق	١٠١	٥
قسيسان	٣٣	١٢
أربعة مستشارين	٦٠	–
طبيب وجراحان	٣٥	–
محاسب عام	٢١٣	٩
مساعدات تقويم	١٠٠٤	١٣
أعمال وتصليحات	٥٠٠	–
طعام السجناء	٤٠٠	–
نفقات إضافية	٧٠٠	–*
دعم لمحكمة تفتيش مايوركا	٥٢٨	–
الإجمالـــــى	٨٥٣١	[١٢٢]

وكذلك فإن محكمة تفتيش غرناطة لم تكن أقل فساداً، أما عدد موظفي المحكمة فقد كان ٢٩ موظفًا بين عامي ١٥٧٠م و١٥٨٠م. وهو أكثر قليلاً من عدد موظفي محكمة فالنسيا[٣٨] .

كان الموريسكيون هم الضحية الرئيسية؛ حيث كانت محاكم التفتيش في غرناطة وفالنسيا خلال ثلاثة أرباع قرن سابقة على الطرد. أثبت ك غاراد الوضع في غرناطة في الفترة بين عامي ١٥٥٠ و١٥٨٠م[٣٩]، وباستثناء مشهد الإيمان في ٦ مارس عام ١٥٨٠م التي شكل فيها الموريسكيون ربع عدد المحكوم عليهم – ينبغي أن لا ننسى أن أغلب الموريسكيين أخرجوا من غرناطة عامي ١٥٦٩ و١٥٧٠م، فقد شكل الموريسكيون دائما الأغلبية الحاكمة ، وبصورة إجمالية فإنه في اثنى عشر مشهداً معروفًا خلال ثلاثين عامًا فإن ٧٨٠ من أصل ٩٩٨ محكوماً عليهم فيها كانوا من الموريسكيين وهو ما يساوي ٧٨,١٪، ويمكن تقديم أرقام مشابهة في أقاليم أخرى يمثل فيها الموريسكيون جزءًا كبيراً من السكان المتهمين، ففي سرقسطة ذكر مثول ٦٨ شخصًا في مشهد يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٥٤٦م[٤٠] وكان الفريق الأكثر عدداً ، يمثله الموريسكيون حيث كان عددهم ٢٧ متهماً أي ٣٩,٧٪ .

أما في طليطلة فقد كان المتهمون من الموريسكيين يبلغ عددهم١٩٠ متهمًا من العدد الإجمالي وهو ٨٠٦ أشخاص[٤١]، وفي مرسية يبدو أن عدد المتهودين كان أكبر من الموريسكيين تبعًا لرأى يورنتي، لكن في مشهد سبتمبر عام ١٥٦٠م وصل عدد المسلمين المتهمين إلى ١٢ شخصاً وكانوا يمثلون ربع المتهمين البالغ عددهم ٤٨ متهماً، (وهذا بالإضافة إلى وجود ١٦متهمًا حرقوا لأسباب نجهلها)، وفي كوينكا حوكم خمسمائة موريسكي في الفترة ما بين ١٥٢٠ و١٦١٠م، وفي مشهد واحد عام ١٥٨٥م كان هناك ٢١ شخصاً[٤٢] .

كانت محاكم التفتيش تطبق على الموريسكيين الإجراءات التالية :

أولاً: التصالح، ويكون عادة مصحوبًا بمصادرة الأموال، وقد سرى هذا على كل المتهمين بممارسة شعائر الإسلام .

ثانيًا: الموت حرقًا، وقد طبق على عدد محدود .

سياسة محاكم التفتيش مع الموريسكيين تتضح من خلال توزيعها لهاتين العقوبتين. ولما كان الموريسكيون فى نظر القضاة تابعين للإسلام، فإن أقل جريمة كانت توجه إليهم هي الهرطقة، ولهذا فإن عقوبات خفيفة مثل الجلد بالسياط أو لبس ثياب مخزية نادرًا ما كانت تطبق عليهم، ولهذا فإن الموريسكى الذى يقع تحت يد هذه المحكمة لم يكن ينجو دون مصادرة الأموال، وبعض الأشخاص تمت معاملتهم بكل قسوة وصرامة لا سيما حينما يكون المتهمون زعماء دينيين للموريسكيين أو أشخاصًا حوكموا للمرة الثانية. ومن بين هؤلاء الضحايا يمكن أن نذكر الموريسيكى الوحيد الذى حُرِقَ فى سرقسطة عام ١٥٤٦م ويسمى خوان ألاكس، وكان فقيهًا لبلدة موريل، وكذلك ماريا التى كانت قد تصالحت معها المحكمة عام ١٥٧١م وهى موريسيكية غرناطية، ثم أُحرقت فى لوغرونيو عام ١٥٧٦م ، وبياتريث دى بابيا وكانت تقيم فى قرية الأركوس. صالحتها المحكمة عام ١٥٧٦م، ثم أدانتها من جديد عام ١٥٨١م وعام ١٥٩٤ وعام ١٥٩٦، ثم نفذ فيها حكم الإعدام فى كوينكا فى ١٦ ديسمبر عام ١٥٩٨م، أما فى غرناطة فقد حكم بالإعدام حرقًا على ١٤ موريسكيا خلال ١٢ محاكمة لدينا حولها معلومات، وفى مرسية أعدم واحد فقط من ١٧ محكومًا لاتهامه بممارسة شعائر الإسلام عام ١٥٨٥م، وفى كوينكا حكم على واحد فقط بالإعدام من ٢١موريسكيا من المتهمين. وباختصار فإنه من بين ٥٠٠ محاكمة للموريسكيين فى كوينكا حكم على ١٥ شخصًا بالموت حرقًا .

وفى نهاية هذه الإثباتات يبقى لنا أمران ينبغى بحثهما : هل طاردت محاكم التفتيش الموريسكيين بمستوى واحد خلال القرن السادس عشر أم أن نشاطها سجل مراحل من الهدوء وأخرى من القمع؟.. وكم عدد الموريسكيين الذين كانوا ضحية لتلك المحاكم ؟.

على الرغم من نقص الوثائق فإن بإمكاننا أن نجيب على السؤال الأول : لقد أثبت غارّاد أن محكمة التفتيش فى غرناطة لم تتوقف عن تشديد قيودها على الشعب الموريسكى منذ عام ١٥٣٠إلى ١٥٧٠م، ففى تلك الفترة كان يظهر أكثر من ٨٠ متهمًا أو أكثر فى كل جلسة ، وقد بلغ الرقم القياسى ١٠٦ متهمين فى ٢٤ أكتوبر عام ١٥٦٣م،

وكان الحد الأدنى ٥٢ متهمًا فى ٢٨ سبتمبر عام ١٥٥٢م، أما الموريسكيون الـ ١٤ الذين عوقبوا بالموت حرقًا، وذكرناهم سابقًا فقد تمت محاكمتهم ما بين عامى ١٥٦٠ و١٥٦٩م، أما فى كوينكا فقد أكدت مرثيديس أرينال أن محاكم التفتيش كثفت نشاطها فى ثلاث مراحل وهى: من عام ١٥٢٠ إلى عام ١٥٣٥ ومن عام ١٥٦٥ إلى عام ١٥٧٥م، ومن عام ١٦٠٥ إلى عام ١٦١٠ وهذا يعنى أنه منذ بداية عمل محاكم التفتيش توافق تكثيف نشاطها مع أحداث تمت فيها مواجهة حادة بين الشعبين: مثل ثورة غرناطة عامى ١٥٦٨ و١٥٧٠م، والطرد العام (١٦٠٩-١٦١٤م)، وهذان المثالان يؤكدان الأهمية الكبرى- ويمكن أن يعمم ذلك على باقى الأقاليم- للفترة بين عامى ١٥٦٠ و١٥٧٠م. وعلى ذلك فإن تكثيف نشاط محاكم التفتيش يبدو لنا تعبيراً عن الصراع الحاد بين الشعبين .

ومن الصعب الإجابة عن السؤال الثانى بطريقة متكاملة ودقيقة، فهناك ٧٨٠ موريسكيا ظهروا فى ١٢ محاكمة فى غرناطة فى الفترة (١٥٥٠- ١٥٨٠م)، ويجب أن يضاف إلى هذا ضحايا المحاكمات السابقة والتالية التى ليس لدينا عنها أى معلومات، ولكننا نعلم بوجودها .

ودون أن نخطئ كثيراً يمكن أن نقول: إنه بين ١٠٠٠ أو ١٥٠٠ من الموريسكيين قد واجهوا إجراءات محاكم التفتيش حتى النهاية خلال القرن السادس عشر، وبالنسبة لشعب يبلغ تعداده ١٥٠ ألفًا، لمدة جيل ونصف، يعتبر هذا العدد شيئًا قليلاً وبشكل عام فإن ٥,٪ من الموريسكيين قد عاقبته محكمة التفتيش. أما بالنسبة لكوينكا فلدينا ٥٠٠ محاكمة خلال ٩٠ عامًا، وهذا العدد لا يقتصر على الذين أدينوا فقط، وإنما يشمل كل الذين اتهموا أيضًا، وفى هذه الحالة يعنى أن ثلاثة أو أربعة أجيال هم الذين تعرضوا لتلك المحاكمات، كما يعنى أن محاكمات الـ ٥٠٠ شملت موريسكيين من بين ١٢ أو ١٣ ألف شخص، حيث إن عدد السكان قبل ١٥٧٠م كان أقل من ٢٠٠٠ وبعد ذلك التاريخ زاد إلى ٥٠٠٠ وهذا يعنى أن ٤ ٪ من الموريسكيين فى كوينكا قد مثلوا أمام محاكم التفتيش .

وعلى الرغم من عدم دقة هذه التقديرات يمكن أن نستخرج منها بعض النتائج فى صورة افتراضات، ويبدو من ذلك أن قمع محاكم التفتيش كان معتدلاً تقريبًا لسببين: الأول أنها تحتاج أموالاً، والثانى أنها تحاول دفع الموريسكيين إلى اتباع المسيحية، ومرات قليلة هى التى حكم فيها بالإعدام .

والحقيقة أن محاكم التفتيش كانت أقل قسوة من محاكم أخرى كمحكمة القيادة العامة فى غرناطة، أو محكمة المجلس. ومن ناحية أخرى، كانت تصطدم بمقاومة الموريسكيين التى كانت فى الغالب فعالة تبعًا للإقليم. وهذا ما تظهره لنا الأرقام وهى ٥ ، ٪ فى غرناطة و٤ ٪ فى كوينكا، وفى مملكة غرناطة كانت الأقلية الموريسكية مترابطة حتى عام ١٥٧٠م حيث كانت هناك قرى بأكملها من الموريسكيين، ولهذا كان المسيحيون القدامى لا يجرءون على الوشاية بهم خوفًا منهم. من أجل ذلك فإن محكمة غرناطة كانت تميل دائمًا إلى التفاوض مع ممثلى الأقلية الموريسكية، وتقبل منهم الغرامة المالية. ويختلف الأمر فى كوينكا، فقد تفككت الجالية الموريسكية وظهر كثير من الموريسكيين أمام المحكمة وكانوا معرضين للوشاية والمحاكمة، ويمكن أن نتصور وجود قانون يحكم نشاط محاكم التفتيش، ويتناسب عكسيا مع ترابط الأقلية المطاردة ، ففى غرناطة وفالنسيا كان نشاط المحكمة – على الرغم من الإمكانيات الكبيرة– محدوداً، وأما فى قشتالة أو إكستريمادورا فقد كان ملحوظًا، بينما فى آراغون كان متوسطًا تقريبًا . وحيث كان الموريسكيون يمثلون أغلبية فإنهم امتلكوا من الوسائل ما ساعدهم على إبقاء بعض هويتهم الثقافية، وأما عندما كانوا أقلية فقد كانوا مستهدفين بالمطاردة والتنويب، وكل ذلك لم يمنع من أن يتضايقوا جميعًا وبطريقة متساوية من محاكم التفتيش، أكثر من أى هيئة قضائية أخرى، فبينما تدخلت المحاكم الأخرى عندما وجدت عصيانًا أو مقاومة واضحة ومعلنة؛ فإن محاكم التفتيش تدخلت فى كل صغيرة وكبيرة، وفى الأمور الجزئية والتفصيلية الخاصة بالوجود الموريسكى. وإذا كان عقابها يختلف فى شدته من إقليم لآخر، فقد كانت موجودة فى كل الأماكن. وبسبب قوتها ووسائلها جعلت محكمة التفتيش الموريسكيين يعيشون فى حالة من القلق الدائم .

هوامش الفصل الخامس

(١) ***Vida religiosa de los moriscos***, Madrid, 1915.

(٢) L. Cardaillac: ***la polemique antichretienne des morisque***. Ejemplar mecanografiado, tomo 1, p. 45.

(٣) Id. P. 37.

(٤) J. Caro Baroja : ***Los moriscos del Reino de Granada***, p. 119.

(٥) ***Los moriscos y la Inquisicion de Cuenca***, tesis mecanografiada.

(٦) L. Cardaillac, obra citada, p. 40

(٧) A.G.S. Patronato Real , 68 -64

(٨) F. Santos Neila: ***El problema hispano-morisco*** (siglo XVII). "Revista de Estudios Extremenos" , ano 1973, p. 47.

(٩) Cardaillac: ***La polemique antichretienne du manuscrit aljamamiado no 4.944 de la bibliotheque nationale de Madrid***. Ejemplar mecanorafiado , tomo I, pp. 115 y siguientes.

(١٠) M. Romero Martinez : ***Veinte incunables sevillanos que tratan de historia*** (Sevilla, 1946).

(١١) F. Pons : ***Estudios breves*** , Madrid

(١٢) M.A. Ladero Quesada : ***Los mudejares de Castilla en tiempo de Isabel I*** (Valladolid , 1969)

(١٣) T. Halperin Donghi : ***Un conflicto nacional***..

(١٤) إن سلوك بعض القساوسة فى منطقة البشرات يمكن استنتاجه مما حكاه عنهم الأب بيدرو دى ليون ، والذى قام مع يسيوعيين آخرين بأعمال تبشير هناك، حيث كان (الموريسكيون) لا يرغبون فى الذهاب إلى منزل قسيس قرية هويناخا لأنه افتضح أمره لانه قتل رجلا ليستولى على زوجته . وقد حكى هذا لأحد الكنسيين فى قرية فيريرا فرد عليه قائلا : " إن سيادتك

تقوم بعملك عندما تعظ ضد ارتكاب المعصية والقضاء عليها ، أما نحن فنعظ لنبقى على المعصية لأنفسنا" انظر المرجع التالى :

A. Dominguez , " Crisis y decadencia de la Espana de los Austrias" Barcelona, ariel, 1969, p. 34).

(١٥) A.G.S. Camara de Castilla, Cedulas, 255, fol, 319, v. 321, 326. Am. Granada , libro de Provisiones, I, fol. 467.

(١٦) Para 1541, A.C. Gr., libro 3, fol. 84 y sig. Para 1584: A. Gallego Burin y A. Gamir Sandoval: op. cit. Para 1537: B. Ponce de Leon : ***Historia de Albendin de la Vega*** (Madrid, 1960) .

(١٧) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.183, sin foliar.

(١٨) T. Halperin Donghi, obra citada.

(١٩) A. Redondo: ***Fray Antonio de Guevara***, tesis mecanografiada(1974) cap. 5 ***Les activites inquisitoriales.***

(٢٠) النصوص الخاصة بهذه المهمة توجد فى المرجع التالى :

Janer : Condicion social de los moriscos (Madrid, 1857)

(٢١) A.G.S. Cedulas, 27 , fols. 206v. y 208.

(٢٢) Archivo de la Alhambra, le. 15, p. 72 y le. 58, p. 12.

(٢٣) J. M. Pelorson : Rechercheres sur la comedia "Los moriscos de Hornachos" "Bulletin Hispanique", 1972, p. 5 – 42)

(٢٤) A.H.N. Inquisicion, libro 256, fol. 462 v. y libro 297 fol. 70 (cit. por A. Redondo, obra citada, 254).

(٢٥) A. Marin Ocete : ***El arzobispo don Pedro Guerrero y la politica conciliar Espanola en el siglo XVI***, II, 410 y si.

A. Garrido Aranda: ***Papel de la iglesia de Granada en la asimilacion de la sociedad morisca***("Anuario de Historia Moderna y Contemporanea" , no 2-3.

1975 -76, p. 69-103). Para Valencia : T. Halperin , obra citada y F. Santos Neila, obra citada , p. 53.

M.A. Ladero , obra citada, p. 293. (٢٦)

Gallego Burin y Gamir Sandoval, obra citada , p. 170 Ladero Quesada, obra (٢٧) citada, p. 318.

A.M. Granada , libro de Provisiones, I, fol. 202v. (٢٨)

A.H.N. Inquisicion , le. 2.604 (6-3-1570) (٢٩)

A.G.S. Camara de Castilla , cedulas, 255, fol. 339 v. (٣٠)

Gallego Burin y Gamir Sandoval, obra citada, p. 235 (٣١)

Vease el apendice documental del libro citado en la nota anterior .(٣٢)

B. Vincent : ***La Albaicin de Grenade*** , pp. 202 – 203 . B. Ponce de Leon, obra (٣٣) citada.

L. Cardaillac, obra citada, 200 – 201.(٣٤)

Ibid. p. 223.(٣٥)

P. Boronat : ***Los moriscos y su expulsion***, I, 274 -77.(٣٦)

R. Garcia Carcel : ***Las cuentas de la Inquisicion de Valencia en el siglo XVI*** (٣٧) (Anuario de Historia Moderna y Contemporanea, II y III, 1975 -76, p. 64.)

K. Garrad : ***La Inquisicion y los moriscos granadinos*** (1528 – 1580 (٣٨))MEA.1960 y A.H.N. Inquis. Le. 2.604, 13 –XII-1578.

Garrad , articulo citado, pp. 55 -75. (٣٩)

A.G.S. Patronato Real, e. 28, p. 56.(٤٠)

H. Kamen : ***La Inquisicion Espanola***, 3. ed. P. 197.(٤١)

M. Garcia Arenal, obra citada.(٤٢)

الفصل السادس

حرف الموريسكيين ومستوى معيشتهم

لم يكن الموريسكيون ينتمون إلى المجتمع الطبقى الذى يحيط بهم، ولم يكن هذا لأسباب دينية وسياسية فحسب، بل كان يفصلهم عنه فروق عضوية عميقة؛ فطبقة رجال الدين لم تكن طبقة متميزة فى الإسلام أبداً، ولن تكون تلك الطبقة متميزة، خاصة فى مجتمع قد أُلغى فيه هذا الدين ويمارس أعضاؤه الشعائر الأساسية بطريقة سرية. كذلك لا يمكن الحديث عن طبقة من النبلاء، وُجدت فى السابق، ولم يبق منها إلا آثار ضعيفة حيث فضَّل أغلبها النفى أو الارتداد؛ وهكذا فلم تكن توجد زعامة معترف بها ذات امتيازات قانونية، كذلك لم تكن هناك علاقات تبعية .

المقاييس التى اعتمدت للتفريق بينهم إذن كانت هى الثروة والحرف، وكان يمكن أن نسمى هذا المجتمع طبقيا إلا أنه بمجموعه كان محتقراً ومقموعاً بطريقة يستحيل معها وجود صراع الطبقات. وحتى بقايا طبقة البرجوازيين، التى تمثل الطبقة العليا، كانت مستسلمة للأغلبية المسيحية القديمة بصور متعددة، ومن المحتمل أنه كان يوجد داخل التجمع الموريسكى توترات وصراع للمصالح، ولكنه لم يكن قويا بصورة يمكن لمسها .

لقد كان الصراع بين الموريسكيين والمسيحيين القدامى كبيراً وقويا؛ لدرجة أنه كان قادراً على إزاحة أى صراع آخر؛ ولهذا نميل إلى اعتبار التجمع الموريسيكى -على الرغم من خلافاته الداخلية التى لا يمكن نفيها - صورة للوحدة .

لهذا فإن قوائم الحرف التى لا يخلو منها أى كتاب لتلك الفترة يؤكد وضع التبعية داخل (أو على الأصلح على هامش) المجتمع حينذاك. كذلك فإنها ذات فائدة لرفض تقسيم ذلك المجتمع إلى مستويات. والصحيح أنه وجدت فروق فى الثروة والجاه، ولكنها فروق أقل بكثير من الموجودة فى المجتمع الذى يحيط بهم، وكذلك أقل من الموجودة فى مجتمعات طبقية تالية. وفى الفترة الأخيرة، تم إكمال تلك التسميات الموجودة فى كتب الآداب بوثائق إحصائية؛ والتى أثبتت صحتها ودقتها كما أوضحت الفروق الإقليمية .

كل الكُتَّاب يشيرون إلى قدرة الموريسكيين الكبرى على العمل. وقد قارن بدرو دى ليون – الذى جمع أخباراً بعد طرد الموريسكيين الغرناطيين بوقت قليل – بين نشاط الموريسكيين وكسل السكان الجدد من المسيحيين فى البشرات، الذين كانوا يعيشون بصعوبة على الرغم من حصول كل واحد منهم على ثلاثة أو أربعة أنصبة، بينما اعتاد الموريسيكيون أن يقولوا: " عندما أخرج من منزلى أستقبل الشمس فى وجهى، وعندما أعود تودعنى فى ظهرى، وليس مثل المسيحيين القدامى الذين يعملون على فترات"[١] .

الأب بليدا هو الوحيد الذى اتهمهم بالكسل وبأنهم لا يجيدون العمل فى مناطق الرى غير المباشر، ويأكلون طعامًا سيئًا، فيعملون قليلاً إلا فى بعض الفترات التى يحتاجون فيها القيام ببعض المهام السريعة، فهم عادة يعملون بين ٤و٥ ساعات يوميا ويقضون باقى اليوم مضطجعين تحت الشمس[٢]. وعلى الرغم من العداوة الشديدة المفترضة عند الأب الدومينيكى، بليدا، فقد يوجد فى بعض كلماته بعض الحقيقة، فالموريسكيون لا يبرزون فى العمل فى مناطق الزراعة دون رى لأنهم كانوا متخصصين فى زراعة حدائق الفاكهة، وطعامهم كان يحتوى على كمية صغيرة من السعرات الحرارية، ومن ناحية أخرى فإن الموريسكيين الفالنسيين، وهم الذين يشير إليهم الأب بليدا، كانوا يعملون وهم مقهورون ومستَغلون فى خدمة سادتهم، حيث كان يجب عليهم أن يرضوا بالحد الأدنى من الحياة، وكان كل ما يكسبونه أكثر من ذلك يزيد من ثروة السيد. أما حين عاشوا فى الأماكن التى كانوا فيها سادة أنفسهم (مثل غرناطة) فقد كانوا يعملون بجد واجتهاد ورغبة .

الرحالة الألماني مونزير، والذى جاب كل آفاق إسبانيا فى عهد الملكين الكاثوليكيين يصف الموريسكيين فى سرقسطة بأنهم رجال أشداء، اعتادوا على الأعمال الشاقة، ومن بين أعمالهم المعتادة يذكر: الحداد وعامل البناء، وعامل السيراميك، والنجار، وبائعى الخمر والزيت. وفى أماكن أخرى فى أراغون وهى ذات أغلبية موريسيكية كان لمنذر الملاحظة نفسها التى عبر عنها الأب بدرو دى ليون حول سكان غرناطة، حيث أشار إلى أنه "يعيش منهم ستون فى مكان لا يعيش فيه أكثر من خمسة عشر مسيحيا حيث إنهم أكثر قناعة واجتهاداً[٣]" .

مؤرخ آخر لبلاسنثيا يصف الموريسكيين بأنهم يعملون فى الريف ويتجنبون التعامل مع المسيحيين القدامي، وهناك مجموعة أخرى كان يتعين عليها الاتصال بالمسيحيين حيث كان لديهم أفضل المحلات لبيع المواد الغذائية، وينقلون بضاعتهم من مكان لآخر؛ ومن بين الحرف الميكانيكية يذكر: الحداد، وصانع الصابون، والإسكافى، وصانع الغلايات[٤] .

أما أثنار فيتهمهم بالعمل فى مهن تحتاج إلى قليل من الجهد ، ويذكر: النساجين، والخياطين وصانعى الأوانى، والإسكافيين، والفلاحين فى الحدائق، والبائعين، وصانعى الحلوى، وصانعى الحبال، والبيطريين[٥]، وتجارة التجزئة .

وكارو باروخا يعلق على ذلك فيقول إن هذه الحرف هى التى تذكرها كتب الحسبة فى السوق العربية[٦]، كما أنها أنشطة لا يمكن الاستغناء عنها فى أى تجمع إنسانى. والعديد من هذه الحرف (النساج، الخياط، الإسكافى، تاجر التجزئة) كانت حرفاً تقليدية لليهود أيضاً، واليهود المرتدون الذين كانوا يمارسون أيضاً الحرف الأكثر امتيازاً مثل: الإدارة، وجمع الضرائب، والصرافة، وطباعة الكتب، وقد احتكروا الطب. ونادراً ما عمل اليهود فى زراعة الأرض، وإذا لم يكونوا يستحقون الوصف بأنهم كسالى[٧]، فمن الصحيح أنهم كانوا يهربون من كل عمل يتطلب مجهوداً جسميا، وهم فى ذلك على العكس من الموريسكيين الذين كانوا يكسبون بعرقهم على الرغم من كل ما يقوله بليدا وأثنار كاردونا .

الأبحاث الحديثة تؤكد البيانات السابقة وتتوسع فيها وتعلق عليها. فى هذا الجانب كما فى الجوانب الأخرى، لا يمكن الحديث عن الموريسكيين كتجمع متناسق، فقد كانت هناك فروق إقليمية ومحلية كبيرة. فالموريسكيون المطرودون من مملكة غرناطة من المنطقى أن يعملوا فى التجارة والنقل؛ حيث كان من الصعب بالنسبة لهم امتلاك الأراضى .

أما الأقاليم التى يكوِّنون فيها تجمعًا سكانيًا كثيفًا (وبالتحديد فى فالنسيا ومرسية وأراغون)، فنجد بينهم كل المهن الضرورية للحياة الاجتماعية بما فى ذلك المراكز البرجوازية .

وجد كابيثودو استراين بين الموريسكيين فى سرقسطة بنائين ونجارين وحدادين، بل وجد صنَّاعًا للسيوف أيضا، وهى إحدى المهن التقليدية للمسيحيين القدامى على الأقل فى قشتالة(٨). والإحصائيات حول الموريسكيين فى العقود الأخيرة من القرن السادس عشر لم تكن تذكر دائما الحرف، وفى حال ذكرها يذكرون عددًا كبيرًا من المزارعين والخدم، وكذلك أصحاب الحرف والمهن(٩) .

وبصورة إجمالية فإن توزيع الحرف بين الشعب الموريسكى لم يكن يختلف بطريقة كبيرة عن التوزيع الذين يمكن أن يلاحظ فى المسيحيين: سيطرة مطلقة للقطاع الأولى، وهو يقتصر على الزراعة، فالموريسكى لم يعمل مطلقًا صيادًا أو راعيًا، كما أنه لا يستغل الجبل، فلا يعمل جامعًا للأخشاب أو الفحم أو صيادًا للحيوانات(١٠)، وإن كان هذا التأكيد يجب ألا يفهم بشكل حرفى. وفى المقام الثانى يأتى العمل بالحرف الفنية، وكان عددهم فى ذلك كبيراً، ولكن لم يكونوا منظمين، ثم تأتى بعد ذلك مجموعة قليلة فى الطبقات العليا، بينما يوجد عدد كبير فى التجارة المحدودة والمواصلات .

تحولت صورة الموريسكى الذى يعمل فى البساتين إلى شىء تقليدى(١١). وهذا لا يعنى أنه لم يكن يوجد بينهم الفلاح الذى يعمل فى أرض لا تروى، ولكن كان معظمهم يعمل فى الأراضى المروية حيث يستطيع الموريسكى أن يبرز مواهبه من الصبر والجد والاجتهاد. وهذا الأمر يمكن أن يكون ميراثًا ثقافيا قديمًا، ولكن ليس من

الضـرورى البـحث عن أصله فى الشرق؛ لأن ذلك النوع من الزراعـة كـان مـعـروفًـا فى إسبانيا قبل مجىء الإسلام، لكن يبقى عامل مهم وهو أن المصطلحات التقنية لهذه الزراعة كلها ذات أصل عربى كذلك، فإن أغلب المحاصيل المزروعة ذو أصل شرقى، وبعضها ذو أهمية كبرى مثل الأرز والبرتقال وقصب السكر. إلى جانب هذا العامل يوجد عامل آخر ذو طابع إنسانى، وهو الحاجة إلى زراعة مكثفة تستطيع أن تكفى حاجات شعب كبير، وضرورات اقتصادية كبيرة تجبره على إخراج الحد الأقصى من الإنتاج؛ فالشعب الموريسكى فى أراغون كان يمارس الزراعة فى أرض ذات رى عادى، وذلك فى أرياف نهر الإبرو وما حوله، وفى فالنسيا لوحظ أن البساتين الموجودة على الساحل يوجد فيها أغلبية مسيحية، لكن هذه القاعدة لها استثناءاتها فى بعض البساتين المهمة (مثل غانديا وأوليبا). لكن هناك ظاهرة تسترعى الانتباه بطريقة أكبر وهى أنه فى المناطق الجبلية يستغل الموريسكيون المجارى الصغيرة ويحفرون الآبار، ويشقون ما يشبه الأنفاق الموجودة فى بلاد البربر ؛ وذلك للبحث عن ماء لاستخدامه فى زراعة الأماكن المنخفضة الصالحة لها .

عندما تم تشتيت الموريسكيين الغرناطيين فكرت بعض التجمعات فى الاستفادة من خبرتهم فى زراعة البساتين، كما تم الاستفادة منهم فى باسترانا فى دعم صناعة الحرير، وفى عام ١٥٩٦م كانت هناك وثيقة حول مانثاناريس الريال، وهى ملك لدوق إنفاناتادو (ومرة أخرى نجد أسرة كبيرة نبيلة خالية من الأفكار المسبقة). فى هذه الوثيقة يذكر أنه نتيجة لإنشاء الأسوار التى أمر بها صاحب الجلالة فى نواحى كويادو ميديانو وكويادو بيالبا والبيدريتى فقد انفصلت المراعى فى منطقتى كامبيو ومونيستيرو وتم استيعاب أغلب السكان فى تلك القرى ولهذا فهو يطلب إذنًا لقبول ٥٠ موريسكيا غرناطيا لمساعدته فى رى وزراعة البساتين الكثيرة والكبيرة التى توجد فى دائرته بحالة سيئة. وقد أجاب المجلس الاستشارى بما يلى: " يبدو له أنه لا يوجد مانع من دعوة ثلاثين من الموريسكيين للإقامة هناك على أن يذهبوا برغبتهم، وعلى أن يبين إلى أى القرى ينتمون والأماكن المسجلون بها حتى يمكن أن يقرر إن كان هناك مانع من إرسالهم إلى هناك" وقد وقع الملك قائلاً: " هكذا كما يبدو" [١١مكرر] .

ولقد أشار توليو هلبرين إلى أنه فى فالنسيا (وربما فى مناطق أخرى) كان الموريسكى إلى جانب كونه مزارعًا يعمل حارسًا للمزارع لمراقبة اللصوص والرعاة، وهو عمل قد يسبب له عداوات، مثل العداوة التى تسببها الظاهرة المنتشرة التى تجعل الموريسكى الذى ليس لديه أرض أو لديه أرض غير كافية يعمل بسعر أرخص من سعر المسيحيين[١٢]. وهذا يكفى لنفهم كيف أن الطرد فى فالنسيا كان غير مرغوب فيه من قبل النبلاء والبورجوازيين ولكنه استقبل بفرحة عارمة من الشعب المسيحى .

تدهورت زراعة الأرز- القاتلة حينئذ حيث تسبب حمى الملاريا- فى فالنسيا بعد طرد الموريسكيين ثم عادت للازدهار فى القرن الثامن عشر، حينما زاد الضغط الديموغرافى. وكذلك زراعة قصب السكر عانت من الظاهرة نفسها (بنسبة لا نستطيع تحديدها)، وقد كان ذلك عملاً تقليديا للموريسكيين، فاختفت زراعته من بعض الأماكن لأسباب اقتصادية وربما لأسباب مناخية، لكن يجب الاعتراف بأن نقص أيدٍ عاملة مدربة وقنوعة كان له دور فى هذه الظاهرة .

وقد حدث فى فترة ما أن الموريسكيين الذين يعيشون فى غانديا كانوا يذهبون حتى الكامبو دى تاراغونا لجنى محصول الطماطم ويبدو غريبًا أن فشل زراعة هذا المحصول وقد وصل إلى أدنى مستوى كان ينسب إلى سوء نية الموريسكيين[١٣] .

أما النشاطات المتعلقة بتربية دودة القز فقد كانت حكرًا على الموريسكيين، لدرجة أنه بعد طرد الموريسكيين الغرناطيين ومنعهم من تغيير الإقامة، كان يسمح للكثير منهم بالهجرة مؤقتًا لمرسية للقيام بتلك الأعمال[١٤]، وقد سجل الطرد تدهورًا فى ذلك النشاط فى كل من محافظات غرناطة وفالنسيا ومرسية، وقد عاد لازدهاره فيما بعد، ولم يوجد فى نشاطه انقطاع وذلك بفضل الموريسكيين الذين بقوا يعملون بتواطؤ [من أجل تحصيل عائد اقتصادى] من جانب سادتهم ومن جانب المسيحيين القدامى الذين بدأوا فى الدخول فى هذا المجال .

كان العمل الأساسى- ربما بصورة أكبر من الأقاليم الأخرى- للموريسكى الأراغونى هو الفلاحة، وكان غريبًا أن تجده خارج أرضه، لكن إقليم أراغون لا يسمح بزراعة العديد من المحاصيل التى يسمح بها مناخ فالنسيا ومرسية .

أثبت ب. بونسوت أن فى ريف تاراثونا كانت تسود زراعة القمح. إلى جانب ذلك قدم بعض الاعتبارات ذات الأهمية العامة: بعد عام ١٦١٠م ساء حال ذلك المحصول ولكنه لم يختف. " أما السكان الجدد من المسيحيين والذين كانوا يعملون فى رعى الماشية فقد أظهروا كفاءة عالية واستطاعوا الانسجام بسرعة مع الأوضاع الجديدة؛ فهل هؤلاء هم تلاميذ ممتازون لأولئك الموريسكيين الذين بقوا وهربوا من الطرد؟ أم كان الاندماج بين الشعبين أكثر من الذى اعتقد، أو أن مسيحيى فايوس وتاراثونا قد تعلموا- منذ فترة طويلة- من جيرانهم الموريسكيين فنون الرى وعلموها للسكان الجدد؟ إنها أسئلة يجب أن نتركها مؤقتًا دون إجابة. وعلى العكس فهناك أمر يبدو أنه مؤكد وهو أن عودة الزراعة لحالتها الأولى من الازدهار والانسجام مع الأوضاع الجديدة كان بطيئًا ولم يتم مطلقًا بالكامل، وأن المستوى التقنى المرتفع والمحصول الوفير للزراعة الموريسيكية لم يتم الوصول إليهما مرة أخرى قبل حدوث الثورة العلمية فى القرن العشرين وفى ظروف أخرى"[١٥] .

فى إقليمى قشتالة وأندلوثيا (وذلك بعد طرد الغرناطيين) كان عدد الفلاحين الموريسكيين مقارنة بالأقاليم الأخرى محدوداً. ولم يكونوا يشكلون تجمعات كثيفة إلا فى بعض المناطق المعدودة، وكذلك لم يكن الوسط المادى مناسباً لزراعة البساتين، التى لم تكن توجد إلا فى بعض ضواحى المدن الكبرى مثل بايادوليد. وفى تلك الأقاليم كان الموريسكى عادة أجيراً، وهذا يظهر بوضوح فى الإحصاء لموريسكيى كوينكا عام ١٥٩٤م والتى قامت بتحليله غارثيا أرينال وفق ما يلى:٢٢ أجيراً، ١١ فلاحًا للبساتين، ٨ فلاحين[١٦]. فى قائمة سان لورينثو، وهى الوحيدة التى يذكر فيها عمل رءوس العائلات فقد كان يوجد تاجر و٤ فلاحين و٢٣ أجيراً .

يبدو أحد بنود تنظيم هارو عجيبًا للغاية، ويعود تاريخها إلى ١٤٦٥م، وقد استمرت صلاحيته حتى نهاية العصر الحديث؛ كان يحرم على المسلمين زرع أكثر من قطعة صغيرة بالخضراوات لوجود نقص فى الأرض لزراعة الحبوب، وهذه البنود هى واحدة من مجموعة مشابهة لها تميل للحد من امتلاك المسلمين والموريسكيين للأراضى،

ومن ناحية أخرى فى أندلوثيا الغربية يبدو هذا الأمر بكل وضوح، ففى أرض يسود فيها نظام الإقطاعيات كان من الصعب على الموريسكيين امتلاك الأراضى· وحتى كأجراء فإن دورهم كان محدوداً، ففى الجزء الذى أثبتناه سابقًا فإن بونسوت، وهو متخصص فى هذا الموضوع يكتب: " تبعًا لمعلوماتنا لم يذكر أحد أن هناك إقطاعيات كانت تستخدم أجراء موريسيكيين· وهؤلاء - أى الموريسكيون- كانوا يشكلون أقلية صغيرة داخل التجمع الكبير من الأجراء الذين كانوا يمثلون أغلبية سكان الأرياف فى جنوب ووسط المملكة. وفى إقطاعيات أندلوثيا الغربية فإن وجود عمال موريسيكيين كان شيئًا استثنائيا تبعًا لأبحاثنا" .

والحقيقة أنه كان يوجد - كما يكتب هذا وكيل كارمونا - ١٢٩ موريسكيًا يعيشون هناك قبل الطرد:" كلهم من الناس الفقراء، عمال وأجراء فى الحقل يعانون من فقر شديد··· لدرجة أننى أعتقد أن أكثرهم لا يوجد لديه ما يسمح له بالخروج من داره"[(١٧)] لكن الفلاح الموريسكى العادى كان إما مُستأجراً وإما صاحب ملكية صغيرة .

وفى عدد غير قليل من قرى إكستريمادورا كانوا كثيرين، هذا بجانب كونهم يمثلون كل السكان فى هورناتشوس، وكانوا فلاحين لأرض تزرع بلا رى، ولكن مع هذا لم يفقدوا كفاءتهم فى زراعة البساتين إذا سمح لهم الوسط المادى (إكستريمادورا كانت فى ذلك الوقت يندر فيها نظام الرى). ومما كتبه مؤرخ بلاسنثيا ألفونسو فيرنانديث بعد الطرد بقليل عن الموريسكيين أنهم "كانوا يمارسون زراعة البساتين" ويؤكد هذا كاتب آخر أحدث منه: " كانوا يمارسون زراعة البساتين ويتقنونها بصورة كبيرة ويستعملون الطريقة التى تستعمل على ضفاف نهر جيرتى"· هذا التجمع من زارعى البساتين كان قديمًا قدم المدينة ذاتها، كان يمثل فريقًا تحكمه لوائح قديمة جدا حيث إنهم عندما كانوا معًا فى ٣١ أغسطس عام ١٥٥٠، قال البستانيون :"بما أننا لا نفهم اللغة ولا المعاملات الواردة فيها فإننا لم نستفد من هذه الأمور القديمة ولهذا رأينا أن نضع قوانين ولوائح جديدة"[(١٨)] .

وعلى الرغم من شهرة الشعب الموريسكى بأنه شعب ريفى فإنه من الممكن أن يوجد بينهم عدد من الحرفيين مثل المسيحيين أو أكثر منهم، ويفهم هذا من العديد من الإشارات حول الفنون والحرف التى كانوا يمارسونها . ويقوى هذا الانطباع الإحصائيات ودفاتر للسجل المدنى المكتشفة حديثًا . أما ألفونسو فيرنانديث فيذكر أنهم كانوا يمارسون زرع البساتين فقط، ولكن عند الحديث عن حرف أخرى يقول: "آخرون كانوا يعملون فى التجارة، ولديهم محلات للأطعمة فى أفضل الأماكن فى المدن والقرى؛ ويعيش أغلبهم من كسب يده، والبعض الآخر كان يعمل بحرف ميكانيكية مثل: صانعى الغلايات، والحدادين، وصانعى النعال، والصبَّانين، والبغالين"[١٩] .

أما لوفيلم، ففى دراسته حول "الموريسكيين فى شمال غرب إسبانيا"، فهو يلخص بيانات إحصاء عام ١٥٩٤م قائلاً: إن نشاطاتهم الرئيسية كانت الحرف الفنية وزراعة البساتين، والتجارة الصغيرة والخدمة. وبين الحرفيين كان يوجد الكثيرون الذين يعملون فى الجلود والأخشاب والحديد والسيراميك. وعلى العكس فإنه كان يوجد عدد قليل منهم يعمل فى صناعة النسيج[٢٠]. أما أسباب كون بعض النشاطات تحتل المقام الثانى والثالث فهى عديدة: عندما كانوا يمثلون أغلبية السكان، فمن البديهى أنهم اضطروا للقيام بالنشاطات التى لا يستغنى عنها فى الحياة الإنسانية، أما عندما كانوا أقلية، كان لهم أهمية لتفوقهم التقليدى فى بعض القطاعات. وفى النهاية فإن تشتيت الموريسكيين الغرناطيين أعطى دفعة لمثل هذه الأعمال. لأن القليل منهم فقط هم الذين استطاعوا امتلاك أراض، وكثير من الفلاحين القدامى بدءوا يمارسون أعمالاً جديدة كانت مطلوبة فى قشتالة، إما لقلة الأيدى العاملة وإما لاحتقار السكان لهذه الحرف؛ مما استدعى استحضار أيد عاملة أجنبية. لهذا فقد غطى الموريسكيون الحاجة الموجودة من حيث نقص المهنيين. وكانت الشكاوى التى انطلقت ضدهم مثل الخاصة بالراهب ماركوس دى جوادالخارا، وغيره من أعدائهم كان سببها الكراهية اللامنطقية[٢١] أو الخوف من المنافسة والرغبة فى تأمين أيد عاملة زراعية رخيصة. وهذا هو المعنى الذى يجب أن تفسَّر به طلبات مجلس قشتالة بأن يترك الموريسيكيون التجارة والحرف ويمارسون الزراعة .

وقد صدرت لوائح ليست قليلة من قبل روابط الحرفيين يحرم بها ليس اتخاذ معلمين من سلالات اجتماعية وضيعة فقط، بل يمنع من اتخاذهم صبيانًا أو حرفيين. لكن سياسة الملوك لم تكن هكذا، بل كانت تميل إلى توحيد السلالات: ويكفى أن نذكر اللائحة الملكية لعام ١٥٠٢م والتى تم فيها تعيين المتنصر فرانسيسكو هيرنانديث (سابقًا حامدى أوبيرى) معلمًا أكبر للقصور والترسانات فى إشبيلية[٢٢] ويكفى أن نذكر الفقرة حول الموريسكيين المطرودين من غرناطة (١٥٧٢م) التى يرد فيها: " الموريسكيون الذين كانوا معلمين عليهم أن يعملوا فى ورش لمسيحيين قدامى وأن تُدفع لهم أجورهم" .

وقد أثبتت هذه اللائحة الإيجابية عجزها الشديد عن مقاومة التيار العاتى فى القرن السادس عشر والذى كان هدفه نظافة الدم ونظافة الحرف، بحيث تتساوى الحرف بالنسبة للطبقات الوضيعة بنبالة الدم بالنسبة للطبقات العليا والولع العام بالشرف والذى كان يمثل خاصية لإسبانيا فى ذلك الوقت[٢٣]. وإذا كانت طليطلة منطلق ومركز حركة نظافة الدم فإن مدنًا مثل إشبيلية وفالنسيا - حيث كان يوجد عدد كبير من العبيد ومن الموريسكيين - أدخلوا تضييقات فى لوائحهم النقابية ضد الطبقتين كلتيهما وبخاصة فى الحرف ذات المستوى الاجتماعى المرتفع مثل: صاحب الصيدلية...إلخ. وفى بعض المهن كالخياطين كانت شهرة تلك الحرف على أنها حرف مرتدين هى التى دفعت حركة نظافة الدم كرد فعل للدلالة على نقاء دماء أعضائها. ويمكن قول الشىء نفسه بالنسبة للنجارين، ونحن نعرف الدور العظيم للفن المدجن فى هذا المجال وهذه المهنة، ومع ذلك فإن اللوائح الإشبيلية كانت تحرم على رؤساء صنعة النجارة اتخاذ معلمين "لا يكونون مسيحيين مخلصين" وهذا ما نتفهمه ولكن لا نقره[٢٤] وحتى بدايات القرن السابع عشر (وذلك كما جاء فى "نجارة الخشب الأبيض" لمؤلفه لوبيث دى أريناس، نُشر عام ١٦٣٣م) فإن أولئك الذين كانوا يكرهون كل اتصال عنصرى فى الفن، واصلوا تجهيز وإعداد الأبواب والسقوف على الطريقة الموريسكية تبعًا للقواعد الموروثة من المسلم العالم والتى مدحها كثيرًا الراهب لويس دى ليون .

أما فى فالنسيا فقد زادت قائمة المطرودين من قبل النقابات حيث شملت موريسكيين، وسوداً، وعبيداً، وأشخاصًا قد مثلوا أمام محاكم التفتيش، وكذلك الهاربين الذين حُرِّم عليهم الانضمام إلى نقابات ذات مستوى اجتماعى منخفض مثل نقابة صانعى الوسائد .

ومثالاً للأسباب التى دفعت لاتخاذ مثل هذه الإجراءات يمكن أن نذكر تبرير أعضاء نقابة صانعى الأحذية عندما منعوا السود والعبيد والمسلمين من الانضمام لنقابتهم كصبية عام ١٥٩٧م: "لتجنب الأضرار والنتائج غير المناسبة التى يمكن أن تحدث من جرَّاء وجود مثل هؤلاء الأشخاص داخل نقابة صانعى الأحذية وكذلك لتجنب العار والسخرية من جانب الشعب عند رؤيتهم مثل هؤلاء الناس أثناء العروض الدينية، أو الاحتفالات العامة وذلك بسبب النتائج التى تحدثها رؤية هؤلاء الناس بين الشرفاء ذوى الثياب الحسنة"(٢٥) .

وفى القرن السابع عشر زاد انتشار مثل هذه اللوائح بين الكثير من النقابات والقرى وإن كانت تتم كنتيجة لحالة نفسية عامة قائمة على نظافة الدم، وأما فعاليتها من الناحية العملية فكانت محدودة؛ نظراً لأنه لم يكن يبحث عن أدلة شديدة قد تكون صعبة أو مكلفة. ففى إشبيلية نفسها حيث كانوا يدققون فيها بشأن نسب الخياطين والنجارين فإن مقداراً كبيراً من الإنتاج الفنى الصناعى فى القرنين ١٦ و١٧ كان فى أيد موريسكية، وهذه الظاهرة تم إثباتها عن طريق كمية كبيرة من الوثائق العامة والخاصة، وذلك تبعًا لرأى أحد كبار العارفين الإشبيليين الذى يقول: "من قراءتنا للوثائق استنتجنا أن الموريسكيين كانوا يعملون صانعى فخار أو خزف متخفين تحت أسماء مسيحية ويملأون أحياء إشبيلية. كذلك كانوا هم الذين ينتجون أفضل أنوا ع القماش وأعمال الجلود المعالجة، والمعادن مثل النحاس والفضة والأسلحة وأسرجة الخيول وأدوات تزيين المعابد، وذلك فى بيوتهم ذات المظهر المتواضع. وقد أثبتت لنا دفاتر التعميد فى كنيسة سانتا آنا نوعية السكان الذين كانوا يعيشون فى حى تريانا الكبير فى القرن السادس عشر. كذلك فإن العقود، ووصولات الضرائب، ووثائق

التوكيل، وأذون الدفع وقوائم تلاميذ الحرف وخلاصة كل هذه الوثائق التى تسجل الحركة الفنية الصناعية لذلك الحى تؤكد لنا حقيقة هذا الأمر"(٢٦) .

من بين هذه التشكيلة من الحرف الفنية، كان يوجد بعض النشاطات المفضلة. ومن بين هذه الحرف تلك المتعلقة بالإنشاءات .

لقد ذكرنا سابقًا أن البنَّاء الأكبر لقصور إشبيلية عام ١٥٠٥ كان موريسكيا، وفى هذا التاريخ نفسه بدأ بناء برج سرقسطة الجديد، وقد كان رائعا وللأسف فلقد اختفى. وهذه الجوهرة من الفن المدجن كانت علامة أيضًا على عهد من التسامح ما لبث أن مضى فى طريقه للاختفاء، فلقد عمل على إنشائه قديمًا مسيحى قديم ومسلمان ويهودى(٢٧) .

وقبل أن يصدر قرار التنصير الإجبارى للمدجنين فى أراغون، وكذلك فى أقاليم أخرى، كانوا لا يخفون [حقيقتهم]، بل كانوا يضيفون فى العقود كلمة "مسلم"، وفى بعض الكنائس مثل كنائس مالونيدا وتوبيد، وقعوا على العمل وأضافوا إليها الشهادة الإسلامية " لا إله إلا الله، محمد رسول الله " وفى القرن السادس عشر لم يكن يسمح بمثل هذه العلامات الظاهرية، إلا أن عمال البناء كانوا يتمتعون بتسامح تشريفى ربما كان بسبب تفوقهم. كان العمال يعيشون فى أحياء المسلمين أما المعلمون فيعيشون بين المسيحيين"(٢٨) .

أغلبية هؤلاء المعماريين والذين ندعوهم اليوم مهندسين معماريين لا نعرف عنهم إلا أسماءهم، ولا يوجد لدينا بيانات عن تكوينهم المهنى ولا عن مشوارهم الحرفى. نعرف أن أحدهم هو الذى أدار عملية إنشاء سد الأيبرو فى تشيرتا عام ١٥٤٢م. وكان هؤلاء ينتمون للطبقة الأرستقراطية فى زعامة هذه الحرفة؛ مثل المعمارى ثوثونيغى (لقب غريب على الموريسكيين) الذى ساهم فى أواسط القرن السادس عشر فى العديد من الأعمال العمرانية فى ألمرية مع خوان أوروبا(٢٩). إن أغلب هؤلاء كانوا نجارين وبناءين وعُمَّال جص وعُمَّال سيراميك وحدادين مجهولين. والصراف كوك الذى كان ينتمى للحرس الشخصى لفيليبى الثانى يذكر أن السيراميك ذا الانعكاسات

الذهبية كان ينتجه الموريسكيون فى مويل (سرقسطة)، والأصل نفسه يوجد لعديد من أنواع السيراميك مثل الخاص بقرية مانيسيس وقرية سيبيا دى تلابيرا والتى تركت أثرًا عميقًا فى تاريخنا الصناعى[٣٠] .

أما أعمال المعادن فيبدو أيضا وبكثرة أنها حرفة موريسكية، ففى كوينكا تبعًا لرأى م. غارثيا أرينال كان الموريسكيون يحتكرون هذه الشعبة من النشاطات، وعندما صدر قرار الطرد العام طلب مسئول الكنيسة فى قرطبة استثناء اثنين من معلمى مقود الخيل "وذلك للخدمة التى يقدمانها للفرسان وكذلك فهما شيخان ليس لهما أبناء"[٣١]. وبين الموريسكيين فى بلاسنثيا وُجد موريسكيون يعملون فى صناعة الغلايات وحدادون وكذلك فى أبيلا، فهل يمكن أن نربط بين أعمال الحدادة المتواضعة التى يتقنها الغجر والحدادة الموريسكية؟[*] لكن الموريسكيين لم يكونوا يعملون غلايات وحدائد فقط، بل إن أحدهم وهو خوان رودريغيث هو الذى صنع فى عام ١٤٧٨م[**] النقوش المعدنية الجميلة والرسوم الكوفية التى تزين باب المغفرة فى كاتدرائية إيسبالينا. وفى المدينة نفسها فإن المعلم إبراهيم وزايد وحامدى زودوا الملكين الكاثوليكيين بـ ١٠٦٨ قطعة معدنية قيمتها عشرون ألف مرابطى[٣٢] .

وكذلك عمل عدد كبير من الموريسكيين والمدجنين فى أعمال الجلود، ويظهر عدد غير قليل – فى تقرير نشره ليفيلم – يحترف هذا العمل. كذلك كابيثودو إستراين يتحدث عن صانعى الأحذية فى سرقسطة. وعندما يتحدث إسو فى القرن الثامن عشر عن قرية بريا Brea وذلك فى كتابه " الاقتصاد السياسى لأراغون"، يقول: " هذه القرية مشهورة بمصانعها لتجهيز الجلود، والتى يعتقد أنه تم إدخالها بواسطة الموريسكيين، ومن الصحيح أنه فى طرد عام ١٦١٠م تم منحهم تأجيلاً لمدة ستة أشهر" .

(*) تحدثنا فى بحث بعنوان «حول ديوان "أغنيات غجرية" لجارثيا لوركا» عن العلاقة بين الموريسكيين والغجر. (المراجع)

(**) يحدث الخلط أحيانًا نتيجة للسرعة أو السهو، فمن المعلوم أنه فى عام ١٤٧٨ لم يكن هناك موريسكيون بل مدجنون ، أى مسلمون يقيمون فى ممالك مسيحية. (المراجع)

كما كانوا يصنعون سلالاً وحبالاً وحُصراً ويحملونها من شرق الأندلس لبيعها فى مدريد، وفى مسرحية تيرسو " قروية باييكاس" La villana de Vallecas يقول على لسان إحدى الشخصيات [لقد ذهب الموريسكيون

الذين كانوا يبيعون بالشارع

حُصراً من النخيل ياسيدى]

وأما صناعة الألعاب النارية فيبدو أنها كانت مهنة تقليدية للموريسكيين، ولا يمكن أن تكون قد احتفظت كل من غرناطة وفالنسيا ومرسية بهذه الصناعة على سبيل المصادفة، فلقد استطاع كابثيودو استراين أن يلاحظ: "ممارسة عدد لا بأس به من الموريسكيين الأراغونيين صناعة طلقات الرصاص. وفى إحدى الدعاوى الشهيرة لمحكمة التفتيش- وذلك ضد كل موريسكيى أراغون عام ١٥٧٤م بسبب الحفلات التى أقاموها ابتهاجاً لضياع ميناء غوليتا من أيدى الجنود الإسبان، اتضح أن المسلمين فى بيافليتشى، وسيستريكا، وموريس كان لديهم طواحين لصنع البارود الذى كان يُباع فى فالنسيا. وكانوا يشترون ملح البارود من سرقسطة، وكانوا يصنعون البنادق، وفى كالاتايود وريكلا كان لديهم البارود مخزناً فى براميل". وبكل تأكيد، ففى أعياد بعض القرى يذكر رقصات ومشاعل وألعاب نارية لصانعى البارود .

إن توزيع الضرائب عام ١٥٩٢م الذى قرره فيليبى الثانى على الموريسكيين الغرناطيين يعتبر مصدراً ثريا لمعرفة أموال وحرف المطرودين، وذلك إذا أخذنا بموجز تلك الوثيقة المتعلقة بمدينة قرطبة التى قدمها لنا خوان أراندا دونتيل؛ فموجز الوثيقة يَعلن عن وجود قطاع زراعى كبير، وحوالى مائة فلاح وخمسين أجيراً فنيا فى زراعة البساتين، كما يوجد مجموعة كبيرة من الحرفيين سواء منهم من يعمل لحسابه الخاص أو لحساب آخرين: نجارين، وحدادين، وبنائين، وإسكافيين، وصانعى الحلوى، وصانعى النعال، وصانعى الجلود، والحُصر، هذا بالإضافة إلى وجود مجموعة تجار على قدر من الأهمية(٣٣) .

كذلك فإن الأعمال التجارية الصغيرة والنقل كانت من بين الحرف التقليدية للموريسكيين وكان يمارس هذه الحرف على وجه الخصوص أولئك المطرودون من غرناطة. وقد اشتكت المجالس من هذا عدة مرات. ففي مجالس عام ١٥٩٣م- مثلاً- يقولون إنهم احترفوا التجارة والخبازة والجزارة والعمل في الحانات وسقائين للماء وذلك يسمح لهم بأن يكسبوا كثيراً ويدخروا أموالاً طائلة. (مادة ٤/١٣) وفي بعض الأحيان اشتكت المدن إلى السلطات العامة من نشاط الموريسكيين، كالشكوى التي قدمتها غوادالاخارا في ٢٩ يوليو عام ١٥٩٨م حيث يطلبون أن يمارس الموريسكيون " الزراعة والرعي فقط" لأنهم أثبتوا تفوقهم في "البيع والشراء والمهن التجارية الأخرى" والتي يجدون فيها مكسبًا كبيرا وعملاً قليلاً" وذلك لأنهم " بخلاء وحريصون"[٣٤]، وفي تقرير آخر عن إشبيلية عام ١٦٠٨م يُشار إلى أن أغلبهم يعملون في التجارة وتربية دودة القز والحانات والبغال .

عمل البغَّال كان مظهراً من مظاهر العمل بالتجارة، نظراً لأنه لم تكن توجد دوائر تجارية منظمة، فقد كان البغالون أنفسهم والذين كانوا يعملون في أغلب الأحيان لحسابهم الخاص ينقلون المنتجات حيث توجد بكثرة إلى أماكن أخرى تقل فيها، وهكذا فإن ندرتها ترفع ثمنها. ولهذا ودون أن نرفض التفسيرات الكثيرة التي تقال، ومنها رأي غونثاليث دي ثوريغو[٣٥]، حول ممارسة الموريسكيين لهذه المهنة بهدف الهرب من المراقبة الشديدة الخانقة من جانب المسيحيين القدامى ومحاكم التفتيش، يمكن التفكير أيضًا في أن الأزمة الغذائية التي حدثت في الربع الأخير من القرن السادس عشر دفعت الموريسكيين إلى تحقيق مكاسب طائلة عن طريق تجولهم بأرض شبه الجزيرة .

وكان يعوق تنقلهم مانع قانوني: وهو تحريم تغيير محل الإقامة بالنسبة للموريسكيين الغرناطيين، ولكن كما نعلم كان هناك ألف طريقة لتجنب ذلك، ولدينا طلب مقدم من سبعة من الموريسكيين في ١٥٧٧م من توردِيسياس لفيليبي الثاني يطلبون فيه السماح لهم بالغياب مع حيواناتهم وأبنائهم وذلك " لجلب أغذية وشراء

أشياء ليعودوا فيبيعونها"، وأنهم بطريقة أخرى سيموتون لأنهم لا يملكون وسيلة أخرى للحياة. ويطلبون أيضًا أن يسمح لهم بحمل أسلحة دفاعية وذلك لقلة الأمن فى الطرق ويعرضون دفع كفالة[٣٦]، ولا نعلم إذا كانت قد تمت إجابة هذا الطلب، ولكن ما هو مؤكد أنه سواء بالإذن أو بعدمه فإن الموريسكيين كان لهم سيطرة على حركة النقل فى قشتالة لدرجة أن طردهم العام أثَّر فى ذلك النشاط[٣٧] .

لم يكن الموريسكيون يجوبون الطرق البرية فحسب، بل وُجد فى أراغون قباطنة للسفن منهم، وقد وصل بهم الأمر إلى احتكار حركة النقل عبر نهر الإبرو[٣٨]. إن السهولة التى تكيف بها كثير من المطرودين، وأغلبهم ذوو خبرة فى الطرق البرية (أوضح مثال على هذا أهل هورناتشوس)، هذا النشاط فى القرصنة البحرية يبين كفاءاتهم ومهارتهم الذاتية حيث لم يكونوا قد مارسوه بصورة رئيسية من قبل. ويقدم لنا ل.ب. هارفى حياة أحد الغرناطيين فبعد الطرد عام ١٥٧٠م، أقام فى إشبيلية، وأعجبته حياة البحر فسافر مرة إلى الهند الغربية [أمريكا الجنوبية] واستطاع أن يفهم فن المدفعية وأن يطبق ذلك فيما بعد فى معركة غوليتا[٣٩]، وقد اضطرت السلطات إلى تجاهل هوية عائلات المتطوعين نظرًا لحاجتها الشديدة لجنود وبحارة لديهم رغبة فى مواجهة أخطار الرحلة إلى الهند الغربية. لهذا من المحتمل أن كثيرًا من الذين كانوا يحملون أسماء مسيحية هم فى الحقيقة موريسكيون(*)، واكتسبوا المعارف التى سمحت لهم أن يكونوا فى المستقبل قراصنة مخيفين، وربما بعض هؤلاء استولوا على سفن مراقبة أو سفن تجارية كانت قد انفصلت عن بقية الأسطول .

وقد ظهر التدهور المتزايد للأقلية الموريسكية بوضوح فى المستوى الثقافى المتدنى الذى كان يميز الأقلية؛ فإذا كانت الأمية تسيطر على أغلبية المسيحيين القدامى، يمكننا أن نتصور الدرجة التى يمكن أن تبلغها فى حالة الموريسكيين، ومع هذا فقد

(*) من المعلوم أن تصاريح السفر إلى أراضى العالم الجديد كانت تصدر لمسيحيين قدامى فقط، وكان بعض المسيحيين يبيع التصريح لموريسكى. وهذا يفسر وجود أشخاص مارسوا شعائر الإسلام فى أمريكا مع أنهم يحملون أسماء مسيحية. (المراجع)

وجد بينهم طبقة مثقفة فى وضع مترد. ذكر غونثاليث دافيلا أن من بين المدجنين كان يوجد عدد لا بأس به من الأطباء والكتاب والصيادلة، يعنى عناصر طبقة بورجوازية ثقافية متواضعة(٤٠) .

وقد أشار فيرنانديث نيبا إلى أنه فى إحصاء عام ١٥٩٤م لمدينة جيرينا كان يوجد منهم صيدلى وطبيب وكاتب ووكيل ضريبى ومحام. فى حين أن غارثيا أرينال وجدت بين الموريسكيين فى كوينكا فقط كاتباً وجراحاً ومجبِّراً "رجل يصلح الأذرع والسيقان المكسورة "، وهذا يعنى أن الفروق الإقليمية وعلى مستوى المحافظات كانت كبيرة .

والمجتمع المسيحى، بدلاً من أن يشجع تطور النشاط الثقافى لتلك الطبقة الثقافية المتواضعة كان يقاومها، وكانت اللوائح المهنية تمارس ضغطاً أكبر بكثير من ذلك الضغط الممارس فى المهن اليدوية، وتبعاً للبيانات التى تذكرها بنود لوائح مدينة لوركا، هناك بند دون تاريخ ولكن يمكن أن يعود لـ١٥٢٨م يُحرم قبول الموريسكى أو المرتد حتى الدرجة الرابعة فى مهنة الموثق(٤١). وكالعادة فإن المجالس تؤكد مثل هذه الآراء التى تهدف للتقييد، فطلب الإحاطة رقم ٩٥ للجلسات المنعقدة عام ١٥٧٣م كان يطلب منع أى موريسكى، من الذين جلبوا إلى قشتالة، من تولى أى منصب عام ولا يكونون معماريين ولا أمناء"(٤٢) ويجب أن نضيف أن فيليب الثانى وقع ما نصه: " فليوضع موضع التنفيذ ما هو مناسب" .

الموانع نفسها بل أكثر كانت توضع فى طريق الأفراد المنحدرين من أصول يهودية، لكن هؤلاء كان لديهم كفاءة أكثر ودرجة أكبر من الإعداد، وربما رغبة أكثر فى الاندماج. ويعتبر مثال مهنة الطب هو الأكثر تمثيلاً لهذا الوضع؛ ففى العصور الوسطى كانت تلك المهنة حكراً على اليهود ثم بعد ذلك على المرتدين. واللوائح التى كانت تصدر لتجنب هذا لم تكن تجدى مع وضع جذور عميقة له، ويمتد إلى قرون من الزمن، ولا حتى الأساطير التى تزعم أن الأطباء والصيادلة اليهود كانوا يسممون ويقتلون المسيحيين بسبب كراهية شيطانية لهم(*) .

(*) يُلاحظ أن الأقلية تُتهم عادة بمحاولة الانتقام من مجتمع الأغلبية. حدث ذلك مع الموريسكيين، ولايزال يحدث الآن فى بعض المجتمعات. (المراجع)

كذلك كان للمسلمين مدرسة طبية مجيدة وقديمة وإن كانت بدرجة أقل بكثير من اليهود، وقد كان علمهم موضع احترام لدى كثير من المسيحيين. وتكتمل المقارنة بإشاعات (ومنْ يدرى فربما فى حالة معينة كان ذلك صحيحًا) حول قتل الأطباء الموريسكيين بعض المسيحيين انتقامًا منهم .

أشار بليدا إلى محادثة تم التنصت عليها اعترف فيها طبيب موريسكى من بينيمودوا التابعة لكارليت يؤكد أنه يقتل على الأقل واحداً من كل عشرة من زبائنه المسيحيين[٤٣]، وهناك نقطة يتميز بها المسلمون عن اليهود، وهى الاشتباه بأن علمهم دائمًا يكون مصحوبًا بالسحر والشعوذة؛ بمعنى أن لديهم مصادر عقدية فاسدة شاذة؛ لكن هذا لم يمنع أن يدافع كثير من المسيحيين القدامى عن خدمات الأطباء الموريسكيين وذلك لأسباب وضحها غارثيا بايستير[٤٤]. أما محكمة التفتيش فقد كانت تشتبه فى أن عمليات العلاج تتم لوجود تحالف مع الشياطين، وقد كان هذا هو الأساس لكثير من المُحاكمات؛ كما كان هناك عنصر آخر له أصل دينى وهو أن الطبيب الموريسكى لا يعالج أمراض الروح، بل يعتدى عليها وذلك بممارسة الختان، وهى تهمة كانت توجه للقابلات الموريسكيات، وقد تم منع نشاطهم بقوانين مجلس غواديكس عام ١٥٥٤م وفالنسيا (١٥٦١) وكوينكا (١٦٠٢)[٤٥] .

وتعريف الطبيب على أنه مهنى يحمل شهادة جامعية، لم يعرفه المجتمع المسيحى إلا فى نهايات القرون الوسطى؛ ولهذا عندما رأى الأطباء الموريسكيون أن المجتمع يعتبرهم أطباء دجالين على الرغم من تكوينهم المهنى الذى لا يستهان به، حاول بعضهم الوصول إلى درجة الاحتراف التى يتمتع بها زملاؤهم المسيحيون، لكن عندئذ تدخلت الحواجز العنصرية. ففى إحدى جلسات المجالس البرلمانية لعام ١٦٠٧م (وثيقة رقم ٥٨٣/٢٣) أعلن نائب طليطلة أنه فى جامعة تلك المدينة ومدن أخرى يوجد" كثير من السامعين [الحاضرين] الموريسكيين"، وهذا سيؤدى إلى أن تفقد هذه المهنة الصيت والاعتبار؛ حيث إن المسيحيين القدامى لا يرغبون فى احترافها هى ومهنة الصيدلة؛ وسيأتى اليوم الذى يكون فيه كل أطباء وصيادلة المملكة من الموريسكيين وسيكون فى

أيديهم حياة الجميع. وهذا يدل على أن النائب ويدعى بدرو دى بيسغا لا يشك فى حقيقة تلك الشائعات التى تدور حول هذا الشأن: "فى مدريد وفى أماكن أخرى تم القبض على موريسكيين يقومون بقتل المسيحيين ليلاً وذلك لكراهيتهم لهم، وقد تم التوصل من اعتراف طبيب موريسكى يسمى المنتقم وهو من سانتو تومى التابعة لطليطلة، أنه قتل ٣٠٤٨ شخصًا عن طريق ظفر مسمم؛ وقد حاكمت محاكم التفتيش فى فالنسيا[٤٦] مجبرًا اعترف بأنه يترك المسيحيين مشوهى الأيدى حتى لا يستطيعوا استعمال السلاح(*)" .

وعلى الرغم من هذه الشائعات السيئة جدا ومن احتقار الأطباء المسيحيين لهم، فإن الأطباء الموريسكيين سواء أكانوا أطباء أم دجالين (ينتقل الطبيب الى هذه المرتبة عندما لا يكون فى حوزته شهادة) كان لهم زبائن بين المسيحيين القدامى؛ ولقد أكد أثنار كاردونا أنه عندما صدر قرار طرد الموريسكيين الأراغونيين فإن" طبيبًا موريسكيا يُدعى كالابيرا أثبت أنه كلب كبير لأنه رفض البقاء بين المسيحيين على الرغم من محاولة الكثيرين منهم إقناعه"[٤٧]. وبصورة عامة فإن الطبيب الموريسكى كان يعالج الطبقات الفقيرة؛ أما الطبقات العليا فقد كانت تفضِّل طبيبًا حائزًا على شهادة، أى مسيحيا قديمًا. لكن فى كثير من الأحيان يذهبون للطبيب الموريسكى وبخاصة إذا كانت الحالة ميئوسًا منها(**)[٤٨]. وعندئذ تحدث المواجهات [بين الطبيب الموريسكى والطبيب المسيحى]، وقد أشار غارثيا بياستير إلى النزاع الذى جرى بين الطبيب المسيحى الجراح داثا شاكون والطبيب الموريسكى بينيريته حول علاج الأمير دون كارلوس. وموريسكى آخر - خيرونيمو باتشيت - من غانديا كان حظه أفضل حيث

(*) إذا وضعنا فى الاعتبار أن التعذيب كان وسيلة مألوفة فى محكمة التفتيش لانتزاع اعترافات فلنا أن نشك فى كل البيانات الواردة فى ملفاتها. (المراجع)

(**) من المعلوم أن الأمير فيليبى [الذى أصبح الملك فيليبى الثالث فيما بعد] كان طفلاً عليلاً يئس الأطباء من علاجه، ولهذا اقترح أحد أفراد الحاشية الملكية أن يتم علاجه على يد طبيب موريسكى، وقد عالجه الطبيب بالفعل وشُفى من مرضه. (المراجع)

نجح فى شفاء الأمير الذى سيكون فيليب الثالث الذى طرد الموريسكيين، ولقد كان لباتشيت زبائن فى فالنسيا من أرقى طبقات المجتمع من بينهم تجار أغنياء إيطاليون, وقد أدى نجاحه الكبير إلى أن يتم دعوته البلاط وأن يصطدم كثيرا بزملائه المسيحيين القدامى. ويضيف غارثيا بايستير قوله: من النادر ألا يوجد طبيب موريسكى لا يكون قد اصطدم بعنف (قد يسبب الاعتداء عليه) مع الأطباء المسيحيين الجامعيين .

وباتشيت هذا هو أحد الأطباء الموريسكيين الكثيرين الذين مثلوا أمام محاكم التفتيش[٤٩]، وقد اتهمته بأن لديه شيطانًا من الأسرة وبفضله قام بشفاء الحالات المستعصية التى أعطته صيتًا كبيراً . وإذا صدقنا ما يذكره بورِّينيو، وهو مؤلف كتاب نوادر فيليبى الثانى، فإن هذه الحادثة قد وصلت إلى مسامع الملك، وأنه لشفاء أبنائه اتجه لأطباء موريسكيين ولكن عندما احتاج هو للعلاج رفض خدمات الموريسكيين قائلاً: "لا أريد الصحة بطرق سيئة جدا كهذه "[٥٠] على الرغم من أن دوق ناخارا عندما أرسل له باتشيت قال عنه: "إنه متخصص عظيم فى الأعشاب استطاع أن يحقق نتائج عظيمة مستعملاً الأعشاب" .

وهناك اختلاف كبير فى المعاملة التى لاقاها هؤلاء الأطباء الموريسكيون - الذين يعتبرون الممثلين الأخيرين لثقافة ذات تراث طويل ولكن فى مرحلة تدهور تام وتفكك - الأطباء اليهود المرتدين وذلك منذ عهد الملكين الكاثوليكيين إلى عهد فيليبى الخامس، أى منذ الطبيب لوبيث بيالوبوس إلى مونيوث بيرالتا الذين وإن كانوا فى أحيان كثيرة ضحية الاشتباه والمطاردة فإنهم تمتعوا بمستوى اجتماعى راق، وعلى العكس كان الأطباء الموريسكيون يمثلون طبقة ثقافية ذات عدد محدود ومستوى هابط وتتمتع باحترام قليل، ولا يمكن أن نعتبر من المفكرين البارزين مؤلفى الأدب الألخميادو ذوى المحتوى العلمى الفقير، ولا الموريسكى الغرناطى ألونسوديل ألكاسيتو، المترجم الرسمى فى عهد فيليبى الثانى، وهو مؤلف أو اشترك فى تأليف (مع موريسكى آخر يدعى ميغل دى لونا) الأساطير التوفيقية الموجودة فى جبل غرناطة[٥١]. ولكن يمكن أن نعتبر البروتستانتى كاسيودورو دى ريينا مفكراً بارزًا ذا قيمة لا تُنكر وهو مؤلف للترجمة الإسبانية للكتاب المقدس، لكن نسبة الموريسكى موضع شك[٥٢] .

هناك علاقة واضحة بين المستويات الحرفية الاجتماعية والقدرة الاقتصادية، ومن الحديث السابق حول المهن والحرف يمكن أن يستنتج أن المعدل المتوسط لمستوى المعيشة لا يمكن أن يكون مرتفعًا أمام أقلية سُدت أمامها أبواب الحرف والنشاطات ذات العائد المادى المرتفع، فهى تتكون فى معظمها من الخدم والأجراء وأصحاب الحوانيت التى من خلالها يتمكن البعض من أن ينتمي للطبقة البرجوازية، ومع هذا فإن العامة يصفونهم بأنهم بخلاء وأنهم يخفون الثروات تحت مظاهر تبدى الفقر، وربما فى بعض الحالات يكون هذا حقيقيا، والمعروف أن المظهر الخارجي للبيوت الموريسيكية كان فقيرًا جدا فى مبان بدائية من الخشب والطين(٥٣)، وأكواخ وكهوف كما فى الجنوب الشرقى من إسبانيا، وأيضًا فإن بعض المساكن تخفى تحت مظهرها السيئ ثروات حقيقية؛ فأحد سكان مرسية ويدعى كاسكاليس وهو يعرفهم جيدًا يقول: " يبنون بيوتهم بمظاهر خارجية فقيرة، ذات باب منخفض لا يسمح بمرور قزم دون أن ينحنى. وعندما يدخل يرفع رأسه فيكتشف صالتين مصنوعتين بمئات الأعاجيب، فالسقف مزين بأعمال فنية مذهبة، والجدران مزينة بالعديد من المناظر الطبيعية فهنا لوحة بها فاكهة، وهناك أخرى بها حيوانات، وثالثة ذات مناظر من البلاد الراقية، ورابعة بها جبل، وكل هذا مصنوع بفن راق وبأشكال معمارية تدهش بصر من يراها"(٥٤) .

والمساكن التى تحتوى على مظاهر فخمة قليلة جدا، وقليل من هذه أيضًا يمكن أن تنطبق عليه عبارة ثيرفانتس فى قصة "حوار كلبين"(*): "يجمعون ويكدسون كل الأموال التى توجد فى إسبانيا". وكذلك فإن مثل هذه الإشارات توجد بكثرة فى أدب تلك الفترة .

والآن من الواضح أن وجود موريسكيين أثرياء، بل وبصورة واضحة أغنياء، أمر قد تم إثباته، بل نعرف بعضهم مثل لاثارو لوبيث، الذى ذكره الباحث بن نصار(٥٥):

(*) العنوان الأصلى للقصة هو El Coloquio de los perros. انظر ترجمتها الكاملة فى كتاب "قصص مثالية » لثيربانتيس ، ترجمة على البمبى ، المشروع القومى للترجمة، القاهرة ، ٢٠٠٥ . (المراجع)

وذكر أنه صاحب مصابغ للحرير، كان يستغل جهود أبناء جنسه ويحقق رقمًا عاليًا من الصفقات السنوية يصل إلى ثمانية آلاف دوقية، وكذلك فرانثيسكو توليدوانو، الذى ورد ذكره فى تقرير عام ١٥٩٦م، وهو موريسكى من طليطلة أقام فى مدريد، وكان أهم تاجر حديد حيث كان يتاجر فى بيثكايا، وقد سمح له هذا بالتجارة فى السلاح الأبيض والبنادق[٥٦] .

ومن الممكن أن أناسًا ذوى عقلية كأولئك الذين يظهرون فى مشهد السيد أو اليهود من مدينة بورغوث الإسبانية يميل إلى استغلال أغنياء الموريسكيين لخوف هؤلاء من محاكم التفتيش .

من مثل هذا النوع نجده فى قصة ثيسبيديس ومينيسيس: يطلب أحد النصابين أو الصعاليك من تاجر موريسكى خارج من بايادوليد فى طريقه إلى إشبيلية أن يعرض عليه تجارته، ويعرض عليه التاجر قماشًا من سيغوبية وبايثا، وبين هذه القطع يخفى النصاب علبة صغيرة، ويقابله فى اليوم التالى ويتظاهر بأنه قد وجدها ويحاول أن يأخذها ويرفض التاجر فيتشاتمان، وفى النهاية يفتحان العلبة فيجدان فيها تمثالاً صغيراً يمثل محمداً والقمر والقرآن؛ حينئذ يخاف التاجر ويشترى صمت النصاب ويدفع له ٤٠٠ دوقية"(*)[٥٧] .

ولكى يتم توضيح الحقيقة حول ثروة الموريسكيين فإنه يجب دراسة كمية كبيرة من الوثائق: بيانات ضريبية، سجلات للأموال التى تركوها ... إلخ. وحتى الآن فإن جزءًا صغيراً من هذه الوثائق فقط قد تمت دراسته، لكنه، يكفى لإخراج استنتاجات عامة. لقد نشر خوان مارتينيث رويث العديد من قوائم الجرد لأموال الموريسكيين فى مملكة غرناطة[٥٨]. كذلك فهناك وثيقة حول العقارات التى تركها الموريسكيون فى أبيلا نشرت فى مجلة "دراسات سيغوبية"[٥٩] كما قدمت م. غارثيا أرينال بعض الوثائق حول بعض الموريسكيين فى محافظة كوينكا. وفى سيماناكاس تحتل وثائق أموال الموريسكيين عدداً لا بأس به من السجلات[٦٠]. وبلغت ثروة موريسكيى مملكة قشتالة

(*) وردت القصة الكاملة فى كتاب ترجمناه إلى العربية. انظر "مسلمو مملكة غرناطة". (المراجع)

٤٣٠,٦٥٧,٣١٣ مرابطيا منها ١١٣,٣٥٠,٢٥٤ تنتمي لقرى تابعة لإقطاعيين، كما أن هذا الإجمالى يشير إلى الأموال الأساسية فقط ولا شك أن فيه إغفالاً لكميات كبيرة، وهو يؤكد أن الموريسكيين لم يكونوا بصورة إجمالية شعبًا فقيراً .

لكن يبدو واضحًا أنه كان يوجد بينهم فروق معتبرة فى الثراء، فإذا كانت الأغلبية فى مملكة فالنسيا يكدحون من أجل أن يواجهوا النفقات التى تثقل كاهلهم، فقد كان يوجد بينهم بعض الأثرياء الذين سمح لهم ثراؤهم أن يقرضوا جيرانهم المسيحيين القدامى، وعند حدوث قرار الطرد وتبعًا لبيانات رسمية فإن قروضهم كانت تزيد عن ١٩٧٦٧٩ جنيهًا، "وهى كمية كبيرة بالنسبة لتلك الفترة"[٦١]. وقد أشار كابيثودو إلى فقر أغلبية موريسكيي أراغون إلا أنه أضاف أن بعض العائلات كانت غنية بما لديها من عقارات وملابس وجواهر وفضة. وفى غرناطة كانت الأغلبية الثرية كبيرة نوعًا ما، وكمؤشر لمستوى المعيشة يمكن استخدام قوائم الجرد المعروفة، ويمكن أن يساق كمثال الصداق المقدم لإيسابيل رومايميا، زوجة أحد تجار الحرير ، الذى قامت محكمة التفتيش بمصادرة أمواله ثم محاكمته فى فبراير عام ١٥٦٦م. وفى هذا الصداق يوجد قطعة أرض، جواهر ذهبية... ثياب من الحرير... إلخ، قيمتها ١٤٢١٢٥ مرابطيا[٦٢] .

ولدينا إحصاء رسمي لأموال الموريسكيين فى تجمعين فقط أحدهما قرطبة التى وصل إليها ٦٠٠ أسرة غرناطية، وبمناسبة الضريبة التى فرضت عام ١٥٩٢م تم إجراء إحصاء لأموالهم، فوجد أن نصف الموريسكيين تقريبًا لا يملك شيئًا وإجمالى أموال الباقين وصل إلى ٤٢٠٢٥ دوقية، أى بواقع أكثر من مائة دوقية لكل أسرة. لكن من الصحيح أيضًا أن بعض الأفراد كان لديهم ثروة معتبرة: مثل فيرناندو أثيتى وزوج ابنته، اللذين كانا يتاجران فى البهارات" وقد صلت ثروتهما إلى ٢٨٠٠ دوقية، والإخوة ميغيل وخيرونيمو لويث، وكانا يمارسان تجارة الحرير وصلت ثروتهما إلى ١٨٠٠ دوقية[٦٣]، والبعض الآخر كانت ثروته تقترب من ألف دوقية وهى فى حد ذاتها أرقام متواضعة، إلا أنها مرتفعة بالنسبة لمستوى الحياة العام بين الموريسكيين .

والتجمع الثانى هو هورناتشوس، فنحن على علم بتاريخ هذه القرية الذى كان بكامله موريسكيا وقائمة الجرد التى كتبت بالأموال التى تركوها بسبب الطرد فيها

المختصر التالى: ألف منزل قيمتها التقريبية ٣٠ ألف دوقية، ١٠آلاف قطعة أرض: ٣٠ ألف دوقية، ألف fanega ١٠ آلاف دوقية، ٤آلاف قطعة أرض مزروعة: ١٠آلاف دوقية، ٨٠٠ بستان: ٢١ ألف دوقية، ٨٠٠ برج حمام: ٣٠٠دوقية، ١٥٠ منحلاً: ٨ آلاف دوقية، ٨ طواحين: ٥ آلاف دوقية، ٤ مدابغ: ١٥٠٠دوقية، ١٩ أداة حرف (كاتب وغيره): ٦٥٠٠ دوقية، الإجمالى: ١٢٢٣٠٠ دوقية(٦٤) .

هذا الرقم كما قلنا فى حالة قشتالة أقل بكثير من الحقيقة بسبب الأشياء المغفلة والمخفية، وتحتوى على العقارات فقط (باستثناء حالة هورناتشوس التى يذكر فيها الحرف والمهن، وينقص هذه الوثيقة: الماشية، والجواهر، والأموال السائلة... إلخ، وكذلك الدخول ذات الطابع الصناعى والتجارى، وهذه الدخول كانت كبيرة. كذلك لدينا معلومات عن بعض المُزارعين الأغنياء: فأحدهم يدعى بيثنتى دى لاتورى من إشبيلية كان يملك مزارع للكروم والزيتون تصل قيمتها إلى اثنى عشر ألف دوقية، وقد رغب فى بيع ألفين منها لتغطية نفقات السفر فرُفض طلبه(٦٥)؛ لكن مثل هذا المثال كان نادراً جدا، فالثروات المعتبرة كانت دائما بأيدى التجّار وأصحاب الصفقات .

والانطباع الذى يمكن الحصول عليه (وذلك لعدم وجود بيانات إجمالية) هو أن الوضع الاقتصادى المتردى كان يخص الموريسكيين فى فالنسيا وأراغون، فأغلبهم فلاحون، ويوجد نسبة عالية منهم تحت ابتزاز السادة وأفضل من هذا المستوى يتمتع به المدجنون القشتاليون وبخاصة الموريسكيين الغرناطيين؛ سواء الأقلية التى استطاعت البقاء فى أرضها الأصلية أو الأغلبية التى هاجرت لقشتالة، واستطاعت أن تنتصر فى ظروف قاسية، وقد أمكن أن يتمتعا برخاء اقتصادى؛ فلقد كانوا يتميزون عن أبناء دينهم، من المدجنين الفالنسيين أو الأراغونيين، أنهم لم يعانوا من القهر لقرون طويلة، ذلك القهر الذى بجانب آثاره الاقتصادية من استغلال وغيرة أديا إلى انحطاط أخلاقى؛ فلقد احتفظ الموريسكيون الغرناطيون حتى لحظة طردهم بميراث أنتجته جهود أيديهم وإذا كان لا يكثر بينهم الأثرياء فقد كان من بينهم طبقة من الحرفيين تتمتع بحياة مستقرة مقبولة. تؤكد هذا وثائق التوكيلات التى درسها نيكولاس كابريانا وتخص

أرض ألمرية، وهذه الوثائق تظهر بوضوح "أن الموريسكيين كان لديهم أموال معتبرة وذلك بفضل اجتهادهم وانتشار روح الادخار بينهم؛ وأغلب موريسكى محافظة ألمرية الحالية وصل ثراؤهم لامتلاك بعض الأشياء؛ فربما كلهم كان لديه منزل وبستان صغير، كما تثبت هذا سجلات التوزيع حيث يتساوى فيها عدد الأسر مع عدد الملاك؛ لهذا يجب أن نرفض الفكرة الخاطئة التى تصور الموريسكى، على أنه يفتقر لأهم ضروريات الحياة، وعلى العكس من ذلك فقد كان لديهم أفران وطواحين للدقيق وللزيت وأرض زراعية وكروم وبساتين، وأراض لزراعة الزيتون، والذين كانوا لا يمتلكون أرضاً كانوا أقلية؛ إن وثائق التوكيلات تكشف لنا أن الموريسكيين فى هذه المنطقة كانوا ملاكًا لكميات كبيرة من الماشية، وإن حيواناتهم كانت ترعى فى المنطقة الواقعة من البشرات حتى كامبو دى دالياس"(٦٦) .

وإذا كان يمكن إثبات هذا بالنسبة لأفقر منطقة فى تلك المملكة، إذن يمكن الحديث عن الرخاء المادى للموريسكيين فى ملقة وغرناطة، وبخاصة بقايا الطبقة الأرستقراطية والبورجوازية القديمة والتى حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر كانت لاتزال تسكن مساكن جيدة فى عاصمة السلاطين القديمة، وكابريانا يذكر حسد المسيحى الفقير من بين العوامل التى سممت العلاقات بين السلالتين. ومن الممكن أن يوجد هذا الشعور فى أقاليم أخرى غير غرناطة أيضاً .

هوامش الفصل السادس

(١) انظر الملخص الذى قدمته فى :

Crisis y decadencıa de la Espana de los Austrias, pp. 32 -33.

ولقد اهتم بهذا المقال أمريكو كاسترو وسألنى عن معنى كلمة بيراداس ولم أستطع أن أشـبع فضوله. إن اجتهاد الموريسكيين الغرناطيين فى العمل كان أيضا موضع ثناء من السيد بيدرو دى ميركادو فى :

Dialogos de Philosophia,, publicados en 1558 (P. Felix Olmedo : *Ociosidad Espanola y sus remedios* . " Fomento social ", X, no 44, ano 1956)

كذلك فقد نسب لهم بيدرو من بلنسية القيام بأعمال تحتاج إلى جهد كبير: " لـديهم اسـتعداد كبير للحياة بقليل من الطعام غير الجيد ، ويسعدهم كثيرا ألا نجبرهم على شرب الخمر".

(٢) ***Coronica*** ...capitulo 38.

(٣) ***Itinerarium Hispanicum***, "Revue Hıspanique, tomo 48, pp. 140 -142 .

(٤) توجد ترجمة إسبانية شيقة جدا لتفاصيل هذه الرحلة أعدها السيد خوليو بوتول.

(٥) Alonso Fernandez, ***Anales de Plasencia***, libro III, capitulo 25 . 5 – obra citada, folio 53.

(٦) ***Los moriscos de Granada***. 224.

(٧) هذا القول يتكرر كثيرا فى الكتابات المعادية للسامية ، فمثلا يقول الـسيد كـورا دى لـوس بالاثيوس: " كانوا كلهم يبحثون عن المهن المربحة والطرق التى تمكنهم من أن يكسبوا كثيرا ويعملوا قليلا".

(***Cronica de los Reyes Catolicos*** , capitulo, 112)

(٨) V. mi ***Judeoconversos en Espana y America*** , 232.

(٩) Garcia-Arenal , en su citada tesis, Le Flem : ***Los moriscos en el noroeste de Espana***, etc.

(١٠) "ومن المثير للانتباه أنه من خلال الإحصائيات وكذلك محاضر المحاكمـات لا يظهـر أى موريسكى يعمل راعيا ولا أى حرفة أخرى لها علاقة بتربية الماشية التى كانت مربحة جـدا فى إقليم كوينكا". غارثيا أرينال ص ١٤٣

(١١) citas de Mıguel Herrero en ***Ideas de los espanoles en el siglo XVII***, Madrid , sin ano (1928) capitulo 20 .

وقد اختار كل من رودريغيث مارين ومن بعده مارتينث كليسر من بـين الأمثلـة التـى شاعت حول الموريسكيين المثل الذى يقول: " إن الحديقة تكون كنـزا إذا كـان البـستانى موريسكيا". انظر:

(Refranero general ideologico, 13.515)

(١٢) A.H. N. Consejos, le. 4.414, no 64.

(١٣) obra citada, 1 parte, p. 69.

(١٤) Micer Luis de Icart: ***Libro de las grandezas y sus memorables de Tarragona***, capitulo 40(Lerida, 1572.

لقد قام خوان مارتينث رويث بدراسة استمرار وجود التقنية والمفـردات التـى وضـعها الموريسكيون فى عملية تنقية السكر، وذلك فى كتابه التالى :

Notas sobre el refinado de azucar de cana entre los moriscos granadinos,
(" Revista de Dialectologia y Tradiciones Populares ", XX, no 3, ano 1964).

وتوجد تفصيلات مهمة فى التماس لا يعرف تاريخه قدمته مدينة مرسية ، ويتعلق بتفـسير القرار الصادر فى ٢ يونيو عام ١٦٠٠م، والذى كان يهدف إلى الغاء الوسطاء والسماسرة فى تجارة الحرير يقول:

" مدينة مرسية ، صاحب الجلالة نلفت انتباه جلالتكم للاعتبارات التالية :

أولا: إن عملية التربية (الخاصة بدودة القز) توجد هنا أفضل من أى مكان آخر ، لكن لا يوجد نساجون ، كما أن المياه لا تساعد لأنها غير مناسبة للأصباغ ، كما أن هذا العمل لم يمارس فى السابق.

ثانيا: فى هذه المدينة لا توجد أى تعاملات إلا فى الحرير ، ولا مصدر دخل إلا منه ، حيث يستخرج منه كل ما يحتاج إليه فى كل الأشياء ويباع بأعلى الأسعار . وإذا افتقد فإن هذه المدينة وهذه الولاية سيعمها الخراب ، وهذا ما سيحدث إذا تم تنفيذ ما جاء فى اللائحة، حيث إن الطريقة التى يتم بها إعداد الحرير تتمثل فى أن هناك أعدادًا كبيرة من الموريسكيين من أماكن مختلفة من مملكة غرناطة ويمنحهم مجلس الإمدادات التصاريح الخاصة بذلك، ويأخذون ثلث القيمة مقابل عملية تربية دودة القز ويأخذ الثلث الآخر السادة الذين يمدونهم بأوراق القز، ويوفرون لهم المنازل والأدوات اللازمة ويقومون بالإنفاق على عملية الإعداد ويدفعون أجور الناس الذين يقومون بذلك. ولما كان هولاء الناس سواء الذين يأتون من الخارج أو سكان المدينة نفسها من الفقراء ، ولا يوجد منهم من يفهم فى ذلك وليس لهم مصدر رزق آخر ، فإنهم يأخذون القمح والأشياء الأخرى بالأجل، وكذلك جزءًا من أجر الأجراء، وعندما تنتهى العملية ويأتى وقت دفع الأجراء يقومون بنسج الحرير ويبيعونه ليدفعوا ما عليهم وما بقى يذهبون به إلى بلادهم بعد أن يدفعوا للسادة أصحاب ورق القز نصيبهم.

(A.H.N. Osuna, legajo 2.252, e hojas impresas.)

(١٥) P. Ponsot : ***Les morisques, la culture irriguee du ble et le probleme de la decadence de l agriculture espagnole au XVI siecle*** (Melanges de la Casa de Velazquez, tomo VII).

(١٦) لهذا المصطلح فى أدب تلك الفترة معان متعددة . وقد أثبت نويل سالمون أنه كان يطلق عادة على ملاك الأراضى الزراعية الأثرياء فى الأرياف ، ولكنه هنا يستعمل بمعنى مزارع، وذلك نقيض للفظ بستانى.

(١٧) B.N. ms. 9.577, fol. 208 .

(١٨) V. Paredes Guillen : ***Los Zuniga, Senores de Plasencia***, 132 – 138 (Caceres, 1903)

(١٩) obra citada , libro 3, capitulo 25.

(٢٠) ***Les morisques du Nord. Oust de la Espagne***....

(٢١) ربط فراى ماركوس بين حالة التدهور وقلة السكان فى المدن القشتالية وبين الموريسكيين القشتاليين حيث يقول: " استولوا على المهن الميكانيكية وكذلك أعمال السمسرة، كذلك يعملون عمالاً وأجراء، ويقومون بكل هذا بسهولة كبيرة لأنهم مقترون وبخلاء حيث لا يأكلون ولا يشربون ولا يلبسون".

(Cit. por Caro Baroja, 219).

(٢٢) A.G.S. Diversos de Castilla, 42 – 6 .

(٢٣) توجد حول هذه النقطة كتابات كثيرة جدا. وجزء من هذا يوجد فى كتابى التالى :

Los judeoconversos en Espana y America.

(٢٤) ***Ordenanzas de Sevilla***, 2 parte, titulo 1, ano 1632.(hay una reimpresion de 1975 patrocinada por OTAISA).

(٢٥) Tramoyeres. Instituciones gremials de Valencia, capitulo VI (Valencia, 1889) .

فى عام ١٥٣٠ كان أغلب الـ ٤٥ الذين كانوا يدفعون ضريبة التاتشا فى فالنسيا من الموريسكيين.

R. Garcia Carcel : ***Notas sobre poblacion y urbanismo en la Valencia del siglo XVI*** :" Saitabi", XXV, ano 1975.

إن هذه الكثرة قد تفسرعملية تصفية عضويتهم فى نقابة صانعى الأحذية فيما بعد.

(٢٦) Jose Gestoso: ***Historia de los barros vidriados sevillanos*** (Sevilla, 1904) pagina. 331.

(٢٧) إن هذه البيانات الموجزة يمكن التوسع فيها من خلال المرجع التالى:

Arte Mudejar de Torres Balbas, vol. IV de "Arte Hispaniae" (1949).

(٢٨) F. Iniguez : ***Notas para la Geografia de la arquitectura mudejar en Aragon*** ((Boletin de la Real sociedad Geografica ", tomo 74).

(٢٩) J.A. Tapia: ***Almeria piedra a piedra***, p. 179).

(٣٠) Carmen Gonzalez Munoz : ***La poblacion de Talavera de la Reina***, 259 – 250, Madrid, 1975.

(٣١) Janer, obra citada, Apendice 95.

(٣٢) Klaus Wagner : ***Un pardon desconocido de los mudejares de Sevilla y la expulsion de 1502***(" Al-Andalus" vol. XXXVI).

(٣٣) ***Potencial economico de la poblacion morisca en Cordoba***. (Bol. Acad. Cordoba, 1972)

(٣٤) Layna Serrano: ***Historia de Guadalajara***, III, 503

إشارات عامة حول المشكلة نفسها فى تقرير حول غلاء الأسعار عام ١٥٨٣م.

(La Junta de Reformacion paginas 51 – 52)

وتوجد إشارات أخرى فى مقال آخر أضافه السيد كارميلو بينياس فى ملحق المرجع التالى:

El Problema de la Tierra en Espana en los siglos XVI a XVIII.

(٣٥) ***Memorial de la politica necesaria y util restauracion de la republica de Espana*** , 1600, folio 46.

فى هذا المرجع يؤكد أن بعض المتهودين كانوا يمارسون مهنة نقل البضائع للسبب نفسه. وهذه الشهادة لها وزن إلى حد كبير، حيث إن صاحبها كان يعمل محاميا لـدى محـاكم التفتيش.

(٣٦) E. Garcia Chico : ***Los moriscos en Tordesillas*** (Simancas, I, 440 – 41).

(٣٧) لقد حصلت مدينة غوادالخارا عام ١٥٨٤م على تصريح ملكى لكى يستطيع الموريـسكيون الذين يعيشون معهم الخروج بقوافلهم خلال ٤٠ يوما، وذلك لعلاج قلة الغلال بجلبها مـن مقاطعات أخرى.

(Layna Serrano : ***Guadalajara y sus Mendozas***, t. III, pp. 262 – 263 y 448)

(٣٨) Cabezudo Astrain : ***Noticias y documentos sobre moriscos aragoneses,*** MEA. V, 1956.

(٣٩) ***The morisco who was Muley Zaidan s spanish interpreter*** (M.E.A.H. VIII, 1959).

(٤٠) ***Teatro Eclesiastico de Avila (1618) e Historia de Felipe III***, obra postuma (Madrid, 1771).

(٤١) ***Ordenanzas de Lorca***, Granada, 1713, p. 108.

(٤٢) الأمين، كلمة ذات أصل عربى واضح، وكانت تطلق على المفتش الخاص بالموازين والمكاييل والأسعار فى الأسواق. أيضا يسمى بها – وذلك بصورة أقل – المعلم أو رئيس العمال. عندما عرضت مهنة موثق غرناطة للبيع للسيد ميغل كاثورلا وذلك عام ١٦٠٣م، طلبت المجالس النيابية ألا تباع أى مهنة فى البلدية للموريسكيين.

(٤٣) ***Coronica***....861-62.

(٤٤) ***El ejercicio medico morisco y la sociedad cristiana*** . Discurso en la R. Academia de Medicina de Granada, 1975.

هذه المحاضرة تمثل جزءا من دراسة كبيرة وسوف تظهر قريبا بالعنوان التالى:

Medicina, ciencia y minorias marginadas : los moriscos.

(٤٥) لقد أشار الأب بيدرو دى ليون إلى أنه تم شنق إحدى الموريسكيات بسبب قيامها بعمليات إجهاض وذلك فى إشبيلية عام ١٥٨١م.

(٤٦) هذه الكلمة تطلق على الجراح المتخصص فى علاج الكسور ومشاكل العظام .

(٤٧) *Expulsion* ...folio 68.

هل يكون الدكتور كالابيرا أحد هولاء الذين ، تبعا لرأى بليدا ، حصلوا على درجة الدكتوراه فى الطب من بلنسية ؟. إنه لأمر شيق أن يتم القيام بدراسة عن عمليات التسجيل التى تمت فى الجامعات وذلك للتعرف على الوجود الموريسكى فيها ، وإن كان هذا البحث قد يصطدم بميل هولاء المنطقى إلى إخفاء أصولهم.

(٤٨) " Isti morische medentur infirmis de quorum salute desperarunt medici christiani " (Bleda, *Defensio Fidei*...368).

(٤٩) فى الكتاب المذكور أورد الدكتور غارثيا بايستير خريطة بالأماكن التى ينتمى إليها ١٤ طبيبا موريسكيا تمت محاكمتهم أمام محاكم التفتيش فى فالنسيا ويحتفظ بملفات محاكمتهم (ومن المحتمل أن يوجد عدد أكبر من هذا).

(٥٠) ***Dichos y hechos ....de Felipe II***, capitulo VI.

(٥١) Dario Cabanelas : ***El morisco granadino Alonso del Castillo***, Granada, 1965.

(٥٢) لقد أطلق عليه الموريسكى الغرناطى وذلك فى مذكرة للسفارة الإسبانية فى لندن عام ١٥٦٣، وقد اعتمدت شهرته بوصفه موريسكيا على هذا الدليل الضعيف، والذى قبله كل الباحثين ابتداء من مينديث بيلايو حتى كامن. ومؤخرا اعتبر باول هاوبن هذا الرأى دون دليل، وذلك فى:

The Spanish heretics and the reformation , Ginebra, 1967, p. 101.

وبالنسبة لى فأنا أرى أنه من الصعب أن يستطيع أحد الموريسكيين أن ينضم إلى الرابطة الخيرونيمية لأنهم كانوا يدققون كثيرا فى مسألة نقاء الدم ، ولكن لا يمكننى أن أدرس هذا الموضوع بالعمق المطلوب ، وبخاصة أننى لم أطلع على الدراسة التالية التى صدرت حديثا: ***Casiodoro de Reina*** de a. Gordon.

(٥٣) فى مقال بونسوت المذكور سابقا توجد صور لمنازل موريسكية فى قرية توريياس التابعة لإقليم أراغون. وقد لفت نظر المسيحيين منذ الاستيلاء على غرناطة ضيق منازل الموريسكيين . "ففى المكان الذى يعيش فيه أربعة موريسكيين يعيش مسيحى واحد ". وربما كان هذا (يقصد الحياة فى أماكن واسعة) غير ممكن بالنسبة لأناس مجبرين على الحياة فى مكان ضيق تحيط به الأسوار. وربما يكون من المفيد جدا دراسة المنازل الموريسكية التى مازلت موجودة.

(٥٤) Epistola a Juan de Arguijo en sus cartas Philologicas (cit. por Rodriguez Marin : ***Pedro de Espinosa***, p. 232)

(٥٥) ***Valladolid et sus campagnes*** ...338.

(٥٦) Braudel , obra citada, II, 128.

(٥٧) ***El soldado Pindaro***, libro 1, capitulo 22.

يوجد فى الكتاب التالى حكاية جديدة عن الخدعة التى قام بها بعض الصعاليك ضد أحد التجار الموريسكيين فى: . *Tardes entretenidas* de Castillo Solorzano

ومن الضرورى أن يكون قد حدث فى الحياة الحقيقية مثل هذه الحوادث ، فيحكى عن موريسكى كان ثريا جدا من قرية إثيخا أنه تم ابتزازه من قبل قاضى محاكم تفتيش مزيف، وذلك كما جاء فى كتاب بيبدرو دى ليون:

Compendio de algunas experiencias de que usa la Compania de Jesus ...Ms de la Biblioteca Universitaria de Granada, 2 parte, capitulo 26).

(٥٨) ***Inventarios de bienes de moriscos en el Reino de Granada***, Madrid, 1972.

لما كان هدف هذا المؤلف إعداد دراسة لغوية فإنه لم يستفد ويستخدم تلك الوثائق المهمة من الناحية التاريخية.

(٥٩) Ano 1962, pp. 472 – 75.

(٦٠) يوجد العديد من مجموعات الوثائق فيما يلى :

Contaduria Mayor de Cuentas, 2 epoca, y por lo menos 29 en la Contaduria de la Razon .

وبالنسبة للموريسكيين البلنسيين تعتبر مجموعة الوثائق الخاصة بأموال المطرودين الموجودة فى أرشيف مملكة بلنسية مهمة.

(٦١) E. Ciscar Pallares : prestamistas moriscos en Valencia (" Cuadernos de Historia ", no 5).

إن الجنيه البلنسى يساوى عشرة ريالات فضية، بمعنى أن قيمته الشرائية حينذاك كانت تساوى ٧٠٠ بيزيتة عام ١٩٧٦م.

62 – K . Garrad : ***La industria sedera granadina en el siglo XVI***...(Miscelanea de Estudios Arabes, V, ano 1956)

(٦٣) J. Aranda Doncel : ***Potencial economico de la poblacion morisca en Cordoba*** (Boletin de la R. Academia de Cordoba , no 92).

يبدو أن هذه الإحصائية تخص الموريسكيين الغرناطيين، بمعنى أنه يجب أن يضاف إليهـا أموال المدجنين الذين كانوا يقيمون فى قرطبة وذلك للحصول على الرقم الإجمالى.

(٦٤) A.G.S. CJH. 503.

(٦٥) B.N. ms. 9.577.

(٦٦) *Esclavos moriscos*, p. 55.

الفصل السابع

المعايشة الصعبة

إن تاريخ العلاقات بين الجماعتين كان من أساسه دراميا، وكانت المشاعر التى تعتمل فى صدور كل من الفئتين بصورة عامة هى الاحتقار والخوف والكراهية، وهذه العداوة والحقد لم تكن تظهر بصورة مستمرة فى الحياة اليومية، ولكنها لم تكن تحتاج لعوامل كثيرة حتى تظهر بصورة وحشية. وقد وصل هذا الأمر إلى أن نتساءل كيف أن فئتين بهذه الصورة تمكنتا من التواجد معًا لمدة أكثر من قرن من الزمن، كذلك كيف أن الفئة الأكثر ضعفًا [أى الأقلية] قاومت بعناد – ولمدة طويلة – الاعتداءات المتعددة التى كانت هدفًا لها، وكيف تمكنت من الاحتفاظ بجزء – على الأقل – من هويتها؛ حيث إن الطرد كان حلاً مفروضًا بسبب الفشل والعجز عن وجود حل آخر مناسب للمصالح التى تحاول الأغلبية المسيحية الوصول إليها (ولقد كان الموريسكيون على صواب عندما فسروا الطرد بهذا التفسير).

هذه الأغلبية المسيحية كانت بصورة جماعية معادية للشعب الموريسكى، وبالطبع فإنه يمكن أن توجد بعض الأمثلة التى يتم التعاطف فيها مع أحد الموريسكيين بالتحديد؛ مثال ذلك السيد نافاس دى بويبلا، المستشار العام لجيش خوان دى أوستريا، الذى أنقذ عام ١٥٧٠م من العبودية كثيراً من اليتامى الموريسكيين أو أولئك الذين أوكلهم آباؤهم المطرودين لبعض المسيحيين(١). لقد فرض على المنتفعين الذين كانوا يحاولون عدم الإعلان عن أولئك الأطفال كتابة عقد وصاية، وهو أرحم بكثير من العبودية. كذلك فإن بعض الجماعات عارضت فرض إجراءات طرد جديدة مثل قرطبة

عام ١٥٧١م، ولوخا وغواديكس عام ١٥٨٤م. لكن مثل هذه المواقف كان سببها مشاعر الشفقة التى حركتها التعاسة الشديدة، وذلك بعد اختفاء الخوف، ولمصلحة سكان تلك البلديات.

وبالطبع تمكن الإشارة أيضًا لعلاقات حسن الجوار التى كانت بين موريسكيين ومسيحيين، والتى ولِّدت فى أوساط المدن خاصة ثقة متبادلة. لكن كارداياك أثبت غموض هذه العلاقات، وأنها لا تمنع من أن يتعرض الموريسكى لمفاجأة سيئة:" إن البوح بسر أو المجاهرة التلقائية بفكرة - كان يحطم تلك العلاقات العائلية ويدفع بالموريسكيين أمام محكمة التفتيش"[٢].

وسنذكر بعض الحالات التى ذكرها كارداياك: النجار خيرونيمر كاريون، كان يعمل فى بورغوس، وأقام بضعة شهور فى فالنسيا، وقبل ذهابه دعاه صاحبه المسيحى وقدم له طبقًا من الحلوى، مصنوعًا من لحم خنزير، ورفض الموريسكى أن يأكل منه؛ مما أدى إلى اقتياده للمثول أمام محكمة التفتيش. وفى مكان قريب من كوينكا شاهد طفلان من الموريسكيين أحد المسيحيين وقد ركع أمام الصليب فقالا: "ماذا يفعل هناك ذلك التعيس؟ ماذا يظن أنه سيجنى من هذا العمل"؟[٣] على أثر هذه الحادثة تمت محاكمة كل أفراد العائلة. وفى مكان آخر كانت إحدى المسيحيات متزوجة من أحد الموريسكيين وكانت تشتكى لامرأة أخرى أنها عُزلت عن الجماعة المسيحية قائلة إنهم لا يحبوننى ولا يحبون ابنتى لأن ابنتى هذه هى بنت مسيحى جديد [موريسكى][٤]. وأعلمت محكمة التفتيش بذلك ، وأجريت محاكمة لصالح المسيحيين القدامى .

وفى غوادالخارا، لاحظ فريق من المسيحيين فى عام ١٥٤٦م طريقة تصرف رجل يدعى بriاندا سواريث وتأكدوا من نفوره من المسيحيين فقدموه للمحاكمة[٥]. لكن المثل الأكثر وضوحًا هو ذلك الذى يصلنا من كوينكا من سجن محاكمة التفتيش حيث لا يوجد أى تضامن بين المطاردين من تلك المحاكمة؛ حيث كان كل فريق يستفز الآخر بصورة مستمرة، فالموريسكيون يصنعون صلبانًا ويدوسونها بالأقدام، أما المسيحيون فيجيبون على هذا بتحمير لحم الخنزير وتناوله[٦] .

نعرف تماماً قائمة الاتهامات التى توجه إلى الموريسكيين: لديهم قدرة كبيرة على الإنجاب، وكذلك على العمل، بجانب أنهم بخلاء، وكان يعتبرهم الشعب المسيحى منافسين له يخاف منهم، ينتصرون ويثرون بنشاطاتهم الحرفية والتجارية، ويحسن أخلاقهم يجعلون السادة يسمحون بنظام عمل يمكن أن يُطاق ويمكن أن تكون هذه المشاعر من الغيرة والحسد هى التى سببت تلك الكراهية الشعبية، وكانت إحدى نتائجها المحسوسة ذلك التنصير الإجبارى فى فالنسيا عامى ١٥٢٠-١٥٢١م .

إن الفلاحين والمهنيين المسيحيين فرضوا عليهم التعميد وذلك بهدف التساوى بهم فى ظروف الحياة، وهو هدف لم يتمكنوا من تحقيقه، حيث واصل السادة فى اعتبار رعاياهم من الموريسكيين سلالة مختلفة، لكن مع هذا فاعتبار قرار التنصير الإجبارى الصادر عام ١٥٢٥م كان نتيجة ضغط شعبى ما زال قائماً .

هناك علامة أخرى على الكراهية المسيحية هى اغتيال ١١٠ موريسكيين داخل سجن المحكمة[٧] وذلك فى غرناطة بتاريخ ٢ أبريل ١٥٦٩م، فلقد دارت المعركة ست ساعات قام فيها سكان المدينة والجنود بمساعدة السجناء المسيحيين فكان عدد المسيحيين القتلى خمسة وجُرح سبعة عشر، وهذه الحادثة التى نُسيت تحتاج بلا شك لدراسة خاصة. ويمكن أن نقدم بعض المعلومات وهى أن الضحايا كانوا فى غالبيتهم من الأثرياء، وكان بينهم عدد كبير من التجار وأصحاب محلات تجارية ناجحة، وقد أدت مصادرة أموالهم إلى تحقيق مكسب يصل إلى ٨٠ ألف دوقية لصالح الملك، أى ما يعنى حوالى ٧٣٠ دوقية من كل فرد[٨]، وكان ضحية هذا الغضب الشعبى جزء كبير من الطبقة العليا الموريسكية فى غرناطة .

هذه المظاهر الوحشية من الكراهية يمكن تفسيرها بالخوف الذى يسيطر على الجميع. الخوف المستمر من التمرد، الخوف من هجوم القراصنة البربر، أو الخوف من الوقوع فى أيدى رجال العصابات. كل هذه المخاوف كان يوجد ما يبررها، ثم يضاف إليها مخاوف أخرى ذات طابع خيالى تحول كل موريسكى حيثما وُجد إلى شخص خطير ومقلق .

ففى فالنسيا، فى بداية القرن السابع عشر، كان السكان يعتقدون أن المهددين من قِبل الموريسكيين بصورة أكثر هم الأولاد، فلقد انتشرت إشاعة تقول إن الموريسكيين يحتجزون الأطفال ليربوهم فى شمال إفريقيا، وأنه يتم شحنهم ليلاً، بعد تكميم أفواههم وذلك " بوضع قطعة من القماش فى الفم حتى لا يستطيعوا الصراخ ويجعلونهم يضغطون على أسنانهم"[٩] .

هذه الاتهامات التى لا أصل لها، والتى تذكرنا بالاتهامات التى كانت توجه للغجر، تعبر عن الهوة التى كانت تفصل بين الجماعتين. لهذا يجب أن لا يدهشنا أن فكرة التصفية الجسدية للموريسكيين، والتى تبناها بعض المسئولين كانت تجد لها صدى كبيراً بين أوساط الشعب، وهذا ما يقصه الكاتب المجهول مؤلف المخطوط رقم S - 2 "وعندما رأوا أنهم لا يستطيعون قيادة هذه الطائفة الشيطانية للإيمان الحقيقى، قال البعض يجب قتلهم أجمعين ، وقال آخرون يجب [خصيهم]، وقال آخرون يتم كى جزء من الجسد يمكن عن طريقه منع نسلهم وبذلك يموتون"[١٠] .

وتشتد كراهية المسيحيين للموريسكيين للاعتقاد بفكرة أنهم يمثلون سلالة من أبناء الحرام؛ أى المسلمين (وبالتالى الموريسكيين)، فهم ينحدرون من إسماعيل ، ابن هاجر الأمة، بينما ينتمى المسيحيون لإسحاق[١١]. إذن بين السلالتين يوجد كل الفرق الذى يمكن أن يوجد بين سلالة حرة نبيلة وسلالة من العبيد، وأما الموريسكيون فكان يضايقهم بشدة هذا الجدل؛ ولهذا حاولوا إصلاح وضع إسماعيل والذى تبعًا للقرآن هو الابن الذى كاد أن يضحى به إبراهيم، وأن ميلاد إسحاق حدث بعد عملية الفداء .

هذه النظرة العنصرية للتاريخ جعلت اليهود والمسلمين يندرجون فى لائحة نقاء الدم، وقد تم وضع تلك اللائحة لتجنب أى تلوث من تلك السلالات، حتى فى سلالتهم البعيدة جدا[١٢]. لهذا رأى الموريسكيون أنفسهم محرومين – نظريا – من كل الوظائف الجيدة والمحترمة، فهم لا يستطيعون دخول الأنظمة العسكرية ولا المدارس العُليا، ولا تولى مناصب فى محاكم التفتيش.. كذلك لا يكونون وكلاء عن المدن الرئيسية ولا حتى ممارسة بعض المهن كالطبيب، والصيدلى، والقابلة والصراف أو سكاك العُملة[١٣]

...إلخ. ونقول نظريا: لأنه فى الحقيقة كان يوجد صيارفة وسكاكو عُملة وصيادلة وأطباء موريسكيون، وتسامحوا بعض الشيء مع السلالة المحمدية بالنسبة لمناصب ووظائف ذات وضع عالٍ ليس فقط بسبب التزوير الذى كان يتم فى هذا الموضوع (ويدل على هذا العدد الكبير من اليهود المرتدين الذين استطاعوا التلاعب باللوائح) لكن لأن وجود آباء أو أجداد مسلمين لم يكن يثير الرعب نفسه الذى يثيره وجود نسب من أصل يهودى .

وهذا يمكن تفسيره لأن الاشمئزاز من كل ما هو يهودى وصل لدرجة أنه اتخذ مظاهر مرضية ونفسية، وأما الموريسكى فعلى العكس كان يثير الاحتقار والخوف وليس استنكاراً جسديا أو لاهوتيا. لهذا فإن المهتمين بموضوع نقاء الدم والنبالة كانوا يقبلون أن تتوافر لأحد المحمديين صفات خاصة بالأشراف، وعلى من كان من دم يهودى[١٤] .

وكيف لا يفعل ذلك وإحدى اللوائح الملكية لكارلوس الخامس فى عام ١٥٣٣م وموجهة للرئيس العام لمحاكم التفتيش السيد ألونسو مانريكى تفيد بأن الذين ينحدرون من الملوك المسلمين يجب ألاَّ يُمنعوا من أن يتولوا مناصب فى محاكم التفتيش؟[١٥] ومن هذا المدخل الصغير استطاع أن يصل أبناء بنى غازى وأسر أخرى لا تنحدر من ملوك غرناطة ولكن من ملوك المغرب إلى أعلى المناصب[١٦]. لكن يجب ألا نستنتج من ذلك نتائج مغلوطة، فهذه الانتهاكات لقوانين عامة، وللوائح لم يستطع أن يقوم بها إلا عائلات قليلة جدا ذات منزلة عالية، والذين اعتنقوا المسيحية منذ سقوط غرناطة، ولا نجد أمثلة مقابلة فى أقاليم أخرى. وفى الحياة العملية استطاع اليهود المرتدون بفضل رغبتهم الكبيرة وقدرتهم على الاندماج أن يخترقوا المجتمع المسيحى، بينما دفع الموريسكيون الطرد ثمناً لاستقلالهم وبإرادتهم إلى حد كبير .

يجب أن نضيف أن كراهية المسيحيين للموريسكيين لم تكن من جهة واحدة، بل قابلهم الموريسكيون بالمعاملة نفسها، فأحد سكان إقليم كوينكا كان يذهب بعيداً لينقل الماء من إحدى العيون التى أقامها المسلمون سابقًا محتكراً نبع ماء المسيحيين[١٧]. وفى

كامبو دى كريبتانا فى قشتالة فى عام ١٥٩٨م عقد موريسكيان زواجًا، ويدعيان إيسابيل غالبيث ومونغو لوبيث، ويبدو أنهما كانا قد تنصرا فعلاً وليس ظاهريًا، ودعا الزوج كل أعضاء الجماعة الموريسكية فردًا فردًا للحفلة لكن لم يحضر زواجه أحد[١٨]. كذلك فإن عمال الفلاحة الموريسكيين لم يكونوا يشاركون المسيحيين طعامهم كما كان يريد هؤلاء، خوفًا من دهن الخنزير[١٩] .

من هذا يتضح أن عداوتهم للمسيحيين والمسيحية لم تكن تظهر فى صور مشابهة لتلك الخاصة بعداوة المسيحيين لهم، وذلك لكونهم أقلية، فقد كانوا يردون على المبادرات الاستفزازية من جانب المسيحيين بجمود وسلبية تخفى معارضة ضارية ولكنها صامتة؛ ولكى يمكن ملاحظتها فإنه يجب مراقبتها فترة طويلة أو استفزازهم، ومن ناحية أخرى فإن المظاهر قد تنقذهم .

هنا تتدخل التقية[٢٠]. الإسلام يسمح لمعتنقيه الذين يعانون من سيطرة فريق معاد بإمكانية إخفاء الشعائر الدينية التى كانت مفروضة عليهم بشرط أن يبقى الإيمان الإسلامى فى القلب. السورة ١٦ فى القرآن تقول: "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم". التقية (وهى تعنى الاحتياط) تسمح للموريسكيين أن يمارسوا شعائرهم بطريقة سرية فى ذلك الوقت الذى يظهرون فيه اندماجًا كاملاً فى العالم المسيحى، ويتبعون فى ذلك إرشادات توجد فى مخطوطات يتملكونها، وهى فتوى مفتى وهران عام ١٥٠٤م. فهذا المفتى، الذى استفتاه الموريسكيون الغرناطيون، أحل لهم كل الأحوال التى يمكن أن يعيشوها، فالذى لا يستطيع أن يصلى بالنهار يمكنه أن يصلى بالليل[*][٢١]، ومما لا شك فيه أن هذه الفريضة [الصلاة] شكلت عائقًا فى وجه السياسة القهرية على الرغم من أن السلطات المدنية والدينية المسيحية لم تكن تترك لأحد أن يخدعها .

(*) نشرنا الفتوى كاملة فى ترجمتنا لكتاب غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون"، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

إن الالتجاء العام للتقية كان يمثل بالنسبة للموريسكيين خطراً لا شك فيه، فتكرار حركات غريبة على دينه [أى الحياة الظاهرية بوصفهم نصارى] ألا يمكن أن يكون خطراً يهدد صفاء الإيمان ويحول إلى توليفة دينية؟ أو على الأقل يمكن أن يضع الشعائر الإسلامية موضع الإهمال؟ إن زعماء الشعب الموريسكى كانوا على وعى بهذه المخاطر، ولهذا حاولوا المحافظة على إيمان أبناء دينهم بطريقة سرية، ولهذا فإن المجتمع الحاكم [المسيحى] أيضًا طارد بلا هوادة أعضاء الدعوة الإسلامية، وبين هؤلاء يجب أن نضع فى المقام الأول الزعماء الدينيين وهم الفقهاء، وحاول الكشف عن جميع الكتب، سواء بالعربية أو بالألخميادو أو بالإسبانية، التى كانت تمثل قاعدة التعليم الموريسيكى .

وتوجد مدرسة لاهوتية موريسكية ذات اتجاه جدلى، حيث كانت تتعلم الأدلة المسيحية وذلك للرد عليها بطريقة أفضل[٢٢]. وكانت الموضوعات المفضلة للجدل: شخصية المسيح، والتثليث. فمثلاً كان هناك رسالة عنوانها: "المواضع السبعة والثلاثون فى القرآن حول وحدانية الله" وكانت ذات انتشار واسع. بالنسبة للموريسكين، فإن عقيدة التثليث هى دليل واضح على أن المسيحيين لا يؤمنون بوحدانية الله: من المستحيل أن يتحول الثلاثة إلى واحد، وبالطريقة نفسها يهاجمون سر التجسد ويرفضون أن تكون مريم أُمًا لله .

هذه النقاط هى الموضوعات الرئيسية لرسائل بصورة عامة مجهولة المؤلف، ومع هذا فإننا نعرف أسماء بعض المؤلفين: مثل أحد موريسكيى باسترانا ويدعى محمد الوزير ونعرف أنه كتب رسالة بعنوان " نقد أركان الإيمان المسيحى". أيضًا خوان ألونسو أراغونيس، الذى على الرغم من اسمه فهو أندلسى وكان مسيحيا فأسلم(*) فى نهاية القرن السادس عشر، ويبدو أنه كان دكتوراً فى علم اللاهوتيات، وكتب مخطوطًا جدليا على الأقل باللغة الإسبانية ولقد ذهب إلى تطوان ثم إليتونس عام ١٦٠٩م حيث استقبل هناك الموريسكيين المطرودين من إسبانيا .

(*) لا ندرى ما الدليل الذى يستند إليه المؤلف للزعم بأن خوان ألونسو كان مسيحيا. الأمر المنطقى هو أن أراغونيس كان مسلمًا يُخفى إسلامه ثم كشف عن هويته عندما وصل إلى دار الإسلام. (المراجع)

الفقهاء وبصورة عامة كل الذين يجيدون القراءة، كانوا يقرءون تلك الكتب والمواعظ، وهى عبارة عن أدعية وأشياء من هذا القبيل، ثم يعلمونها فيما بعد للموريسكيين الأميين، والذين يمثلون الأغلبية، فهناك رجل يدعى لوبى هينيستروسا، فى محافظة كوينكا كان يقرأ على جيرانه: " كتاب القرآن وكتب أخرى للطائفة الضارة والفاسدة لمحمد، وكانت مكتوبة باللغة العربية والموريسكية" وفى عام ١٥٤١م فى دايميل كانت تجرى جلسات يتم فيها قراءة القرآن. وفى ديثا (محافظة سوريا) قبل عام ١٥٧٠م بقليل، كان أحد المسلمين يدعى لوبى هيريرو ينظم جلسات فى إحدى الحدائق داخل القرية[٢٣] .

وكما هو منطقى فإن هذه الظاهرة كانت تحدث بصورة أكثر انتشاراً فى الأقاليم الفالنسية حيث توجد كثافة موريسكية كبيرة؛ ففى سيغوربى فى عام ١٦٠٥م كان يوجد ثلاثة من الفقهاء يعلمون الجيران وذلك فى جلسة أسبوعية، وعلى الرغم من أن هذا النشاط كان سريا فإنه لم يكن يخلو من فعالية. لكن إلى أى مدى؟ هل هذا يكفى لبقاء الإسلام بجميع أبعاده؟ نظراً لطبيعة التقية فقد أدت إلى لون من الانتقاء بين مجموع المظاهر الخارجية التى تمثل الانتماء للإسلام وللمحافظة على النقاط الأساسية تم إهمال ونسيان بعض الشعائر. لكنه لم يتم هذا على مستوى واحد وذلك لأن سياسة الاحتواء كانت ذات درجات متعددة من الكثافة تبعاً للزمن وبصورة أكبر تبعاً للأقاليم. لكن بصورة عامة يمكن أن نشارك هالبرين دونغى فى القول إن الصلوات الخمس اليومية لم تعد تؤدى بصورة عامة فى النصف الثانى للقرن السادس عشر، وأن التقويم الإسلامى الدينى أصبح أقل استخداماً[٢٤]، أما بشأن الموريسكيين الذين يعيشون فى أرض كوينكا فإن غارثيا أرينال تشير إلى أن الكثير منهم لم يعد يعرف معانى الكلمات ولا حركات الصلاة، وكذلك شعائر الميلاد والزواج والوفاة حيث ضاع الكثير منها[٢٥] .

وعلى العكس فإن بعض الشعائر استمرت حتى الطرد عام ١٦٠٩م فى المقام الأول كصيام رمضان، والذى فى كوينكا كان يُمارس من قِبل حتى الذين تم احتواؤهم

بصورة كبيرة. وفى فالنسيا لاحظ بعض الشهود المسيحيين – وذلك فى عامى ١٥٨٨ و١٥٨٩م– الهدوء الذى يسود القرى الموريسكية خلال النهار فى شهر رمضان؛ ففى عصارات السكر لم يكن العمال يشربون على الرغم من الحر الشديد لأنهم" لا يشعرون بالظمأ"[٢٦] وحافظوا أيضًا على الشعائر فى الناحية الغذائية، فإلى جانب الأمثلة المذكورة حول رفض الموريسكيين تناول لحم الخنزير يمكن أن نضيف أن الموريسكيين المطرودين من غرناطة وخلال رحلة الطرد كانوا يرفضون اللحم الذى يُعرض عليهم لعدم معرفتهم بطريقة ذبحه، وهل تمت طبقًا للشريعة؟[٢٧] وفى مملكة فالنسيا كان الموريسكيون لا يستهلكون أى نوع من اللحم ما لم يكن معدًا تبعًا لشريعتهم[٢٨]، ولقد أثبت كارادياك فى طليطلة وم. غارثيا أرينال فى قشتالة حالات يتعمد فيها الموريسكيون التقيؤ بسبب تناولهم للحم خنزير قُدم لهم دون أن يعرفوه، حيث تناولوه فجأة .

ومن بين الشعائر الشائعة بين الموريسكيين الختان، ولو أن م. غارثيا أرينال أكدت أنها لم تجدها مذكورة فى ملفات محاكم التفتيش فى كوينكا، وهو أمر يبدو أيضًا غريبًا، أما توليو هالبرين فيؤكد أن كل الموريسكيين الذين وقعوا فى أيدى محاكم التفتيش فى فالنسيا كانوا مختونين[٢٩]، وقد أشار إلى وجود عائلة من الحلاقين تمارس هذا العمل فى إلدا Elda فى النصف الثانى للقرن السادس عشر، كما أن أحد الفرنسيين من تولوز، وصل إسبانيا عام ١٥٦٥م وبعد تجوال كثير اعتنق الإسلام وأبلغ عنه فى سان كليمنتى (كوينكا) وعندما جرد من ملابسه اكتشف أنه مختون، وحُكم عليه بالعمل فى السفن[٣٠]. ومارمول كارباخال يمدنا بمعلومتين مهمتين فى هذا المجال: الأولى الموريسكيون الـ ١١٠ تقريبًا الذين اغتيلوا فى السجن فى الثانى من أبريل عام ١٥٦٩م " فإن الكثير منهم وُجد مختُونًا "، والثانية حول فرج بن فرج. لقد اعتدى عليه أحد أصحابه وتركه ظانًا أنه قد مات، وبعد ذلك بيومين اكتشفه بعض موريسكيى تلك القرية (غويخار) الذين لم يكونوا يعرفونه، عندما وجدوه مختونًا وحيًا اقتنعوا أنه واحد منهم: " لقد استطاعوا التعرف عليه ومعرفة ما إذا كان مسلمًا أو مسيحيا حينما وجدوه مختونًا فحملوه إلى منزله دون أن يعرفوا شخصه "[٣١]، والشهادة الأخيرة والتى ربما تكون أكثر الأمثلة وضوحًا فى هذا الأمر: فى غرناطة فى نوفمبر ١٥٤١م كان أحد

المسيحيين ويدعى ألونسو باثكيت دى أكونيا مريضًا، وهو ابن القاضى بدرو دى موراليس، وعندما زاره الجراح أوصاه بالاختتان، ولكى يتم تجنب سوء الفهم المحتمل أجريت العملية أمام كاتب قانونى وشهود. وتمثل الشهادة وثيقة كاشفة للإجراءات القمعية التى تعرض لها المورسكيون[٣٢] .

لقد تردد كثيرًا أنه على مستوى الأقاليم ظل المورسكيون فى إقليمى فالنسيا وأراغون أكثر تمسكًا بالإسلام وذلك لاحتفاظهم بالفقهاء، ولكن يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن الإسبان استردوا هذه الأقاليم قبل غرناطة بوقت كبير، ويبدو بدهيا من النظرة الأولى أن المورسكيين فى غرناطة وفالنسيا- وهم كثيرو العدد- قد قاوموا بصورة أفضل سياسة الاحتواء الثقافى، سواء فى المجال الدينى كما فى غيره من المجالات.. بينما أن تجمعات المدجنين فى قشتالة وقطالونيا - كانوا قليلى العدد- وكانوا أكثر اندماجًا .

أما عن كوينكا فلدينا أدلة على أن قشتالة والجزء الشرقى من محافظة سوريا الحالية، هى الأقاليم التى ظل فيها الإسلام أقل تدهورًا حتى نهاية القرن السادس عشر[٣٣]. هذا الموضوع الرئيسى ما زال موضوع بحث ولكن من المؤكد أن الإسلام الإسبانى بصورة عامة استطاع المقاومة خلال القرن السادس عشر ولكن مع تدهور ملحوظ .

* * *

المواقف التى انتهينا من تحديدها تمثل موقف الأغلبية، ولكن لم تكن متبعة بالإجماع، فقد كان يوجد - سواء بين المسيحيين أو المورسكيين - أفراد أو جماعات لهم موقف مغاير للموقف العام.. فبين المسيحيين - من ناحية - توجد جماعة تتبنى حلولاً تميل بطريقة أو بأخرى لتصفية الجماعة المعادية، ومن ناحية أخرى فإن جماعة أخرى

تؤيد موقفًا أكثر تسامحًا. وبين الموريسكيين كان يوجد من اعتنق المسيحية بلا تحفظات، ولهذا كان يعلن ولاءه الكامل للملك، وآخرون كانوا لا يستطيعون تحمل النفاق والصمت والسلبية التى يعنيها تطبيق التقية .

وبإيجاز فقد كان فى كل جانب " صقور وحمائم " يمثلون تيارات ذات أهمية كبرى، على الرغم من قلة عددهم ، وذلك لأن قراراتهم - مدفوعة سواء بالمصلحة أو المثالية - كانت تحاول التأثير فى مجرى الأحداث. ولنر الآن موقف " الصقور " .

فى الجانب المسيحى يجب أن نضع فى المقام الأول أولئك الذين يسميهم كارو باروخا بالبيروقراطيين [الإداريين] ، أى الأعضاء أو العناصر المنفذة للسياسة الملكية(٣٤). من المفيد أن نعرف أن كلاً من غرناطة وبلد الوليد كانت أكثر المدن بيروقراطية فى إسبانيا فى القرن السادس عشر، وهذا يمكن تفسيره لوجود المحكمة العليا التى أنشئت عام ١٥٠٥م، وكانت دائرتها تشمل كل نصف إسبانيا الجنوبى، ونظراً لذلك فقد كان يعيش فيها عدد كبير من القضاة والمشهورون وكذلك المغمورون، ويضاف إلى المحكمة العليا محكمة التفتيش ومحكمة القيادة العامة، وكل هذه الهيئات، ماعدا المحكمة العامة، تكره الموريسكيين. والذى قلناه بشأن غرناطة يمكن تطبيقه بلا شك على كل من فالنسيا وسرقسطة، وإن كانت تنقصه الدراسات اللازمة. والإداريون المحليون ، سواء فى أندلوثيا أو فى مملكة أراغون (كذلك فى مستعمرات أمريكا) استخدموا سلطانهم ومارسوا بذلك استعماراً لا يرحم .

لقد كشفت أزمة الستينيات من القرن السادس عشر عن تلك المشاعر والممارسات وذلك عن طريق بعض الفصول المهمة. وقبل كل شىء، صراع السلطة المستمر الذى جعل القيادة العامة فى مملكة غرناطة تواجه رجال محاكم التفتيش ورئيس الإدارة العامة، فلقد تم تحديد سلطة كل هيئة وذلك بقوانين يعود تاريخها إلى ١٥٤٣-١٥٤٤م، فالقانون الحربى ينتمى للقائد العام، والدينى لمحاكم التفتيش. لكن أسرة ميندوثا، والتى كانت تتولى منصب القائد العام ويتوارثه الأبناء عن الآباء كانوا يشتكون من تدخل المحاكم المنافسة فى أمور القيادة(٣٥)، وكان مركز الخلاف هو التحكم فى حياة

الموريسكيين وذلك بسبب الخطر المتزايد الذى تمثله تلك الأقلية. يرى كارو باروخا فى الصراع، بين لويس أورتادو دى ميندوثا ورئيس الإدارة العامة: السيد بدرو دى ديثا، صورة من التعارض بين عقليتين: عقلية النهضة وهى متسامحة ومنفتحة، وعقلية كنسية وهى جامدة وتميل إلى الحكم المطلق؛ لكن بالنسبة لواضعى القوانين سواء فى الإدارة العامة أو محكمة التفتيش فإن زيادة سلطاتهم تعنى الاستيلاء على أموال الضحية – وهو الموريسكى– وذلك لمصلحتهم الخاصة، متظاهرين بتأدية خدمة ملكية .

بهذا المعنى نجد أن مهمة سانتياغو تكتسب كل أبعادها[٣٦]، وهذه العملية الكبرى التى شجعت من جانب رجال الإدارة، وقادها أحدهم فى الفترة (١٥٥٩م–١٥٦٧م)، سمحت بالطبع بإدخال كميات كبيرة من الأموال فى الخزانة الملكية وذلك عن طريق بيع أراضى الموريسكيين المصادرة، لكن فى الوقت نفسه أتاحت الفرصة لأولئك الموظفين العاملين فى تلك العملية من امتلاك الأراضى بأسعار منخفضة، ونعرف كذلك كيف استطاع محامو بلد الوليد أن يتملكوا فى القرن السادس عشر كميات كبيرة من الأرض القريبة من المدينة وذلك بفضل نظام الإحصائيات[٣٧] أما إخوانهم فى غرناطة فقد كانت لديهم وسائل أسرع لتحقيق العملية نفسها وذلك باستعمال وسائل الضغط الاستعمارى. وكان يكفى أن يحصلوا من الملك على المزيد من الصلاحيات المهمة، وكان تشكيل لجنة سانتياغو نصراً كبيراً .

لهذا يجب ألا نندهش حينما نثبت عن طريق سجلات إحصاء العقارات لسنوات ١٥٧٠م (كتب تم إعدادها لتسهيل عملية إعادة توطين الأقاليم بعد طرد الموريسكيين) أن الموظفين الغرناطيين كانوا من كبار الملاك وبخاصة فى بيغا فى غرناطة. فمثلاً روى دياث دى ميندوثا كان يملك فى بيليثنا ثلاثة منازل وحديقة و ٤٨ قطعة أرض (تساوى كل الأراضى التى يمتلكها كل الموريسكيين وباختصار كان مثل خيط عنكبوت تم نسجه بصبر)... إلخ[٣٨] .

ولم يكن ميندوثا الوحيد فى هذا الأمر، بل شاركه حوالى عشرين مسيحيا لا يسكنون فى بيليثنا Belicena ما عدا القسيس، ولا نعرف وظائفهم جميعًا لكننا

نعرف من بينهم رجل القانون لوثينا، وغريغوريو بيكو سكرتير محكمة التفتيش، والسكرتير غوميل، والسيد برابو. وفى قرية الطرفى **Altarfe** نجد٢٢ مسيحيا لا يسكنون بها والسيد برابو نفسه كانت له أملاك بها. وكذلك كان قريبه ماتياس برابو له أملاك، وكل من عضوى مجلس البلدية لويس أرياس وميغل دى بايثا الذى كان واحداً من كبار المُلاَّك الكاثوليكيين ويشبه فى ذلك إيرناندو دى ثافرا، حفيد سكرتير الملكين الكاثوليكيين، وكان يحمل اسمه ولقبه(٣٩). لقد استطاع جده الاستفادة من العطايا التى منحها له الملكان، كما أثبت ذلك غارثون باريخا(٤٠). لكن يجب أن نصدق أن أحفاده عرفوا كيف يواصلون طريق زيادة أموالهم. أما الأراضى فى قرية الطرفى فقد حصلوا عليها بعد عام ١٥٠٧، وهو التاريخ الذى مات فيه السكرتير .

أما المثال الأخير على سيطرة البيروقراطية الغرناطية على الأراضى ، وهو بشأن قرية فى البشرات، هذا المثال له معنى كبير ويتعلق بقرية بيرتشوليس وهى أقل ثروة من قرى لا بيغا وتبعد أكثر من ١٠٠ كم عن المدينة الكبرى (ربما غرناطة)(٤١). فالعديد من المسيحيين الذين لم يكونوا يقيمون بها كان لهم أملاك. تلفت انتباهنا من بينهم حالة الغرناطى كريستوبال دى أريبالو، والذى نجهل وظيفته. لكن الوثيقة تبين كيف امتلك ١٤ قطعة أرض كان يملكها عند حدوث التمرد. فلقد اشترى جزءاً من ممثل للإدارة، وجزءاً آخر تمت مصادرته من موريسكى، اشتراه من محاكم التفتيش، وجزءاً ثالثاً من موظف الحاشية الملكية وكان ينتمى لموريسكى كان قد هرب إلى إفريقيا. كريستوبال كان يمتلك أيضاً جزءاً كبيراً من طاحونة وثلاثة منازل، أحدها اشتراه عام ١٥٦٧ .

وفى النهاية لا يوجد أدنى شك فى أن الأموال والأراضى الموريسكية التى صادرتها المحاكم المذكورة ولجنة سانتياغو كانت كبيرة، وأن الموظفين والكنيسة كانوا أول المستفيدين منها .

لقد حققت البيروقراطية الغرناطية نصراً حاسماً آخر، وكان النصر هذه المرة ذا طابع سياسى ، وذلك بنزع سلطات ماركيز مونديخار فى مارس ١٥٦٩م، كان الماركيز- وهو المدافع عن الموريسكيين- الهدف الرئيسى لهم، ففى فبراير لتلك السنة كان هدفاً

لحملة تشهير يمكن أن نصفها بأنها كانت مخططة بدقة: ففى اليوم الثامن أرسلت المحكمة العامة إلى الكاردينال سيغوينثا تقريراً طويلاً عن سير الحرب، وفى اليوم الحادى عشر أرسل ثلاثة آخرون من المحكمة نفسها خطاباً للكاردينال نفسه، ثم قلدهم فى هذا الرجل الكنسى بيرالتا وذلك فى ١٢ مارس، وهو التاريخ نفسه الذى بدأ فيه رجال محاكم التفتيش الاشتراك فى الحملة. ولدينا تقارير دون تواريخ وإن كانت تعود للفترة نفسها لرجل القانون بينيتو دياث، وكذلك مدير مستشفى القديس خوان دى ديوس[٤٢]. وكلهم يتهمون الماركيز بإطالة الحرب: "بسبب أنه يرغب فى المحافظة على الأعداء لهذا لا يسمح بقتالهم فى أرض سهلة" هذا من وجهة نظر بينيتو دياث الذى يقول: "الشىء الذى يدعو للأسف هو أن يضع صاحب الجلالة فى منصب القائد العام رجلاً يفعل ما هو ضد رغبة الجميع من أصدقاء وغير أصدقاء فيسعى لإطالة أمد الحرب ويوافق الجنود حينما لا يقتلون المسلمين، فهو يقبلهم فى معسكره ويعطى الموريسكيين تصريح مرور مع أن هؤلاء تبعًا لشهادة الأسيرات هم الذين قتلوا الأزواج وأحرقوا الكنائس..." هذه هى وجهة نظر هيرناندو دى بيرالتا، والأكثر شراسة فى هذه المجموعة هو الراهب بالتاسار دى أوسونا، مدير مستشفى سان خوان دى ديوس، الذى استخدم شهادات بعض الجرحى، ثم كتب تقريراً لا يرحم وصل فيه لاتهام الماركيز بالجبن والخيانة وسوء السلوك: حيث يقول: " كل هؤلاء- أؤكد هذا بالله وبضميرى- وهم فى حالة الموت يلعنون القائد العام، والناس الذين يصحبونه ويصفونه بأنه خائن، وأنه أكثر إسلاما من المسلمين " .

إن ما كان يحاوله مؤلفو تلك المنشورات الهجائية هو القضاء على حامى الموريسكيين، الرجل الذى كانوا يشكون فى أنه يريد بكل الوسائل الإبقاء على تلك الأقلية فى غرناطة. لقد تبنى أعداؤه حلاً جذرياً وفورياً قائلين :"نرجو صاحب الجلالة أن يأمر بما يمكن لمعالجة هذا، وأن لا يبقى أى فرد منهم فى مملكة غرناطة "وهكذا يختم رجال محاكم التفتيش خطابهم. إن إبعاد الماركيز عن سلطاته واستبداله بالسيد خوان دى أوستريا يمثل هزيمة حزب الرحمة وانقلاباً حاسماً فى الصراع.

لقد رأينا منذ قليل كيف أن بعض الكنسيين ساندوا موقف الموظفين فى هجومهم على الماركيز. لقد كان الكنسيون يمثلون العنصر الثانى فى الحزب المتطرف المسيحى، وبالطبع ليس كل الكنسيين يرون هذا، فداخل أصحاب المناصب العليا فى هذه المجموعة يوجد كل الأنواع من الآراء، فمن الآراء المتطرفة إلى الآراء المعتدلة، وحتى أولئك الذين كانوا مقتنعين بضرورة اللجوء إلى الحلول القاسية لم يكن لديهم الحقد الذى لا يرحم الذى كان موجوداً لدى الشعب المسيحى قبل الموريسكيين. وأفضل ممثلى رجال الكنيسة الذين عملوا فى أرض موريسكية هما غيريرو فى غرناطة وريبيرا فى فالنسيا، أما الأول فقد انتهى أمره إلى أن يؤيد طردهم من مملكة غرناطة أو تحويلهم إلى عبيد (باستثناء أطفال الموريسكيين فى غرناطة ووادى ليكرين حيث لم يشتركوا فى التمرد)(٤٣) وأما الثانى فقد أيد طردهم نهائيا(*). لكنهما اتخذا هذا الموقف بعد أن خاب أملهما وتحققا من عدم جدوى الجهود الرامية لتنصيرهم وانضما للحزب الراديكالى، ومن المحتمل أن موقفهما هذا كان مشابهاً لموقف كل الأساقفة .

وقضية موقف الجماعات الدينية معقدة، ولم تتم دراستها حتى الآن لهذا فنحن مضطرون أن نقوم بتقديم بعض الافتراضات التى تحتاج لإثبات؛ فالدومينيكيون يبدون ولأول وهلة أعداء وحشيين للموريسكيين، فالعداء كان بلا حدود من جانب الأب بليدا، ومن المحتمل ألا يمثل هذا حالة فردية .

وعلى العكس فإن أفضل الذين شاركوا فى حملات التنصير هم الفرانسيسكيون واليسوعيون ويبدو أنهم كانوا مدفوعين برغبات ونوايا تصالحية نحو تلك الأقلية: فالأب أنطونيو سوبرينو، والأب بارتولومى دى لوس أنخيليس، اللذان دافعا عن الموريسكيين كانا فرانسيسكيين .

(*) ليس من المؤكد أن البطريرك ريبيرا كان يؤيد عملية الطرد، بل هناك من يقول إنه ندم على ذلك. انظر ماركيث بيانويبا "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة. (المراجع)

أما من ناحية اليسوعيين فقد بيَّن هالبرين أنهم امتنعوا عن التدخل علنًا فى النقاش المفتوح حول مصير الموريسكيين فى السنوات التى سبقت الطرد(٤٤). ويمكن أن يقال الشيء نفسه حول تصرفهم فى مملكة غرناطة؛ حيث انتهجوا سياسة الامتناع ولكن بطريقة غير مباشرة. كانوا فى صالح الموريسكيين، ومثال ذلك تقرير النبيل الفالنسى خيرونيمو كوريغا فى عام ١٥٨٦م حيث يمثل وجهة النظر تلك .

القطاع الذى كان أكثر عداوة للموريسكيون داخل الكنيسة يمثله (بالإضافة إلى بعض الأساقفة والجماعات الدينية) الكنسيون ذوو الرتب الأقل. لقد كان وضع رجال الدين فى كنائس الموريسكيين بالطبع صعبًا؛ فهم معزولون فى داخل وسط من الموريسكيين، وفى كثير من الأحيان كانوا مكروهين منهم، وكانوا يخافون من حدوث أى شيء بما فى ذلك الاختطاف أو القتل الوحشى؛ وفى أغلب الحالات كان تكوينهم المحدود جدا ونقص وازعهم الدينى وعدم مراعاتهم التامة للآداب والتقاليد تجعل منهم أشخاصًا غير مناسبين أو مهيئين للمهام التى يجب أن يمارسوها.. لقد كان لديهم كل وجهات النظر الخاطئة بالإضافة إلى أحقاد المسيحيين نحو الموريسكيين .

كان القسيس هو الموضع الذى تظهر فيه الكراهية الشعبية المتبادلة، ويجب ألا ننسى أن بليدا قد شغل هذا العمل لسنوات فى إحدى القرى الموريسكية، ومن الطبيعى أنه خلال تلك السنوات خزَّن كل الغضب الذى سيصبه فيما بعد على رعاياه .

لكن المثال الأكثر وضوحًا هو الخاص بأيستبان ديل رينكون- قسيس فى ثوخار وهى قرية قريبة من باثا- الذى كتب خطابًا للكاردينال إسبينوسا رئيس مجلس قشتالة (السلطة العليا التالية للملك) فى ١٦ أغسطس عام ١٥٧٠م، وهى وثيقة طويلة يحكى فيها المصائب التى تحدث له ويصف فيها الموريسكيين(٤٥) الذين هم - تبعًا لرأيه - أذكياء ومخادعون وخائنون وهم متحفظون فيما يجب أن يفعلوا، وكاذبون، وجبناء لا يهتمون كثيرًا بالطعام واللباس والشراب والنوم، متفائلون وأصحاب شعوذة وقساة ويميلون للانتقام. ولم يعجبه فيهم شيء، وهو ينصح بعدم استخدام الرحمة معهم، فالذين لم يتمردوا كانوا من وجهة نظره مجرمين أكثر من الذين حملوا السلاح؛ لأنهم

لم يتجرءوا أن يظهروا مشاعرهم الحقيقية. وهذا الموقف غير المتفاهم لهذا القسيس هو نتيجة عشرين عاماً من عدم الفهم المتبادل والمواجهات المستمرة؛ ثم كان آخر حدث في حياته العامة الصعبة هو سرقة أمواله، حيث كان له في ثوخار العديد من المنازل، وعدد من الماشية تصل قيمتها لحوالي ستة آلاف دوقية، أي حوالي ستة ملايين بيزيتة لعام ١٩٧٧م. أي أن هذا القسيس لم يكن فقيراً .

هل حالة هذا القسيس فريدة من نوعها؟ بكل تأكيد نجيب بلا؛ فكثير من القسيسين الآخرين، الذين كانوا يعملون في كنائس في قرى ذات أغلبية موريسكية في مملكة غرناطة كانوا يصيرون فيها ملاكًا أغنياء: مثل بارتولومي مورينو، قسيس في ريوخا (قرب ألمرية) كان يملك أراضي في أربع قرى تابعة لنهر ألمرية، كما كان لديه منزل في غادور حيث كان يخزن كميات كبيرة من الزيت، وتقدر أمواله بألفين دوقية[٤٦]، وكذلك أنطونيو دي ليرما، قسيس في الكوليا، في البشرات الشرقية، كان يملك عند موته كمية كبيرة من الأراضي الموزعة في قرى كثيرة تقدر قيمتها بحوالي ٢٤٠٠ دوقية بين رأسمال وفوائد[٤٧] .

الثروات الكبيرة لرجال الكنيسة والموظفين كانت ناشئة في جانب كبير منها من ابتزازات خلال عشرات السنين وقد تضرر منها دائمًا الموريسكيون. وبفضل إحصاء عام ١٥٢٦م الذي تم بأمر كارلوس الخامس في كل أنحاء مملكة غرناطة نعرف السياسة اليومية الاستعمارية، وهناك الكثير الذي يدفعنا لأن نعتقد أن الشيء نفسه قد حدث في مملكة أراغون، فجامعو ضرائب (مثل القبالة، وضريبة سنتياغو والعشور، وضريبة الحرير) كانوا يفرضون شروطًا مجحفة، فمثلاً جامعو ضرائب العشور كانوا يجمعونها بصورة عملة فضية على الرغم من أنها في العادة لا تدفع هكذا، كما كانوا يطالبون بمبالغ ضريبية في غير موعدها. كما كانوا يجبرون الموريسكيين دون غيرهم على دفع مصروفات إنشاء وإصلاح المنشآت العامة كالكباري ومنابع الماء في حين أن في الأصل يجب أن يشترك كل المواطنين في دفعها، وكذلك يجبرونهم على دفع سعر أعلى ثمنًا للملح (الذي كان احتكاراً ملكيا) من السعر الذي كان يدفعه المسيحيون .

وعالم رجال القضاء لم يكن يختلف من ناحية التفرقة العنصرية والشدة الخالية من الرحمة من جانب رجال الضرائب. كان القضاة يرفضون الانتقال لمناطق البشرات ويدينون الموريسكيين الذين لا يمثلون أمامهم. كما أن المحضرين كانوا يدخلون البيوت بدون إذن قضائي ويصادرون بلا سبب الثياب وقطع الأثاث، كما كانوا يدسّون بعض الأشياء الممنوعة كالأسلحة أو غيرها لتكون لهم حجة وسببًا لسجن الموريسكيين، وأما القساوسة فكانوا يغرمون الذين لا يحضرون صلاة الأحد حتى لو كانوا مرضى، ويتولون جمع ضريبة صناعة الحرير ويستغلون هذه المناصب لابتزاز تابعيهم من الموريسكيين(٤٨). وعندما تمت الشكوى من هذه الابتزازات صدرت بعض العقوبات، مثل حادثة خوان دى خونا، قسيس بيرتشوليس، فقد كانت حادثة فريدة ولم يترتب عليها نتائج(٤٩)، بل عندما تنتهى زيارة المفتشين تعود الابتزازات لحالتها الأولى، بل وتزداد. وقبل التمرد كان الموريسكى يعانى من ضغط شديد بأساليب معقدة من الاغتصاب والابتزاز .

* * *

من ناحية الموريسكيين، كان بعض الأفراد لا يطيقون الاستمرار فى ممارسة التقية؛ فيقومون ببعض ردود الأفعال المهددة للأغلبية المسيحية. ويمكن أن تظهر بثلاث صور: الأولى تبدو فى ظاهرها سلمية وهى الهروب إلى شمال إفريقيا. وقد رأينا فى فصل سابق الازدهار الذى شهدته تلك الظاهرة(٥٠). وهذا النزيف كان يقلق السلطات، ليس لأنهم يأسفون لغياب الموريسكيين، لكن لأنهم يعلمون أن المهاجرين سيزيدون من خطر هجمات القراصنة البربر لسواحلنا، وهذه العمليات التى تكررت عشرات المرات خلال القرن السادس عشر، كان يتم الإعداد لها بدقة من تونس أو العرائش وبخاصة من تطوان والجزائر(٥١)، وفى بعض الأحيان تتكون الحملة من بعض السفن الصغيرة وفى أحيان أخرى كانت تشتمل على العديد من السفن الكبرى والمراكب الصغيرة... إلخ، تبعًا لأهمية الهدف. هذا يحتاج أن يكون الهدف معروفًا بوضوح بصورة مسبقة،

وهذا بدوره يحتاج لجهاز استخبارات فعال يحدد الأماكن وحجم القوات التى يمكن أن تعترض طريق الحملة، والموريسكيون هم القادرون على إمداد القراصنة بتلك المعلومات. فعندما كانوا يصلون إلى النقطة المحددة للنزول، فإن تعاون ومشاركة الموريسكيين، اللذين تم الاتفاق عليهما فى السابق، يضمنان نجاح الحملة فى أغلب الأحيان. فمثلاً فى عام ١٥٥٥م، وعندما تم غزو قرية لوكاينينا دى لاس توريس فإن أحد متقدمى السن من الموريسكيين هو الذى دل القراصنة على بيوت أسر المسيحيين الخمسة التى تعيش فى ذلك المكان، وقد اقتيدوا إلى الشاطئ الآخر للبحر المتوسط[٥٢] .

المثال الأكثر وضوحًا ربما ينطبق على الحملة التى تمت فى ٢٦ سبتمبر عام ١٥٦٦م. حيث لدينا وثائق كاملة تسمح لنا برواية الحادثة؛ فقد هرب فى البداية بعض الموريسكيين، أحدهم من تابيرناس ويسمى لويس الحافظى، والثانى من ألمرية ويسمى دييغو ألكانكار حيث وصلوا إلى موستاغانم فى الجزائر والتقيا بموريسكى آخر، وكان مسيحيا مخلصًا وقد وقع فى الأسر، حيث صارحاه بأنهما قد جاءا بإرادتهما فى إحدى المراكب وأنهما قد أتيا ليأخذا أناسًا لمهاجمة غرناطة. ويضيف الشاهد: "واتفقوا مع القراصنة مثل عمدة بيليس على مهاجمة تابيرناس[٥٣]. وبالفعل هاجموا تابيرناس بعدة مئات من البربر الذين نهبوا البلدة وقاموا بأعمال تخريب كبيرة، وشوهوا الكنيسة وأماكن العبادة، وقتلوا أحد المسيحيين وأسروا أربعين، ورحل معهم ما بين ٢٠٠إلى٤٠٠ موريسكى، وبعد القيام بعملية مشابهة فى لوكاينينا والاشتراك فى عملية قتالية مع جنود ألمرية، عادوا فركبوا سفنهم؛ واستمرت العملية يومين .

ويمكن بهذه الطريقة أن نتخيل الخوف الذى كان يسيطر على السكان المسيحيين فى قرى ذات أغلبية موريسكية، وبخاصة أولئك الذين يسكنون فى قرى تبعد بين ٥٠ و٦٠ كيلو متر من الساحل، حيث إن الحملات لا يمكن أن تتوغل أكثر من هذا، وفى حالة توغلها تفقد طابع المفاجأة. وقد تتعرض لرد فعّال من جانب المسيحيين .

إن عدم وجود شبكة تحصينات وحراسة للسواحل فى مملكة فالنسيا حتى عام ١٥٦٠م، وكذلك عدم فاعلية النظام الدفاعى فى مملكة غرناطة وضعت قطاعًا كبيرًا من السكان المسيحيين تحت رحمة حملات القراصنة التى كان يمكن أن تتم فى أية لحظة .

وهذا الوضع كان يسود فى كل شواطئ إسبانيا وحتى الشمال، وقد وصل عدد الأسرى المسيحيين فى أواسط القرن السادس عشر إلى خمسة آلاف فى تطوان، وإن كان يبدو أن هذا الرقم فيه بعض المبالغة؛ لكن بلا شك يعتبر هذا الرقم أقل بكثير عند مقارنته بعدد الموجودين فى الجزائر(٥٤)، وأن صيحة " المسلمين على الشاطئ " كانت تسبب الهلع حتى بداية القرن التاسع عشر .

ظاهرة قطاع الطرق كانت قريبة فى روحها ووسائلها من الحملات البربرية، وقد كانت العلاقة بين هذين النشاطين قريبة جدا لدرجة أن كثيراً من المنفيين كانوا يهربون لشمال إفريقيا حتى يتم نسيانهم، وهناك يطلبون المساعدة أو تجهيز حملة ضد الشواطئ الإسبانية، وعندما حدث غزو تابيرناس فإن ثلاثة عشر من رجال العصابات من سكان تلك القرية، وكانوا قد اتخذوا الكنيسة ملجأ لهم حيث تمتعوا بحرمة وحماية الأماكن المقدسة، ذهبوا جميعًا مع القراصنة إلى شمال إفريقيا . هذا المثال يعلمنا إلى أى درجة كان أولئك الذين اختاروا طريق التمرد المسلح يتمسكون بوسطهم الجغرافى حيث يمدهم بالغذاء والتأييد . لقد كان هؤلاء يمثلون - داخل المجتمع الموريسكى- ظاهرة الرفض الكامل .

وكل هؤلاء عندما كانوا يمارسون نشاطاتهم كانوا يعبرون عن احتجاجهم. فرجال العصابات، مثل الأراغونى السولاى، وبطل الفالنسيين خوان بن سودة، أو ألونسو الخواريقى بطل الغرناطيين، كانوا يقومون بنشاطاتهم على بصيرة وإدراك فيفضلون فى هجومهم القساوسة، ورجال الضرائب، ورجال القضاء، والتجار، أى باختصار رجال المال والسلطة(٥٥)، وإحدى هذه المحاولات التى تمثل هذا الكفاح هى محاولة الاغتيال التى قام بها أحدهم: عروبة، حين حاول اغتيال أسقف توى ، أبيانيدا، رئيس المحكمة العليا فى غرناطة(٥٦)، وقد قام بمحاولته فى قلب العاصمة .

لقد كان رجال العصابات رواداً للشعب الموريسكى، ولهذا فقد اندمجوا فيها عند حدوث الاضطرابات العظيمة الجماعية مثل تمرد عام ١٥٦٨م، ولا نعرف الظروف والأحوال التى دفعت المنفيين ورجال العصابات وغيرهم لتبنى هذه الصورة من

النشاط، لكن يمكن أن نفترض - كنقطة بداية - عدم تمكن هؤلاء الأفراد من إسكات وإخفاء الكراهية التى يحملونها فى صدورهم .

ومن ناحية أخرى فإن ممارسة التقية تعنى تحكمًا كاملاً ودقيقًا للإنسان على نفسه أمام استفزازات المسيحيين الدائمة ، وبصورة تلقائية ينتهى الأمر بأحدهم أن يعلن بطريقة وحشية قناعاته العميقة، ونظرًا لخوفه من محاكم التفتيش ينطلق [يهرب] إلى الجبل .

كذلك هناك علاقة بين ظاهرة قطَّاع الطرق وبين حالات العنف الفردى الشائعة ؛ ففى جلسة لمحاكم التفتيش، عقدت فى غرناطة فى ١٧ نوفمبر عام ١٥٦٠م مثل خيرونيمو مارتين، أحد سكان كورتيس لأنه سرق وحطم تمثالاً لعذراء الكنيسة، وديبغو حامير، أحد سكان كوغويوس لأنه حطم صليبًا[٥٧] وفى إقليم كوينكا يوجد الكثير من الحالات التى يمثل فيها الموريسكيون أمام محاكم التفتيش لاعتدائهم على مسيحيين أثناء إنشادهم قطعًا شعرية هزلية تسخر منهم، وفى ديثا سرق أحد الموريسكيين لوحة زيتية من القماش تمثل آلام المسيح على الصليب وقام بحرقها[٥٨] .

هذه الأمثلة الأخيرة تبين لنا إلى أى مدى كان من السهل الانتقال من حالة تمرد فردى إلى تمرد جماعى، ونعلم أن تمرد الغرناطيين عام ١٥٦٨م لم يكن نتيجة مشاعر فجائية، بل يجب أن يعتبر جزءًا من سلسلة طويلة من الأحداث نفسها، والتى نظرًا لتكرارها كانت تعطى أسبابًا للاعتقاد بالشائعات التى كانت تدور حول مؤامرات. وبين تلك المؤامرات والحوادث التى سبق ذكرها: تمرد غرناطة عامى ١٥٠٠-١٥٠٢م، وفالنسيا١٥٢٥- ١٥٢٦م، وإشبيلية عام ١٥٨٠م، وفى أحيان أخرى لم يصل الأمر للتمرد العلنى الظاهر، ولكن أظهر الموريسكيون احتجاجًا شديدًا كشف عن التوتر الموجود فى النفوس؛ مثال ذلك ما حدث فى مايو ١٥٦٧م حينما ذهب الأسقف إلى تورتوسا للوعظ فى بال دى أوكسو، واستقبله السكان ببرود، وأعلنوا له أنهم ليسوا نصارى، مما أدى إلى اقتياد عدد من زعمائهم أمام محكمة التفتيش[٥٩] .

فى أراغون وقعت أحداث كهذه انتهت بهرب المسيحى المُهدَّد[٦٠]. فى غرناطة فى مايو ١٥١٢م كان هناك فريق من المسيحيين يتألف من ٢٠ إلى ٣٠ شخصًا يقوده محام ومحضر، وكانوا يقومون بجولات ليلية فى البيازين يشتمون فيها الموريسكيين، ويرمون الأبواب والشبابيك بالحجارة وقد كاد يسبب هذا الأمر تمردًا كبيرًا[٦١]. وقد تجددت الفوضى فى يناير عام ١٥١٤م. بسبب مواعظ أحد الرهبان وقد اعتقلت السلطات الشخصيات الرئيسية[٦٢] .

وتتشابه هذه الأحداث مع أحداث من نوع آخر، مثلما حدث فى باثا فى أغسطس ١٥٢٠م، وفى هويسكار من سبتمبر عام ١٥٢٠م إلى فبراير عام ١٥٢١م، ولم تتمكن السلطات من معرفة تلك الأحداث بوضوح وإن كان قد اتهم فيها الكثير من الموريسكيين، وقد اضطرت القوات الملكية خلالها إلى محاصرة مدينة هويسكار[٦٣] .

أما فى ملقة فقد حذرت البلدية الملك من أنه قد حدثت محاولة لإحداث تمرد فى قرى الموريسكيين فى غرب مملكة غرناطة وذلك فى يناير ١٥٢٩م[٦٤] .

وفى منطقة الحامة التابعة لإقليم ألمرية تمردت أربع قرى عند اكتشافهم اغتيال أحد المواطنين، وقاموا بقتل أربعة من الجنود وذلك فى يناير ١٥٦٧م[٦٥]؛ لكن يجب أن ننبه إلى أنه فى هذا الحادث كما فى غيره كان الضجيج أكبر بكثير من الأحداث. وهذا ما يجعلنا نفكر كثيرًا .

وعلى الرغم من أننا لم نتوسع فى ضرب الأمثلة، فإن ترتيبها الزمنى يبدو معبرًا، ويؤكد طبيعة التيارات الكبرى التى وضحناها فى مكان آخر. لقد ارتفع التوتر فى الفترتين (١٥١٠-١٥١٥) (١٥٢٥-١٥٢٩م)، وبعد ذلك فإن قلق الفالنسيين والغرناطيين عام ١٥٦٧م عبر عن أزمة الستينيات التى تطورت إلى تمرد عام فى ١٥٦٨م، ووصل فيه الفريقان إلى النقطة التى لا عودة بعدها. ونريد أن نؤكد من جديد على فترة الهدوء فى (١٥٢٥-١٥٥٥م)، وإن سياسة الاحتواء عن طريق الاقتناع لا تكفى لتفسيرها ، بل يجب أن نستعين - لتفسير ذلك - بمحاولات الترابط ونشاط الحمائم .

* * *

إن أكثر المدافعين عن الموريسكيين حماسًا هم السادة، والذين اجتهدوا خلال القرن السادس عشر فى الدفاع عن تابعيهم، وكان نشاطهم فى أكثر الأحوال فعالاً، فقد استطاعوا فى أكثر من مرة إلغاء الإجراءات التى كانت تهدد الأقلية. وقد أثبتت كراسكو أورغويتى كيف أن السادة الأراغونيين عارضوا بنجاح إجراء نزع سلاح الموريسكيين عام ١٥٩٩م[٦٦]، وفى عام ١٥٥٨م أصدر رجال محاكم التفتيش فى سرقسطة قرارًا يحرم المسيحيين الجدد من حق الاجتماع، فقام العديد من السادة منهم فرانسيس دى أرينيو ، سيد أوسيرا، وخيرونيمو دى إيمبرون، سيد باربوليس، وخوان دى هيريديا، سيد بوثورتيا ...إلخ، وشكوا استغلال قضاة محاكم التفتيش السيئ لصلاحيتها. وفى مارس عام ١٥٥٩م أعلن كل من السادة الدوق لبياهيرموسا، وكونت أراندا وخيرونيمو دى إيمبرون معارضتهم للائحة نزع السلاح، وفى النهاية تم إلغاء القرار، وعندما أعيد وضع هذا القرار عام ١٥٧٥م ووضع من جديد موضع التطبيق، واجه رجال التنفيذ الملكيين عدم رغبة ثلاثة من كبار السادة: دوق بياهيرموسا، وكونت أراندا، وفرانسيس دى أرينيو[٦٧]. (كان كونت أراندا يمتلك ١٨ قرية، تزيد مساحتها على ٩٤٠٠٠ هكتار) .

كذلك فإن السادة فى فالنسيا وغرناطة كانوا يتصرفون بالطريقة نفسها وتقرير إيستبان ديل رينكون، الذى ذكرناه سابقًا، يعتبر صفحة اتهام كبيرة ضدهم " إن السبب الرئيسى فى تمرد هذه المملكة (غرناطة) (إذا تركنا الزى واللغة والتى كانت فرصة وليست سببًا)، كان هو المعروف الكبير والتسهيلات الواسعة التى قدمها لهم السادة أبناء هذه الأرض، حيث يتواطئون معهم ويطلقون سراحهم بعد ارتكابهم لجرائم كبيرة..." وأحد الاتهامات الكبرى التى كانت توجه للسادة هى قبولهم لوجود رجال العصابات فى أراضيهم؛ ففى مملكة فالنسيا يمثل سانشو دى كاردونا، أميرال أراغون، المثال الأكثر وضوحًا لحماية الموريسكيين، وقد دفع ثمن نشاطه لصالح الموريسكيين أن مثُل أمام محكمة التفتيش عام ١٥٧٠م وأُدين، وعند تتبع سير المحاكمة يُكشف لنا أنه منح الموريسكيين مكانًا يؤدون فيه الصلاة ، ووافق على إصلاح مسجد قديم مخرب فى أدثانيتا[٦٨]، كما ثبت عليه أنه كان يعطى ككثير من النبلاء،

تصريح مرور لمن يرغب فى الهجرة إلى شمال إفريقيا(*). ولهذا فإن قرية مثل مورلا، من أملاك كونت أوليبا، عانت من قلة السكان ثلاث مرات خلال ثلاث سنوات وذلك بسبب الهجرة(٦٩) .

كانت محاكم التفتيش على علم بكل هذا، ولهذا جاء فى محاكمة السيد سانشو " إن هيئة هذه المحكمة قد فهمت من طرق عديدة ما يقوم به السادة الذين لديهم تابعون موريسكيون وما يقدمونه لهم من تسهيلات ... لهذا وجب إصدار تعليمات إصلاحية فى هذا الشأن" (٧٠) ومن المعروف أن النبلاء لم تكن لديهم أى رغبة تبشيرية: ففى عام ١٥٤٢م اصطدم سانشو دى كاردونا مع قسيس بال دى ألكالا لرغبة الأخير فى إجبار الموريسكيين على حضور الصلاة؛ وكان ينصح الموريسكيين فيقول: "تظاهروا بالمسيحية، وفى الداخل كونوا مسلمين" ويحكى الراهب ماركوس دى غوادالاخارا: أنه عند حدوث التنصير الاجتماعى عام ١٥٢٦م، فإن مدجنى قرية ماريا دى أويربا رفضوا التعميد، إلى أن أرسل لهم سيدهم رسولاً أقنعهم بهذا قائلاً:" على أن يكون القلب لمحمد"(٧١). لكن أيضًا يوجد استثناءات، مثل دوق بياهيرموسا الذى كان مشغولاً بتنصير حقيقى لتابعيه وهو مؤلف رسالة" تعليمات للتقوى" وقد وجهها للقساوسة الذين يعملون فى القرى التى تقع داخل أملاكه، ومحتوى الرسالة يعدد التعليمات التى من وجهة نظره تؤدى إلى تنصير حقيقى .

ومن الخطأ تفسير موقف السادة على أنه فقط علامة على تفهمهم لمشاكل الأقلية. لقد كانوا هم ورجال إدارتهم يهمهم حماية الموريسكيين. وقد أوضح هلبرين أن الشروط المفروضة على التابعين الموريسكيين كانت أقسى وأشد من تلك المفروضة على المسيحيين، لقد كانت أيام عملهم أكثر، كما كانوا يدفعون ضرائب أكثر، فمثلاً الموريسكيون فى كارليت كانوا هم فقط يدفعون ضريبة على الماشية وعلى الفاكهة

(*) ورد الملف الكامل لقضية سانشو كاردونا فى كتاب غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" الذى ترجمناه وصدر عن المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣ . (المراجع)

ويجب أن يسلموا السيد الأخشاب التى يريدها، وأن يعملوا فى مزارع عنبه بأسعار منخفضة، وأن يبيعوا له البيض والماعز بسعر أقل من سعر السوق(٧٢) .

وفى كثير من الأحيان كان يجب على الفلاح الموريسكى أن يدفع ضرائب ورثها بسبب وضعه الاجتماعى القديم كمسلم؛ فحتى عام ١٥٨٠م كانوا يدفعون لدوق سيغوربى ضريبة تسمى ضريبة المسجد، وفى النهاية كان كل ذلك فرصة لفرض ضرائب استثنائية عليهم، ففى عام ١٥٧٦م حصل حاكم وادى غواداليست على ١٨٠٠ دوقية مقابل وساطته التى جنبت الموريسكيين التعرض لحملة تنصير جديدة(٧٣) .

هذه الابتزازات لم تكن تمر دائمًا دون احتجاج، فالقرى الموريسكية الواقعة فى دائرة كل من ماركيز سينيت وماركيز لوس فيليس كانت تقيم دعاوى قضائية دائمة ضد سادتهم، لكن فى النهاية يتراضى الطرفان، فمقابل الفائدة التى يحصل عليها السادة يدفعون حماية تؤدى إلى احتفاظ الأقلية بهويتها ٠ ففى أراغون كان هناك سبب آخر ثانوى يمكن أن يفسر هذه الطريقة من التعايش وهو المحافظة على الامتيازات الإقطاعية حيث إن معركة الاحتواء الموجهة إلى الموريسكيين كانت تديرها هيئات وطنية [أى غير محلية] وكنسية وكانت تريد الاستيلاء على سلطات الهيئات الإقليمية المحلية .

يبرز بين المدافعين عن الموريسكيين أسرة ميندوثا، وكانت تمتلك منصب القائد العام لغرناطة، وهذه الأسرة تستحق منا اهتمامًا خاصًا لسببين: أولهما: كثرة المصادر التى تتحدث عن تاريخها، والسبب الثانى: أن أفراد هذه الأسرة كانوا من كبار رجال الدولة فى مملكة غرناطة. أما أملاكهم فى المملكة فقد كانت محدودة جدا وتقتصر على قرية ألماياتى(٧٤) القريبة من بيليث التابعة لمالقة، ولم يتردد السيد إينيغو لوبيث دى ميندوثا فى التعبير عن مشاعره لصالح الموريسكيين، والمذكور هو الماركيز الأول من الأسرة، وكان لديه أيضًا لقب كونت .

لقد عارض بقوة اللائحة الملكية الصادرة فى ٢٩ يوليو عام ١٥١٣م حول زى المرأة الموريسكية فقال: لقد شاع بين العامة كما يقال إنه قد صدر قرار من جلالتكم يقضى بمنع كل امرأة مرتدة من ارتداء زيها الأصلى الموريسكى، وهذا الأمر من الواجب أن

يتم بموافقة المجلس الأعلى؛ لهذا أقول لكم من باب الإخلاص فى خدمتكم ولأخلاقى، ولأننى ترعرعت مع هؤلاء الناس لا أستطيع أن أسكت دون أن أصارحكم برأيى وبالآثار السلبية التى يمكن أن تنتج عن هذا القرار"(٧٥) .

هذه المقدمة تعطينا فكرة تقريبية حول اللهجة الحاسمة والطريقة التى قام بها مؤلف الخطاب وعمره ٧١ عامًا حيث يؤكد حججه لصالح الموريسكيين. وفى خطاب آخر مكتوب فى أكتوبر ١٥٠٩م وموجه لابنه لويس يوضح سياسته نحو الموريسكيين فيقول: "ما كتبته إليكم (إلى الأسقف الجديد) كان الهدف منه أن أناشده أن يسير مع المسيحيين الجدد بطريقة الأسقف السابق (إيرناندو دى تالابيرا)... ففيما يتعلق به وبى يكون فى عدم توجيه نقد لاذع إليهم بأنهم قد أخطأوا وإنما المطلوب أن تقول لهم وتأمرهم بما يجب عليهم أن يفعلوه. إنهم أناس من النوع الراقى ويتميزون بالطاعة حيث لو تم نقدهم فسوف يثير ذلك غيرتهم وغضبهم ... إن الشعوب لا يمكن أن تحب من تخافه"(٧٦) .

لقد تابع السيد لويس، الماركيز الثانى لمونديخار، منذ عام ١٥١٥م سياسة أبيه وقد تحول إلى محام عن الموريسكيين أمام كارلوس الخامس، عندما أقام فى غرناطة عام ١٥٢٦م. ولقد عارض السياسة القمعية التى كانت محل قبول من محاكم التفتيش مرتين: عندما عقد مجلس طليطلة عام ١٥٣٨م، وعندما حاول الحصول على عفو عام للغرناطيين عام ١٥٤٣م. لقد كان من مؤيدى العفو عنهم دون اعتراف بجريمتهم، على عكس ما كانت تشترط محاكم التفتيش. وقد أشار المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش إلى موقفه فى خطاب للإمبراطور قائلاً: " وإذا كانت سلطة الذين يتبنون هذا الموقف كبيرة فإننا نرغب فى معرفة الدوافع التى تحركهم"(٧٧). مات السيد لويس عام ١٥٦٥م إلا أنه كان قد أشرك ابنه إينيغو فى نشاطاته منذ عام ١٥٤٠م وعندما تحول الابن إلى الماركيز الثالث لمونديخار تعرض لحملة اعتداءات من جانب رجال الإدارة، وكان يسمع رأيه قليلاً ومع ذلك لم يتخاذل، وقد كتب فى فبراير ١٥٦٩م تقريراً، وإن كان يعترف فيه بخطورة التمرد، فقد دعا فيه أيضاً إلى حسن معاملة الأطفال والنساء وكل

أولئك الذين لم يحملوا السلاح، وكذلك الذين لم يرتكبوا جرائم ذات وزن. وبصورة خاصة كان يفرق بين الذين تمردوا فجأة وبين الذين أجبروا على التمرد :"أولئك الذين تم دفعهم للتمرد من المفيد معاملتهم برحمة"(٧٨)، وحتى بعد إبعاده عن مسرح العمليات عاد وكتب للسكرتير الملكى باثكيت دى سالاثار فى ١١ أغسطس عام ١٥٦٩م قائلاً: "أود أن أعلم سيادتكم أننى ما زلت على رأيى فى أنه يجب إنهاء هذا الصراع بطريقة سياسية ولا حربية، وحتى فى حالة اتخاذ الطريق الآخر فإننى أعارض الطريق المتخذ الآن"(٧٩)، لكن عندما كتب هذه الكلمات كان قد تحول إلى رجل معزول لا يشاركه أحد من المسيحيين رأيه هذا .

ويوجد أيضًا بين الموريسكيين من أعلن إخلاصه دون تحفظات وقبل كل شيء يجب أن نقول إنه كان لحملات التنصير بعض الأثر. وإذا كانت حالات المسيحيين الذين أعجبهم الإسلام تعتبر حالات استثنائية(٨٠) فإن عدداً ليس بالقليل من الموريسكيين يمكن أن نؤكد أنهم كانوا مسيحيين فعلاً: ت. هلبرين ذكر بعض الأمثلة(٨١): ألونسو كورنيخو، من سكان غايبيل فى مرتفعات إيسبادان، وقد أثرت فيه إحدى المواعظ، وبالتسار ألاكوا، ابن لأحد الفقهاء، وقد تنصَّر بعد سماعه بعض مواعظ البطريرك ريبرا، ولقد ذكرنا سابقًا حالة موريسكيين من كامبودى كريبتانا حيث تنصرا وتزوجا من مسيحيات على الرغم من مقاطعة أبناء جنسهم ويمكن لقائمة المتنصرين عن اقتناع أن تطول .

وسنرى عند حدوث النفى أن بعضهم يموت شهداء مسيحيين، وهذه الظاهرة تكثر فى النساء، وفى المناطق التى يكون فيها الاحتكاك شديداً(*) .

(*) هذه الفقرة تتعارض تمامًا مع ما انتهت إليه أبحاث مؤتمر عُقد فى تونس بعنوان "العائلة الموريسكية : النساء والأطفال" إذ أكدت الأبحاث دور المرأة الموريسكية فى الحفاظ على الهوية الإسلامية. من ناحية أخرى كان التعامل بين المسيحيين والموريسكيين يؤدى إلى إسلام المسيحيين أو على الأقل تعاطفهم مع المسلمين، وهذا ما يفسر رغبة السلطات الإسبانية فى منع وجود الموريسكيين فى مناطق معينة. (المراجع)

وهذا الأمر التقطه ثيربانتيس فى الفصل الرائع حول الموريسكى ريكوتى، وزوجته فرانسيسكا ريكوتا وابنته لاريكوتا، وقد قام بتصويرهم مسيحيين مخلصين، حيث يقول حول نفسه:" على الرغم من أننى لست مسيحيا لدرجة كبيرة فإنه فىَّ من المسيحية أكثر من الإسلام(*). وأرجو دائماً الرب أن يفتح عينى على الفهم وأن يعرفنى أفضل الطرق لخدمته"[٨٢]، ويجب ألا ننسى أن عائلة ريكوتى هى عائلة قشتالية، ورسم عائلة هكذا فى أراغون أو فالنسيا يمكن أن يبدو أقل احتمالاً .

مع هذا فمن الثابت أن القساوسة من أصل موريسكى كانوا أكثر مما يمكن تصوره. فى إكستريمادورا ذكر إحصاء عام ١٥٩٤م سبعة قساوسة؛ وفى بداية القرن السابع عشر كان قسيس تورتوسا فيليبى بوبيل من أصل موريسكى[٨٣]، ولقد ذكرنا دور الكاهن خوان أندريس، وكان فى السابق فقيهًا لخاطبة، كذلك اليسوعى ألبوتودو فى غرناطة، والسيد توريخوس، قسيس داريكال، ونذكر أيضًا فرانسيسكو لوبيث تاماريد، وقد كان قسيساً فى فيرا، وقد حرق المتمردون منازله فى أنتاس، وسرقوا ممتلكاته من ماشية وغيرها وتقدر بـ ٤٠٠ دوقية[٨٤]، وقد اشترك لوبيث تاماريد مع توريخوس والدكتور مارين فى لجنة التفاوض المسيحية مع الحبقى فى مايو ١٥٧٠م. والدكتور مارين هذا هو شخصية عجيبة، نجده يشترك فى العديد من النشاطات، فهو معلم فى مدرسة كاتدرائية ألمرية، كما أنه كان يتمتع بمكانة كبيرة بين الموريسكيين، وذلك إذا أخذنا فى اعتبارنا كلام مارمول:" والذى كان يحترمه كثيرًا كل موريسكى فى تلك المنطقة"[٨٥]، وهذا التأكيد يتناقض مع ما حدث له فى تابيرناس حيث كان فيها وقت حدوث غزو القراصنة فى ٢٤ سبتمبر عام ١٥٦٦م، وعلى الرغم من أنه لم يتعرض للخطر إلا أن القراصنة استولوا على الأموال التى أودعها إياه راهب الكاتدرائية[٨٦]، وكذلك كانت له مكانة كبيرة لدى السلطات المسيحية، ففى عام ١٥٨٣م يقول أريبالو دى ثواثو عنه:" لا توجد شخصية أخرى فى مستواه خدمت وبنجاح كبير الذين حكموا

(*) يجب ألا ننسى أن كتابات بعض مؤلفى العصر الذهبى فى إسبانيا تميل إلى مجاراة الواقع ومدح العقيدة الكاثوليكية ومهاجمة الإسلام. (المراجع)

المملكة. ونظرًا لمعرفة دوق أركوس والكاردينال بدرو دى ديثا لهذا الأمر فقد كلفوه بكل الأمور المهمة المتعلقة بهذا الجانب، وقد شوَّه هذا شخصيته وكلفه الكثير، وذلك لأن التابعين لدائرة كنيسته يقولون إنه صدر ضده قرار حرمان ... وهو متخصص فى القانون كما أنه رجل كنسى من الطراز الأول، ويعرف بأنه مسيحى مخلص ..."(٨٧) .

نعود فنرى هذه الشخصية عام ١٥٧٣م وهى تعلن استعدادها للتفاوض مع المحارب الشهير الخريقى والذى كان يعرفه منذ سنوات عديدة، بعد ذلك بعدة شهور كلف بمهمة جمع الأموال اللازمة، لفداء سكان كوبياس دى المنصورة والذين أسرهم القراصنة خلال عملية تمت فى نوفمبر ١٥٧٣م. وفى عام ١٥٧٧م شهد فى قضية مراعى منطقة خيرغال لكن عداوة بعض رجال الكنيسة له، وصراحته فى الحديث وعلاقته الودية مع أبناء سلالته سببت له الكثير من المتاعب؛ لهذا فإنه خلال سنة ١٥٧٠م، استدعى للمثول فى دعوتين قضائيتين إحداهما من قبل قريب له مع أحد رجال محاكم التفتيش، والثانية حول موضوع غامض صودرت من أجله ماشية له. وعلى الرغم من أن راهب كاتدرائية ألمرية حاول طرده من المدينة فإنه ظل هناك حتى مات عام ١٦٠٠م، وعمره ثمانون عامًا(٨٨) .

هؤلاء الكنسيون لم يكونوا ينتمون للنخبة الموريسكية ولا للطبقات الكادحة ؛ فالأموال التى كان يملكها مارين كانت متواضعة جدا، والبوتودو كان ينتمى لعائلة من الحدادين وصانعى الغلايات؛ أما توريخوس فكان ينتمى لعائلة من الفلاحين الأثرياء. وكانت عملية الدخول فى السلك الكنسى تهدف إلى رفع وضعهم الاجتماعى، وعلى العكس من ذلك فإن الطبقة الراقية من الموريسكيين لم تقدم قساوسة أو رهبانًا؛ ومع هذا ففى وسطهم نجد عددًا أكبر من المسيحيين المقتنعين، وهذا سببه فى الأصل حملات التنصير المركزة التى كانت توجه لمن اعتيد تسميتهم "الرؤساء"، وكذلك يدخل فى هذا الأمر موقف المسيحيين حيث لم يكونوا يدخلون تلك العائلات فى حملات الاحتقار الموجهة للأقلية. ويجب أن نأخذ فى اعتبارنا أيضًا ذكاء سياسة الملوك، حيث كانوا يوزعون امتيازات على الأشخاص أصحاب المكانة، والذين كان إخلاصهم

مضموناً فقد ذكرنا في مملكة غرناطة عائلة الثغريين وعائلة بلاثيوس، ويمكن أن نذكر آخرين مثل : عائلة فوستيرو، وعائلة لوبيث كايبونا، وعائلة نونييث باثان، وعائلة مولاى[٨٩] ... فهل حدث الشيء نفسه في مملكة فالنسيا؟ ت. هالبرين يجيب بالنفي[٩٠]؛ لكن هذا يمثل نوعًا من المخاطرة لأنه في عام ١٥٢٦م لم تشترك النخبة الموريسكية في التمرد وليس من المعقول أنه لم يتم مجازاتها، وأن لا تكون مندمجة بعض الشيء في الطبقة العليا للمجتمع المسيحي. وحالة كوسمى بن عامر لا يمكن أن تكون فريدة من نوعها(*) .

هذا الشخص، الذى ينتمى لعائلة نبيلة وغنية في الوقت نفسه، لعب دوراً عسكريا مهمًا في القضاء على حركة الجماعات[٩١]. لم يشترك في تمرد ١٥٢٦م. ومقابل إخلاصه الشديد اعترفت السلطات المسيحية بأصله النبيل، وبحقه هو وأحفاده في حمل السلاح. وهناك كوسمى آخر ربما يكون حفيداً للأول، اتهمته محاكم التفتيش بالهرطقة، وقام اثنان من السادة المسيحيين بدفع كفالته وهما الأخوان كاروث دى بيلاريغ[٩٢]. وكان نشاط عائلة ابن عامر وصعوباتها لا يختلفان كثيراً عن تلك الطبقات العليا الغرناطية، كتلك التى نراها في حالة عائلة بنيغاس في غرناطة. هذه العائلة تنتمى للأمير سيدى يحيى عمدة ألمرية، وابن عمه الزغل الذى سلم باثا بعد مقاومة استمرت خمسة شهور عام ١٤٨٩م. وبداية من هذا التاريخ. فإن هذه العائلة بأكملها وضعت نفسها تحت خدمة ملوك إسبانيا فغير سيدى يحيى اسمه إلى بدرو دى غرناطة وابنه ألونسو، أصبح عضو مجلس بلدية غرناطة وكبير مترجمى الملك ، كذلك فإن ألونسو الثانى[٩٣]، حفيد سيدى يحيى كان في خدمة الملك، وهذان الأخوان كانا عضوى مجلس بلدية غرناطة وحاكمى لجنة العريف، والجميع تمتعوا برتبة فرسان القديس سانتياغو. ألونسو الثانى كان نائبًا في البرلمان عن غرناطة، ولعب دوراً مهما في تمرد ١٥٦٨م بجانب الماركيز مونديخار في البداية ثم بجانب السيد خوان دى

(*) وردت قضية كوسمى بن عامر في كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" تأليف غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

أوستريا[٩٤] فيما بعد. هذه الأحداث حمّلته نفقات كبيرة وأدت إلى انخفاض واضح فى دخله، عند نهاية الصراع انخفضت ثروته إلى٣ آلاف دوقية سنويا، وهو مبلغ كبير لكنه غير كاف لإعالة منزل كبير كهذا .

فى التاريخ نفسه كان دخل خيرونيمو رينغيفو، شقيق ألونسو، يصل إلى١٠آلاف دوقية، ودخل ابن عمه ألونسو بينغاس دى ألاركون حوالى ١٥ ألف دوقية. وقد تم منحه معاشًا سنويا قدره ٤٠٠ دوقية نظرًا لأنه: " طاعة للأوامر... فى ذلك الصراع أنفق من ماله الخاص"[٩٥] .

وإذا كانت أواصر صداقة بين طبقة النبلاء الموريسكية والمسيحية أمرًا لا شك فيه، فبقى أن نناقش قضية العلاقة بين النبلاء الموريسكيين، وبطريقة أوسع كل المعاونين للنصارى مع الشعب الموريسيكى كافة .

مما لا شك فيه أن جسور الصداقة لم تنقطع أبدًا. صحيح أن بعضهم مثل لوبيث تاماريد وألبوتودو والثغريين قد عانوا من انتقام المتمردين، وذلك لأن حماسهم فى الاندماج مع المسيحيين والرغبة فى نسيان أصولهم دفعاهم لتبنى مواقف متطرفة، لكن هذه الحالات تعتبر شذوذًا عن القاعدة؛ ولهذا يجب أن تقرأ من جديد وساطات فرانثيسكو نونيث مولاى والذى يعتبر إخلاصه واضحاً واستقامته لا يمكن أن توضع محل شك[٩٦]، فخلال حياته التى استغلها جيدًا وبخاصة فى العشرينيات والستينيات وضع كل إمكانياته فى خدمة الموريسكيين، وأما السيد ألونسو دى غراغادا بينيغاس فقد عانى من هجوم سافر من جانب الإداريين بالطريقة نفسها التى عانى منها ماركيز مونديخار، وقد اتهمه السيد بدرو دى ديثا فى خطاب موجه للكاردينال إسبينوسا بأنه أمر بضرب ثلاثة من المسيحيين القدامى بالسياط[٩٧]، ويجب أن نتذكر أمل الغرناطيين الكبير فى العودة لأرضهم عام ١٥٧٧م، ألم يقال لهم إن السيد ألونسو سيتوسط شخصيا عند الملك؟ وعلى ضوء هذا الحدث يجب أن نقيم وزن هذا الشخص، وقد رأينا كيف أن معلم المدرسة مارين ظل مرتبطًا باستمرار بأبناء سلالته، أما أبناء عامر فقد وجهت إليهم عام ١٥٦٧م تهمة العمل على أن يحتفظ الموريسكيون بإيمانهم الحقيقى ويظلوا مسلمين[٩٨] .

حدث آخر يقودنا فى الطريق نفسه : اكتشاف مجموعة من المخطوطات فى غرناطة عام ١٥٨٨م وعام ١٥٩٥م فى جبل غرناطة وأماكن أخرى، والتى يؤكد فيها أن عيسى ليس ابنًا لله. وقد ثبت أن هذا التزييف هو جزء من حملة توفيقية (وليست الوحيدة) بين المسيحية والإسلام. ومن المحتمل أن يكون مؤلفوها: ألونسو ديل ألكاستيو وميغيل دى لونا، وهم ينتمون إلى فريق المعتدلين والمتعاونين مع المسيحيين[٩٩]؛ لهذا لنا الحق فى أن نفكر بأن المعتدلين سواء من المسيحيين أو الموريسكيين، ينتمون للطبقة الراقية، وبلا شك كان لديهم أهداف، ولقد لعبوا دورًا مهمًا فى الصراع بين الحضارتين، حيث أعطوا دفعة للتبادل الثقافى، وأخروا خلال الفترة التى كان لهم فيها نفوذ فى الأوساط الحكومية، الحل النهائى. لقد مثلوا - ولوقت طويل - الأمل، كذلك كانوا نموذجًا لنجاح سياسة الاحتواء .

* * *

من الصعب جدا استخراج نتائج من هذا الكم الهائل من معلومات متباينة جدا، وفى كثير من الأحيان متناقضة. هل كان من الممكن حدوث اندماج كامل على المدى البعيد؟ هذا السؤال من المستحيل الإجابة عليه، فالمشكلة كانت معقدة، وكما رأينا فعلى الرغم من أن أساسها دينى، فإن نتائجها تتجاوز ذلك إلى مظاهر اجتماعية واقتصادية وثقافية، والذى كان يسبب الكثير من التوتر، على الرغم من أنه بداية من عصر التنوير فقد خفت حدة المعارضة الدينية كثيرًا .

ولنترك التساؤلات المستقبلية التى لا طائل من ورائها فى موضوع قديم، لكن الشىء الذى يمكن أن نقوله بكل تأكيد هو أن الهيئات لو كانت قد اتخذت موقفًا أكثر تفاهمًا فإن الفروق بين الجماعتين ستكون أقل حدة لدرجة يمكن فيها الوصول إلى معايشة مقبولة كما حدث فى العصور الوسطى. ربما كانت معايشة لا تخلو من الصراعات طبعًا ولكنها ستقوم على التعاون داخل الوطن نفسه، وإذا كان الموريسكيون

قد تضايقوا من الدولة الإسبانية والأشخاص الذين يمثلونها فإنهم لم يتركوا جنسيتهم كإسبان، حتى بعد طردهم من وطنهم .

إن التفاهم والتعاطف نحو العالم الموريسكى كان ميراث أقلية مثقفة جدا ومحدودة العدد، وعند الحديث عن " ابن سراج والحسناء شريفة"، وهى الرواية العظمى ذات الجو الموريسكى، يقول ماركيث بيانوبيا: " فى هذه الجوهرة التى لا تقدر بثمن، والتى اشتق منها نوع أدبى بكامله، يوجد الفصل الأخير من التراث الإسبانى فى العيش بين أصحاب الديانات الثلاث، ويمتزج فيها الحلم الإنسانى حول أخوَّة عالمين؛ لهذا لا يمكن أن نتخيل أفكارًا أكثر معارضة لإسبانيا فى عهد فيليبى الثانى من تلك الأفكار السابقة، والتى كانت شائعة بين الطبقة الأرستقراطية المثقفة وأعضائها الذين لم تتح لهم فرصة التعبير عن آرائهم إلا فى حقل التأليف الأدبى"[١٠٠] .

يجب أن نتوقف عن استخراج نتائج مبالغ فيها من هذه الظاهرة الأدبية[١٠١]، الموجودة بوضوح فى العصر الذهبى فى أدبنا ٠ فبين المسلمين المقدمين بصورة مثالية فى العصور الوسطى والموريسكيين المطاردين فى القرن السادس عشر توجد تلك الهوة التى تفصل بين المثالية الخالصة والحقيقة المجردة. إن الراهب لويس دى ليون الذى مدح " العالم المسلم" كان يحس بعداوة ليس لها حدود نحو الموريسكيين كما أوضح ذلك أثورين: أنه موقف لم يكن يتوقع من صاحب "أنشودة الليلة الهادئة" وهو حفيد لأحد ضحايا محاكم التفتيش[١٠٢]. الأمر نفسه يحدث مع ثيرفانتس حيث لا يتعاطف معهم فى "بيرسيليس" و "حوار بين كلبين". كما تعاطف فى دون كيخوتى. إن محاولات الدفاع التى أظهرتها بعض المدن فى صالح الموريسكيين ولتجنب طردهم كان سببها الخوف من الأضرار الاقتصادية التى سيعانون منها أكثر من كونه مدفوعًا بمشاعر حب لهم وغيرة عليهم من الغير .

وفى الجانب الآخر فإن الفريق الأكثر اندماجًا من الموريسكيين كان يفضل أن يسكن فى أحياء خاصة حيث يتجمع الموريسكيون، وأن يدفن فى مقابرهم التقليدية. وإذا استثنينا بعض الحالات الخاصة جدا، فإن مشاعر الكراهية والمقت كانت عامة،

وفى القرى مختلطة السكان فإن الوشاية والاستهزاء والنكات السخيفة الثقيلة كانت جزءًا من الحياة اليومية(١٠٢)، أما فى مجال الحياة المادية، القائمة على المصالح، فإن خدمات الموريسكيين كانت مقدرة للغاية. ولم تكن العداوة تصل إلى المواجهة بالسلاح. فإن طرد الأقلية لم يكن حدثًا من الصعب تجنبه، كما لم يكن أمرًا إلزاميا من جانب الأغلبية المسيحية، بل لقد كان إجراءً مفروضًا من أعلى وتم قبوله دون حماس، وقد وصل الأمر فى أحيان غير قليلة إلى المقاومة السلبية، وهذا هو التاريخ الذى سنقوم بروايته(*) .

(*) يتبنى المؤلفان موقف ماركيث بيانويبا الذى يشكك فى قضايا كان يتم اعتبارها لا تقبل الجدل. انظر كتاب "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة فى ٢٠٠٥ . (المراجع)

هوامش الفصل السابع

(١) N. Cabrillana : ***Almeria en el siglo XVI***, Moriscos encomendados, R.A.B.M. 1975, p. 41 – 68..

(٢) L. Cardaillac: ***Morisques et Chretiens***...p.14.

(٣) Id. p. 17.

(٤) Id.p. 44.

(٥) id. P. 67.

(٦) id. p.14.

(٧) Marmol Carvajal , op. cit. p. 233.

(٨) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.178, carta de don Pedro de Deza, 18 –X-1576 .

(٩) Cardaillac , op. cit. citando a fray Marcos de Guadalajara : ***Memorable expulsion*** ...folio. 69.

(١٠) Ms. De la A.H citado por Cardaillac.

(١١) Cardaillac, op. cit. p. 46 y ss.

(١٢) حول لوائح نقاء الدم انظر :

A. Dominguez Ortiz : ***Los Judeoconversos en Espana y America*** (Madrid, Istmo, 1971) y , com mas detalle, A. Sicroff : ***Les controverses des statuts de purete de sang en Espagne***. Paris , 1960.

(١٣) إن الأمور التى كان يتم تحريمها بقرارات ملكية كانت قليلة. لكن على العكس فقد تزايد بصورة مطردة عدد النقابات التى تشترط للانضمام إليها أدلة على نقاء الدم. وحول هذه

النقطة انظر المراجع المذكورة فى رقم ١٢. ويبدو أن الأمور العامة التى كان يتم تحريمها، والتى وجدت لها مكانا فى قوانين المملكة، قد صدرت لتمنع عمليات الدعوة (الدينية) التى يمكن ممارستها فى بعض المهن التى تتعامل مع الإنسان فى اللحظات العصيبة من حياته مثل لحظة الميلاد والوفاة.

(١٤) " ...Ideo si tal;is fuerit Sarracenus, merito pronunciari deber nobilis...Secus in descendentibus a Judaeis, ut probabit latissime Otalora..."

Juan Gutierrez : Practicarum quaestionum super prima parte Novae Collectionis ...liber tertius, quaestio 14, Madrid, 1613) .

لقد عبر عن الرأى نفسه كل من أنطونيو أغوستينوغوارديولا وخوان غارثيا ومؤلفون آخرون.

(١٥) Pascual Gayangos : ***Catalogo de los manuscritos espanoles en el Museo Britanico***, t. I, p. 568.

لقد تم إقرار شرط نقاء الدم بالنسبة لأقارب العاملين فى محاكم التفتيش وذلك من خلال أمر اللجنة العليا الذى صدر فى ١٠ أكتوبر عام ١٥٤٦م. لكن عندما اشتكت المجالس البرلمانية الخاصة بإقليم أراغون التى اجتمعت فى بلدية مونثون من وجود كثير من الموريسكيين بها وذلك عام ١٥٤٧م ، تم الرد عليهم بأن أى إنسان تم تعميده ولم يرتد يمكن أن يدخل فيها. لقد كان هذا الموقف المتسامح يمثل حالة خاصة لا يمكن القياس عليها، حيث إنه فى عام ١٥٥٢ أمر القاضى العام لمحاكم التفتيش القضاة الآخرين فى بلنسية ألا يقبلوا تعيين أى فرد يعود نسبه للمسلمين أو اليهود. وقد أصبح هذا الشرط عاما من خلال أمر ملكى صدر فى ١٠ مارس. وإذا كان الملك فيليبى الثانى قد صرح بالفعل عام ١٥٦٥ بأنه يمكن لأقارب الموريسكيين ذوى النفوذ أن يشغلوا هذا المنصب، فقد طبق هذا لفترة قصيرة، حيث تم معاقبة قضاة محاكم التفتيش فى برشلونة لأنهم نفذوا هذا التصريح، ووجهت إليهم الأوامر ألا يعينوا إلا من كان من دماء نقية.

H.Ch.Lea: *The Moriscos of Spain, their conversion and expulsion*, Londres, 1901, pp. 199-200).

(١٦) يمكن بسهولة إعداد دراسة ليست شيقة حول المصائب التى تصيب الذين يرغبون فى دخول السلك الكنسى ولهم أصول إسلامية. وتبعا لمعلوماتى فلم يتم سوى دراسة حالة دون بيدرو

غرناد بينيغاس، حاجب الملكة إيسابل دى بالوس، حيث دخل كل من أبيه وجـده رابطـة سنتياغو، ولكن عندما رغب هو فى دخول رابطة الكانتارا حدثت مناقشات حامية، لأنه فى تلك السنوات وهى الأخيرة فى القرن ١٦، كان يتم التدقيق فى موضوعات نقاء الدم أكثـر من أى وقت مضـى. وقبل أن يسمح له بالانضمام طلب المجلس مثول ٤٩ عالما لاهوتيـا (نعم هى كما قرأها القارئ تسعة وأربعون). وكان أفـضل الآراء هـو الخـاص بـالأب سواريث، وقد سمح له بالانضمام، وتم نشر ذلك الرأى فى:

P.J.A. Aldama. (***Un parecer de Suarez sobre un estatuto de la Orden Militar de Alcantara*** , en " Archivo Teologico Granadino ", XI (1948) pp. 271 – 285).

واستجابة لرغبة أى دارس لهذه الموضوعات فإننى أنصحه بأن يقرأ الاسـتثناء البـابوى الخاص بمولاى خيكى، وهو ابن ملك المغرب. وقد تم تعميـده وسـمى دون فيليبـى دى أوستريا حيث منحه الملك سنتياغو وصية. ونص آخر خاص بالانضمام لرابطة الكانتـارا لشخص له أصول إسلامية، وكذلك لأختين ذواتى أصول ملكية، وذلك للدخول فـى ديـر سنتياغو دى غرناطة. لكن فى عام ١٧١٥، تم رفض طلب دخول دون فيليبى دى أرانـدا سوتومايور لأنه فى غرناطة "كان معروفا للعامة ومشهورا بأنه من أصل إسلامى". ومـع ذلك فإن مجلس الرابطات أضاف أنه لو كان قد استطاع أن يثبت نسبه النبيل ربما كان حل هذه المشكلة بقرار بابوى "مثلما حدث فى حالات مشابهة".

(A.H.N. Consejo de O. Militares, legajo 6.275).

(١٧) Cardaillac, op. cit. p. 67.

(١٨) M. Garcia-Arenal : ***los moriscos y la Inquisicion de Cuenca***, p. 179.

(١٩) Id. p. 167.

(٢٠) Cardaillac, op. cit. pp. 87-99.

(٢١) Id. pp. 88-90.

(٢٢) Id. pp. 56-67 y 153 y ss.

(٢٣) Id. p. 61.

(٢٤) Halperin Donghi: ***Un conflicto Nacional*** ...pp. 58-82.

(٢٥) M. Garcia Arenal, op. cit. 136 y 175.

(٢٦) Halperin Donghi op. cit. p. 82.

(٢٧) B. Vincent : ***l expulsion des morisques***...p. 223.

(٢٨) Halperin Donghi, op. cit. pp.87 y 99.

(٢٩) Id. P. 85.

(٣٠) Cardaillac, op. cit. pp. 66 -67.

(٣١) Marmol . op. cit. pp. 253 y 309.

(٣٢) Archivo de Protocolos de Granada, escribania de Cristobal del Barrio, 1-3-3,

(٣٣) Garcia Arenal , op. cit.

(٣٤) obra citada, pp. 141 y ss.

(٣٥) id. pp. 142 -143

(٣٦) veases supra p. 31

(٣٧) B. Bennassar: ***Valladolid au siecle de Or***. Paris, 1967, pp. 258 y ss.

(٣٨) A.C.G. Apeos, libro de Belicena .

(٣٩) Id. Libro de Atarfe.

(٤٠) M. Garzon Pareja: ***Hernando de Zafra, cortesano y hombre de empresa de los Reyes Catolicos*** (Cuadernos de Estudios Medievales, II-III, pp. 121- 147, Granada , 1974 -1975).

(٤١) A.Ch.G. Apeos, libro de Berchules.

(٤٢) I.V.J. Envio I, p. 174(Cancilleria), p. 103(Peralta), p. 19 (Inquisicion) , envio 8, p. 185(administrador de San Juan de Dios).

(٤٣) Id. Envio I, p. 174.

(٤٤) T. Halperin Donghi, op. cit. pp. 139 y 140 .

(٤٥) I.V.J. Envio I, p. 114.

(٤٦) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.188.

(٤٧) Id. Id. Cedulas, libro 257.

(٤٨) El expediente de las exacciones figura en A.G.S. Camara, cedulas, libro 255.

(٤٩) A.C. Gr. , le. 23, p. 8.

(٥٠) Vease supra, pp. 86-87.

(٥١) راجع ما قلناه فى الفصل الرابع

(٥٢) J.A. Tapia Garrido: ***La costa de los piratas*** (" Reuista de Historia Militar" , 1972, p. 94

(٥٣) I.V.J. Envio 98, fol. 450.

(٥٤) H. de Castries : *Sources inedites de la Histoire de Maroc, Espagne* (Paris, 1921, t. I, p. 115).

(٥٥) إن الشكاوى من أعمال الشغب التى كان يقوم بها الموريسكيون (ليس فقط من قبل رجال العصابات المحترفين، وإنما من قبل آخرين كانوا ينتهزون أى فرصة لينفسوا عن كراهيتهم للمسيحيين) كانت عديدة، وليست دائما دون دليل، وقد حدثت حالات بالفعل، ويجب ألا يثير دهشتنا أن يمارس الغرناطيون المطرودون ذلك بكثرة. وسوف نذكر حالتين: بالقرب من تنديا (فى غوادالخارا) ظهرت جثث ثلاثة رجال مقتولين فى أحد أيام الأعياد. وقد اكتشف أن القتلة كانوا "مجموعة من الموريسكيين الذين تجمعوا ليرتكبوا الكثير من الجرائم فى تلك المنطقة، امتلأت قلوبهم بالغيظ والغضب، ولم يكونوا يتركون حياة أو أموالا".

" فى يوم الثلاثاء ٣١ مارس عام ١٥٧٩م اشتكى بعض السكان فى المجلس الكنسى (لمدينة شريش) أنه نظرا لوجود عدد كبير من هؤلاء الناس (موريسكيين غرناطيين) سواء منهم الأحرار أوالعبيد ، ولوجود آخرين من الخارج تمت معاقبتهم من قبل العدالة العادية أو الكنسية كان يرتكب الكثير من الجرائم. وإن كثيرًا من العبيد هربوا من خلال اتفاقات وأعمال حيلة مع الأجانب الأحرار. وكانوا ينسبون لهم جرائم أخرى كثيرة أكبرها وأهمها أنهم لا يحضرون الصلوات. وقد كتب الراهب إيستيبان رايون التابع لرابطة الخيرونيميين تفاصيل ذلك فى القرن الـ١٦، ولكن لم ينشر ذلك إلا عام ١٨٩٤م.

Rallon, ***Historia de Xerez de la Frontera***, IV, 656).

(٥٦) A.G.S. Estado, le. 141, fol. 281.

(٥٧) A.H.N. Inquisicion, le. 2.603.

(٥٨) Garcia Arenal , op. cit. pp. 175 – 177.

(٥٩) T. Halperin, op. cit. p. 111.

(٦٠) Carrasco Urgoiti : ***El problema morisco a los comienzos del reinado de Felipe II***, Madrid, 1963.

(٦١) A.G.S. Camara de Castilla, cedulas , libro 27, fol. 111.

من الطبيعى أن تؤدى حرب غرناطة إلى زيادة التوترات المتبادلة بين الفريقين، وقد تسببت فى أحداث كانت أحيانا دموية، وذلك مثل الذى حدث فى قريـة أثواغـا التابعـة لإقليـم إكستريمادورا. ففى مارس عام ١٥٧١م هاجم المسيحيون، وهم يهتفون: "سـنتياغو، هيـا إليهم"، خمسين موريسكيا غرناطيا كانوا يقيمون هناك، حيث قتل البعض وجرح الـبعض الآخر. ويبدو أن مدبر هذه العملية – وهو مسيحى – كان قد قتل أخوه فى أثناء الحـرب. وتسببت هذه الأحداث فى معاقبة حاكم القرية مونتيى إليغرى، والعمدة دييغو دى باث.

Pero Perez : ***Moriscos, cuchilladas y Favor a la justicia*** " Revista del Centro de Estudios Extremenos", 1941, pp. 207-220)

(٦٢) A.G.S. Camara, Cedulas , libro 27, fol. 206.

(٦٣) Gutierrez Nieto : ***Las comunidades como movimiento antisenorial.*** Madrid, 1973, p. 210. M. Garzon Pareja y B. Vincent : ***les revoltes populaires dans le royaume de Grenade***(inedito)

(٦٤) Archivo municipal de Malaga, Originales, VI, fol. 326.

(٦٥) I.V.J. Envio I, p. 167.

(٦٦) Op. cit. pp. 48 -67.

(٦٧) A. Ubieto Arteta : ***La tierra en Aragon a principios del siglo de XVI*** (Estudis, 1975, pp. 13 – 24).

(٦٨) T. Halperin, op. cit. p. 96. L. Cardaillac, op. cit. p. 35.

(٦٩) T. Halperin , op. cit. p. 105.

(٧٠) Id. P. 97.

(٧١) Cit. por M.S. Carrasco, op. cit. p. 28.

(٧٢) T. Halperin , op. cit. p. 52.

يحكى الأب بيتشا، وهو الذى كتب تاريخ عائلة ديل إنفانتادو، أنه فى عام ١٥٩٩م، و فى طريق بلنسية عندما وصل الدوق إلى المكان الذى كان محددا ليستقبل فيه الملكة، حيث توجد القرى الموريسكية التابعة له، رفض أن يدفع ثمن الأطعمة على السعر الذى كان خاصا بالقرن السابق، وقد كان هذا هو المعمول به، بل دفعه تبعا للأسعار السارية فى ذلك الحين وقد شكر له رعاياه ذلك كثيرا. انظر أيضا المرجع التالى:

Layna Serrano: ***Guadalajara y sus Mendozas***, III, 325

(٧٣) T. Halperın , op. cıt. p. 54.

(٧٤) E. Menses Garcia: ***Correspondencia del conde de Tendilla***, I, pp. 128 y ss. (Madrıd , 1974).

(٧٥) Id. t. II. pp. 533 -534.

(٧٦) Id. t. I, pp 816 -817.

(٧٧) A.G.S. Patronato Real , le. 28, p. 54.

(٧٨) I.V.J. Envıo I, p. 174.

(٧٩) E. Spivakovsky : ***Un episodio de la guerra contra los moriscos : la perdida del gobierno de la Alhambra por el quinto conde de Tendilla*** (1569) ("Hispania", 1971, p. 419).

(٨٠) لم تتهم محاكم التفتيش الأدميرال دون سانشو دى كاردونا بأنه قد أسلم وإنما اتهموه بأنه لم يعترف ولم ينفذ الشعائر المسيحية لمدة ٢٠ عاما وأنه يتبع فى بعض الأمور مذهب لوثر.

Boronat, op. cit. I , 443 y ss. وفى عام ١٦٠٦م حاكمت محاكم التفتيش أحد المسيحيين القدامى من قرية كوثينتاينا ويدعى فرانسيسكو ديسكالسو بأنه يعيش مسلمًا وأنه كان يغنى ويعزف على العود أناشيد تحض على صيام رمضان. وكان يعيش مع امرأة موريسكية ويتنقل معها بين القرى.

Longas : ***Vida religiosa de los moriscos***, p. 226

أيضا توجد حالة غريبة بها الكثير من التخبط وعدم الثبات الدينى، وقد كان هذا أمرا عاديا فى كثير من قرى إسبانيا، إنها حالة اليهودى المتنصر المتزوج بموريسكية. وقد ذكر ذلك فى المرجع التالى:

Cabezudo Astrain : ***Noticias y documentos sobre moriscos aragoneses***, en M.E.A.H. t.V, p. 107.

(٨١) Op. cit. p. 96.

(٨٢) Franciso Marquez, Villanueva: ***El morisco Ricote o la hispana razon de Estado*** (incluido en ***Personajes y Temas del Quijote***, Madrid, 1975).

تعتبر هذه الدراسة من أفضل الدراسات، كما أن بها بيبلوغرافية واسعة ، تعفينا من التعمق أكثر فى هذه النقطة.

(٨٣) J. Fernandez Nieva: obra citada, p. 155. B. Vincent: ***Les moriques d Estremadure***, p. 440.

(٨٤) A.G.S. Camara de Castilla, el. 2.188.

(٨٥) Op. cit. p. 222.

(٨٦) J.A. Tapia, obra citada p. 97.

(٨٧) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.185.

(٨٨) Id. Id. Le. 2.178 (documentos de 10.2.1576 y 13.4.1576) y le. 2.179 (doc. de 26.1.1577).

(٨٩) A. Dominguez Ortiz : ***Algunos datos sobre moriscos granadinos***. Miscelanea de Estudios dedicados al professor Antonio Marin Ocete (Granada, 1974)

(٩٠) Op. cit. p. 76.

(٩١) R. Garcia Carcel y E. Ciscar Pallares: ***Moriscos e agermanats*** (Valencia, 1974) p. 128.

(٩٢) Boronat, op. cit. t. I, p. 556.

(٩٣) A.M.G. Provisiones, V, fol. 101.

(٩٤) A.G.S. Camara de Castilla, le. 2.171.

(٩٥) Id. id. Cedulas, libro 257, folio 1.

(٩٦) Gallego Burin –Gamir Sandoval , op. cit. p. 190.

(٩٧) I.V.J. Envio I, p.36, documento de 4.VIII.1570.

(٩٨) Boronat, op. cit. t.I, p. 546.

(٩٩) Dario Cabanelas : ***El morisco granadino Alonso del Castillo*** (Granada, 1965)

(١٠٠) الموضوع الرئيسى لقصة ابن سراج هو التسامح الدينى، حيث تنتصر قوة المشاعر على الاختلاف فى الانتماء الدينى. ويبدو أن النموذج الذى احتذته هو الأسرة اليهودية المرتدة الخاصة بخيمنث دى إيمبون الأراغونية.

(١٠١) لكى يمكن فهم ظاهرة "الأعمال الأدبية التى تعالج موضوعات خاصة بالمسلمين" وهو موضوع واسع جدا، ولا نستطيع الدخول فيه، يجب علينا أن نستحضر التضاد الموجود بين المسلم المحارب والكريم والفنان والموريسكى القذر الذى يتكاثر بإفراط والمنحط اجتماعيا. وهذا لا يخص المسلمين فقط، بل توجد حالات مشابهة، فمثلا الإغريقى الكلاسيكى الذى كان موضع إعجاب الرومانيين الذين كانوا يحتقرون ذريته المنحطة. والحقيقة أننا مازلنا فى حاجة إلى مرجع رئيسى حول هذا الموضوع، لكن يمكن مراجعة أعمال مثل:

Cirot : ***La maurophilie literaire en Espagne au XVI siecle***, " Bulletin Hispanque", 1938 – 1940

Soledad Carrasco : ***El moro de Granada en la literatura***, Madrid, 1956.

Jose Fradejas : ***Musulmanes y moriscos en el teatro de Calderon***. "Tamuda" , 1957.

El romancero morisco (" Cuadernos de la Biblioteca Espanola de Tetuan 1964).

(١٠٢) كان فراى لويس لا يذكرهم إلا ويصفهم بالكفار أو الزنادقة. وإن المقطوعة الشعرية الموجهة لسنتياغو والتى أهداها لدون بيدرو بورتكاريرا ذات لهجة معادية بوضوح للموريسكيين الثائرين.

(١٠٣) "لقد كان بإمكان أى مسيحى أن يجعلهم يبقون لعدة أيام دون أن يشربوا الماء، ويكفى لذلك أن يلطخ نبع الماء بقليل من شحم الخنزير... وكانت تلك المقالب كثيرة ومؤلمة ويفعلونها فيهم كل يوم". Fonesca, Junta expulsion....libro II, cap. 2.

الفصل الثامن

المقدمات السابقة على الطرد

فى عام ١٥٩٨م أصبح فيليبى الثالث ملكًا بعد أبيه فيليبى الثانى، ولقد كان الملك الجديد مختلفًا كثيرًا عن سابقه، فقد رحَل ملك مستبد ذو إرادة قوية وقدرة كبيرة على العمل، وحل محله ملك لين يميل إلى السلام ومن السهل التأثير فيه.

كان تديُّن فيليبى الثانى من النوع القتالى العنيف الذى يتناسب مع حب السلطة ويرتكز على قناعة فى أن الله أسلم له مسئولية الكنيسة من حيث إنها مؤسسة دنيوية، أما تديُّن ابنه فكان مثل تديُّن الكثيرين من عائلات القرن السادس عشر الإسبانية، عاطفيا ودون محتوى فكرى، ويقتصر ذلك على قيامه بأعمال الشعائر التعبدية الظاهرية فحسب.

ولم تُجد قيود المجالس البرلمانية للحد من ظهور فرق دينية جديدة صدى كبيراً لأن الملك نفسه كان يدعم المؤسسات الجديدة، فاليسوعيون الذين لم يستطيعوا خلال عهد الملك السابق أن يقضوا على نظرات الشك التى كان يوجهها لهم البلاط، تمتعوا منذ عام ١٥٩٨م بامتيازات واسعة ودون حدود، وهذه الاستعدادات لدى الملك كانت تقويها تصرفات الملكة مارغريتا دى أوستريا، التى كان لها الموقف نفسه فى الشئون الدينية.

فى الحكم الملكى الاستبدادى يكون القرار الأخير دائمًا بيد الملك. يجب أن ندرس بعمق نفسية فيليبى الثالث، ونعرف النفوذ الذى كان يُمارَس عليه؛ لنفهم سبب إصداره

قرار الطرد(*) الذى تراجع والده أمام خطورته. ويجب على الذين يرون فى فيليبى الثانى ملكًا متشبثًا برأيه ومتطرفًا دينيا أن يفسروا: لماذا عامل الموريسكيين بقسوة أقل من ابنه الذى ينسبون اللين إليه .

ومما يزيد الأمر غموضًا أن الرجل الذى تمتع بثقة فيليبى الثالث - وكان هو الحاكم الفعلى للمملكة خلال تلك السنوات حيث تنازل الملك عديم الأهلية عمليا عن وظائفه له - وهو فرانثيسكو غومث دى ساندوبال ماركيز دينيا، ودوق ليرما، كان يعرف المشكلة بعمق حيث كان سيداً لرعايا كثيرين من هذا الجنس، وكان هو المتحدث الرسمى للنبلاء الفالنسيين الذين كانوا يعارضون قرار الطرد(**).

إذن فالموضوع معقد جدا، وذلك لتعدد العوامل المؤثرة فيه، ولأنه على الرغم من وجود كثير من الوثائق الثابتة ومن الدرجة الأولى لدينا، فإن الأسباب الحقيقية التى جعلت الملك يميل فى النهاية لهذا الحل المفجع لا تزال غير واضحة، وربما لن تتضح أبدًا لأنه يجب البحث عنها فى أحاديث الملك مع الأشخاص المقربين له جدا، ومثل هذه الأحاديث لا تترك أثرًا ويصعب معرفتها، لكننا على الرغم من عدم قدرتنا على تفسير أسباب الطرد بطريقة مقنعة يمكننا أن نحدد بشىء من الدقة بعض الأحداث.

لقد اتُخذ القرار النهائى بعد عشر سنوات من التردد، وخلال تلك الفترة تعارضت واختلفت كثير من الآراء، وينبغى أن نلغى إمكانية أن يكون ضغط الرأى العام هو السبب؛ فالحقيقة أن الرأى العام وإن كان فى غير صالح الموريسكيين، لكننا لا نجد طلبات كثيرة تنادى بالطرد سواء فى أرشيفات المجالس النيابية أو فى أدب تلك الفترة. فقد كان المطلوب أن يوضع حل لبعض المشاكل وأن يعاقب قطّاع الطرق،

(*) نعلم أن النبلاء كانوا يعارضون قرار الطرد لأسباب اقتصادية، ونعلم أن البطريرك ريبيرا لم يكن يؤيد ذلك القرار، ويقول المؤلف هنا إن جهةً ما مارست ضغوطًا على فيليبى الثالث لكى يُصدر القرار. ما هى هذه الجهة إذن ؟ هل كانت هناك جهات أخرى ذات نفوذ غير الكنيسة والنبلاء والملك؟ (المراجع)

(**) كان من المسلم به فى السابق اعتبار أن دوق ليرما كان وراء اتخاذ قرار الطرد، وإذا كان المؤلف ينفى هذه المعلومة فإن حيرة الباحث تزداد: من الذى أوعز إلى فيليبى الثالث أن يتخذ القرار ؟ (المراجع)

وأن يُمنع الموريسكيون من بعض الحرف... إلخ، أما طلبات الطرد فقد كانت قليلة تقدم بها بعض أشخاص فقط.

كانت مسئولية الكنيسة فى هذا الموضوع دائمًا موضع نقاش - نظرًا لأن ذلك الإجراء قد برر فى جانب منه بأسباب دينية - كما أن تقارير وطلبات بعض رجال الكنيسة يتوقع أن يكون لها تأثير كبير، ومن غير المعقول التقليل من أهمية دور بعض هؤلاء وخاصة البطريرك (ريبيرا) رئيس أساقفة فالنسيا(*) كما سنرى فى الصفحات التالية، وكذلك يأتى فى المقام الثانى رجل الدين (بليدا) الذى سنكتب عنه بعض السطور لنبين من خلالها العوائق التى واجهها ممثلو الجانب غير المتسامح.

والراهب الدومينيكى خايمى بليدا مؤلف كتاب "تاريخ المسلمين فى إسبانيا" Coronica de los Moros de España الذى طبع فى فالنسيا عام ١٦١٨م، كان قد كلف من جانب ريبيرا بالعمل فى كنيسة كوربيرا، وهى قرية موريسكية، وإذا كان فى ذلك الوقت قد تشبع بتلك المشاعر التى وردت فى كتبه، فقد كان اختياره إذن غير موفق، ويمكننا أن نفترض ما يلى: ربما يكون قد توجه إلى تلك القرية وهو يأمل فى الحصول على بعض النتائج الطيبة لحملته التبشيرية، وعندما لم يتحقق له ذلك تولدت فى قلبه كراهية لا يمكن أن تكون ذات أصل إنجيلى.

ومنذ أن تولى فيليبى الثالث العرش زاد بليدا من تقاريره ومن زياراته للملك ولرجل ثقته، وكان يحاول إقناعهما بضرورة إصدار قرار طرد فورى وكامل للموريسكيين، لكنه وجد فى معظم زياراته للهيئات الملكية حماسًا قليلاً لفكرته، بل وأكثر من هذا فعندما رغب فى ترجمة أحد أعماله للإسبانية أخبره المراقب (الأب لويس دى لابوينتى) بأن ذلك غير مناسب. وفى العديد من فصول كتابه المذكور[١]؛ يتحدث باستفاضة عن فشل مساعيه بين مدريد وروما، حيث لم ترفض حججه لإعلان هرطقة جميع الموريسكيين فقط، بل مُنع من العودة إلى روما ومن الخروج من ديره..

(*) يرى ماركيث بيانويبا أن ريبيرا لم يكن مؤيدًا لقرار الطرد. (المراجع)

لكنه مع ذلك عاد إلى روما، وكان يبدو أنه فى هذه المرة يقوم بمهمة رسمية للحصول على تأييد البابا بولس الخامس لهذا الإجراء، وقام بتلك الزيارة قبل الطرد بقليل .

لكن مشاورات محاكم التفتيش فى روما أوقفت بأمر من البابا بولس الخامس الذى لم يوافق على القرار، بل نصح بدلاً من ذلك ولآخر لحظة بمتابعة عملية تنصير الموريسكيين، وهذا ما أثبته بيريث بوستامنتى. وفى عام ١٦١١م أمر بحذف فقرتين من كتاب فونيسكا(*): فى الفقرة الأولى ورد أن البابا رفض استقبال اللاجئين فى بلاده، أما فى الفقرة الثانية فيفترض أنه قد وافق على قرار الطرد نظراً لأن ذلك الإجراء لم يبلغ به حتى أصبح موضع التنفيذ(٢).

ويبدو بدهيا أن فكرة الطرد لم تنبع من الكنيسة – وإن كان هناك بعض رجالها من كبار مؤيدى ذلك الإجراء – ويمكن اعتبار بعضهم مسئولاً أو مشاركًا فى ذلك القرار، ولكن لم يكن كل رجال الدين مؤيدين للقرار؛ لأنهم كانوا سيكسبون القليل ويفقدون الكثير.. وحتى رجال محاكم التفتيش– وهم السوط الرهيب المسلط على ظهور ذلك الشعب الموريسكى المسكين – كانوا يعلمون أن رواتبهم ستنخفض بطريقة محسوسة(**) عندما لا يوجد ضحايا يتغذون عليهم.. ويجوز لنا أن نظن أنه ليست الأسباب المادية فقط، بل واللاهوتية هى التى جعلت الرئيس العام لمحاكم التفتيش (نونيو دى غيبارا) يميل لإلغاء اقتراح (بليدا) الذى كان يرغب فى إدانة شاملة للشعب الموريسكى.

وعلى العكس يمكن أن يكون تدين الملكة مارغريتا المريض قد أثر بشكل حاسم فى عواطف الملك المتردد فلقد مدحها رئيس دير سان أغسطين فى موعظة جنائزية بقوله إن

(*) لم يكن حذف فقرات من الكتب عشوائيا، فقد حذفت فقرات أيضًا من مذكرة نونييث مولاى (راجع باروخا) ولم يستطع أورتادو دى مندوثا نشر كتابه إلا بعد مرور عشرين عامًا على ثورة البيازين (راجع باروخا أيضًا) هل بعد كل ذلك يمكن أن نطمئن إلى كتابات القرن السادس عشر فى إسبانيا ؟ (المراجع)

(**) من المعلوم أن محكمة التفتيش كان تمويلها ذاتيا؛ إذ كان القضاة وممثلو الادعاء يتقاضون رواتبهم من الأموال المصادرة من الموريسكيين، فإذا طرد الموريسكيون – وهم غالبية "الزبائن" – فسينخفض دخل المحاكم بشكل ملموس. (المراجع)

"الكراهية المقدسة" تجاه الموريسكيين هى التى دفعت الملكة إلى أن تحاول "تنفيذ أكبر مهمة عاشتها إسبانيا، حيث إن المنفعة التى كان يحصل عليها السادة من أولئك الملعونين كانت سبباً فى مقاومتهم لفكرة الطرد، وإذا كانت قد انتصرت فكرة الطرد فبفضل ملكتنا الرشيدة " (٣).

إن الرغبة فى البحث عن تفسيرات بعيدة عن الأشخاص أدَّت فى القرن الماضى إلى اعتبارات قائمة على اعتبار الكاثوليكية شيئًا جوهريا فى ذات إسبانيا، التى كان عليها أن تلفظ من داخلها ذلك الجسم الغريب المكون من أقلية كافرة، والبقية الأخيرة من الإسلام المهزوم.. ولا أعتقد أن هناك حاجة لدحض هذه النظرية وتفنيدها بجميع أبعادها؛ فهى زائفة جذريا فى شكلها، وإن كان فى مضمونها شيء من الحقيقة.

لقد جرى البحث حديثًا عن أسباب ذات طابع اقتصادى واجتماعى لتبرير الطرد، ولكن من المستحيل الحديث عن ضغط ناتج عن زيادة كبيرة فى عدد السكان وخاصة بعد انتشار الوباء فى أعوام ١٥٩٧-١٦٠٢م ، والذى أدى إلى ندرة الأيدى العاملة فى إسبانيا كلها، وقد تمت معالجة هذا باستقدام أيد عاملة لإسبانيا.

والخلاصة أن هذه النظرية التى قال بها "لابيرى" وتابعة فيها "ألفارو كاستيو"(٤) يمكن أن تنطبق إلى حد ما على مملكة فالنسيا، حيث كان وقع الوباء عليها قليلاً، وحيث تم فعلاً إثبات منافسة فى العمل بين الموريسكيين والمسيحيين، وكان سبب ذلك الأيدى العاملة الرخيصة الموريسكية. لكننا نعرف أن المنافسة فى العمل بين الشعبين كانت قديمة وليست لأسباب خاصة بالعمل فقط، وليس لدىَّ مانع من قبول القول بوجود كراهية شعبية نحو الأقلية الموريسكية فى مملكة فالنسيا، وأن الطرد قد وجد هناك قبولاً من قطاعات واسعة ذات نفوذ، ولكن الوضع لم يكن مماثلاً فى باقى الأقاليم، كما أن الحجج والدوافع- التى كانت موضع تداول فى المجالس الاستشارية التى سبقت الطرد – لم تكن تدور حول ذلك، ولم يكن للرغبة الشعبية فيها وزن كبير، حيث إن أغلب أعضائها من الأرستقراطيين.

ومن الحقيقة أيضًا أنه خلال فترة ازدهار واضح لطبقة النبلاء (وذلك ما يتميز به حكم فيليبى الثالث) فإن مصالح الطبقات العليا ينبغى أن تكون قد وضعت موضع اهتمام أكبر وذلك تبعًا لوجهة نظرى الخاصة، وهذا يدحض نظرية ريغلا الذى يرى فى الطرد ظاهرة مرتبطة بالصراع بين الأرستقراطية والبورجوازية[٥] ... وإن كان ذلك المؤرخ العظيم الذى عرف عنه الوعى قد استدرك فى هذه الناحية فجعلها مجرد احتمال وليس فرضية أو نظرية.. ثم كيف لم يتوقع البورجوازيون الفالنسيون (وهم الذين يشير لهم ريغلا) أن أضرار الطرد، وإن كانت ستؤثر فى المقام الأول على الأرستقراطيين، فإن آثارها ستصل لهم أيضًا؟.. كيف يمكن أن نتصور أن فى القرارات الملكية تتغلب رغبة البورجوازيين على رأى الشخصيات ذات النفوذ فى المملكة.

رأى فيليبى الثالث لابد أن يكون قد تأثر برأى دوق ليرما (والذى على ما يبدو كان متذبذبًا)(*) كما تأثر برأى الملكة وهى مؤيدة للطرد، وبعض كبار رجال الكنيسة الذين كانوا يؤيدون هذا الإجراء.. بينما لم يكن لنشاط الكثيرين الرافضين منهم لذلك القرار أو غير المبالين به الفعالية نفسها، بالإضافة إلى ذلك فإنه لابد أن يكون للآراء ذات الطابع السياسى والعسكرى- التى كان يمثلها مجلس الدولة تأثير أيضًا، والذى كان فيه دائمًا العديد من الآراء المتباينة التى تميل نحو حل نهائى حاسم لأسباب أمنية قومية(**).

عند وصولنا لهذه النقطة يجب أن نعود مرة أخرى إلى الثورة الموريسكية عام ١٥٦٨م، والتى كان لها أهمية كبرى، نظرًا لما ترتب عليها من نتائج.. ففى المقام الأول أدى تشتيت الغرناطيين فى قشتالة كلها، إلى إيقاظ مشاعر جماعات كثيرة من السكان فى تلك المناطق التى كانت حتى تلك اللحظة تتميز بالعفوية واللامبالاة، ثم إن تطور الصراع وشدته واستمراره لوقت طويل، بالإضافة إلى مخاوف تعقد الموقف

(*) هذا يتناقض مع ما ذكره المؤلف منذ قليل: كان دوق ليرما متحدثًا باسم النبلاء وكان النبلاء يعارضون طرد الموريسكيين. (المراجع)

(**) حتى الأسباب الأمنية لم يكن لها أصل حقيقى، كان القادة يعلمون مدى استحالة قيام الأتراك بتقديم العون للموريسكيين من الناحية العملية. (المراجع)

بتدخل أجنبى.. كل ذلك أظهر أمرًا كان غائبًا عن الأذهان وهو أن بقاء القوات النظامية مشغولة بمهام خارج الحدود، وإسناد مهمة الدفاع لميليشيات وفرق صغيرة مؤقتة جعل الدفاع متردياً، وبولغ فى الخوف من إمكانية ذلك الطابور الخامس.. فمثلاً عندما سرى الخبر بأن الإنجليز كانوا يحاولون الاستيلاء على قادش عام ١٥٩٥م وجهت أوامر حاسمة للموريسكيين الإشبيليين بحظر التجول، ولم يكن هناك قوة ولا رغبة عندهم لمساعدة انقلاب أو تدخل خارجي، وقد جرى مثل هذا فى المناطق القشتالية كلها، لكن الوضع فى أراغون وفالنسيا كان مختلفًا؛ فقد كانت حدود جبال البرانس موضع قلق منذ أن وجد فى المحور الشمالى مركزًا للثورة البروتستانتية، وبخاصة عندما تولى إينريكى الرابع عرش فرنسا الذى كان معروفًا برغباته غير الودية مع إسبانيا.

أما فى فالنسيا المهددة بصورة قليلة فإن إمكانية نزول الأسطول العثمانى لم يكن محتملاً وإن كان ممكنًا، حيث كان يكفى إنزال كميات من السلاح حتى تتحول المنطقة إلى بؤرة مقاومة مزعجة فى حالة غزو أجنبى، فالموريسكيون لا يستطيعون شيئًا بأنفسهم، وأما عندما تتم مساعدتهم من الخارج فيمكن حينذاك أن يتحولوا إلى خطر(*)، وعلى الأقل فإن هذا ما توهمه الأعضاء المؤثرون فى مجلس الدولة.. وأغلب المؤلفين أجمعوا على أن هذا الأمر كان أحد العوامل التى أثرت ساعة اتخاذ القرار.

مثل هذه الطريقة من التعليل لا تحل المشكلة من أصولها.. فإذا كانت الأقلية الموريسكية تثير الشكوك والمخاوف فذلك لأنها اعتبرت غير قابلة للاندماج، وليس من المفيد مناقشة أن حقيقة هذا الأمر هكذا أو لأن السبب فى ذلك يعود إلى الموريسكيين، أو كان يرجع إلى المسيحيين. وفى حقيقة الأمر فإن جزءًا من الشعب الإسبانى(**) قليل فى مجموعه، كثير فى بعض الأقاليم، كان يُعتبر إسبانيًّا أصيلاً، وذلك لأسباب كثيرة وعميقة، حيث إن جذوره متغلغلة فى الأرض، وكذلك لبعض القيم الثقافية الأولية..

(*) راجع الملاحظة السابقة. (المراجع)

(**) يتحدث عن المسلمين. (المراجع)

لقد قدم كثير منهم أدلة ممتازة على إسبانيته عند الطرد.. لكن هذه الفئة لم تكن تعتبر مندمجة في مجتمع لم يكن يزداد في كل يوم غرابة عنها، بل تجاوز ذلك إلى المطاردة لها. وكان من الصعب على تلك الأقلية أن تشعر بالولاء لملك يرعى الجهاز القمعي كله، بداية من محاكم التفتيش- وهي محاكم كانت تخضع في المقام الأول للسلطة الملكية على الرغم من طابعها الكنسي- إلى غير ذلك من أجهزة القمع.

إن عدم التضامن السياسي لم يكن إلا مظهراً من عدم التضامن الاجتماعي؛ الذي جعل من الموريسكيين أقلية مهمشة ومطاردة. وإن كان السبب الأساسي لتهميشها دينيا- وحول هذا الأصل الديني كان يدور كل شيء له علاقة بالذات أو بطريقة الحياة بصورة قوية، الأمر الذي جعل المبشرين يرون في ترك نساء موريسكيات ثيابهن التقليدية تقدمًا كبيراً. والذين يرون في الموريسكي مثالاً أصيلاً لأقلية ذات طابع اجتماعي وثقافي وغير عنصري، لديهم حق في ذلك، مثل العلامة براوديل حيث قال" إن إسبانيا طردت الموريسكيين قبل كل شيء لأنهم ظلوا غير قابلين للاحتواء، وليس بسبب العداوة لجنس بل لحضارة ودين، وانفجار هذه العداوة في صورة الطرد هو اعتراف بعجزها. والدليل على ذلك أن الموريسكي بعد قرن واثنين وثلاثة ظل هو المسلم المعروف بثيابه ودينه ولغته ومسكنه المحكم الإغلاق وحمامه... لقد احتفظ بكل شيء وأدار للغرب ظهره، وهذا هو الأمر الأساسي في الموضوع. توجد بعض الأمثلة الاستثنائية وذلك على المستوى الديني كذلك فإن ارتداء بعض سكان المدن من الموريسكيين ثياب المسيحيين كان يتزايد من يوم لآخر؛ لكن هذا لا يؤثر في أصل الموضوع شيئًا. فقد ظل الموريسكي مرتبطًا بعالم كبير يمتد إلى تلك البلاد البعيدة في فارس، " وقد كانوا في إسبانيا على وعي بهذا" حيث تتطابق العادات والمنازل التي تنبثق عن عقائد واحدة. كان هناك العديد من الحلول للمشكلة الموريسكية، وقد اختارت إسبانيا الأسلوب الأكثر تطرفًا وهو اقتلاع تلك الشجرة من التراب"(٦).

هذا الكلام يبدو جميلاً وصحيحًا، ولكنه يحتاج إلى تحديد لمعناه، فمن المغامرة الحديث عن الموريسكي بشكل عام ويتم تناسي أن هناك كثيراً من الفروق المعتبرة بين

الأفراد والجماعات. لقد كان هناك فرق كبير جدا بين الفرناطيين القدامى الذين أبعدوا عن أرضهم وبين جماعات المدجنين القدامى فى قشتالة، وكذلك بين أهل مرسية الذين أمكن احتواؤهم تقريبًا وبين الفالنسيين الذين لم يغيروا عادة واحدة، وكذلك بين من نسى لغته وبين من لا يزال يحتفظ بها، ومنهم من كان يعيش غارقًا فى جو من الكراهية المتبادلة، ومنهم من لديه علاقات ودية مع المسيحيين. وكذلك يجب أن نحصر علاقات الموريسكيين مع العالم الإسلامى الموجود خارج شبه الجزيرة فى حجمها الحقيقى، وسنرى فى فصل آخر كيف أن الموريسكيين المطرودين لم يحتاجوا للذهاب إلى فارس كى يحسوا بأنهم فى بيئتهم، لقد كان كافيًا بالنسبة لهم عبور المضيق كى ينتقلوا إلى عالم مختلف؛ وقد تأخروا فى تعلم عاداته كما تركوا فيه آثارًا عميقة تدل على ثقافتهم الإسبانية، إن مأساة الموريسكى (وكذلك اليهودى المتنصر) أنه أحس بأنه منقسم بين ثقافتين منجذب لكليهما وغير مقبول من أى واحدة منهما(*).

إنها مشاكل تتعلق بالأقليات وبالصراع بين الحضارات. حيث نجد أنفسنا بعيدين تمامًا عن مجال تفيد فيه القرارات الفردية. ومع ذلك ففى علم التاريخ لا يمكن الاستغناء عن الفرد كعنصر أساسى للأحداث، فهو الذى يغير ويعدِّل - أحيانًا بطريقة جوهرية - فى عمل التيارات العميقة. ومن الصحيح أن التيارات الحديثة(**) قد حولت المعايشة الصعبة نسبيا، أو الصعبة جدا الخاصة بالعصور الوسطى واتبعت سياسة مطلقة وغير متسامحة وهذا يسهل فهم كيفية وصول المشكلة الموريسكية لذلك الحل القاسى. وبين هذا وبين أن نعتبر أن الطرد مثل نهاية لا مفر منها لعملية تطور يوجد فرق كبير.

لقد كان فيليبى الثانى يعيش فى ظروف مماثلة بل وأقل تسامحًا من تلك التى عاشها فيليبى الثالث، ومع ذلك لم يتجرأ على اتخاذ القرار، ويمكن أن نؤكد أنه لو ورث

(*) لا نتفق مع المؤلف فى هذا الرأى، فالموريسكى كان موضع ترحيب فى البلاد الإسلامية التى هاجر إليها، ففى مصر مثلاً اندمج الموريسكى تمامًا فى المجتمع، وفى تونس كان موضع رعاية أبى الغيث القشاش وغيره. (المراجع)

(**) يتحدث هنا عن تكوين الدولة الحديثة فى إسبانيا اعتباراً من القرن السادس عشر. (المراجع)

فيليبى الرابع المشكلة لم يكن ليتجرأ أيضًا على اتخاذ القرار، ويؤكد هذا نتيجة دراسة بعض أعماله وعن طريق النقد الذى وجِّه أثناء حكمه لذلك الإجراء. الطرد لم يكن إذن أمرًا مفروضًا من قبل الحركة الديناميكية الداخلية التاريخية على الرغم من كل التفسيرات والتبريرات التى يربطونه بها.. لقد كان قرارًا تقع مسئوليته على فيليبى الثالث والشخصيات المحيطة به فقط. وأعتقد أن هذه الاعتبارات العامة ستساعد على تقييمنا للأحداث السابقة للطرد، وسنحاول بطريقة مختصرة أن نشرح الخطوات الرئيسية :

ما إن توج فيليبى الثالث ملكًا حتى توجه إلى مملكة فالنسيا، فاستضافه رجله المفضل ماركيز دنيا، وعقد زواجه على الملكة مارغريتا عام ١٥٩٩م. ومما لا شك فيه أنه قد تكونت لديه معلومات مباشرة عن المشكلة الموريسكية خلال رحلته، وذلك من خلال الأحاديث الطويلة التى كان يجريها مع الأشخاص الذين يرافقونه.

وعلى الرغم من الاستشارة المشهورة التى سبق أن أجريت عام ١٥٨٢م حول هذه المسألة وكانت تعتبر تهديداً كبيرًا للتجمع الموريسكى، فإن حصيلتها لم تكن تعنى الطرد لأن الملك كتب خطابًا إلى رئيس أساقفة فالنسيا خوان دى ريبيرا[٧] فى ٢٣ مايو عام ١٥٩٩م أى بعد نهاية زيارته لفالنسيا، وقد وجهه فى ذلك الخطاب بتعليمات حول عمليات التبشير حيث أمره بتعيين قساوسة فى الأماكن التى تفتقر إليهم، والبحث عن وعاظ يصلحون لهذه المهمة، وطبع الكتب التى تعلِّم العقيدة التى كان قد ألفها[٧مكرر]، وقد أمر كل بارون أو نبيل ذلك بأن يعين كل منهم فى دائرته معلمين ويدفعوا رواتبهم، وأن يأخذ جزءًا من الضرائب[٨] الأميرية المقررة على الدخول الكنسية التى كان من حق الملك التصرف فيها، مبلغًا مقداره ستون ألف جنيه[٩] وتخصص للمدرسة التى أنشأها جده فى المدينة للمتنصرين كما أمر بإنشاء جمعية أخوية لبنات المرتدين لتجهيزهم للخدمة فى الأديرة كراهبات، وفى منازل المسيحيين، وقال: "أطلب منكم أنتم مع نواب الملك ونسائهم فى مدينتى هذه فالنسيا أن تذهبوا وتحضروا الصلاة المقدسة".

من هذا التقرير نفهم أن الملك لم يكن يفكر فى الطرد بعد نهاية جولته فى فالنسيا، بل كان يعد خططاً على المدى البعيد للحصول على تبشير أكثر فعالية، وهى وجهة نظر يشاركه فيها رجله المفضل وصديقه الذى لا ينفصل عنه.

وإتماماً لما سبق فقد أصدر الملك أمراً للرئيس العام لمحاكم التفتيش بإصدار عفو جديد فى يوليو فى ذلك العام، وقال الأسقف دى أورى أويلا السيد خوسيه استيبان إنه وصل إلى نتائج إيجابية فى دائرته الكنسية - وإن كانت نسبتها قليلة - فقد تنصر ٨٤ موريسكيا عن اقتناع، وأبدلت ملابس النساء الموريسكيات بملابس أخرى مشابهة للمسيحيات(١٠).

وعلى العكس من ذلك فإن البطريرك ريبيرا أحس بالفشل نظراً للنتائج المؤسفة لمواعظه، فقد كانت نتائجها معاكسة وربما كان هو السبب فى ذلك. فقد كان الوعاظ - إلى جانب النصيحة والموعظة - يضيفون خلال كلامهم تهديدات لأولئك الذين لا يرتدُّون عن اقتناع خلال فترة العفو، ولقد اتضح حتى لأعضاء لجنة الشئون الموريسكية(١١) فى مدريد أن كراهية البطريرك مفرطة، ولهذا ليس من الغريب أن يغضب الموريسكيون، ويقوم بعضهم بمحاولة تآمر جديدة، ويقاوم بالسلاح فى انتظار مساندة خارجية من المحتمل أن تكون كاذبة وخادعة قد لا تفيد، إلا فى استعجال ضياع الموريسكيين، لأن مثل هذه الأمور التى يتدخل فيها أناس كثيرون لا يمكن أن تظل موضع الكتمان.

أما العلاقات مع ملك فرنسا فهى التى كانت تقلق بصورة أكبر مجلس الدولة الذى كان ينظر إلى هذا الموضوع من ناحية سياسة وعسكرية.

وقد أوضح دانبيلا بحق الفرق بين هذه الاستشارات التى كان يجريها هذا الجهاز العالى، حيث نصح فى عام ١٥٩٩م بأن "يحكم على الموريسكيين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٦٠ عاماً بالعمل فى السفن ومصادرة أموالهم .. والرجال فوق الـ ٦٠ والنساء يرسلون إلى شمال إفريقيا، والأطفال يسلمون إلى الأديرة ". وبين مواقف كبار رجال الكنيسة "التى كانت تختلف عن ذلك، وتتناسب بصورة أكبر مع اعتبارات التقوى والرحمة التى يجب أن تميز مجالس رجال الكاثوليكية"(١٢).

ويؤكد دانبيلا أن الدعوة إلى تعليم العقيدة المسيحية وقرار العفو، وقرارات أخرى مشابهة كانت تصل من كل من مدريد وروما . بينما كان رأى الأساقفة منقسمًا على نفسه، فرأى ريبيرا يبدو فى كل مرة أكثر تشددًا كما أنه أكثر وزنًا؛ لأنه أصبح منذ بداية ديسمبر عام ١٦٠٢م وحتى عام ١٦٠٤م نائبًا للملك فى فالنسيا بجانب كونه رئيس الأساقفة فيها . وعلى هذا الأساس فإن الفروق بين آراء رجال الدين والمدنيين التى يعرضها علينا دانبيلا لا تعكس آراء حازمة بل آراء متغيرة، فهى خليط من المواقف، وقد بدا ذلك واضحًا فى اجتماع مجلس الدولة فى ١٩ فبراير عام ١٦٠٠م إذ حدث تغير تام وذلك من خلال الميل إلى الاعتدال وذلك انطلاقًا من الإجراءات التى يراها ريبيرا؛ والذى كان يكفيه إبعاد "فقهاء ورجال العقيدة الإسلامية"، واقتصار فترة العفو التى صدرت فى روما على عام واحد بدلاً من عامين. كما أمر المجلس بتعطيل قرارات ريبيرا التى أحدثت قلقًا لدى الموريسكيين، وأن يُعقد اجتماع كنسى على مستوى المحافظة لوضع خطة تبشير للموريسكيين.. كما نصح بتجهيز ميليشيات لقمع أى تمرد، وفى النهاية وضع اقتراحًا ذا أساس لاهوتى مهم؛ وهو أن مشكلة الموريسكيين تبدو فى التعامل الخاطئ مع أفراد على افتراض أنهم مسيحيون مع أنهم ليسوا كذلك، لهذا يبدو منطقيا أن يؤجل تعميد الأطفال حتى يصلوا إلى سن يمكنهم فيه أن يقرروا قبولهم الذاتى بذلك، وهذا الاقتراح لم يكن له أى صدى، فقد ظل التهديد بالطرد – لمن يقرر رفضه التعميد – إجراء مفسدًا لحرية الاختيار.

بدأ القرن الجديد بدقات لناقوس قرية "بيلِيًّا" Velilla عام (١٦٠١). ففى هذه القرية الصغيرة الموجودة فى سرقسطة كان يوجد ناقوس يقال عنه: إنه يدق أحيانًا دون تدخل إنسانى وذلك ليعلن عن اقتراب أحداث كبيرة، وفى أكثر الأحوال تكون سيئة أكثر من كونها طيبة، وقام كل فريق بترجمة ذلك الحدث تبعًا لاهتماماته، وقد رأى فيه أعداء الموريسكيين تحذيرًا من السماء.

وقام رئيس الأساقفة ريبيرا بتكثيف جهوده فى هذا المجال، وتبعًا لرأى ماركيث بيانوبيا كان لريبيرا التأثير الأكبر فى قرار الطرد، حيث يقول: " إن التقريرين اللذين أرسلهما ريبيرا كانا حاسمين فى تاريخ الطرد[١٣]. أولهما مكتوب فى أواخر عام ١٦٠١م

يؤكد فيه عناد الموريسكيين وتماديهم فى الغى، بالإضافة إلى الخطر الذى يمثلونه، ويؤكد فى نهايته أنه إذا لم يتم طردهم فسوف أرى بنفسى ضياع إسبانيا". وفى الثانى (يناير ١٦٠٢م) يصر على طلب الطرد لأنهم (هراطقة مصرين، كما أنهم خونة للملك)[١٤].

فى هذا الخطاب يضع تقسيماً غريباً وعجيباً وغير معقول. فبينما كان حتى تلك اللحظة يتحدث بصفة رئيسية عن الموريسكيين فى فالنسيا فقط، لأنهم فى الحقيقة كانوا (والأراغونيين بدرجة أقل) هم الذين يمكن أن ينتظر منهم صدور حركات خطيرة، فى هذه الوثيقة يطلب اتخاذ إجراءات أكثر تشدداً بحق الموريسكيين الأحرار الذين يعيشون فى الأملاك الأميرية وبخاصة الذين لا يتبعون سيداً؛ فبالنسبة لهؤلاء يقترح أن يتم نفيهم، ما عدا أولئك الذين يرغب الملك فى الاستفادة من خدماتهم سواء فى التجديف فى السفن، أو العمل فى المناجم فى أمريكا، ويمكن القيام بهذا دون أدنى تأنيب من الضمير.

وعلى العكس من ذلك تكون حالة أولئك التابعين للسادة (وهم تقريباً كل الفالنسيين والأراغونيين) فيجب الاحتفاظ بهم ومنعهم من الثورة، ويبدو التناقض واضحاً فى هذا الموقف لأول وهلة، ويمكن إرجاعه إلى الضغوط التى تمارسها الطبقات العليا الفالنسية على البطريرك، وكذلك لقناعته بالنتائج التى سيسببها ذلك الإجراء المرغوب فيه والمخاف منه.

ربما كان هدف التقرير الثانى هو توجيه الضربة التى تدفع نتائج الاستشارة التى قام بها مجلس الدولة قبل ذلك بقليل فى الثالث من يناير عام ١٦٠٢م، حيث كان يسود فيه جو الانطباع الحادث من فشل حملة الجزائر، والتى حاول القيام بها- مستخدماً إمكانيات ضخمة - الأميرالاى خوان أندريا دوريا، ولقد اشترك فى تلك الجلسة السيد خوان إيدياكيس الذى كان يجب أن يساعد الحملة من الموانئ الإسبانية، واضطر للتراجع نظراً للحالة السيئة للبحر، كما حضر الجلسة نفسها دوق ليرما، وكونت ميراندا، والقسيس الملكى الراهب غاسبار دى كوردوبا، حيث تم اقتراح إجراء الطرد العام وأن

يبدءوا بالفالنسيين، (وإذا كان ممكنًا فمن الأفضل أن يرحل معهم موريسكيو أراغون بسبب الاتصالات التى كانت لهم مع الفرنسيين، وقد اقترح كل من إيدياكيس وكونت ميراند أن يتم إرسالهم إلى شمال إفريقيا مع الإبقاء على أبنائهم الصغار. أما ليرما والقسيس الملكى فقد بدا لهما أن هذا الأمر رهيبًا، فطردهم مع أنهم معمدون يعنى إجبارهم على أن يكونوا مسلمين). واعتقدوا أنه يجب إبلاغ البابا بهذا القرار قبل أن ينفذ، بالإضافة إلى خوفهما من ثورة مسلحة. يبدو من ذلك بوضوح عدم ميل ليرما إلى قرار الطرد؛ فهو لا يعلن معارضته، ولكنه يضع عوائق ويبحث إرجاءات ويتبعه فى ذلك القسيس، وبكل تأكيد فهو أحد صنائعه مثل كل الذين يحيطون بالملك. وعلى الرغم من أن فيليبى الثالث أجاب قائلاً: " إذا أمكن طردهم دون تأنيب الضمير فإنى أعتقد أن ذلك سيكون أفضل حل". إلا أنه لم يتم تنفيذ أى شىء[١٥]. "ومن البديهى أن الانتقال إلى التطبيق يحدث إزعاجًا واضحًا حتى بين نفس الذين اقترحوا ذلك الإجراء على الورق، وكذلك لا يمكن أن ينفى وجود مجموعة كبيرة ذات رأى معتدل"[١٦].

وفى النهاية فإن تأخير تنفيذ إجراء قاس ضد الموريسكيين والذى كان يبدو محتملاً جدا فى السنوات الأولى من الحكم يجب أن يُنسَب إلى رجل الملك المفضل وصاحبه فى الحكم المطلق، وهذا الرجل كان لديه من النفوذ ما سمح له بإقناع الملك بأن يترك مدريد ويجعل مقر البلاط فى بلد الوليد، لإبعاده عن نفوذ بعض الناس، وكذلك ليكون قريبًا من ليرما حيث كان هو الذى يقرر فى كل الأمور المهمة.

وفى عام ١٦٠٤م ذهب الملك معه إلى فالنسيا من أجل عقد المجالس الملكية، وكان يرغب فى أن يتم ذلك فى بلده دينيا، وقد عقدت فى فالنسيا أخيرًا ولم يذكر الموريسكيون إلا فى موضع واحد من قرارات تلك المجالس، ولم يكن من أجل إصدار قرار الطرد، بل كان، من أجل الاحتجاج بأن الأموال الموجهة إلى الكنائس المنشأة عام ١٥٧٢م، قد صرفتها الإدارة فى أعمال أخرى[١٧]، ولم يرغب الملك فى الحديث مع ريبيرا حول هذا الموضوع، فى الوقت الذى استقبل فيه الملك أسقف سيغوربى فيليثيانو دى فيغيروا "وهو مدافع قوى عن بقاء الموريسكيين كما يقول بليدا.

وفى ذلك العام مات قسيس الملك، وحل محله الراهب دييغو دى ماردونيس. وقد كلف القسيس الجديد للملك الكاتب بدرو دى فالنسيا بكتابة تقرير عن المشكلة الموريسكية لم يتم طبعه حتى الآن[١٨]، وهو تقرير مطوَّل ويمكن اختصار محتواه فى نقاط جوهرية تحدد بدقة الرأى المعتدل الذى كان له بالتأكيد مؤيدون أكثر، ولكن كالعادة فإن المتطرفين والمتحمسين يثيرون ضجيجاً أكثر. إنه يعترف بأن الموريسكيين بصورة عامة مسلمون ويقومون بكل ما يستطيعون ليتميزوا عن المسيحيين. "ولا يفتخرون إلا بشعبهم وأمتهم وهذا يتم عندما يظهرون فى صورة مسلمين، ويفقدون هذا التمييز عند حدوث العكس". ويعتقدون أن إسبانيا هى وطنهم وأنهم ينتمون إليها، وأنهم يتضررون كثيراً عند حرمانهم من حق المواطنة وشرفه، وانشقاقهم يمثل خطراً كبيراً، ويقول: " إن أمة لا يمكن أن تكون واثقة من أمنها إذا لم يحبها كل مواطنيها ويعملون على إنقاذها والمحافظة عليها، ثم يحكى الشكاوى المعتادة حول تزايدهم فيقول: " إنهم لا يموتون فى الحرب ولا يذهبون إلى الهند، ولا يدخلون السلك الكنسى الذى يمنع الفرد من أن يكون له أبناء". وهناك سبب آخر لكثرتهم هو أنهم على العكس من المسيحيين – الذين يتركون الكثير من بناتهم دون زواج – بسبب عدم مقدرتهم على دفع صداق مرتفع – أما هم فيدفعون مهوراً معتدلة، وبعد أن يعدد النقاط غير المناسبة لوجودهم يبدأ باقتراح حلول لمشكلتهم، وهى بصورة عامة حلول معتدلة مثل: تقسيمهم إلى جماعات صغيرة، وبوسائل لينة، لمساعدتهم على نسيان عاداتهم وعقائدهم، وباختصار: ممارسة سياسة احتواء أو إدماج، وهى سهلة فى الاقتراح وصعبة فى التنفيذ.

داخل الأحداث المهمة التى تميزت بها تلك السنوات؛ يجب أن نشير إلى تعليمات البابا الموجزة فى مايو عام ١٦٠٦م لرئيس أساقفة فالنسيا والتابعين له، فيغيروا (لسيغوربى) وبالاغير (لاورى أويلا)، ولبيدرو مانريكى، باعتباره أسقفاً لتورتوسا فهو يتبع تاراغونا، ونظراً لأن جزءاً كبيراً من دائرته الكنسية تقع فى محافظة كاسيتون الحالية، فقد كانت تهمة المشكلة، وقد أمرهم البابا بأن يجتمعوا فى فالنسيا للتشاور فى

حملة تنصير جديدة للموريسكيين. وتبعًا لما قاله بورونات: "هذا الحل الذى يعتقد البعض أنه مأخوذ من تقارير فيغيروا منع لوقت ما الضجيج الذى عاشت فيه أمتنا التى كانت ترغب فى القضاء على بقايا المسلمين"(١٩). والحقيقة أن هذا الضجيج العام لم يكن موجوداً، فمجالس فالنسيا وكذلك مجالس قشتالة لم تكن تتبنى الطرد، وكذلك لا يوجد عدد كبير من تقارير المدن تطلب هذا الأمر، كذلك فإن هذا الإجراء لا يوجد بين المؤلفات التى كان يعدها كتاب السياسة والاقتصاد والاجتماع لعلاج أمراض مجتمعنا واعتبار هذا الأمر وباء حقيقيا(٢٠). ويكفى مراجعتها بصورة سريعة لنرى أن المشكلة الموريسكية لم تكن تعتبر جوهرية. صحيح أنه يوجد بعض من أشار إليها واقترح الحلول لها، ولكن لم يكن هناك من يدافع عن اجتثاث تلك السلالة من أرضنا. وهذا الرأى المتطرف كان أصحابه هم بعض المتحمسين المستشارين الذين كانت لديهم حساسية خاصة فيما يتعلق بالخطر العسكرى، وبعض المتعصبين لنقاء الدم، وبعض رجال الدين، الذين - على الرغم من كونهم أقلية - أحدثوا كثيراً من الضجيج بأوراقهم التى تسيل دماً ومرارة.

أحد هذه التقارير، رفعه الراهب الأوغسطينى بدرو أرياس للملك، يكرر فيها الحجج التى أدلى بها سابقًا تأييداً للإجراءات الشديدة جدا، ويعتمد فى جوهره على أن الموريسكيين نظراً لأنهم هراطقة وخونة فهم يستحقون الموت، وإذا عوملوا بالإحسان فسيكون ذلك بالطرد والاستعباد(٢١).

إن تقارير من هذا النوع لم تكن لتغير من سياسة الحكومة التى كانت قائمة على التهدئة والاعتدال فى تلك الفترة، ويؤيد هذا لجنة الثلاثة المنعقدة فى يناير عام ١٦٠٧م. والثلاثة هم القسيس الملكى خيرونيمو خابييرى، والرئيس العام لليون، وكونت ميراندا، أما الرأى الأول فكان فيه ما يلى: "إن الحل الذى اتخذه صاحب الجلالة يوافق غيرته الدينية، وأود أن أعلمكم أن رئيس الأساقفة البطريرك له رأى مخالف فهو لا يثق مطلقًا فى إمكانية تنصير أولئك الناس، ومن المناسب أن يكتب له سعادتكم، وربما يبدو له العكس. وحينئذ يكون لجلالتكم عذر أكبر وتكونون قد قمتم بكل ما تستطيعون فيمكن

لجلالتكم إصدار أوامر بالعودة للتنصير، وتعيين قساوسة على قدر كبير من التدين والمعرفة والاستقامة، حيث إن بعض الذين عُينوا فى السابق لم يكونوا أهلاً لهذه المهمة، وبدلاً من أن يحدثوا نفعًا، أحدثوا ضررًا".

أما رئيس ليون فقد كان رأيه" أنه بجانب تنشيط التنصير يجب أن يعطى لهم حرية الذهاب إلى شمال إفريقيا، وكانت وجهة نظر كوندى ميراندا مشابهة لذلك"[٢٢].

ثم عقدت جلسة جديدة فى ٢٩ أكتوبر حضرها الأشخاص السابقون أنفسهم، فالقسيس اقترح من جديد متابعة عملية التنصير، وأما رئيس ليون فقد انضم لرأى القسيس وأضاف تأييداً لاقتراحه السابق ما يعتبر حقيقة بدهية: (وهو أنه إذا كان يتم إرسال رجال دين ومعلمين للصين ولأماكن أخرى بعيدة لتنصير الناس، فمن الضرورى ألا يترك أولئك الذين يوجدون داخل البيوت). وأما كونت ميراندا فقد اقترح - بالنسبة لموريسكيى قشتالة - أموراً سبق ذكرها وهى : أن يتم تقسيمهم إلى جماعات صغيرة ، ويحرم عليهم جميع الأعمال إلا الزراعة حيث يوجد نقص فى الأيدى العاملة من المزارعين المسيحيين، ومن ناحية موريسكيى أراغون: (فهم أقل سوءًا من موريسكيى فالنسيا وقد تمت معاينة هذا عندما حدثت فى أراجون قلاقل فلم يشتركوا فى الأحداث[٢٢مكرر]، ويمكن تحميسهم وإجبارهم على فعل ما يجب أن يعملوه؛ وذلك بالقول لهم إن هذا يرضى الملك. ومن المؤكد أن فى حملات التنصير السابقة كان هناك القليل من الاهتمام، وقد أحدث هذا عدم ثقة بين القساوسة الذين استُخدموا لهذا الأمر، كما أن الرأى الذى يقول: لا فائدة من منعهم من أن يعيشوا مسلمين هو رأى خاطئ، والأفضل منه أن يحاول صاحب الجلالة أن ينقذ هذه الأرواح بدلاً من إهلاكها أو إرسالها إلى شمال إفريقيا ، وإذا كانت هذه المحاولة قد تمت منذ سنوات وتم الكثير منها فإننا لم نجد فيها الفعالية المطلوبة، وبينما يتم إرسال مبشرين إلى الصين واليابان وأماكن أخرى بهدف التنصير، أرى أن هناك حاجة أكثر لإرسال مثل هؤلاء لأراغون وفالنسيا، حيث إن السادة هناك هم السبب فى أن يكون الموريسكيون على هذا الوضع السيئ حيث يساعدونهم ويتغاضون عنهم ويستغلُّونهم). لقد كانت الحجج قاطعة وقد وافق الملك على ما جاء فى التقرير[٢٣].

وعند الإشارة إلى ضرورة استعمال مبشرين يشير إلى إحدى النقاط الأساسية فى فشل المهمة التبشيرية، وهى الإعداد السيئ أو قلة غيرة وحماس رجال الكنيسة المتطوعين، بل إن رجال الكنيسة العاديين أنفسهم ولأسباب مختلفة لم يظهروا أى اهتمام من أجل القيام بهذه المهمة الصعبة، التى كانوا يخمنون أنهم لن يجنوا منها أى تقدم إيجابى، ومع هذا فقد كان يوجد مبشرون فرانسيسكيون فى المغرب!!

من كل ما سبق يبدو بدهيا أنه حتى نهاية عام ١٦٠٧م لم يكن هناك تفكير فى الطرد، على الأقل كحل عاجل وكان هناك حديث حول استمرار عملية التنصير بين الموريسكيين وهى مهمة كان يفترض فيها أنها طويلة، ولكن بعد ذلك بقليل وفى الثلاثين من يناير عام ١٦٠٨م، اجتمع مجلس الدولة بكامله ووافق بالإجماع على طرد الموريسكيين والأعضاء الذين قبل ذلك بشهرين صوتوا ضد الطرد؛ أعلنوا هذه المرة موافقتهم على ذلك دون شرح للأسباب التى دعتهم لتغيير موقفهم. فكيف يمكن تفسير ذلك التغيير الجذرى فى موافقتهم؟

إن الرأى الذى أبداه دوق ليرما فى المجلس من المحتمل أن يكون هو الذى حمس وجرَّ الباقين على ذلك، فبعد أن تحدث رجل الملك المفضل عن النتائج غير المشجعة لعملية الوعظ فى فالنسيا، وأعلن اقتراحه الموافق لتقارير ريبيرا: فى إرسال الرجال إلى العمل فى السفن، أما كبار السن والنساء فقد اقترح إرسالهم إلى شمال إفريقيا، فى حين يرسل الأطفال إلى حيث يربون بين المسيحيين، وقد بدا له أن التوقيت مناسب بسبب (الحالة التى يوجد فيها الأتراك كذلك الظروف فى شمال إفريقيا)[٢٤]. أما الاستعدادات فأوضح أنه تجب تغطيتها بحيث تجمع السفن فى العديد من الموانئ دون إعلان السبب (ولما كانت محاكم التفتيش قد تعودت على اعتقال كثير من الموريسكيين، فيمكن التخلص من زعمائهم حتى لا يستفيدوا من نفوذهم ولا نصيحتهم).

والعقدة الكبرى فى الموضوع كانت الأضرار الاقتصادية التى سببها الطرد للسادة الفالنسيين؛ ولهذا "ينبغى أن يعوض أولئك السادة بأموال تابعيهم المطرودين

الفالنسيين من الموريسكيين نظير الأضرار التى ستحدث لهم". وإنه حتى الآن فإن الأمر لا يتعلق إلا بطرد الموريسكيين الفالنسيين وسيبلغ السادة فى أراغون أنه لا يوجد جديد فى الأمر، أما الموريسكيون فى قشتالة (فقد كان خطأً كبيرًا إخراجهم من البشرات وربما كان الخطر الأقل فى تركهم هناك وعدم توزيعهم فى كل المملكة، وعند انتهاء طرد الفالنسيين يمكن معالجة هذا الموضوع عن طريق إعادتهم إلى هناك أو توزيعهم بين المسيحيين وإجبارهم على أن تكون ثروتهم فى شكل أصول ثابتة، ويجبرون على عدم العمل فى التجارة أو العمل فى مهنة يمكن أن تسبب أضرارًا للدولة)[٢٥].

ومع هذا فقد مضى أكثر من عام حتى تم تنفيذ طرد الشعب الموريسكى من فالنسيا. لقد كان من الضرورى الإعداد والبحث عن حجج لإجراء خطير مثل هذا، فعلى الرغم من أن الطرد يندرج داخل سلطات الملك المطلقة، فمن حقه اختيار التصرف فى أرواح رعاياه وأموالهم، فإن هذه السلطة لم تكن تستعمل إلا فى أحوال فردية وخطيرة ؛ مثل شأن إيسكوبيدوا وبياميديانا. وكان الملوك يفضلون (ليس لأسباب انتهازية بل لقناعة داخلية) أن يظهروا كالمدافعين عن العدالة داخل دولة يسود فيها القانون. ولهذا يجب أن يتضح أمام أعين الجميع أن هذه الأقلية سيتم إخراجها وطردها من إسبانيا، وذلك لحكم قضائى عادل بسبب عدم إخلاصها وخيانتها.

إن النقطة الأولى يمكن أن تعلنها محكمة كنسية فقط، وذلك لأن الفاتيكان رفض إصدار إدانة عامة، ولهذا تم التخلى عن الفاتيكان ورفع الأمر إلى لجنة اجتمعت فى فالنسيا ٢٢ نوفمبر عام ١٦٠٨م برئاسة نائب الملك، ماركيز كاراثينا، وحضرها رئيس أساقفة فالنسيا، وأساقفة أورى أويلا، وسيغوربى وتورتوسا وقد استمرت مشاورات اللجنة حتى مارس عام ١٦٠٩م، حيث طلب رأى العديد من اللاهوتيين، وعلى العكس مما كان ينتظر رئيس الأساقفة وكذلك مجلس الدولة فى مدريد، فقد أعلنت اللجنة: متابعة عملية التنصير وذلك باستعمال وسائل لينة، وأن يطلب من البابا فترة عفو جديدة لعدة سنوات تتوقف خلالها محاكم التفتيش عن الضغط بوسائل عنيفة.. لكن قرار الطرد كان قد أصبح أمرًا محسومًا، وحتى دون التأييد القضائى للكنيسة، ولهذا

فإن الملك الكاثوليكى يرى أنه من أجل الحصول على تلك النتيجة غير الأكيدة سيحتاج لفترة طويلة، وأن قراره المقدس بطردهم سيبقى بلا تنفيذ، وأنه بهذا سيعطى للموريسكيين الوقت المناسب للقيام بخيانتهم وتضييع إسبانيا؛ لهذا أمر أن ينفذ قرار الطرد بناء على طلب[٢٦] دوق ليرما.

من هذا النص الذى وضعه بليدا يمكن الخروج بنتيجتين: الأولى أن دوق ليرما هو المحرك الرئيسى للطرد، والثانية: أنه لم يضع له تبريرات ذات طابع دينى، ولكنها تبريرات سياسية: الخطر الذى يمثله الموريسكيون على أمن الدولة، هل كان واقعًا حقيقيا وعظيمًا كما ادعى؟. ومما لا شك فيه أنه كان من بينهم، أو على الأقل بين الثائرين أو بين الذين كانوا يحسون بالقمع الذى يعانونه من يحتفلون بالهزائم العسكرية لإسبانيا؛ وبخاصة حينما تحدث على أيدى إخوانهم فى الدين؛ فبطولات القراصنة وانتصارات البحرية العثمانية كانت تجد لها صدى كبيرًا بين التجمعات الموريسكية وبخاصة فى أراغون، وكذلك كان من أسباب فرحهم بعض الأحداث السيئة الأخرى مثل فشل البحرية الإسبانية فى حملتها ضد الإنجليز، والعداوة الفرنسية التى يعززها فى كثير من الأحيان سيادة البروتستانت على بعض الأقاليم الفرنسية من بينها أقاليم الجنوب (منذ عام ١٥٨٠م. يقول ريغلا - إن موضوع الموريسكيين يظهر فى مملكة أراغون مرتبطًا بعلاقة الصراع بين إسبانيا وفرنسا، وقد أمر فيليبى الثانى فى إشارة إلى الموريسكيين الأراغونيين عام ١٥٨٨ بضرورة إصلاح الحصون وحراسة الحدود مع فرنسا والأماكن التى يمكن أن تستقبل الموريسكيين، ومنع اتصالهم مع الفالنسيين[٢٧]. ومع تحول إينريكى دى بربون إلى الكاثوليكية لم تتغير مشاعره العدائية نحو المملكة الإسبانية، بل على العكس اتخذت تلك العداوة مظهرًا خطيرًا، فلم تعد تمثل محاولات إنسان عادى، بل كانت تمثل سياسة ملك فرنسا الذى حاول استخدام الموريسكيين كطابور خامس فى صراعه ضد القوة المنافسة له. وقد عرفت هذه العلاقات منذ مدة قليلة حينما نشرت مذكرات دوق لافورتيه حاكم بيرينى[٢٨]. ويتفق ذلك فى الأمور الأساسية مع ما نشره الأب غوادالخارا الذى اعتمد على وثائق تعود للتاريخ نفسه[٢٩].

والشخصيـة الرئيسية فى المؤامـرة رجـل يعرف بباسكوال دى سانتيستيبان، وقد عمل جاسوسًا لصالح حاكم نابارا مارتين دى كوردوبا، وعندما غضب عليه هذا اتصل بلافورثيه، وكان المذكور من سان خوان دى بيه دى بويرتو على الحدود الفرنسية الإسبانية.

وفى عام ١٦٠٢م حاول لافورثيه تحقيق مشاريعه حيث أرسل باسكوال إلى فالنسيا فاتصل بأحد الباسكيين الفرنسيين ويدعى مارتين دى أيروندو، ويسكن فى الايكواس، وقد عمل هذا وسيطًا مع لجنة مكونة من خمسة مندوبين موريسكيين لوضع خطة التمرد.. وأحدهم يدعى (ميغيل الأمين) حيث أرسل إلى فرنسا بتقرير موجه إلى إينريكى الرابع، وفيه يشتكى الموريسكيون من محكمة التفتيش، فهى على الرغم من تحصيلها ريالين من كل رب أسرة فإنها تستولى كذلك على أموالهم وتعاملهم معاملة سيئة.

كما ذكر فى التقرير أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن المملكة خالية من الحماية العسكرية، حيث لا يوجد فيها إلا حصن واحد فيه قوات حراسة وهو حصن دى بيرينا (أليكانتى)، ويمكن أن يحدث التمرد بسرية تامة حيث لا يوجد إلا مسيحيان أو ثلاثة فى القرى الموريسكية، وهم الذين يمارسون السلطة، فإذا حضرت البحرية الفرنسية إلى دينيا، وزودت الموريسكيين بالأسلحة فإنهم على استعداد لتجنيد ٦٠ ألف رجل ، بذلك يصبح سقوط فالنسيا مؤكدًا، كما أن الموريسكيين فى أراغون يمكن أن يمدوا الثورة بـ٤٠ ألف رجل، وكذلك فإن الغزو الفرنسى فى الممالك الأخرى سيجد مساعدة من البروتستانت واليهود وكثير من المسيحيين غير الراضين عن الأوضاع .

ولا نعرف ماذا فعل إينريكى الرابع مع هذه الحسابات المشجعة، لكن المتوقع أن حسه السياسى دفعه لعدم الثقة فى أن تكون المهمة سهلة كما يصفونها له

كما أرسل سانتيستيبان إلى إنجلترا حيث مكث هناك بعض الوقت متعلقًا بالآمال لكن الملكة إيزابيل ماتت بعد ذلك بقليل فى مارس عام ١٦٠٣م، ووقع الملك الجديد

يعقوب الأول معاهدة سلام مع إسبانيا، وعلامة على ذلك السلام أرسل إلى مدريد كل الوثائق المتعلقة بعلاقاته مع الموريسكيين الفالنسيين[٣٠]. وهكذا فإن الأمل فى تعاون إنجليزى قد اختفى (اقترح لافورثيه هجوماً من جانب البحرية الإنجليزية فى الوقت نفسه ضد لاكورونيا).

وكذلك فإن مهمة الأمين لم تكن أحسن حظا، ويصف الأب غوادالخار الأمين؛ بأنه ذو عقيدة محمدية ودين فرنساوى، وقد عاد الأمين لإسبانيا وبصحبته رسول من لافورثيه يدعى مستر بانسوليت الذى تخفى فى صورة تاجر وقدم إلى قرية توغا فى فالنسيا، وهناك حضر جلسة اشترك فيها ٦٦ عضواً موريسكيا و١٠جزائريين وقد اختاروا لقيادتهم لويس أسكير، وهو موريسكى من ألاكواس، وكان صاحبًا للدوق ديل إنفانتادو.

كانت الخطة تقوم على إحداث تمرد يوم الخميس المقدس لعام ١٦٠٥م، حيث يوجد عشرة آلاف موريسكى ويساعدهم الفرنسيون المقيمون فى فالنسيا، فيحرقون مبانى الكنائس، وفى هذه الحالة من الفوضى يستولون على العاصمة وكمقدمة ضرورية لذلك ينبغى أن تصل إلى غراو Grao أربع سفن فرنسية تتظاهر بأنها تحمل قمحًا، لكنها فى الحقيقة تحمل أسلحة لتزويد المتآمرين بها، ثم يتم نهب المدينة وستكون الغنائم كثيرة لدرجة أن لافورثيه سيحصل على ١٢٠ ألف دوقية وعند سقوط العاصمة تتبعها مملكة فالنسيا كلها ثم تسقط بد ذلك إسبانيا جميعها.

عاد بانسوليت سعيداً من تلك الأخبار ولكن أحد الحاضرين أفشى أسرار المؤامرة إلى السلطات الإسبانية فقبض على العديد من المتآمرين وعذبوا حتى اعترفوا بكل شىء وأُعدموا جميعًا[٣١].

إن وجود هذه المؤامرة ومؤمرات أخرى مشابهة أمر لا يمكن نقاشه، ولكن ما يمكن الشك فيه أنها كانت ذات أهمية عند اتخاذ قرار الطرد.

ولم يكن يمثل أمـراً جـديداً أن نعـرف أن الموريسكيين لم يكونوا راضين عن الأوضاع ولكن القليلين منهم هم الذين أعلنوا المقاومة المسلحة؛ حتى إنهم لم يقدموا مساعدة للغرناطيين عندما دخل هؤلاء فى حرب مفتوحة فلماذا يقومون بعمل مثل هذا فى ظروف أسوأ بعد ذلك؟.

إن هجمات سفن شمال إفريقيا ضد سواحل فالنسيا سهلت هجرة عدد كبير من الجماعات لكنها لم تؤد إلى أى تمرد.

وهكذا فإن الخطط التى سبق ذكرها فى إطار المؤامرة كانت خيالية عجيبة وليس من المحتمل أن يأخذها إينريكى الرابع مأخذ الجد، وما نتوقعه هو أنه فى حالة قيام حرب مع إسبانيا يمكن أن يوجد احتمال أن يلجأ إلى مساعدة نشاطات حرب عصابات، لكن شيئًا آخر لا يمكن انتظاره من الموريسكيين.

بل إنهم فى السنوات التى سبقت الطرد تقدم الموريسكيون الأراغونيون بواسطة كونت لونا بأدلة على وفائهم ورغبتهم فى التنصير وطلبوا أن تتوقف محاكم التفتيش عن استعمال إجراءات قاسية معهم، ولقد رحبت مجالس الدولة بهذه الطلبات..[٣٢].

وباختصار فإن ثورة الموريسكيين والخطر المتوقع الذى كانوا يمثلونه لم يكن فى عام ١٦٠٩م أكبر من خطرهم السابق وربما كان ذلك سببًا مساعدا عند تقرير طردهم لكنه لم يكن سببًا حاسماً. والسبب فى تغيير دوق ليرما لمواقفه مازال غامضًا، وربما كانت فكرة تأييده مصادرة أموال الموريسكيين كانت من قبله مجرد محاولة تقرُّب للملكة التى كانت علاقته بها سيئة؛ فرأى أن ذلك قد يعجبها، ولا يكلفه شيئًا، بل قد يجلب له بعض الفوائد، فرغب فى إصلاح تلك العلاقة عن هذا الطريق. لكن معرفة هذا الشخص تجعل من الصعب الاعتقاد بأنه يتخذ قراراً مهما كهذا دون أن يكون للمال دور فيه.. فالدوافع النهائية والخفية هى تلك التى لا توجد فى الوثائق. وعلى كل حال فإن قرار الطرد كان قراراً شخصيا، وليس مفروضاً بسبب ضرورة تاريخية مزعومة(*).

(*) يتفق المؤلف هنا مع آراء ماركيث بيانوبيا، لكننا لازلنا نتساءل: من الذى أثر فى صدور قرار طرد الموريسكيين ؟ (المراجع)

هوامش الفصل الثامن

(١) En especial , libro VIII, capitulos 18 y siguientes.

(٢) " Poiche non le fu communicato ne ditto cosa alcuna senon depo il fatto ".

El Pontifice Paulo V y la expulsion de los moriscos B.A.H.CXXIX, 219 -233).

(٣) Fray Juan Galvano : ***Sermon de las honras y obsequies de la ...Reyna Margarita de Austria***.Granada, 1611, pagina 9.

كتب إزنار كادونا يقول إن الملكة فى فراش الموت حثت الملك على أن يكمل تنفيذ قرار الطرد وألا يسمح بعودة أحد. انظر: ***Expulsion justificada*** .....capitulo

فى حين أن دون دييغو دى غوثمان، بطريرك المستعمرات الجديدة، عندما كتب تاريخ المملكة ذكر أن " صاحبى الجلالة اتفقا على اتخاذ ذلك القرار الشجاع"، وعلى الرغم من أن استخدام صيغة الجمع يدل على مشاركة الملكة فى القرار فإنه لا يبين إلى أى مدى كان رأيها حاسما فى ذلك. انظر:

Vida y muerte de dona Margarita de Austria. Madrid, 1617, 2 parte, cap. 20.

(٤) بعد أن ذكر نتائج لابيرى الخاصة بتزايد السكان الموريسكيين يضيف قائلا: "إذا كانت تمثل هذه الطريقة فى التزايد على مدى سنوات طويلة، والتى كانت تتم بطريقة غريزية، وسيلة دفاع لا إرادية ضد السكان المسيحيين الذين كانوا يجدون أنفسهم مهزومين، فإنها أيضا كانت سببا فى طردهم من المملكة." انظر:

La coyuntura de la economia valenciana en los siglos XVI y XVII, en "Anuario de Historia Economica y Social ", II, 244.)

(٥) ***Estudios sobre los moriscos***, 29 – 30.

(٦) *La Mediterranee*, 2 ed. II, 129 – 130.

(٧) Transcrita en Boronat, II, 8-10.

لقد كان دور ريبيرا حاسما في كل ما يتعلق بالموريسكيين وطردهم، ولهذا يبدو ضروريا جدا إلقاء الضوء على حياة هذه الشخصية المهمة. يدعى سان خوان دى ريبيرا، ولد فى إشبيلية عام ١٥٣٢م. كان ابنا غير شرعى لدون بيدرو إينريكيث، ماركيث دى طريفة ودوق دى ألكلاء، ولقد تم إدخاله فى السلك الكنسى وذلك كما كان شائعا بين النبلاء فى الأبناء غير الشرعيين، ونظرا لنسبه النبيل فقد رقى بسرعة، حيث عين أسقفا لبداخوث وهو فى الثلاثين من عمره، وعندما بلغ ٣٦ عاما عين بطريركا لأنتيوكا، ورئيس أساقفة فى فالنسيا. وقام فى هذه المدينة بنشاط كبير لنشر مبادئ مجمع ترينتو. أنشأ مدرسة " كوربوس كريستى"، وقام بزيارات كثيرة لكل الأماكن التابعة له. ولقد عمل كثيرا من أجل تنصير الموريسكيين وذلك بغيرة تحولت إلى كراهية عميقة، وذلك عندما تأكد من فشل جهوده. لقد عمر كثيرا حتى حضر الطرد الذى عمل كثيرا من أجله ورأى نتائجه المدمرة. لقد كتب عنه كثيرون، أولهم قسيس الاعتراف الخاص به الذى كتب:

Escriva : ***Vida***

وحديثا:

Ramon Robres Lluch : ***San Juan de Ribera , arzobispo y virrey de Valencia***, Barcelona, 1960.

هذا المؤلف جمع المعلومات الموجودة فى الكتب السابقة وأضاف إليها أشياء أخرى جديدة. وحتى الآن لم تكتب السيرة الذاتية النهائية لهذه الشخصية المهمة.

(٧ مكرر) فى الحقيقة لم يؤلفه هو وإنما كتبه دون مارتين دى زابالا.

(٨) لقد كان من حق الملك، وذلك بإذن من البابا، أن يفرض ضرائب على دخول الأساقفة، تصل إلى الثلث وذلك فى الدوائر الكنسية الثرية.

(٩) الجنيه البلنسى كان يساوى عشرة ريالات، قيمتها الشرائية تساوى ٧٠٠ بيزيتة فى الوقت الحالى، وكان يعتبر مبلغا ضخما.

(١٠) " Omnes meae ditionis neophiti barbaras vestes ac peregrinum corum ornatum exuerunt " (***Tractatus de unica religione***).

فى خطاب آخر يحمل تاريخا لاحقا لهذا يقول إن نساء قرى إيلدا وبتريل اللاتى كـن قـد تركن ارتداء ثيابهن (الإسلامية) عدن لارتدائها وذلك بعد اجتماع سرى للموريسكيين.

Boronat, op. cit. II, 18.

(١١) "وقد بدا للجنة أنه وإن كان البطريرك بغيرته المحمودة قد جمع ما بين الشدة واللين، فإنـه من غير المناسب أن يتم إبلاغ الموريسكيين بمصيرهم السيئ قبل حدوثه، ويجب أن ينبـه على القساوسة والوعاظ ألا يقولوا لهم أى شيء يمكن أن يفهم منه ذلك. وإذا كانوا قد فعلوا ذلك فعليهم أن يكذبوه".

Id.II, 17, nota .

(١٢) Obra citada, 241.

(١٣) *El morisco Ricote* ...263.

(١٤) قام كاتبو سيرة البطريرك بنقل المذكرة، وكذلك بعض الذين عالجوا موضوع الطرد.

(١٥) Transcribe la consulta Janer, obra citada, 252 – 253.

(١٦) Marquez Villanueva, obra citada264 – 265.

(١٧) E. Ciscar Pallares : **Las Cortes valencianas de Felipe III,** Valencia, 1973, paginas 11 y 18.

(١٨) B.N. ms. 8888, hojas 3 – 160.

على الرغم من أن هذا الكتاب يحمل تاريخ عام ١٦١٣، فإن من الضرورى أن يكون أصله قد كتب ١٦٠٦م على أكثر تقدير.

(١٩) Obra citada, II, 82.

(٢٠) Jean Vilar : ***Literatura y Economia. La figura satirica del arbitrista en el Siglo de Oro*** (Madrid, 1973)

(٢١) Boronat, II, 91 – 92.

(٢٢) Id. 98 – 102, transcribe el original de A.G.S. Estado 208.

(٢٢مكرر) يشير إلى عمليات الشغب التى حدثت فى سجن أنطونيو بيريث.

(٢٣) A.G.S. Estado, 208(reproducido en Boronat, II, 104 -111)

(٢٤) بسبب الحرب الأهلية بين سلطان المغرب مولاى زيدان وأخيه الـــذى ســاعدته الحكومـــة الإسبانية واستفادت من هذا النزاع.

(٢٥) لقد تم نقل جزء كبير من هذه الاستشارة فى: .Boronat, II, apendice 4

(٢٦) .Bleda, Coronica ...975

(٢٧) .Regla, obra citada pagina 16

(٢٨) ***Memoires authentiques de Jacques Nompar de caumont, duo de la force***, tomo I, Paris, 1843.

(٢٩) عندما حدد مدينة فالنسيا مكاناً لإعدام المتورطين أضاف قائلا:" والتى منها تم إخراج هـــذه القائمة طبقا للدعوى القضائية".

(٣٠) لقد تم سجن الكثير من موريسكيى فالنسيا، وذلك بسبب خطابات معينة كان ملك إنجلترا قد أرسلها، وقد وجدت بين الأوراق الخاصة بالملكة السابقة.

Cabrera, ***Relaciones de la Corte de Espana***...240. Abril de 1605.

ويقول هيوم إنه من بين الخطابات المرسلة توجد أدلة على أن الموريسكيين كانوا يبحثـــون عن دعم البروتستانت السويسريين.

(٣١) بالإضافة إلى المؤلفين المذكورين يجب أن نضيف الفصل رقم ٤٢ من الكتاب العاشر لـــ

Decada Primera de la Historia de Valencia, de Escolana.

Cardaillac, ***Morisque et Protestants***.

وأما الشخص الذى يسميه الباسكال دى ساينت إيستى ويقول إنه قبض عليه فـــى فالنـــسيا واعترف فى أثناء التعذيب فإنه يجب أن يكون باسكوال دى سانتيستيبان. هذا الموضـــوع الذى لا يمكن مناقشة أصله الحقيقى مازالت توجد حوله خلافات ونقاط غامضة.

(٣٢) فى عام ١٦٠٦ توجه دون فرانسيسكو دى أراغون كونت دى لونا، لحضور اللجنة الثلاثية ممثلاً عن الموريسكيين الموجودين فى بلده والأماكن الأخرى فى إقليم أراغونُ الذين كانوا يرغبون فى تعلم العقيدة، وأن يعيشوا مسيحيين، وأن يتم تخفيف ملاحقة محاكم التفتيش لهم والقضاء على السمعة السيئة المعروفة عنهم.

وفى جلسة ٣ يناير عام ١٦٠٧م قال قسيس الاعتراف الخاص بالملك إن الملك قــد قــرر سماعهم حيث أزعجه كثيرا القرارات التى اتخذتها محاكم التفتيش مؤخرا حول ١٧ مــنهم وأنه فهم من رعوسهم (أى رؤسائهم) أن كلهم يرغبون فى أن يناقش موضوع تحولهم إلى المسيحية، وقد تبين أنه فى حالة القلق التى حدثت فى تلك المملكة فى الأعوام السابقة لــم يقوموا بأى عمل.

وفى جلسة أخرى، عقدت فى ٢٩ أكتوبر، قال قسيس الاعتــراف إنـــه كـــان قــد جــاء موريسكى من أراغون ليحاول "أن يتم سماعهم ومــساعدتهم، وأن دون فرانسيــسكو دى أراغون يصر على ذلك، وأن شخصا ما يدعى جسبار زايديخوس ، وهو موريسكى لـــه وزن كبير ونفوذ على كل الذين فى تلك المملكة ، ذهب إلى روما وحصل على خطابـــات من صاحب القداسة موجهة لقضاة محاكم التفتيش فى أراغون الذين غضبوا وفرضوا عليه كفالة قدرها ٣ آلاف دوقية وألا يخرج من المملكة".

الفصل التاسع

النفى

عام ١٦٠٩م هو عام مهم فى تاريخ إسبانيا، فقد وقع فيه حدثان مهمان: أولهما توقيع هدنة مع هولندا لمدة ١٢ عامًا، وثانيهما طرد الموريسكيين. ويبدو أنه لا توجد علاقة مطلقًا بين الحدثين. فالهدنة كانت نتيجة طبيعية لرغبة مساعدى فيليبى الثالث فى السلام ، بالإضافة إلى الحالة المالية الصعبة التى أدت إلى إعلان إفلاس جزئى فى الخزانة الملكية عام ١٦٠٧م ، ومنذ ذلك التاريخ أوقفت الأعمال العسكرية فى فلانديس Flandes على الرغم من أن الإجراءات الدبلوماسية بين الملك ورعاياه المتمردين فى تلك البلاد تأخرت كثيرًا. وكان ذلك التصرف دليلاً على الواقعية السياسية، على الرغم من معارضة الجيل السابق من الإمبرياليين (أصحاب النزعة الاستعمارية) ومن مؤيدى الحرب الدينية ، الذين لم يكن يعجبهم مثل هذا القرار، وعلى رأس هؤلاء البطريرك ريبيرا الذى احتج على الهدنة كما احتج قبل ذلك بخمس سنوات على السلام مع بريطانيا.

أما طرد الموريسكيين فهو إجراء أُجِّل عدة مرات ونفذ أخيرًا لأسباب مبهمة، أو على الأقل ليست واضحة، ويبدو أن الدافع له كان على العكس من الدافع الذى أدى إلى توقيع معاهدة الهدنة آنفة الذكر، لأن الهدنة كانت إجراء واقعيًا مفروضًا بسبب الضعف الشديد فى مصادر الثروة، وكان من الممكن مواصلة الحرب؛ لكن أصحاب السلطة فى ذلك الوقت رفضوا الوصول بالأحداث إلى حالة درامية، وبقيت الأسباب الدينية فى المقام الثانى بعد الأسباب السياسية.

وعلى العكس فالطرد سيؤدى إلى زيادة الأزمة الاقتصادية، ومهما يوجد من أسباب أخرى له فإن الأسباب الدينية تبدو مقدمة عليها، وهكذا فإن ريبيرا عوض بالطرد الذى اعتبره انتصارًا هزيمته فى الأمر السابق(*).

وعلى الرغم من أنه كما رأينا حتى عام ١٦٠٨م لم يكن قد تقرر أى شىء فإن بعض ما دار فى تلك الاجتماعات من آراء حول ترجيح فكرة الطرد قد وصل للأسماع، وهكذا بدأ بعض الموريسكيين فى القيام بهجرة إرادية؛ وقد فكروا- ولديهم فى ذلك الحق - أنهم بهذه الطريقة يخرجون بظروف أفضل من تلك التى ستحدث بتطبيق قرار الطرد الإجبارى الذى كان من المنتظر تنفيذه بين لحظة وأخرى. وكان الذين قاموا بهذا العمل من الأغنياء الذين يستطيعون دفع تكاليف رحلة طويلة، وأنهم الذين سيفقدون الكثير عند إعلان قرار الطرد مع حرمانهم من حمل أموالهم بصورة نقود معدنية، فقد كان إخراج الذهب والفضة جريمة لها عقوبة كبرى فى القانون حينذاك(**)، وكان بين المهاجرين عائلات غنية من أوبيدا وبائيثا وبعض القرى فى مملكة جيان[١].

قابل الأب بليدا أثناء عودته من روما بعض الموريسكيين الإشبيليين فى جنوب فرنسا[٢]، وبدأت تصل أخبار هذا التيار من المهاجرين ، وكتب رئيس أساقفة سرقسطة يقول: كانت تمر جماعات من الموريسكيين عند جبال البرانس، وقد تعاملوا بطريقة جعلت الحرس لا يتعرفون على حقيقتهم فى البداية، وقد أمكن فيما بعد اعتقال آخرين حين كشفوا، وعندما طلب من مجلس الدولة الرأى فى هذا الأمر فإنه قرر فى ٢٤ يونيو من تلك السنة ١٦٠٨م ما يلى: "على حاكم قطالونية أن يأمر بالتعرف على الموريسكيين الذين يذهبون إلى فرنسا، فإذا وجد بينهم أغنياء فينبغى احتجازهم حتى يمكن

(*) يقول ماركيث بيانويبا - استنادًا إلى وثائق - إن ريبيرا لم يكن يعتبر الطرد انتصارًا ولا كان مؤيدًا له، بل فُرض عليه فرضًا، وكان دوره يتلخص فى تهيئة الرأى العام لقبوله. انظر "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى". (المراجع)

(**) الجدير بالذكر أن بعض الموريسكيين استطاعوا الالتفاف حول ذلك القانون وإخراج أموالهم من إسبانيا. تم ذلك بالتعاون مع اليهود الذين حصلوا على أرباح طائلة من تلك الصفقات. (المراجع)

الحصول منهم على ما نريد؛ لأن كثيراً منهم يتخفى ليمر بين الفقراء، أما الآخرون فينبغي تركهم ليذهبوا حيث شاءوا وذلك لأنه من الأفضل أن يبقى عددهم قليلاً"(٣).

واختيارهم طريق الشمال يمكن أن يفسر بأن الهروب إلى الدول الإسلامية كان يمثل جريمة فى نظر القانون، بينما كان يمكن للموريسكيين أن يذهبوا عن طريق فرنسا إلى شمال إفريقيا دون حرج، ومن المحتمل أن بعض أولئك الموريسكيين فكروا فى البقاء فى فرنسا منتهزين الأوضاع الإيجابية التى كانت فى بداية حكم إنريكى الرابع، وسنرى فى فصل قادم كيف أن تلك الآمال ذهبت أدراج الرياح.

كانت تونس هى مكان الوصول المفضل لهم، حيث كانت الدولة الأكثر ترحيباً بهم، وكان قد تم تنظيم شبكة من الوسطاء فى فرنسا، وكانوا يستفيدون من الثروات التى يحملها الهاربون، وقد اشتكى أحد الأسرى القدامى مما يفعلونه قائلاً: " إنهم أفرغوا كل الذهب الموجود فى تلك الممالك فى جيوبهم وحملوه معهم، وقد سلموا الكثير منه لمن يحرسونهم وللموانئ التى تقلهم، وكان هناك رجل موريسكى فى مرسيليا يدعى الحاج إبراهيم يقوم بتنظيم تلك الخطة مع الفرنسيين، وأخبر كل الموريسكيين أنهم إذا مروا من فرنسا فسيتركون أحراراً ويمكنهم إظهار عقيدتهم الدينية، وقد هرب مع الموريسكيين تسعة عبيد أتراك" (٤).

بهذه الطريقة هرب جزء كبير من البورجوازيين الموريسكيين من فظائع الطرد الإجبارى الذى لم يكن قد قرر حتى بداية عام ١٦٠٩م، وفى ديسمبر من عام ١٦٠٨م كان رئيس أساقفة فالنسيا وهو المدافع الأكثر تصلباً يلح فى أن يبدأ الطرد من مملكة قشتالة، وضد كل منطق أصر على إثبات أن الموريسكيين الذين يعيشون هناك هم أخطر من الموريسكيين الفالنسيين، أما الأسباب الحقيقية لهذا فيمكن معرفتها من نص خطابه الذى جاء فيه: "إن المدن والأماكن الكبرى تعتمد فى تموينها وتغذيتها على الموريسكيين، فهم يحملون إلى الكنائس والأديرة والمصحات والنبلاء والسادة والمواطنين، كُلَّ ما هو ضرورى لهم، كما أن المتع الدنيوية والروحية تعتمد عليهم أيضًا". ثم بعد ذلك اقترح طرد موريسكيى قشتالة ليكونوا عبرة لموريسكيى فالنسيا

الذين سيخافون وسيحسون بضعفهم(٥)، وهكذا فقد كان موقف الرجل دراميا حائراً بين رغبته فى استئصال تلك (الخراف الخربة) وبين خوفه من نتائج ذلك. وليقل المدافعون عن الأسقف ما شاء لهم أن يقولوه، فمما لا شك فيه أن الأضرار المادية الناتجة عن الطرد هى سبب مخاوفه(*).

وبينما واصلت اللجنة الكنسية فى فالنسيا مشاوراتها من أجل الإصلاح كان مجلس الدولة قد قرر فى ٤ أبريل عام ١٦٠٩م طردهم بكل صراحة(٦)، ومن المحتمل أن يكون (صوت) دوق ليرما هو الذى وجه آراء الآخرين، وكانت تبريرات القرار تتذرع بالمحافظة على أمن الدولة؛ أما الإشارة إلى الجانب الدينى فقد كانت فى موضع ثانوى. ومن العجيب أنه لم يذكر اتصالات الموريسكيين مع الفرنسيين، بل ذكر انتصار مولاى زيدان الذى كان قد أخضع المغرب كله وأبدى مشاعر عدائية نحو إسبانيا، على الرغم من أنه لم يكن أحد يعتقد أن المغاربة جادون فى غزو إسبانيا، بل كان كل ما يستطيعون أن يفعلوه هو مهاجمة الحصون وتكثيف النشاط البحرى للقراصنة.

تقرر أيضًا أن يكون البدء بطرد الفالنسيين؛ ومن أجل ذلك أعدت التجهيزات بسرية تامة، حيث وجهت أوامر بتجميع سفن إيطاليا فى مايوركا، ومن هناك يمكن أن تتوجه إلى موانئ الترحيل، وتأهبت القوات المسلحة حيث تم إحصاء عدد القوات وكميات الأسلحة المتاحة فى مملكة فالنسيا خوفًا من حدوث مقاومة من الموريسكيين فيها(**).

إن مجموع القوات التى جمعت فى ذلك الصيف كانت: ٥٠ سفينة كبيرة، و٤٠٠٠ جندى، بالإضافة إلى خيالة قشتالة التى قامت بحراسة الحدود، وكذلك قوات وخفر مملكة فالنسيا، أما سفن بحرية المحيط بقيادة الأدميرال أوكندا فكانت مهمتها حراسة السواحل الإفريقية.

(*) إن تمسك البطريرك ريبيرا بأن يُطرد مسلمو قشتالة أولاً قد فسره ماركيث بيانويبا بأنه الورقة التى ظلت فى يد ريبيرا بعد أن أُبلغ بقرار الطرد. (المراجع)

(**) يرى بيانويبا أن استدعاء قوات من خارج إسبانيا لتأمين عملية طرد الموريسكيين كان يعنى وجود معارضة قوية لهذا الإجراء من قِبل النبلاء. (المراجع)

إن استعدادات بهذا الحجم لا يمكن أن تظل طى الكتمان، فمنذ شهر أغسطس كانت النهاية قد عرفت تقريبًا، وكان أكثر الناس هياجًا لهذا القرار هم السادة الذين لديهم تابعون من تلك السلالة، وكذلك فإن رجل الشارع بدأ يشعر بنتائج ذلك الإجراء الذى قلب القواعد الأساسية للاقتصاد الفالنسى حيث ورد فى إحدى الوثائق ما يلى: (بدأت الحياة تضيق والمعاملات تقل، لأن الموريسكيين عرفوا أنهم الهدف من كل تلك الإجراءات، فقد انسحبوا إلى منازلهم بحزن ليعدوا حاجاتهم وتركوا العمل فى تزويد المدينة والقرى المسيحية بمتطلباتها كما كانت العادة)[٧].

اجتمع النبلاء الذين كانوا يمثلون الدرع العسكرى للمجالس النيابية؛ وذلك لتقديم تقرير يوضح الخراب الذى يعنيه ذلك الإجراء الذى يقترب تنفيذه، ولم يكن الحاكم يستطيع أن يقرر شيئًا؛ ولهذا أرسل اثنين من الأعضاء إلى العاصمة، واختير لذلك السيد فيليبى بوايل سيد مانيسيس، والسيد خوان بيرغيل سيد كانييتا، ويبدو أن اللقاء ساده جو من التوتر الشديد المقصود؛ لأن المبعوثين تحدثا بحرية كاملة عن الخراب الذى يهددهم والامتيازات التى سيفقدونها، والإجراءات التى يمكن اتخاذها لتجنب المخاطر التى تنشأ عن تطبيق ذلك الإجراء، كما أنهما تحدثا قائلين: إذا كان يجب عليهم التنازل عن تلك المملكة التى استولوا عليها؛ فإن على صاحب الجلالة أن "يرشدهم إلى أرض أخرى يمكن الاستيلاء عليها من جديد لكى يعيشوا بما يوافق وضعهم الاجتماعى وبثروة كافية، أو أن يموتوا فى القتال حيث يكون هذا أكثر شرفًا من أن يموتوا من الفقر"[٨].

ولم يستطيعوا تحصيل أى شىء من الملك؛ فقد أخبرهم أن القرار قد صدر وأنه لا تراجع فيه وأن إعلانه سيكون قريبًا؛ وعندما عرفوا مواد القرار غَيَّر المحتجون موقفهم؛ فقد ورد فى إحدى الوثائق ما يلى: "إن النبلاء الفالنسيين الذين كانوا قد حصلوا من مجالس مونثون على وعد بأن تتحول الأراضى المصادرة من الهراطقة لتصبح تابعة للنبلاء وتضاف إلى أرضهم مباشرة بدلاً من أن تكون منفعة عامة، كما حصل النبلاء على وعد ملكى بأن الأموال والأشياء التى لا يستطيع الموريسكيون حملها معهم

ستتحول إلى ملكيتهم أيضًا تعويضًا لهم عما فقدوه. عندئذٍ غير السادة والنبلاء موقفهم، وبينما كانوا فى فترة سابقة يحاكمون ويدانون لدفاعهم عن الموريسكيين؛ فقد تركوهم وانحازوا إلى السلطة الملكية، وأصبحوا من أكثر المساعدين فعَّالية"(٩).

أعلن قرار الطرد فى ٢٢ سبتمبر، وقد أعلنه نائب الملك ماركيز كاراثينا، وهو يعطى مهلة ثلاثة أيام؛ ينبغى أن يتوجه خلالها الموريسكيون إلى النقاط التى ستحدد لهم، ويحملون معهم ما يستطيعون من أموالهم، أما الأموال التى لا يستطيعون نقلها فينبغى أن تبقى سليمة، وأن الذى يخفى أو يحطم تلك الأموال سيحكم عليه بالإعدام، "كما أن صاحب الجلالة قد منح تلك الأموال والأشياء إلى النبلاء الذين سيُرحَّل تابعوهم".

وقد كان للسادة الحق فى اختيار ست أسر من بين كل مائة أسرة ليبقوا فى خدمتهم، وينبغى أن يكون أولئك أكثر قدمًا ويبرهنون على أنهم مسيحيون، أما مهمتهم فستكون: (المحافظة على المنازل، وطواحين السكر، ومحصول الأرز، وتعليم السكان الجدد الذين سيحضرون).

وهدد المسيحيون القدامى بمعاقبتهم ستة أعوام فى تجديف السفن إذا تستروا على الموريسكيين الهاربين من القرار، كما حُرِّم عليهم - دون تحديد عقوبة - مضايقتهم سواء بالكلمة أو بالفعل. (ولكى يعلم الموريسكيون أن رغبة صاحب الجلالة هى إخراجهم من ممالكه، ولا توجه لهم إهانة خلال الرحلة، حيث يتم إيصالهم إلى شمال إفريقيا، ويسمح لعشرة من الموريسكيين الذين سافروا فى رحلة سابقة بالعودة لإخبار الآخرين بما حدث".

واستُثنى من الطرد أولئك الذين يعيشون منذ زمن مقداره سنتان مثلاً فأكثر بين المسيحيين ولم يحضروا اجتماعات الجماعة، والذين تناولوا القربان فى الكنائس بشهادة من القسيس أيضًا. أما الموضوع الصعب فهو المتعلق بالأطفال، وقد أدى إلى مجادلات ساخنة بين علماء اللاهوت؛ فاستماتوا من أجل السماح ببقاء الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ٤ سنوات فى حالة موافقة والديهم. كذلك فإن الذين هم أقل من ستة

أعوام ومن أب مسيحى فإنهم يبقون وتبقى معهم أمهم حتى ولو كانت موريسكية . "ولكن إذا كان الأب موريسكيا والأم مسيحية؛ فإن الأب يُطرد ويبقى الصغار ممن هم أقل من ستة أعوام مع أمهم"[١٠].

مواقف السادة أمام هذا الحدث كانت ذات صور متعددة، وكذلك موقف الموريسكيين، وعلى الرغم من أننا نعرف الخطوط العامة لعملية الطرد فقط، فلقد بقى الكثير مما يجب أن يكون موضع بحث وبالذات على المستوى المحلى، فهناك حاجة لمزيد من الدراسات (تمت فعلاً بعض الدراسات الممتازة) لمعرفة كيف تم ذلك فى كل قرية. وقد كانت التناقضات فى هذا الشأن كبيرة: فبينما وجد من السادة من عاملوا تابعيهم بكل إنسانية، فذهبوا معهم إلى ميناء الرحيل، محاولين أن يجنبوهم أى متاعب، بل وصاحبوهم فى السفن[١١]، كما وجد آخرون كانت سيرتهم سيئة. فمثلاً الكونت دى كونسينتانيا، وهو الذى اشتهر ببخله وقسوته، أخذ من عماله أموالهم كلها حتى تلك الأشياء الخاصة بالاستعمال الشخصى مثل الثياب والجواهر. وقد أبلغ الدكتور نوفرى رودريغيث نائب الملك بهذا فى ٣ أكتوبر قائلاً له إنه قد سجنهم فى حوش ومنعهم من الخروج[١٢].

كثير من الموريسكيين ذهبوا إلى المنفى وقد سادتهم البهجة؛ لأنهم خرجوا من بيئة كانت غير متسامحة معهم. واستطاع عدد ليس قليلاً منهم أن يعيش فى الأراضى الإفريقية حياة أكثر حرية وكرامة. وقام عدد قليل منهم أثناء ذهابه بالسرقة كما حطموا الكنائس(*)، ولكن هذا يبدو أنه لم يكن الطابع العام[١٣]، وآخرون يدفعهم حب الأرض بذلوا جهدهم للبحث عن مكان يختفون فيه أو طريقة قانونية للبقاء.

بدأت تصل بعض الأخبار المقلقة عن الراحلين حيث كان الاستقبال سيئًا من جانب البربر(**)، وقد زاد هذا القلق عمليات النهب التى كان يقوم بها بعض النبلاء،

(*) هل كان الموريسكيون يستطيعون مهاجمة الكنائس وهم محاطون بقوات عسكرية ؟ (المراجع)

(**) لا يملُّ الباحثون الغربيون الحديث عن مشاكل تعرض لها الموريسكيون فى الدول الإسلامية دون أن يستندوا إلى وثائق تدعم ما ذهبوا إليه. (المراجع)

وكذلك أعمال العنف من جانب المسيحيين القدامى الذين كوَّنوا جماعات تقوم بسلب وسرقة وحتى اغتيال الموريسكيين، ويجب أن لا ننسى أنه فى مملكة فالنسيا كانت العلاقات بين الجماعتين يسودها الحقد والغيظ.

أما ردود الفعل الرحيمة التى أدت إليها أحداث الطرد فى قشتالة وأندلوثيا فلم تحدث فى فالنسيا؛ وذلك إذا قبلنا العديد من الوثائق واللوحات الأدبية التى بقيت لنا من ذلك الحدث المهم، فاللوحة الأدبية التى يرسمها لنا غاسبار دى أغيلار تحدث انطباعًا مفزعًا، وإذا كانت قيمته كشاعر تعتبر متواضعة جدا، فإنه كمراقب استطاع أن يعطينا صورة ذات قيمة تاريخية وإنسانية كبيرة؛ فكان مما جاء فى شعره ما يلى:

فرقة من المسلمين والمسلمات

تسير وهى تسمع من كل ناحية شتائم

الرجال يحملون الثروات والأموال

النساء يحملن أدوات الزينة والملابس

العجائز يمشين بحزن ويبكين

يجهزن الطعام وهن يتميزن غيظًا

كلهن يحملن الجواهر

والأوانى والقناديل

عجوز يأخذ طفلاً من يده

طفل آخر على صدر أمه

شاب ثالث قوى مثل الطرواديين

لا يتأخر فى حمل أبيه(١٤)

الثروات والأموال التى يتحدث عنها أغيلار هى تعبير بطريقة واضحة عن رأيه فى الموريسكيين، ولقد كان أغلبية الموريسكيين يعيشون حياة صعبة ولم يستفيدوا إلا القليل من ذلك التصريح الذى أعطى لهم حق بيع أشيائهم وحمل أموالهم، وما فعلوه لم يكن بيع الأشياء وإنما تركها بأبخس الأثمان؛ نظراً لأنهم يُجبرون على ذلك لظروفهم الخاصة.

وهناك أقلية صغيرة من الأغنياء استطاعت تصنيع وتغيير عملة مزورة ، وبذلك استطاعت أن تحمل كميات محترمة من المال. وكانت السلطات ترغب فى أن يدفع الأغنياء تكاليف رحلة العبور البحرية لإخوانهم الفقراء ، وهى حوالى عشرة ريالات لكل شخص(١٥).

وفى أكتوبر ساد كل الموانئ من أليكانتى إلى بيناروث نشاط كبير، ورحلت سفن ملكية وخاصة بالألوف من الموريسكيين، وكتب أحد مؤرخى أليكانتى يقول: "لقد تحولت الطرق إلى ما يشبه بيت النمل حيث كان الناس فى الطرق يثيرون إعجاب مشاهديهم.. أما يوم الركوب فقد امتلأت فيه الشوارع والميادين بطريقة يتعذر معها السير، واستمر ذلك لوقت طويل؛ حيث قامت السفن والمراكب بما لا يحصى من الرحلات"(١٦).

وهذا صحيح ، فتبعًا لبيانات بليدا والتى استعملها لابيرى، رحل من أليكانتى فى الفترة بين سبتمبر ١٦٠٩م إلى يناير ١٦١٠م ٣٠ ألف موريسكى. ويزيد عن هذا الرقم العدد الخاص بدينيا- خابيا: ٤٧١٤٤ شخصًا. أما الغراو فى فالنسيا فالذين رحلوا منه عددهم ١٧٧٧٦ شخصًا وبيناروث ١٥٢٠٨ أشخاص، ومونكوفار ٥٦٩٠ شخصًا، وتمت رحلات أخرى بعد هذا التاريخ وربما عن طريق موانئ أخرى(١٧)، وهذا دون إحصاء للذين ذهبوا بطريق برى عن طريق فرنسا. إذن يكون الإجمالى ١١٧٤٦٤ شخصًا وهو الرقم الذى يعطيه المؤلفون السابق ذكرهم وهو رقم أقل من الحقيقة.

إن هجمات العصابات وهم فئة ممن تجردوا من الرحمة والمدفوعين بالكراهية والرغبة فى الحصول على الغنائم من الموريسكيين، كانت سببًا فى العديد من المراسلات بين نائب الملك وفيليبى الثالث. وفى واحدة منها يعترف أنه على الرغم من

الاحتياطات التى تم اتخاذها فى الأيام الأخيرة فقد قتل ما بين ١٥ و٢٠ شخصًا، (لأنهم كانوا يرون أن الموريسكيين يأخذون كل شىء معهم ويحاولون استغلال الفرصة). وقد أزعج الملك ذلك الخبر فأمر بتشديد الحراسة وضرورة اتخاذ إجراء عقابى شديد تجاه المجرمين[١٨]، وكان لهذه الإجراءات أثرها المحدود فى هذه الحالة من الحماس العام بين السكان، فبجانب أن الموريسكيين كانوا موضع كراهية الشعب، كذلك فإن ذلك الشعب كان على وعى بالأضرار الاقتصادية الناشئة عن ذهابهم وبدلاً من توجيه الاتهام للمسئولين عن ذلك فقد أغاظهم أن يذهبوا بأمواله، وكانوا يخافون أن ديونهم وديون النبلاء التى ضمنها الموريسكيون تبقى بلا سداد، ويقولون: إن المملكة ستبقى بلا نقود، أما السادة فقد استطاعوا تغيير مواد الطرد لصالحهم بنقطة مهمة وهى عدم السماح للموريسكيين ببيع الماشية والمحاصيل والزيت ليبقى كل ذلك لصالح السادة.

إن أعمال العنف التى عانوا منها، والأخبار السيئة التى بدأت تصل عن الذين رحلوا إلى شمال إفريقيا؛ جعلت بعض الموريسكيين يشتركون فى مقاومة يائسة ومؤكد – منذ البداية – فشلها وقد حدثت هذه الحركة فى بعض القرى الجبلية الداخلية فى فالنسيا، وقريبًا من قشتالة: كوفرتيس، وإيورا، وبيكورب ... إلخ، ولما كان هدفها دفاعيا فحسب، فقد صعدوا بنسائهم وأولادهم على مرتفع كورنتيس وهى منطقة كونتها الأنهار الموجودة فى جنوب نهر خوكار، بصورة غير منتظمة، وتنتهى بسهل متماوج حيث يوجد فيه بعض المرتفعات التى يزيد ارتفاعها عن ١٠٠٠م. والمنطقة خالية من مصادر تكفى لتغذية ذلك العدد الكبير، فقد كانت مزروعة بأشجار الصنوبر والبلوط، وقد اختار الموريسكيون رئيسًا أو ملكًا لهم وهو أحد المسلمين من تيريسا (وهو رجل ذو شيبة وفهم) وقد رفض قبول المنصب لاعتقاده بفشل المهمة. حينئذ عرضوه على مسلم ثرى من كاتاداو ويدعى طريخى فقبل، وعين أحد الفقهاء نائبًا عنه، والذى كان وعظه وتنبؤاته سببًا فى ثورة هؤلاء الناس الفقراء السذج الذين جمعوا بعض الأسلحة، وقاموا ببعض الأعمال الدفاعية، فى مويلا Muela التى لجأ إليها آلاف الأشخاص عندما أعلن اقتراب القوات المعادية.

كانت القوات المخصصة لإيطاليا قد وصلت للمساعدة فى عملية الطرد، وكان قمع هذه الثورة كلعبة أطفال أو كنزهة خلوية بالنسبة لها، فقد تمكنت من هزيمة ذلك الكم غير المنظم من الناس بعد أن حدث فى صفوفها إصابات، أثارت غضبها، وإذا كانت الطلقات النارية والسيوف سببًا فى موت بعضهم؛ فإن الأغلبية ماتوا من العطش والجوع والإرهاق. لقد حملت لنا أبيات غاسبار أغيلار صدى تلك المآسى:

"كم من الموريسكيات الضعيفات التعيسات

عندما رأين أن أهلهن لا يجدون منْ يحميهم

عانقن أطفالهن الصغار

وصعدن إلى قمم الجبال

كم باعوا من أبنائهم المحببين لهم

إلينا

مقابل لقمة من الخبز" (١٩).

ومن المستحيل معرفة عدد الذين هلكوا فى تلك الحادثة، وقد بقى على قيد الحياة منهم ثلاثة آلاف تم ترحيلهم. أما الزعيم فقد رفض عرضًا للاستسلام، وبقى معه عدة مئات من الرجال الغاضبين واليائسين لمدة ما فى تلك الجبال، وتم القبض عليه وإعدامه فى فالنسيا، وقد فعل مثلما فعل ابن أمية فى القرن السابق حينما مات مؤكدًا كونه مسيحيا(*).

كما وقعت بعض الأحداث أيضًا فى لامارينا فى أليكانتى، حيث يوجد فيها أغلبية موريسكية، ويبدو أن السبب فى ذلك هو أخبار الاستقبال السيئ الذى ينتظرهم فى شمال إفريقيا.

(*) هذا أيضًا من باب الكتابات الدعائية التى تميز بها المؤلفون الإسبان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. (المراجع)

لقد تركوا – بصورة جماعية – قراهم وحرقوا بعض القرى (فينيسترات وريجيو)، وسيطر الرعب على جيرانهم المسيحيين حيث قتلوا بعضهم كما شوهوا بعض الكنائس، وجمعوا كمية كبيرة من مواد التموين فى الجبال القريبة من كايوسا، لكنهم لم يفكروا فى إمكانية الحاجة للماء لمجموعة تزيد عن ٢٠ ألف شخص، ونزلت بعض فرق الجيش من ميناء دينيا وتساعدهم الميليشيات وعدد كبير من العامة طمعًا فى الغنائم . وبعد أن تمت محاصرتهم لعدة أيام هجموا عليهم وجرت بعض الأحداث التى تقشعر لها الأبدان تذكر بأحداث مفزعة ترد فى أدب دانتى، حيث لم يعط الجنود هدنة، وهرب الموريسكيون الذين بقوا على قيد الحياة، وقد سادهم الذعر من شدة العطش، ومات بعضهم لشربه ماء كثيرًا . وكانت الغنائم كثيرة جدا . وأما الأوصاف التى تركها لنا كل من فونيسكا وإيسكولانا فتسبب قشعريرة. كتب إيسكولانا يقول : "فى مرتفعات بوب Pop تم العثور على عدد كبير من القتلى، أما الآخرون فقد وصلوا إلى حالة كبيرة من التعاسة، وكان الآباء يتركون أولادهم لمن يعرفونهم من المسيحيين بسبب الجوع، بل وصل الأمر إلى أنهم كانوا يبيعونهم للجنود الأجانب مقابل قطعة من الخبز أو حفنة من التين، وكانوا يمشون فى الطريق إلى الرحيل وقد سادهم الضعف، وقد أخذ منهم أبناؤهم ونساؤهم؛ وحتى الثياب التى كانوا يحملونها نزعوها عنهم، لدرجة أن أحدهم كان يصل إلى السفينة نصف عار أو عاريًا تمامًا . ونظرًا لما كانوا عليه من العناد فقد قَدَّرت عليهم السماء (*) أن ينقصهم الشىء الكثير، وأن يبقى أبناؤهم ونساؤهم عبيدًا؛ وعلى الرغم من أن الملك قد أعلن أنهم ليسوا كذلك فيما بعد"[٢٠].

وكذلك بقى آخرون عبيدًا وذلك على أثر البيان الشنيع الذى أعلنه ماركيز كاراثينا فى مايو ١٦١١م، وذلك للقضاء على بقايا الجماعات المتخلفة منهم، ونصه ".. نفرض لكل الأشخاص الذين يخرجون فى مطاردة أولئك المسلمين٦٠ ريالاً مقابل كل شخص يحضرونه حيًّا، وثلاثين فى حالة إحضار رأسه؛ بعد قتله. وإذا كان الأشخاص الذين

(*) لاحظ الأسلوب العاطفى لتلك الكتابات وكيف أنها ابتعدت عن الموضوعية. (المراجع)

يحضرونهم يرغبون فى اتخاذهم عبيداً لهم، فنحن على استعداد لإعطائهم إياهم على الوضع المطلوب، وسنمنحهم الحق فى ذلك، على أن نفهم من هذا ضرورة التقدم للحصول على الوثائق التى تدل على ذلك"(٢١).

إذن كان هناك تنوع فى الحظ؛ فمنهم من خرجوا صابرين، بل وسعداء لتركهم ذلك الوضع غير المتسامح، ثم عبروا البحر واستطاعوا أن يكوِّنوا حياتهم من جديد على الجانب الآخر من البحر المتوسط، ومنهم من عانى من التعاسة أكثر من الموت.

وإذا كان من الصعب تحديد عدد الذين خرجوا بدقة فإن الأكثر صعوبة هو حساب الذين بقوا داخل إسبانيا. إن الإذن الذى منح فى البداية بقاء ستة أسر من كل مائة قد ألغى فوراً، ويبدو أنه حتى بين الموريسكيين كان صداه محدوداً. دوق غانديا لم يجد من يقبل البقاء، وحاول بعض النبلاء إبقاءهم بالقوة(٢٢). بعد ذلك غيرت السلطات رأيها، ويبدو أن ذلك كان لضغوط من جانب ريبيرا الذى كان يرغب فى أن يكون الطرد شاملاً. وعلى العكس من ذلك كان ريبيرا يرغب فى إبقاء الأطفال، ولقد فشلت - كما هو منتظر - كل المحاولات من أجل أن يتركهم له آباؤهم بإرادتهم، وحدثت بعض أعمال الاختطاف واشتركت زوجة نائب الملك فى ذلك، وكانت تعتقد أنها تقوم بعمل يرضى الله، وذلك بسرقة الأطفال من آبائهم حتى لا يعيشوا فى أرض الكفار. هذا الحدث - للأسف - لا يوجد له وثائق إحصائية. وربما كانت المحصلة كمية كبيرة لو بقى كل الأطفال اليتامى والذين لا عائل لهم.

كان البطريرك يريد بقاء كل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ١٢ سنة ، لكن مجلس الدولة كان متشدداً فى تلك النقطة فأصدر قراراً بطرد كل من تزيد أعمارهم عن خمسة أو ستة أعوام، وهو العمر الذى يمكنهم فيه من الاحتفاظ ببعض الذكريات عن التربية المحمدية(٢٣).

فى ١٩ يونيو ١٦١٠م تشاور ذلك المجلس حول خطاب وصل إلى نائب الملك، وفيه يشير إلى أنه قد بقى حوالى ألف موريسكى بينهم : "رجال ونساء فى سن متقدمة جدا يرغبون فى الموت على عقيدتنا المقدسة"(٢٤)، ولقد حصل عدد قليل منهم على شهادة من

القساوسة، والبعض الآخر تخفى أو هرب، ويمكننا أن نقول: إن من بين ١٤٠ ألفًا يمكن أن يكونوا فى تلك المملكة خرج ١٣٠ ألفًا، والفرق بين الرقمين يشمل الموتى والذين بقوا لأسباب مختلفة.

لم يعش خوان دى ريبيرا كثيرًا بعد الطرد، وعندما تم إعلان القرار ألقى موعظة شكر فى الكاتدرائية وتنبأ فيها بأن الصعوبات سيتم التغلب عليها، وإنه فى كل حال فإن تلك الأضرار أفضل من بقاء السلالة الموريسكية(*)، ولقد رأينا كيف أنه حاول تأجيل ذلك الإجراء الذى كان يتنبأ بنتائجه، ولكن عندما اتخذ الملك الخطوة النهائية، بذل ريبيرا كل ما فى وسعه حتى لا تبقى أية بذرة لتلك السلالة المكروهة.

ولكن مع هذا فإن انتصاره كان مصحوبًا بالمرارة، وليس ذلك بسبب الشكاوى والسباب الذى يسمعه من حوله، وما كان يعذبه ليست الأمور المادية، بل الأمور اللاهوتية والقانونية وبخاصة بصدد بقاء أو نفى الأطفال المعمَّدين ولقد قضت تلك المشاعر عليه فمات فى ٦ يناير عام ١٦١١م.

لم يحدث فى طرد موريسكيى مملكة قشتالة ما جرى من أحداث درامية كتلك التى حدثت فى فالنسيا، فقد كانوا أقلية مشتتة، وفى أغلب الأحوال لا تتبع السادة إلا فى بعض الأحوال التى لا تسبب أضرارًا اقتصادية. كذلك لم يحاولوا القيام بثورات؛ فقد كانوا يعرفون نهايتهم واستقبلوها بصبر.

أما القرار الخاص بأندلوثيا ومرسية فعلى الرغم من أنه تم توقيعه فى ٩ ديسمبر عام ١٦٠٩م فإنه نشر فى ١٠ يناير عام ١٦١٠م؛ وعندما نقارنه بطرد فالنسيا فهناك أمران جديدان أساسيان: أولهما بخصوص الأموال حيث يمكنهم أن يبيعوا كل شىء ما عدا الأملاك التى تبقى فى صالح الخزانة الملكية، أما إنتاج الماشية والفاكهة.. إلخ، فلا يجوز إخراجه فى صورة فضة أو جواهر أو أوراق صرف، ويمكنهم حمل النقود

(*) انظر قراءة ماركيث بيانويبا لهذه الموعظة وكيف أنه يفسرها على أنها نتاج صراع داخلى للبطريرك الذى كان معارضًا للطرد لكنه مضطر لتبريره أمام الناس. (المراجع)

اللازمة للرحيل ٠أما قيمة الأشياء التى باعوها فينقلونها بصورة منتجات تجارية غير ممنوعة[٢٥] يمكن شراؤها من أبناء تلك الممالك، وهذه المنتجات نظراً لكونها معدة للتصدير- فيجب أن يدفعوا عليها جمارك، وهذه الإجراءات التى كانت تعتبر مصادرة جزئية، تم تقديمها على أنها علامة على تعاطف الملك، لأن الملك - تبعاً للقرار- بصورة عادلة يستطيع أن يأمر بمصادرة وضم كل الأموال الثابتة لأولئك الموريسكيين الذين خانوا الرب والملك".

هذه التعليمات كانت نتيجة لاستغاثات مسيحيى فالنسيا القدامى الذين كانوا يقولون إن الموريسكيين أخذوا معهم ما يزيد على المليون بصورة ذهب وفضة من الجنيهات وقد تركوا المملكة بدون نقود، أما بالنسبة لأغلبية الموريسكيين الذين لم يكونوا يملكون إلا ما يكفى الرحلة فإن الأمر لم يكن يعنيهم، وكذلك الأقلية الغنية منهم لن يكون لديها الكثير بعد ضياع بساتينهم، وهذا الفائض يمكن نقله فى صورة منتجات خفيفة ذات قيمة كبيرة مثل الحرير والبهارات، وفى الواقع فإنهم حاولوا إخراجه بصورة ذهب وجواهر ويبدو أنهم نجحوا فى ذلك[٢٦](*).

النقطة الثانية كانت بشأن الأطفال الذين لم يبلغوا الرشد وقد كان هذا موضوعاً شائكاً؛ حيث أُمر الآباء بترك أبنائهم الذين تقل أعمارهم عن سبعة أعوام إلا إذا كانوا سيذهبون إلى بلاد مسيحية، وقد كان هذا هو السبب فى قطع الكثيرين لطريق طويل إلى شمال إفريقيا عن طريق فرنسا. وبعضهم رحل عن طريق الموانئ الأندلوثية متصنعاً الذهاب إلى فرنسا أو إيطاليا، ولكنهم فيما بعد اتفقوا مع الملاحين لحملهم إلى إفريقيا ٠ وعلى الرغم من هذا فقد بقى ثلاثمائة طفل فى إشبيلية فقط، فقد تكفلت الكنيسة بطعامهم وتعليمهم[٢٧]، والتعليمات الأخرى تختلف قليلاً عن الواردة فى البيان السابق.

(*) الدراسات الحديثة تذكر أن اليهود - الذين تمتعوا بحرية الدخول والخروج وهم يحملون أموالهم - ساعدوا الموريسكيين على إخراج أموالهم من إسبانيا نظير حصولهم على نسبة من تلك الأموال. (المراجع)

وفى بيان إيضاحى لماركيز سان خيرمان، المكلف بتنفيذ قرار الطرد فى أندلوثيا، أعلن أنه فى حالة زواج نصرانى مع موريسيكية يمكن أن تبقى مع زوجها. أما إذا كان الزوج موريسكيا وهى مسيحية فيمكنها أن تختار بين البقاء أو اللحاق بزوجها. كذلك من حق أبناء الأتراك والبربر الذين جاءوا إلى إسبانيا من أجل اعتناق المسيحية البقاء، وكذلك الذين لديهم شهادات من القساوسة بأنهم يعيشون مسيحيين، وأما الذين لديهم قضايا حول كونهم مسيحيين قدامى وتمتعهم بامتيازات مساوية للمسيحيين أو تم إعفاؤهم من ضريبة الفارضة فيمكنهم أن يبقوا حتى تتم دراسة قضاياهم(٢٨).

فى مملكة غرناطة القديمة بقى عدد قليل نسبيا من الموريسكيين ولم يسجل لاييرى سوى ١١٢١ رحلة من ميناء مالقة فى عام ١٦١٠م، و٨٢٥ رحلة من مينائى مالقة والموينكار فى عام ١٦١١م (٢٩). كذلك ربما كان هناك آخرون سافروا برًّا عن طريق الشمال. أما الذين استطاعوا تجنب طرد عام ١٥٦٩م فكانوا كثيرين، ومن بينهم الكثير من أصحاب الشأن، ولهذا فإن باكا دى كاسترو رئيس أساقفة غرناطة، رفع رجاء للملك فى ٢٤ يناير عام ١٦١٠م ذكر فيه أنهم لا يمثلون أى خطر وأنهم قد أعطوا أدلة على إخلاصهم وأن عدداً غير قليل منهم يعتنق المسيحية فعلاً، ويدعون الملك أن يستعمل الرحمة معهم(٣٠).

وإذا قبلنا ما يذكره المؤرخ إنريكيث دى خوركيرا(٣١)، فقد استُثنى من الطرد "العائلات العظيمة للنبلاء وأبناؤهم" ومع هذا فقد خرج من العاصمة وحدها ٦٠٠ أسرة "أناس أغنياء وذوو نفوذ"، وهذا الرقم بكل تأكيد مرتفع جدا ، وكثير من المهددين بقرار الطرد كانوا يقومون بأعمال حيوية، مثل السباكين - الذين كانوا يعرفون شبكة المجارى المعقدة والتى عن طريقها يتم تزويد غرناطة والقرى التى حولها بالماء من الفاكار - والخبراء فى الخزانة الملكية، وقد أصدرت الإدارة العامة تقريراً فى صالحهم(٣٢).

ثم صدر قرار طرد آخر فى غرناطة وذلك فى ٣٠ مارس عام ١٦١١م وهو يتضمن العديد من المجموعات التى تمكنت من الهرب من القرار السابق ، وعلى الرغم من هذا،

فـإن كثـيراً من الموريسكيين بقـوا فى مملكة غـرناطة، وذلك بالاستـفـادة من المواد القانونية، أو بالامتزاج بالمسيحيين الذين كانوا لا يشعرون نحوهم بأى عداء كما حدث فى أقاليم أخرى.

فى مملكة جيان كان الموريسكيون – وكلهم تقريباً أتوا على أثر طرد عام ١٥٦٩م – كثيرين، ويبلغ عددهم ٨٠٠ فى أندوخار، و١٠٠٠ فى أوبيدا، و٢٠٠٠ فى بايثا، و٢٢٥٥ فى العاصمة ، إلى جانب أعداد أقل من هذه فى القرى ، وقد تم اقتياد الأغلبية إلى ميناء ملقة لترحيلهم.

ولم يحدث فى هذه المملكة الأحداث الدرامية التى حدثت فى فالنسيا، مع هذا فقد وجد من أصحاب السلطة من حاول إخراج ثروة بغير حق على حساب أولئك التعساء ، ولقد أدان مجلس الخزانة تصرف السيد خوان دى سوليس، وكيل أوبيدا وبايثا الذى جعل الموريسكيين يتركون له ألفى دوقية من أجل أن يصحبهم حتى مالقة، كما جعلهم يبيعون له الأراضى بأسعار منخفضة، وقد تضررت الأملاك الأميرية من ذلك إلا أن الملك أمر بعدم مضايقته[٣٢].

وفى مملكة قرطبة يوجد مركزا تجمع مهمان: الأول فى بريبغوا وما حولها، ويصل عددهم إلى ٢٢٦٤ شخصاً، والثانى فى العاصمة، وهو أهم بكثير من الأول، ويزيد على ٤ آلاف، ثلث هذا العدد كان من الموريسكيين العبيد [٣٣مكرر]، وكان العدد الإجمالى لسكان العاصمة ٤٠ ألفًا وهذا يعنى أن نسبة الموريسكيين تزيد على ١٠٪ (فى إشبيلية ٦٪) هذا إلى جانب زيادة نسبتهم من ناحية الأيدى العاملة، فقد كانوا يزودون المدينة بأيد عاملة كثيرة ورخيصة، ولهذا فقد تضرر من طردهم الكثيرون الذين ضغطوا على البلدية لتعيق وتمنع ذلك القرار. لكن التجمع الكنسى القرطبى، كان ذا أغلبية أرستقراطية، كما أن الطبقات الاجتماعية التى يمثلها لم تتضرر كثيراً، لأنهم على أية حال سيحتفظون بعبيدهم، وهم كثيرون فى منازل الأشراف ورجال الكنيسة، ولهذا تم رفض تلك الالتماسات، وفى الجلسة المنعقدة فى ٢٢ يناير عام ١٦١٠م أعلن المجلس رفضه تقديم أى طلب بشأن الموريسكيين؛ وبرروا ذلك بأنه قد تم الاتفاق والتشاور

بشأن هذا الإجراء بعد استشارة صاحب القداسة (وهذا الأمر غير صحيح) وأخذ فى الاعتبار المجالس الملكية واللاهوتية.. ولهذا فإن الرجاء لن يكون له أثر، وسيبدو ذلك دليل معصية ومخالفة قرار تم اتخاذه بعد الكثير من التشاور.. ولهذا صدر الأمر بأن لا يعالج هذا الموضوع على الإطلاق، وقضى بأن لا يسمح لأى فرد بتقديم ذلك الرجاء، وفى حالة رغبة بعضهم فى ذلك فيمكنهم أن يقوموا به بصفة شخصية. وقد قبل التجمع الكنسى إيقاف نفى أولئك الذين رفعوا دعاوى قضائية بشأن تحديد وضعهم كمسيحيين حتى يصدر قرار بشأنهم[٣٤].

وكل هؤلاء الموريسكيين كانوا ذوى أصل غرناطى، وكذلك هذا العدد الكبير الموجود فى إشبيلية كان من الأصل نفسه. حيث كان يوجد فى العاصمة ٧٥٠٣ أشخاص، وربما كان هو الفريق الأكثر كثافة فى كل إسبانيا، وهذا ما يفسر المخاوف التى نتجت عن تلك الشائعات التى تتحدث عن تآمرهم فى السنوات السابقة، ومع هذا فإن الطريقة التى رحلوا بها تركت أثرًا عاطفيا انعكس فى الكثير من المؤلفات: "لقد كان الجميع يبكون، ولا يوجد قلب إلا وتحرك عند رؤية العديد من العائلات تخرج، مع اعتبار أن الكثير منهم كانوا أبرياء كما أثبتت الأيام ذلك "[٣٥] هذا على حد قول روخاس كاسانانتى. بعض الموريسكيين قاوم بكل ما استطاع، مثل سكان إيثيخا ويصل عددهم إلى ١١٠٠ شخص؛ حيث قالوا إنهم يفضلون الموت على الخروج من إسبانيا، مبررين ذلك بسبب غير مقنع وهو أنهم مسيحيون فعلاً، وأنه يوجد خطر على إيمانهم بين المسلمين، ويبدو غريبًا أن يقوم ماركيز سان خيرمان وهو معروف بقسوته بنقل تلك الرسالة إلى مدريد، ولا نعرف بماذا أجيب عليها، وإن كانت كل المؤشرات تفيد أن الإجابة كانت سلبية، وأما ماركيز لا ألغابا فقد حاول الاحتفاظ بتابعيه، وكل ما استطاعه هو تأخير ترحيلهم حتى عام ١٦١١م[٣٦].

العدد الإجمالى للذين رحلوا من ميناء إشبيلية هو ١٨٤٧١[٣٧] شخصًا، حيث دفعوا ١٠٥٣٠٠٠ ريال أجرًا للسفن، وقد اضطر الأثرياء لدفع مصاريف نقل الفقراء، لأن الخزانة الملكية التى ستستفيد من بساتينهم لم تكلف نفسها أن تدفع لهم حتى

تكاليف السفر. أما أصحاب السفن فقد استفادوا كثيراً حيث فرضوا ١٠ ريالات مقابل كل فرد، وارتفعت الأجرة إلى عشرين؛ وهذا إلى جانب ٥٠ ريالاً مقابل كل طن من الحقائب، في حين كان السعر المعتاد هو نصف تلك القيمة. وإلى جانب الذين خرجوا من إشبيلية كان هناك آخرون رحلوا من سان لوكار[٣٨] وجبل طارق، ولا توجد معلومات تاريخية عن هؤلاء؛ أما المؤرخون فهم يكررون ما قاله غوادالخارا وبليدا من أنه قبل صدور القرار خرج حوالى ٢٠ ألف موريسكى من أندلوثيا، وبعد صدوره خرج ٦٠ ألفًا آخرون. وهذه الأرقام محتملة، وإن كان لا يوجد ما يؤكدها.

وفى الوقت نفسه الذى خرج فيه الموريسكيون الأندلوثيون، خرج أيضًا الموريسكيون من إكستريمادورا وقشتالة القديمة والجديدة، وكثير منهم كانوا قد بدأوا الهجرة بطريقة تلقائية منذ عام ١٦٠٩م. وقد أحست الحكومة أنه من المفيد دعم تلك الحركة لتجنب أعمال المقاومة والعنف التى حدثت فى فالنسيا، والتى سببت لها نقداً كثيراً. لهذا فقد صدر فى ذلك العام قرار ينص على: "نظراً لأن أبناء تلك السلالة – الموريسكية – الذين يعيشون فى ولايات قشتالة القديمة والجديدة وإكستريمادورا ولامانشا كانوا فى حالة من القلق ولديهم الرغبة فى الذهاب للحياة خارج تلك الولايات، حيث بدأوا يبيعون عقاراتهم بأقل من قيمتها كثيراً، ونظراً لرغبتنا فى أن لا يعيش أحد منهم مجبراً" فقد أعطوا مهلة ثلاثين يومًا يبيعون فيها عقاراتهم، ويخرجون قيمتها بصورة منتجات تجارية، أما من المال فيحملون ما هو ضرورى للسفر. ثم سمح لهم بعد ذلك بحمل نقود على أن يتركوا نصفها للخزانة، وكذلك فإن الخروج يجب ألا يتم عن طريق أندلوثيا ومرسية وفالنسيا وأراغون، وهذا يعنى أن الطريق الوحيدة هى فرنسا[٣٩]، وقد تم فى ١٠ يوليو عام ١٦١٠م إعلان قرار الطرد بحق الذين لم يخرجوا طواعية وكان العدد الإجمالى لكل الذين خرجوا يبلغ ٤٤ ألف شخص وأغلبهم من الغرناطيين[٤٠].

أما الذين رحلوا بإراداتهم فقد أجبروا على تسجيل أسمائهم ودفع رسم خروج فى بورغوس، يقول أحد المؤرخين: إنه قد مر بالمدينة المذكورة حوالى ٣٠ ألفًا وذلك فى

الفترة من يناير إلى مايو: "لقد كان دخولهم المدينة أمرًا يسترعى الانتباه، حيث دخلوا بحقائبهم، على جياد وعربات، كما لو كان موكبًا دينيا؛ بعضهم مرَّ راكبًا والبعض الآخر ماشيًا على قدميه وفيهم من جميع الأعمار، أطفال وشباب وشيوخ، لقد كان أمرًا يسترعى الانتباه، ثم بعد ذلك سجلوا أسماءهم وأعطوا جوازتهم ثم أمروا بمواصلة الطريق إلى فرنسا"(٤١).

إن ذلك المؤرخ ذكر أنه مر حوالى ٣٠ ألفًا، وأما الرقم الذى ذكره كونت سالاثار المكلف بالعملية فقد كان أقل من هذا بكثير: ١٦٧١٣ شخصًا وبما أن هذا الرقم كان يخص الذين رحلوا حتى ٣٠ أبريل عام ١٦١٠م، حيث كان الرحيل فى مرحلة ازدهاره، فالعدد الإجمالى كان أكبر من هذا. إن دراسة الأماكن التى قدم منها أولئك تبدو مهمة: من بلد الوليد ١١١٩ شخصًا، من طليطلة ٣٧٨٩ شخصًا، من ألكالا دى إيناريس ١٢٠٦ أشخاص، من باستارانا ٢٢١٤ شخصًا، من أوكانيا ١٥١٨ شخصًا، ومن مدريد ١٧١ شخصًا فقط(٤٢).

أما كونت سالاثار، فعن طريق التقارير التى قدمها للبلاط يعطينا انطباعًا بأن العملية تمت بصورة عادية: فى بورغوس تسلم القادمون جوازات سفر ودليلاً للطريق حتى مدينة إيرون، كما كان يقدم للفقراء معونة (بحيث يرحل الجميع بكل راحة ودون أن يوجه لهم سبابًا أو شتيمة) وكذلك هم لم يوجهوا شيئًا من ذلك، والحقيقة أنه على مستوى الجماعات لم تجر أحداث درامية، فثراء الكثير من الراحلين والسلوك الصحيح لسكان المدن التى مروا بها قللت كثيراً من مرارة ذلك الحدث.

فى البداية استقبلوا استقبالاً حسنًا فى فرنسا وسمح لهم بالبقاء، وقد بقى بعضهم(٤٣)، ولكن الأغلبية كانت تشمئز من إعلان الإيمان الكاثوليكى الذى كان يطلب منهم، ومن ناحية أخرى فمع زيادة عدد المهاجرين تغير سلوك الشعب الفرنسى، وفى بداية عام ١٦١٢م كان يقال: يوجد ٤ آلاف موريسكى فى سان خوان دى لوث، وبعضهم كان يستعد للرحيل إلى المغرب وقد حملوا معهم كميات كبيرة من الأسلحة والمنتجات التجارية العالية القيمة(٤٤)، وآخرون خاب أملهم وحاولوا استخراج وثائق مزورة للعودة

إلى إسبانيا، ولقد كان اغتيال إينريكى الرابع (١٤ مايو عام ١٦١٠م) حدثا ليس فى صالح الموريسكيين، وفى ١ مايو قررت الحكومة الإسبانية إغلاق الحدود مع فرنسا، وسبب ذلك ذهاب "الكثير من الناس الطيبين ومعهم أموالهم إلى دولة ليست صديقة". وأغلب القشتاليين وأهل إكستريمادورا الذين خرجوا بعد ذلك رحلوا عن طريق كارتاخينا وغيره من الموانئ فى الجنوب. لقد أفلح الذين خرجوا فى بداية الأمر، وعلى الرغم من المصائب التى حدثت للموريسكيين فى فرنسا - كما سنرى فى الفصل التالى - فإنها لا تعد شيئًا مقارنة بالمصائب التى عاناها الذين خرجوا من كارتاخينا ورحلوا إلى أراض جزائرية. يقول خيل غونثاليث دابيلا- الذى اشترك فى طرد الموريسكيين فى أبيلا-: لقد خرج من تلك المدينة ١٨٩ أسرة مدجنة، و٢١٨ أسرة غرناطية حيث وصل عددهم إلى ١٣٩٠ شخصًا، يضاف إلى هذا سكان كل من أونتيروس وبيدرا إيتا وبينياراندا والتيمبلو وبورغوأموندو، حيث خرجوا فى مايو وهم سعداء بذلك على ما يبدو ثم توجهوا إلى كارتاخينا. ولقد عرف عن طريق بعض الذين هربوا منهم من أيدى القبائل البربرية "العذاب الذى عانوه والذى لم يعانيه حتى المسيح نفسه، وأن عدداً قليلاً منهم بقى على قيد الحياة". وفى سبتمبر من العام نفسه رحلت مجموعة أخرى من الغرناطيين. وبقى عدد لا بأس به من المدجنين الذين كانوا ضحية قرارت قاسية[٤٥].

أما الموريسكيون من إكستريمادورا فقد كان عددهم غير قليل، على الرغم من أنهم كانوا مشتتين. وقد قدم لنا فرنانديث نييبا إحصاءً لهم قبل ترحيلهم ، فسكان هورناتشوس (باداخوث) كانوا يمثلون مجموعة متماسكة وكانت هذه البلدة تابعة لجماعة سانتياغو العسكرية، أغلب السكان الألف الموجودين بها، وقد وصلت الضرائب التى يدفعونها إلى ستة آلاف دوقية فى العام، وكانت السيطرة الموريسكية كبيرة لدرجة أنها استولت على أغلب حرف البلدية، وهذا الوضع (مضافًا إليه تساهل الحكومة مع مثل هذه التجمعات) كان يسمح لهم بإعلان مشاعرهم الحقيقية بحرية أكبر. وقد أدت غرابة وتفرد وضعهم إلى أن تؤلف بشأنهم الكثير من الأعمال الأدبية [٤٦]، والتى ليس

من السهل فيها التمييز بين الأحداث الحقيقية وبين المبالغات والأكاذيب التى بالضرورة نُسِبَت إليهم بسبب نية المؤلفين السيئة.

وقد كتب سالاثار دى ميندوثا بعد طردهم بقليل: إنهم جميعًا كانوا مختونين، وحاولوا إقناع رجال محاكم التفتيش أنهم قد ولدوا هكذا. "وكانوا يتصرفون كما لو كانوا دولة، حيث كان يجتمع مجلس دولتهم فى كهف فى الجبل، حيث يصكون العملة، وكان أغلبهم بغَّالين، وكانوا يعرفون من خلال ذلك كل ما يجرى فى إسبانيا وربما خارجها، وكان لديهم اتصالات مع المسلمين والأتراك. وعندما جاء الموريسكيون الغرناطيون إلى طليطلة عقدوا معهم حلفًا، وأصبحت لهم صداقة قوية، وكانوا يتصلون ببعضهم عن طريق غير مُعَبَّد يسمونه مورونا تمتد فى طريق غير مسكونة من طليطلة إلى هورناتشوس وقد أدين أحدهم بقتل ٨٠ مسيحيا[٤٧].

وعلى الرغم من أن ما ذكر فيه كثير من المبالغات فإن هذه الإشاعات فيها بعض الحقيقة. يقول الراهب خوسيه دى سانتا كروث، أحد الفرانسيسكيين، وكان يعيش فى دير تلك البلدة: "لقد كان لديهم قتلة يعملون بمرتب حيث يقتلون من يحكمون عليه بأنه ضدهم". وهكذا حدث الكثير من عمليات القتل التى لم يُعلم فاعلها".

كذلك يحكى أنه عندما انتشر الطاعون فى إسبانيا عام ١٦٠٠م أصاب الكثيرين من سكان هورناتشوس حيث أصاب الموريسكيين وبقى المسيحيون معافين من ذلك، فظن الرهبان أنها فرصة مناسبة لتنصيرهم، وعرضوا عليهم أن يضعوهم فى أماكن معدة لذلك المرض، فأجابوهم: "أيها الأب ، لتبقوا أنتم فى دياركم، نحن لا نرغب فى أن تدخلونا الدير لتقتلونا وعظًا. يكفينا ما نحن فيه من غم، نحن لا نحتاج لقساوسة ولا لمصحَّة ولا لعلاج" .

وعلى الرغم من هذا التعارض القوى بين الجماعتين، وتضايق الموريسكيون من الشعائر المسيحية (حيث إن ذهابهم للكنيسة كان بالنسبة لهم كالذهاب للتجديف فى السفن، أما سماعهم للموعظة فكان كحضور شيء مخجل، والاعتراف مثل الإعدام وتناول القربان المقدس مثل الشنق). فمن رواية الراهب خوسيه دى سانتا كروث نفهم

أن الرفض لم يكن بصورة إجماعية، فأحد الذين رفعوا شكوى إلى محاكم التفتيش يدعى غابرييل تاماريث وهو (موريسكى قد تنصر عن اقتناع وتقدم إلى محاكم التفتيش وقص عليهم كل الأشياء ثم بقى بعد ذلك يخدم فى دير بيرينا أكثر من أربعين عامًا). وهناك حدث آخر يذكره المؤلف نفسه وهو أنه عندما اجتاح الطاعون أرضهم بعنف أطلت إحدى الموريسكيات من نافذتها وقالت لأحد الرهبان: "أيها الأب صلِّ من أجلى".

أما الكابتن ألونسو دى كونتريراس فيحكى فى تاريخ حياته العجيب أنه عند مروره مع قواته بهورناتشوس وجد صدفة مخبأ فيه بنادق وأسلحة أخرى[٤٨]، ثم حوكم بعد ذلك لأنه لم يبلغ رؤساءه بمعرفته للأمر.

بدأ يصل إلى مدريد كثير من الشكاوى ، إحداها من قسيس القرية وأخرى من المدعو ثاماريث وثالثة من خوان دى تشابيس خاراميو... والجدير بالذكر أن هذا الأخير قد وقع فى الشباك التى نصبها، وكانت نهايته الفقر بعد أن انتهى الطرد حيث كان قد استثمر كل أمواله فى احتكار شراء أمتعة موريسكية[٤٩].

كان أول من تحرك فى هذا الأمر محاكم التفتيش حيث أرسلت نائبًا لها يدعى بوسادا وذلك فى ٢ أكتوبر عام ١٦٠٨م ومعه معلومات جاء فيها أنهم يعيشون مثلما يعيش المسلمون فى الجزائر، وكما أنه كان من الصعب الحصول على أدلة كافية فإنه كان يكفى التحقق من بعض الأمور كعدم شربهم الخمر وعدم أكلهم الخنزير (وبشىء أكثر بقليل من هذا يمكننا أن نقوم بإدانتهم لأنه يكفى فى الأشخاص المشتبه فيهم وجود مثل هذه الأمور)[٥٠].

لكن نشاط محكمة التفتيش اضمحل نظرًا لبدء تحقيقات أخرى بشأنهم صادرة من مجلس قشتالة قام بها العمدة غريغوريو لوبيث ماديرا، حيث أثبت ضدهم ارتكابهم جرائم مثل العديد من الاغتيالات والمؤامرات وتزييف العملة.. إلخ، وشنق العديد منهم من المتهمين بصورة كبيرة، ثم أرسل آخرون للتجديف فى السفن، كما فصلهم من وظائف وحرف البلدية، وفى النهاية تم طردهم مع الباقين، وسنتحدث فى فصل قادم عن مغامراتهم فى الأراضى المغربية.

أما الأحداث والمصائب التى صاحبت طرد الموريسكيين الأراغونيين فنقلها إلينا بطريقة جيدة خوان ريغلا[٥١]، ومن المعروف أن عددهم٧٠ ألفا وهم حوالى سدس العدد الإجمالى للسكان، ولكنهم كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة فى عدد ليس بقليل من القرى الزراعية، كما أنهم يشبهون الموريسكيين الفالنسيين فى خضوعهم للسادة (للنظام الإقطاعى)، والذى كان بالنسبة لهم فيه العديد من الميزات والعيوب، فإلى جانب الابتزازات الكبيرة كان ذلك النظام يضمن لهم الحماية من جانب سادتهم المتحررين[٥٢] أو الحريصين على مصالحهم وحقوقهم، وبالتالى على مصالح وحقوق تابعيهم الموريسكيين، ومن هنا فقط وجد جو من التوتر الدائم مع محاكم التفتيش أحيانًا ومع المسيحيين القدامى أدى فى بعض الأحيان إلى صدامات دموية.

العلاقات السيئة مع الأغلبية المسيحية كانت تمنع من حدوث عملية (الاحتواء أو الاندماج) والتى يبدو أنها فى بعض مظاهرها قد أعطت نتائج أفضل من العملية نفسها فى مملكة فالنسيا؛ حيث كان استعمال اللغة العربية ظاهرة منتشرة بين السكان، فى حين كان فى أراغون نادرًا، وفى أحد تقارير نائب رئيس أراغون يقول: "كانوا أقل سوءًا من إخوانهم فى الأماكن الأخرى"، وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى مساعيهم فى مدريد حتى لا تتدخل محاكم التفتيش فى أمورهم لأنهم يريدون أن يعيشوا كمسيحيين. ومن ناحية أخرى، يوجد الكثير من الأدلة على تذمرهم من القمع الذى يعانونه، حيث يفرحون لهزائم الملك الكاثوليكى، سواء كانت على أيد مسلمة أو بروتستانتية. ومن حين لآخر كان يجرى حدث دموى يحيى الكراهية المتبادلة، وفى عام ١٦٠٢م قام بعض الموريسكيين من كالاندا باغتيال غاسبار ميندث قاضى القرية، بعد التنكيل به، وقد شُنق مقابل ذلك خمسة منهم[٥٣].

وقد وافق فيليبى الثالث فى عام ١٦٠٨م على طلب موريسكيى أراغون وفالنسيا، على الالتقاء بهم من أجل تعيين السيد خوان دى ميندوثا، ماركيز سان خيرمان (وكيلاً عنهم)، ولا نعرف إلى أى مدى كانت صراحة الموريسكيين فى مثل هذا الطلب، ولقد كان تعيين مدافعين لهم إحدى الوسائل لاغتصاب أموال الفقراء الموريسكيين،

حيث يَعِدُهم المدافعون وبعد ذلك لا يفعلون شيئًا، وفى العام السابق احتج "أبناء مملكة غرناطة" لأنه تم تعيين وكيلٍ عنهم هو كونت أورغاث مقابل ثلاثة آلاف دوقية فى العام؛ على الرغم من أنهم لم يتقدموا بطلب لهذا، وعلى كل حال فإن الذين قدموا الطلب ليسوا ممثلين لهم(٥٤). وفى الحالة الخاصة بماركيز سان خيرمان تبدو الخدعة كبيرة، فالشخص نفسه هو الذى كلف بطرد الموريسكيين الأندلوثيين، أى قام بطرد الناس الذين يجب عليه حمايتهم.

بل وصل الأمر إلى أن الحكومة حاولت خداع رجال سلطاتها وموظفيها لبعض الوقت، ففى ٢٠ أكتوبر ١٦٠٩م كتب فيليبى الثالث لوالى أراغون، ماركيز إيتونا كى يحاول أن يهدئ الموريسكيين، لأن قرار الطرد ليس بشأنهم، ومع هذا فعندما عرفوا أن القرارات كانت ضد الموريسكيين فى الأقاليم الأخرى، تولدت لديهم القناعة بأنهم لن يُستثنوا من ذلك ، وبدأت تحدث- فى سرقسطة وبورخا وغيرها من الأقاليم التى يمثلون فيها نسبة كبيرة - أحداث مهمة، كما تركوا زراعة الحقول التى لن يأخذوا إنتاجها، وباعوا ممتلكاتهم بأرخص الأثمان وبدأوا يعدُّون المؤن لرحلة طويلة. وقد سببت هذه الحوادث قلقًا كبيراً مما أدى بالحكومة إلى تجديد القرار الذى يمنع الاعتداء عليهم، وتم إرسال قوات لاحتلال المواقع الاستراتيجية.

أما السادة ورجال الكنيسة فقد قاموا بآخر مساعيهم لإيقاف الخطر الذى يتهددهم، وعينوا نائبين لهم، هما: كونت لونا، وأحد رجال اللاهوت من سرقسطة حيث ذهبا للعاصمة، ولكن هذا السعى تكلل بالفشل، فقد وقع الملك قرار طرد الموريسكيين فى ١٨ أبريل عام ١٦١٠م، وقد بقى القرار سرًّا لبعض الوقت وذلك لإنهاء الاستعدادت. أما بشأن المشكلة الأبدية الخاصة بالصغار الذين تم تعميدهم فإن مجلس اللاهوتيين فى بلد الوليد ومجلس الدولة لم يتجرأ أن يتخذا موقفًا معينًا، وأعلن القرار فى ٢٩ مايو، وفيه يسمح ببقاء الأطفال لأقل من أربع سنوات إذا رغب آباؤهم، أما فى النقاط الأخرى فكان يشبه القرارات السابقة .

إن الكثير من الموريسكيين سبقوا صدور القرار بالمغادرة، وخرجوا عن طريق فرنسا. وتبعًا للسجلات الرسمية فقد خرج عن طريق بيرا، ورونثيسبايث وسومبورت حوالى ٣٨٢٨٦ شخصًا، كما رحل عن طريق الفاكيس ٣٨٢٨٦ شخصًا. فيكون العدد الإجمالى ٦٠٨١٨ شخصًا، يضاف إلى ذلك الذين خرجوا بطرق غير شرعية، والذين أعفوا في البداية ثم طردوا بعد ذلك.

وقد نفذ الطرد دون حوادث خطيرة؛ ولكنه ترك آثارًا عميقة من التعاسة والفقر والآلام، فقد ترك لنا أثنار كاردونا لوحة واقعية لخروجهم فقال: " خرجوا فى طابور غير منظم، واختلط المشاة مع الراكبين وسادهم الألم وامتلأت عيونهم بالدموع، وأحدث خروجهم ضجيجًا كبيرًا وهم يحملون نساءهم وأبناءهم ومرضاهم وعجائزهم وقد غطاهم التراب والعرق، بعضهم معه عربات؛ تزاحم هو وأهله عليها ووضعوا حقائبهم، وآخرون معهم دواب، وقد أضافوا لها اختراعات عجيبة مثل المقاعد من برادع وسلال.. إلخ، وبعضهم يمشى على قدميه رث الثياب وقد لبس حذاءً قديمًا، وآخرون راكبون عليهم ثياب حسنة يحيُّون الذين يشاهدونهم قائلين: أيها السادة فلتبقوا فى أمان الله.. وبين المذكورين سابقًا يظهر من حين لآخر الكثير من نساء أغنيائهم وقد وضعوا فى جيدهن العقود وغيرها من الحلى... وتظاهرن بالحزن، وآخرون وهم الأغلبية يمشون على أقدامهم متعبين... خائفين، ويعانون من المرارة والتعاسة ويدفعون ثمن الظل والماء لأن الوقت كان صيفًا حارًا"(٥٥).

لم تكن مشاعر كل الأراغونيين جامدة وجافة كما يصور ذلك أثنار كاردونا، ويكفى أنه فى كثير من الأماكن صاحب عملية الخروج "حزن كبير من كل الذين رأوهم أثناء خروجهم"(٥٦). وبعض الموريسكيين لم ينس أصدقاءه الذين تركهم فى إسبانيا، فقد كتب قسيس ريكلا فى سجل التعميد هذه الملاحظة: "لقد ذهب مسلمو هذه الأرض إلى تونس، وسكنوا منطقة تسمى بولبورا، تبعًا لما جاء فى خطاب أرسله أحد المسلمين إلى رجال اللاهوت فى سرقسطة"(٥٧). لقد كانت نتائج الطرد فادحة وقاسية بالنسبة لبعض المناطق مثل كالاتايود وبورخا وتاراسونا، فقد انخفض دخل كاتدرائية تاراغونا

ودخل المنتفعين منها إلى النصف[٥٨]، كما بقى عدد غير قليل من القرى بلا سكان أو انخفض سكانها إلى درجة كبيرة، مثل كالاندا، حيث خرج منها ٣٨١ عائلة، وبقى فيها ١١١ ساكنًا عام ١٦٢٨م، وقد منحت تلك البلدة الدستور الخاص بها[٥٩].

وفى ٨ أكتوبر عام ١٦١٠م أعلن قرار الطرد فى مرسية على الرغم من رغبة أهل المدينة فى بقاء الموريسكيين ، وكل ما هنالك أنه أجل خروج سكان وادى دى ريكوتى.

أما قرار طرد الموريسكيين القطالونيين فقد حدث فى نفس وقت خروج الأراغونيين، وكان صداه أو نتائجه محدودة، لأن عددهم يتراوح بين ٥ و٦ آلاف شخص، وقد عفى عن الكثير منهم نظراً لتسامح أسقف تورتوسا، الذى أخرج لهم شهادات حسن سير وسلوك ، بل إن بعض المطرودين عادوا كما سنذكر ذلك فيما بعد، وكانوا يعيشون على ضفاف نهرى الأيبرو والسغرى، أما باقى قطالونيا فكانت تجهل المشكلة، وبهذه الطريقة يمكن أن يفهم خطاب التهنئة الموجه من مستشارى برشلونة إلى الملك (بصدد الحل المقدس الذى اتخذتموه)، وهو موقف يختلف عن مواقف المدن الأخرى مثل مرسية[٦٠].

وفى مملكة مرسية أعلن القرار فى ٨ أكتوبر، وقد اقتصر فى البداية على الموريسكيين الغرناطيين الذين دخلوا حديثًا فى المسيحية، على الرغم من معرفتهم الفنية بصناعة الحرير. أما بالنسبة للباقين ويدعون سكان وادى ريكوتى حيث يعيش أغلبهم فى تلك المنطقة فقد أجل الطرد بسبب التقارير التى تتحدث عن مسيحيتهم.

الجزء الرئيسى من عملية الطرد انتهى خلال عام ١٦١٠م فى كل إسبانيا، ولكنه تتابع لمدة ثلاث سنوات من أجل إتمام الطرد النهائى، وهو ما يدل على انتصار رأى المتشددين فى البلاط الملكى. أما الوساطات القوية التى حاول الإقطاعيون استخدامها فقد باءت بالفشل. كما فشلت أيضًا طلبات الكثير من المدن للإبقاء على جزء من ذلك الشعب المجتهد، وبقى بهذه الوسيلة الطريق مفتوحًا أمام المتطرفين أصحاب نظرية

(نقاء الدماء)، وكان كل موريسكى أو من سلالة الموريسكيين فى رأيهم مشكوكًا فيه، كما يلوث وجه إسبانيا التى يجب أن تخلو روحها الكاثوليكية من أى وصمة. وكما هو معروف فإن فى بيان نقاء الدماء كان ممنوعًا إخفاء أقل سابقة مهما كانت بعيدة، ومثل ذلك فى حالة الموريسكيين حيث لم يكن يسمح لهم بإخفاء أقل علاقة؛ ولهذا فضلوا طرد كل المشكوك فيهم - مع علمهم أن هذا قد يضر بعض المتنصرين عن اقتناع - حتى لا يتركوا أى أثر من تلك "البذرة السيئة" فى الأرض الإسبانية.

لم تكن مسئولية الملك الشخصية فى هذا القرار موضع شك. وفى أكثر من مرة، تم تبنى الحل غير المتسامح فى استشارات كان من الواضح فيها الميل للأخذ بالحلول الرحيمة. وسنتحدث فى فصل قادم عن الذين استطاعوا البقاء.

وعلى الرغم من كل ذلك فهؤلاء كما قلنا فى البداية كان يمكن أن يكونوا كثيرين، بعضهم بقى عن طريق شهادات كنسية، والبعض الآخر عن طريق امتيازاتهم القديمة، وفريق ثالث عن طريق الذين يخفونهم سواء رغبةً فى مصلحة أو رحمةً بهم. لكن كل هذه المحاولات والرغبات الطيبة أمام اللوائح الملكية لم تجد شيئًا، وكلف كونت سالاثار بتنفيذ الطرد الشامل فى عام ١٦١٨م، حيث أُلغيت كل القرارات السابقة الخاصة بإعفاء بعض الأشخاص من الطرد، وقام جيش من المندوبين فى كل إسبانيا للبحث عن بقايا تلك السلالة التى حكم عليها بالفناء.

ولقد فحص لابيرى أحداث صراع[٦١] هذه المرحلة بدقة، فوجده صراعًا بين كتبة وقساوسة. ففى أندلوثيا دافع ماركيز ألغابا عن تابعيه بأن لهم امتيازات منذ زمن بعيد، وأنه لم يسبق عقابهم أبدًا أمام محاكم كنسية، وفى أرشيدونا تمكن الموريسكيون من الحصول على إعفاء من الفارضة وهى ضريبة خاصة بالموريسكيين فقط، وفى غرناطة رحل الكثيرون من الذين كانوا قد تمكنوا من تجنب الطرد الأول إلا أن كثيرين منهم استطاعوا البقاء من خلال علاقاتهم أو من خلال التخفى بين الناس الآخرين، وبقى كذلك العبيد الملقيون من أصل مسلم، لأنهم اعتبروا جزءًا من الأموال، وفى قشتالة كان التجمع المهم الذى بقى هو فى (كامبو دى كالاترابا)، وعلى العكس من

ذلك؛ ففي طليطلة وبعض القرى المجاورة استطاع العمدة لوبيث ماديرا أن يكتشف حوالى٢٠ أسرة.

أما فى أبيلا عام ١٦١٠م، فقد احتُرمت بعض الأسر الغرناطية؛ لأن الأسقف شهد بمسيحيتها، أو لأنهم استطاعوا إثبات نسبهم لمسلمين كانوا قد سلَّموا بعض الأماكن فى البشرات أيام الملكين الكاثوليكيين، ومع ذلك فقد صدر أمر بخروجهم أخيراً فى ٣ مايو عام ١٦١١م. وجرى الشيء نفسه مع المدجنين الذين كانوا يقيمون فى تلك المنطقة منذ زمن بعيد، وكانوا يشبهون فى تصرفاتهم المعيشية المسيحيين لحد كبير، لكن الأوامر كانت واضحة: فكل من كان يعيش فى أحياء منفصلة ويدفع الفارضة يجب أن يخرج، وقد ذكر "غونثاليث دابيلا" أن عدد هذه الأسر قد يصل إلى ١٧٠ أسرة تبلغ حوالى ٧٧٠ شخصاً ؛ فباعوا عقاراتهم بأرخص الأسعار، وذهبوا إلى فرنسا وبعضهم بقى فى تولوز، والبعض الآخر وصل حتى مانتو[٦٢].

وفى ٢٥ مارس عام ١٦١١م أقيم احتفال دينى حضره الملك وكان مرتديًا ثيابًا بيضاء وأنيقة جدا؛ تعبيراً عن الشكر للانتهاء من تلك المهمة التى بدأت منذ عامين[٦٣]، ولكن الحقيقة أنه كان قد بقى الكثير لإنهائها تمامًا، فقد كانت الحالات معقدة لدرجة كبيرة.

وعلى سبيل المثال وجد من الموريسكيين من تعاونوا مع السلطة ؛ ومنهم المرشدون عن إخوانهم والجلادون، الذين كانوا يخافون من انتقام أبناء جنسهم خارج إسبانيا، كما وجدت بعض هذه الحالات فى فالنسيا وحالة أخرى فى باثا، الخاصة بمشكلة الأخوين خيرونيمو وماغدالينا (من كابيدو)؛ حيث كانا قد شهدا أمام محاكم التفتيش، وقد أمرت المحكمة العليا محكمة غرناطة أن تحاول إعفاءهما من الطرد، أو (لا يخرجوا مع أبناء باثا)[٦٤].

هذه الأحداث يعتبر أشهرها وأكثرها مرارة ما يخص موريسكيي وادى ريكوتى، وهو اسم خاص لـ ٦ قرى فى وادى سيغورا، وكان الوادى تابعًا لجماعة سانتياغو وللسيد لويس فاخاردو ماركيز لوس بيليث وهو شخصية معتبرة، وكانت له مصلحة

مـقبـولة فى أن لا تخـرب قـرى دائرتـه، ولكن فى ٨ أكـتـوبر عـام ١٦١١م وقـع الملك قـرار طرد هؤلاء مع الموريسكيين الآخرين القدمـاء فى مملكة مرسـية، وقـد ارتفعت الأصـوات لصـالحهم قائلة: إنه يمكن اعتبارهم مسيحيين.

ثم قـرر إرسـال شـخـصـيـة مـوثوقة عند القسيس الملكى الأب إليـاغـا، الذى اخـتـار الراهب خـوان بيـريدا الذى كـتب تقـريراً(٦٥) جـيـداً عـام ١٦١٢م قـد عـدَّد فـيـه طبـقـات الموريسكيين الذين بقوا فى تلك المملكة، وأكد مسـيحية موريسكيى منطقـة ريكوتى التى تجلت فى الشعائر العامة التى رآها؛ بحيث لا يُشَكُّ فى صـلاحيتها وصحتها، حتى إنهم حين علمـهم بقرار الطرد قاموا بالصلوات العامـة والاحتفـالات الدينية المسيحية وغيرها من مظاهر التدين المسـيحى، بالإضـافة إلى أنهم يشربـون الخمر ويأكلون الخنزير منذ مدة طويلة، وحتى إن الذين لديهم أقل مـن أربعين عامـًا لا يتحـدثون اللغـة العربيـة ولا يفهمونها، ولهذا كان هذا الراهب يرى أن طردهـم عمل غير مناسب.

ورغم هذا التقـرير الوافى فإن الشـىء الوحيد الذى حصل عليه هو تـأخير طردهم إلى حين، أمـا المتشـددون فى مـجلس الدولة فقد اعـتـقدوا أن كل هذه الإثباتات مـجرد مسرحـيـة مفـتعلة، وأن أولئك الموريسكيين هم مسلمـون فى السـر كغيرهـم ، وكـان للملك الرأى نفسه.

وفى أكـتـوبر عـام ١٦١٣م كلف كـونت سـالاثار بطرد ٢٥٠٠ مـوريسكى من وادى ريكوتى، إلى جانب بقـايا الموريسكيين فى مرسية، وبذلك يصل العدد بين ٦ و٧ آلاف، رحلوا من كـارتاخـينا إلى إيطاليا أو فـرنسـا، وفريق منـهم نزل فى جـزر البليـار وطلب السماح له بالبقاء هناك، وقد استشـار الوالى مدريد بشأنهم فكانت الإجابة سلبية.

هذا التشـدد يجب أن يكون قـد سـبب حـين ذاك مـوجـة من الاسـتنكار من قـبل الكثير من الأشخـاص الذين يتسـاءلون: كيف يمكن لهؤلاء الفقراء من بقايا الموريسكيين أن يكونوا خطراً على أمن الدولة؟ وعلى أى أسس لاهوتية يطرد مـواطنون كانت الكنيسة قد عمدتهم، وهـم يريدون أن يعيشوا مسيحيين؟!. وحتى كونت سـالاثار نفسـه قال " لقد حدث عدد كبير من الزواج بين مـوريسكيات ومسيـحيين من أجل حرصـهم على البـقاء،

والآن بدأوا ينفصلون ويدخلون رهبانًا وراهبات فى الأديرة، بينما يقوم الرهبان ببيع إذن الدخول لهم كما تباع سلة من الكمثرى، إنها لفضيحة كبرى ما يقوم به الرهبان حيث يبتزون أموال أولئك التعساء.

لقد أطلق ثيربانتيس اسم "ريكوتى" على بطل أحد فصول روايته الشهيرة "دون كيخوتى" ولا يمكن أن يكون هذا مصادفة، فهو يعكس الأثر الذى تركته المرحلة الأخيرة من الطرد الذى استحوذ على اهتمام الرأى العام، وقد اهتم كل المعلقين على أعمال ثيربانتيس بهذه النقطة، كما أوحى مؤخرًا (لماركيث بيانوبيا) بتحليل لطيف، حيث قال: لقد اعتُبر موريسكيو ريكوتى رهائن صراع بين المتشددين والمعتدلين وانتهى الأمر بانتصار حاسم للمتشددين، وتأكدت سيطرة العقليات المغلقة على جميع نواحى السياسة الإسبانية. أصبح اسم ريكوتى منذ ذلك الوقت علامة على النكبة والنهاية السيئة، (وبقلم ثيربانتيس) تحول اسم ذلك المكان إلى اسم علم مشهور؛ ذلك لأن الموريسكيين من إقليم لامانشا أصبحوا نموذجًا للضحية البريئة، لقد أراد ثيرفانتس أن تكون شخصيته الأدبية النبيلة ذكرى حية للفصل الأخير والحزين للطرد، وقد لاحظ أنه موضع مدح وفخر كما لو كان انتصارًا فى معركة مجيدة"[٦٦].

كم عدد الموريسكيين الذين طردوا من إسبانيا؟ حول هذه النقطة ترك للخيال العنان، ودائمًا باتجاه يميل لزيادة العدد، وليس عند المعارضين للطرد فقط، فمثلاً أحد أصحاب المعرفة الكبيرة مثل مانويل دانبيلا يظن أنه يمكن أن يصل إلى نصف مليون[٦٧]، وهذا الرقم يبدو منطقيا، (والبعض أوصل الرقم إلى المليون) وحاز هذا الرقم ثقة الكثيرين ونجد ذلك مكررًا فى أعمال ليا وبيريث يوستامنتى وريغلا[٦٨]. أما هاميلتون فمال إلى الجانب المعاكس حيث خفضه إلى أكثر من مائة ألف، لكن الرقم الدقيق نسبيا هو الذى أعلنه منذ حدوث الطرد كتّاب؛ من الواضح أنهم اطلعوا على وثائق رسمية: وقد كتب الراهب الدومينيكى ألونسو فيرنانديث، مؤلف (تاريخ بلاسنثيا) (فتبعًا لإحصاء حقيقى من سكرتارية الدولة كان عدد الموريسكيين الذين طردوا هو ٢٧٠ ألفًا)، وقد كرر هذا الرقم كاسكاليس، مؤرخ مرسية، بليدا الذى استعمل أيضًا

وثائق حكومية حدد الرقم بـ ٣٤٠٦٧٢ شخصًا. أما بينيالوسا وسالاثار دى ميندوثا فذكرا أن الرقم أكثر من ٣٠٠ ألف.

وبعد فإن رقم ٢٧٠ ألفًا هو الرقم نفسه الذى وصل إليه لابيرى عن طريق السجلات الحكومية ويكون اختصاره كالتالى: فالنسيا ١١٧٤٦٤ ، وأراغون: ٦٠٨١٨، وقطالونيا: ٣٧١٦، وقشتالة وإكستريمادورا: ٤٤٦٢٥، مرسية: ١٣٥٥٢، أندلوثيا الغربية: ٢٩٩٣٩، غرناطة: ٢٠٢٦، الإجمالى: ٢٧٢١٤٠ شخصًا.

أما لابيرى فيقبل هذه الأرقام وهى غير كاملة بالنسبة لمرسية وأندلوثيا، وبذلك فالإجمالى يمكن أن يصل إلى ٢٧٥ ألفًا، وفى الحقيقة إذا أخذنا باعتبارنا الوثائق الناقصة (وهى ليست كثيرة ولكن بعضها غير موجود) هذا إلى جانب الخروج غير الشرعى، فأعتقد أنه يمكننا أن نتحدث عن٣٠٠ ألف شخص، إلى جانب ١٠-١٢ ألفًا قتلوا فى ثورات فالنسيا، وفى الطريق إلى موانئ الترحيل.

* * *

هوامش الفصل التاسع

(١) Lapeyre. Obra citada, p. 70.

(٢) Coronica...p. 1.043.

(٣) Boronat, II, 490- 91 y apendice VII

(٤) خطاب صادر فى ٢٩ مارس عام ١٦٠٨م ، من قبل مجلس البرتغال وبياناته كالتالى:

A.H. ms. 9 – 6436 – 3

ويقول المؤلف فى هذا الخطاب: "عندما كنت أسيرا فى تونس وصلت سفينة فرنسية وعلى متنها أكثر من ٢٠٠ موريسكى من الرجال والنساء والأطفال، وقد ركبت فى هذه السفينة إلى فرنسا، وعندما وصلت إلى هناك وجدت سفينة إنجليزية أخرى تبحر إلى تونس وبها ما بين ٢٥٠ – ٥٠٠ موريسكى، كذلك رأيت على الحدود بين أراغون وفرنسا حوالى ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ موريسكى ينتظرون سفينة للإبحار فيها".

(٥) Boronat, apendice 9.

(٦) هذه الاستشارة نقلها دانفيلا فى المرجع المذكور ص ٢٧٤ – ٢٧٧.

المستشارون هم: دوق دى ألبا، ودوق الإنفانتادو، وكونت ألبا، وماركيث بيلادا، ورئيس قشتالة، ورئيس ليون، وكاردينال مدينة طليطلة.

(٧) Escolano, *Decadas*...libro X, capitulo 47.

(٨) Id. Id. Capitulo 48.

(٩) Danvila, obra citada, 293

(١٠) لقد نشر نص القرار العديد من المرات آخرها فى:

Garcia Arenal (***Los Moriscos*** , 252 – 255).

(١١) لقد مدح كل المؤلفين سلوك الدوق دى غانديا الذى رافق أكثر من ٥٥٠٠ من رعاياه حتى ميناء دينيا. أما الدوق دى ماكيدا وكذلك الدوق ديل إنفنتادو وكاردونا، وماركيث البيضة، وكونت ألاكواس وآخرون فقد اهتموا هم شخصيا أو نوابهم بالبحث عن طريقة مريحة للسفر لرعاياهم.

(١٢) La carta del Dr. Nofre la reproduce Janer, apendice 104.

لقد نقل جانير خطاب الدكتور نوفر فى الملحق رقم ١٠٤ فى مرجعه المذكور.

(١٣) كتب الدكتور كاسانوفا النائب الكنسى العام لفالنسيا: "أما موريسكيو فال دى إيورا فلا يعرف إذا كانو قد قاموا بأعمال تخريب فى الكنائس، وأما سكان بيكورب فقد أخذوا معهم الكأس وحطموا الزينات". Boronat, II, 236.

(١٤) "***Expulsion de los moriscos de Espana***

إن قصيدة " طرد الموريسكيين من إسبانيا" تتكون من ثمانية أناشيد من المناسب أن يعاد نشرها لقيمتها التاريخية. ولقد راجعت النسخة الموجودة فى المكتبة الوطنية، والتى كتب عليها التعليق التالى بخط غايانغوس: "نسخة كاملة جدا لكتاب غريب قال عنه سالبا إنه لم ير منه نسخاً أخرى غير التى لديه".

(١٥) " من بين موريسكيى بيكانتى والكاثار كان يوجد موريسكىٌ ثرى اضطر إلى دفع أجر نقل كل الفقراء وذلك حتى لا يترك أحدا منهم. وقد كان هؤلاء من أوائل الذين وصلوا إلى البربر وبقوا هناك حيث عمروا منطقة سارخيل". Escolano , ***Decadas*** ....col. 1.883

ولقد عومل الذين سافروا فى السفن الملكية معاملة طيبة، أما الذين ذهبوا فى سفن تم التعاقد عليها بصفة شخصية من قبل الموريسكيين فقد أجبروا على دفع ثمن عال، وفى بعض الأحيان كانوا ضحيه طمع وخيانة أصحاب السفن".

(١٦) Bendicho : ***Cronica...de Alicante*** , p. 202. Edicion y notas de F. Figueras. Alicante, 1960.

(١٧) يؤكد بينديتشو أن: "دوق ماكيدا قاد بنفسه رعاياه من موريسكيى إيلتشى وكريبيانتى وإسبى إلى الحصن الذى كان لصاحب الجلالة على شاطئ البحر بالقرب من جزيرة سانتا بولا".

(١٨) يوجد فى كتب المؤرخين الكثير من الأخبار حول أعمال العنف، مثلا يقول إيسكولانا: "عندما رأى العامة من المسيحيين القدامى الموريسكيين مطمئنين حيث رفع عنهم يد السلطة المدنية بدأوا فى الخروج فى مجموعات فى الطرق والحقول يقتلون ويسرقون الذين يجدونهم".

(١٩) *Expulsion* .. 189-190.

(٢٠) Decadas….columna 1972 y Fonesca , libro V, capitulo 4 y 5 .

(٢١) يورد بورونات القرار ويعلق قائلا: "إن هذه المواد قد تبدو من قبل الرحماء قاسية وغير إنسانية، ونحن لن نصفها بأنها رحيمة أو إنسانية، ولكننا نقول إنها لم تكن قانونية وعادلة فحسب وإنما أيضا كانت ضرورية ".

(٢٢) Boronat, II, 207 y 240.

(٢٣) Id. 246 y appendices 24 – 25 .

يبدو أنه فى مقاطعة فالنسيا بقى حوالى ألف طفل تم الإنفاق عليهم من أموال القساوسة.

(٢٤) حول سرقة الأطفال من قبل نائبة الملكة دونيا إيسابل بيلاسكو يذكر أنها كانت تسأل عن الموريسكيات اللاتى اقترب موعد وضعهن وتضعهن فى مكان سرى وتستولى على أطفالهن "وتقليدا لهذا فقد تمت سرقة بعض الأطفال، كما تم الاستيلاء على أطفال آخرين وذلك عندما كانوا يستولون على ممتلكات المهزومين فى الثورة. ولولا الخوف من تمرد الآباء لما كانوا ليتركوا أى طفل يقل عمره عن عشر سنوات يرحل، ففى وسط الكثير من الأضرار الدنيوية لم يكن يحزن أكثر من هذا الضرر الروحى".

كذلك فقد حاول أسقف أوريهولا فراى أندريس بلاغير مع الآباء وأولياء الأمور لكى يتركوا لهم أبناءهم، حيث أكد لهم أنه سوف يعاملهم كما لو كانوا أبناء إخوة له، ولم ينجح فى أن يحقق أى شىء من هذا".

وداخل هذه المصيبة التى تعنيها الرغبة فى نزع الأبناء من آبائهم، فإن هذا السلوك يبين أنه أثناء طرد الموريسكيين لم تكن توجد أى مشاعر عنصرية؛ فلم يكونوا يكرهونهم بسبب دمائهم وإنما بسبب عقائدهم. ولم يحاولوا فعل شىء من هذا القبيل مع اليهود.

(٢٥) كانت توجد أنواع من السلع التى من الممنوع تصديرها للدول الأعداء، مثل الأشياء التى من المحتمل استخدامها فى العمليات الحربية، وكان كل المحمديين يمثلون ذلك من حيث المبدأ (أى الدول الأعداء). أما الجياد فقد كان ممنوعًا تصديرها بالنسبة للجميع".

(٢٦) وهذا ما يؤكده كابريرا دى كوردوبا الذى كان يضيف أن الطرد سوف يجعل من الـصعب تحصيل الضرائب التى تدفع تبعا لعدد الأفراد مثل الكابالاء والمليون.

Relaciones ...399.

(٢٧) يورد قائمة بالأشخاص الذين يجب أن يعولهم كل من يحصل على راتب كاهن.

(٢٨) توجد نسخة فى المكتبة الجامعية لبلنسية تحت الرقم التالى: 11 – 85 – 109

وأخرى فى مكتبة غرناطة ورقمها كالتالى: A-31-123-34

(٢٩) عند جمع الأرقام الإجمالية، يبدو أن من مملكة غرناطة يوجد ٢٠٢٦ منفيـا فقـط، ولكنـه يضيف: "يجب اعتبار هذه الأرقام الحد الأدنى، لأنه يوجد على الأقل رقم لم تتم إضـافته وهو الخاص بموريسكيى أرتشيدونا.. أما الأرقام الأكبر المهمة فتخص ممالـك الأنـدلس وغرناطة ومرسية". وبالفعل فإن الأرقام الحقيقية تكون أكبر من المذكورة بكثير.

(٣٠) نورد هذه الوثيقة المهمة فى الملحق الثامن.

(٣١) Anales de Granada, tomo III, ano 1610.

(٣٢) A.G.S. CJH. 494

استشارة ١١ فبراير عام ١٦١٠م. لقد طلبت مدينة غرناطة أن يبقى بالإضافة إلـى الاثنـى عشر المتخصصين فى زراعة قصب السكر، اثنا عشر آخرون يعزقون الأرض واثنا عـشر صباغا .

(٣٣) Id. id. 502, consulta del 23.7. 1611.

(٣٣مكرر) وذلك تبعًا للعينة التى أخذها خ. أراندا دونثيل عن أربعة أحياء قرطبية، وذلك فى دراسة:

Contribucion al Estudio de Los moriscos en Cordoba L'anales del instituto nacional de bachillerato luis de Gonbora, 1972

(٣٤) Janer, obra citada, apendice 94.

(٣٥) Relacion de algunos sucesos postreros de Berberia, capitulo IV (Lisboa, 1613).

فى تعليق رودريغيث مارين على الفصل الـــ ٥٤ من الجزء الثانى لدون كيـــشوت ينقـــل بعض الأبيات حول سفر الموريسكيين من إشبيلية من قصيدة إسناريا لرودريغو فرنانـــديث دى ريبيرا (النشيد الحادى عشر) الذى كان شاهد عيان، حيث يقول إنـــه تحـــت دعـــوى الرحمة نزعوا من الكثيرين أبناءهم، وهذا ما لم تؤكده مصادر أخرى. أما الشىء المؤكـــد فإن الرؤساء الكنسيين عرضوا إعالة ٣٠٠ طفل (انظر ما ذكر فى رقم ٢٧). لقد نقل كارو باروخا مقاطع من شعر شعبى لمؤلف مجهول، وكذلك قصيدة جسبار دى أغيلار التى لها قيمة تاريخية ووصفية كبيرة، ونظرا لطولها فلن ننقلها، وندعوكم إلى مراجعـــة الأجـــزاء التى اختارها ذلك المؤلف.

Los Moriscos ....1 edicion, 234 – 240).

(٣٦) Lapeyre, obra citada, p. 180

(٣٧) هذا هو الرقم الموجود فى كتاب خوان دى سولاغورين والذى استخدمه ســـيرانو وســـانز، انظر

Nuevos datos sobre la expulsion de los moriscos andaluces . " Revista Contemporanea" , tomo, 90 .

(٣٨) يوجد مستند من أرشيف سيمانكاس يشير إلى أن عدد الموريسكيين الذين أبحروا من ســـان لوكار هو ١٨٥٦٦ مسافرا. ونظرا لأن هذا الرقم هو نفسه المذكور سابقا فإن هذا يجعلنـــا نشك فى أنه يتعلق بالمجموعة نفسها التى أبحرت من إشبيلية حيث إنهم من الطبيعـــى أن يبحروا من سان لوكار دى بارميدا.

(٣٩) يوجد النص الكامل للقرار الملكى فى كتاب بورونات، الجزء الثانى، ص ٢٨٨ – ٢٨٩.

(٤٠) تبعا لإحصائيات رسمية فقد خرج من كاستيا لابييخا ١٨٢٠ عائلة تتكون من ٨٢١٤ فردا، ومن مملكة طليطلة ٤٤٠٢ منزل بها ١٩٨١٨ شخصًا.

(٤١) يورد إيلوى غارثيا دى كيبيدو كلمات هذا المؤرخ المجهول فى كتابه:

Libro burgaleses de memorias y noticias, Burgos, 1931, p. 35

(٤٢) Lapeyre, apendices IX y X.

(٤٣) انظر ما نقوله فى هذه النقطة فى الفصل التالى.

(٤٤) Lapeyre, obra citada, 187.

Theatre Eclesiastico de Espana ...Theatro de Avila. (٤٥)

لاحظ تشابه حكايات الخائفين الموريسكيين مع الخاصة باليهود الذين طردوا عام ١٤٩٢م، الذين قاموا باعترافات مشابهة للسيد ألكورا دى لوس بلاسيوس. والفرق يكمن فى أن أولئك اليهود كانوا يعودون بصورة قانونية وهم على استعداد للتعميد، بينما كـــان الموريـــسكيون يعودون بشكل سرى ويعرضون أنفسهم لعقوبات رهيبة.

A. Munoz Rivera : ***Monografia historico descriptiva de la villa de Hornachos*** (٤٦)
(Badajoz, 1895)

هذا الكتاب قصير وقليل الفائدة ويفيد فقط فى نقل التراث المحلى، مثل الخاص بمكان إلغاء التعميد. ويعتذر بأنه لم يستطع أن ينقل معلومات أكثر لأنه فى أثناء حرب الاســتقلال تــم حرق الأرشيف المحلى. وإن من الأمور المثيرة للفضول أنه مازال يوجد حتى اليوم بئران إحداهما يطلق عليها بئر المسلمين والأخرى بئر المسيحيين.

توجد معلومات أكثر أهمية فى:

Choronica de la provincia de San Miguel del Orden de San Francisco, de fray Joseph de Santa Cruz (Madrid, 1671) .

فى الفصل ٢٢ من الكتاب الخامس يعالج موضوع دير الفرانسسكيين فى هورناتشوس.

تعتبر المراجع التالية أحدث من السابقة:

Los moriscos de Hornachos , corsarios de Sale, de A. Sanchez Perez ("Revista de Estudios Extremenos " 1964) , y ***Recherereches sur la Comedia" Los moriscos de Hornachos***, de Jean Marc Pelorson("Bulletin Hispanque", 1972).

هذه الكوميديا كانت معاصرة للأحداث، مما يجعل من الصعب نسبتها للمؤلف المـــسرحى الفلنسى تاريغا، الذى مات عام ١٦٠٢م، ولها قيمة تاريخية. وقد أورد بيلورسون فى ملحقه شكوى قسيس هورناتشوس.

Origen de las dignidades seglares de Castilla y Leon, libro IV, capitulo 5 (٤٧)
(madird, 1618)

(٤٨) ***Vida del capitan Alonso de Contreras***, (edic. Serrano Y Sanz, B.A.H. XXXVII).

(٤٩) هذا ما يفهم من استشارة وجهت لبرلمان قشتالة، وذلك فى ١٢ مارس عام ١٦١٧، حـــول طلباته التى كانت تدور حول نقطتين: تعويض عن الخسائر التى منى بها، وأن يمنح درجة اجتماعية عالية. وقد منح تلك الدرجة ولم يصرف له أى تعويض وبقى فى الفقر.

(٥٠) A.H.N. Inquisicion, libro 586, folio 71.

(٥١) Obra citada, 55 y siguientes.

(٥٢) مثل دون مارتين دى أراغون، دوق دى بياهيرموسا، وكان سيدا عظيما وعالمــا ويمكــن مراجعة الكتاب التالى حوله:

El problema morisco en Aragon , M. Soledad Carrasco, p. 12 y siguientes.

(٥٣) Fray M. Garcia Miralles, ***Historia de Calanda***, capitulo VIII (Valencia, 1969).

(٥٤) A.H.N. Consejos, 4.418, no 123.

فى ٢٠ ديسمبر عام ١٦١٢م، طلب الكونت من الملك أن يعوضه بسبب فقده مبلـــغ ثلاثـــة آلاف دوقية من ريع المنطقة التى كانت فى حمايته، حتى يستطيع أن يدفع ديونه، وهو ما لا يستطيع أن يفعله الآن، وهو ما يؤدى إلى إضرار مقرضيه. إن ذلك الكونت الشهير كان قد قرر ألا يدفع من ماله الخاص الدوقيات ثلاثة الآلاف الضائعة. وفيما يتعلق بسيد منطقة أورغاث يقول الأب بليدا "كان عمله يقتصر على أن يكون ولـــى أمـــر الموريـــسكيين وبخاصة عندما يبعثون بطلباتهم للعاصمة ".

Coronica....libro VIII, capitulo 4 .

(٥٥) ***Expulsion justificada de los moriscos espanoles*** , 2 parte, capitulo 2.

(٥٦) Vicente de la Fuente, ***Espana Sagrada***, tomo 49, p. 259.

(٥٧) Fray M. Garcia Miralles, obra citada, p. 71.

إن هذا النوع من التعليقات حول أحداث عامة فى سجلات الكنائس نجده شائعًا جدا وكثيرًا ما يقدم مفاجآت غريبة.

(٥٨) La Fuente, obra citada.

(٥٩) Garcia Miralles, obra citada , pagina 70 y apendice XVII.

(٦٠) ويمكن اعتبار حالة كاسكاليس مثالا للدرجة التى وصل إليها النقد الذاتى (التى وصلت إليها الموضوعية). هذا المؤرخ، وهو أكثر مؤرخى مرسية دقة، لا يبدى فقط امتعاضه عند معالجة أى شىء يتعلق بالموريسكيين، وإنما يترك جزءًا من تاريخ المدينة دون معالجة (حتى لا يضطر لذكرهم). وعند الحديث عن أهل المنازل الموريسكية الـ ٩٧٨ الذين كانوا يعيشون فى المدينة والقرى المحيطة، أكد المؤرخ وخانير (فى كتابه المذكور) أنه كان من الصعب التعرف عليهم من بين غيرهم من المسيحيين، وليس ذلك بسبب عددهم المحدود وإنما بسبب التقدم الذى حققوه فى عملية التنصير، حيث لم يعاقب أحد منهم خلال الفترة الأخيرة من قبل محاكم التفتيش، ولهذا كان يجب اعتبارهم مؤمنين وأتباعا مخلصين.

(٦١) Obra citada, 176 y siguientes.

(٦٢) ***Teatro Eclesiastico de Espana***. Teatro de la iglesia de Avila.

(٦٣) Don Diego de Guzman, ***Vida y muerte de dona margarita de Austria,*** 2 parte capitulo 20.

(٦٤) A.H.N. Inquisicion, libro 586, folio 320.

(٦٥) نقله لابيرى فى الملحق رقم ١٦.

(٦٦) ***Personaje y temas del Quijote,***

فى هذا الكتاب نفسه ص ٢٣٢ – ٣٣ ترد قائمة مراجع كاملة حول وجهة نظر ثيربانتيس حول الموضوع الموريسكى والتفسير الذى تم بشأنه.

(٦٧) Obra citada, 337 – 339.

(٦٨) Lea, ***The moriscos***...359. Perez Bustamante, ***El Pontificado de Paulo V. y la expulsion de los moriscos*** . Regla, obra citada, p. 79.

لقد قبل بعد ذلك الأرقام التى ذكرها لابيرى.

الفصل العاشر

الآثار الاقتصادية لطرد الموريسكيين

خلال قرون عديدة أثير جدل حول الآثار الاقتصادية للطرد، لكن فى السنوات الأخيرة يوجد جهد ملحوظ لدراسة هذا الموضوع من وجهة نظر علمية؛ بعيداً عن المقدمات الخاطئة، وقد بدأ هذا الجدل منذ اللحظة الأولى لحدوث الطرد، ورغم أن الفرصة قد أتيحت أكثر لسماع صوت المؤيدين للطرد لأن الأصوات غير المؤيدة كانت تنزوى وتخشى أن تقوم بنقد قرار ملكى قائم على أسس دينية. لم يكن أحد يستطيع أن ينفى أن الآثار الاقتصادية للطرد كانت مدمرة. لكنهم كانوا يسعون للتعبير عنها بأساليب لطيفة، تعبر فى ذاتها عن الكراهية التى يحملونها نحو تلك الأمة المغلقة، ونحو عقلية بعيدة عن سلوك الفرسان، فالرجل القشتالى يقدر المال وهو مستعد لعبور المحيطات وخوض المعارك من أجل كسبه، ليس ذلك لقيمة المال فى ذاته، وإنما لأنه وسيلة للحصول على الشرف والجاه والوجاهة، بينما الكدح والاجتهاد الموريسكى يبدو لهم استجابة لغريزة قائمة على الشح والبخل.

يقول كريستوبال بيريث دى إيريرا فى تقرير له عنهم: "كان يظن أنهم مهرة وخاصة فى زراعة البساتين، ولكن عند التدقيق فى الأمر، يتضح أنهم لم يكونوا يجيدون شيئًا وكان همهم أن يأخذوا أموالنا فقط، حيث كانوا حمّالين وبائعين للأطعمة، وكانوا بهذه الطريقة يمتصون خيراتنا، بينما كانوا يتعاونون حتى لا يبقى بينهم فقراء ويحرمون المسيحيين من تلك الفوائد .. ولم يكونوا ينفقون شيئًا مما يكسبونه، حيث لا يشترون الخمر، وهو أحد أبواب الإنفاق الرئيسية بالنسبة لعامة الناس، وهو الذى

يساعد على دفع الضرائب[١]، كما أنهم كانوا لا يشترون خنزيراً وغيره من الأطعمة المرتفعة الثمن وكانوا يدفعون ضرائب أقل منا"[٢]. فى هذا النص يوجد كم هائل من الاتهامات التقليدية الشائعة ضد الموريسكيين.

والذين كانوا يحاولون التقليل من أهمية الآثار الاقتصادية لم يكونوا يرفضون مهارتهم ، وإنما كانوا ينفون فائدتها بالنسبة لمجموع السكان؛ وهذا ما عبر عنه ثيرفانتس بأسلوبه الرصين فى قصته الشهيرة "حوار بين كلبين" فى الفقرة المشهورة والتى يستشهد بها كثيراً حيث جاء فيها:" إن كل ما يشغلهم هو جمع المال، ولكى يحصلوا عليه فإنهم يعملون ولا يأكلون، وحينما يدخل الريال[٣] فى حوزتهم يُحكم عليه بالسجن المؤبد وبالظلام الأبدى، فهم يكسبون دائمًا ولا يتفقون مطلقًا، ويجمعون أكبر كمية من النقود موجودة فى إسبانيا. فهم صندوق ثروتها وهم العتة التى تفسدها فى آن واحد، وكل ما يصل إلى أيديهم يخفونه ويحتفظون به، وإذا اعتبرنا أنهم كثيرون وكل يوم يكسبون ويخفون ما يكسبونه.. فهم يسرقوننا بطريقة مستمرة حيث يبيعون لنا فواكه أرضنا، ويتحولون إلى أثرياء".

من البدهى أن الموريسكيين الذين يعرفهم ثيرفانتس يجب أن يكونوا من غرناطة حينما طردوا وانتشروا فى أنحاء قشتالة، وكان غالبيتهم من صغار التجار، وكانت الطبقة المتوسطة والعليا القشتالية تستفيد منهم بصورة أقل من تلك التى يقدمها الموريسكيون الفالنسيون والأراغونيون الذين كانوا يعانون من ضرائب ومتابعة مستمرة. وحول الخسارة الناتجة عن رحيلهم يوجد الكثير من الأصداء فى أعمال الكُتَّاب المعاصرين؛ فمثلاً كابريرا دى كوردوبا يعطينا فكرة عن البلبلة التى حدثت فى أراغون؛ بسبب عدم دفع الضرائب المفروضة على الموريسكيين والتى كانت تصل إلى ستة ملايين[٤].

وعند موت فيليبى الثالث، غيَّر ابنه – الذى تولى المُلك بعده – النظام السياسى السابق، حيث فقد كثير من الحُكام السابقين نفوذهم ولم يتورع الكتَّاب عن انتقاد قرار الطرد باعتباره مضراً. أما بالنسبة للمؤرخين فى عصر التنوير مثل (كامبومانيس،

وأوريال، وكاباروبس) فقد تحول الموضوع إلى فرصة مناسبة لنقد النظام السابق، فكما بولغ فى عدد المطرودين، بولغ أيضًا فى تعداد الآثار الاقتصادية السلبية على إسبانيا نتيجة للطرد، وحدث الشيء نفسه فى العصر الليبرالى فى القرن التالى.

أما الكتاب المؤيدون للإجراء، مثل المؤرخ بورونات فإنهم وإن كانوا يقللون من آثار الإجراء فإنهم لا ينفونها، وموقف المؤرخ إيرل ج. هاميلتون يبدو مثيراً للاهتمام، حيث انطلق من دراسة حركة الأسعار فى إسبانيا فى القرن السادس عشر(٥)، ووصل إلى النتيجة التالية: أن عدد الموريسكيين يجب أن يكون أقل بكثير مما قيل، وأن تأثيرهم فى الاقتصاد ليس خطيراً؛ حيث إنه بعد عام ١٦٠٩م لم يحدث ارتفاع مفاجئ فى الأسعار بسبب رحيل تجمع عمالى كبير. وقد أيد هذا الافتراض جون سالير Salyr دون أن يضيف أدلة جديدة(٦).

وإذا كان موقف كل من هاميلتون وسالير - الذى كان يميل للتقليل من الآثار الاقتصادية السلبية - يعتبر رد فعل على مدرسة أخرى قائمة على المبالغة، إلا أنه سقط بكامله عندما أثبت لابيرى أن الخسائر فى عدد السكان الناتجة عن قرارات ١٦٠٩-١٦١٠م وصلت إلى ٣٠٠ ألف شخص أى ما يساوى ٤٪ من إجمالى عدد السكان فى إسبانيا، ويبدو أن النسبة منخفضة، إلا أنها تمثل نسبة مرتفعة من السكان القادرين على العمل، حيث لم يكن يوجد بين الموريسكيين (على الأقل نسبة كبيرة) نبلاء ولا محتالون ولا جنود ولا رهبان ولا متسولون(*) ويقول ألونسو فيرنانديث وهو مؤرخ من بلاسنثيا: "لم يكونوا يسمحون لأحد منهم أن يتسول"، لم يكونوا يمثلون نسبة عالية بين الطبقة العاملة فقط؛ بل كانوا يكدحون ويجدون، ربما بسبب الحاجة أو بسبب الموهبة والعادة. وحول هذه النقطة يوجد الكثير من النصوص المتفقة فيما بينها، فبعد الاستيلاء على غرناطة قام الألمانى مونزير Munzer

---

(*) يعدد المؤلف الفئات التى لا تعمل، وبالتالى يكون جل الموريسكيين الذين طُردوا من أبناء الفئات العاملة. (المراجع)

برحلة عبر إسبانيا، وترك لنا حديثًا مليئًا بالملاحظات الدقيقة والعجيبة(٧). فمنذ مروره بأراغون لاحظ أنه : "يعيش حوالى ستين موريسكيا فى مكان لا يتسع لخمسة عشر مسيحيا، وذلك لمهارتهم فى الرى وغيره من النشاطات الزراعية"، وهم كما يقول: "زهاد فى طعامهم ويخفون الكثير من المال"، بعد ذلك بقرن قام الكاهن اليسوعى بدرو دى ليون بزيارة، وعلى الرغم من أنه لم ير مباشرة السكان القدامى الموريسكيين فى البشرات، فإنه بعد أن جمع آثارًا لهم وذكريات عنهم، استطاع بها أن يقارن الموريسكيين مع السكان الجدد، وعلى الرغم من أن السكان الجدد قد أخذ كل فرد منهم نصيب ثلاثة أو أربعة من الموريسكيين فإنهم كادوا يموتون جوعًا لأنهم لم يكونوا يعملون بجد وكدح مثل الموريسكيين(٨).

أما البحث المناقض لبحث هاميلتون، وربما فيه مبالغة أيضًا، فهو لبيير تشانو Pierre Chano الذى يرى فى طرد الموريسكيين أحد الأسباب فى تردى الأوضاع الاقتصادية الإسبانية عبر الأطلنطى حيث يقول: "من المحتمل أن النتائج المباشرة للطرد، بالإضافة إلى عوامل أخرى، قد أدت إلى تدهور فى مستويات حركة النقل إلى الهند (أمريكا اللاتينية)، حيث انخفضت تلك الحركة فى الفترة (١٤-١٦٢٢م)، ولم تبلغ الأرقام القياسية التى حققتها فى الفترة (٥-١٦١٣م) وعند صدور قرار الطرد فى خريف ١٦٠٩م لقى ترحيبًا كبيرًا من قِبل الشعب الإسبانى، ولم يرتفع صوت واحد نزيه فى صالح الشعب الموريسكى، أما شكاوى النبلاء فلم تكن نزيهة لأنهم كانوا يخافون على مصالحهم. وأن ذلك الترحيب الذى تم فى حينه يمكن أن يقارن بما يحدث عند الحصول على قرض، حيث لا نعرف الحقيقة إلا عندما نكتشف الثمن الباهظ الذى دفعناه"(٩).

إن كل هذه الآراء (وغيرها الكثير الذى يمكن أن يضاف) تنظر للأمر بمنظار هذا العصر. إن الحديث عن الاقتصاد الإسبانى فى القرن السابع عشر يبدو استباقًا للزمن وغير مناسب، فكل ما كان موجوداً هو اقتصاد إقليمى يتحرك باستقلال نسبى، وعلى الرغم من أن النظام السياسى قد هيأ ظروفًا عامة بين تلك الاقتصاديات فأزمة العملة

التى كان مركزها إقليم إشبيلية - قادش- لم تكن تخف حدتها فى ولايات إقليم أراغون. وكانت توجد داخل مملكة قشتالة أقاليم منغلقة على نفسها، مع نسبة مرتفعة من الاستهلاك المحلى وحركة نقدية ضعيفة. وإذا أضفنا إلى هذا أنه توجد مناطق فيها أغلبية موريسيكية، وأخرى يمثلون فيها نسبة ضئيلة ، وأحيانًا لا يوجد فيها موريسكيون مطلقًا، يمكننا أن نعرف - بذلك - إلى أى مدى لم يكن الحديث صحيحًا عن تأثير طرد الموريسكيين. فى هذا المصطلح المجرد نقصد ما سمى بالاقتصاد الإسبانى.

الطابع الإقليمى يفرض نفسه بقوة فى هذا المجال وربما بمنطق أقوى، كما فرضها فى مجالات أخرى فى تاريخنا، ففى الحقيقة فى بعض الأحيان يذكر رأى يوصف بأنه يمثل كل مملكة قشتالة، ولكن هذا يحدث عندما تكون هناك رغبة فى عرض افتراض ، فمثلاً: صدر قرار فى المجالس البرلمانية عام ١٦١٠م من أجل فرض ضرائب على الحرفيين وعمال الحقول؛ نظرًا لارتفاع أجورهم بصورة باهظة، وعلّل ذلك برحيل الموريسكيين[١٠]، ومرت الأعوام وتغير الملك ورجال الإدارة، وكجزء من سياسة اقتصادية جديدة، فإن إدارة فيليبى الرابع أصدرت قرارًا فى ٢٢ سبتمبر عام ١٦٢٢م بصدد تخفيض الضرائب بنسبة ٥٪، وكتبرير لذلك الإجراء ذكروا أن انخفاض عدد السكان بسبب طرد الموريسكيين جعل الكثير من تلك الدوائر غير قادر على دفع الضرائب التى يُفرض فيها نسبة عالية[١١]. وبعد ذلك بثلاثة أعوم طلبت المجالس البرلمانية خفض نوع معين من الضرائب، ومن بين الأسباب ذكروا: " الانخفاض الشديد فى المعاملات والتجارة بسبب طرد الموريسكيين لأن الكثير منهم كانوا أصحاب معاملات"، حيث كانوا يعملون فى زراعة الأرض وأعمال أخرى هى التى عليها تلك الضريبة وقد توقف كل ذلك".

وبعد ذلك بعشرات السنين أصبح تردى الأوضاع المعيشية فى قشتالة أمرًا بديهيًا؛ لهذا كتب أحد الرهبان الفرنسيسكيين وهو الراهب خوان دى سولانا "مقالاً فى سبع نقاط" حول أمراض إسبانيا، وعندما وصل إلى النقطة الخاصة بنقص الأيدى العاملة والفقر؛

لم ينس أن يذكر طرد عام ١٦٠٩م، وقد علق عليه بأنه إجراء كان دافعه التقوى: ولكنه فى الأمور الدنيوية سبب نقصًا كبيرًا، وأن الناس الذين لديهم أرض زراعية لا يجدون من يزرعها لهم وهكذا يوجد فقر كبير"(١٢).

وكما نرى فإن رحيل الموريسكيين أصبح مبررًا عامًّا لكل شىء؛ وبخاصة لمصائب الولايات القشتالية. ولكن أثر الطرد يمكن أن يلمس بوضوح كبير فى تلك المدن والمناطق التى كانوا فيها كثيرين – ونحن نحتاج لأبحاث تحدد ذلك – ونظرًا لنقص هذه الدراسات فإن علينا أن نرضى بتلك الشهادات التى تأتى من هنا وهناك، وهى غامضة وغير دقيقة، هذا إلى جانب شكنا فى صحتها، حيث يحاولون من خلالها اتهام ذلك الإجراء بأنه كان السبب فى كل شىء .

فنحن لم نجد شكاوى من بلدية إشبيلية، على الرغم من أن غياب سبعة آلاف شخص ونسبتهم ٦٪ من عدد السكان يجب أن يكون له أثر فى الحياة الاقتصادية للمدينة. وفى مدن أخرى أصغر من إشبيلية كانت الآثار السلبية أشد، وفى عام ١٦٢٣م أعلن المجلس الكنسى لمدينة ثيودادريال أن عدد السكان قد وصل إلى ألف أسرة، وكلهم تقريبًا فقراء، لأن طرد الموريسكيين أدى إلى خروج حوالى خمسة آلاف شخص منها، وهم الذين كانوا يساهمون فى كل شىء من الضروريات، ويزودون المدينة بما تحتاجه"(١٣).

أعلن المسئول القانونى عن مدينة طليطلة السيد خوان بيوغا دى مونكادا (وهو مؤلف لتقارير حول تدهور هذه المدينة) فى جلسة البرلمان، أنه من المستحيل دفع الضرائب المقررة عن المدينة "بسبب طرد ثلاثة آلاف أسرة من الموريسكيين الذين كان أكثرهم من التجار وأصحاب المعاملات". أما مجلس المالية والمختص بخفض الضرائب فقد منح مدينة أبيلا عام ١٦١٢م إذنًا بذلك بسبب "الحاجة ولنقص عدد السكان، فقد انخفض عددهم حيث وصل إلى ألف ومائة أسرة بسبب طرد الموريسكيين"(١٤).

وعلى الرغم من أن الموريسكيين لم يكونوا كثيرين فى بلد الوليد ، فإن رحيلهم كان له أثر محسوس. ومن بين المؤشرات حول هذا الأمر، وجود مراسلات للملك فيليبى

الثالث مع رئيس الكاتدرائية بشأن بعض المؤسسات الخيرية التى كان الملك قد أمر بإنشائها بالأموال التى تركها الموريسكيون. عندئذ أعلم رئيس الكاتدرائية الملك أنه بعد دفع مستحقات محاكم التفتيش لن يتبقى إلا إيراد قليل قيمته ٣٠٠ دوقية؛ لأن ما تركه الموريسكيون كان عبارة عن منازل قديمة، هذا إلى جانب أن كثيراً من المنازل التى كانوا يعيشون فيها فى حى سانتا ماريا كانت ملكًا للكاتدرائية بالإضافة إلى بعض البساتين، ثم يعلق قائلاً: "بسبب الأضرار الناجمة عن رحيل الموريسكيين القدامى، وكذلك القادمين من غرناطة، وبسبب الأضرار الحادثة فى المبالغ المدفوعة عن أملاكهم والتى كان مقرراً عليها ضرائب أبدية، ولا يوجد من يأخذها، وكذلك النقص فى العشور، حيث إن الموريسكيين هم الذين كانوا يزرعون البساتين وأكثر أراضى بايادوليد، وكانوا هم المصدر الرئيسى للدخل لهذا فإن رئيس الدير لن يستطيع إدارة هذه الأمور إلا بصعوبة كبيرة"[١٥].

وفى بعض المدن الصغيرة والقرى نجد شكاوى مشابهة؛ فتبعًا لتقرير حول نبالة الدم لألونسو كانو يقول[١٦] فيه: "إن أجداده من ناحية الأم قد جاءوا إلى غرناطة قادمين من بياروبليدو"، وذلك لأن تلك المدينة والمملكة أصبحت مهجورة بسبب طرد الموريسكيين"، كذلك فإن أحد مؤرخى مدينة بايثا حينما يتحدث عن سبب تدهور أحوال تلك المدينة يذكر طرد الموريسكيين، الذين كان بينهم الكثير من عمال البساتين[١٧].

أما مدينة ديثا (فى إقليم سوريا) فقد خفضت ضرائبها عام ١٦١٤م؛ التى كانت تدفعها مقابل الخدمة العادية وغير العادية بسبب "رحيل الجانب الأكبر من السكان أى عند طرد الموريسكيين". وفى عام ١٦٥٤م خفضت الضرائب مرة أخرى لأنه لم يبق فيها إلا ١٠٦ أفراد فقط و١٧ مقيماً، حيث تحول الكثير من أموال الموريسكيين والعامة إلى أعمال خيرية وإلى الأمراء[١٨]. أما بينكيريثيا فقد كان عدد سكانه عام ١٥٩١م/٢٢٥ أسرة، ومع طرد الموريسكيين أصبحت مهجورة، ولهذا خفضت ضرائبها فى ذلك الحين من ١١١ ألف مرابطى إلى ٨٠ ألف مرابطى، ومع ذلك استمرت نتائج الطرد ولهذا خفضت مرة أخرى عام ١٦٧٠م؛ لأنها كانت فى حالة يرثى لها[١٩].

أما بالنسبة لمرسية فقد كانت الآثار السلبية خطيرة جدا سواء في المدينة نفسها أو في المناطق الريفية؛ ومع رحيل الموريسكيين بدأت الشكاوى من ممثلي المدينة أمام البرلمان، فقد طلبت المدينة تخفيضاً في توزيع الضرائب وذلك لذهاب حوالي ألف أسرة، وكان حوالي ثمانية أو عشرة آلاف موريسكي يأتون من فالنسيا إلى مرسية لبيع الحرير، وقد توقفوا عن المجيء، هذا إلى جانب "أن هؤلاء الناس هم الذين كانوا يدفعون الضرائب، سواء الخاصة بالخدمة العادية أو غير العادية، ويدفعون الحركة التجارية في هذا البلد وهذه المملكة. وأما الذين بقوا فيها فهم أقلية، وذلك عندما نطرح منهم رجال الكنيسة وغيرهم من الذين لا يدفعون الضرائب، وبهذا يصبح من المستحيل دفع هذه الضرائب"[٢٠]. وعلى الرغم من هذه الشكاوى فقد تم تنفيذ طرد الموريسكيين في وادي ريكوتي.

وفي عام ١٦١٧م أعلن أحد نواب مدينة مرسية في البرلمان: لقد كان لجلاء الأسر الـ ٩٧٠ التي نقصت برحيل الموريسكيين الأثر السيئ في إنتاج الحرير"لأنهم كانوا يحبون العمل، وكانوا يفهمون ذلك جيداً" وقد أصبحت ٢٢ قرية مهجورة، وقد تخرب المدينة أيضاً إذا لم يتم إيقاف استيراد حرير أجنبي[٢١].

ومن المنطقي أن مملكة غرناطة تعاني آثارا سلبية أكثر من أي مملكة أخرى، وذلك لارتفاع نسبة الموريسكيين فيها أكثر من أي مكان آخر. وانخفاض دخل الكنيسة والذي كان يقوم على ضرائب العشور التي تُدفع على الإنتاج الزراعي وتربية الماشية فيها نعرفه عن طريق معلومات موثقة، تخبرنا عن أثر ذلك التباين في مختلف المناطق. وقد سجل أعلى أثر سيئ في ألمرية أما الأقل ففي ملقة، أما ألمرية فكانت دائماً مملكة فقيرة؛ ولهذا فحتى قبل الطرد لوحظ أن الشخصيات الكنسية الثمانية والخمسين المعينة من قبل الملكين الكاثوليكيين تعاني من فقر شديد، ولهذا فقد خفض عددهم. وعندما انخفض الدخل من ١٧٢٨٥٦٩ إلى ٩٤٩٤١٨ عام ١٥٦٨ م توجهت تلك الشخصيات الكنسية إلى الملك فيليبي الثاني الذي لم يكن معروفاً بكرمه باعتباره المسئول الأول عن الكنيسة، فمنحهم عطاء سنويا قيمته ألف دوقية، ثم خفض فيما بعد إلى ٤٠٠ دوقية.

هذا المبلغ إذا وُزع بين العدد المذكور فإن نصيب أحدهم لا يتجاوز قيمة ما يُعطى للشحاذين. وفى نهاية القرن أصبح دخل الكاهن القانونى ١٤٠ دوقية، ويساوى هذا راتب عامل محتاج. وفى عام ١٥٩١م خصص لهم مبلغ ٢٠٠ ألف مرابطى فى العام فى شكل أصول محجوز عليها وذلك لفترة ستة أعوام، حيث كان يظن أن اقتصاد الإقليم سوف يتحسن بسرعة لكن عملية التحسن كانت بطيئة حتى أصبح ما يصل لكل منهم شيئًا لا يذكر.

وفى عام ١٦٠٩م أعلن رئيس دير ألمرية أن الإقليم أصبح خرابًا "حيث كان يسكنه الموريسكيون، وقد تم توطينه بطريقة سيئة؛ إلى جانب أن أرضه سيئة والناس لا يعملون فيه بجد وهم اليوم فى فقر شديد ؛ وبسبب المجاعة التى حدثت فى السنوات الأخيرة فإن الكثيرين تركوا أرضهم وأموالهم ورحلوا ...". وكل ما حصل عليه مسئولو تلك المدينة هو تأجيل عملية دفع الضرائب. وتواصلت الشكاوى فى التعبير عن الحالة المؤسفة. والانخفاض نفسه فى الدخل عانت منه أسقفية ألمرية أيضًا، حتى وصل دخلها إلى ٢٥٠٠ دوقية وهو ما يعادل راتب الكاهن فى إشبيلية أو طليطلة.

وإذا كان رجال الكنيسة الكبار يعانون من الفقر والحاجة؛ فمن السهل أن نتصور كيف كان حال الخدم وغيرهم من المناصب الدينية الكنسية، ففى عام ١٦٠٦م كان أصحاب الرواتب الكنسية فى ألمرية يقولون إن رواتبهم انخفضت إلى ٢٠٠٠٠ مرابطى، وأنه بسبب قلة السكان فقد قلت دخول البنود الأخرى وأصبحت شيئًا لا يُذكر. وكان الوضع الأكثر سوءًا من نصيب الراهبات، فالفرانسيسكيات أبلغن مجلس السكان عام ١٥٨٤م أن الفقر اشتد بهن لدرجة أن راهبتين قد ماتتا من الجوع.

ويجب أن يلاحظ أنه كان قد مر ١٦ عامًا على الثورة و١٢ عامًا على إعادة توطين الإقليم، ولكن ذلك التوطين كان بطيئًا وغير كاف ولم يحدث الأثر المطلوب بسبب الأزمة الزراعية الحادثة فى الثمانينيات.

وفى الأراضى التابعة لأسقفية مدينة غواديكس نلاحظ أنه تم تقديم دعم ملكى عام ١٦٠٦م لأصحاب المعاشات الكنسية فى بلدة أبيلا، كانت قيمة هذا الدعم مكيالاً

من القمح وآخر من الشعير، وقد برر ذلك بأنه مجمع العشور وغيره من مصادر الدخل فإن الإجمالى يصل إلى ٣٣ ألف مرابطى "وهو مبلغ ضئيل لإعالة صاحب معاش كنسى". وقد كان ضئيلاً إلا أن قيمته الشرائية تصل إلى خمسين ألف بيزيتة سنويا. وإذا صدقنا أنه كان لديهم مصادر دخل أخرى، فإنهم دون ذلك ربما كانوا قد ماتوا من الجوع. وقد حصل على الدعم نفسه قساوسة من غواديكس وفينيانا.

أما المناصب الستة الخاصة بالكاهن القانونى فى أسقفية أوغين الموجودة فى قلب البشرات، فقد تم تخفيضها إلى ثلاثة، وقد كانت ذات دخل قليل جدا حيث بلغ عام ١٦١٣ ٥٠ دوقية، لكن فى عام ١٦٧٢م ارتفعت إلى ٣٠٠ دوقية، وهذا يعنى أنه خلال قرن تمت إعادة توطين البشرات الرئيسية. ولا تنعدم الشكوى فى كل أسقفية غرناطة، وإن لم تكن تصل إلى تلك الشكاوى اليائسة التى حدثت وجاءت من ألمرية. ولقد رفع فيليبى الثانى فى فرمان ملكى صادر فى ٥ يوليو عام ١٥٩٢م مستحقات كل منصب كاهن قانونى دينى ٥٠ ألف مرابطى، أما فيليبى الثالث فقد منحهم عام ١٦١٧م ٢٥ ألف مرابطى أخرى، وفعل مثل ذلك فيليبى الرابع. وعلى الرغم من هذا فإن بيرموديث دى بيدراثا كان يشتكى من ضعف راتبه. وطبعًا كان أصحاب المعاشات الكنسية الأقل أسوأ بكثير. وفى عام ١٦٠٣م وبناء على طلب من أصحاب المعاشات الكنسية فى البشرات وباى دى ليكرين وموتريل وسالوبرينا، تم منحهم زيادة متواضعة. وعلى العكس لم تصدر شكاوى من أسقفية ملقة [٢١ مكرر].

والبيانات التى يقدمها لنا ب. بنسنت حول كيفية إعادة التوطين تفسر لنا هذه الاختلافات. وعلى الرغم من وصول أكثر من ١٠ آلاف أسرة من الأندلسيين والمرسيين وساكنى لامانشا من الذين اشتركوا فى إعادة التوطين ... إلخ، فإن عدد السكان انخفض من ٢٧٥ ألف عام ١٥٦١م إلى ٢١٥ ألف عام ١٥٩١م. وكثير من القرى والبلديات (١٣٠ من ٤٠٠ كانت كلها تمامًا أو أغلبها من الموريسكيين) بقيت خالية دون سكان، وبخاصة فى منطقة البشرات مثل: بوغارايا وموليبا، وأوتورا وغواروس وبنى سيد وابن زويتى... كذلك بقيت دون عدد كاف من السكان المنطقة التابعة لألمرية

(مثل كاربال، وهويبرو ...). ولقد كان عدد القرى التى اختفت تمامًا على أثر الدمار الحادث أو الأخـرى التى استطاعت البقاء بعد ذلك كبيراً. "لقد تم تدمير أغلب الكنائس أو أصبحت فى حالة يرثى لها، وكذلك الطواحين والأفران والمنازل. كما ضاع محصول الأشجار المثمرة فى أحيان كثيرة. ولقد تأثر كل اقتصاد الإقليم بتلك الحرب وبحرب العصابات بعد ذلك، وهو ما أجبر كلا الفريقين على أن يعيشا على حساب المملكة حتى لا يموتوا من الجوع. بالإضافة إلى ذلك فإن الجيوش المسيحية حاولت، وبخاصة فى الشهور الأخيرة للحرب، أن تمنع عملية تموين الموريسكيين ولهذا كانوا يتبعون تكتيك الأرض المحروقة. وهكذا فقد خربت المملكة تماماً. وتوجد بعض الأمثلة من كثير يدل على ذلك: فبلدة الديرى التابعة للماركيز ثينيتى، كان بها ٣ أفران، عند نهاية الحرب بقى واحد فقط قابلاً للاستعمال وبعد أن تم إصلاحه على حساب زوجة الماركيز، كذلك بقيت طاحونة واحدة سليمة من ١٤ طاحونة. لقد تم تدمير ثلث حقول الكروم. وفى قرى الميخيخار ونوتايث، وهى قرى تابعة للبشرات حيث تم تدمير ٤ طواحين حبوب وطاحونة زيت، كما تم تدمير ربع مزارع الزيتون. وفى بلدة كاخار وهى تابعة لريف غرناطة، تم تدمير ١٤ منزلاً من ٤٤ منزلاً موريسكيا، أما الـ ٣٠ الآخرى فقد كانت فى حاجة لإصلاح. ويمكن أن نتخيل مدى الإحباط الذى سيطر على السكان الجدد، الذين أتوا من أجل ظروف اقتصادية أفضل (عقد احتكار، وضرائب معتدلة) حيث واجهوا تلك الظروف الصعبة"(٢١ مكرر مرة أخرى) .

وكما قلنا سابقًا، فإن الجزء الغربى من مملكة غرناطة عانى أقل من ذلك بكثير، ففى مَلَقَة ولوخا وماربيا وبيليس مالقة ... إلخ، كانت الأعمال العسكرية محدودة وأعمال التدمير كانت محدودة جدا، وعملية إعادة التوطين للأماكن التى تم إجلاؤها تمت بدون مشاكل. وإجمالاً، فإن التى واجهت تلك الظروف بصورة كبيرة كانت المدينة المتوسطة الحجم، من ٥ إلى ٢٠ ألف ساكن. وعلى العكس فإن إعادة توطين الأماكن الزراعية فشلت فى حالات كثيرة وأسباب ذلك كثيرة. ولقد كانت الإجراءات الحكومية فى البداية موفقة،

والفرمانات الملكية الصادرة فى ٢٤ فبراير عام ١٥٧٠م و ٢٨ سبتمبر عام ١٥٧١م كانت تسهل عملية إقامة السكان الجدد، حيث كانت تمنح كل واحد منهم منزلاً وأرضًا للزراعة مقابل عقد احتكار ضرائبى وجزء صغير من المحصول. لكن الظروف التى تمت فيها تلك العملية كانت غير جيدة. وقد وصل عدد قليل من السكان القادمين من إقليم غاليثيا إلى نهاية الرحلة، حيث قدم أغلبهم من مناطق أورينسى، والتى خرج منها أكثر من ٥ آلاف، مات أغلبهم خلال رحلة السير التى كانت بلا نهاية، والتى بدأت فى ربيع عام ١٥٧٢م. أما الذين بقوا على قيد الحياة ووصلوا إلى غرناطة مُنهكين ومرضى فى أغلب الأحوال، فقد مات أكثر من نصفهم فى المستشفى الملكى فى الأشهر التالية.

ومن خلال الإحصاء الذى قام به ب. بنثنت حول أصل عشرة آلاف أسرة، يمكن أن نستخلص النتائج التالية: أن الأغلبية كانوا من الأندلسيين، وقد أقاموا فى أماكن فى مَلَقَة وغرناطة، حيث استفادوا من قصر الرحلة. يأتى بعد ذلك القادمون من قشتالة، ثم بعد ذلك الفالنسيون والمرسيون، وقد كانوا كثيرين فى الجزء الشرقى من المملكة. ثم يأتى بعدهم الباقون على قيد الحياة من أهل غاليثيا. أما القادمون من مقاطعات أخرى فقد كان عددهم محدوداً. وقد أعلنت سلطات قشتالة القديمة وكانتبريا وريوخا وباسكونيا أنه لا يوجد فى بلادهم من تجذبه هذه المغامرة، وهذا ليس غريبًا، فكل سكان هذه الأقاليم كانوا من أصحاب الملكيات الصغيرة. الخطر الذى قد يأتى من عملية الانتقال إلى مكان بعيد والإقامة فى بلد دمرته الحرب كان فقط يعجب البائسين الذين ليس لديهم ما يرتبطون به أو المغامرين الذين أطلق عليهم أكثر من مرة "نفاية" أو "زبالة" كل إسبانيا.

وعندما أقام السكان الجدد فى غرناطة لم تتوقف مشاكلهم، فبالإضافة إلى حالة الخراب للإقليم، كان يجب عليهم أن يكافحوا ضد عادات السلطات المحلية السيئة، التى كانت قد تعودت على استغلال الموريسكيين وحاولت أن تفعل الشىء نفسه مع الذين حلوا محلهم. وفى المناطق الساحلية كان يجب على القادمين الجدد مواجهة خطر القراصنة،

أما في الداخل فهناك خطر العصابات والمنفيين. ولهذا ليس غريبا أن كثيراً من السكان الجدد، بعد أن عانوا من الإحباط، تركوا هذا الأمر وعادوا من حيث أتوا. ليس من الغريب كذلك أن عملية إعادة إعمار تلك المملكة كانت بطيئة جدا.

وحول أثر طرد أعوام (١٦٠٩ - ١٦١٤م) على الاقتصاد وعلى عدد السكان في إسبانيا كلها؛ رأينا أنه على الرغم من اختلاف تأثيره من إقليم لآخر فإن التأثير كان مهمًّا، فالشكاوى من قلة الأيدى العاملة وارتفاع الأجور زادت من أهمية أعمال الخدمة؛ (ويبدو أن عدد العبيد قد وصل إلى أعلى مستوى له في تلك الفترة)، وكذلك الأيدى العاملة الأجنبية؛ وحرف معينة وهي تلك التي كانت احتكاراً خاصًّا للموريسكيين، عانت بطريقة خاصة من أثر غيابهم، كما رأينا شكاوى مرسية عن تدهور صناعة الحرير، وكذلك شكاوى رئيس بلد الوليد عن اختفاء عمال البساتين[٢٢] وقد حدث الشيء نفسه بشأن حرف ومهن أخرى، وربما كان الأثر الأكبر قد حدث في مهنة النقل (البغالة)؛ لأنها كانت من الحرف المفضلة للغرناطيين المشردين في قشتالة كما نعرف؛ لهذا يقول بدرو لوبيث دى رينو: "وسائل النقل انخفضت لغياب خمسة آلاف بغَّال موريسكي"[٢٣].

ويبدو أن خروج الأموال يجب أن يكون قد أخذ حجمًا كبيراً، حيث سمح للموريسكيين بإخراج جزء من أموالهم ومجوهراتهم، كما أخفى بعضهم ثروته، حتى لا يستفيد منها العدو الكافر. وربما كان يراوده أمل العودة. وإذا كان العامة قد حولوا موضوع الكنوز الموريسكية إلى أسطورة فإن هذا لا يعني أن الأمر ليس له أصل في الحقيقة، فعدد غير قليل من الأسرى الإسبان قد عاد من شمال إفريقيا ومعه خرائط تدل على أماكن تلك الكنوز.

وإذا كان في الموضوع أساطير واستغلال وغير ذلك من المبالغات، فقد يوجد فيها شيء من الحقيقة، لقد أخفيت كنوز، وقامت أقليات أخرى وأشخاص مطاردون بهذا العمل قبل والموريسكيين بعدهم، وقد أشار إلى هذا فرمان ملكي بتاريخ ٢٤ فبراير عام ١٥٧٠م[٢٤] حول مصادرة أموال الموريسكيين.[٢٥] ومن المنطقي أن الذين عثروا على تلك الكنوز يكتمون الأمر، وفي حالات أخرى حكوا ما حدث معهم، ومن ذلك ما ذكر في

وثيقة رسمية لعام ١٦٧٩م. وسواء أخرجت تلك الأموال أم بقيت مدفونة، فإن كميات من الذهب والفضة من الصعب تقييمها قد ضاعت من قشتالة.

وحجم هذه الخسائر كان أكبر بكثير في مملكة أراغون، بل في كل تلك الأقاليم التي كان الموريسكيون يمثلون نسبة مرتفعة من السكان فيها، مثل فالنسيا وأراغون وجزء من قطالونيا ونابارا وتوبيلا، والتي طلب مسئولها الكنسي من الملك التدخل أمام الفاتيكان وذلك لعلاج الانخفاض الشديد في دخله (٢٦).

وتنقصنا دراسة تفصيلية حول أثر الطرد على مملكة أراغون: إننا نعرف أن هذه المملكة كانت تعاني من قلة السكان، وكان الموريسكيون (حوالي سبعين ألفًا) يمثلون سدس العدد الإجمالي للسكان أو سُبعه، لكن توزيعهم لم يكن منتظمًا متساويًا، فقد كانوا يتمركزون حول نهر الإيبرو ومجاريه، وفي رأي لابيري " أن مساحة ٤٠ كيلو متر جنوب الإيبرو قد بقيت مهجورة "(٢٧). أما الجغرافي البرتغالي لابانيا، الذي قام برحلة بعد الطرد مباشرة، فقد لاحظ بعد المناطق التي عانت من رحيلهم كثيرًا مثل مويل: حيث بقي في قرية ماركيز كامراسا ١٦ فردًا بعد رحيل ألف من الموريسكيين، كما رحل من بورخا ٣٠٠ أسرة وكان بالمدينة ٨٠٠ أسرة بمعنى أن المدينة نقصت كثيرًا. أما ميديانا وخيلسا Jelsa فقد فقدت كل منهما نصف سكانها، وفي مناطق أخرى كان الأثر عكس ذلك. إما ضعيفًا وإما لا يوجد على الإطلاق(٢٨).

أما المناطق التي كان فيها التأثير كبيرًا فهي تلك التي كانت تعتمد على الزراعة مثل بورخا أو تارثونا وبيقا ديل خالون وضفاف نهر الإيبرو.. "ولا يوجد شك في أن طرد الموريسكيين قد أدى إلى تدهور اقتصادي، ويبدو هذا بصورة واضحة في تلك المحاصيل التي تحتاج لأيد عاملة كثيرة مثل الكروم" (٢٩)، وحيث إن أغلب الموريسكيين كانوا يعيشون تابعين لسيد، فإن أولئك السادة هم الذين وقع عليهم الضرر الأكبر. يقول مؤرخ لكالاتايود: "إن طرد الموريسكيين، الذي أدى إلى خروج عدد كبير منهم من تاراثونا وبورخا وموراتا، لم يؤثر في كالاتايود ولا قراها. أما في قرى موراتا وموسونيس وغوتور Gotor وكل إقطاعيات عائلة لونا - تلك القرى التي كانت

مليئة بالموريسكيين- فقد عانت كثيراً، على الرغم من بقاء الكثير من الموريسكيين تحت حماية الكونت أو بحجج مختلفة".

أما في كالاتايود فإن الطرد قد أثر فقط في منطقة سيبولكرو، التي كان بها موريسكيون في توبيد وكوبوس وتورالبا لوس فرايليس"[٣٠].

وفي مقال آخر ذكرناه سابقًا تحدث بيير بونسوت عن كتاب "عالم الزهور" لبيرنارد ثينفويغوس، وأشار إلى ملاحظات تخص مشكلة الزراعة في أراغون في ذلك الوقت وارتباطها بالظروف التاريخية والاجتماعية، فقد لاحظ أنه كانت هناك سلالتان مختلفتان دون أن تمتزجا، وكل سلالة منهما تستغل الأرض بطريقة معينة. وعلى الرغم من أنه أراد منطقة تاراثونا فقط فإنه يمكن أن يعمم هذا الأمر على أراغون كلها؛ حيث كان الموريسكيون يتخصصون في زراعة الأرض التي تروى ريًا عاديًا، أما المسيحيون فيزرعون الأرض التي تروى بالأمطار.

هذا التوزيع استمر بعد رحيل الموريسكيين، فأراضي الري العادي استمرت على عهدها القديم وذلك بفضل نقل تكنولوجيا معينة لا نعرف تفصيلاتها، لكن المستوطنين المسيحيين لم يبلغوا بتلك الزراعة حد الكمال والدقة التي وصل إليها الموريسكيون، فقد انخفض حجم المحصول. إن التدهور والانحطاط بعد عام ١٦١٠م لم يعبر عنه المراقبون المعاصرون لتلك المشكلة مثل لابانيا فحسب. إن إصرار قرارات البلدية في عام ١٦٨٥ في تاراثونا على تغريم مرتكبي المخالفات والتزوير يدل على أن نظام الري لم يكن منظمًا بما فيه الكفاية: " ثم بعد ذلك بقرن، أي في القرن الثامن عشر كانت الزراعة، التي يصفها لنا كاهن تاراثونا بيثنتي كالفو، تعاني من الإهمال والمستوى التقني المتدهور، فالأراضي لا تُسمَّد بما فيه الكفاية، ويزرع فيها أي نوع من بذور القمح دون أن يؤخذ في الاعتبار مناسبة ذلك للأرض من عدمه"[٣٠مكرر].

ربما لوجود أكبر مساحة من أرض الري العادي التي كان يزرعها الموريسكيون في أراغون؛ تأخرت تلك المملكة كثيراً في استرداد ازدهارها والوصول إلى المستوى المرتفع من الإنتاج، وذلك لأن عملية تعلُّم فن الري لا تُرتجل، وبالنسبة للرجال الذين

كانوا يسكنون الجبال، أو المسيحيين الذين كانوا يعتمدون على المطر كانت مهمة في غاية الصعوبة استطاع التغلب عليها بعضهم فقط وليس كلهم. لهذا فإن كثيراً من المؤرخين تحدثوا عن الرخاء القديم لتلك المناطق المتدهورة، مثل قرية غريسيل، التي "كانت شيئًا عظيمًا في عهد المسلمين، ولكنها أصبحت مثل البقرات العجاف؛ لأن السكان الجدد لم يكونوا على مستوى عصرهم مثلما كان المسلمون". وكذلك حالة توريّاس التي كانت استثماراتها عن طريق ١٤٦ هكتار رى عادى، ١١٣ هيكتار رى بالمطر تقدم الطعام لألفى شخص: "لقد كانوا أذكياء في أموالهم، فقراء في مسيحيتهم.. وقد احتلت تلك القرية المرتبة الأولى حيث كان لديها أكبر نسبة من الضروريات وحتى الكماليات التى تحتاجها الحياة فى كل أراغون"[٣١].

إن الضرائب والخدمات التي ورثها السكان الجدد الذين أقاموا مكان الموريسكيين كانت ذات قيم متباينة، وبصورة عامة كانت باهظة، ففي بلدة كوتشيوس كانوا يدفعون خُمس إنتاج الحبوب المزروعة فى أراضى السهول والسُّدس فى الأراضى الجبلية، وسُدس الفول واللوبيا والمكسرات (الفواكه الجافة)، وتُسع إنتاج الكروم والزيتون، بشرط أن يتم طحن الزيتون في طاحونة السيد حيث كانوا يدفعون مقابل ذلك تُسعًا آخر، أما إذا طحنوا البذور فإن المقدار كان ٣٪ تقريباً. كان يجب عليهم أن يسلموا أو يدفعوا ثمن سُدس الخضراوات المعدة للبيع، وليس عن التى يستخدمونها فى منازلهم. وكحق تبعية أو رعاية كان يجب عليهم أن يدفعوا ٢٢،٤ مكيالاً من القمح ودجاجتين مقابل كل ساكن. أما المراعى الموجودة في الجبل فتعتبر أيضًا ملكًا للسيد حيث كان يؤجرها للقرية مقابل ١٠ جنيهات[٣٢]. وكانت هذه الشروط عادية ويمكن اعتبارها جيدة إذا قورنت بالمطبقة فى مقاطعات أخرى كانت أكثر قسوة. وقد اصطدمت عملية إعادة التوطين أيضًا بعقبات قانونية، مما أدى إلى حدوث قضايا معقدة. ولقد قلنا فى السابق إن بلدة بورخا كانت أكثر القرى التى تأثرت فى هذا المجال، حيث خرج منها ومن القرى التابعة لها ١٣٣٢ فرداً. وقد أمر الملك بأن تُدفع الديون التى كانت مستحقة عليهم وأن يتم إعادة تسكين حي سان خوان الذى بقى فارغًا. ولأجل هذا وصل

القبطان بيدرو فيرير ومعه ١٠٢ مزارع وأجير بالإضافة إلى بعض أصحاب الحرف، حيث تم توزيع ممتلكات الموريسكيين عليهم، وذلك مقابل دفع ٢,٥٪. وقد احتاجت عملية إعادة توطين قرية البيتا إلى حكم خبير من قبل السكرتير الملكى أوغسطين بيانوبيا.

وانطلاقًا من هذا الحكم فإن الساكنين الجدد، على الرغم من خضوعهم لسلطة سيدهم فإنهم أيضًا مجبرون على الاعتراف بسلطة سيد قرية بورخا، كما كان يجب عليهم أن يشتروا الخبز والخمر من بورخا فى حالة عدم وجوده ضمن محاصيلهم. كذلك كانت توجد قضايا مع السيد خوان دى ريوس، سيد بلدتى ماليخا ورِيباس، للسبب نفسه : عملية التنسيق الصعبة بين حقوق السكان وحقوق الإقطاعيين وحق سيد بورخا والذى (كان على سبيل الاستثناء) مازال له سلطة على القرى التابعة له. كذلك صراع بين بورخا والقرى التابعة له لأن مجلس البلدة كان له الحق فى ثُلث ضرائب المسيحيين القدامى وكل ضرائب المسيحيين الجدد. وعندما تمت عملية إعادة التوطين نقل سلطته فى المدينة ونجح فى الاحتفاظ بالقرى التابعة له حيث حصل على حكم لصالحه فى عام ١٦١٣م[٣٣].

ولقد استطاع السادة الذين لهم نفوذ فى العاصمة والبلاط أن يبينوا مدى تضررهم من قرار الطرد. فقد تقدم دوق بيا إيروموسا بطلب للملك فى عام ١٦١٣م يعرض عليه الأضرار التى لحقت بقراه فى استانا واسباديا، وباجات وتورتشيبا، التى تم إعادة توطينها ولكن السكان الجدد لم يكن لديهم الخبرة فى المحاصيل التقليدية للمنطقة، وقد اضطر الملك أن يخفض لهم الضرائب، وأن يمنحهم امتيازات؛ بل وصل الأمر إلى أن القرى الخمس التى بها مسيحيون قدامى أصبحت تدر عليه عائدًا أقل مما سبق لأن جزءًا من سكانها نقلوا إلى القرى التى أصبحت خالية. وقد حصل الدوق على وصاية روداس والقرى التابعة للأملاك الأميرية التى كان بها موريسكيون وكانت قريبة من منطقته. ومع ذلك فإن حالة دوقيته المالية ظلت بائسة، ولهذا ففى عام ١٦٤٦م حصل على ٣ آلاف سنويا "وذلك بسبب النقص المالى الذى يعانى منه دوق بيا إيرموسا، العضو فى مجلس الدولة والحرب"[٣٤].

كانت الآثار الاقتصادية للطرد خطيرة ولم تكن قليلة، وقد ظهرت نتائجها بصورة متأخرة؛ حتى عانى من تلك النتائج أولئك الذين ظنوا أنها لن تؤثر فيهم. وقد رأينا كيف أن مجلس أراغون كان يعتقد عام ١٦١٠م أن الإجراء لن يؤثر فى دخل أساقفة سرقسطة، حيث إن الموريسكيين لا يدفعون لهم ضرائب مباشرة، ولكنه بعد ذلك بخمس سنوات اعترف أن ذلك الدخل قد انخفض من ٦٠ألفًا إلى ٣٦ ألفًا..[٣٥]، كذلك فقد عانت محاكم التفتيش من خسائر كبيرة، قدرها رجال محكمة التفتيش بمبلغ ٤٢٥٩٣ ريالاً سنويا وطلبوا تعويضًا، حيث حصلوا على تعويض قدره ٤٧١٥٣٣ جنيهًا نتجت من بيع الأملاك المصادرة من الموريسكيين فى أراغون وتورتوسا. أما المستشفى العام فى سرقسطة والمجمع الكنسى فلم يحصلا على تعويض.

وكما ذكر لاكارا[٣٦]: لقد كان الطرد سببًا فى زيادة حالة التدهور التى بدأت فى القرن السابق وقد أخذت شكلاً حادًا وخطيرًا، وأثرت فى جميع الطبقات الاجتماعية نظرًا لعلاقة التبعية فيما بينها (والتى يجب أن يضاف إليها علاقة التبعية الموجودة بين الأقاليم أيضًا) حيث إنه من الصعب الإضرار بقطاع دون أن تتضرر قطاعات أخرى من ذلك.

أما الذين تضرروا بصورة مباشرة فقد كانوا رجال الإقطاع؛ وهؤلاء حاولوا أن تقع الخسارة على غيرهم بنجاح تقريبى، وذلك عن طريق نقل الواجبات الضرائبية التى كان يدفعها الموريسكيون إلى المستوطنين الجدد. وقد عانت الكنيسة أيضا - كما رأينا - بطريقة غير مباشرة نظرًا لانخفاض الثروات بصورة عامة.

أما الطبقة المتوسطة فقد عانت أكثر من غيرها؛ لأن أغلب المصنفين فيها كانوا قد استثمروا مدخراتهم بصورة نشاطات خاصة بذلك العهد؛ وكان ضامنوها هم الموريسكيين، وعندما رحل هؤلاء ولما كانت الأموال التى تركوها لا تكفى لدفع تلك الديون انخفض الدخل وأعلن أغلب الأغنياء إفلاسهم، مما اضطر الملك إلى تخفيض قيمة الأرباح على تلك المدخرات.

المشكلات نفسها التى عانت منها مملكة أراغون عانت منها فالنسيا بصورة أخطر، فالموريسكيون هنا لا يمثلون السدس وإنما يمثلون ثلث السكان، ولهذا فإن الآثار الخطيرة ليست موضع نقاش، وإنما السبب الوحيد للجدل هو الاختلاف حول وصف تلك الآثار بالخطورة أو الكارثية، ولدينا دراسات جيدة حول هذا الموضوع[٣٧]، ويمكننا عن طريقها وضع تقرير موجز، ثم من أراد المزيد فسنحيله على تلك الدراسات.

النتائج التى ترتبت على الطرد لم تغب حتى عن أكثر الناس تأييداً لذلك الإجراء؛ فقبل ذلك بعام كتب البطريرك ريبيرا إلى الملك فيليبى الثالث كما رأينا، يقول : "الآثار ستكون مهلكة بالنسبة لمملكة فالنسيا"، لكن الأسقف يهمه ما يعتقد أنه ضرورة إيمانية أكثر من اهتمامه بتلك الخسائر التى يعتبرها مؤكدة الوقوع، ولهذا يضيف فى خطابه: وأؤكد لجلالتكم أننى عندما أفكر فى هذا فإنه يأتينى رغبة شديدة فى أن يقبض الرب روحى قبل أن أرى تلك المصائب التى لن يستطيع أحد علاجها، والرب يعلم أننى لا أهتم كثيراً بالفقر الذى سوف تعانى منه هذه المدينة، بل إننى أفضل أن أحتاج إلى الخبز الجاف من أن أرى وجوه أولئك الهراطقة الذين يُعَدُّون من أبناء دائرتى الكنسية"[٣٨].

الآثار السلبية على الكنيسة لم تصل إلى هذا الحد الذى ذكره البطريرك وإن كانت مهمة، فتبعاً لرأى كابريرا دى كوردوبا وقد كان لديه معلومات جيدة، انخفض دخلها من ٧٠ ألف دوقية إلى ٥٠ ألف دوقية[٣٩]، أما محاكم التفتيش فقد حصلت على تعويض مثلما حدث فى أراغون، وأما المؤسسات الدينية الأخرى فلم تعامل بالاحترام والاهتمام نفسه. إن خطاب فيليبى الثالث إلى سفيره فى روما، دوق ألبوركيركى، فى ٢٨ يونيو عام ١٦١٨م - أى بعد تسعة أعوام من الطرد - يخبرنا عن الفقر الذى تعانيه كنيسة خاطبة. كان فى هذه الكنيسة عدد كبير من العاملين يصل إلى ثمانين شخصاً وبعد الطرد انخفض دخلها كثيراً لدرجة أن راتب رجال الدين وصل إلى ١٢٠٠ ريال، والمستفيدين ٢٧٠ ريالاً: " لدرجة أن بعضهم بدأ يقوم بأعمال غير مناسبة لوضعه الاجتماعى"، وبدلاً من خفض العدد الكبير لأولئك العاملين اقترح إضافة دخول كنسية أخرى لهم بحيث يحصل الكاهن على ٢٠٠ دوقية والمستفيد ٦٠ دوقية حتى يستطيع أن يعيش أولئك حياة مقبولة "[٤٠].

وبسبب علاقة التبعية التى أشرنا إليها، وعلى الرغم من أن الأقلية الموريسكية كانت طبقة عاملة وتسكن فى أراضى الإقطاعيين، فإن كل الطبقات وكل الولايات قد عانت من الآثار السلبية لطردهم، وقد رأينا أن الكنيسة عانت من انخفاض كبير فى دخلها، وعلى الأقل فى المناطق ذات الحجم السكانى الموريسكى الكبير.

أما مدينة فالنسيا فقد أعلن بنكها المحلى إفلاسه عام ١٦١٣م ولم يكن به أية إيداعات، وربما لا يكون طرد الموريسكيين هو السبب المباشر فى ذلك كما أثبت ذلك ألبارو كاستيو[٤١]؛ لأن مظاهر كساد الاقتصاد الفالنسى وتدهوره كانت قد ظهرت ملامحه منذ بداية ذلك القرن؛ لكن الرحيل المفاجئ لجزء كبير من السكان القادرين على العمل – إلى جانب أنه الجزء الأكثر جدية ومعاناة، وهو الذى تحمل كل الأعباء – يجب أن يكون قد تسبب فى زيادة عملية التدهور. وأدت عوامل أخرى خاصة بتلك الفترة الى إطالة تأثيرها، وجعلها أكثر خطورة.

ويبدو أن الطبقة الثالثة (أى المعدمة) قد استفادت إلى حد ما من الطرد، وهذا ما يفسر لنا كيف أن الطبقات العليا انزعجت من القرار، فى حين أن الطبقات الشعبية قد رحبت به، وليس لأسباب دينية فقط بل لأسباب اقتصادية أيضًا، فبالنسبة للعامل والحرفى أزال رحيل الموريسكيين منافسين مزعجين، وكذلك أتيحت للطبقات الدنيا الفرصة لشراء الأشياء التى لا يستطيع الموريسكيون حملها معهم بسعر منخفض: "وصل الأمر إلى بيع البغل أو البقرة بثمانية ريالات"، كما أنهم تركوا الكثير من الأراضى التى يمكن احتلالها، كما أن كثيراً من المدنيين كان لديهم الأمل فى أن ذهاب الموريسكيين سيعفيهم من دفع ديونهم، لأن دائنيهم كانوا هم الموريسكيين أنفسهم، ولقد أولى ثيسكار باياريس هذا الموضوع اهتمامًا خاصًا فى دراسة له، وتبين له من خلال الوثائق التى درسها أن أغلبية المدينين كانوا من الفلاحين وقد أخذوا هذه النقود فى صورة ماشية ومنتجات زراعية كانوا قد اشتروها منهم، حتى وصل إجمالى الديون إلى ١٩٧٦٧٩جنيهًا وهو مبلغ كان كبيراً بالنسبة لذلك العهد[٤٢].

لكن إلغاء تلك الديون لم يتم كما يتوقع أولئك الفقراء، بل طالبت الهيئة الملكية بتلك الديون فى البداية واعتبرتها من أموالها ، ثم دُفعت للإقطاعيين حيث اعتبروا متضررين بالطرد أكثر من غيرهم.

كما حدث نقص كبير في العملات بسبب الكميات الكبيرة التي أخرجها الموريسكيون من كل إقليم سواء أكان ذلك بشكل قانوني أم غير قانوني، وقد أدى ذلك إلى تعقيد المشكلة المالية التي وصلت لدرجة الخطورة. وتبع ذلك ما كان قد سجل في قشتالة من التضخم الكبير في العملات النحاسية والفضية؛ فتبعًا لبيانات البارو دي كاستيو في الفترة من ١٦٠٨م إلى ١٦١٣م تم سك ٥٠١٥٢٧ ماركًا من النحاس(٤٣)، وقد زادت هذه العملة الصغيرة بصورة أكبر بسبب الكمية الكبيرة التي دفعها المزيفون إلى السوق ، الذين جذبهم الربح الكبير الموجود بين تكلفة المارك وسعره في التعامل. ويبدو أن الموريسكيين قد اشتركوا بصورة نشيطة في حملة التزييف على الرغم من العقوبات الصارمة التي كانت تهدد المزيفين ، والتي قد تصل إلى درجة الحرق حيًّا(٤٤).

أما آثار الطرد في مجال الزراعة فهي خطيرة على الرغم من أن هاميلتون أكد أن محصول السكر والأرز لم يكن للطرد أثر فيه، وثبت أن زراعة قصب السكر الذي كان مصدر الدخل الأهم في دينيا وأوليبا قد عانى من ضربة قاسية: " فعندما تم إعادة توطين المنطقة استطاع السكان الجدد أن يحسنوا الوضع شيئًا ما، لكن منافسة السكر البرتغالي والأمريكي أدت إلى تدهوره نهائيا" (٤٥)، أما محصول الأرز فقد انخفض. ومن أجل سد النقص في الحبوب سُمح باستيراد قمح قشتالي، وكذلك من سردينيا، ولما كان دوق غانديا واليًا لسردينيا فقد أيد ذلك الإجراء.

كما يجب أن نشير إلى زيادة الإنتاج في أشياء أخرى؛ فتبعًا لرأي ج. كاسي(٤٦) ارتفعت قيمة الحرير الذي مرَّ بجمرك كاركاخينت والمصدَّر إلى قشتالة من ٨٩٣٩ جنيهًا في عام ١٦٠٩م إلى ١٢٨٥١ جنيهًا، بعد ذلك بعشر سنوات ، وكذلك ارتفع إنتاج الخمر بصورة ملحوظة - وهذا ليس غريبًا - فهو شيء قد تخصص فيه المسيحيون، بينما كانوا يشعرون بشيء من الاشمئزاز نحو محاصيل أخرى مثل الأرز وقصب السكر، فلم يكن لديهم خبرة فيها، وهذا إلى جانب أنها شاقة وغير مناسبة للصحة وبخاصة الأرز.

هذه التناقضات السابقة تبين إلى أى حد تبلغ صعوبة تقدير آثار الطرد وإصدار حكم عام عليه، فالفرق بين القطاعات والمناطق كان كبيراً. و قد أبطل كاسى رأى هاميلتون، الذى كان يعتمد على استقرار الأسعار بعد عام ١٦٠٩م، فرد عليه كاسى - ومعه الحق فى ذلك - أن العاصمة التى أخذ منها قائمة الأسعار ربما تكون المدينة التى عانت حدًّا أدنى من الآثار السلبية؛ فى حين أن تلك الآثار كانت خطيرة فى مدن أخرى.

وذلك مثلما حدث فى أراغون بصورة كبيرة فيما يتعلق بمشكلة الضرائب والأموال المستثمرة بالأراضى التى يدفع فوائدها الموريسكيون. ونظراً لأن السادة استولوا على تلك الأراضى التى تركها الموريسكيون؛ فمن المنطقى أن يقوموا بدفع الديون المستحقة عليها، وبخاصة أن أغلب تلك الديون كان قد تقاضاها السادة. مع هذا فقد اشتكى السادة ، وبرروا اعتراضهم بالخسائر التى عانوا منها، وفى النهاية استطاعوا الحصول على تخفيض عام للعديد من أنواع الأرباح بنسبة ٥٪، مما أضر بكثير من الناس من الطبقة المتوسطة والهيئات الكنسية.

فجماعة مونتيسا العسكرية كان لها فى فالنسيا أهمية كبيرة مثل جماعات سانتياغو والقنطرة وكلاترابا، فى قشتالة، على الرغم من الفروق الموجودة. ولما كانت أغلب ممتلكاتها توجد فى المنطقة الجبلية المعروفة بمايسترا زغو، حيث كان يوجد القليل جداً من الموريسكيين، فإنها لم تعان من آثار خطيرة، وقد أشار مؤرخها الراهب هيبوليتو دى ساميير أنه قد خلت قريتان فقط هما شيفرت وبولبيس[٤٧].

أما الطبقة العليا من النبلاء التى كان لديها إقطاعيات واسعة جدًّا ، وسيادة على آلاف من الموريسكيين، فقد تم اعتبارها أكثر المتضررين لطردهم، وهذا التأكيد يجب أن نقبله بكثير من التحفظ والاستثناءات؛ فقد أشار كاسى إلى أن الوضع الاقتصادى لكبار السادة قد بدأ فى التدهور قبل عام ١٦٠٩م[٤٨]، ولم يكن سبب التدهور ما حدث من ركود فى تلك الفترة فقط، بل لأن السادة الفالنسيين (ككل السادة فى إسبانيا) كانوا يعيشون بمستوى أكثر من إمكانياتهم، بسبب المصروفات الضخمة والإدارة السيئة؛ ولهذا كانوا غرقى بديونهم. ومن المعروف أن بعض السادة حاولوا زيادة دخلهم

من تابعيهم عن طريق فرض حقوق جديدة أو إحياء حقوق أخرى قديمة كانت قد اندثرت، وكان حقهم فى محصول الفاكهة يمثل الدخل الأكثر أهمية، لكن فى تلك الأماكن التى كان يدفع فيها ذلك نقداً انخفضت قيمته الحقيقية بسبب ارتفاع الأسعار، وبسبب فقد العملة لقيمتها الشرائية وهى الميزة التى سادت القرن السادس عشر.

كانت دوقية غانديا من أكثر المناطق التى تأثرت بالطرد حيث إن خروج ١٣ ألف شخص، تم التعويض عنه بعدد قليل من الأسر المسيحية التى وصل عددها عام ١٦١٠ إلى ١٢٧٨ ووصل إلى ١٦٧٤ عام ١٦٤٦م[٤٩]. وعائلة بورخا وهم أبناء دوق غانديا، وعلى الرغم من أنهم كانوا من أغنى العائلات على مستوى إسبانيا كلها، وعلى الرغم من كونهم من الأقرباء المقربين للرجل ذى النفوذ دوق ليرما كانوا على وشك الإفلاس بكل ما تعنيه هذه الكلمة وذلك فى بداية القرن السابع عشر. وقد كانت قيمة الضرائب المفروضة على تلك الدوقية تتجاوز المبلغ الضخم ٥٤٦٦٨٣ جنيهًا، ولدفع الفوائد الخاصة بذلك والأمور الأخرى كان من الضرورى دفع مبلغ قيمته ٥٣ ألف جنيه، ومن عام لآخر كانت تتزايد الديون وكان الدوق يتصرف كما هى العادة، وكان المقرضون يعتبرون رعايا السيد من الموريسكيين والمسيحيين كضامنين، حيث كان ذلك يمثل ممارسة ذميمة فى ذلك الحين. وفى عام ١٦٠٤م طلب الدوق من الملك وضع أراضيه تحت إدارة الحكومة مثلما حدث مع الكثير من السادة الذين كانت عليهم ديون. ولهذا كان كاسى على حق عندما كتب "من الصعب تجنب استنتاج أن الخراب لتلك المقاطعات بسبب طرد الموريسكيين أتاحت للدوق الفرصة للخروج من مشاكله المالية الضخمة والعودة للبدء من جديد"[٥٠]. ويؤكد هذا تقرير وصل إلى دوق ليرما بعد الطرد بقليل جاء فيه " لقد عانى الكثير من السادة من هذا، ولكن أيضًا من المؤكد أن عدداً غير قليل منهم قد حقق أيضًا مكاسب من ذلك" مثلما حدث مع دوق سيغوربى - كاردونا فى سال دى أوكسو. ويتفق أيضاً مع الأخبار التى كانت قد وصلت إلى العاصمة وجمعها كابريرا دى كوردوبا حول حالة الغضب التى كانت تسود فى فالنسيا ضد السادة لأنه نظراً لعدم وضع نظام لدفع الدخول والضرائب فقد استولوا على كل شىء"[٥١].

وبايجان، فإن العملية المبرمجة التى قام بها علية القوم بمساعدة البلاط كانت تتمثل فى تصفية الوضع القديم ويتم خفض الضرائب إلى ٥٪ (وقد كانت ٧,٥ –١٠٪) محتجين بعدم وجود مستوطنين، ثم بعد ذلك يجلبون المستوطنين من المسيحيين القدامى، حيث يجبرونهم على دفع الضرائب نفسها التى كانت على الموريسكيين. وتُعرف بصورة عامة الأشكال التى تمت بها عملية إعادة التوطين، فقد وصل عدد محدود جدا من السكان من أقاليم أخرى ومن خلال عينة واسعة من ٥٨ قرار إعادة استيطان تم دراستها من قبل توريس موريرا تبين أنه فقط ٦٪ كانوا من خارج فالنسيا(٥٢). وربما يكون قد وصل من مايوركا الكثيرون لو لم توضع أمامهم العراقيل. والذين وصلوا من هناك استوطنوا دينيا وبيجو ولا مارينا، حيث مازال يوجد هناك ألقاب من مايوركا بالإضافة إلى مؤشرات لغوية(٥٣).

لقد جاء أغلب المستوطنين من إقليم فالنسيا نفسه، وهم حرفيون كانوا يريدون أن يتحولوا إلى مزارعين، أو مزارعون يطمحون فى تحسين أوضاعهم. ولهذا فالأراضى السيئة لم تكن تهمهم، فمن بين القرى الموريسكية الـ ٤٥٣ كان يوجد ٢٠٥ قرى أغلبها قرى فقيرة فى مناطق جبلية ظلت صحارى جدباء حتى عام ١٦٣٨م، عندما كتب إيبانيث دى سالت تقريره . أما الجزء الباقى (٢٤٨ قرية) فقد تم إعادة توطينها بـ ١٣٧٠٠ أسرة مسيحية قديمة. ومن المنطقى أن يفكر الجميع فى أنه قد ربح بهذا التغيير. وعلى الرغم من أن الأبحاث مازالت نادرة، فإنه يوجد تنوع كبير جدا فى الحالات (الحظوظ – الظروف). ففى المناطق التى كان بها سكان من النوعين، فعندما ذهب الموريسكيون وسع المسيحيون القدامى أملاكهم، وهذا ما أثبته إديلينا باتير فى مناطق رى بيرنيسا (أليكانتى). وقد تحول عدد غير قليل من الأجراء إلى مزارعين حيث زادت مساحة أرضهم، كذلك زادت المساحة التى يتم ريها(٥٤). وقد أثر موقف السادة فى ذلك كثيراً، فالذين خافوا على أرضهم من عدم استيطانها اضطروا إلى أن يعرضوا شروطًا جيدة. ولهذا فكثير من سكان أوروبيسا (كاستيون)، وقد كانت أراضيهم الأصلية محملة بضرائب باهظة، تركوها واستقروا فى القرى التى بقيت خالية. وقد أحضرت السيدة لاورا ثيبيون، سيدة منطقة أوروبيسا مزارعين جدد وسلمتهم الأرض خالية من أى ديون (على الرغم من غضب المقرضين)(٥٥).

وعند توطين دايمور، والذى ذكره فونتابيا، وضع شروطًا جذابة جدا، حيث يعطى كل مستوطن ٤٠ قطعة أرض ومنزلاً.

كذلك فقد وجدت حالات من الإحباط المرير حدثت بسبب العقود المجحفة والاشتراطات القاسية من قبل السادة، والتى أحدثت جوًا من التوتر المتزايد، وقد أدى ذلك إلى ما عُرف فى نهاية القرن السابع عشر بحركة النقابات الثانية Gevmauias ، وإن دراسة مثل هذه الظواهر سوف تذهب بعيداً عن هدفنا، ومن ناحية أخرى يوجد فعلاً قائمة مراجع مهمة عنها(٥٦).

ويكفي أن نقول إنه عندما أرادوا أن يطبقوا على المستوطنين الجدد المسيحيين المعاملة نفسها التى كانت تطبق على الموريسكيين نسى السادة أنه بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية توجد عوامل أخرى سيكولوجية تجعل وجود فروق عميقة بين مجموعة وأخرى، فقد كان الموريسكيون يكوِّنون أقلية مضطهدة مطيعة، فبالإضافة إلى دفع الضرائب، كانوا يقومون بخدمات ويقدمون هدايا ويقبلون أن يكونوا ضامنين لديون سادتهم. أما المستوطنون الجدد فقد كانوا يرفضون كل ذلك، وإذا قاموا بشىء منه فعلى غير رغبتهم.

ويمكن أن نقول الشىء نفسه عن عملية إعادة توطين الأرض التابعة للهيئات الدينية، وإن كان عدد القرى فى هذه الحالة أقل. ولدينا معلومات جيدة حول الوضع الاقتصادى للدير ذى النفوذ السيستيرى المسمى فويسترا سنيورا دى بالديغنا، وهو الذى كان من بين أملاكه الوادى نفسه الذى يحمل اسمه وبه قرى تابيرناس وسيمات وبنى فيرو، وقد كان كل ساكنيها من الموريسكيين. وقد كانت الضرائب المقررة عليها قبل الطرد تتراوح من ١٠ إلى ١٥ ألف جنيه(٥٧)، ويبدو أنها قد تجمدت بسبب مشاكله التى نجمت عن المستوطنين واضطر الرهبان إلى زيادة أجور الموريسكيين الذين كانوا يعملون فى الحقول أو فى اقتصاد تكرير السكر، وقد كان ذلك يمثل عنصراً مهمًا فى اقتصاد الأديرة. ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من المستوطنين لم يكونوا يدفعون الضريبة فى صورة فاكهة وإنما فى صورة نقود، وبذلك يتم تحمل الآثار الناتجة عن الفقد المتزايد للقيمة الشرائية للعملة.

وبعد التاريخ المهم الخاص بعام ١٦٠٩م، فقد قل عدد السكان وانخفضت بالتالى حصيلة الضرائب، لكن ذلك لم يستمر طويلاً، حيث قام الدير بإجراء عملية الاستيطان بشروط قاسية، فقد أعطى كل مستوطن عدداً معيناً من قطع الأراضى ومنزلاً(٥٨)، ولكن حقوق صيد الحيوانات وصيد الأسماك، واستخدام الأفران والطواحين تم الاحتفاظ بها كاملة، كما ألغيت عملية دفع الضرائب فى صورة نقود، وأصبحت الضرائب عبارة عن كميات من الفاكهة (ربع الحبوب فى أراضى الرى العادية والثُّمن فى أراضى الرى بالأمطار) وثُلث إنتاج الزيتون وخُمس إنتاج الكروم. وقد كان غضب المستوطنين شديداً، وقد اضطر الدير إلى أن يمنحهم بعض التنازلات، فمثلاً لا يدفعون أى شىء مقابل ما يأخذونه من بساتين أقاربهم للاستهلاك الشخصى. ومع هذا فمع ما حدث من رخاء فى القرن الثامن عشر، فقد زاد دخل الدير كثيراً حيث وصل عام ١٨١٠م إلى ٧,١٠٢ جنيه. ولهذا فليس من الغريب عند صدور قرار الطرد أن يقوم الشعب بإلقاء الأحجار على الدير وأن ينشدوا أشعاراً تهاجم الرهبان(٥٩).

مثال آخر محدد حول نتائج الطرد والطرق التى تمت بها إعادة التوطين تقدمه لنا قرية مورو التابعة لأليكانتى، والتى لدينا حولها بحث قيم قام به السيد مومبلانش(٥٩مكرر). فإن سادة تلك البلدة، وهم أبناء رويث دى كوريا، كونت كوثينتينا، لم يكونوا يهتمون مطلقاً براحة رعاياهم من الموريسكيين الذين اضطروا أن يتقدموا فى ١٥٩٩م لمحاكمة فالنسيا لأنه نظراً لزيادة السكان ومحصول الزيتون فقد رفضوا إنشاء المزيد من المعاصر ولا يوافقون على حمل المحصول من الزيتون ليعصر فى مكان آخر. وقد أمرت المحكمة بعدم مضايقة الذين يقومون بذلك، وحتى عام ١٦٠٩م لم تكن تلك القضية قد انتهت تماماً.

وقد كان سلوك الكونت الرابع من أبناء تلك العائلة وهو المدعو غاستون رويث دى كوريا أسوأ من ذلك، حيث ورث السيادة على قرية مورو عام ١٦٠١م. ويكتب مومبلانش قائلاً: لو لم نر فى الوثائق القضائية الامتهانات التى كان يقوم بها مع رعاياه لما صدقناها. ولقد كانت تلك الإهانات كبيرة لدرجة أنه قد شك فى أنه يرغب فى دفعهم

للقيام بتمرد ليستولى على أموالهم فقد كان يلزمهم بدفع ضرائب جديدة، أو ضرائب أخرى كانت قد سقطت أو ألغيت أو لم تعد تستخدم، ويجبرهم على تزويده بالدجاج والجياد بسعر منخفض وكذلك إحضار الأخشاب مجانًا، وكذلك إنشاء قصر وسور مجانًا، حيث احتج بأن البلدة مهددة من قبل رجال العصابات، ولهذا يجب ألا يدهشنا وجود خطط للثورة، ولهذا فقد حرم عليهم التواجد معًا دون تصريح منه، وفي حالة اجتماعهم يجب أن يكون معهم مسيحى قديم يجيد العربية.

وفى عام ١٦٠٩م الحاسم، لم يكن الوضع يحتمل المزيد، فقد كان السجن مليئًا، بالإضافة إلى الغرامات والدعاوى والقضايا التى كانت لاتزال متداولة. استغل السيد الطرد ليستولى على كل ما لدى الموريسكيين، ولهذا فقد خلت تلك القرية تمامًا وتم عملية إعادة توطينها بصعوبة. وفى عام ١٦١١م لم يكن يوجد إلا ١٦ أسرة يمكن أن تكون قد قبلت الشروط القاسية التى كان يفرضها الكونت. فى عام ١٦٣٣ كان إجمالى عدد السكان ٤٦٦، وهو ما يساوى ثُلث عدد السكان الذين كانوا فى بداية القرن. وقد استأجر السكان الجدد من الكونت بنظام الاحتكار، لكنهم يفقدون تلك الميزة والأصول العامة إذا تغيبوا لمدة ٦ أشهر. لتصبح من ملك السيد، والذى كان يحتكر الحانة والمخبز والفرن والطواحين والمعاصر، وكان هو من يعطى تصريحًا لتقليم أشجار الزيتون وكذلك إزالة الأخشاب عن الزيتون. وكان يحصل على ثُلث فاكهة الزيتون ونصف إنتاج السكر، وربُع إنتاج التين.

وقد انعكست شروط هذا العقد فى ظهور الفقر والعصابات والتذمر العام. وقد كانت هذه القرية واحدة من أكثر المناطق قلقًا عام ١٦٩٣م، حيث بدأت حركة رجال النقابات الثانية. وكما بدا واضحًا فى الحالة السابقة، فإن نتائج علاقات إقطاعية كان ضحيتها الأقلية الموريسكية استمرت لفترة طويلة بعد اختفائها من بلدنا. وفى بعض الحالات مازال أثرها يُحَس حتى اليوم.

إن الرغبة فى متابعة الآثار البعيدة للطرد عن طريق بعض الحالات المعينة جعلنا نتقدم تاريخيا أكثر مما يجب، ولنتوقف عند الجزء الخاص بالقرن السابع عشر،

ولما كانت الهجرة من أقاليم لأخرى داخل إسبانيا كانت ضعيفة[٦٠]، فإن إعادة توطين الأماكن المهجورة كانت علي حساب أماكن أخرى فى فالنسيا؛ وقد عانى التوزيع السكانى من ذلك بعمق؛ ويدل على ذلك وثائق منها وثيقة بعنوان "توزيع السكان والأراضى التى بقيت غير مسكونة بطرد الموريسكيين فى مملكة فالنسيا"[٦١]، وكذلك الطلب رقم ٣٦٤ لبرلمان فالنسيا المنعقد فى عام ١٦٤٥وكان يطلب فيه من صاحب الجلالة:" نظراً لأنه يوجد فى مملكة فالنسيا آلاف القطع من الأرض الجيدة التى بقيت جدباء دون زراعة ولا محصول، كما أنها لا تُؤجر ولا تباع خوفًا من الديون والقروض الكثيرة المستحقة عليها، لهذا نرجو أن تأمروا مؤسسات العدل أن تنشر إعلانا فى القرى والمدن الموجود بها تلك الأراضى يقضى بإمكانية زراعتها على أن يقسم إنتاجها بين الملاّك والدائنين".

ولقد أثبت سيثكار باياريس فى بحث نشر حديثًا أنه بسبب الشروط القاسية التى تمت فيها عملية إعادة التوطين استمرت لفترة طويلة عملية الديون المستحقة على الفلاحين قبِل السادة، وكذلك كان من الصعب استقرار السكان[٦٢]. ومن خلال عملية المقارنة بين الألقاب التى تظهر فى إحصاء عام ١٦٤٦م، فى قرى إلبيريكى والأخرى التى تظهر فى العقد الثانى من القرن الثامن عشر تبين أنهم فى الغالب لا ينفقون، واستنتج من ذلك أن كثيراً من الفلاحين تركوا عملية إعادة التوطين حيث عادوا لبلادهم الأصلية أو بحثوا عن قرى يعرض فيها السادة شروطًا أفضل. وإذا أضيف إلى هذا العامل عوامل أخرى سلبية حدثت فى ذلك القرن (الآفات الزراعية والأوبئة...) يمكن فهم سبب أن تلك الديون قد بلغت مبالغ ضخمة لدرجة أن السادة اضطروا أن يمنحوا الفلاحين فترة سماح أو تخفيضات لأنه كان بالنسبة لهم مستحيلاً استرداد تلك المبالغ التى كانت تتجاوز بكثير قيمة الأرض، ولهذا فلو أنهم طالبوهم بشدة فإن الفلاحين سيكون أمامهم حل واحد وهو ترك الأرض، وهذا الأمر أيضًا لم يكن يفيد السادة. وفى مقابل هذا الوضع السيئ فإن سادة منطقة البيريكس وبالتحديد أملاك دوق إنفانتادو (وقد كان أحد أعضاء مجلس الدولة الذى صوت لصالح الطرد) حصلوا على مميزات وفوائد واضحة:

"إذا كانت الضرائب على الحبوب أصبحت أقل من السابق، فقد ربحوا فى الضرائب على الأشجار حيث أصبحت الربع. وقد تم تحديث الضرائب فى النقود والتى كانت قد فقدت قيمتها الشرائية منذ العصور الوسطى. لقد تم تجديد النظام الإقطاعى وتحديثه وتحسينه"(٦٣).

وباختصار يمكننا أن نقول: إن طرد عام ١٦٠٩م- إذا لم يكن بالنسبة لفالنسيا كارثة – فإنه كان بلا ريب مشكلة كبيرة، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف ذلك من قطاع لآخر، فبعض السادة لم يخسروا شيئًا، بل على العكس من ذلك ربحوا كثيراً، كما أن بعض المناطق الريفية تحسن حالها، فى حين عانى من نتائج هذه العملية السادة متوسطو الحال والصغار، وكذلك عامة الناس وبعض الهيئات الكنسية، لأنهم استثمروا أموالهم فى قطاعات مرتبطة مباشرة بالموريسكيين. و استردت المملكة بأكملها وضعها السابق عن طريق تصدير كميات هائلة من الخمور والحرير مما سمح لها بامتلاك كميات من فضة قشتالة، وفى وسط ذلك القرن عانت مرة أخرى مما عانت منه كل إسبانيا (حروب وأمراض وبائية) ثم بدأت تسترد وضعها منذ عام ١٦٦٠م.

ومن ناحية إسبانيا كلها فإن الآثار الاقتصادية والسكانية للطرد يمكن أن نلخصها على الشكل التالى: لا أثر لها على الإطلاق فى الأقاليم الشمالية، ذات قيمة معتبرة وإن كانت محدودة فى مناطق ومدن معينة فى باقى قشتالة، لا قيمة لها فى قطالونيا، قاسية فى أراغون مع زيادة حدتها فى مملكة فالنسيا.

وفى النهاية نقول إن الطرد لم يكن سبباً فى الخراب الذى تحدثت عنه الدراسات التاريخية فى القرن السابق، ولكنه كان عاملاً ذا وزن كبير من بين عدد من العوامل التى جعلت من القرن السابع عشر قرن ترد وانحطاط.

* * *

هوامش الفصل العاشر

(١) الأنواع المليون من الضرائب تم فرضها فى السنوات الأخيرة لحكم الملك فيليبى الثانى، وكانت مفروضة على الأشياء الأساسية مثل: اللحوم والزيت والخمور والخل. أما الكابالا فكانت ضريبة تفرض على المبيعات، ونظريا تمثل ١٠ فى المائة من قيمة المنتجات، لكن فى العادة كانت أقل من ذلك بكثير. وقد كانت الخمر أحد المنتجات التى عليها ضرائب كثيرة.

(٢) حول هذا المنظر ومذكراته انظر الدراسة الحديثة لميشيل كافاك، التى تعتبر مقدمة للكتاب التالى: ***Amparo de Pobres*** (Madrid, " Clasicos Castellanos", 1975.

(٣) الريال البسيط كان يساوى ريالا، ولما كانت عملة ذات قيمة قليلة جدا فقد كانت تستخدم للمعاملات اليومية، ومضعفاته هى ريالان... إلخ، حتى ثمانية ريالات.

(٤) ***Relaciones de la Corte de Espana***, pagina 408 (Madrid, 1857).

(٥) قائمة الأسعار الخاصة بفترة الطرد يمكن أن ترى فى المرجع التالى:

American treasure and the price revolution in Spain

وقناعته بقلة تأثيره توجد فى المرجع التالى:

El Florecimiento del capitalismo y otros ensayos

لقد كرر الفرضية ذاتها بأدلة مقنعة بصورة قليلة، وذلك فى محاضرته التى ألقاها فى المؤتمر الأول لتاريخ إقليم الأندلس.

(٦) ***La importancia economica de los moriscos en Espana*** ("Anales de Economia", IX, 1949).

(٧) الأصل اللاتينى *Hieronymi Monetarii Itinerqrium Hispanicum*

قد نشر فى . Revue Hispanque, tomo 48

وتوجد ترجمة لدون خوليو بويول وعليها ملاحظات.

(٨) Vease mi citado articulo sobre el P. Pedro de Leon, pagina 33.

(٩) ***Minorites et conjuncture. L expulsion des morisques en 1609***. ("Revue Hispanque" , no 457, 81 -98). Remite para mas detalles al tomo VIII 2 bis de su ***Seville et l Atlantique***.

(١٠) Actas de las Cortes, XXV, 772.

(١١) Codoin, XVIII, 148.

(١٢) B. N. ms. 2.471(folios 89 – 193) tratado 3 : "Causas de la mucha gente que falta en estos reinos y de la gran pobreza que padecen" .

(١٣) Delgado Merchan : ***Historia de Ciudad Real***, capitulo VIII.

وبالنسبة لتأثير الطرد على ثيوداد ريال انظر المحاضرة التالية:

Carla Rahn Phillips : ***The morisco Expulsion from Castile*** , " New Letters" mayo 1975, pp. 52 54 .

(١٤) A.G.S.CJH. 1.425.

(١٥) Id. id. Legajo 510

(١٦) publicado por don Manuel Casares en " Varia Velazquena.

(١٧) Cozar : ***Noticias y documentos para la historia de Baeza***, capitulo XIV(Jaen, 1884)

(١٨) A.G.S. CJH. Legajo 1.400.

(١٩) Id. Id. Le. 1.278.

(٢٠) Actas, XXVII, 128.

(٢١) Id. XXX, 344.

(٢١ مكرر) المعلومات السابقة تم جمعها مما يلى:

Consejos de A.H.N. libro 20726 y legajos 4.409, 4.410 y de un informe de 1757 existente en el archive de la cathedral de Granada, legajo 3 .y La ***Vida de San Indalecio de Almeria*** de Orbaneja, parte 1, capitulo 17 (America, 1699).

(٢١مكرر مرة أخرى) B. Vincent : ***Un modele de decadence : le royaume de Grenade dans le dernier tiers du XVI siecle***. (" Actas de las I jornadas de Metodologia aplicada a las ciencias historicas" , tomo, III, Santiago de Compostela, 1976)

(٢٢) يبدو أن البعض وقد حركهم الغيظ خربوا البساتين قبل رحيلهم، وهو أمر وإن لم يكـن قـد حدث كثيرا فإنه ليس الوحيد.

A.G.S.CHJ 494, consulta de 11 de febrero de 1610.

(٢٣) En su Memorial ms. BN. 1.092, folio 305. cit. por Zarco Cuevas : ***El licenciado Caja de Leruela y las cuasas de la decadencia de Espana***. ("Estudios sobre la ciencia Espanola del siglo XVII ", Madrid, 1935).

(٢٤) "لأنه يفهم أن هؤلاء الموريسكيين قد تركوا فى أماكن كثيرة من هذه المملكة أموالا وذهبـا وفضة ومجوهرات مخبأة أو مخفية، وهو ملكنا وينتمى إلينا...".

Brigido Ponce de Leon : ***Historia de Alhendin***, pagina 75 .

(٢٥) تقول الوثيقة إنه أثناء ذهاب خوان مارتين دى أليكانتى للبحث عن قمح فى إكـسترامادورا كان معه رجلان من قرية الميندرال، حيث قال له أحدهما: إنه إذا وجد رجل شجاع فسوف يكون غنيا، لأن رجلا من إشبيلية جاء ومعه مسلم يحمل روشتة (خريطة) حتى وصل إلى باب كهف، ولكنه لم يدخل لعدم وجود الأدوات اللازمة. وقد دخل خوان مـارتين ووجـد تماثيل لأصنام ورسوم، وكان يشك فى أنه بالضرورة مخبأ كنزا كبيرا. ولا ندرى مـاذا نقول، فإن أغلب هذه الكنوز تعود لفترة ما قبل التاريخ. ويبدو أن إكسترامادورا قد امتازت بذلك، وكان غبرييل إثيدو دى لا بيرروثا يقول إن هذه الأراضى غنية بسبب الكنوز التـى أخفاها الموريسكيون.

Amenidades, florestas y recreos de la Vera, p. 25

لقد كتب بعض الصفحات وذلك فى المرجع التالى:

Aparato para la historia de Extremadura (II, 90 – 94) al ms. titulado ***Apuntes y reflexiones sobre antiguos tesoros escondidos en Extremadura, segun la tradicion y las fabulas arabes.*** de don Vicente Maestre.

(٢٦) Archivo de la embajada Espanola cerca de la Santa Sede, 1614.

(٢٧) obra citada .

(٢٨) Juan B. Labana: ***Itinerario de reyno de Aragao . Adonde andou os ultimos meses do anno de 1610 e os primeiros de 1611***(Zaragoza, 1895).

(٢٩) Maria Luisa Ledesma Rubio: ***La poblacion mudejar de la vega baja del Jalon*** (Miscelanea Lacarra, 335 – 351)

(٣٠) V. de la Fuente : ***Historia de Calatayud***, II, 464.

(٣٠ مكرر) P. Ponsot, articulo citado.

(٣١) Argaiz : ***Soledad laureada***..VII, 587 (cit. por Garcia Manrique ***: las comarcas de Borja y Tarazona***, p. 64, Zaragoza , 1960).

(٣٢) Garcia Manrique, obra citada, 184.

(٣٣) Rafael Garcia : ***Datos para la Historia de Borja***, capitulo IX (Zaraogza, 1902)

(٣٤) A. Melon : ***La expulsion de los moriscos y el duque de Villahermosa***(" Revista Historica de Valladolid " , abril – junio 1925).

(٣٥) A.H.N. Consejos 19.202.

(٣٦) Jose Maria Lacarra : ***Aragon en el pasado***, 193 – 194 (Madrid, 1972).

(٣٧) Juan Regla : ***la expulsion de los moriscos y sus consecuencias en la economia valenciana*** (" Studi in onore di Amintore Fanfani" . ***Estudios sobre los moriscos*** . *Tulio Halperin Donghi, obra citada . James Casey :* ***moriscos and the depopulation***

(٣٨) Boronat : ***los moriscos espanoles y su expulsion***.

قبل إصدار قرار الطرد بقليل اعترف قائلا: "إن خراب المملكة سيكون كبيرا، وعلى الرغم من أننى سوف يصيبنى النصيب الأكبر فى هذا فإننى حزين لما سيحدث للآخرين، راضيا بما سوف أعانيه من قلة". خطاب موجه للملك فى ٢٣ أغسطس عام ١٦٠٩م في المرجع التالى:

*Janer : **Condicion social de los moriscos**, apendice 96*

(٣٩) ***Relaciones***...464.

(٤٠) Archivo de la Embajda espanola cerca de la S.S.le. 109, fol. 94-96 .

(٤١) *La coyuntura de la economia valenciana en los siglos XVI y XVII* (" anuario de Historia Economica".)

على الرغم من النواحى الإيجابية التى تميز هذا العمل فإننا لا يمكننا أن نشاركه فى التناقض الذى يطرحه؛ حيث يرى أن الموريسكيين الذى كانوا سببا فى الرخاء فى السنوات الأخيرة من القرن ١٦ تحولوا، بسبب الاكتئاب (الاضطهاد)، وذلك فى بدايات القرن ١٧، إلى عامل سلبى للاقتصاد، وإن "طردهم حل مشاكل معينة ومنع من أن ينتشر فى كل المقاطعات طبقة عمالية قروية فى حالة من الفقر المدقع كانت يمكن أن تكون سببا لتوترات حادة ". وإذا كان يوجد الكثير من الموريسكيين الذين يقرضون النصارى القدامى أموالا فمن الذى يناسبه صفة" البروليتاريا" الطبقة العمالية المدقعة؟ وهذا الأمر واحد من الاعتراضات التى يمكن أن تثار نتيجة للتأكيد الذى أعلنه سابقا.

(٤٢) بالفعل فإن جنيهًا من عشرة ريالات فضية، فى عصر كان فيه مرتب العامل من ٢ إلى ٣ ريالات كان يمكن أن تساوى أكثر من ٧٠٠ بيزيتة عام ١٩٧٧م.

(٤٣) المارك كان يساوى نصف رطل بمعنى ٢٣٠ جرامًا.

(٤٤) حول موضوع تزييف العملة ومشاركة الموريسكيين فيها كتب السيد ماتيو يوبيس فى مجلة ***NUMISMA*** ، وكذلك كل من خايمى لويس فى المرجع التالى:

El delito dde la falsificacion de moneda en los fueros el reino de Valencia , id. No 15, ano 1955.

ويقدم المؤلفون المعاصرون الكثير من البيانات المبالغ فيها تقريبا. فتبعا لبليدا (ص ٩٩٩) فإن العملة المزيفة التى تركها الموريسكيون كانت كثيرة جدا فى فالنسيا، وقد تكلف أمر القضاء عليها مبلغا وقدره ٥٠٠٠٠٠ دوقية. أما فونيسكا (وذلك فى كتابه المذكور ص ٣٢٦ – ٣٢٨) فيعطى معلومات كثيرة عن الخراب المالى الذى حدث فى فالنسيا. لقد كان المزيفون يخلطون النقود السليمة بالأخرى المزيفة حيث كانوا يعرضون أربعة إسكودوات مزيفة مقابل واحد فضى، ونظرا لطمع الكثيرين فقد سقطوا فى هذا الفخ، مثل بنك المدينة الذى أخذ جزءًا من هذه العملة المزيفة "، وتحول الأمر إلى واحد من أكبر عمليات البلبلة والارتباك التى لم يسبق لها مثيل فى تلك المملكة". وفى البداية تم منع استعمال تلك العملة ولكن الناس الفقراء ثاروا كثيرا حيث لا يملكون عملة أخرى، مما اضطر السلطات إلى جمعها ودفع مقابلها لأولئك الناس، كما تم مطاردة المزيفين بقسوة كبيرة؛ ففى مدينة مولبيدرو تمت إدانة ١٥٠شخصًا حضوريا أو وغيابيا، حيث تم إعدام العديد منهم علنا أمام الناس، وقد كان من بينهم أحد السادة الفرسان. والآن يجب أن نوضح أن هذه الأحداث حدثت عام ١٦١٠ عندما كان طرد الموريسكيين قد تم، لماذا ينسب هؤلاء المؤلفون عملية التزييف لهم فقط؟ ومن المؤكد "أن أغلب الذين كانوا يمارسون ذلك فى قشتالة كانوا من المسيحيين القدامى".

مبالغات شبيهة بالسابقة تبدو فيما يتعلق بكمية النقود التى أخرجها الموريسكيون عند طردهم. يقول فونيسكا إن واحدا فقط من الموريسكيين ويدعى علامى ديل عسكر من قرية البيريمى أخرج أكثر من مائة ألف دوقية، وقد كتب البطريرك ريبيرا إلى الملك قائلا: "إنه تبعا لبعض الأشخاص الذين يفهمون فى هذا الأمر فقد أخرج الموريسكيون أربعة ملايين". إن هذا الرقم غير منطقى، ولكن فى الحقيقة فإن هذه المملكة يجب أن تكون قد فقدت كميات كبيرة ما بين المال والحلى.

(٤٥) Regla, obra citada, p. 172.

ومع هذا فإن زراعات قصب السكر فى منطقة بينيبيتكا قد استمرت. ألا يمكن أن يكون قد أثر فى مزارع قصب السكر فى فالنسيا قسوة الظروف المناخية التى حدثت فى القرن ١٧ وبخاصة موجات الصقيع الشديد الفريدة؟

(٤٦) Articulo citado.

(٤٧) ***Montesa ilustrada***, Valencia, 1669

(٤٨) ***La situacion economica de la nobleza valenciana en visperas de la expulsion de los moriscos*** (" Homenjae al doctor Regla" , tomo I.

(٤٩) Fontavella : ***La Huerta de Gandia*** , pagina 72.

إنه من الأمور المؤسفة ألا ينشر حتى الآن إحصاء ١٦٤، والذى مـازال مخطوطـا فـى الأرشيف العام للمملكة.

(٥٠) Casey, articulo citado , paina 523.

(٥١) ***Relaciones*** ...536.

(٥٢) ***Repoblacion del reino de Valencia despues de la expulsion de los moriscos*** (Valencia, 1969)

(٥٣) Diego Zaforteza: ***Mallorquines en Valencia*** ("Bol, Sociedad Arqueologica Luliana", XXXI, 283 – 285 _

(٥٤) ***La expulsion de los moriscos : su repercusion en la propiedad y la poblacion en la zona de los riegos de Vernisa*** ("Saitabi", X,81 -100)

(٥٥) Sevillano Colom : ***Historia de Oropesa***.

(٥٦) V. el articulo de H. Kamen ; Nueva luz sobre la segunda Germania ("Homenaje a Regla", vol. I) y la bibliografia que en el se cita.

(٥٧) J. Casey, articulo citado.

(٥٨) إن التاحويا هى مقياس مساحى يساوى تسع الهكتار

(٥٩) V. Gascon Pelegri: ***Historia de Tabernes de Valldigna***, capitulos X y XII(Valencia, 1956)

(٥٩ مكرر) Historia de la villa de Muro, tomo I (Alicante, 1959).

(٦٠) على الرغم مما ذكر فإنها قد لا تكون صغيرة جدا مثلما ذكرت بعض المقالات الحديثة، لأن عدد الشهادات المستخرجة عام ١٦٠٩م كان ١٧٨٠٠٠، وفى عام ١٦١١ وصـل إلـى ٢٠٤٠٠٠ وهو ما يدل على زيادة واضحة فى عدد المسيحيين القدامى.

(٦١) لقد طبع فى فالنسيا عام ١٦١٤م، وأعيد طباعته فى مدريـد عـام ١٩١٥م، وقـد نقلـه بورنونات فى كتابه المذكور، كما نقل جزءًا منه فى دانفيلا ص ٣٣٣ – ٣٣٩. والوثيقـة هى معاملة رسمية بين الإدارة الملكية والسادة الذين كانوا يطلبون تعويضا بسبب الأضرار التى حدثت لهم.

(٦٢) ***El endeudamiento del campesinado valenciano en el siglo XVII (el caso de las baronias de la zona de Alberique***) Estudia, IV, 139 – 162

(٦٣) Articulo citado, pp. 152 – 153.

الفصل الحادى عشر

المهجر الموريسكى

إن خروج الموريسكيين بين عامى ١٦٠٩ و ١٦١١م يعد الفصل الأخير لحالة من النزيف البشرى الإنسانى بدأت فى القرون الوسطى، ثم زادت حدتها مع الغزوات المسيحية الكبرى، ثم اقتصرت على خروج محدود خلال القرن السادس عشر، ثم وصلت فى القرن التالى إلى النهاية المؤلمة. وبصورة عامة كانت خسارة واضحة لإسبانيا فى صالح دول معادية لها؛ وهو بلا شك أكبر بكثير من الناحية الديمغرافية من الهجرة اليهودية. ومع هذا فإننا نعرف بشكل منقوص الأماكن التى ذهب إليها الموريسكيون. والمؤرخون المعاصرون للأحداث اقتصروا على إعطائنا بيانات مقتضبة حول الاستقبال الذى لقيه الموريسكيون، أما المعادون فقد أصروا على إبراز المصائب التى عانى منها الموريسكيون واعتبروها عقاباً لتماديهم فى غيهم، فى حين أن أكثر المؤرخين اعتدالاً اهتموا بالحالات الكثيرة حول موريسكيين تم قتلهم فى إفريقيا لأنهم اعترفوا بأنهم مسيحيون(*) .

هذا الموضوع أثار الاهتمام اليوم أكثر مما فى السابق. ويوجد كتاب إجمالى حول هذا الموضوع لم نستطع أن نصل إليه، وهو رسالة دكتوراه غير مطبوعة لخوان بانيا وعنوانها " الموريسكيون الإسبان وهجرتهم إلى شمال إفريقيا بعد الطرد".

(*) لا يمل مؤرخو القرن السادس عشر فى إسبانيا الحديث عن مذابح تعرض لها الموريسكيون عند وصولهم إلى البلاد الإسلامية، ولا يستند هذا الحديث إلى وثائق. (المراجع)

أما عن مرورهم بفرنسا فلدينا معلومات جيدة وذلك عن طريق كتابات ل. كارداياك[1]، وكذلك عن إقامتهم فى تونس وذلك بواسطة ما نشر من مقالات متنوعة سنتعرض لها فى المستقبل.

إن جزءاً من الموريسكيين قدم دلائل على حبه الدائم للحركة والتنقل، ونحن نعرف أن الكثيرين من بين أولئك الذين كانوا يعيشون بالقرب من الساحل، قد عبروا إلى الشاطئ الآخر فى بعض الأحيان لرغبتهم الخاصة، أو بسبب حملات القراصنة، ووصل عدد الجماعات الهاربة من مملكة غرناطة وفالنسيا إلى شمال إفريقيا قد وصل إلى عدة آلاف خلال القرن السادس عشر، ويجب ألا تدهشنا تلك الظاهرة إذا عرفنا حالة القمع التى كانوا يعيشونها، لكننا نجد أحياناً أن بعض الموريسكيين قد وصلوا إلى أماكن لا نتوقعها، فمثلاً فى الفترة (١٥٠٨-١٥٠٩م)، نجد أحد الغرناطيين "سيدى على " ويعرف بالتورتو يعمل مترجماً لنائب الملك البرتغالى فى الهند، البوركيركى، ثم بعد ذلك بقليل نجد غرناطيا آخر يدعى "سيدى على" يعمل مندوباً للتاجر الثرى مالك غوبى، وذلك لمعرفته باللغة الإسبانية[2].

ويبدو هذا أمراً عجيباً، لكن مشكلة الموريسكيين فى أمريكا التى عالجها ل. كارداياك فى مقال له نُشِرَ مؤخراً، تعرض لنا جوانب مهمة؛ فقد كان وضعهم مشابهًا للوضع الخاص باليهود، واليهود المرتدين ، حيث كانت أبواب العالم الجديد مغلقة قانونيا فى وجودهم، وذلك بقرار صادر فى ١٥ سبتمبر عام ١٥٢٢م وقد ذكر ذلك مرات عديدة فى القانون العام. ومع هذا فإن المسلمين المتنصرين كانوا يرغبون فى الهروب للأسباب نفسها التى دفعت اليهود: من رغبة فى الحرية، ولإسدال ستار النسيان على أصلهم، إلى جانب الحوافز الاقتصادية التى كانت تثيرها تلك الأرض الموعودة، أما الآثار التى بقيت لهم فتعتبر قليلة جدا، ويمكن أن نذكر بعضها: لقد تم حرق رجل يدعى ألفارو غونزاليث من هورناتشوس لأنه مسلم؛ وذلك فى كوثكو عام ١٥٦٠م ، كما أن سيدة تدعى ماريا رويث من قرية تابعة لغرناطة اعترفت أمام محاكم التفتيش فى المكسيك عام ١٥٩٦م بأنها كانت تمارس منذ سنوات دينها القديم، إلا أنها

تعتبر نفسها الآن مسيحية، مما خلصها من أيدى المحكمة حيث عوقبت بغرامة مالية، كذلك فإن غرناطيين ذهبوا كعبيد مع سادتهم بعد حرب ١٥٦٩ - ١٥٧٠م. وإجمالى هذه الحالات يكون قليلاً وهناك موريسكيون آخرون لم تُكشف هويتهم لأحد ، فهل كان النجارون الذين قاموا بإنشاء سقوف الكثير من الكنائس مثل كنيسة سان فرانسيسكو فى كيتو موريسكيين؟ لأن الطابع الموريسكى ليس غائبًا عن الفن الأمريكى الإسبانى(*) .

لكن هذا الخروج المحدود لا يقارن أبداً مع الخروج الكبير الذى سببته قرارات الطرد الصادرة فى ١٦٠٩-١٦١١م ، وكانت نتيجته نفى أغلب الموريسكيين الإسبان إلى أرض الإسلام ، ويبدو أن الكثيرين منهم كانوا يفضلون البقاء فى أرض مسيحية إلا أن العقبات القانونية وصعوبات التكيف التى وجدوها كان من الصعب التغلب عليها، فالأب بليدا قص علينا كيف أنه فى طريق عودته من روما رأى على مشارف ناربونا مجموعة من الموريسكيين الإشبيليين وهم يبكون وطنهم الضائع، وعدد غير قليل منهم حاول العودة. وبين الأخبار العجيبة فى ذلك أن أكثر الأشياء التى كان يشمئز منها الموريسكيون فى فرنسا "تجول الخنازير فى الشوارع وقد تم استئناسها، ومع أنهم كانوا يبتعدون عنها فقد كانت تمس ثيابهم، وكذلك لم يتجرأوا على تناول الخبز الذى يصنع فى الأفران العامة لاستعمال أوانيها فى إعداد الطعام من لحم الخنزير ولهذا فقد أقاموا فرنًا خاصًا بهم فى منزل خاص حيث كانوا يصفون فيها أوانى اللحم حتى أيام صوم المسيحيين، وكانوا يبكون الحرية التى كانوا يتمتعون بها فى إسبانيا، وإن كانت حرية العقيدة الموجودة فى فرنسا تريحهم بعض الشىء، ومع هذا فإن اشمئزازهم من الخنازير كان كبيراً حيث كان الدخان والرائحة يأتيانهم من أفران المنازل المجاورة بشكل مستمر ولم يدعهم ذلك فى راحة حتى داخل منازلهم"(٣).

(*) هذه الفقرة تدعونا إلى إبداء عدة ملحوظات: كان الوجود الموريسكى فى أمريكا أكبر مما تصوره الوثائق لأن الموريسكى كان يصل إلى بلاد العالم الجديد وهو يحمل تصريحًا باسم مسيحى. هناك وثائق أخرى تم اكتشافها بعد صدور مقال كارداياك المذكور وهو ما يزيد معلوماتنا عن الموضوع. من ناحية أخرى فإن الطابع الغالب على الفن الإسبانى فى القرن السادس عشر كان طابعًا مدجنًا أو موريسكيا ، أى يرجع إلى تأثيرات إسلامية. (المراجع)

أشرنا سابقًا إلى الاستقبال الحسن الذى وجده الموريسكيون فى البداية فى فرنسا، لكن موت إينريكى الرابع فى مايو ١٦١٠م – حيث وافق ذلك الطرد– كان بالنسبة لهم مصيبة كبرى، فعاهل الأسرة البوربونية، كان قد هاجم بشدة ذلك الإجراء، ولم تكن لديه مشاعر دينية ضد الموريسكيين، كما أعلن فى البداية أنه مستعد لاستقبال أولئك الذين يعتنقون الديانة الكاثوليكية (فبراير ١٦١٠م)، لكن الحجم البشرى الذى خرج إلى فرنسا على أثر الطرد وعدم استعداد الشعب لاستقبال أناس على غير دينه، وكثير منهم فى حالة يرثى لها من مرض وفقر جعلا الملك يغير من وجهة نظره، ففى ٢٥ أبريل أصدر قرارًا لمدن جنوب فرنسا بأن يوجهوا المهاجرين فى الحال إلى أقرب ميناء لترحيلهم، ومن يقاوم منهم يرسل للتجديف فى السفن .

ويُشك فى أن الملك قد اتخذ هذا الإجراء القاسى، ولكن من المعروف أن السلطات الإقليمية والمحلية تصرفت بقسوة شديدة، فبلدية بايونا وبرلمان تولوز أعلن إغلاق الحدود فى وجه المهاجرين، أما برلمان لانغيدوك فقد وصل به الأمر إلى التهديد بالشنق لكل من يرفض الرحيل؛ فى حين أن برلمان بروبينثا حرم عليهم المرور عبر رودان، كما أن الكثيرين منهم فرض عليهم أن يرحلوا من مارسيليا، أو النزول فيها لتغيير المركب فى طريقهم إلى إفريقيا، لهذا فقد أمر أن "ينتقلوا من مركب لآخر دون النزول إلى الأرض " كذلك فقد صدر قرار بصدد تكاليف الرحلة يقضى بأن يدفع الموريسكيون الأغنياء لإخوانهم الفقراء وأنه إذا دعت الضرورة فإن البلدية تغطى ذلك العجز[٤].

إن خطر الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية كان دائمًا موجودًا فى ذلك الوقت. ومن المفيد أن نذكر أن الطاعون كان قد انتشر أيضًا بين الغرناطيين أثناء هجرتهم لقشتالة. وفى فرنسا أيضًا كانت توجد بوادر للمرض وقد حدث هناك خوف شديد من الأمراض الوبائية على حياة السكان من مجموعة موريسكيين يصل عددها إلى ألف، وكانوا قد أبحروا من إشبيلية فى باخرتين، غرقت إحداهما، وصلوا إلى مارسيليا فى أشد حالة يرثى لها حيث ملأوا العيادات والمستشفيات، مما أدى بسلطات المدينة إلى التصرف بسرعة ، حيث استأجروا بواخر نقلت المرضى إلى " بونا وطبرق وغيرهما من موانئ شمال إفريقيا"، كما أن بعض أصحاب السفن وقباطنتها قد استغلوا تلك

الظروف المأساوية التى يعانى منها الموريسكيون الفقراء وذلك من أجل سرقتهم وغشهم. وقد وصل بهم الأمر حسب الإشاعات التى تناقلها الناس فى فرنسا، إلى إلقائهم طعامًا للأسماك، ولهذا بدأوا يسمون السردين بالغرناطى مما جعل البعض يمتنع عن تناوله، ومن المحتمل أن لا يكون لهذه الشائعات أى أساس من الحقيقة؛ ولكن لدينا وثائق عن استغلال أصحاب البواخر لهم فمثلاً ذُكر رجل يدعى أنترون أيستتن أخذ فى باخرته أربعين موريسكيًا وذلك من أجل نقلهم إلى تونس، وعندما وصل بالقرب من بنزرت أنزلهم وهرب بممتلكاتهم وحقائبهم وتصل قيمتها إلى ٩٣٠٢٤٥ اسكوبو، حيث كان أحد الركاب يمتلك متاعًا قيمته ٢٣٢٦٥ اسكوبو، كما كان بينهم أناس فقراء جدا، حيث فقدوا كل ما معهم. ومن العدالة أن نشير إلى أن برلمان لانغيدوك تصرف بسرعة وبصرامة، فقبل أن ينتهى عام ١٦١٠م تم القبض على المتهم وأصحابه، وعوقبوا عقابًا شديداً وأعيدت الأموال إلى الموريسكيين[٥].

وإذا أخذنا فى اعتبارنا الأوضاع القانونية والجو العدائى للشعب فمن المستحيل أن توجد فى جنوب فرنسا قاعدة موريسكية مهمة، وقد أشير إلى أسماء بعض الأماكن فى الولاية الباسكية الفرنسية والتى يمكن أن تكون دليلاً على الإقامة أو المرور[٦] بتلك الأماكن، ومن المعروف أن بعضهم وصل إلى باريس. أما الأغلبية فقد ظلوا فى الجنوب.

أما حالتهم الدينية، وهى النقطة المهمة فى القضية ففيها الكثير من الغموض؛ فمن الناحية الرسمية كانوا كلهم مسيحيين، على الرغم من أنهم طردوا بسبب أنهم لم يكونوا كذلك، مع أن عملية اختيارهم طريق فرنسا كانت تسمح بالاعتقاد بأنهم مسيحيون فعلاً(*)، كما أن الكاثوليك والبروتستانت بدأوا يتنافسون من أجل الأخذ

(*) الاستنتاج فى حاجة إلى تعديل، فمن المعلوم أن الموريسكى كان يتعين عليه ترك أطفاله فى إسبانيا إذا أراد التوجه إلى بلد إسلامى، وكان بمقدوره اصطحابهم إذا توجه إلى بلد مسيحى. لذلك كان الموريسكيون يتوجهون إلى فرنسا - حتى يتمكنوا من اصطحاب أولادهم - ثم يذهبون إلى بلاد إسلامية بعد ذلك. (المراجع)

بزمام تلك الخراف الضالة؛ لهذا فإن كاردينال سورديس Saurdis جعلهم هدفًا لنشاطه التبشيرى، وأما الجماعات البروتستانتية وكانت منتشرة فى جنوب فرنسا ، فقد حاولت أيضا ضمهم لمذهبها مستغلة الصفة المشتركة بينهم، وهى كراهيتهم للكاثوليك .

قبل الموريسكيون – وهم فى هذه الحالة من الحاجة والعوز – كل أنواع الحماية التى عُرضت عليهم ولم يجدوا بأسًا فى التظاهر بإيمان لا يحسون حرارته، ولا يجب أن نلومهم على تصنعهم أو عدم صراحتهم، لأن ذلك كان قد فُرض عليهم لمدة طويلة خلال وجودهم فى إسبانيا من أجل البقاء ، ولكن هذه اللعبة لم تستمر طويلاً، فالمجمع الكنسى البروتستانتى فى فيترى حذر الجماعات الإصلاحية من "المسلمين *الذين طردوا من إسبانيا والذين ينتقلون من كنيسة إلى أخرى*" حتى *لا يستغلوا الكرم المقدم لهم* .

وبعد عام ١٦١٧م، وهو العام الذى عقد فيه ذلك المجمع، لم يعد يُذكر الموريسكيون مرة أخرى، وهذا ما يجعلنا نفترض أن الأغلبية منهم كانوا قد رحلوا إلى أرض الإسلام. وقد كتب كارادياك قائلاً: "إن تحولهم المؤقت إلى البروتستانتية لا يزيد على أن يكون حادثًا عابرًا فى مهجرهم" ، لكنه فى الوقت نفسه يذكر أن بعضهم أقام فى لانغيدوك. كما أن أحد المؤرخين من مونبيليه وهو إيقريفيللو كتب يقول: "إن عددًا لا بأس به قُبلوا فى المدن حيث مارسوا التجارة والطب وزراعة الأراضى"(٧)؛ ويمكننا أن نفترض أنه من بين أكثر من ثلاثين ألفًا، ممن رحلوا إلى فرنسا، بقى هناك بضع مئات ربما يصل عددهم إلى ألف، وذلك بالطبع إلى جانب الذين ماتوا فى فرنسا بسبب المرض أو الإنهاك قبل أن يجدوا مكانًا مريحًا.

ويمكن أن تكون إيطاليا قد عرضت مأوى لأولئك الذين رغبوا فى الحياة كمسيحيين. والكثير منهم مرَّ بإيطاليا فى طريقه إلى تركيا وتونس، وبعضهم بقى فيها على الرغم من أن معلوماتنا حول هذا الأمر لا تكاد تذكر. وكان العاهل الكاثوليكى قد حرم إقامتهم بأى أرض تقع داخل أملاكه فى الأراضى الإيطالية، كما أننا لا نعرف أى شىء عن إجابته لخطاب كان قد أرسله دوق أوسونا فى عام ١٦١١م بصدد وصول عدد

لا بأس به من الموريسكيين صغار السن، من الذين رفضوا الذهاب إلى شمال إفريقيا ويرغبون فى البقاء فى صقلية[٨].

أما الملك الوحيد الذى أعلن استعداده لقبولهم فهو الدوق الكبير لتوسوكانا وقد حاول أن يقنع ثلاثة آلاف بالبقاء فى ليورنا، وهى مدينة كانت قد ازدهرت بفضل جهود مجموعة من اليهود الإسبان. ولا نعرف لماذا فشلت المحاولة، ربما لأنهم أرادوا أن يجبروهم على بعض الأعمال غير المناسبة لهم أو التى لا تعجبهم، ولهذا فإن الاستقبال الطيب الذى حدث فى البداية تحول إلى تضييق ومعاناة وسوء معاملة. وهذا ما يفهم من فقرة من خطاب غريب مُرسل من الجزائر [العاصمة] من رجل يدعى مولينا إلى رجل من تروخيو. وبعد أن يصف له المعاملة السيئة التى لاقوها فى مارسيليا، يضيف " كنا هناك، ويزيد عددنا على الألف، قررنا الرحيل من تلك المملكة إلى مكان آخر أكثر راحة. أما نحن فقد ذهبنا إلى ليورنا، وقد حدث لنا مثل ما حدث فى مارسيليا. ونظراً لأن السادة هناك يريدوننا من أجل استغلالنا واستخدامنا فى الزراعة وغيرها من المهن الدنيئة، التى لا يجيدها عامة الناس هناك، فى حين أن أغلبهم من التجار والحرفيين... فقد اتفقنا على أن نذهب إلى المكان الذى يقرره الملك، وهكذا أتينا إلى مدينة الجزائر حيث يوجد آخرون من إكستريمادورا، ولامانشا ، وأراغون"[٩](*).

وإذا صدقنا ما يرويه الأب بليدا فقد ذهب إلى روما عدد لا بأس به من الموريسكيين وأكدوا أنهم مسيحيون وطلبوا وساطة البابا أمام الملك من أجل أن يعودوا إلى إسبانيا، ولكن البابا عندما علم أن امرأة موريسكية رفضت المساعدة الروحية المسيحية عند موتها أمر بطردهم جميعًا". ومن الممكن أن يكون موقف الأب الدومينيكى المعادى للموريسكيين قد شوَّه ذلك. لقد وصل موريسكيون إلى فينيسيا، قبل الطرد، وكانت هذه المدينة لهم – كما كانت بالنسبة لليهود سابقًا – مرحلة فى رحلة طويلة نحو

(*) النص الكامل للرسالة نُشر فى كتاب غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة . (المراجع)

الأراضى التركية، ويؤكد فونيسكا أنه يوجد فى سالونيك ٥٠٠ من أراغون وآخرون قد وصلوا إلى القسطنطينية عن طريق ليورنا وفينيسيا كما أن ٦٠٠ إشبيلى قد رحلوا إلى أغادير Agde[١٠] .

إن الطريق (أو أحد الطرق) الذى كانوا يعبرونه نعرفه عن طريق كتاب عجيب يصف الطرق فى القرن السادس عشر، وهو جزء من مخطوط الخميادو موجود فى المكتبة الوطنية في باريس ، وأول من تحدث عنه هو سيلفسترى دى ساكى فى القرن التاسع عشر، ثم نشره بواسطة "غيوقرافيكال ريفييو" [المجلة الجغرافية]، فى نيويورك عام ١٩٣٩م، وكذلك فى "استديوس غيوقرافيكوس" كتاب [الدراسات الجغرافية] مجلد رقم ٧ عام ١٩٤٩م صفحات ١٣٦-١٤١)، وهو كتاب قيم، فهو إلى جانب وصفه للطريق يحتوى على الكثير من الإرشادات المفيدة مثل قوله: "تخرج من جاكا حيث تسجل كمية الذهب التى معك" ثم تمر على تاربيث ثم تولوز وبعد ذلك ليون".

وهناك يعرض على المهاجر طريقان: طريق بولندا وطريق ميلان . ونعتقد أن قليلين هم أولئك الذين سيختارون طريق الدول الشمالية نظراً لأن الهدف الرئيسى هو السفر إلى الإمبراطورية العثمانية، وفى جاكا يجب أن تعلنوا أنكم تذهبون بسبب الديون والرغبة فى العمل إلى فرنسا، أما فى فرنسا إذا سُئلتم عن سبب سفركم فقولوا: "زيارة القديسة ماريا دى لوريتا". وأما فى إيطاليا فقولوا "زيارة القديس مرقس" ، وبهذه الطريقة فإن الهروب من أرض الكفار يغطى بغطاء التقوى. وأما فى فينيسيا، وهى مدينة واقعة بين عالمين، لا داعى هناك للمداراة، ولكن كيف تعرفون الوسطاء الذين يسهلون لكم بقية الرحلة؟ يجب الذهاب إلى ميدان القديس ماركوس" هناك ستجدون أناساً بثياب بيضاء وأولئك هم الأتراك، وآخرين بثياب صفراء وهم اليهود"، وسيسألونكم هل ترغبون فى السفر فقولوا إن لدينا إخواننا فى سالونيك ونرغب فى الذهاب إلى هناك، وستدفعون دوقية واحدة كإيجار عن كل فرد ثم لا تنسوا شراء طعام يكفى لخمسة عشر يوماً ...".

يبدو واضحًا أن هذا الطريق الطويل والمكلف كان مغلقًا في وجه الأغلبية من الموريسكيين لأن قدرتهم المادية كانت أقل بكثير من تكاليفه. ومع هذا فبعد عام ١٦٠٩م زاد عدد الذين يستعملونه بطريقة محسوسة؛ لقد وُجد موريسكيون فى سالونيك وآخرون فى القاهرة والبعض الآخر فى الساحل الشرقى وفى الأرض التى تكوِّن الجمهورية اللبنانية، وهناك جزء من الطبقة الحاكمة بها على معرفة بأصلها الأندلوثى. ومنطقى أن يكون التجمع الأكبر موجودًا فى القسطنطينية التى كان قد وصل إليها غرناطيون كثيرون فى السابق على أثر أزمة عام ١٤٩٢م، ثم عام ١٥٦٨م، حيث أقاموا فى حى جالاتا، وحُولت كنيسة القديس بولس القديمة إلى مسجد، وقد وصل ضغط تيار السكان الجديد إلى أن جعل المسيحيين يتركون ذلك الحى وينتقلون إلى آخر يعرف بألبيرا ، ويقول مؤلف كتاب "رحلة إلى تركيا" المثير للجدل إنه قد وجد فى القسطنطينية "موريسكيات أكثر من الموجودات فى أراغون وفالنسيا يأتين كل يوم مع أزواجهن ومعهم أموالهم خوفًا من محاكم التفتيش"[١١]، وزاد العدد منذ عام ١٦٠٩م، ونجد أصداء ذلك فى تقارير السفير الفرنسى بارون دى سليجناك والهولندى كورنليس هاغا ويصفونهم : "بأقلية كبيرة ونشيطة ومؤثرة"[١٢]. وكذلك فإن أحمد قاسم بيخارانو وهو الموريسكى الذى عمل مترجمًا ورسولاً للسلطان المغربى مولاى زيدان كتب من باريس عام ١٦١٢م عن "الأندلوثيين الذين يعيشون فى القسطنطينية" [١٣].

إن الأغلبية الساحقة من الموريسكيين رحلت سواء أكانت راضية أم كارهة إلى شمال إفريقيا، وهو ما يعتبر مواصلة لعملية قديمة، وذلك لأن هذا الأقليم هو الأقرب إلى إسبانيا والمشابه فى كثير من المجالات المعيشية ومن ناحية السلالة ، وهو منذ زمن بعيد يستقبل جماعات من الأندلس، فانتقال المجموعة السكانية من أحد جانبى المضيق إلى الآخر تحول إلى الطريق الوحيد الممكن بعد أن أصبح التفوق المسيحى ساحقًا، وكل إقليم أو مدينة كبيرة يحتلها المسيحيون كانت تعنى خروجًا جديدًا أو هجرة جديدة يزداد معها فقر إقليم الأندلس، ويُعنى بها شمال إفريقيا حيث تُقدِّم له حرفيين وتجارًا وعلماء ورجال سياسة ودولة.

الجانب الأكبر من تلك الهجرات اتجه إلى المدن وكون الطبقة البورجوازية بها، وقد أعطى سقوط مملكة غرناطة والخروج المستمر للموريسكين خلال القرن السادس عشر ازدهاراً لها، وإلى جانب هؤلاء كان يوجد عدد كبير من الأسرى والمرتدين(*) وكانوا من كل الجنسيات الأوروبية. فوجود العديد من هذه العناصر الإنسانية إلى جانب القساوسة والتجار وأصحاب المغامرات، يفسر لنا ظاهرة انتشار معرفة اللغة الإسبانية في بلاط السلطان ، التي تعدت كبار رجال الدولة إلى عدد لا يستهان به من ذوى المكانة[١٤].

وعلى الرغم من المجهود الكبير لتلك الشعوب النشيطة والمتقدمة من الناحية التقنية فالوضع العام للمغرب كله في بداية القرن السابع عشر كان يرثى له، ودولة المغرب فقط هي التي كان يمكن اعتبارها دولة مستقلة على الرغم من أن أجهزة حكومتها كانت بدائية؛ أما تونس والجزائر فقد كانتا تنتميان للإمبراطورية العثمانية وكان يحكم كل منها الوالى العثمانى الذى يدعى "باى"، لكن كلاً من تركيا وإسبانيا لم تعودا تهتمان بنفوذهما في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد موقعة الليبانتو، حيث شغلت الأولى بمشاكلها في بلاد فارس، أما الثانية فبمشاكل المحيط الأطلنطى الشمالى[١٥]. وعندما فقد الأتراك سيطرتهم على البحر فقدوا أيضاً نفوذهم على سكان شمال إفريقيا وحتى على جنود حاميتهم " الانكشارية " الذين بدأوا يميلون إلى الاستقلال.

انتشرت العادة التي كانت متبعة في حامية الجزائر بصدد اختيارهم للباى، الذى كان يعين من طرف قادة القاعدة العسكرية ولم يكن للسلطان إلا توثيق ذلك التعيين، وكان الوضع في تونس مشابهاً للجزائر مع فرق بسيط وهو أن الباى التركى أصبح شخصية صورية وحل محله بصورة فعلية الداى من الانكشارية.

لقد اقتصر مجهود الانكشارية – وهم عبارة عن قوة احتلال بسيطة – على القيام بحملات نهب دورية في الداخل بحجة جمع الضرائب؛ فكل قرية وكل قبيلة أصبحت

(*) يتحدث هنا عن الموريسكيين الذين عادوا إلى الإسلام بشكل رسمي، والمؤلف هنا يتبنى وجهة النظر الرسمية التي كانت تعتبرهم مسيحيين، كما يشير أيضاً إلى من دخلوا في الإسلام من جنسيات أخرى. (المراجع)

مستقلة بالفعل، وفى الموانىء الكبرى كان يعيش السكان الأصليون والأتراك مع جمهور كبير غير متجانس مكون من مجموعات صغيرة من البورجوازيين والأسرى والمرتدين(*) من كل الجنسيات، وهؤلاء المرتدون هم الذين بدأو نشاط القرصنة؛ وهى تجارة عادت عليهم بمكاسب كثيرة وكان اشتراك البربر فيها محدوداً(١٦). وقد اتجهت جهود ملوك إسبانيا فى مقاومة ذلك النشاط الذى سبب كثيراً من الأضرار لهم، إلى احتلال موانئ شمال إفريقيا: طنجة وسبتة ومليلة ووهران، التى تحولت إلى حصون حماية مرتفعة التكاليف ومحدودة الأثر، وقد أقيمت علاقات مع السكان الأصليين عن طريق تلك الحصون، منها علاقات سلمية وأخرى حربية، بل إن بعض السكان الأصليين كان يكسب قوت يومه عن طريق تلك الحصون، ومن الأشياء الغريبة أن عدداً لا بأس به من جنود الحصون الإسبان كانوا يهربون ويدخلون فى الإسلام. وعندما فشلت الحملات المتجهة إلى كل من مدينتى الجزائر وتونس كان من الضرورى اللجوء إلى وسيلة أخرى لمقاومة القرصنة؛ حيث تمت صناعة بعض السفن على حساب الكنيسة، لكن هذه السفن لم تنجح فى حراسة ذلك الشاطئ الطويل بسبب قلة عددها وبطئها الشديد، هذا إلى جانب أن ما كانت تحققه من غنيمة لم يكن يتناسب مع تكاليفها العالية.

وأمام هذا العجز البدهى اتجهت السلطات إلى الحل الثالث وهو الذى تغلب على الحلول الأخرى ، حيث يقضى بتغطية ساحل البحر المتوسط بأبراج دفاعية تساعدها بعض القوات المتحركة، وقد ضمن هذا الإجراء حماية مزعزعة.

لقد أعطى الخروج الغرناطى دفعة قوية لحركة القرصنة، حيث كان ذلك النشاط بالنسبة لهم وسيلة لكسب الحياة وفى الوقت نفسه لإعلان كراهيتهم للمسيحيين. وقد صادف الاعتداء الإسلامى من جانب شمال إفريقيا توسع الأتراك فى البحر المتوسط، مما جعل المشكلة تتفاقم خلال القرن السادس عشر وتأخذ شكلاً خطيراً، ولقد تولاها

(*) يقصد الذين دخلوا فى الإسلام . (المراجع)

المرتدون الأوروبيون الذين دخلوا فى الإسلام وفيهم عدد كبير من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين مستخدمين فى ذلك التقنيات الجديدة فى الإبحار وتصنيع السفن، أما الطابع الدينى فلم يكن ذا بال بينهم، فقد كانوا عبارة عن جمهورية حرة مكونة من المغامرين مثل أتباع فيليب تيروس الذين أقاموا معسكرهم فى أرض غير مملوكة لأحد وهى مجموعة جزر الأنتيل Antillaso . كذلك لم تكن سواحل شمال إفريقيا تبعد كثيراً من حيث كونها أرضًا لا مالك لها والذين كانوا يمثلون السلطة الشكلية أو المظهرية للسلطان كانوا يتركون القراصنة يفعلون ما يشاءون؛ وذلك مقابل جزء من المغانم، غالبًا فى صورة أسرى، حيث تتوفر لهم أيد عاملة، ويتقاضون فيما بعد مبالغ كبيرة لفدائهم. ولم يكن الموريسكيون يجهلون ظروف الحياة فى إفريقيا، ولهذا فإن عدداً ليس بقليل من الأغنياء كان يفضل البقاء فى دولة مسيحية تقبلهم.أما العامة فربما كانوا يرون فى إفريقيا أرضًا مثالية حيث يسمح لهم فيها بممارسة شعائر الإسلام بحرية؛ لقد كشف لهم الواقع عن حقيقة مرة فخيب آمالهم بقسوة، مع فرق نسبى فى حظوظهم. وكما سنرى فإن الاستقبال الذى لاقوه كان يختلف من مكان إلى آخر: حيث كان استقبالاً أخويًا فى مكان، واستقبالاً غير إنسانى فى مكان آخر.

كان المغرب معزولاً تقريبًا عن العالم الخارجى، ولم تحدث فيه التغيرات الكبيرة والتقدم الذى كان يحدث فى أوروبا. ومنذ زمن بعيد كان الأندلسيون قد كونوا طبقة بورجوازية مدنية وكان السلاطين يختارون من بينهم مساعدين ذوى قيمة، وفى القرن السادس عشر قدمت موجات كبيرة من المهاجرين والمرتدين. ومع هؤلاء انتقلت إلى المغرب لمحات من التقنية الغربية، كانت كافية لأن يبتعد المغرب عن الدول السوداء النامية فى السودان المسافة نفسها التى كانت تفصل المغرب عن أوروبا من حيث التقدم. وفى عام ١٥٩١م قامت قوات من المرتزقة وفيها عدد كبير من المرتدين الإسبان بغزوة خلال الصحراء حتى تومبوكتو[١٧].

كان أغلب الموريسكيين الذين وصلوا المغرب عام ١٦١٠ من أندلوثيا وقشتالة وإكستريمادورا وقد وصلوا فى وقت كانت الإمبراطورية القديمة تعانى فيه من مشكلة

خطيرة؛ حيث مات أحمد الرابع(*) وفاتح السودان عام ١٦٠٢م، وواجهت المشاكل العائلية أبناءه، وبعد أحداث لا داعي لقصها هنا هُزم مولاى الشيخ على يد أخيه مولاى زيدان، ثم لجأ المهزوم إلى العرائش وبعد ذلك إلى إسبانيا حيث حصل منها على دعم من أجل محاربة أخيه مقابل ذلك سلم لاراتشى عام ١٦١٠م، ثم مات بعد ذلك وأصبح مولاى زيدان - عدو إسبانيا - الملك الوحيد، وفى عام ١٦١٤م تم الاستيلاء على ميناء المعمورة على المحيط الأطلنطى، ومع هذا لم يقل نشاط القراصنة بشكل محسوس.

العدد الإجمالى للموريسكيين الذين ذهبوا للمغرب يصل إلى ٤٠ ألفًا، بقى أغلبهم على مشارف سبتة وتطوان وغيرها من الموانئ القريبة من مضيق جبل طارق، وذلك " ليتنفسوا هواء إسبانيا"، ولم يُستقبلوا بترحاب، فقد وصلوا بثيابهم الإسبانية ولغتهم القشتالية، وقد مزجوا أسماءهم وألقابهم المسيحية مع الإسلامية؛ أما اعتناقهم الإسلام(**) فلم يحقق لهم ثقة السكان الأصليين، حيث كانوا يدعونهم" مسيحيى قشتالة " وإذا كان هذا ناشئًا عن الحقد، فإنه من الصحيح أيضًا أن بعض الموريسكيين أعلنوا أنهم مسيحيون واستشهدوا فى سبيل ذلك[18](***).

جنَّد مولاى زيدان عدة آلاف من الموريسكيين[19] فى حربه ضد أخيه مولاى الشيخ، وعندما هزم هرب الموريسكيون إلى الجبال وهم يحملون متاعهم ونساءهم وأبناءهم" وهم يلعنون شمال إفريقيا وملوكها، وأخذوا يصيحون وقد مزجوا بصياحهم حسرتهم ومجدوا اسم المسيح"[20]. وبموت مولاى الشيخ تخلص زيدان من ذلك الفخ، حيث وجه بعض القوات إلى العرائش ومع ذلك بقيت فى أيدى الإسبان، أما الذين لم

(*) هو السلطان أحمد المنصور الذهبى. (المراجع)

(**) لم يعتنق الموريسكيون الإسلام بعد وصولهم إلى المغرب ، بل كانوا مسلمين يُخفون إسلامهم خوفًا من محاكم التفتيش. الذى حدث عند وصولهم إلى المغرب هو ممارسة الإسلام علنًا بعد أن كانوا يمارسونه سرًا . (المراجع)

(***) نكرر هنا ما سبق أن أشرنا إليه: نحن لا نطمئن كثيرًا إلى كتابات المؤرخين الإسبان فى القرن السادس عشر ونظن أن معظمها كتابات دعائية . (المراجع)

يشتركوا في الحرب فقد اختلطوا بالسكان المدنيين في طنجة وتطوان والعيون وفاس وغيرها من المدن التي وجدوا فيها كثيراً من الذكريات التي تذكرهم بإسبانيا، وقد استقر عدد كبير من هؤلاء في مصب نهر بوريقيريق حيث توجد مدينتان قديمتان خربتان: مدينة سلا على اليمين ، والرباط على الشمال. أما الرباط فقد عاشت فترة من الازدهار في عهد الموحدين، حيث أنشئوا مئذنة شبيهة بالخيرالدا الإشبيلية وأسموها منارة حسًان، ومع هذا فقد كانت المدينة في حالة سيئة، حيث كان فيها بضع مئات من المساكن المتواضعة، ويحيط بها سور مخرب وقصبة ، وهي عبارة عن حصن للدفاع عن المدينة أيضًا في حالة سيئة. وبجانب هذا التجمع العسكري في الرباط كان يوجد في سلا جوٌ دينيٌ، تحت تأثير العياشي، وهو شيخ كان يجله المرابطون.

هذه المدينة المزدوجة [رباط – سلا] ازدهرت واشتهرت مع قدوم الموريسكيين، الذين أقاموا فيها ما يمكن أن نسميه جمهورية مستقلة من القراصنة وذلك لفترة طويلة، ونحن نعرف الكثير عن الأحداث التي مروا بها، وذلك بفضل بعض الدراسات التي أوضحت كل جوانب ذلك الفصل، الذي يعتبر أعجب فصل في كل المهجر الموريسكي[٢١]. وكان أول من وصل إلى هناك الهورناتشيون، ونعرف أيضًا أن سكان هورناتشيوس كانوا يمثلون فريقًا متماسكًا من الناحية الاجتماعية ، هذا إلى جانب ثباتهم على الإسلام وشجاعتهم، وقد أبحروا من إشبيلية، ثم نزلوا في سبتة حتى استقروا في تطوان، ورغب السلطان في الاستفادة من كفاءتهم الحربية فجعلهم يستقرون في الحدود الجنوبية للمغرب في الدرعة، لكن الوضع لم يعجبهم فتركوا المكان واستقروا في سلا – الرباط، وهؤلاء يصل عددهم إلى ثلاثة آلاف. أما الأندلوثيون (وبعض القادمين من إكستريمادورا وغيرها) فقد كانوا أكثر عدداً حيث يصلون إلى عشرة آلاف ، ويبدو أن العلاقة بين المجموعتين لم تكن طيبة، لكن الجميع كانوا يتفقون في شيء واحد هو شعورهم بالتفوق على السكان الأصليين.

بعد تسليم العرائش للإسبان استولوا على المعمورة، وهي ميناء يقع على بعد عدة كيلومترات شمال العرائش، وبعد هذا أصبحت سلا – الرباط هي الميناء المغربي

الوحيد تقريبًا على المحيط الأطلنطى. حينئذٍ فكر السلطان فى تحويله إلى قاعدة للقرصنة، وقد أدى ذهاب القراصنة إليها من كل حدب ، وكانوا يعيشون سابقًا فى المعمورة، إلى دفع المشروع، وكان بين أولئك بحارة خبراء وهولنديون نوو خبرة طويلة فى إنشاء السفن، ولكن الذين تزعموا المشروع . كانوا هم الهورناتشيرون وذلك بفضل ترابطهم الاجتماعى وهمتهم التى لا تُقهر، وبذلك سادوا على الرغم من قلة عددهم، وكانوا فى المرحلة الأولى من نشاطهم قد اعترفوا بالقائد الذى عينه السلطان وكان له ١٠٪ من الغنائم، وظل هذا الأمر قائمًا حتى عام ١٦٢٩م حينما قتلوا القائد وأعلنوا استقلالهم.

جاء الموريسكيون والمرتدون من كل حدب، وقد جذبتهم رائحة الثروة التى تعبق فى جو سلا؛ أما الإنشاءات الخاصة بالسفن فقد أخذت دفعة جديدة، حيث تم إنشاء مراكب سريعة مستخدمين فى ذلك الخشب الموجود فى الولاية وأجهزة الإبحار القادمة من هولندا، ونشروا الفزع حتى إلى مشارف أيسلندا . وفى أوج عهد أسطول سلا الذى كان يتكون من أربعين مركبًا كانوا يحملون فى عودتهم إلى جانب الأسرى كميات كبيرة من البضائع، ونشأت حركة تجارية ضخمة مع الخارج بالإضافة إلى الرسوم الجمركية العالية، ولعل حجم تلك التجارة هو الذى يفسر لنا المنافسة الشديدة من أجل الاستيلاء على جمهورية القراصنة. وكان يحمى المدينة ضد الهجمات الخارجية المدخل الصعب لمنيائها، والذى لا يستطيع الإبحار فيه إلا الخبراء وذلك لقلة ماء النهر هناك إلى جانب الحصون الدفاعية التى تم إنشاؤها بسرعة.

ثم تدهور وضع سلا بسبب الخلافات الداخلية. فالأندلوثيون لم يعجبهم سيطرة الهورناشيين وقد وصل الأمر إلى الحرب المفتوحة، وانتهى باتفاق قضى بتوزيع المناصب الـ ١٦ فى الديوان – وهو اللجنة التنفيذية أى الحاكمة – بينهم بالتساوى، وكذلك تقسيم الغنائم ورسوم الجمارك بينهم بالتساوى؛ لكن ذلك الاتفاق كان مزعزعًا؛ ففى عام ١٦٣٦م ظهرت من جديد الصراعات الداخلية؛ وزاد فى تعقيدها المرابط العياشى، الذى أعلن أنه ممثل للسلطان لكن هدفه الوحيد كان"المشاركة فى الغنائم"،

وقد حصل فى عام ١٦٣٧م على مساعدة الأسطول الإنجليزى الذى قصف القصبة، وكانت عملية القرصنة لا تزال فى أوجها، لكن استقلال الهورناتشيين أصبح فى خطر بسبب كثرة الأعداء، كما بدا نفوذ المرابطين وهم يمثلون السكان الأصليين يزيد من يوم إلى آخر، إلى عام ١٦٦٨م حيث فقدت الجمهورية استقلالها، وانضمت مرة أخرى إلى المملكة المغربية.

هذه الأوضاع الصعبة تفسر لنا المحاولات العديدة من جانب الموريسكيين فى سلا للوصول إلى اتفاق مع ملك إسبانيا، وأول هذه المحاولات تعود على ما يبدو إلى عام ١٦٣١م[٢٢] وهى عبارة عن مشروع معاهدة، وقد بعثه الهورناتشيون مع دوق ميدينا سيدونيا بصفته القائد العام للمحيط، وفى هذا التقرير يعلنون فيه كراهيتهم لسيدى محمد وللعرب الذين يعيرونهم بأنهم مسيحيون، وكذلك ملك المغرب " الذى لو استطاع أن يدمرهم لفعل ". ويقترحون- لحبهم الشديد لإسبانيا لأنهم منذ أن خرجوا وهم يشتاقون إليها" – تسليم المدينة إلى فيليبى الرابع بالشروط الآتية:

(١) أن يتركهم يعودون إلى هورناتشوس، على أن يتكلفوا هم بدفع تعويضات السكان المتضررين من عودتهم.

(٢) أن تكون السلطات المحلية منهم أنفسهم "حتى لا يسببوا لهم الأضرار التى كانت تحدث فى الزمن السابق.

(٣) أن لا يعيش بينهم مسيحيون أكثر من القساوسة والرهبان المكلفين بتعليمهم العقيدة المسيحية، وأن تعطيهم محاكم التفتيش مهلة لمدة عشرين سنة وذلك لأبنائهم الذين وُلدوا فى شمال إفريقيا ولا يعتنقون الديانة الكاثوليكية.

(٤) أن يتمتعوا بالامتيازات نفسها التى تمتعوا بها فى السابق، ولا يكون بينهم وبين غيرهم أى فرق من ناحية الضرائب، وأن تحترم ممتلكاتهم، وأن يعطوا ضمانات على ذلك لهم وللأندلوثيين الذين يرغبون فى العودة" حيث يوجد الكثيرون فى تطوان والجزائر العاصمة الذين لو علموا بإمكانية العودة فسيعودون فوراً". وبرهاناً على

نصرانيتهم سيبعثون بمعلومات مؤكدة مع أسرى مسيحيين حول الكثيرين الذين قُتلوا شهداء لإيمانهم بالمسيح(*).

(٥) ويعرضون أن يصلوا إلى إشبيلية فى سفنهم الخاصة ، ثم يتخلون عنها لتصبح ملكًا لصاحب الجلالة.

(٦) وأن يعاد لهم أبناؤهم الذين أُخذوا منهم عند الطرد.

(٧) يعرضون تسليم حصن سلا وفيه ٦٨ مدفعًا، والذى يكفى لاستلامه إرسال فرقة من مائة رجل.

(٨) وكذلك سيسلمون مراسلاتهم مع ملك إنجلترا، حيث ذهب كل من لوبيث ثابار، وهو كاتب من هورناتشوس، ومحمد دى كلابيخو، وهو موريسكى من أوبيدا، سفراء من طرفهم.

وناقش البرلمان الإنجليزى معهم موضوعات مهمة ، كذلك الأوراق الخاصة باتصالاتهم مع الألمان والسويسريين فى أمستردام... وقبل سفرهم سينزعون أملاك اليهود، نوى الثروة الكبيرة، حيث سينتظرون حتى تأتى القوافل ويهود فنلندا فى سفن عالية القيمة وسيسلمون كل هذا إلى صاحب الجلالة، وكذلك بضائع التجار الهولنديين والفرنسيين والتى تكون فى العادة ذات قيمة كبيرة" مقابل هذه الغنائم وتلك البواخر يسلمهم الملك ٢٠٠ جنيه ذهبى. وقد وقع الوثيقة أربعة من هورناتشوس على الطريقة الموريسكية حيث مزجوا أسماء مسيحية بأسماء عربية: محمد بن عبد القادر، حاكم القصبة، القائد بشر إبراهيم دى بارغاس، والكاتب محمد بلانكو ، والكاتب موسى سانتياغو.

(*) لم يكن المسيحى الإسبانى فى حاجة إلى ترك إسبانيا، ومن ناحية أخرى فالبلاد الإسلامية كان بها مسيحيون ويهود ولم يحدث أن قُتل أحد بسبب عقيدته . (المراجع)

فيم يجب أن نفكر حول هذه الوثيقة التى كانت صحتها بعيدة عن كل شك؟ هل صحيح حقا أن الموريسكيين كانوا مشتاقين لإسبانيا ويرغبون فى أن يعيشوا فيها مسيحيين، أم أنهم حاولوا استغلال الفرصة أمام الوضع الصعب الذى أحدثه لهم أعداؤهم؟ لا شك أنه يوجد شيء من كل هذا، فجزء من الموريسكيين كان يرغب فى العودة بأى ثمن حتى بالتظاهر بإيمان لا يحسه أكثرهم، ويوجد فى "الوثائق غير المنشورة فى تاريخ المغرب" خطاب غريب، أرسله السيد خورخى ماسكارينهيس إلى الملك فيليبى الثالث فى ٤ فبراير عام ١٦١٩م، وفيه يحكى قصة لقائه مع فريق من بحارة لأحد بواخر سلا؛ وأكثرهم من سان لوكار وقادش وهورناتشوس. "تعرفت على واحد منهم وكان قد عمل جنديا فى صفوف قوات لويس فاخاردو، وقد أخبرنى عن مدخل الميناء وعدد الرجال الموجودين فى القصبة والذين يصل عددهم إلى ٤٠٠ رجل، بل هم أقل بكثير؛ وعندما سألته هل تذكر إسبانيا؟ رد علىٌّ باكيًا: إنه كان مسيحيا وكان على ثقة بأنه سيموت فى إسبانيا"(٢٣).

لا نعرف بالضبط كيف استقبل المسئولون مشروع المعاهدة المذكورة، لكن كولين يقول: توجد دلالات على أنه تم عرضه على البابا؛ ومن البديهى أن تكون احتمالات قبوله ضعيفة نظرًا إلى الشروط التى يحتوى عليها، لكن المفاوضات استمرت؛ ففى نهاية عام ١٦٣٦م كتب دوق سيدونيا أخبارًا جديدة عن سلا وفيها أن "الذين كانوا مستعدين للتعاون مع صاحب الجلالة" قد تم نقلهم من القصبة وحلَّ محلهم آخرون "وليس لى بهم علاقة خاصة ولا أعرف نياتهم "وقد كلفت بعض الرهبان الذين كانوا فى طريقهم إلى تطوان لافتداء بعض الأسرى أن يصلوا إلى سلا ويحاولوا استئناف المعاهدات السرية(٢٤). "لكن هذه المفاوضات لم تثمر شيئا محددًا ولهذا فإن الهورناتشيين منذ عام ١٦٤٠م وجهوا عروضهم إلى ملك إنجلترا".

ومنذ هذا التاريخ بدأت جمهورية سلا تفقد استقلالها شيئًا فشيئًا وذلك بسبب الخلافات الداخلية، وقد وقعت لعدة سنوات تحت سيطرة الدلائيين(*)، وهم البربر الذين

(*) الزاوية الدلائية أنشأها الشيخ أبو بكر محمد الدلائى فى أواخر القرن العاشر الهجرى، وقد بلغت هذه الزاوية الغاية من التقدم فى العلوم فخرّجت نوابغ العلماء والفقهاء، ومن المعلوم أن الهدف من إنشاء الزوايا كان الدفاع عن ثغور الإسلام، ثم امتد النشاط ليشمل تعليم الدين ونشر الإسلام، ويقال عن مولاى رشيد بن على الشريف – مؤسس دولة الأشراف العلويين – إنه فتح فاس عام ١٧٠٦ ثم قضى على الدلائيين تباعًا. (المراجع)

يقيمون فى وادى مولوية، وعندما تحررت من قبضتهم سقطت فى يد مولاى رشيد. وبعد عام ١٦٦٨م أصبحت سلا مدينة عادية داخل الإمبراطورية المغربية، وإذا كانت عمليات القرصنة قد واصلت طريقها فإنها فقدت جزءًا كبيراً من قوتها الأصلية، أما الهورناشيون فكثير منهم تفرقوا فى مدن مغربية أخرى وكذلك فقدوا ببطء معرفتهم بأصلهم، وإن كانت توجد ألقاب تثبت وجود أحفادهم مثل كاراسكو، وبالومينو، وبلانكو ، وبيريث ورودريغيث وتوليدانو.

اتجه عدد كبير من الموريسكيين وبخاصة الفالنسيين إلى سواحل الجزائر؛ وقد كان هؤلاء الأسوأ حظا حيث لقوا أسوأ استقبال. كذلك وقع الذين أبحروا إلى مشارف وهران أو مليلة ضحية ذلك الاستقبال، حيث خرجت عليهم قبائل من البدو فاستولت على أموالهم وعاملتهم معاملة سيئة بلا رحمة، وقد حفظ لنا الأب فونيسكا روايات من الذين بقوا على قيد الحياة؛ وفيها مبالغة واضحة وذلك فيما يتعلق بتأكيده أن الذين نجوا من ذلك يمثلون الربع، وهذا لا ينفى أن الخسائر كانت كبيرة والمعاناة كانت قاسية، والحكاية لموريسكى مشهور من بنى غوائيل ويدعى "لورينثو بيدرالبى"، تثير الشفقة. يبدأ حكايته مشيراً إلى الفرق بين الذين أبحروا فى سفن ملكية حيث عُوملوا معاملة طيبة، وأولئك الذين أبحروا فى سفن خاصة، وهو نفسه أبحر فى مركب صاحبه من بيناروث، حيث اتجهوا إلى بالوس حيث وصل عددهم إلى ٣٠ راكبًا ، هناك واجهتهم عاصفة وتغير الجو بعد بدء الرحلة وكانوا على وشك الغرق إلا أنه تم إنقاذهم، وبعد أن تم استئناف الرحلة نزلوا فى شرق وهران حيث خرج عليهم نحو ٣٠٠ فارس من البدو، وقد دافعوا عن أنفسهم ضدهم رميًا بالحجارة، واستطاعوا أن يردوهم على الرغم من عدم حملهم لأى سلاح، عندئذ فهموا أن هذا ليس إلا بداية لمصائب أكثر، فلجئوا إلى الجبل، وكانوا فى حيرة من أمرهم لا يدرون إلى أى اتجاه ينطلقون، وكثيرٌ منهم حفروا حفرًا وأخفوا أموالهم فيها حيث خافوا من شىء قد حدث بعد ذلك بالفعل، فقد وصل نحو ٦ آلاف من البدو، ولم يحاول المهاجرون الدفاع عن أنفسهم فاستولى البدو على كل شىء حتى على ثيابهم التى باعها البدو فى وهران بأبخس الأسعار. إلى

جانب ما عانوا من البرد والجوع حتى وصلوا إلى موستاغانم، حيث اجتمعوا مع من سبقوهم فى الطريق وبدأ الجميع طريقهم إلى الجزائر، حيث كانت معاناتهم كبيرة، فالأطعمة محدودة، وفرضت عليهم بأسعار مرتفعة وكانوا قد فقدوا كل أموالهم. وحتى وصل بهم الحال إلى أن تغذوا بالحشائش لعدة أيام، وعندما كانوا يجدون مكاناً فيه حشائش غزيرة كانوا يحسون بالسعادة". وأخذ طابور التعساء يتناقص بسرعة لموت الكثيرين ، ولتفضيل الآخرين البقاء فى أى مكان، وأسعدهم حظا وصل إلى مشارف الجزائر، وقد أكد لورينثو أنه هو الوحيد الذى استطاع دخول المدينة(٢٥)(*).

الحكاية السابقة يمكن أن تكون صحيحة فى جوهرها لكن يجب أن لا تؤخذ كصورة تقليدية وشائعة لما حدث؛ فهناك مجموعات أخرى لم تلاق تلك المصاعب؛ منهم من ذهب مباشرة وبدون مشاكل إلى ميناء الجزائر وسكان إلدا **Elda** ونوبيلدا **Novelda** وصلوا ومعهم كل ممتلكاتهم حيث صاحبهم سيدهم الذى كانوا يعملون عنده ولم يتركهم إلا بعد أن دخلوا موستاغانم وتلمسان فى حماية السلطات التركية وبعيداً عن البدو، وحتى هؤلاء فإنهم لا يتصرفون دائماً بصورة وحشية؛ فالأب فونسيكا نفسه حكى لنا عن أن أحد المرابطين من بجاية قد عنف الذين استولوا على أموال المهاجرين وأمرهم بردها.

وحول هذا الموضوع لدينا شهادة شبه رسمية حول الفزع الذى ساد بين المجموعات الموريسكية الأولى ، والذى كان إلى حد كبير له ما يبرره، وينقل لنا تلك الشهادة كابريرا دى كوردوبا وتاريخه يعود إلى ٢٠ ديسمبر عام ١٥٠٩ يكتب كونت أغيلار، قائد وهران(**) أن عدداً كبيراً من الموريسكيين قد وصل إلى تلك المنطقة وهم يمتنعون عن التوغل فى الداخل خوفاً من البدو، حيث سيسرقون منهم أموالهم

(*) كتابات المؤرخين الإسبان فى تلك الفترة ليست محل ثقة، فهى فى مجملها دعائية. (المراجع)

(**) تعرضت وهران لحملات إسبانية متعددة ، وكانت تحت الاحتلال الإسبانى فترة من الزمن . (المراجع)

ونساءهم، وسيموتون من الجوع، ولقد ذهب عشرون من كبار رجال فالنسيا وأكدوا أمامه أنهم مسيحيون، وأنهم لم يعرفوا الحقيقة التى كان يجب أن يعرفوها إلا عندما رأوا الأعمال الفاحشة التى يرتكبها مسلمو تلك الأرض، ولهذا فهم يريدون أن يموتوا مسيحيين، وإنهم لن يتحركوا من هنا حتى لو أمر بقتلهم. ثم اعتصموا فى انتظار الأوامر التى ترسل "بشأنهم" وهنا يكرر (وربما على أساس حقيقى) الصورة التقليدية لخيبة الأمل التى استبدت بالموريسكيين عندما رأوا أخلاق أبناء دينهم؛ وهى خيبة أمل وصلت فى حالة بعضهم إلى مشكلة حول معتقداتهم السابقة.

وعلى الرغم من أن أغلبية الذين ذهبوا إلى الجزائر كانوا من فالنسيا فإن مجموعات أخرى وصلت من أقاليم متفرقة ، وإن كانت قد احتاطت فذهبت مباشرة إليها، وهذا ما نفهمه من الخطاب الغريب للسيد مولينا وقد نقله جانبر، حيث يقول: "كل الذين من تروخيو جاءوا إلى مدينة الجزائر؛ وأغلب من فيها من إكستريمادورا ومانشا وأراغون" ، وقد انتهى الأمر بالأغلبية إلى البقاء فى تلك المدينة حيث كانت تذكرهم بفالنسيا لجمال ضواحيها وكثرة بساتينها، وقد التقوا هناك بالمهاجرين الذين كانوا قد وصلوا خلال القرن السابق، وهذا ما قدمه لنا دييغو دى هايدو فى كتابه "طبوغرافية وتاريخ الجزائر " وهو أحد الكتب الغريبة فى أدب التاريخ وفيه الكثير من الأخبار العجيبة حول الوضع قبل وصول المطرودين[٢٦]. فعدد الموريسكيين يصل إلى ألف أسرة مقسومة إلى سلالتين: المدجنين، وهم القادمون من ولايات قشتالية، والحدوديين وهم من أراغون، ويختلفون عن السكان الأصليين والأتراك بلونهم الأبيض، ويمارسون حرفًا مثل: الحداد والخياط والبناء والحذاء وصانع الحرير... كذلك كان يوجد تجار صغار، فى حين أن مجموعة أخرى قد أخذت تمارس تصنيع الأسلحة للقراصنة: من بنادق وبارود... لكن نشاط القراصنة كان أغلب من يعمل فيه من المرتدين، ولكن بوصول الموريسكيين أخذ دَفعة جديدة ".

إن هايدى فى وصفه للجزائر شوهها بعض الشيء ؛ ودافعه لهذا ليس تحريك مشاعر القراء حول الأسرى المسيحيين، وليس لأسباب دينية، ولكن لاشمئزاز أبناء

العالم الغربى من عادات وممارسات غريبة جدا(*). والشيء العجيب أن الموريسكيين أنفسهم سيسجلون الإحساس نفسه. إن الاعتراف الذى أدلى به رجل يدعى دياث - وهو مدجن من دايميل، أثناء محاكمته على يد محكمة التفتيش لعودته غير القانونية - هو اعتراف ذو مغزى. وتبعًا لغارثيا أرينال فقد كان فلاحًا وله من العمر ١٧ عامًا، عندما طُرد أقام فى بايونا وسان خوان دى لالوث لفترة قصيرة ثم عاد إلى إسبانيا، حيث قبض عليه ورحل مع كثيرين من كارتاخينا حيث ذهب إلى الجزائر. وروى ما حدث له فقال: لقد وصل الأتراك وأخذونا إلى المدينة وأدخلونا فى المخازن، وهى منازل ملكية كبيرة حيث توجد فيها الأسلحة وطلقات المدفعية، وهناك أخذوا ينظرون إلى كل الشباب ثم قاموا بختنهم" وبعد عملية الختان قدموا لهم طعامًا طيبًا ثم أخذوا ثوبه الإسبانى وحوّلوه إلى عربى. عمل دياث مع موريسكيين وأسرى من المسيحيين الآخرين فى تصنيع السفن وإنشاء رصيف للميناء، ويؤكد أنه ظل مسيحيا فى السر، وإن الأشياء التى كان يراها فى الجزائر كانت تسبب له غرابة شديدة وحزن، وهى التى أقنعته بدينه [أى المسيحى] ، فكل العادات عكس ما كانت فى إسبانيا ، فالرجال يتبولون وقد رفعوا القميص وأنزلوا السروال؛ أما النساء فيغطين وجوههن؛ ويأكلون على الأرض. وأكثر ما ضايقه (كما ذكر هايدو) هو انتشار اللواط "يشترون الغلمان العبيد ليضاجعوهم" وفى الجزائر يوجد حوالى ٦ آلاف غرناطى كلهم مسيحيون؛ فى حين أن الموريسكيين من أراغون وفالنسيا لم يكونوا أبدًا مسيحيين، وعندما يكون لأحد الغرناطيين ابن فإنه لا يتركه من يده لخوفه من أن يأخذه المسلمون ويفعلون فيه أمرًا سيئًا" نترك جانبًا ما يمكن أن تحتوى عليه تلك التصريحات من أمور تُذكر لنيل رضاء محاكم التفتيش ويبقى شيء واحد وهو أن الذين كانوا فى طريقهم للاحتواء أو والآخرون الذين كانوا قد حافظوا على إيمانهم القديم وجدوا فى المجتمع الجديد أنماط حياة غير لطيفة.

(*) أيًا كان السبب فالتشويه فى حد ذاته يخالف الموضوعية التى يجب أن يتحلى بها من يؤرخ للأحداث. (المراجع)

المجموعة الأكثر تماسكًا والأسعد حظا هى تلك التى وصلت إلى تونس. هذا إلى جانب أنها معروفة ، وذلك بفضل مجموعة من الأعمال التى جمعت فى كتاب واحد بعنوان " دراسات حول الموريسكيين الأندلسيين فى تونس" ؛ والذى نحيل اهتمام الراغب فى من يرغب فى الموضوع إليه ، وسنلخص ما به فى بضع صفحات.

وكما حدث فى باقى بلدان شمال إفريقيا فإن الذين وصلوا حديثًا قد التقوا مع الذين سبقوهم ، ففى تونس كان يقيم الكثير من الأندلسيين منذ القرن الثالث عشر، فكثير من الإشبيليين كانوا قد وصلوا إلى هناك عند غزو مدينتهم فى عام ١٢٤٨م. كما وصل الكثيرون من شرق إسبانيا أيضًا، وقد كتب عنهم ابن خلدون فى القرن الرابع عشر قائلاً: يوجد بينهم عائلات مشهورة تنتسب لأمراء وعلماء وشعراء ومحاربين، ثم زاد تيار الهجرة من جديد منذ عام ١٤٩٢م نحو تونس العاصمة وصفاقس وجبيس وسوسة ؛ وفى ١٦٠٨م أى قبل الطرد بعام وصل رجل يدعى فيرنانندو دى ليون وبصحبته ١٠٨ غرناطيين(*).

لكن تيار اللاجئين الكبير المفاجئ عام ١٦٠٩م لم يحدث له مثيل من قبل؛ وقد ذكر أنه يصل إلى ٨٠ ألفًا، وهو عدد كبير بالنسبة لبلد صغير وذى عدد قليل من السكان، ربما لا يزيدون عن ٥٠ ألفًا كما ظن لاثام Latham[٢٧]، وعلى كل الأحوال فهو عدد ضخم، وكان يشتمل على فالنسيين وقشتاليين، إلا أن العدد الأكبر كان من أراغون؛ وقد استقبلوا بترحاب من جانب الداى التركى عثمان، الذى كان يعلم - بالإضافة إلى مشاعره نحو أبناء دينه - أنهم سيسهمون بطريقة كبيرة فى تقدم الدولة، وقد قُسموا إلى ثلاث مجموعات:

١- الصفوة (العلماء والأغنياء وغيره...) سُمح لهم بالإقامة فى أحياء معينة فى العاصمة حيث يوجد زُقاق الأندلس.

(*) نحيل من يريد معلومات إضافية حول هجرة الأندلسيين والموريسكيين إلى بلاد المغرب العربى إلى كتاب ميغل دى إيبالثا "الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى" ، ترجمة وتقديم جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥ (المراجع).

٢- زارعو البساتين وأصحاب الصناعات الصغيرة ، جُمعوا فى مراكز بالقرب من المدينة كانت موجودة وتم توسيعها مثل: الريحانة والجديدة.. حيث واصلوا نشاطهم التقليدى.

٣- الفلاحون؛ وهم الفريق الأكثر عدداً، حيث أقاموا فى المناطق الزراعية الخالية ؛ وفريق أقام بمقربة من البدو حيث أنشأوا مناطق سكانية جديدة ، فى مكان مرتفع ، صالحة للدفاع أو فى أطلال مدن رومانية قديمة: تستور، وحجا الباب، وسلوكين، وقلعة الأندلس. أما فى المناطق الهادئة مثل شبه جزيرة الكابوبون فقد امتزجوا مع السكان الأصليين مثل ما حدث فى سليمان وبيجى ... إلخ.

وعلى الرغم من عدم وجود دراسات فى هذا الموضوع وقد يكون من المفيد القيام به، فعلى ما يبدو كان الموريسكيون يميلون داخل تلك الخريطة العامة للتوزيع إلى الارتباط بالتجمعات الإقليمية القادمين منها؛ بمعنى أنه حتى فى المهجر ظل الفالنسى يحس أنه مختلف عن الغرناطى، والمدجن القشتالى، كما أن التخصص المهنى كان له دوره فى عملية التوزيع؛ وذلك تبعًا للعادة القديمة من جمع التجار والحرفيين فى شوارع وأحياء خاصة؛ وهذا ما حدث فى العاصمة وبنزرت، حيث كان لكل مجموعة حى أندلسى يتمتع باستقلال واضح فى كلتا المدينتين.

أخذ النشاط الحرفى دفعة جديدة مع وصول اللاجئين، وأغلبهم وصل ومعه حقيبة أدواته؛ مما أدى إلى ازدهار حرفى فى تونس العاصمة وبصورة أقل فى التجمعات السكانية المحيطة بها؛ لقد تم تحسين النواحى الفنية فى المراحل المختلفة لتصنيع الحرير، سواء جمعه أو صباغته.

أما الصناعة التى أخذت دفعة شديدة فهى الخاصة بالقلانس، والتى كما أثبت محمد العنابى[٢٨] كانت أغلب مصطلحاتها المستعملة من أصل إسبانى، وربما أدى ذلك الازدهار الذى حدث أيضًا فى شمال إفريقيا إلى تدهور صناعتها فى طليطلة، وكانت خلال القرن السادس عشر تصدر كميات كبيرة.

أما صناعة السيراميك فهي حرفة ذات تاريخ عريق في تونس، لكن الإسهام الموريسكي فيها ربما يكون في تجديد الموضوعات مع زيادة الألوان، وكذلك في الموضوعات الأندلسية الموجودة في ديكورات الأسقف والإفريزات والجدران؛ وقد تمثل التجديد المعماري الذي عرفته العاصمة بفضل الازدهار الاقتصادي في إنشاء منازل فخمة، فيها ساحة من المرمر في وسطها النافورات إلى جانب الحدائق ذات الطابع الأندلسي الواضح.

كذلك فإن التحسينات التي أدخلوها في مجال الزراعة كانت واضحة بصورة أكبر، فقد أشار كل المؤرخين والجغرافيين والرحالة الذين كتبوا عن تونس إلى المساهمة الحيوية التي أحدثها وصول الموريسكيين، وبينهم ألوف الفلاحين الخبراء الذين جددوا تقنيات الري وزرعوا أشجاراً مثمرة، وأعطوا دفعة شديدة لمحاصيل معينة مثل البساتين والحدائق، حتى وصل الازدهار في القرى ذات الأصل الأندلسي إلى القرن الثامن عشر، أما اليوم فوضعها مترد والأثر الإسباني الموريسكي في طريقه إلى أن يمحى، وإن كان قويا في بعض الأماكن مثل تستور، والتي تقع في وادي مجيردة، الذي توجد فيه الأرض الأكثر خصوبة في كل تونس، وعندما وصل إليه الموريسكيون كان خاصاً بالرعي وبزراعة الحبوب فأدخلوا زراعات معينة في السهل وأخرى في الأرض الجافة، وأبقوا المناطق المرتفعة للغابات؛ وبهذه الطريقة أنشأوا واحة حقيقية في وسط البدو، حيث كانت تعزلهم عنهم أسوار المدينة، وإن كانوا يتعاملون معهم في التجارة وفي السوق الأسبوعي.

إن إحساس الموريسكيين بشخصيتهم المتفردة وتفوقهم سمح لهم أن يحتفظوا بسلالتهم وفنهم خالصاً بدون شوائب إلى حد ما لفترة طويلة، وقد ظل ذلك التميز واضحًا حتى القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من زواله اليوم، فإن له آثاراً ، وكان شائعًا بينهم الزواج من السلالة نفسها، ورفض الزواج من غيرها. وقد كان ذلك الإحساس عامًا ، فكما يحكي لنا رحالة فرنسي أن النساء الموريسكيات كنَّ يفضلن حياة العزوبة على الزواج من أحد البدو؛ وعلى العكس كن يفضلن المرتدين الإسبان، وحتى اليوم يمكن التفريق" من الناحية الشكلية بين التونسي ذي الأصل الأندلسي

وغيره عن طريق الشكل العام واللون الفاتح لبشرته"[٢٩]، وقد تمت المحافظة على بعض الألقاب العائلية مثل كوندى، ولويس ومنينديث وموريسكو وبلاو ... إلخ. وإن كانت اللغة الإسبانية والفالنسية لم تستعمل فإنه بقى عدد لا نهائى من الأشياء المادية والعادات التى تذكر بذلك الأصل(*).

هناك أطعمة ذات أصل أندلسي، يوجد فى وصفاتها أطباق من اللحم وعليه كثير من البهارات (ومن المحتمل أن الزعفران أدخله الأندلسيون)؛ وكذلك وصفات الحلوى التى تصنع من الدقيق والعسل أو السكر، وكذلك فإن واجهات بيوتهم المصنوعة بقوالب الطوب تذكر بمنازل المدجنين فى آراغون ، أما نهايات المآذن فتشبه أبراج طليطلة وبورغوس. أما تستور، وهى مدينة أندلسية بحق، فتمتاز منازلها بنوافذ على الشارع؛ وهو شيء غير معتاد فى دول الإسلام. ومن بين المميزات العجيبة لمنازلهم أن أبواب تلك المنازل مزينة بمسامير على شكل صليب. ويبدو أن هذا الأمر مازال موضع تندر. ولقد وصفهم أحد الرحالة فى عام ١٧٢٠م بأنهم" الأكثر تمدنًا وأدبًا من كل السكان" وإن كانوا متكبرين وصارمين ويحبون المجد ، ويبدو أنه مازالت توجد بعض الطرائف والأملوحات الخاصة بذلك. ولقد اعترفت الحكومة هناك بشخصيتهم، حيث كان يوجد حتى منتصف القرن التاسع عشر شخصية شيخ الأندلس، الذى كانت له سلطة عليهم ويعمل وسيطًا مع الزعماء، وقد تولى هذا المنصب فى النصف الأول من القرن السابع عشر رجل يدعى مصطفى دى كارديناس، من أسرة من بايثا.

وعلى الرغم من حبهم الشديد للعزلة فإن بعض عاداتهم قد انتقلت إلى بقية السكان؛ حيث لا توجد طريقة أخرى لتفسير كثير من الأمور، فمثلاً كثير من مصطلحات لعبة "الكوتشينة" التونسية له أسماء إسبانية .

(*) حول الأسماء المغربية ذات الأصل الإسبانى انظر غونثاليس بوستو "الموريسكيون فى المغرب" ترجمة مروة إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥ (المراجع) .

كمـا أن لدينا دليـلاً آخر على تأثيرهـم على مسـتوى الدولة كلها ، حيث إن أمين السوق كان حتى منتصف القرن التاسع عشر هو الأمين الذى يحكم الحياة الاقتصادية والمهنية لكل التجـارة. ومن بين آلاف الوثائق القانونيـة والتـجارية لأرشيف قنصلية فرنسا، وتاريخ بدايتها هو عام ١٥٨٢م، وجد إيبالثا ٢٤٦ وثيقة بشأن الموريسكيين، حيث يذكرون فيها مهنهم ومستواهم الثقافى، حيث ثبت أن نسبة الذين يجيدون القراءة والكتابة بينهم أعلى من النسبة الموجودة بين بقية المسلمين[٣٠]، وبعضهم كان يوقع بحروف لاتينيـة على الرغم من مـرور سنوات طويلة على الطرد، وعـصـر الازدهار بالنسبة لهم استمر حتى عام ١٦٥٠م. أما النصف الثانى من ذلك القرن فهو عصر تدهور لأن الحكومات لم تكن فى صالحهم، والضرائب كانت مرتفعة. وفى القرن الثامن عشر بدأ تجمعهم يعانى من التشتت والاحتواء باستثناء بعض التجمعات ذات التماسك القوى مثل تستور، والتى قام أكبر خبير معمارى فى شمال إفريقيا "غ.مارك" بدراسة مسجدها الجامع وبيَّن أن أوجه التشابه بينه وبين الآثار العربية والمدجنة فى شبه جزيرتنا تلفت نظر الإنسان العادى.

إن بعض المميزات العامة للحياة الثقافية الروحية للموريسكيين المهاجرين قد تم دراستها ووضعها محل الاعتبار؛ فدراسة أوليفراسين الكلاسيكية بعنوان "موريسكى من تونس: معجب بلوبى"[٣١](*)، هىَ دراسة مشهورة. وعلى الرغم من أنهم كانوا مغمورين فى وسط ثقافى عربى إسلامى فقد واصلوا كتابة أعمال أدبية باللغة الألخميادية(**)؛ لأن أغلبهم كان يجيد الإسبانية بطلاقة، فى حين لم يكونوا

(*) الموريسكى المشار إليه يعرفه المتخصصون على أنه لاجئ تونس، إذ لا يعرفون له اسمًا، وقد كتب أكثر من مخطوطتين على حد علمنا فرَّق فيها بين الثقافة الإسلامية والثقافة الإسبانية التى لا تتعارض مع الإسلام، وكان معجبًا بالكاتب المسرحى لوبى دى بيغا وبعض شعراء إسبان آخرين . (المراجع)

(**) الكتابة الألخميادية هى لغة إسبانية بحروف عربية ، وهناك جدل دائر فى أوساط المتخصصين حول السبب الذى دفع الموريسكيين إلى استخدام هذه الطريقة . (المراجع)

قادرين على كتابة العربية بدقة وتمكن. لقد ذكر لنا أوليبر اسمين من أسماء بعض كتابهم مثل: عبد الكريم بن على بيريث والذى ألّف فى عام ١٦١٥م كتاباً يدافع فيه عن الإسلام وفيه فصل تشهيرى ضد محكمة التفتيش وأعضائها ، وهذا يعتبر أمراً عادياً؛ وكذلك الموريسكى الطليطلى خوان بيريث والذى غير اسمه بعد استقراره فى تستور إلى إبراهيم تابيلى الذى كتب شعراً دينيًا ذا طابع جدلى، حيث أظهر فيه معرفته للغة اللاتينية وكتَّابها الكلاسيكيين، على الرغم من تفضيله لمدرسة عصر النهضة الشعرية فى قشتالة، وفى فقرة عجيبة من كتابه المذكور يبدو منها معرفته برواية دون كيخوتى عن طريق طبعة مفقودة وهى سابقة على التى تعتبر اليوم أساسية(٣٢). وغيرهم مثل الشاعر الأراغونى الحاج محمد روبيو .. كذلك فقد احتفظ بعدد لا بأس به من الكتب المجهولة المؤلف، وأغلبها ذات محتوى دينى، وفى بعضها آثار للأدب الإسبانى حيث كانوا يتداولون أشعار الغزل وقصائد غارسيلاسو وغونغورا ولوبى ، وتبعاً لرأى أسين فإن تونس كانت تمثل العاصمة الفكرية لكل الموريسكيين فى شمال إفريقيا، حيث كان يقرأ فيها كتباً قادمة من الجزائر مثل قصائد إبراهيم دى بولفاد، ومن المغرب مثل "دفاع ضد الدين المسيحى " لمحمد الوزير، وهو موريسكى من باسترانا. وهذا التفوق الأدبى فى تونس يعكس بلا شك، الاستقبال الطيب الذى وجدوه والظروف الجيدة لاستقرارهم.

ومن الجدير بالذكر أن ليس كل جوانب الهجرة الموريسكية إلى شمال إفريقيا كانت إيجابية؛ فإلى جانب زيادة نشاط القرصنة، يجب أن نشير إلى أن تجارة العبيد (وهى شديدة العلاقة بالقراصنة) كانت إحدى المهن المفضلة لدى الموريسكيين، ويوجد لدينا بعض الشهادات التى تدل على أنهم فى بعض الأحيان عاملوا العبيد بقسوة أكثر من السكان الأصليين المسلمين، وربما يكون هذا سببه العداء المجتمع فى نفوس المطرودين، وعلى الأقل، الجيل الأول منهم. لكن حركة تلك المجموعات البشرية بمجملها قد أثرت فى دول فقيرة فى السكان وفى التقنيات، والتى تقوّت بالموريسكيين

وبمجموعات أخرى ذات أصل إسبانى مثل اليهود والمرتدين ، وكان اليهود كثيرين فى تونس، وأغلبهم كان قد جاء من مركز اليهود فى إسبانيا وهو مدينة ليورنا، الموجودة ضمن أملاك دوق توسكانا الأكبر.

وحقيقة الأمر كما يشير ل.ب. هارفى أنه كان أمرًا يتعدى إسبانيا ويبدو أنه كان توسعًا أوروبيًا(٣٣)، وقد حكى لنا هذا الكاتب عن مغامرات أحد المطرودين؛ وهو أحمد بن قاسم الأندلسى، والذى كان لديه لقبه بيخارانو(*)، وربما يكون غرناطيًا أو فالنسيًا حيث كلن يتكلم العربية منذ صغره، فى عام ١٥٩٩م انتقل إلى المغرب حيث عمل سكرتيرًا ومترجمًا للسلطان مولاى زيدان، وقام بمهام دبلوماسية فى باريس وهولندا وربما للتوسط فى شراء بعض السفن؛ وكانت له مجادلات مع اليهود والمسيحيين، وحج إلى مكة، ثم أقام بصفة نهائية فى تونس ، حيث قام بترجمة كتاب عن المدفعية لإبراهيم بن أحمد من الإسبانية إلى العربية(**).

ومؤلف الكتاب المذكور، على الرغم من اسمه العربى فهو إسبانى من غرناطة ولقبه ريباس، وهو أحد الموريسكيين الذين تم إجلاؤهم من غرناطة عام ١٥٧٠م ، وقد أقام كغيره فى إشبيلية حيث استهواه البحر وعلومه وسافر على متن أحد المراكب إلى العالم الجديد، ويجب أن يكون قد اكتسب معارفه حول المدفعية التى شرحها فى كتابه حينذاك، وعندما طُرد عام ١٦٠٩م استقبل بحفاوة من جانب الداى عثمان التونسى، وبعد الكثير من المغامرات من أعمال القرصنة أسند إليه منصب قيادة حصن حلق الوادى، وربما يكون حينئذٍ قد ألف كتابه حول المدفعية وبمساعدة كتب كان قد تركها

(*) هو أحمد بن قاسم الحجرى . لمزيد من المعلومات حول هذه الشخصية انظر كتاب "الإسلام والغرب"، ترجمة ممدوح البستاوى مراجعة وتقديم جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

(**) هو "كتاب العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع". (المراجع)

إسبان عند إقامتهم فيها، وقد كتب ذلك لتعليم جنود المدفعية الموجودين هناك، وكتبه بالإسبانية لأنها كانت اللغة التى يتحدثونها.

وعندما نتحدث عن المناصب المتميزة التى وصل إليها هؤلاء الرجال بينما كانوا فى وطنهم محتقرين، فإن هارفي يؤكد أن سبب ذلك أن الموريسكيين عرفوا أن الذى يميزهم عن غيرهم من أبناء دينهم هو الثقافة المادية المتقدمة التى اكتسبوها فى إسبانيا: وهذا مثل وضع السيد دى خانيرو الأندلسى المعمارى، وكذلك عدد كبير من المسيحيين.

ومن الطبيعى أن إقامة من ٢٥٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف موريسكى ومرتد لا يمكن أن يغير وجه أرض واسعة كشمال إفريقيا، وعندما تركز عدد كبير منهم فى شمال غرب تونس فإنه أحدث تغييرات ذات قيمة؛ أما الباقون فقد انتشروا فى مسافة طولها ألفا كيلو متر من الرباط إلى تونس ، لهذا لم يكونوا الخميرة الكافية لكى تتقدم تلك الدول وتقلل من تخلفها عن أوروبا وهو تخلف لم يحدث له إلا الزيادة المستمرة مع مرور الزمن. وعلى الرغم من هذا فيجب أن نؤكد أن إسهامهم كان أكبر من حجمهم العددى، كزراعيين وحرفيين ومفكرين وعلماء وتجار ورجال دولة أسهموا فى المحافظة على الهيكل الضعيف لتلك الدول البدائية والتى كانت تهددها دائمًا النعرة الإقليمية للسكان الأصليين وحياة السلب والنهب للبدو، ولقد كان هذا ممكنًا بفضل تجمعهم فى مراكز مدنية حيث كانوا يكوِّنون نسبة كبيرة من السكان فى الجزائر وتطوان وفاس وطنجة وتلمسان، وهى مدن كان المسلم الإسبانى يختلف فيها عن السكان الأصليين حتى قبل مجىء الموريسكيين .

وحول تلك المراكز الحضارية وبعلاقة قوية مع البورجوازية (حيث هى التى كانت تمتلك الأراضى) زرع الفلاحون الموريسكيون مثلما زرع أجدادهم فى إسبانيا، وهذا التمركز السكانى وتذكُّرهم لأصلهم هو الذى يفسر لنا أنه على الرغم من مرور حقب

طويلة فإن عملية الاحتواء لم تتم على وجه الاكتمال، وأن عدداً ليس قليلاً من أحفادهم حافظوا على عادات أسرهم الأصلية(٣٤). يقول كارو باروخا(*) " . الحقيقة أنه اليوم فى المدن القديمة فى شمال إفريقيا يوجد مسلمون متمسكون بدينهم وينفذون تعاليمه بدقة ويفتخرون بأصلهم الأندلسى، ولنضرب مثالاً على ذلك تطوان، ولو أن مسافراً إسبانياً كان لديه أقل رغبة فى معرفة الماضى فسيجد الكثيرين الذين سيحكون له أخبار عائلاتهم وقرابتهم مع المسلمين الذين كانوا فى شبه الجزيرة الإيبيرية ، بل إن بعض العائلات تفتخر بامتلاكها لمفاتيح بيت العائلة. وهذا ما حدث لزائرين فى القرن الثامن عشر؛ فالرحالة الإنجليزى آرثر بروك من النصف الأول من القرن التاسع عشر اهتم بالبحث عن العنصر الإسبانى فى السكان واعتبره عنصراً أساسياً وذكر أسماء بعض القرابات لمسلمين أندلسيين كانت توجد هناك، ثم أضاف إليهم قائمة بعائلات من الأصل نفسه مقيمة فى فاس والرباط .

واليوم نستطيع أن نقدم معلومات أكثر دقة : فمن بين ٤٧٥ اسم عائلة تطوانية من الموجودين فى تاريخ تطوان للارهونى، يوجد ١٠٤ لا يُعرف أصلها، وكذلك ١٢٠ عائلة قد اندثرت ، وبين الأنساب الباقية يوجد على رأسها عائلات أندلسية يصل عددها إلى٧٥".

وقد كان لهذه المساهمة الإنسانية أثرها الفنى العميق، وربما يكون حال مدينة تطوان هو الأكثر وضوحاً لطابع المدينة الأندلسى الكبير. وقد تم إنشاء حيين سكنيين (العيون والترانكات) لإقامة المهاجرين نتيجة طرد عام ١٦٠٩م. وفى ثلاثين عاماً انشأوا خمسة مساجد، تحت إدارة شخصية أندلسية مهمة هى المعلم الجواعيدى، وإليه ينسب أيضاً إنشاء المئذنة الهيفاء لجامع العيون. ولم يقتصر أثر الفن الإسبانى الموريسكى على المدن الساحلية، بل وصل حتى مدينة العيون. ويجب ألا نعظم من تنت

(*) فى كتابه الذى ترجمناه إلى العربية تحت عنوان "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢"، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة. (المراجع)

الإنشاءات حيث إن الوضع الاقتصادى للمهاجرين ولعامة الدولة لا يسمح بالبعثرة ، فتلك المساجد لا تزيد مساحتها على ٢٥ متراً مربعاً ولها ديكور متواضع[٢٥]، ولقد كان ذلك إسهاماً من شعب مهزوم ومطرود للأرض التى توجد فيها جذور فنه.

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) ***Le passage des Morisques en Languedoc***, (Montpellier, 1970) Extractos o complemntos de esta importante tesis son varios articulos suyos entre los que senalamos por su interes el publicado en "Al-Andalus" (1971) con el titulo ***Morisques et protestantes***.

(٢) Jean Aubin: ***Alburquerque et les negociations de Cambaye***, (Mare Luso-Indicum) , I , 14 – 22).

(٣) Bleda, Coronica.....capitulo 39.

(٤) Cardaillac: ***Morisques en Provence*** ("Revue des lengua romanes", 1971)

(٥) Cardaillac: ***Proces pour abus contre les morisques en Languedoc***(Extracto de la tesis citada en la nota primera, publicado **en *Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie***, 1973, obra miscelanea de gran valor a la que nombraremos en adelante ***Tunez***).

(٦) Bonificado de Echegaray : ***Se establecieron los moriscos en el pais vasco de Francia?*** ("Bulletin Hispanique" XLVII, 1945).

(٧) Cit. por Juan Pignon en su resena de la obra de Lapeyre (***Tunez***, p. 75).

(٨) Codoin, tomo 44, p. 129.

عند تقديم هذا الخطاب لإبداء الرأى، رأى اثنان من المستشارين أنه ينصح بتركهم يعيشون هناك، وفى حالة أخرى خاصة باثنين آخرين أوصيا بتنفيذ قرار الطرد.

(٩) Janer, apendice132.

يفهم من هذا الخطاب أن عملية التعمير التى قام بها الدوق الأكبر ربما كانت ستنجح لو أنه استخدم فلاحين من أراغون أو فالنسيا، وإن كان سيبقى دائما موضع شك مدى إمكانيـــة أن يتكيفوا مع زراعة محاصيل لم يكونوا يمارسونها قبل ذلك.

(١٠) fonesca, 347 – 48.

فى وثيقة وردت فى كتاب خانير (٣١٩) تقول إنه فى عام ١٦٠٨م، سافرت أربع عـــائلات موريسكية من مدينة مرسية إلى فينيسيا ومنها إلى القسطنطنية، حيث أبحروا مـــن أليكـــانتى بناء على معلومات مزيفة حصلوا عليها من سكان المدينة ونواب فى مجلس بلديتها.

(١١) ***Viaje de Turquia***, coloquio IX.

إن هذا الكتاب الذى ينسب عادة لكريستوبال دى بيالون بناء على دراسات باتييون ربما كان من الأصح أن يكون قد كتبه الطبيب أندريس لاغونا من مدينة سيغوبيا.

(١٢) Jean Pignon, articulo citado, nota 56.

(١٣) L. P. Harvey : ***The morisco who was Muley Zaidan interpreter*** (MEAH. 1959, p. 71).

(١٤) يؤكد ذلك فراى ماتياس من سان فرانسيسكو، الذى نشر عام ١٦٤٣م الكتاب التالى:

Relacion del viaje que hizo a Marruecos fray Juan de Prado (capitulo VIII).

(١٥) Braudel, ***La Mediterranee***...II, 468.

(١٦) Fischer, Godfrey. ***Barbary Legend War, Trade and Piracy in North Africa***, 1415-1830, Oxford, 1957.

(١٧) حول هذا الحدث الغريب انظر المرجع التالى:

E. Garcia Gomez, ***Espanoles en el Sudan*** (" Revista de Occidente", 1935)

(١٨) يؤكد هذا كابريرا دى كوردوبا فى أحد مقالاته (١٦١٠/٤/٦) حيث يقول: "من المعـــروف أنه فى بلاد تطوان رجموا وقتلوا وعذبوا بعض الموريسكيين الذين رفضوا دخول مـــساجد المسلمين". ويؤكد هذا روخاس كاسناتى: "وعلى الرغم من أن هـــؤلاء كـــانوا (يعتبـــرون) مسلمين فى إسبانيا، فقد تبين فى البربر أن كل الذين كانوا فى سن الشباب كانوا مـــسيحيين

مخلصين، ودلّلوا على ذلك بأقوالهم وأفعالهم، وقد حاولوا العودة إلى إسبانيا حتى لو أصبحوا عبيدا. وكما أثبت الكثير منهم ذلك بدمائهم، وقد شهدت تطوان العديد من الحوادث حيث أحرقوا البعض أحياء حين أعلنوا إيمانهم، كذلك فقد ضربوا الكثيرين بأعواد قصب السكر والعصى، وقد أحرق الصبية فى لارتشى شابا بعد أن عذبوه كثيرا. وقد تم البحث كثيرا عن عظامه فلم يجدوها". انظر المراجع التالية:

Padres capuchinos en 1625, la Relacion de John Harrison

وقد أكد مؤلف المرجع السابق أن كثيرًا من الأندلسيين المنفيين كانوا فى حقيقتهم مسيحيين .

(١٩) حوالى ٨ آلاف تبعا لمذكرة أرسلها باوثيلاس إلى إينريكى الرابع وقد ذكر هذا فى:

Sources inedites de l Histoire du Maroc (1. serie, tomo II, p. 495).

(٢٠) Rojas Casanate, obra citada, lugar citado.

(٢١) اثنان من هؤلاء يستحقان الذكر وبياناتهما كالتالى:

Roger Coindreau, ***Les corsairs de Sale*** (Paris, 1948, 240 paginas)

Guillermo Gozalbes , ***La republica andaluza de Rabat en el siglo XVII***, ("Cuadernos de la Biblioteca Espanola de Tetuan ", no 9 -10 , diciembre de 1974, 464 paginas).

إن هذا المؤلف مدفوعا بحماس وطنى شديد يعترف بأن الفكرة الأساسية لكتابه هى محو العبارة الشهيرة "قراصنة سالى" التى ينسبونها من الناحية الأخلاقية والاجتماعية للموريسكيين التابعين لنا". ويعتقد أنه يجب أن يقارنوا مع الجمهوريات البحرية الإيطالية. وإذا أمعنا النظر فإنهم فعلا كونوا جمهورية بحرية مثل (وذلك مع اتخاذ كل التحفظات) جنوة وراغوثا، لكن ليس من الممكن أن ننفى أن مصدر الدخل الرئيسى لهم كان هو القرصنة، حيث كانوا يعيشون منها.

توجد الكثير من الوثائق حول موريسكيى مدينة سالى ومعها مدخل عبارة عن دراسة نقدية توجد فى:

Sources inedites de l Histoire du Maroc , tomo III , 1 serie , p. 187. y siguientes.

(٢٢) إن مشروع المعاهدة نشر فى :

G.S.Colin , ***Projet de traite entre les morisques de la Casba de Rabat et le roi d Espagne en 1631***. "Hesperis", tomo 52, 1955, p.17 -26 .

وقد أخذه من مخطوط موجود فى المكتبة الوطنية فى باريس ويقول إنه لا يوجد لها تاريخ وإن عنواناً تاليًا لها يحدد بتاريخ ١٦٣١م .

(٢٣) ***Sources inedites***...1 serie, III, 49.

(٢٤) A.G.S. Estado, Espana, 2.658, consulta de 11 de diciembre 1636.

(٢٥) Obra citada, libro 5, capitulo XII.

ربما كان سبب التشاؤم الذى يسود هذه الحكاية ليس عقلية المؤلف فحسب وإنما أيضا عقلية الشخص الذى روى له الحكاية، والذى يبدو أنه قد أصيب بخيبة أمل فى الجزائر حيث يقول: "ولما رأى طريقة الحياة الهمجية والحيوانية لأولئك الناس فقد كان يستنكرها وبخاصة الطلاق الذى كان يتم بكل سهولة على النساء اللواتى عشن مع أزواجهن فترة طويلة حتى ولو كن حوامل، كذلك فقد جرح إحساسه انتشار اللواط الذى رأى أنه يمارس ربما علنا، وبدأ يشك فى أنه كيف يمكن أن تكون شريعة حسنة وطيبة تلك التى تسمح بمثل هذه الأعمال ". وقد نصحه بعض المبشرين أن يذهب إلى فينيسا حيث حصل من السفير الإسبانى على شهادة تثبت أنه مسيحى. ثم ذهب بعد ذلك إلى روما حيث عاش مسيحيا، وذلك تبعا لما أكده فونيسكا.

(٢٦) La ***Topografia*** se imprimio en Valladolid, en el ano 1612, pero estaba ya escrita en 1605. Se reimprimio en Madrid, 1927, tres volumenes.

(٢٧) إن مقال

Towards a study of Andalusian inmigrations and its place in Tunisian History.

الذى تم نشره فى مجلة تونس يدل على المعارف الواسعة التى لدى هذا المتخصص حول هذا الموضوع، وهو أستاذ فى جامعة مانشستر. وإننى لا أدرى إذا كان قد نشر الكتاب بكامله، الذى يعمل فيه منذ سنوات وعنوانه: ***Andalusians in Barbary***

(٢٨) *Tunez*, 304 – 305.

(٢٩) Latham, articulo citado.

(٣٠) Miguel de Epalza. ***Moriscos y andalusies en Tunez en el siglo XVII***(al-Andalus, 1969).

(٣١) Publicado en Al-Andalus, 1933 y reproducido en version francesa en ***Tunez***, 205-239.

(٣٢) Oliver Asin. ***El Quijote de 1604*** (Madrid, 1948).

(٣٣) L. P. Harvey: ***The morisco who was Muley Zaidan s Interpreter***. (M.E.A, 1959).

(٣٤) Obra citada, 254-255.

(٣٥) Santiago Sebastian : ***La arquitectura religiosa tetuani***(" Archivo Espanol de Arte", no 117, ano 1957).

الفصل الثانى عشر

الوجود الموريسكى فى إسبانيا بعد الطرد

لقد حير هذا الموضوع الباحثين، لأنهم كانوا يرغبون فى معرفة حقيقة التنفيذ الفعلى للطرد وإحاطته وشموله، ولهم فى ذلك وجهات نظر متعددة، فبعضهم يظن أن الطرد كان كاملاً شاملاً، وآخرون يرون أن الطرد لم يكن عامًّا بل تمكن كثيرون من التهرب منه. ولا تُعتبر مناقشة هذا الموضوع أمرًا فضوليًّا ، بل على أساس الإجابة نستطيع أن نعتبر الوجود الموريسكى منتهيًا تمامًا خلال أعوام (١٦٠٩-١٦١٤م)، أو لا نعتبره كذلك، وبالتالى يكون له دخل فى أنثروبولوجيا السلالة والثقافة فى إسبانيا، أو على الأقل فى بعض الأقاليم، حتى لو تم ذلك بصورة غير قانونية وغير ظاهرة.

ولا يشك أحد فى رغبة الحكومة الحاسمة فى "اقتلاع جذور تلك الشجرة"، فلقد رأينا أدلة كافية على ذلك، ولعل أكثرها قوة هو اختيارها لكونت سالاثار، واحتفاظها به فى منصب المسئول عن تنفيذ الطرد، وهو رجل لا يرحم، فقد ضرب بالرجاءات والتوسلات عرض الحائط مهما كان الوسطاء الذين يحملونها، حتى وصل به الأمر إلى رفضه محاولات سيدات القصر فى إبقاء خياطهن الموريسكى، وهو ما أثلج القلب الإنجيلى للقديس خوان دى ريبيرا[(١)].

كذلك لم تنفع رجاءات المتوسلين المصحوبة بأدلة على صحة تمسكهم بالمسيحية فى البقاء، بل أطلق سراح مسجونى محاكم التفتيش ليرحلوا دون إبطاء[(٢)] .... لقد كانت هناك رغبة فى ألا يبقى أحد من تلك السلالة فى إسبانيا، سواء أكان جيداً أم

سيئًا، حتى إن الموريسكيين ، المتزوجين من مسيحيات ، الذين طردوا إلى إيطاليا أرسلوا طلبًا من روما بواسطة السفير هناك يلتمسون التصريح لهم بالعودة فكانت الإجابة هى الإصرار على النفى[٣].

وعلى الرغم من رغبة السلطة المؤكدة والمطلقة وتصميم إدارتها على إنهاء وجود بقايا الموريسكيين فى إسبانيا بتقص وتمحيص وإجراء طرد ثانٍ وثالث، فقد بقى الكثيرون منهم – إن لم يكن فى المناطق كلها ففى بعضها على الأقل – كما اعترف بذلك المسئولون عن الطرد.

فلقد كتب كونت سالاثار لدوق ليرما فى ٢٨ سبتمبر عام ١٦١٢م يقول: "لقد بقى الكثيرون وبخاصة فى المناطق التى توجد فيها عصابات، أو التى يوجد فيها أشخاص مرغوب فيهم[٤]، مثل بلاسنثيا وتروخيّو وميريدا وأوكانيا وتالابيرا. ومع أنه من المعروف وجود كثير من الموريسكيين القدامى الذين يعيشون فى أحياء منعزلة، فقد وردت إلينا أدلة على بقاء بعضهم من سكان تلك المناطق فى إسبانيا".

ولدينا دليل على صحة ما قلناه، وذلك أن إحدى المدن المذكورة سابقًا وهى تالابيرا دى لارينا توقف ذكر الموريسكيين فى سجلات الكنائس منذ عام ١٦١٠ مما يشير إلى عدم وجودهم من الناحية الرسمية، "ولكن كثيرًا من الأشخاص والألقاب المعروف أنها موريسكية ظلت تُذكر"[٥]؛ وهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يحدث إلا بتواطؤ القساوسة، ويؤكد أن الموريسكيين وجدوا تسامحًا ومساعدة لدى كثير من الطبقات الاجتماعية فى بعض الأحيان، إما لسبب مادى وإما رحمة بهم.

أما جهود السادة للإبقاء على عمالهم فقد فشلت فى معظم الأحيان ونجحت فى بعضها الأخر؛ فماركيز لوس فيليث استطاع أن يحصل على موافقة فى تأخير عملية خروجهم ثم اضطر فى النهاية إلى قبول ترحيلهم ، أما كونت أوروبيسا فقد تدخل إلى جانب رجاله مؤكداً تمسكهم بالمسيحية[٦]، وفى دائرة لونا بقى عدد غير قليل.

أما فى قشتالة، حيث كانت عملية احتواء المدجنين فى مراحلها المتقدمة، فقد وجد الموريسكيون أفراداً كثيرين من المسيحيين يشهدون بسلامة مسلكهم، كما وُجد كنسيون

يشـهـدون على تمسكهم بالمسيـحـيـة التى لم تكن مـوضـع شك فـأقـر بقـاءهـم. وذكـر غونثاليث مونيوث المرافعة القضـائية الناجحة التى قدمها صناع فخار موريسكيون فى تالابيرا ضد جمعية "نويسترا سنيورا ديل برادو" الدينية التى ترفض قبولهم فيها لأنهم مسيحيون جدد.

أما سكان كامبودى كالاترابا ويصل عددهـم إلى ثلاثة آلاف فقد كانوا يحاولون البـقـاء مـحـتـجين بالامـتـيـازات التى منحـهـا لهم الملكان الكاثوليكيـان، وأنهم لـم يكونوا يدفعون ضريبة الفارضة.

وترافع عدد كبير من الموريسكيين أمام القضـاء يؤكدون عدم انتمائهم لتلك الأقلية؛ مـقدمين وثائق تسمح لهم بالبقـاء فى إسبـانيا، وقد ذكر كونت سالاثار فى ١٦١١م أن المرافـعـات القـضـائيـة التى حكم فـيـهـا لصـالـح الموريسكيين بهـذا الشـأن بلغت ٧١٦[٧] مرافعة، بينما المرافعات التى رفضت بلغت ٤١٦ مرافعة. ويجب ألا نعمم النتائج، ففى بالنثيا Palencia التى ربما يكون قد وصل عددهم فيها إلى خمسمائة، لم يبق منهم إلا امـرأة، وهى التى يشك فى أنها قد نجحت فى إخفـاء حقيقـتـهـا وبقيت[٨]، وذلك تبـعًا لما قاله هيريرو مـارتينث. أما فى فـالنسيا وأراغون حيث كانت كثافتهم السكانية مرتفعة فقد كانت المسـاعدة التى وجدهـا الموريسكيون قليلة وبمقابل مادى، وقد حـاول بعضـهـم البقاء باعتـبارهم عبيدًا لبعض الناس، وآخـرون خرجوا إلى الجبال وتحـولوا إلى قطاع طرق، ومن المحتمل أن يكونوا قد اندمـجوا مع عصـابات الغـجر(*)، ولكن عداوة الناس لهم لم تكن لتسمح ببقائهم إلا بصورة معزولة عن المجتمع[٩].

أما الموريسكيون القطالونيـون فكانوا - كمـا ذكرنا- يتمـتـعون بحـمـاية أسـقف تورتوسا الذى بقى الكثيرون بفضله، وأغلب الذين طردوا عادوا مرة أخرى، وقد أجرى تحقيق بشأنهم حينذاك وكان بها تفصيلات غريبة وطرحت أسئلة متعددة منها[١٠]:

(*) تناولنا موضوع العلاقة بين الموريسكيين والغجر فى دراسة قدمت خلال مؤتمر "لوركا والثقافة العربية" الذى نظمه المجلس الأعلى للثقافة ولم تُنشر أعماله بعد . (المراجع)

– هل تعرف أن الموريسكيين الذين بقوا فى قطالونيا يتمتعون بحرية كبيرة، وهناك شبهات تدل على أنهم يعيشون سراً بصفتهم مسلمين كما لو كانوا فى إفريقيا؟

وقد أجاب بعضهم بأنهم كانوا يقومون بالشعائر الدينية المسيحية دون رغبة حقيقية وكأنهم مُكرهون، وآخرون أجابوا: لا نجد فرقًا محسوسًا بين الذين رحلوا وبين من بقى.

كان السؤالان الثالث والرابع كما يلى:

– هل تعرفون أنهم كانوا يتصنعون (ويزيفون) فى تصرفاتهم وأحوالهم ؛ وأن كثيراً من المسيحيين أصبحوا أثرياء بفضل ما أخذوه من أموال الموريسكيين مقابل شهاداتهم؟

وقد أجاب الجميع بصحة ذلك مؤكدين أنه وُجد كثير من التزييف والرشاوى، بحيث إن الذين اضطروا للرحيل لم يكن لديهم أصدقاء ولا أموال يدفعونها لمن يشهد إلى جانبهم، وليس لأنهم كانوا أكثر إسلامًا من الذين بقوا.

وبعض الشهود يحددون المتهمين: فمنهم كاتب قضائى من تورتوسا يدعى ميلتشور مونفورت، وكان يتلقى معلومات من الأسقف وقد أصبح غنيا بعد أن حصل على أموال كثيرة، كما أثرى بهذه الطريقة الأرشيدوق سنتيس، وراهب يدعى بنيا، وراهب كارملى من بنى فاجييتى حيث قبلوا مساعدة من الموريسكيين قدرها ألف اسكودوا وذلك فى بناء أحد الأديرة.

وكان السؤال السابع كما يلى:

– هل تعرف أن كثيراً من الموريسكيين الذين طردوا قد عادوا، ويسكنون فى أماكنهم السابقة؟

وردوا بالايجاب – إما كلهم أو أغلبهم – بأنهم عادوا مع عائلاتهم من فرنسا كما أعطى بعضهم معلومات محددة: ففى ميرابيت سمح ببقاء أربع عشرة أسرة يبلغ عدد أفرادها ٧٠ فرداً ، وكذلك بقيت سبع أسر كان من المفروض أن ترحل ولكنها لم ترحل،

ومن الذين رحلوا عادت أربع أسر، وقد بلغ عدد أفرادها ٨١ شخصاً، وفى بنى سامت بقى٣٣ أسرة وعادت ٢٤ أسرة .

كذلك بقى عدد آخر فى وادى ريكوتى وذلك عن طريق الالتحاق بالطرق الدينية أو الزواج من مسيحيات، وآخرون (هنا كما فى كل إسبانيا) بقوا عن طريق الغياب والتهرب والاندماج فى مجموعات الشحاذين والحجاج والغجر ورجال العصابات. ومن المفيد أن نشير إلى أن العدد الأكبر الذى استطاع البقاء كان فى أندلوثيا وقد حدث ذلك لسببين أساسيين:

١- الانتشار الكبير لظاهرة العبودية.

٢- العلاقات الطيبة بين المسيحيين والموريسكيين إذا ما قورنت بالعلاقات التى كانت موجودة فى أراغون.

وتبدو هذه المعلومات متناقضة إذا أخذنا فى الاعتبار الأحداث المؤسفة التى وقعت فى حرب غرناطة، ولكن عندما انتهت الحرب واختفى الخطر، وجد كثير من المسيحيين أن مصلحتهم تكمن فى حماية بقايا الشعب المهزوم، ويبدو ذلك واضحًا فى أراضى ألمرية بخاصة، والتى بقيت جدباء بتركهم لها؛ لهذا فقد دفعت حاجة المسيحيين الشديدة إلى الأيدى العاملة لزراعة تلك الأراضى إلى وجود لون من التكافل بين أصحاب الأرض وبقايا الموريسكيين، سواء الذين تجنبوا عمليات الترحيل أو أولئك الذين عادوا، فى تحد للقرارات الصارمة التى تمنع ذلك.

إن عملية الاحتواء كانت طويلة وبطيئة، فقد بدأت بتبنى أسماء وألقاب مسيحية ، ثم ممارسة شعائر وعبادات لا يقتنعون بها ، ثم انتهت إلى مسيحية صريحة، وأخيرًا وبفضل جدٍّ بعضهم وتقشفه وعمله أمكنه أن يورث أحفاده أراضىَ جديدة. وفى القرن التاسع عشر كانوا قد فقدوا هويتهم القديمة تمامًا واندمجوا مع طبقة الملاك الزراعيين[١١].

لكن عملية الاندماج الشائعة كانت هى تلك الناتجة عن التبعية أو العبودية وهى التى تصل بالفرد إلى الاندماج، لا سيما الطبقات الدنيا فى المجتمع بما فيها طبقة الغجر، وقد فتحت الدراسات التى قام بها نيكولاس كابريانا آفاقًا واسعة أمام دراسة هذا الجانب(١٢).

وإلى جانب العبودية بمعناها الحرفى- وهى إحدى نتائج حرب غرناطة أعوام (١٥٦٨م - ١٥٧٠م) - توجد وثائق تثبت وجود نوع آخر من العلاقة تسمى " الخدمة"، وهى تشبه علاقة الوصاية التى كان معمولاً بها فى العالم الجديد، وهى تطور لعقود التعلم التى كانت تنظم عملية إعداد الغلام الذى يرغب فى اكتساب حرفة معينة تحت أمر معلمه، من خلال مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة.

إن العدد الكبير من اليتامى والأطفال المتروكين - نتيجة الحرب - والحاجة الشديدة لأيد عاملة رخيصة يفسر لنا ظاهرة وجود علاقات الوصاية فى مملكة غرناطة، وعن طريقها كان يوضع أطفال موريسكيون تحت رعاية أسر مسيحية، وكانت تستطيع استغلال عملهم مقابل إطعامهم ثم يعطى لهم مكافأة صغيرة لتأهيلهم اجتماعيا وذلك إذا تم دفعهم لتعلم حرفة لدى أحد المهنيين. وأغلب هؤلاء الأطفال كان عمرهم يتراوح بين ٧ و ١٠ أعوام، وهذا يعنى استعدادهم للعمل لفترة طويلة حتى سن الرشد وهم فى خدمة متبنيهم، أما فى الحالات القليلة التى كان فيها الأطفال أصغر من ذلك فقد كان تبنيهم بدافع الشفقة والتقوى.

ومن الواضح أن مثل هذا النوع من العلاقة يشبه علاقة الخدمة ويسهل عملية الاستغلال، ويجب الإشارة إلى أن السلطات لم تكن لديها رغبة فى دفع الاستغلال أو تقويته، وقد وجد بعض الحالات مثل قاضى ناباس دى بويبلا، الذى يفترض كابريانا أنه تأثر بأعمال الراهب بارتولومى دى لاس كاساس فى صالح الهنود، حيث كافح هو من أجل الموريسكيين المضطهدين. " لم يحم ناباس الأطفال الموضوعين تحت الوصاية فقط ، بل أنقذ مجموعة من كبار السن الموريسكيين من الطرد بفضل وساطته،

فقد نجوا من موت مؤكد". ولكن ما مصير أولئك الأطفال الذين وصلوا إلى سن الرجولة عندما صدر قرار الطرد؟

المؤلف نفسه يزودنا بإجابة محتملة فيقول: " كثير من الذين وضعوا تحت الوصاية انتهى أمرهم بالاندماج مع السكان المسيحيين، وذلك بعد نحو ١٥-٢٠ عامًا من التعايش، وبعد أن اختفت أحقاد عام ١٥٦٨م، وكثير منهم تزوجوا من مسيحيات قديمات، ونظرًا للمشكلة السكانية والاقتصادية لم يكن أحد يستطيع أن يرفض تزويج ابنته من موريسكى، وكذلك كثير من الموريسكيات تزوجن من مسيحيين، حيث كان يملك كل منهم بين ١٨ و ٢٠ دوقية ، بالإضافة إلى المدخرات التى جمعوها"، وأهم شيء فى موضوع مزج السلالات هو وجود مستندات تخفى أصل الشخص كمسيحى جديد وبهذا كان الموريسكيون يتساوون من الناحية القانونية مع المسيحيين القدامى، وقد كان ذلك فى وقت كان الانشغال فيه بموضوع نقاء الدم فى قشتالة محتدمًا!!

فى ألمرية توجد أمور مشابهة لتلك التى درسها كابريانا والتى تكشفها لنا دراسة قام بها رفائيل بنيتيث حول مصير المهزومين فى تمرد مرتفعات بن توميث فى مالقة؛ فالذين كان عمرهم أكبر من عشر سنوات بيعوا عبيدًا، أما الذين كانوا أصغر من ذلك فقد وضعوا تحت وصاية عائلات مسيحية بقوا فى خدمتها حتى سن العشرين للرجال والثامنة عشرة للنساء، ومقابل خدمتهم تقدم لهم الطعام والإيمان المسيحى وتعطيهم راتبًا صغيرًا، أما الذين تبنوهم فكانوا ينتمون إلى طبقتين: النبلاء ، وذلك من أجل الخدمة فى الأعمال المنزلية، والتجار والحرفيين لاستخدامهم صبيانًا فى أعمالهم، ولا يوجد أدنى شك فى اندماج هؤلاء النهائى(١٣).

وإلى جانب هؤلاء الذين بقوا فى إسبانيا يجب أن نعير اهتمامًا إلى الذين عادوا؛ فكثير من الذين خرجوا بالقوة رجعوا عندما استطاعوا، وآخرون من الذين استقبلوا الطرد دون اكتراث، وفى بعض الأحيان بسعادة، غيروا من رأيهم عندما وجدوا الاستقبال السيئ فى شمال إفريقيا. ولدينا شهادات كثيرة جدا تبين أن الحياة خارج إسبانيا لا تطاق بالنسبة للكثيرين منهم لدرجة أنهم وضعوا حياتهم فى خطر من أجل

العودة. ولدينا حول هذه النقطة أدلة كثيرة موثقة؛ وهناك دليل أدبى لا تقدر قيمته: وهو فصل ريكوتى فى رواية دون كيخوتى، وقد كُتب حوله كثير من التعليقات.

وثيرفانتس لا يمر على الموضوع مرور الكرام، بل يكتب عنه فصلاً كاملاً خاليًا من الحشو والزيادات، وكل ما يقال فيه له أهمية كبرى، ويفسر لنا سبب اهتمام الأتباع الآخرون لإيرسموس بهذا الحديث، وقد كان ذلك المذهب فى طريقه للاندثار عام ١٦١٥. ويهمنا هذا الفصل ليس باعتباره شهادة شخصية ، بل لكونه انعكاسًا للحقيقة[١٤]، وسنختصر الفصل فيما يلى:

" ترك الفارس وتابعه حلم جزيرة باراتاريا، واستأنفا طريقهما من جديد حيث التقيا بمجموعة من الحجاج والمتسولين من الألمان، وبين هؤلاء كان ريكوتى قد تخفى، لكنه عرف سانشو وحكى له تاريخه قائلاً: قبل أن تنتهى المهلة الزمنية المحددة للخروج، قام برحلة خارج إسبانيا ليتعرف على بلاد يمكن أن تهيئ له أمانًا أكثر له ولأسرته، وذهب إلى فرنسا - وعلى الرغم من استقبال الفرنسيين الحسن وترحيبهم - رغب فى البحث عن بلاد أخرى، فذهب إلى إيطاليا ثم إلى ألمانيا، حيث بدا له أن الفرد يمكن أن يعيش بحرية أكثر ولا سيما حرية العقيدة لأن فى أغلب أماكنها يتمتع الناس بحرية الضمير، ثم عاد متخفيًا فى إحدى المجموعات التى يبدو أنها قامت بزيارة لأديرة فى إسبانيا حيث قضوا إجازتهم وعادوا ومعهم كمية لا بأس بها من النقود. كانت نيته إخراج الكنز الذى كان قد دفنه وأن يحمل أسرته إلى ألمانيا، وبينما كان يقوم برحلته فى أوروبا رأى صهره - وهو مسلم حقيقى - وقد عزم على أخذ زوجته وابنته إلى شمال إفريقيا على الرغم من أن الاثنتين كانتا مسيحيتين كاثوليكيتين

نصرانيتين. أبلغه سانشو ببعض الأخبار ورفض أن يساعده في محاولاته لاسترداد المدخرات التى يطلق عليها الاثنان اسم الكنز من قبيل المبالغة، ويفترقان".

يوجد فى هذه الحكاية بعض العناصر ذات أصل حقيقى مدهش وواقعى، وهناك عناصر أخرى ليست كذلك، مثل وصفه الطرد بأنه إجراء عادل مع كونه مسلماً. كذلك قضية ذهابه إلى إيطاليا ثم إلى ألمانيا تبدو موضع شك، وهو أن يفكر أحد الموريسكيين فى القيام بأمر كهذا.

وربما أراد ثيرفانتس أن (يجد) طريقة مناسبة، يجعل من خلالها ريكوتى يعود مع مجموعة من الألمان، كذلك ربما جذبته الحرية الدينية كثيراً والتى ربما كان سيرفانتس يقدرها كثيراً سراً. لكن الجو العام القاسى فى ألمانيا لا يمكن أن يقدم شيئًا جذاباً لبائع من لامنشا، ولو أنه يستطيع هناك أن يمارس صلواته وصيامه وغسله.

بينما توجد تفصيلات مأخوذة من الواقع : مثل إخفاء المدخرات، والانقسام الدينى داخل الأسرة، وشكوك ريكوتى حول الحقيقة الدينية؛ حيث يعترف أنه فى حياته مسيحى أكثر من كونه مسلماً(*) . "ويرجو الله أن يبصره بالطريق الأفضل لخدمة دينه ويفتح عينيه على الفهم الصحيح". وهذه الصفة تبدو بعيدة عن الواقع إذا كان الموريسكى من أراغون أو فالنسيا، بينما تبدو مناسبة إذا كان من قشتالة الجديدة، لأن مثل هذا الموقف كان شائعاً بينهم لأنهم كانوا فى طريقهم للاندماج.

كذلك هناك أمران يحركان مشاعر القارئ وهى بلا شك صورة من مشاعر المؤلف وهما : الأول مرارة حياة المهاجرين بقوله:"إلى أى مكان سنذهب ، سنبكى من أجل خروجنا من إسبانيا التى فيها ولدنا، وهى وطننا الطبيعى ... إنها الرغبة العارمة

(*) من الغريب – بعد كل الوثائق التى اطلعنا عليها – أن يقول مؤلف إن الموريسكيين كانوا مسيحيين لا مسلمين . (المراجع)

التى نحسها جميعًا وهى العودة إلى إسبانيا ... إنهم كثيرون أولئك الذين يجيدون اللغة مثلى، وسيعودون إليها تاركين نساءهم وأبناءهم بلا مأوى ولا مُدافع" وثانيهما تعاطف الجيران عند خروج الابنة، صفة لا يمكن وجودها إلا فى مناطق قشتالة.

ويجب ملاحظة أن سيرفانتس يقصر - وذلك من خلال حديث ريكوتى - إمكانية العودة على "أولئك الذين يعرفون اللغة"، وهذا الشرط الدقيق يغلق الباب أمام أغلب الفالنسيين وكثير من الأرغوانيين والغرناطيين الذين كانوا يتحدثون اللغة الرومانثية بطريقة سيئة، وبما أنهم كانوا أغلبية فمن الصعب أن يكون رقم العائدين - بطريقة غير قانونية - كبيراً، وإن كان من الممكن أن يعد بالمئات بل قد يصل إلى عدة آلاف.

ونحن نعرف ما حدث للموريسكيين فى تورتوسا ومنطقتها، لكن هذا يعتبر استثناء، كما نعرف حالة كامبو كلاترابا حيث عاد عدد كبير منهم، فردهم العمدة ماديرا، ثم عادوا مرة أخرى بإصرار عجيب. لقد تم هذا وتكلل بالنجاح كما اعترف بذلك عدوهم الذى لا يرحم كونت سالاثار الذى صرح ببقاء كثيرين فقال :" بإذن من مجلس الدولة وبوساطته وبإصدار شهادات مزيفة بأنهم كبار سن وعاجزون سُمح للبعض بالبقاء"، أما عمدة ماديرا نفسه فكتب من ألمرية فى عام ١٦١٢م أنه وجد عدداً من الموريسكيين السجناء لأنهم قد عادوا. وتكشف لنا الوثائق الخاصة بإشبيلية - والتى نشرها ميشيل موريث[١٥] - عن حالات غريبة جدا، فقد أخبر دوق مدينا سيدونيا المجلس أن كثيراً من الموريسكيين لم يرحلوا، وآخرين ممن رحلوا عادوا مرة أخرى وأرسل بعضهم للتجديف فى السفن، ومع هذا فقد طلب الدوق نفسه تصريحًا ببقاء ستة خدم موريسكيين، لكن الطلب رفض، كذلك توسط لصالح مسيحى قديم يعمل سائقًا لعربة من أجل أن يذهب إلى المنفى وراء زوجته وابنته . فكم من أحداث عائلية محزنة تكشفها لنا المراسلات الرسمية الجافة!! ويكشف لنا موقف هذا الدوق - حينما يتدخل لإبقاء مجموعة من الموريسكيين ويرسل فى الوقت نفسه مجموعة أخرى للتجديف فى السفن التناقضات والغموض اللذين يتصارع فيهما أولئك الرجال أمام قضية لها أشكال متعددة، حيث إنها لم تكن تضر بعض المصالح فقط بل إنها حركت بعض الضمائر، فعودة الموريسكيين واختفاؤهم ومشاركة الناس لهم فى ذلك تعتبر أمراً ثابتًا.

لقد اعترف بهذا أعداؤهم الذين لا يرحمون وقد تأسفوا لهم، فكونت سالاثار يزيد من التحذيرات، والأب بليدا يكتب قائلاً: "إن كثيراً من الموريسكيين بعد أن رأوا المعاملة السيئة التى قوبلوا بها هناك (فى إفريقيا) عادوا إلى هذه الأرض وهم يطلبون الرحمة، ويقولون إنهم يريدون أن يكونوا مسيحيين، وأن يعتبروا عبيداً. وقد وجدوا من يأخذهم ويستغلهم دون مقابل "وكثير من علماء اللاهوت قدموا إلى نائب الملك طلباً يقضى بإيقاف تنفيذ أوامر صاحب الجلالة؛ لأنهم إذا كانوا يعملون على تعميد الكفار من المسلمين والأتراك فالأولى هو الاهتمام بهؤلاء الذين تم تعميدهم وسيعودون إلى جماعتهم"[١٦].

إن تغير سياسة الحكومة وتذبذبها كانا موافقين لارتفاع كونت سالاثار وانخفاضه فى مناصبه، ففى نوفمبر عام ١٦١٢ أعفى من مناصبه (لأن الجزء الأساسى من الطرد قد تم) وأسندت القضايا المتعلقة بالموريسكيين إلى مجلس قشتالة ، وما إن أسند الأمر إلى هذا الجهاز الرفيع وأصبحت هذه القضية ضمن اختصاصاته وعن طريق العدالة، حتى بدأ أعداء المسيحيين الجدد يحتجون بأن ذلك سيسهل بقاء الذين حاولوا بكل السبل القانونية تجنب الطرد، ولهذا صدرت لائحة ملكية فى ١٢ أبريل عام ١٦١٣ حول هذا الموضوع معللة بما يلى:" نظراً لعودة كثير من الموريسكيين إلى المناطق التى خرجوا منها، وعدم خروج أحد من الذين بقوا، ومن أجل خدمة الله وخدمتى ولصالح تلك الممالك ولكى يتم الطرد على أفضل وجه ؛ فإنى قد كلفت من جديد كونت سالاثار بكل ما يخصه بهذا الشأن إلى جانب ما كان مكلفاً به سابقاً فى ممالكى". وأسمح له بأن يحل كل القضايا الموجودة، وآمر السلطات المدنية أن تسلمه كل القضايا، وأعطيه الحق فى مراجعة تصاريح البقاء كلها التى أعطيت للموريسكيين، سواء لتقدمهم فى السن أو تمسكهم بالمسيحية أو لأى سبب آخر"[١٧].

ومن الممكن أن نتصور حجم التعسف الذى ارتكبه ذلك الرجل الحانق العنيف، وقد وُضع تحت يده وأمره كل رجال الشرطة . من الممكن أن تكون السماء قد أمطرت شكاوى وتظلمات مما أدى إلى إنهاء هذا الموضوع ، ففى فبراير عام ١٦١٦م

تداولت دوائر العدالة أمر صاحب الجلالة الذى جاء فيه: "إن الطرد قد انتهى، فنظراً لما حدث مؤخراً فى مملكة مرسية، ولأسباب أخرى تجددت فى لجنة كونت سالازار فإن الأمر قد وصل إلى نهايته"، ولن يتم قبول وشايات جديدة إلا فى حالة إمكانية إثبات عودتهم من المنفى ، ففى هذه الحالة يمكن إرسالهم للتجديف إذا كانوا قادرين على ذلك ، أو يجلدون ويرحلون وتصادر أموالهم.

بهذا القرار يبدو أنه وضُع حد للمراجعات القانونية حول الموريسكيين، لكن بعض أصحاب الغيرة تابعوا مضايقة منْ بقى منهم، مثل موريسكيى منطقة تورتوسا الذين عرفنا من قبل عنادهم وتمسكهم بأرضهم. وهؤلاء يجب أن يكونوا قد تمتعوا – إلى جانب تأييد الأسقف وسيدهم ماركيز إتيونا – بتأييد جماعة القديس خوان الدينية، ويبدو أنهم نجحوا أخيراً فى البقاء وعلى أثر تقرير من كنيسة تورتوسا أدان مجلس أراغون فى خطاب للملك محاولات كونت سالاثار ونائب الملك، ماركيز ألماثان طرد الموريسكيين والاستيلاء على أموالهم. فأجاب الملك: "لقد أمرت نائبى أن لا يضايقهم وأن يتركهم يتمتعون بالحرية التى منحتهم إياها، وأن يكتب للأسقف ليتأكد من طريقة حياتهم فهو الذى أيد بقاءهم"(١٨).

أما الذين لجأوا إلى جزيرة مايوركا فقد كانوا أقل حظا، وأغلبهم قدم من وادى ريكوتى. كذلك كان هناك موريسكيون فى جزيرة سردينيا، وذلك بسبب غموض مصطلح إسبانيا فى الوثائق الرسمية حيث كان هناك شك فى أن الطرد يشمل تلك الجزيرة. وقد استشار والى مايوركا الملك حول ذلك الأمر. فأجابه الملك فى ١٩ أبريل عام ١٦١٤ قائلاً : "أن يكتب إلى الوالى أن لا يسمح بأى طريقة من الطرق بأن يقيم أولئك الموريسكيون هناك، وأن يأمرهم بالخروج فوراً لأن هذه الجزيرة جزء ملحق بإسبانيا وقريبة من الجزائر".

وقد نفذ الوالى الأمر وأبلغ الملك فى ١٨ أغسطس بخروج آخر مجموعة من موريسكيى ريكوتى، وهى مكونة من مائتى امرأة متزوجة، وأنه لم يبق إلا ثلاثون

موريسكيا لا يملكون نفقات الرحلة إلى إيطاليا، لكن الملك حل المشكلة بقوله: إني أمرت بخروج هؤلاء الناس من هناك ، وأن توفر لهم سفينة وكل وسائل الراحة الممكنة".[١٩]

ويبدو أنه لم يحكم على أى موريسكى حاول الاختفاء أو وضع حياته فى الخطر بعقوبة الإعدام، لكن حكم عليهم بالعمل فى المناجم وهى عقوبة مخيفة جدا وتساوى الموت إذا عرفنا ظروف العمل في منجم ألمادين Almadén ، فقد كان يتم فى ظروف قاسية، ولا يزال يوجد حتى اليوم مبنى السجن القديم الذى كان يتصل بالمنجم بواسطة نفق تحت الأرض. أما العمال الأحرار فكانوا يتمتعون بنظام أقل قسوة، وإن كانت الأعمال فى جميع الأحوال قاسية وغير صحية، لهذا كان يتم إكمال عددهم بأفراد عليهم عقوبات ويعبيد، وكان يوجد فى ألمادين مسلمون من الذين تحولوا فيما بعد إلى موريسكيين. وفى عام ١٥١٦م سمح لمشترى إنتاج المنجم أن يعفى ثلاثين منهم، من أبناء تلك البلدة من الضرائب[٢٠].

ولما كانت الأيدى العاملة نادرة وكان طلب السوق على منتجات المنجم كبيراً بسبب طريقة التلغيم الجديدة المتبعة فى مناجم الفضة فى دول العالم الجديد المكتشفة فقد حصل ممثل الفوكاريس – وهم أصحاب المنجم – عام ١٥٦٩م على تصريح لتوقيع عقد عمل مع مائتين من الموريسكيين المطرودين من مملكة غرناطة، لكن حاكم منطقة الماغرو سلمه ٩٣ شخصاً فقط ليعملوا– إذا كانوا يرغبون– وحددت ساعات العمل، أى حسب النظام الحر، وهذا على الأقل نظريا حيث حدثت حالات هروب وهذا ما يدل على أن بعضهم لم يذهب برغبته.

ومع هذا يبدو أن عملهم كان مجزيًا وفعالاً ومنتجًا، حيث صدر قرار ملكى عام ١٥٨٨م سمح بنقل مائتى موريسكى من جيان وأوبيدا وبايثا للعمل فى المنجم. وكذلك سمح بأخذ أولئك الذين يحاولون الاقتراب من مملكة غرناطة التى كانوا ممنوعين من الذهاب إليها[٢١].

لقد أدى طرد عام ١٦١٠م إلى طرد ٨٠ موريسكيا من ألمادين، وقد شغل هذا الأمر لجنة الإنتاج كثيراً، حيث كانت تراقب عملية الإنتاج، وتخاف من انخفاضه، ولهذا حاولت حجزهم بل والبحث عن آخرين، لكن الملك رفض الطلب.

لكن البحث عن وسائل أخرى لم يكن سهلاً، وكانت حاجة العالم الجديد تتزايد فى كل يوم، إلى درجة أن حاجة إسبانيا الجديدة خمسة آلاف قنطار، وقد تمكنوا من تزويدهم بثلاثة آلاف من عام ١٦١٢م، ومن هذه الكمية أُرسل ألف إلى بيرو نظراً لتوقف منجم هوانكابيلكا الذى كان يزود عادة تلك المملكة، وكانت الحاجة ملحة إلى درجة أنهم طلبوا زئبقًا من الصين دون أن ينجحوا فى ذلك، ولهذا فإن اللجنة المشتركة من المالية وشئون العالم الجديد عادت من جديد وأصرت على إرسال ١٥٠ موريسكيا لتغطية الحاجة إلى نقص الأيدى العاملة فى ألمادين. وقالت اللجنة: "وسوف يتم حراستهم والتحكم فيهم وقهرهم ، وإذا كان هذا يبدو قاسيًا وصعبًا فمن الممكن أن يكونوا من المطرودين الذين حاولوا العودة، وكما تتم معاقبتهم بالتجديف تمكن معاقبتهم بالعمل فى المناجم"، ويجب أن يحاولوا تجنيبهم المرض والموت، ومع الوقت سيتعودون على ظروف العمل ويمكن أن يشتغلوا مقابل أجر وأن يقلدوا سكان القرية فى ما يفعلونه، حيث كانوا يتركون العمل فى المنجم إذا أحسوا بعلامات المرض ثم يعودون للعمل بعد ذلك، أما أبناؤهم فسيكونون قادرين ومعتادين على ذلك". ورداً على هذا الطلب أرسل كل الموريسكيين الذين عادوا ويعودون من المهجر إلى المنجم وكذلك القادرين على ذلك من العاملين فى التجديف فى السفن[٢٢].

وحول هذه النقطة الأخيرة (الموريسكيون الذين يعملون فى التجديف) هناك مصدر آخر بتاريخ ١٢ فبراير عام ١٦١٣م يفيد بنقل ٨٠ موريسكيا وستدفع لهم هيئة فوكاريس أجورهم، ويحذرون من الغياب ، وأن عقوبة ذلك الموت، وبسبب عدم وجود منازل ولا أماكن لإقامتهم فسيتم إقراضهم ٦٠ دوقية لكل واحد من أجل أن يقيم منزلاً صغيراً، وقد أجاب الملك : "افعلوا ما تحبون وينبغى الحذر الكبير فى حراسة هؤلاء الناس وأن تكون المنازل قليلة التكلفة وأن تكون فى مكان واحد"[٢٣].

يعتبر فرنانديث أى غونثاليث المؤلف[٢٤] الوحيد الذى اهتم بالموريسكيين الذين بقوا فى إسبانيا بعد الطرد، ومقاله الذى يحمل العنوان نفسه يحتوى على مجموعة من المعلومات غير المترابطة، وبعضها خطأ أو على الاقل مضلّل؛ لأنه يخلط بين الموريسكيين

والعبيد المسلمين، فقد كان يوجد عدد كبير منهم فى إسبانيا ولم يشملهم مطلقًا قرار الطرد، لأنه كان يمكن أن يضر الملكية الخاصة لأصحابهم؛ كذلك لم يكونوا تحت مراقبة محاكم التفتيش حيث إنهم من الناحية القانونية لم يكونوا مسيحيين، وكان من المعروف أنهم يمارسون دينهم، وإن كان قد حرم عليهم كل الممارسات ذات الطابع الخارجي أو الظاهرى.

إذن كان يوجد فى إسبانيا فى القرن السابع عشر خليط من الموريسكيين الذين بقوا، سواء بتصاريح رسمية أو دونها، وكذلك الذين عادوا- وكان حظهم مختلفًا - كما كان يوجد عبيد موريسكيون ومسلمون، بل يوجد بربر أيضًا عبروا المضيق طواعية وجاءوا للبقاء فى إسبانيا موافقين على تعميدهم كشرط أساسى مسبق.

وهذا الأمر غريب وقد وجدت حوله روايات قليلة جدا ولكنها كانت صحيحة، ومن ذلك قصة موجودة ضمن مذكرات أحد المسيحيين القدامى ويدعى فرانثيسكو دى رينيوسوا، عينه فيليبى الثانى عام ١٥٩٧م أسقفًا لقرطبة، وقبل هذا التاريخ كان رئيسا للدير فى هوسيوس Husillos فى بالنثيا ، وكان مشهورًا بكرمه الشديد وقد ساعده على ذلك دخله الكبير، ويحكى مؤلف ذكرياته عن حياته أنه: "استقبل فى هذا المنزل حتى الكفار الذين جاءوا من شمال إفريقيا ورحب بهم وتمت ضيافتهم، وقد أرسل الملك كثيرًا منهم لتعليمهم العقيدة وتعميدهم، وآخرون جاءوا برغبتهم حيث جذبتهم هذه الشهرة، وكان يستقبل الجميع بسعادة كبيرة، وبعضهم بقى بعد تعميده فى هذا المكان يُجرى له الطعام وراتب صغير طيلة حياته"(٢٥).

وإذا كانت شهرة هذا الرجل قد وصلت إلى تلك الأماكن البعيدة فمن المفترض أن تكون قد شاعت بصورة أكثر فى إقليم أندلوثيا، ويبدو أن الحالة التى يرويها المؤرخ الغرناطى إنريكيث دى خوركيرا ليست الوحيدة حيث يقول : " فى ١٩ مارس عام ١٦٠٧م جاء إلى مدينة غرناطة كثير من المسلمين والمسلمات من شمال إفريقيا مع أبنائهم حيث نزلوا فى ميناء ألونيكار وقد أتوا ليعتنقوا المسيحية وبأمر من صاحب الجلالة أقاموا فى مدينة غرناطة، ثم دخلوا المسيحية وأعطاهم بدرو دى كاسترو أسقف

غرناطة ماء التعميد المقدس فى كنيسة ساكرو مونتى فى احتفال عظيم. لقد كان عدد المرتدين أكثر من أربعين ومعهم أبناؤهم ونساؤهم. وقد أمر الأسقف بإعطائهم ثياباً إسبانية وأن توزع أغطية للنساء كما أعطاهم بعض الأفراد ملابس وأشياء أخرى، كما تزوج المتزوجون مرة أخرى طبقًا للشعائر المسيحية "(٢٦).

وهؤلاء البربر الذين كانوا يعتنقون المسيحية كانوا يدعون "غزاة". وهذه الظاهرة يمكن مساواتها بظاهرة المسيحيين الذين دخلوا الإسلام وهم ما بين مغامرين ومطاردين من العدالة وأصحاب عقوبات وجنود هاربين من الحصون وغيرهم من العناصر الخارجة على القانون.

إن الدافع الدينى يجب صرف النظر عنه، فمن الصعب قبول الادعاء بمجىء أشخاص وأسر بكاملها تأتى من شمال إفريقيا من أجل أن يعتنقوا المسيحية؛ ولعلهم فى الحقيقة يأتون هاربين أو راغبين فى مستوى معيشة أفضل؛ لكن الشىء الغريب أن يتم قبول هؤلاء بكل سهولة فى الوقت الذى يحاول فيه أحد الموريسكيين من أبناء الوطن إقناعهم بصراحة إيمانه ولا ينجح فى ذلك.

إن البيانات حول الموريسكيين بعد الطرد تحتاج لغربلة ولروح نقدية قوية حتى لا يظن أحد أن عددهم الحقيقى كان كبيراً، سواء الذين استطاعوا البقاء أو العودة، وأنا أعتقد أن عددهم كان قليلاً جدا.

إن الإسلام فى إسبانيا قد انتهى خلال أعوام ١٦٠٩-١٦١٤م، وإن كان هذا لا يمنعنا أن نعترف أن بقاياه فى صورة أفراد أو مجموعات صغيرة كانت عنيدة ، ويدل على هذا الوجود النسبى ظهور أعضاء تلك البقايا فى محاكمات محاكم التفتيش، والتى هى بالطبع أقل من حالات اليهود المرتدين بكثير، هذا إلى جانب أنهم فى بعض الأحيان كانوا عبارة عن عبيد كان قد تم تعميدهم ثم وقعوا مرة أخرى فى ممارسة عقيدتهم وليسوا موريسكيين.

وقد عدد لنا هنرى ليا Lea بعض الحالات المتفرقة : ففى عام ١٦١٦م طلبت لجنة محاكم التفتيش فى دينيا من الرئاسة فى فالنسيا تعليمات بشأن عبيد موريسكيين

كانوا يخططون للهرب إلى شمال إفريقيا. أما فى بلد الوليد ففى الفترة من ١٦٢٢ إلى ١٦٦٢م تم الحكم على حالة مسلم واحدة فقط، أما فى طليطلة فقد كان العدد أكبر بقليل؛ ففى عام ١٦٦٧م جُلد موريسكى من ألمادين لأنه سخر من الأسرار المقدسة. أما فى الجلسة الكبرى لعام ١٦٨٠م والمنعقدة فى مدريد فقد تم حرق أحد سكان قادش حياً بسبب ارتداده وممارسته للقرصنة[٢٧]، وفى أرشيف محاكم تفتيش كوينكا لم تجد م.غارثيا.أرينال أى حالات، بعد عام ١٦١٠م(*).

وبمجيء فترة حكم فيليبى الرابع بدأت مرحلة من النسيان والاعتدال ضد رغبة أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم يرون موريسكيين فى كل مكان، ويطالبون بإجراءات قاسية ضدهم؛ فلقد فرض الجهاز الحاكم الجديد سياسة الواقعية وكان يعتبر أن قرار طرد جمهور كبير كان خاطئاً إلى حد ما؛ وكان يرى أن إجراءات الشدة والحزم ليس لها معنى ولا ضرورة ضد مجموعة من التعساء الذين لا يمكن أن يمثلوا أى خطر، وقد كان هذا هو الشعور العام فى المجالس البرلمانية حيث أعلنوا فى عام ١٦٢٣م: " ما إن يُظن عودة أحد الموريسكيين حتى يرتكب العديد من المضايقات، وأغرب من هذا ما يوضع كمبرر؛ ولأجل ذلك فإننا نرجو صاحب الجلالة أن يأمر أن لا يُرتكب هذا الأمر من الآن فصاعداً، وأن يتم إيقاف كل التحقيقات، وكذلك القضايا التى هى موضع دراسة الآن. كما لا يقبل شكاوى بشأن الموجودين فى هذه الأقاليم أو الذين يقال إنهم عادوا؛ ويستثنى من ذلك الذين يعيشون على مسافة من البحر تصل إلى ١٠ فراسخ"[٢٨] وعلى هامش هذا الطلب كتب الرد التالى: "ليس من المناسب أن يتم هذا بقانون ، وصاحب الجلالة أمر المجلس أن يكتب للحكام خطابات يطالبونهم فيها بالتساهل فى تلك الأمور "لكن البرلمان عاد وأصر وأجاب الملك مرة أخرى أنه من غير المناسب فعل هذا، وإنما المناسب هو أمر إدارات العدل أن لا تقبل إدانات جديدة وأن المشتبه فيهم الآن لا يحاكمون كموريسكيين وإنما كمتسولين[٢٩].

(*) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب: "محاكم التفتيش والموريسكيون"، ترجمة خالد عباس، مراجعة وتقديم جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١. (المراجع)

هذا الاستعداد الإيجابى من طرف الحكومة سمح ببقاء بقايا الجماعات التى كان اندماجها فى المجتمع قد وصل إلى مرحلة متقدمة، ولقد رأينا أنه بفضل وساطة أسقف توتورسا وتعاون آخرين تمكن كثير من الموريسكيين هناك من البقاء. وكذلك فإن عناد موريسكيى كامبو دى كالاترابا كان له نتيجته الإيجابية؛ وكانوا قد عادوا متحدِّين أكثر العقوبات قسوة؛ وآخرون رفعوا قضايا أمام العدالة محتجين بالامتيازات التى منحها لهم الملوك السابقون. وفى عام ١٦٢٥م قدم بيدرو دى حيبينس تقريراً باسمه واسم المسيحيين الجدد بمنطقة الكامبو يحتج فيه على الطرد ومصادرة أموالهم دون أن يستمعوا لهم أو أن يعطوهم فرصة للدفاع: "وفى النهاية يا صاحب الجلالة، فى خطاب وقرار صادر فى مدريد ٢٥ يونيو فى العام الماضى ١٦٢٥م (يجب أن تكون ١٦٢٤م) قد أمر بأن يحتفظ لأبناء هذه القرى الخمس بالامتيازات، حيث إنهم أحفاد أولئك الذين مُنحوا تلك الامتيازات ، ورغم أنه يجب تنفيذ ما تحتويه تلك الامتيازات، فإنهم لا ينفذونه، إلى جانب أنهم يشتمونهم ويسخرون منهم ويضايقونهم، ولا يقبلون شهادتهم حتى لا ينفعوا شهوداً، بالإضافة إلى استخدام شمول قرار الطرد على هؤلاء السكان من أجل الشك فى شرفهم" . وفى نهاية التقرير يطلب أن يسمح لهم بالاحتفاظ بتلك الامتيازات، وأن يقبلوهم فى الوظائف العامة "دون تفريق ولا إبعاد "، كما أنه يذكر أنه خلال ثورة غرناطة وحرب البرتغال قد خدموا فى الجيش مع الجنود "ويوجد بعضهم [الموريسيكيون] فى الميليشيات، ويوجد حالياً فيهم قواد فى فلانديس مثل دييغو وألونسو لوبيث سارمينتو، ويوجد منهم خمسون جنديا ، كذلك يوجد بينهم قساوسة ورجال قانون وراهبات".

قامت غرفة قشتالة بفحص سوابق تلك المجموعة ورأت " أنه نظراً لقلة السكان فى هذه الولايات فإن صاحب الجلالة يمكن أن يأمر بأن يحافظ على ذلك الامتياز للمسيحيين الجدد فى تلك القرى الخمس". ثم صدرت موافقة ملكية على ذلك ولم يتم إزعاج الموريسكيين فى تلك المنطقة(٣٠). وليس من الممكن تجاهل العلاقة التى توجد بين هذا القرار والسياسة التى كان ينفذها الكونت الدوق فى تلك السنوات؛ وكان لها

زاويتان: الأولى سكانية: (إنشاء مجلس السكان) والثانية ضد الطبقية (قانون المواد الثلاثة الإيجابية من أجل تخفيف الإجراءات القانونية ضد المسيحيين الجدد)، وعلى الرغم من أن عطفه قد توجه بصفة أساسية نحو الفريق القوى من اليهود المرتدين، فإن البقايا الإسلامية الهزيلة قد انتفعت من ذلك الجو الإيجابى. وقد صدر بيان فى مدريد فى عام ١٦٢٦م يقول: "صدر من المجلس الملكى فى الأيام الماضية قرار يأمر بأن لا يتجرأ أحد على الإساءة إلى الموريسكيين الذين بقوا، ولا يسبب لهم أى ضرر ما داموا يعيشون فى مناطق تبعد ٢٠ فرسخًا عن البحر"[٣١].

إن الفصل الأخير من هذا التاريخ المؤلم الطويل يعود بنا من جديد إلى غوطة مرسية: ريكوتى، وكما حدث فى كالاترابا فإن المطرودين قد عادوا مرة بعد أخرى إلى بلدهم الأصلى، وبفضل القرارات السابقة التى ذكرناها ظنوا أن الخطر قد انتهى. ولكن فى عام ١٦٣٤م، وخلال زيارة لجماعة سانتياغو الدينية وهى التى تمتلك الوادى؛ فإن الزائر وهو السيد خيرونيمو ميدينيا كتب تقريرًا مثيرًا للذعر، مؤكدًا أن تلك القرى مليئة بموريسكيين، وأن لديهم مراسلات مع موريسكيين آخرين كانوا قد بقوا فى مملكة فالنسيا وبخاصة فى مدينة ألثيرا، ولحسن الحظ فإن التقرير الذى أرسله الوالى وهو ماركيز لوس فيليث كان فيه رصانة وتعقل، حيث أوضح الفرق الجلى بين الموريسكيين الحقيقيين المرسيين الذين: "نظرًا لأنهم كانوا مسلمين فقد ذهبوا كلهم إلى شمال إفريقيا ولم يرجع منهم أحد " وبين موريسكيى وادى ريكوتى وهم من المدجنين الذين خرجوا من ديارهم وذهبوا إلى فرنسا وإيطاليا، ولم يذهب أحد منهم إلى شمال إفريقيا لأنهم كانوا معروفين بتمسكهم بالمسيحية وقد عانوا من طردهم من إسبانيا وآخرون توجهوا إلى كونت سالاثار وقدموا احتجاجات لأنهم ليسوا مدجنين ولكنهم مسيحيون قدامى، وإن كان آباؤهم وأجدادهم قد تزوجوا من موريسكيات فقد كانوا مسيحيين قدامى، وقد قُبل طلبهم وتم اعتبارهم مسيحيين قدامى وتم محو أسمائهم من قرار الطرد .

ويضيف قائلاً: "وقد بقى من هؤلاء الكثيرون وأُعيدت لهم أموالهم، ولكن كان كونت على ثقة بأنهم موريسكيون وأن الوثائق التى قدموها كانت مزيفة، وأن الشهود قد دُفعت لهم رشوة ".

ولما كان كونت سالاثار قد أنهى تنفيذ قرار الطرد، فقد عادوا إلى أماكنهم بعد زمن قليل، وإن كانوا دائما يتخفون، ثم أرسل ضدهم السيد خيرونيمو دى أبيانيدا وقبض على عدد منهم وحكم عليهم بالعمل فى التجديف ، أما الباقون فقد هربوا فى صورة "غائب بسبب الموت"، ولم يبق حينئذ هناك أحد منهم، ثم بعد ذلك بعامين أو بثلاثة أعوام عاد الهاربون وجاء السيد رودريغو دى كابريرا، عمدة مجلس غرناطة حيث قبض عليهم وعاقبهم بالجلد أو العمل بالتجديف، وما إن ذهب حتى عاد الهاربون... وعلى الرغم من أن السلطات كانت تتعقبهم وتطاردهم وتعاقبهم فلم تفلح طريقة لإبعادهم عن تلك الأرض، وقد عانوا كثيراً حتى عام ٢٦ حينما رغبت المملكة فى إصدار قرار يمنع معاقبة الموريسكيين الذين عادوا. وقد منحهم صاحب الجلالة ذلك.

ومنذ ذلك الوقت وهم يعيشون فى سلام فى أماكنهم، ولقد عاشوا دائمًا فى سلام ونظام دون أن يرتكبوا جرائم أو يضربوا مثلاً سيئًا، وقد ظهروا دائما بمظهر المسيحيين الملتزمين وكانوا يحترمون أوامر صاحب الجلالة وأوامر أبى وأوامرى أكثر من غيرهم فى تلك الأماكن. إنهم أناس متواضعون وشديدو الخوف؛ أما من ناحية اتصالهم بموريسكيين آخرين فى هذه المملكة وبخاصة مع سكان ألثيرا؛ فلا صحة له حيث إن الذين بقوا فى هذه المملكة قليلون؛ وربما الذى يمكن أن يسبب ذلك الشك هو أن عدداً كبيراً من الذين كانوا يعيشون فى هذه المملكة قد انتقلوا إلى أماكن أخرى، وبهذه الطريقة واصلوا المراسلات من مكان إلى آخر وربما من أجل الهروب من دفع ضرائب البضائع التى تمر من مكان إلى آخر، وهو أمر عادى جدا حيث يتراسلون من خلال طرق غير معتادة[٣٢].

وعلى ضوء هذا التقرير رأى مجلس الدولة أنه لا يوجد داع مطلقًا للانزعاج، ويكفى أن يُكتب لأسقف كارتاخينا من أجل أن يأمر القساوسة بأن يراقبوا الموريسكيين من ناحية الحياة الدينية. وأعطى الملك موافقته؛ ولم يُذكر بعد ذلك موريسكيو ريكوتى فى التاريخ.

كذلك يجب أن يكـون قد بقـي عدد لا بأس به فـي مملكة غرناطة ، بين مختفين أو مسيحيين قدامي؛ لأن المعايشة جعلتهم يكتسبون اللغة والعادات لدرجة أنه كان من الصعب التفريق بينهم. هذا إلى جانب أن أحفاد الأسر الكبيرة المسلمة، بعضهم واصل تمتعه بالامتيازات والمناصب العامة.

وحول الأخبار المتأخرة عن الموريسكيين فى غرناطة سنقوم بذكر بعضها ذى الأهمية الخاصة؛ فهناك استشارة لمجلس الدولة بتاريخ ٩ فبراير عام ١٦٢٤م تخبرنا أنه كان يوجد فى تلك المدينة عائلتان: عائلة كويّار وعائلة موريديس، وكلتاهما ذات وضع اقتصادى جيد، حيث كانتا تحتكران دخل الحرير، وقد كانتا تعتبران موريسيكيتين وربما بسبب المنافسة أو الحسد، تم اتهامهما لدى إدارة الجريمة فى المستشارية بأن لهم علاقات مع مسلمى شمال إفريقيا وأنهم يجهزون مؤامرة، وعندما فتشت منازلهم لم يجدوا شيئًا مشبوهًا إلا خريطة لمملكة غرناطة، ولقد أخبر العمدة بهذا مدريد واعتبر الاتهام دون دليل وأمر مجلس المالية بأن يعمل لصالحهم(٣٣).

وبين الوثائق التى تناولت التمرد الشعبى الحادث فى غرناطة فى يونيو عام ١٦٥٠م هناك اتهامات عديدة ضد الموريسكيين كمدبرين له؛ ويقال إنه كان لديهم ٨ آلاف رجل مجهز من داخل المدينة وخارجها من أجل الاستيلاء على المدينة ونهب منازل الأغنياء؛ وعندما تم اكتشاف المؤامرة صدرت أحكام ضد أربعة بالشنق، وحكم آخر بضرب العنق ضد شخص واحد (بلا شك أنه أحد النبلاء) إلى جانب الكثيرين من المدانين بالعديد من العقوبات.

وهناك رواية تعود لزمن وقوع الأحداث تقول: " إن المحركين كانوا موريسكيين، وأغلبهم من سكان حى البيازين وهو اليوم خال من السكان بسبب المسجونين والهاربين من سكانه بالإضافة إلى الدخلاء والأجانب" وبين المحركين يظهر اسم ألونسو فيرنانديث دى ماهاندون وهو صباغ موريسكى من البيازين "رجل غنى"(٣٤).

فى مثل هذا النوع من الروايات من الصعب فصل الحقيقة عن الزيف أن يكون هناك موريسكيون متورطين فى مثل هذا الأمر ، فهذا أمر ممكن، لكن تصرفهم ليس

سببه كونهم موريسكيين وإنما كونهم أعضاء فى طبقة اجتماعية غير راضية عن الأوضاع السيئة جدا، التى كانت تمر بها إسبانيا والتى تركت جميع القطاعات فى حالة هيجان بما فيهم أصحاب الامتيازات.

لكن السؤال الذى يجب أن نطرحه هو: ما نوع الموريسكيين الذين لا يزال يتحدث عنهم عام ١٦٥٠م ، بل وبعد ذلك؟ إن ذكر الموريسكيين فى تواريخ متأخرة يبدو كثيراً . ولنذكر بعضاً منها: فى "أوليبا" إحدى القرى فى فالنسيا ذات الأصل الموريسكى، وجد أنطونيو ميسترى تعبير "مسيحيين جدد" فى السجلات الكنسية عام ١٦٦٠م . إن هؤلاء عبارة عن الأشخاص الذين كانوا فى عمر الطفولة وقت حدوث الطرد وتم إعفاؤهم وسُلموا للمسيحيين، وقسيس "أوليبا" اعتقد أنه يجب عليه أن يحدد أصل هؤلاء عندما تزوجوا وكذلك أصل الذرية التى تركوها؛ ولكن فى الجيل الثانى أو الثالث فقدوا تلك الذكرى؛ وربما قساوسة آخرون لم يفعلوا مثل هذا القسيس وتركوا تحديد هذا الأمر[٣٥]. أما المؤرخ الفالنسى بوركار فقد ذكر حادثة زواج لمسلمين مطرودين فى كنيسة سان ميغان فى فالنسيا عام ١٦٢٣م[٣٦]، فهل هؤلاء من المطرودين الذين عادوا، أم أن أمرهم مثل موضوع "أوليبا" من الأطفال الذين بقوا ؟.

فى جلسات محاكم التفتيش فى القرن السابع عشر وحتى فى بدايات القرن الثامن عشر يظهر من حينٍ لآخر بعض المسلمين، ولكن من المستحيل أن يكون هؤلاء أحفاداً للموريسكيين، بل هم عبيد مسلمون عادوا لدينهم بعد تعميدهم. والحقيقة أنه بعد الطرد وجه رجال محاكم التفتيش اهتماماً قليلاً لتلك البقايا الإسلامية الباهتة، وتركز اهتمامهم فى اليهود، لأنهم لو طاردوا الموريسكيين فلن يستطيعوا الحصول على أى فائدة سواء عقيدية أو مادية؛ فلا يمكن أن ينتظر منهم تلك المصادرات الضخمة التى كانوا يحصلون عليها على حساب اليهود(*). ويؤكد عدم الاهتمام هذا والأمن النسبى الذى تمتع به المسلمون المتخفون، الرواية العجيبة لرحلة قام بها سفير مغربى

(*) لاحظ أن محكمة التفتيش كانت تعتمد فى دخلها على مصادرة ممتلكات المتهمين. (المراجع)

فى عامى ١٦٩٠ و ١٦٩١م من أجل المفاوضات حول تبادل أسرى إسبان من العرائش بأسرى مسلمين[٣٧]. على طول الطريق وجد المندوبون المغاربة، أو ربما اعتقدوا أنهم وجدوا مؤثرات لوجود بقايا للشعب الموريسكى؛ ففى لبريخا: "بعض السكان أكدوا لنا عن طريق علامات سرية معينة أنهم ينتسبون للأندلسيين، ويبدو مؤكدًا أن أغلب السكان ينحدرون من مسلمين على الرغم من مرور زمن طويل ومن أنهم قد رُبوا فى ظلمات الكفر". ويذكر الشىء نفسه عن سكان أوتيرا ويضيف أن ابنة حاكم المدينة وابنة العمدة ينحدران من سلالة ملوك غرناطة، تبعًا لما أخبره به فى مدريد رجل يُدعى ألونسو، وهو رجل مهم ويفتخر بانحداره من مسلمين، ويعجبه تبادل الحديث حول الإسلام والمسلمين. وبين سكان مارتشينا "هناك منْ يصل بأصله إلى السكان المسلمين". أما المقيمون فى أندوخار فمنهم منْ يؤكد انحداره من عائلة بنى سراج، الذين اضطهدهم مولاى حسن فهربوا إلى أرض المسيحيين واعتنقوا دينهم. ومنهم ينحدر الجانب الأكبر من سادة المدينة، وبينما يفتخر بعضهم بهذا النسب فإن آخرين يرفضون ذلك ويعلنون انتسابهم لسكان جبال نافارا. "إن أحفاد المسلمين الذين يحتلون مناصب عامة لا يرفضون ذلك النسب"؛ وما إن تنهى البعثة جولتها فى إقليم أندلوثيا حتى يتوقف ذكر بقايا أبناء دينهم المسلمين كما لو كان لا يوجد لهم أثر فى لامنشا. (يجب أن ننبه أن البعثة قد اختارت طريق برج خوان أباد؛ وربما لو أنهم عبروا الكامبو دى كالاترابا لزودونا بأخبار عجيبة). وفى مدريد يزودوننا بمعلومات ذات أهمية خاصة عندما يسجل أصداء النقد الذى كان يُتداول حول الطرد (وذلك فى ص١١٦).

إن تقييم هذه الحكايات صعب جدا؛ حيث تمتزج أخبار تبدو صادقة وأخرى مبالغ فيها أو مزيفة، ولكن هناك نتيجة نستطيع أن نؤكدها؛ وهى أنه فى أواخر القرن السابع عشر كان هناك عدد لا بأس به من العائلات الأندلوثية التى تذكر أصلها الإسلامى؛ دون أى مركب نقص، مع أنهم يمارسون المسيحية بصدق(*).

(*) بل استمرت الذكرى حتى القرن العشرين ، وقد ذكر صديق لى أن أحد أبناء غرناطة صارحه بأنه مسلم أبًا عن جد وأنه ينحدر من سلالة مسلمى غرناطة . (المراجع)

وليس من الغـريب أن الذكـر الأخيـر للمـوريسكيين الغـرناطيين يرتبط بمدينة غرناطية، حيث يواصل أحفادهم فى ممارستهم لصناعتهم التقليدية: الحرير، وقد ذكر كاتب فى القرن الثامن عشر أنه اشترى منزلاً كبيراً فى البوكرون ديل دارُو؛ وكانت محاكم التفتيش قد صادرته عام ١٧٢٧م من تجار حرير أغنياء ويدعون أرانداس "بقايا المسيحيين الجدد الذين عادوا لممارسة نحلتهم المزيفة". وإحدى المميزات لذلك المنزل هى وضع لوحة تحتوى على صورة لمريم العذراء عند السلم[٣٨] . هذا ليس بغريب إذ إن التشويتوس Chuetas من جزيرة مايوركا وهم أحفاد يهود مرتدين أيضاً تعودوا على وضع أى منظر مقدس فى مكان مثير للانتباه.

وإنه لشيء يدعو للأسى أن لا تكون لدينا الوثائق الكاملة حول جلسة محكمة التفتيش والتى يجب أن تكون قد عقدت فى غرناطة فى عام ١٧٢٩م، ونتيجة لذلك فقد وجهت بلدية غرناطة خطاباً للملك تطلب فيه طرد كل الموريسكيين الذين عُوقبوا من جانب محاكم التفتيش حتى تبقى تلك المملكة خالية من تلك الوصمة[٣٩].

لقد حدث للمنحدرين من الموريسكيين، مثلما حدث لليهود المرتدين، حيث كانت تنتقل وصمة العار إلى أبنائهم... من خلال ثياب المحكوم عليهم والتى كانت تعلق فى الكنائس لإحياء ذكرى هؤلاء عبرة للآخرين وبخاصة فى تلك الأماكن التى يكون لهذا الموضوع فيها حساسية خاصة. أما الأحداث المحزنة والمؤسفة التى يمكن أن تنتج عن ذلك ، فمن السهل تصورها ولو أنها قد تُركت مكتوبة فى أحوال استثنائية؛ فأحد كبار نحاتى مدرسة غرناطة [ويدعى توركاوتو رويث ديل بيرال (١٧٠٨-١٧٧٣م)] كان بطلاً لواحدة من تلك المآسى حيث كان له فى شبابه علاقة مع فتاة فقيرة جدا، وكان أحد أجدادها قد حُكم عليه فى القرن السادس عشر من قبل محكمة التفتيش، وعلى الرغم من مرور هذه الفترة الطويلة فإن نسبها الموصوم بالعار لا يزال مذكوراً ؛ مما أدى إلى أن تعارض عائلة النحات ذلك الزواج بكل الطرق؛ وفى عام ١٧٤٧م – وبعد أن أصبح له منها ٦ أبناء – تزوجها سراً ولكن ظلا يعيشان على انفراد حتى جاءه المرض الأخير[٤٠].

وفى هذه الفترة نسيت إسبانيا أنه كان يوجد موريسكيون فى العالم باستثناء تلك الأماكن التى ما زالت ذرياتهم تعيش فيها، ومعرفة عدد هذه البقايا يعتبر مهمة مستحيلة. وقد لخص براوديل رأيه حول هذه النقطة فكتب يقول: "لقد تم طرد كل الموريسكيين الذين يعيشون فى المدن تقريبًا وبنسبة أقل سكان المقاطعات الأميرية؛ وباستثناءات أكبر فى مقاطعات السادة والجبال والفلاحين المنعزلين"[٤١]. ويبدو لى أن الموريسكيين الذين يعيشون فى المدن الكبرى - وبخاصة فى مدن أندلوثيا - كان لديهم فرص أكبر لتجنب الطرد؛ وذلك بالتشتت والامتزاج مع فرق المنحرفين والغجر والذين يمكنهم أن يأخذوا أعدادًا لا بأس بها.

أما الموريسكيون فى المناطق الريفية فيبدو لى تبعًا لما ذكرناه سابقًا أنه يجب أن نفرق بين موريسكيين غير مندمجين وآخرين كان قد تم دمجهم تمامًا فى المجتمع؛ وهؤلاء حاولوا بكل الطرق أن يبقوا أو أن يعودوا، وفى كثير من الأحيان توج عنادهم وإصرارهم بالنجاح؛ وهذا لا يعنى أننا ننفى أن بعض السادة حاولوا إبقاء جزء من تابعيهم وقد نجح فى ذلك.

وفى مدن الجنوب الكبرى مثل إشبيلية وقادش ومالقة وكارتاخينا كانت المشكلة الموريسكية تُمزج بمشكلة المسلمين العبيد والمخصيين، وفى أحوال كثيرة كان من الصعب التفريق بينهم، ومن هنا يوجد الكثير من الأخطاء والغموض، مثل التى وقع فيها فيرناندث أى غونثاليث حيث اعتبر مجموعات المحمديين بقايا موريسكية فى إشبيلية ، وهم الذين دفعوا البلدية للشكوى والاستغاثة، وبما أن حقيقة هذه المشكلة تقع على هامش ما عالجناه فسنعالجها بسرعة[٤٢].

إن تجارة العبيد كانت ظاهرة شائعة فى إسبانيا الحديثة وإن كانت محدودة فى انتشارها فى بعض الأقاليم ولقد كانت كثافة العبيد كبيرة فى الجنوب فقط مثل فالنسيا وفى العاصمة. وكان العبيد ينتمون إلى سلالتين بالتساوى، بينهما فرق كبير سواء فى الشكل أو الثقافة أو التصرف: السود الأفارقة وهم مطيعون ويندمجون فى

الحال (ولم يرفض أحد منهم التعميد)(*)، والمحمديون وأغلبهم من شمال إفريقيا ومن جنسيات أخرى تابعة للإمبراطورية العثمانية، وكذلك فقد انتشرت ظاهرة العبودية بين المسلمين الإسبان بسبب الحروب والتمردات التى حدثت من حين لآخر، كما نعرف.

وفى عام ١٦٠٩م. كانت هناك بقايا لا بأس بها من الموريسكيين الغرناطيين الذين كان قد تم أسرهم قبل أربعين عاماً، وقد انضم إلى هؤلاء عدد غير معروف (من المؤكد أنه كان قليلاً) رغبوا فى العبودية من أجل تجنب الطرد؛ كما كان يوجد أولئك الذين حصلوا على حريتهم عن طريق العتق أو دفع الفداء. وكثير من العبيد كانوا يعيشون فى حالة قريبة من الحرية، فأسيادهم كانوا لا يهتمون بطعامهم ولا حراستهم، وكانوا يفرضون عليهم دفع مبلغ معين كل فترة محددة، يكتسبه أولئك عن طريق عملهم، ويحتفظون بباقى دخولهم، وهكذا يستطيعون أن يحصلوا على الحرية بدفع الفداء الذى يحدده سيدهم. وأولئك هم المسلمون المخصيون، وكان بينهم الكثيرون من أصحاب الفسق والدعارة ، كما كانوا يقومون بأعمال كثيرة فى إقليم أندلوثيا ويمثلون طبقة عاملة يرثى لحالها، حيث يسببون حالة من القلق ولا توجد حراسة دقيقة عليهم، وهذا ما جعل المجالس البرلمانية تحتج أكثر من مرة، ففى عام ١٦٢٦م كتب فرانسيسكو مالدونادو، وهو مسئول قانونى عن غرناطة يقول: " إن هناك كثيراً من العواقب السيئة التى نتجت عن السماح لعدد كبير من المسلمين والمسلمات، وبينهم من هو منصر، وكلهم مخصيون ويدفعون أجراً (لأسيادهم) ويقومون بالأعمال الدنيئة فى الدولة حيث يجهزون القمح والخمر والكراسى والأربطة، ويبيعون أشياء كثيرة، وهى أعمال ذات مجهود قليل ومكسب كبير؛ ولا يمارسون أعمال الحقل أو تربية الماشية، ويوجد نقص كبير فى الأيدى العاملة فى هذه المجالات؛ وهذا يسمح لهم بمكاسب كبيرة بحيث إنه خلال عامين يمكنهم أن يحصلوا على حريتهم، والتى تكلفهم ٢٠٠

(*) هذا يخالف ما ذهب إليه خوليو كارو باروخا الذى يؤكد أن العبيد كانوا على ولاء تام لعقيدتهم الإسلامية انظر "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢"، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣، (المراجع)

دوقية، وهم لا يدفعون كل المبلغ حتى يتجنبوا تطبيق القانون الذى يقضى بطردهم فى حالة حدوث ذلك". وقد أشار فى تقريره أن المشكلة خطيرة وبخاصة فى لوخا، وقد اتفقت المجالس على بحث هذا حتى لا يبقى مسلمون مخصيون فى المدينة(٤٣).

وعندما تم فى عام ١٦٢٨م – وكما هى العادة فى المملكة – تلخيص الشروط المطلوبة لمد الفترة الزمنية الخاصة بنوع معين من الضرائب، جاء ضمن التقرير رجاء أن لا يبقى فى أندلوثيا مسلمون مخصيون سواء كانوا منصرين(٤٤) أو غير منصرين، ولكن حول هذه النقطة لم يُتَّخذ أى قرار حتى الجلسة المنعقدة فى ٢٠ سبتمبر عام ١٧١٢م حينما صدر قرار بطردهم إلى شمال إفريقيا.

وفى" تقرير حول المسلمين العبيد والأحرار فى إشبيلية"(٤٥) والذى صدر عام ١٦٢٥م يشير إلى وجود "عدد كبير" من المسلمين والمسلمات ، الذين تعمقوا فى الداخل نظراً لأنه قد حُرمت عليهم الإقامة فى المناطق الساحلية؛ يتجمعون ويعيشون فى أفنية حيث يتاجرون بالمواد الأولية، وكانوا يتهمون بسرقة الأطفال الذين يفسدونهم ويعلمونهم عقيدة محمد وبين هذه الطبقة العاملة المتدينة إلى جانب الموريسكيين العبيد الذين يعيشون مخصيين، كان يوجد موريسكيون أحرار استطاعوا خداع أوامر الطرد متخفين بين الشعب المجهول فى المدن الكبرى.

أما الفصل الأخير للإسلام فى إسبانيا فذكره لنا هنرى ليا وهو بصدد اكتشاف مسجد غير قانونى فى كارتاخينا تبعًا لتقرير محكمة التفتيش عام ١٧٦٩م. ومن المؤكد أن الذين كانوا يترددون عليها كانوا من العبيد – وعددهم كبير – وليس فى الموريسكيين.

هوامش الفصل الثانى عشر

(١) Boronat, II, 709.

(٢) ونجد ما يلى فى مذكرات ابن عبد الرافعى، وهو موريسكى تم طرده وأقام فى تـونس: "إن ملك الكفار أمر أيضا بطرد الذين كانوا فى السجن حتى أولئك الذين كانوا فى انتظار تطبيـق عقوبة الحرق". ***Tunez**, 172*

وبالفعل فإن هذا الإجراء القاسى بالنسبة للجميع مثَّل بالنسبة للبعض فرصة الحـصول علـى الحرية والنجاة بكل ما تعنيه الكلمة فى أفضل صورها. وقد كان هذا القرار بالنسبة لمحكمـة قانونية جدا مثل محكمة التفتيش يمثل مشكلة صعبة الحل؛ ففى الكتاب رقم ٥٨٦ مـن قـسم محاكم التفتيش للأرشيف العام يوجد العديد من ردود المحكمة العليا على استشارات محـاكم المحافظات حول هذا الموضوع. ما الذى يجب فعله فى المساجين الموريسكيين؟ إن ملخـص الإجابة كان دائما أنه يجب قانونا ألاَّ نطلق حريتهم ولكن إذا رغبوا فى الذهاب فلا يمنعـوا من الخروج. ومن وجهة النظر المادية فإن هذا يعنى بالنسبة لمحاكم التفتيش ميزة حيث كانت ستتوقف عن إعالة هؤلاء السجناء الذين كانت قد صادرت أموالهم. ويوجد خطـاب غريـب للمحكمة العليا تنتقد فيه محكمة كوينكا لأنها "يوجد (لديها) الكثير من السجناء الفقراء الـذين يأكلون على حساب الأموال المصادرة، مع أننا قد أرسلنا العديد من الأوامر من أجل التخلص فيما بعد من السجناء الموريسكيين" (الكتاب المذكور وصفحة ٣٣٠) .

بعد ذلك بسنوات حدثت مشكلة أخرى طرحت نفسها: ما الذى يجب فعله مـع الموريـسكيين المقبوض عليهم أثناء مشاركتهم فى أعمال القرصنة؟ وقد شكت محاكم التفتـيش مـن عـدم تسليمهم إليها حتى تحاكمهم بوصفهم مرتدين، ولقد كان هذا عذرا سخيفا منذ أن تم طـردهم من إسبانيا.

(٣) كانت المذكرة تقول: "السيد فرانسيسكو هيريرا وابنه، وخوان كولاتو، ورودريغو مونتيرو، وفرانسيسكو باربيرو، من سكان أغيلار إى إنيسترياس، وهم كاثوليك متدينون ومتزوجون من مسيحيات قديمات كما هو واضح من أوراقهم، تم طردهم من إسبانيا بسبب أنهم أحفاد لمسلمين. ولما لم يسمح لهم بالتوجه إلى عاصمة ولم يحصلوا على عفو صاحب الجلالة الذى نتوسل إليه بكل تواضع أن يسمح لهم بالعودة؛ ليعيشوا مثلما كانوا يعيشون فى الماضى فى بلادهم مع نسائهم وأبنائهم الذين بقوا هناك". وكان رد صاحب الجلالة: "تأمر بالتغاضى عن الرد على هذا الموضوع لأنه من المناسب المضى قدما فى المشروع الذى قرر وذلك لكونه طاعة كبيرة لله". A.G.S.Estado, Roma, sept. 1611

(٤) إن معنى هذه الجملة لا يبدو واضحا بصورة كافية، ويبدو أنها تدل على أنه فى الأماكن التى كانت فيها المحليات مقسمة إلى أجزاء، كان من الصعب تحقيق عمل أكثر فعالية.

(٥) Gonzalez Munoz : ***la Poblacion de Talavera de la Reina***, 251 – 252.

(٦) Lapeyre, 257.

(٧) من الضرورى أن يوجد فى الأرشيفات العديد من الوثائق حول محاولات الموريسكيين من أجل البقاء من خلال دعاوى قانونية. وقد ذكر ليا حالة تدل على تعدد المواقف التى حدثت بالفعل، فمثلا إلليثينسيادو هيرادور، وكان قسيسا وينتمى لأسرة موريسكية من قرية كامبو دى كالاترابا، وكان ذا أصل نبيل، فقد كان أبوه نائبا فى مجلس البلدية وعمدة، ونظرا لأنه كان قسيسا كاثوليكيا فقد كان معفيا من تنفيذ قرار الطرد، أما أسرته فلم يتم إعفاؤها، وقد قام برفع دعوى قضائية بناء على امتياز ملكى كان يساوى بينه وبين المسيحيين القدامى، ولكن سيدة تدعى ليونورا مانريكى كانت تحتفظ بتلك الوثائق انتهزت كارثة عائلة هيرادور وذلك لتستولى على أمواله، وتابع هو الدعوى التى انتهت بتأييد طلبه وذلك فى عام ١٦٢٧م. ***The moriscos*** ...375

(٨) ***La poblacion palentina***..p. 27.

(٩) ويمدح السيد ماريس مؤرخ قرية تشيلبا نقاء دماء ساكنيها، حيث يذكر أن الموريسكى الوحيد الموجود لم يتم طرده وذلك بسبب سنه والأمراض التى يعانى منها وقد مات رجما بالحجارة من قبل صبية "مدفوعين بقلة الحياء التى تميز ذلك السن" .

La Fenix Troyana, p. 252, Valencia , 1681 .

فى بيئة معادية كهذه كان من الصعب على المطرودين أن ينجحوا فى الاختفاء والحيـــاة دون أن يلفتوا الأنظار.

(١٠) "أقوال شهود حصل عليها الدكتور بيدرو خوان هورتولا حول الموريسكيين الذين بقوا أثناء قرار الطرد الذى تم بشأنهم فى مدينة تورتوسا والقرية التابعة لهـــا ريبيـــرا دى هيبـــرو، والذين كانوا قد طردوا وعادوا". وقد نشر فى المرجع التالى:

Ignacio Bauer, ***Papeles de mi archivo , Relaciones y manuscritos.*** Madrid , s.a.

(١١) Angel Tapia : ***Historia de la Baja Alpujarra***, 214-215(Almeria, 1965).

(١٢) أقصد ثلاثة مراجع أساسية له هى:

Almeria en el siglo XVI, moriscos encomendados. ("Rev. de Archivos , Bibliotecas y Museos ", enero – junio 1975) , ***Esclavos moriscos en la Almeria del siglo XVI***("al-Andalus", vol. XL, 1975) y ***Posibles precedents de la encomienda en el Reino de Granada***("Simposio Hispanoamericano de Indigenismo " , Valladolid, 1976.)

(١٣) Guerra y Sociedad : ***Malaga y los ninos moriscos cautivos*** ("Estudis", vol. III, ano 1974). Toco tambien este aspecto Jose M. Rabasco en ***Dos aspectos de la esclavitud morisca***, 1569 ("Homenaje a Regla, I, 293-302).

(١٤) إن قائمة المراجع حول ثيربانتيس والموريسكيين بصفة عامة وحول حادثة ريكوتى بـــصفة خاصة تكون غزيرة جدا، ويمكن أن ترى مختصرة ومحققة فى كتاب ف . ماركيث.

(١٥) ***Aspects de la societe marchande de Seville au debut du XVII siecle***, pagina 100 (Paris, 1967).

(١٦) Coronica, p. 1.021.

(١٧) Janer, apendice 141.

(١٨) Regla, obra citada, 133.

إن هذا المؤلف يعتقد أن التعامل المتميز الذى عومل به موريسكيو منطقة باخو إيبرو كان بسبب أن الملك كارلوس الخامس قد أمر بإنشاء مؤسسات "كوليخو ريـــال دى ســـانتياغو

وسان ماتياس"، وذلك لتعليم الموريسكيين بتورتوسا العقيدة المسيحية، وقد تم إنشاء هذه المدرسة فى عهد الملك فيليبى الثانى. كذلك كانت توجد مؤسسات مشابهة فى كل من فالنسيا وغرناطة.

(١٩) Regla , obra citada .

الكاتب نفسه يعرض ص ٧٥ ملخص استشارة حدثت فى مايو عام ١٦١٣م من قبل حاكم مينوركا تتعلق بسبب بوصول سفينة فرنسية، حيث أخبره صاحبها أنه يوجد فى الجزائر ٤٠٠ موريسكى من الأثرياء، قد اتفقوا على الهرب من هناك بقيادة لويس دى توليدو، على أن يحملوا معهم عائلاتهم وأموالهم وأربعين أو خمسين أسيرا مسيحيا. وقد سئل الفرنسى الحاكم حول إمكانية وجود مساعدة لتنفيذ هذا الأمر، ولكن الملك اقتصر على أن أمره أنهم إذا وصلوا فليقبل الأسرى المسيحيين، أما الموريسكيون فليتركهم يذهبوا حيث يريدون، بشرط ألا يذهبوا إلى إسبانيا".

(٢٠) Tomas Gonzalez : ***Registro de las minas de Castilla***, I, 78.

(٢١) Matilla Tascon : ***Historia de las minas de Almaden*** (Madrid, 1958) I, 95 -97.

(٢٢) A.G.S.CJH. 493 y 511.

(٢٣) Id. Id. 520 . Un resumen del informe del Visitador Juan de Pedrosa en Larruga, ***Memorias***...XVII, 115 -117.

(٢٤) " Revista de Espana " , XIX y XX(1871)

(٢٥) Fray Gregorio de Alfaro: ***Vida ejemplar de don Francisco de Reinoso, abad de Husillos y Obispo de Cordoba***, capitulo XXVII(pub. Por J. Entrambasaguas, en Valladolid, 1940).

(٢٦) *Anales*...II, 552.

فى مجلس الأساقفة الكنسى لعام ١٥٨٣م حذر أسقف باداخوث السيد دييغو غوميث من مدريد من المسلمين الذين يأتون من البربر ليتنصروا "هكذا يقولون" ثم يتسولوا، ويطلق عليهم وعلى أبنائهم "غاثيس" .

Pero Perez : ***Catequesis de los moriscos extremenos***. "Revista del Centro de Estudios Extremenos".X (1936)pp. 31 -46).

(٢٧) Obra citada, 375 y siguientes.

(٢٨) Actas de las cortes, XL, 406.

(٢٩) Id. Id. XLII, 194 y XLIII, 299.

(٣٠) A. Dominguez Ortiz : ***Felipe y los moriscos*** (M.E.A.H. Ano VIII, no 8).

(٣١) كان هذا إقرار نتيجة للعديد من الطلبات السابقة فى البرلمانات.

(٣٢) A.G.S. Estado , Espana 2.653.

(٣٣) B.N.ms. 18.196. Extractos de consultas de Estado hechas por Llaguno Amirola.

(٣٤) Id.id folios 169 – 171 . Vease mi libro ***Alteraciones Andaluzas***, p. 68 (Madrid, Narcea, 1973).

(٣٥) Estudio de la demografia de Oliva. " Estudis", I, 183 – 184 .

العدد الإجمالى الذى سجل هو ٣٢ حالة زواج على مدى نصف قرن، "إنه رقم ضئيل يدل على أن الموريسكيين قد تركوا عددا قليلا من الأطفال عند رحيلهم من إسبانيا".

(٣٦) ***Coses evengudes en la ciutat y regne de Valencia***, II, 127 (Valencia, 1934).

(٣٧) H. Sauvaire : ***Voyage en Espagne de un ambassdeur marocain*** (1690 – 1691) traduit de l arabe par (Paris, 1884).

(٣٨) Juan F. Perez de Herrasti : ***Hiostoria de la Casa de Herrasti***, p. 284 (Granada, 1750).

لقد كانت تلك السنوات فترة نشاط كبير من قبل محاكم التفتيش، وقد تضرر بصورة أكبر المتهودون، كذلك كان يوجد ضحايا من أتباع العقيدة المحمدية. ويذكر ليا أنه فى إحدى الجلسات التى عقدت فى مايو عام ١٧٢٨م فى غرناطة، تم التصالح مع ٤٥، وفى جلسة أكتوبر التالى تم التصالح مع ٢٨. "لقد كانوا بالضرورة من الأثرياء لأن المصادرات كانت مربحة جدا لدرجة أن تمت مكافأة الواشى بمعاش قدره مائة دوقية".

The moriscos ...III, 406

(٣٩) تبعا لوثيقة من الأرشيف المحلى أخبرنى بها السيد غارثون باريخا.

(٤٠) A. Gallego Burin : ***Torcuato Ruiz del Peral*** (boletin de la Universidad de Granada, Julio de 1936).

(٤١) La Mediterranee....2 ed. II, 130.

(٤٢) يمكن أن يستكمل هذا من خلال كتابى:

La esclavitud en Castilla durante la Edad Moderna (Madrid, 1952).

(٤٣) Actas de las Cortes , XLV, 222.

(٤٤) Id. Id. Tomo XLVIL.

(٤٥) B.N. ms. 18.735.

ذكر هذه المخطوطة خوان باروزى فى

Problemes de histoire des Religions, p. 126, nota

وقبل ذلك لخصه السيد فيرنانديث إى غونثاليث، وإن كان قد غير معناه، وذلك فى

Moriscos que quedaron en Espana despues de la expulsion. " Revista de Espana "1871.

الملاحق

الملحق الأول :

أرشيف بروتوكلات غرناطة ١ - ٣ ، ٣

الكاتب الشرعي كريستوبال ديل باريّو

شهادة أمام كاتب محلف بشأن مسيحي قديم قد أجريت له عملية الختان بسبب مرضه:

أرشيف بروتو كولات غرناطة ١-٣ ,٣

الكاتب المحلف كريستوبال ديل باريّو

فى المدينة العظيمة غرناطة، وفى الرابع والعشرين من نوفمبر من عام ألف وخمسمائة وخمسة وأربعين من ميلاد مخلصنا المسيح، وفى حضورى أنا كاتب هذه الوثيقة والشهود؛ حضر السيد ألونسو باثكيت دى إكوينا، وهو من سكان هذه المدينة وابن رجل القانون بيدرو دى موراليس، والذى صعد إلى الأمجاد السماوية، وكان من سكان هذه المدينة، من أجل إعطائه شهادة على أنه كان مريضًا فى فراشه بسبب مرض فى ذكره. ونظرًا إلى حاجته للشفاء وحتى لا ينتشر المرض فى كل جسده، وفى ذلك اليوم نفسه، أشهد أنا أنه قد حضر الجراح المذكور ألونسو باثكيث مارتينيث، وهو من سكان هذه المدينة، حيث قام بالمطلوب منذ ثمانية أيام وأنا أشهد أننى رأيته يقوم بالجراحة الأولى حيث إنه فى المرة الأولى فتح فى المكان المناسب من أجل إزالة قطعة الجلد التى فيها السرطان من الذكر حيث أدخل الإسفين فيها ثم قطع بالمدية ثم نظف الدم وكوى الجرح. وقد قام بالتردد عليه لمدة ثمانية أيام ولقد رأيته خلالها وذلك فى حضورى وحضور الشهود وهم بدر دى بيلتشيس وبرنال دابيا وهما من سكان هذه المدينة.

الملحق الثانى :

الموضوع : لوائح تتعلق بالموريسكيين صادرة عن مجلس الأساقفة الخاص بمملكة غرناطة ١٥٦٥ م

(خوان تيخادو راميرو : "مجموعة قوانين ومجالس الأساقفة الإسبانية" ، الجزء الخامس مدريد عام ١٨٥٥ ص ٣٨٩ - ٣٩٢) .

إن القوانين التى يرجى منها الخير والتى فى مجملها تتعلق بالمسيحيين الجدد أو المتحولين حديثًا من الملة المحمدية هى ما يلى :

أولاً :

نأمر كل القساوسة وذوى المعاشات الكنسية الذين يقومون برعاية المسيحيين الجدد بألا يحصلوا على أكثر من حقوقهم ولا يطلبون ولا يقبلوا خرافًا أو دجاجًا ولا قطعًا من لحوم الأبقار أو لسانها أو أى شىء آخر مهما كان نوعه ربما يعطى لهم ليأكلوه أو تحت أى مسمى آخر ، وسوف يعاقبون بدفع ضعف ما أخذوا أو أكثر من ذلك تبعًا لم يراه القضاة الكنسيون أو المفتشون أو الذين نكلفهم بمعاقبة هذا السلوك بكل قسوة وأن يتابعوا ذلك وبخاصة أثناء الزيارات . يستثنى من ذلك الولائم إذا وجهت لهم الدعوات الخاصة بذلك ليشرفوها ويأكلوها معهم .

ثانيًا :

نأمرهم بألا يقدموا أى خدمة كنسية للمسيحيين الجدد إلا إذا كانوا يلبسون ثيابًا على الطريقة القشتالية .

ثالثاً :

نأمرهم بأنه في حالة الأشخاص الراغبين فى الزواج إذا كانوا قد اتفقوا على أن يتم ذلك فى المستقبل سواء هم أو آباؤهم أو أشخاص آخرون ، أو أرسلوا حلياً أو ثياباً لهم نأمرهم بألا يسمحوا لهم بالمعاشرة الزوجية قبل أن يتم عقد زواج حقيقى على يد القسيس نفسه وأن يعظهم وتكون عقوبة من يفعل ذلك هو حرمانه كنسيًّا وأن يدفع "مارك" من الفضة وسيتم معاقبتهم كما لو كانوا يمارسون الرذيلة على الملأ . وأن يحذر القساوسة الذين يعملون فى أوساط المسيحيين الجدد ذلك كثيراً حيث نأمرهم إنه حتى لو اتفق أباؤهم فإنه لا يسمح لهم بأن يرسلوا الحلى أو يذهب أحدهم ليعيش فى منزل الآخر لأن ذلك يشبه شعائر المسلمين وسوف يعاقبون على ذلك .

رابعاً :

نأمر المسيحيين الجدد بأنه تبعًا لما أمر به صاحب الجلالة فى البند الخامس من محضر اجتماع الأساقفة الذى عقد فى هذه المدينة فإنه يجب ، ابتداء من الآن ، أن يكون الموثق الذى يكتب شهادات عقود الزواج من المسيحيين القدامى أو القسيس نفسه أو من يحل محله . حيث يكون لدى هذا الموثق سجلاً يسجل فيه البيانات الخاصة بتاريخ اليوم والشهر والعام وكذلك نوع المهر وقيمته وأسماء المتزوجين وأسماء آبائهم ويتم ذلك أمام شاهدين أو ثلاثة شهود . هؤلاء الشهود يجب أن يكونوا من المسيحيين القدامى ، وذلك إذا كان ممكنًا . وإذا تم هذا الأمر بطريقة غير المنصوص عليها فإنهم سيعاقبون على أنهم أشخاص يتبعون شعائر ملة المسلمين .

خامساً :

نأمر القساوسة بألا يزوجوا المسيحيين الجدد إلا إذا كانوا يعرفون الصلوات الأربعة والوصايا العشر الخاصة بالملة والوصايا الخمس الخاصة بالكنيسة ، وما يجب

أن يقال عند دخول الكنيسة وعند عبادة السر المقدس . ويجب على القسيس أن يختبر النساء اللاتى يرغبن فى الزواج فى الكنيسة وفى المكان الذى يؤدى فيه اعتراف النساء وليس فى مكان آخر . ويعاقب من لا يفعل ذلك بدفع دوقية وتترك ضبط هذه الأمور لضمائرهم . وعلى الذكور أن يحضروا للصلاة أمام القضاة الكنسيين أو الزائرين أو النواب الكنسيين ، وأن يحملوا شهادة تبين أنهم يعرفون العقيدة . ويجب على هؤلاء ألا يقبلوا من المسيحيين الجدد أى أموال أو دجاج أو أى شىء آخر سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وعقوبة ذلك دفع أربعة أمثال ما أخذوا . وكذلك يجب على القساوسة ألا يزوجوا مسيحياً قديماً ما لم يكونوا مطمئنين إلى أنه يعرف تلك العقيدة .

سادساً :

نأمر النواب الكنسيين والقساوسة ومن يحل محلهم فى مطرانيتنا ومقاطعتنا بألا يفرضوا ضرائب جديدة على مريديهم التابعين لهم وبخاصة المسيحيين الجدد الذين يعطونهم هبات أو خبزاً أو خمراً أو زيتاً أو طيوراً أو أى شىء من الصيد أو أى شىء آخر من الأطعمة ، وألا يجعلوهم يعملون لهم فى أيام الإجازات أو أيام أخرى فى مصالحهم الخاصة أو أموالهم ، أو يحضرون لهم أخشاباً أو أى شىء آخر لهم إلا إذا دفعوا لهم الأجر العادل . وعقوبة ذلك أن يدفعوا ضعف المبلغ المستحق حيث يكون النصف لمن استحق المبلغ فى البداية ، والنصف الآخر لمن بلَّغ عن المخالفة وللأعمال الخيرية . وإذا استمر الشخص فى ارتكاب المخالفة السابقة فسوف يعاقب تبعًا لما يراه القضاة الكنسيون . ويجب ألا يعاملوهم معاملة سيئة ، سواء بالكلام أو بالعمل ، مثل أن يقولوا لهم "المسلمين الكلاب" أو أى شتائم أخرى ويجب أن ينصحوهم برفق وبطريقة لا تفضحهم . وسوف يقوم القضاة الزائرون بمعاقبتهم حتى ولو لم يتم شكايتهم من قبل المجنى عليهم .

سابعًا :

نأمر بأن يكون المسئول الكنسى أو الكاتب القضائى الذى يكون عضواً فى المحكمة الكنسية ممن يجيدون اللغة العربية وذلك لكى يكون قادراً على معالجة موضوعات المسلمين الجدد وأن يكون من المسيحيين القدامى وذلك إذا كان ممكنًا وليس من المسيحيين الجدد ، وأن يكون ذا سمعة طيبة، وسوف يتم منحه حقوقه تبعًا لما يقرره الجدول للمرتبة التى ينتمى إليها .

ثامنًا :

يجب على المفتشين أو النواب الكنسيين ألا يعطوا تصريحًا بالزواج للمسيحيين الجدد الذين لا يعرفون العقيدة مقابل أن يتركوا لهم بعض الثياب أو المال ، حتى إن كان هناك سبب لذلك ، وعقوبة ذلك أن يدفعوا دوقيتين فى كل مرة يخالفون فيه المنصوص عليه ، وسوف يطبق المفتشون العقوبة نفسها على النواب الكنسيين الذين يثبت عليهم هذه المخالفة نفسهم.

عندما يتم اتهام أحد بالحرمان الكنسى بسبب اللعنة وغيرها فإننا نأمر قسيس الأبرشية أن يتوجه إليه فى نفس يوم الاتهام وأن يحذره ويعظه بأن يترك البلدة أو ألا يخرج من داره أو يتصل بأحد . وإذا مر يوم ولم ينفذ ما أمر به فيتم إخبار القسيس أو رجال القضاء المدنى عن ذلك . ونأمر رجال القضاء بذلك بما نعرفه عنهم من حبهم خدمة ربنا أن ينفذوا ذلك . وإذا كان لديهم حرص شديد ورغبة فى التخلص من القانورات الجسدية فيجب أن يكون لديهم حرص أكبر فى التخلص من الآثام الروحية لأنها أكثر عدوى وضرراً .

وإذا ذهب المسيحيون الجدد المحرومون كنسيًّا للصلاة فى كنائس أخرى وأحضروا شهادات تدل على أنهم فعلوا ذلك فى ذلك الوقت فلا تقبل منهم تلك الشهادات ويحسب عليهم عشر مخالفات مقابل كل شهادة يقدمونها ، وأن يتم الإبلاغ عنهم أمام القضاة الكنسيين ومعاقبتهم على ذلك .

إن الأوامر أو الخطابات التى قد توجه للمسيحيين الجدد يجب ألا تحتوى على انتقادات كلما كان ذلك ممكنًا ، وفى حالة حدوث ذلك فليتم إبدال عقوبات أخرى بالانتقادات.

تاسعًا :

نأمر جميع أصحاب المعاشات الكنسية والقساوسة لهذه المقاطعة ألا يدفنوا فى تابوت أى شخص دون تصريح مكتوب من المطران ، وعقوبة عدم تنفيذ ذلك دفع دوقية واحدة .

وعلى الرغم من أنه من المعتاد بين المؤمنين المسيحيين أن يدفنوا موتاهم فى الأديرة المباركة ، ونظرًا لأن المسيحيين الجدد يريدون أن يفعلوا ذلك بما يتفق مع طقوسهم ، فإننا نأمر بأنه من الآن فى هذه المقاطعة سواء المسيحيون القدامى وكذلك الجدد يجب أن يدفنوا داخل الكنائس ، وفى حالة عدم وجود أماكنها ، يمكن أن يدفنوا فى الأديرة بحيث تكون مباركة ولها أسوار ومغلقة وبها صليب فى الوسط .

عاشرا :

يعطى للمسيحيين الجدد القربان المقدس فى حالة موافقة قساوسة الاعتراف على ذلك ، ويحظر على القساوسة أن يعطوهم القربان دون ذلك التصريح ، وعقوبة ذلك دفع دوقية واحدة حتى لو أحضروا شهادات تدل على قيامهم بالاعتراف ، وذلك إذا لم يذكر فيها أنه يمكنهم تناول القربان المقدس ، ويكون عليها توقيع قسيس اعتراف معروف وموافق عليه من قبل الأسقف . ونطلب من قساوسة الاعتراف التحقق والتمحيص فى إعطاء تلك الشهادة ، وألا يمنحوها إلا لتائب معروف ، يكونون راضين عن اعترافه وعن دينه وممارسته لشعائره وحياته ومعاملته لأسرته والأمور الأخرى التى يرونها.

حادى عشر :

يمنع أى مسيحى جديد من أن يطلق على أبنائه أسماءً أو ألقاباً إسلامية ، سواء كان ذلك أثناء التعميد أو بعد ذلك ، وإنما يجب أن يطلق عليهم أسماء القديسين الذين توقرهم وتبجلهم الكنيسة ، وأن يدعوا هكذا فى بيوتهم وخارجها، وذلك طبقًا لما أمر به صاحب الجلالة فى الاجتماع الذى عقده فى الكنيسة الملكية مع الأساقفة فى السابع من نوفمبر عام ١٥٢٦ ، والعقوبة فى المرة الأولى أن يدفع آباؤهم - وهم إذا كانوا بالغين ، إذا نودوا بذلك أو قبلوا أن ينادوا بذلك - مقدار ٥٠٠ مرابطى مُخصصة للأعمال الخيرية . وفى المرة الثانية يضاف إليها السجن لمدة عشرة أيام . وفى المرة الثالثة يعاقبون كمشكوك فى إيمانهم . أما الذين يحملون الآن هذه الأسماء أو الألقاب فعليهم أن يغيروها وإلا طبقت عليهم هذه العقوبة .

ثانى عشر :

نأمر المسيحيين الجدد بأنه يجب عليهم أن يغطوا أبناءهم على أفضل وجه وذلك عندما يحضرونهم للتعميد، وإذا لم يفعلو ذلك فإن على القسيسيين أن يأمروهم بالعودة إلى منازلهم وتغطيتهم بصورة أفضل ، وإذا أبدوا تمرداً ولم يطيعوا الأوامر فيجب الإبلاغ عنهم لمعاقبتهم، وكذلك لا يضعوا ضمادات كما اعتادوا وإنما يجب أن ينزعوا كل ذلك قبل التعميد .

لا يسمح لأى جراح أو طبيب أن يعطى تصريحًا للمسيحيين الجدد ، سواء ببيانات أو دون بيانات ، لإزالة غرلة الذكر للأطفال حديثى الولادة ولا الكبار ، ولا يقوم بإزالتها هو دون إذن خاص من الأسقف ، ويعاقب من يفعل ذلك باعتباره مشكوكا فى إيمانه ، وسيتم اتخاذ الإجراءات القضائية ضد الشخص وضد الطبيب . وإذا أبدى أحدهم تمرداً أو عصياناً فى تنفيذ ذلك فإننا نأمر القضاة الكنسيين بطلب مساعدة من الجانب المدنى طبقًا لما جاء فى الفصل الثالث من محضر اجتماع صاحب الجلالة فى الكنسية الملكية المنعقد فى ٧ نوفمبر عام ١٥٢٦ .

إننا نأمر النساء المسيحيات الجديدات بأنه إذا كان فى كنيستهن أو مكان إقامتهن مسيحية قديمة تعمل قابلة ألا يلدوا لدى قابلة من المسيحيات الجدد أو من جيلها إذا كان ذلك ممكنًا . وعلى القسيس أن يزور الأطفال المولودين بعد يومين من ولادتهم وأن يفحص الأماكن التى يتم فيها الختان حتى يستطيع أن يفرق بين الاختتان باليد والاختتان الطبيعى كما تعودوا هم أن يقولوا ، ويدافعون عن ذلك بأنهم قد ولدوا هكذا . وإذا وجدت أى إشارة تدل على أن هذا قد تم باليد فعليه أن يحضر شهوداً بذلك وأن يخبر الأسقف أو القاضى الكنسى ، وذلك خلال الأيام الستة التالية ، وسوف يتم تغريمه بدفع دوقيتين فى كل مرة يثبت فيها إهماله . وأن على القسيس والقابلة أن يبلغوا عن حدوث الولادة وعقوبة ذلك أن يدفعوا ٢٠٠ مرابطى . وعلى أولئك القساوسة أن يسجلوا فى كتاب التعميد تفاصيل زيارة الطفل وإن كان قد ولد دون ختان طبيعى .

ولما كان من المعتاد أن يقيم بعض المسيحيين الجدد ، ابتداء من اليوم الأول حتى الثامن من الميلاد ، احتفالاً يسمونه "كوكا" حيث يرسمون للطفلات حديثات الولادة نقاطًا ما فى الجبهة ، أما الأطفال فيحلقون بشفرة جزءًا من سوالفهم ، ويبدو أن هذا يمثل طقوساً بديلة للختان تبعًا لشريعة محمد، كذلك فقد اعتادوا أن يضعوا للأمهات الوالدات لهم إشارات معينة ، ويدعون الآخرين ويقيمون الولائم والاحتفالات ...، فإننا نأمر القساوسة بأن يقوموا خلال تلك الأيام بمراقبة ذلك الطفل أو تلك الطفلة وكذلك الأم ، وينظر هل قاموا بعمل شىء من تلك الطقوس الكريهة، وأن تقدم شكوى ضدهم للأسقف أو القضاة الكنسيين وذلك ليتخذوا الإجراء المناسب ويتم منعهم من القيام بأعمال الشعوذة .

كذلك يؤمر القساوسة بأن يعظو الشعب كثيراً وبخاصة فى المناسبات التى تحددها هذه اللائحة والتى يؤمر فيها بأنه فى الأماكن التى يوجد فيها مسيحيون جدد يجب أن يشرح لهم الموضوعات الخاصة بالطبيعة اللاهوتية للمسيح وسر عملية الفداء وسر الكهنوت والاعتراف الشفوى وسر التثليث المقدس لأن إيمان هؤلاء الناس بهذه العقائد أو الأسس ضعيف ، وكذلك ننصح بأن يتم ذلك باللغة العربية إذا كان ذلك ممكنًا .

يجب على القساوسة أن يزوروا المسيحيين الجدد التابعين لكنائسهم المشرفين على الموت مرتين أو ثلاثًا، وأن يعظوهم بالاعتراف إذا لم يكونوا قد فعلوه ، وأن يحذروا أنه عند حدوث الوفاة والقيام بعملية التكفين أن يكون موجوداً خادم الكنيسة أو أحد المسيحيين القدامى حتى لا يتم ذلك تبعًا للشعائر التى اعتاد عليها المسلمون ، ويعاقب القسيس بدفع ستة ريالات فى كل مرة يهمل فيها متابعة ذلك .

ويجب حضور مجلس كتابة الوصية للمسيحيين الجدد وأن تكتب الوصية على الطريقة نفسها الموجودة فى "باب الوصايا" .

يجب التحرى عن عقيدة أسر المسيحيين الجدد وذلك بزيارتها والتظاهر بالرغبة فى تسجيلها فى السجل المدنى . وذلك لدى تلك العائلات وأثناء قيامهم بطقوسهم . وسوف يعتبر مسيحيا جديداً كل من تحول إلى المسيحية قبل الاستيلاء على غرناطة ، وكذلك أبناؤهم الذين يقولون إنهم مسيحيون قدامى ، وذلك إذا لبسوا ثياب المسيحيين الجدد أو تحدثوا لغتهم أو قلدوا عاداتهم ، وكذلك المسيحيين القدامى إذا لبسوا ثياب المسيحيين الجدد أو كانوا متزوجين منهم أو حملوا ذلك الزى وذلك للشك بأنهم بذلك يتبعون دينهم ويشك فى مسيحيتهم .

يجب عدم إعطاء أى إذن من أى لون تحت أى مسمى يسمح للمسيحيين الجدد بعدم حضور صلاة الآحاد أو الأعياد ، حتى لو كان عذر ذلك القيام بأعمال خيرة وعقوبة ذلك دفع أربعة ريالات . ولكن يمكن أن يتظاهر هؤلاء بوجود سبب مقنع لذلك لكى يسمح لهم بذلك ولندعهم لضمائرهم . وفى حالة عدم التظاهر بذلك فإن عقوبتهم تكون ريالين .

يجب عدم السماح فى هذه المدينة أو فى الأماكن الأخرى للفقراء الذين يمارسون الشحاذة بين المسيحيين الجدد ، سواء أكان ذلك للقديس لاثاروا أم لأنفسهم ، أن يلعنوا أعداءهم أو الذين شهدوا ضدهم أو سرقوهم أو أضروهم مقابل ما يعطونهم .

يجب عدم السماح لأى مسيحى قديم عمره أقل من عشرين عامًا بأن يقبل معاشًا من مسيحى جديد أو أن يسكن معه ، كما يجب ألا يسمح له بشراء أسير مسلم لنفسه أو حتى لإنقاذه، حتى وإن تحول للمسيحية، وألا يبقى معه حتى لو كان مسيحيا، وإنما يفعل ذلك مع مسيحى قديم . والقسيس الذى يهمل فى ذلك يدفع دوقية واحدة ويجب أن يتم فعل ذلك مع العبيد السود .

وإذا حكم على المسيحيين الجدد بالحرمان الكنسى ففى كنيستهم الأصلية ، ويذهبون إلى صلاة فى أخرى وأحضروا شهادات بذلك لقساوستهم أو من فى مقامهم بأنهم قد حضروا الصلاة فى تلك الكنيسة فإن ذلك لا يقبل منهم وإنما يجب احتساب كل شهادة بعشرة أخطاء وأن يتم شكايتهم للقضاة أو النواب الكنسيين لكى تتم معاقبتهم تبعًا لجريمتهم .

الأوامر أو الخطابات التى توجه إلى المسيحيين الجدد يجب ألا تحتوى على أى انتقادات ، وفى حالة حدوث ذلك فتستبدل بها عقوبات .

الملحق الثالث :
السكان الموريسكيون فى غرناطة تبعًا لإحصاء عام ١٥٦٨م

موررتاس وداتيار التابعة لها	Murtas y Detiar su anego	٧٢
كوخايا	Cogaya	٤٥
خوياراتا	Joyarata	٦٠
تشانيس	Chanes	١١٠
بييرس ونصف بويارايا	Bieres y mitad de Boyaraya	
ألموثيتا	Almocita	
بادوليس ومعها مولينيبا وأوتورا	Padules con Mulineba y Autura	١٥٠
كانخايار	Canjayar	١٥٠
دالياس	Dalias	٦٠٠
إمبروز	Ambroz	
الميزان	El mizan	
بيرخا	Berja	٩٧٥
ألكوليا	Alcolea	٩٠
باير كال وانيثيا	Bayarcal y Iniza	١٤٢
باتيرنا ونصف "غواروس"	Paterna + mitad de Guarros	٣٠٠
فوندون وبنى سيد وابن زوويتى	Fondon + Benecid y Abenzuete	٢٤٣
كوبدار	Cobdar	١٠٠

لواخار وهورميثا وكاماثين	Laujar + Hormiza , Camazin +	
ونصف "غوراوس"	mitad de Guarros	٢٨٩
داريكال وبنى نار	Darrical + Beninar	٧٥
لوكاينينا	Lucainena	٣٥
شيرين وجونكيرا	Cherin + Yunquera	٣٢
لاروليس وخويرون وهوندورون	Laroles + Joyron y Onduron	٢٢٠
مايرنيا الموثيتا الفيت خويار	Mayrena Almocita el Fez Jubar	١٤٠
بيثينا	Picena	١٠٠
نيتشيتي	Nechite	٦٥
ميثينا دى الفهار وتورياس	Mecina de Alfahar + Turillas	٦٠
أوكسكار وخونكيرا وإيسكاريانيس	Uxixar + Yunquera y Escarianes	٢٢٨
تريبيليس	Trevelez	٦٠
بالور	Valor	١٨٠
يخين	Yegen	٦٣
ياتور	Yator	٦٠
ميثينا دى بوين بارون	Mecina de Buen Varon	٢٠٠
بيرشوليس	Berchules	٢٠٠
ناريلا	Narila	٧٠
كاديار	Cadiar	٨٠
خوبيليس	Jubiles	٦٠

٦٠	Lobras + Timen	لوبراس وتيمن
١١٠	Castaras + Nieles	كاستاراس ونيليس
٩٦	Almexijar + Notaez	ألميكيخار ونوتايز
٩٩	Busquistar	بوسكيستار
١٤٥	Portugos + Laujar	بورتوغوس – لاوخار
٢٢	Haratalbeytar	حارة البيطار
٤٠	Ferreirola	فييريرولا
٤٠	Mecina de Fondales	ميثينا دى فونداليس
٤٠	Fondales de Ferreira	فونداليس دى فيريرا
٢٠٠	Capileira + Aylacar de Pitres	كابيليرا وإيلاكار دى بيتريس
	Bubion + Pampaneira, Alguacar	بوبيون وبامبانايرا والغواكار
٢٢٠	Capileira	كابليرا
٨٠	Barjal + Carataunas	برخال وكاراتاوناس
٧٥	El Fex + Canar	ألفيكس وكنار
٧٢	Soportujar	سويورتوخار
٤٢	Bayacar	باياكار
٣٠	Sortes	سورتيس
٢٠	Benicalte	بينكالتى
٢٧٠	Orgiva	أورخيبا
٢٠	Bene Ciet	بينى شيت

٧٠	Velez de Benaudalla	بيليث بن عبد الله
٧٠	Guajarras de Fondon	غوارخاريس ديل فوندون
١٣٠	Guajarras Alfaguit	غوارخاريس الفاغيت
٦٠	Guajarras de su Magestad	غوارخاريس دى سو ماخيستاد
٧٠	Molvizar	مولبيثار
٦٠	Ytrabo	يترابو
٥٠	Jete	خيتى
٢٠	Otivar	أوتيبار
٦٠	Lentegi	لينتيخى
٧٠	Pataura	باتاورا
١٦٠	Motril	موتريل
٥٠	Lobres	لوبريس
٦٠	Conchar	كونتشار
٦٥	Beznar	بيثنار
١٥٠	Lanjaron	لانخارون
١٥	Tablate	تابلاتى
٢٤	Yzbor	إثبور
٢٠٠	Durcal + Marjena	دوركال ومارخينا
١١٥	Nigueles	نيغيليس
٧٠	Acequias	إثيكياس

٤١	Mondujar	موندوخار
٨٠	Chite + Talares	تشيتي وتلاريس
٦٩	Murchas + Lojuela	ومورتشاس ولوخويلا
١٣٠	Melexix	ميليكسيكس
٨٠	Pinos del Valle	بينوس ديل باى
٦٠	Restabal	ريستبال
٩٠	Saleres	ساليريس
٢٧٠	Albunuelas	ألبونويلاس
٣٠	Cuzbijar	كوثبيخار
١٦٠	Padul	بادول
١٢	Calicasas	كاليكاساس
١٦٠	Cogollos	كوغوبوس
٥٠	Nivar	نيبار
٢٧٠	Alfacar	ألفكار
٩٠	Viznar	بيثنار
٧٠	Huetor - Santilan	هويتور وسانتيان
٦٥	Beas	بياس
٥٣	Dudar	دودار
١٢٣	Quentar	كينتار
٢٤٧	Guejar Sierra	غيخار سيرا

٥٠ Pinos de Guejar	بينوس دى غيخار
١٥٠ Monachil	موناتشيل
١٦٠ Dilar	ديلار
Pinos Vega	بينوس بيغا
٥٠ Cenes	سينيس
٧٥ Guevejar	غيبيخار
٥٠ Maracena	ماراثينا
٢٠٠ Albolote	ألبولوطى
٢٠ Jun	خون
٣٥ Pulianilla	بوليانيا
٦٠ Puliana et Dialfate	بوليانا وديالفاتى
٨٠ Atarfe	أتارفى
١٧ Peligros	بيليغروس
٤٠ Armilla	أرميا
٢٦٠ Churriana	تشوريانا
٣٥ Purchil et Purchilejoi	بورتشيل وبورتشيليخوى
٥٠ Belicena	بيلثينا
٢٠ Ambroz	إمبروث
٣٥ Cullar Vega	كويار بيغا
٣٤ Yjar	إيخار

غابيا غراندى	Gabia Grande	٢٥٠
غابيا تشيكا	Gabia Chica	٤٥–٦٥؟
لا مالاها	La Malaha	١٣
الهندين	Alhendin	٣٧٠
أوتورا	Autura	١٦٠
غوخار	Gojar	٨٠
أوكسيكسار ألتا باخا	Uxixar Alta - Baja	٢٠٠
لاثوبيا	La Zubia	٣٠٠
كاخار	Cajar	٢٨
هويتو بيغا	Huetor Vega	٤٠
سالار	Salar	١٢٠؟
هويتور تاخار	Huetor Tajar	٣٠؟
غينيخا	Guenaja	٢٠٠
دولار	Dolar	٢٥٠
لا كالاهورا	La Calahorra	١٣٠
فيريرا	Ferreira	١٧٠
ألديرى	Aldeire	٢٥٠
خيريث	Jerez	٤٠٠
ألكيفى	Alquife	٦٠
لانتيرا	Lanteira	؟

١١٠	Gor	غور
٦٠	Freila	فريلا
٤٥٠	Gujar	غوخار
٢٥٠	Castelleja	كاستييخو
٢٠٠	Orce	أورثى
؟	Cullar	كويار
٣٠٠	Benamaurel	بناماوريل
٦٠	Cortes	كورتيس
٨٠٠	Caniles	كانيليس
٣٠٠	Seron	سيرون
١٨٠	Tijola	تيخولا
١٢٠	Aldeire	الديرى
	Bayarque	بايروكى
١٣٠	Lucar	لوكار
١٠٠	Armuna	أرمونا
٧٧	Supli	سوبلى
١٤٠	Sierro	سيرو
٧٠	Somontin	سومونتين
٢٥٠	Purchena	بورتشينا
١٢٠	Urracal	أوركال

ميكائيل — Macael — ٦٠

أولولا — Olula — ٦٠

تاهالى سيرا دى فيلابريس — Tahali Sierra de Filabres — ٧٢٠

كوبدار — Cobdar — ٩٠

ليخار — Lijar — ٧٠

لرويا — Laroya — ٦٠

فينيس — Fines — ٥٥

ثورخينا — Zurgena — ٨٠

ويرمكال اوبير — Huercal Over — ١٨٠

إنتاس — Antas — ١٨٠

موخاكار تورى — Mojacar Turre — ٨٠

بيدار — Bedar — ٣٠

سيرينا — Serena — ٣٠

كابريرا — Cabrera — ٥٠

تيريسا — Teresa — ٥٠

سورباس — Sorbas — ٢٠٠

لوبرين — Lubrin — ١٠٠

تابيرناس — Tabernas — ٣٠٠ أو ٤٠٠

نيخار — Nijar — ٢٢٠

ألمرية — Almeria — ٤٨٠

بيتشينا	Pechina	١٠٠
غادور	Gador	٢٠٠
سانتا فى	Santa Fe	٨٠
فيليكس بينيكس بيكار	Felix Binix Vicar	٢٠٠
هويثيخا	Huecija	١٠٠
ألهابيا	Alhabia	٦٢
إنستينثيون	Instincion	٩٠
إيلار	Illar	٨٠
إلسودث	El soduz	٧٥
طيريقى	Terque	١٠٠
بن طاريقى	Bentarique	١٠٠
إلبولودى	Alboloduy	٣٠٠
راغول	Ragol	٦٠
ألكون	Alicun	٤٠
خرغال	Gergal	٢٤٦

الملحق الرابع:

تقرير بلا تاريخ، تقريبًا عام ١٥٧١م
حول طرد الموريسكيين الغرناطيين"

"معهد دون خوان فى فالنسيا، رسالة رقم ١، ورقة رقم ٨٦"

السيد غابريل موسكوسو دى فيغيروا، المقيم فى مدينة غرناطة : أخبر صاحب الجلالة أنه فى هذه المدينة كان يوجد الكثير من الموريسكيين والمدجنين، وقد تمت مصادرة أموالهم لصالح الأملاك الأميرية، وذلك لأنهم لم ينفذوا قرار صاحب الجلالة مثل الآخرين الذين خرجوا. وقد قام هؤلاء بإعداد شهادات تؤكد أنهم من المسيحيين القدامى، واستخدموا فى ذلك شهودا من الطبقة الفقيرة والمحتاجين أمام رجال القضاء العادى. ومن المعروف أن هذه الشهادات كانت مزورة. كذلك يوجد آخرون قد بقوا فى هذه المدينة من خلال معارفهم ومحاسيبهم، مما تسبب فى ضرر واضح للأملاك الأميرية لأنهم كانوا من أغنيائها. وقد أمر صاحب الجلالة بتكوين لجنة للتحقق من ذلك، وفى حالة صعوبة التحقق من ذلك بصورة كاملة يجب تشكيل لجان أخرى، وقد كلف بذلك العمدة كريستوبال... (غير مقروء)، حيث قام بإجراء تحقيقات، فحبس البعض وأفرج عن الآخرين بكفالة. وقد قام الكثيرون منهم بتقديم التماسات لصاحب الجلالة يتوسلون إليه أنه بإمكانهم خدمته، وجمع المبلغ المطلوب من أموالهم، وذلك لتغطية نفقات الظروف

الحاضرة. وقد أرسل العمدة ذلك إلى مجلس ماليتكم، وذلك ليتم التشاور فيه مع جلالتكم. وقد ردوا عليه بأن من المتعذر الآن أن يتم ذلك. ولقد توقف عمل تلك اللجنة أكثر من ثلاثة أشهر بسبب وصول بعض الموريسكيين إلى هذه المدينة الذين تعاملوا (اتصلوا) مع بعض الأشخاص حول ذلك الأمر، وقدموا بعض التبريرات ومنها الخاص بمجلس المالية. كذلك فقد تشاور آخرون حول الأمر المطروح واتفقوا على أن (يقترحوا) أن يطلب صاحب الجلالة رؤية الطلب الأصلى، الموجود لدى السيد خوان لوبيث دى بيلاسكو عضو مجلس البلدية، وأن تطبق هذه المذكرة على الأشخاص الذين يعرفون أن أولئك الموريسكيين والمدجنين قد قدموا تلك الشهادات المزورة، وأنه من العدل أن يتقدموا لجلالتكم ببعض أموالهم. وهذا واضح بالنسبة لهم حيث إنهم أبناء لهذه المدينة، أما الآخرون الذين ليسوا منها فقد عاشوا بها فترة طويلة وهم: رئيس المالية، الذى عمل قاضيا لفترة طويلة فى محكمة تلك المدينة، والسيد غوارديولا، وهو من مجلس مالية جلالتكم، وعاش فترة فى تلك المدينة، والسيد روى بيريث من مجلس المالية ومن أبناء تلك المدينة. ونرجو من جلالتكم أن تأمر ذلك العمدة أن يضمهم إلى لجنته.

الملحق الخامس:

قيمة الأضرار التى لحقت بكنائس غرناطة نتيجة تمرد الموريسكيين

"أرشيف كاتدرائية غرناطة، لفة رقم ٣٦، قطعة رقم ٣"

أسماء الأماكن	قيمة الأضرار بالدوقية
غرناطة باستثناء كنيسة سان سلفادور	٢١
فى أماكن الغوطة والجبال	٤٣
فى مدن لوخا والحامة والقرى السبع	٣٠
سالوبرينا والمونيكار وموتريل والأماكن الملحقة بها	١٧
بال دى ليكرين	٢٠
دائرة أورخيبا	٧
البشرات: مناطق دى فيريرا بوكير	٨٧
مناطق خوبيليس وأوخيخار وأندراكس ولوتشار	
بولو دى وسهل وبيرخا ودالياس	١٠
الإجمالى	٢٣٤

إن الأضرار التى يبدو أنها قد حدثت لتلك الكنائس، والتى تُعرف أخبارها حتى الآن سواء بحرق الأماكن أو هدمها تساوى ٤٠٠٠٠٠ مرابطى الأضرار التى حدثت لقضبان النوافذ الحديدية والأخشاب

الأبواب والمقاعد والأدراج المحطمة تساوى ٣٠٠٠٠ مرابطى

إطار من الحديد، وزينة من الحرير ومشغولات من الذهب
والديباج، وكئوس الخل، والأيقونات الكنسية، وأحواض للتعميد
وللمياه المباركة ٥٠٠٠٠ مرابطى

الأشياء الخاصة بالورش، وأصحاب معاشات (والمستفيدون)
من كنائس البشرات وأورخيبا وبال دى ليكرين ١٥٧٠٠ مرابطى

هذه الكنائس كان لديها إيجار الأشياء التابعة لها مدفوعًا
حتى عام ١٥٧٣ وقيمته ٥٦٢٥٠٠٠

٨٣٠٠

٣١١٧٥٠

البشرات وماتشينا وأورخيبا ٢٨٤٦١٥

بال دى ليكرين ١٠٨٠٠٠

وقد فقدت تلك الكنائس مبلغ ٢٢٠٠٠ المستحقة لها على الدخول الخاصة بضريبة العشور والأوقاف والملكيات الثابتة حتى نهاية عام ١٥٦٧م والتى تنتهى مدتها فى نهاية العام التالى ١٥٦٨م ومقدارها ٧٣٩٠٣٤٢ .

الملحق السادس:

استشارة مجلس برلمان قشتالة المقدمة إلى فيليبى الثانى فى ٢٢ يولية عام ١٥٨٤ حول الأضرار التى حدثت لكنيسة ألمرية بسبب طرد الموريسكيين.

"صاحب الجلالة، نظرا للضرر والنقص الذى حدث فى أموال رئاسة الكنيسة الكاتدرائية لمدينة ألمرية بسبب ثورة الموريسكيين، فإن نائب المطران وأصحاب الرتب العليا بها وكثير من الأشخاص كانوا يعانون حاجة شديدة فتمت مساعدتهم عام ٧٠، والأعوام التالية حتى عام ٧٥ بمقدار ألفى دوقية، أما فى أعوام: ٧٦، ٧٧، ٧٨ فقد خصص لهم مبلغ ٨٠٠ دوقية. بعد ذلك توسلت الكنيسة بأن حاجتها تزايدت بسبب قلة المحصول والغلاء وطلبت مساعدة لعام ٧٩ ، فأمر صاحب الجلالة بتقديم مبلغ ٤٠٠ دوقية. ولقد تبين من خلال تقرير لجنة السكان أن قيمة الأملاك الثابتة فى تلك الرئاسة هى ٥٢٥ ألف مرابطى كل عام، كذلك فإن دخلها فى السنوات الخمس السابقة على التمرد هو ٥٢٧٧٥٩٣ مرابطيا، وبهذا تكون قيمة ذلك فى العام هى ١٠٥٣٥١٨ مرابطيا، والسنوات الخمس من ٧٥ إلى ٧٩ التالية كانت قيمة الدخل ٢٠٧٨١١٣ مرابطيا، حيث تكون قيمة الدخل فى كل سنة من السنوات المذكورة هى ٤١٥٦٢٦ مرابطيا. ويعيش فى تلك الكنيسة ستة من الرؤساء، وستة من الكهنة القانونيين، وستة من موزعى الجرايات، وستة من القساوسة الخاصين وخادم للكنيسة وحاملى الصولجان وغيرهم. ومع أنه بعد ذلك قد خلت بعض المراتب، مثل ثلاثة من مراتب القضاة القانونيين، وتحسنت الأمور،

ولكن نظرا للنقص السابق فقد استمرت حاجة الرئاسة للمساعدة، وقد رأى مجلس السكان أنه يمكن أن يقدم لهم ألف دوقية مرة واحدة، بالإضافة إلى الدوقيات الأربعمائة المقررة، وسوف يتم لفت نظرهم إلى أنه لن يتم إعطاؤهم أى شيء آخر فيما بعد، وقد وافق صاحب الجلالة على ذلك. فيما بعد عام ٨٢ كتب كل من الأسقف ونائبه وأصحاب الرتب العليا أنه نظرا لأن الأسعار كانت قد ارتفعت في عام ٨١ م ارتفاعًا فاحشًا، ولهذا فهم يحتاجون لزيادة دخولهم من جديد، وذلك لكى يستطيعوا الإنفاق على شئون حياتهم. وكانت الحاجة هذه المرة نظرا لقلة المحصول أكثر مما سبق، وتوسلوا بأن يتم لهم ألف دوقية"، (فقدم لهم ٤٠٠ دوقية).

"بعد ذلك تقدموا مرة أخرى وطلبوا الشيء نفسه، وقد تمت مراجعة ما كتبه كل من لجنة السكان ولجنة إريغالو دى سوازو فى يونية عام ٨٣، والذى فيه أن فى تلك الأسقفية حدث نقص شديد فى المحاصيل، وأنه لم يتم جمعها أو تربية أغنام، وأنه قد عانى أصحاب القداسة من الفقر الشديد، وأنه بمراجعة تقرير تقدمت به الكنيسة بأنه فى عام ٨٣ لم تكن هناك أى قيمة للضريبة على الماشية التى جاءت للرعى خلال شهور الشتاء فى تلك المدينة لأن الشتاء كان قاسيا جدا.

وقد كانت قيمة دخل ذلك عام ٨٢ م ٥٨٠٠٠٠ مرابطى، وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن عام ٨٤ كان أكثر فقرا من الأعوام السابقة".

ولم تجدِ كل هذه المبررات مع الملك الحصيف، والذى كان دقيقا وإداريا واقتصاديا فى إدارته، إلا لأن يمنحهم ٤٠٠ دوقية.

الملحق السابع:

نموذج توكيل لوكلاء موريسكيى مملكة غرناطة لكى يستطيعوا أن يحصلوا على امتيازات معينة مقابل خدمات يقدمونها.

الملك

فيما يتعلق بالوكلاء الثلاثة عشر المندوبين من أبناء مملكة غرناطة، الـذين اجتمعوا فى هذه المدينة ليعالجوا موضوع الخدمة التى يجب عليهم أن يقدموها لنـا باسم كل أبناء هذه المدينة من المدجنين، والذين يعيشون فيها، وتم تسجيلهم بالقوائم فى مملكة قشتالة وليون، وقد تقدموا لى وهم يبدون رغبة وحرصًا فى هذا المحضر الذى يعدونه، والخدمتين السابقتين اللتين قدموهما لنا. وقـد توجهـوا إلـىَّ وهـم يتوسلون بأن أساعدهم فى الحصول على امتياز لهم ولأولادهـم ولأحفـادهم بـأن يتمتعوا بالإعفاءات التى يتمتع بها الإسبان القدامى من أبناء ممالكنا، وذلـك بـألا يطرد ضيوفهم، ويمكنهم حمل السلاح. وأخذا فى الاعتبار ما سبق وما انتظره منهم من خدمات، فإننى أمنح السيد (فراغ لكتابة الاسم)(*) أحد المندوبين الثلاثـة عـشر المقيمين فى هذه المدينة من خلال هذا المحضر بأنكم وأبناءكم وأحفـادكم، وعلـى مدى حياتكم، و كل واحد منهم، يمكنكم أن تحملوا السلاح فى أماكن إقامتكم، وكذلك فى كل أماكن هذه المملكة، بالطريقة نفسها التى يحملها بها الآخرون المعافون مـن

(*) هكذا وردت الاشارة في الأصل الإسباني .(المراجع)

أبناء مملكة غرناطة السابقين، وذلك انطلاقا من الإذن الذى منحه لهم آباؤنا الملوك السابقون، وأن يكون لهم الإعفاءات نفسها التى يتمتع بها الإسبان القدامى، من حيث حمل تلك الأسلحة. وتعتبر القوانين التى تعارض ما أمنحه لكم ولكل واحد من أبنائكم لاغية. وآمر رجال مجلسى: الرئيس والحكام فى إدارتنا ومحاكمنا وعمد مملكتى ورجال البلاط والحكام والمأمورين القضائيين وكل رجال القضاء الآخرين أنه انطلاقا من هذا القرار الملكى ونسخته الموقعة من قبل الموثق بأن يتركوا المذكورين أعلاه ليحملوا السلاح وألا تتم مضايقتهم بسبب ذلك وتلك هى إرادتى.

بلد الوليد ، ٧ نوفمبر عام ١٦٠٢ م.

الملحق الثامن:

خطاب السيد/ بدرو باكا دى كاسترو، أسقف إشبيلية للملك فيليبى الثالث بصدد صدور قرار طرد الموريسكيين.

أرشيف كاتدرائية إشبيلية، لفة رقم ١٣١ ، وثيقة رقم ١٩

سيدى - لقد أعلن فى هذه المدينة قرار ملكى لصاحب الجلالة، وذلك لإخراج الموريسكيين. وقد أحدث ذلك أسفا وشفقة لأنه يبدو أن ذلك القرار العام جدا يشمل أبرياء، وأخاف أن يمثل ذلك خطرا على ضمائر بعضهم. ومن المرجح أن كل شيء يتم بعد الأخذ فى الاعتبار المشاورات التى تتم دائما. وأنا باعتبارى راهبًا فإن هذا يحزننى ويؤلمنى، وأرغب فى إنقاذ الضمائر، وهذا يعطينى الشجاعة فى كتابة هذه السطور.

إن الهدف الرئيسى وسبب هذا القرار الملكى ليس معاقبة جرائم، وإنما انطلاقا من رحمة صاحب الجلالة، فقد قرر إبعاد هؤلاء الناس، وتجنب الخطر الذى يمكن أن يأتى منهم. وبالنسبة للموريسكيين الذين يقيمون فى هذه المدينة يبدو أنه لا يوجد منهم أى خطر لأنهم قلة، فقد تم إخراجهم جميعا فى الثورة الماضية من هنا، وبقى القليل وهم أناس مستضعفون ولا يمثلون جزءًا من أى شيء.

كذلك لا يشكل خطرا النساء من جميع الأعمار، ولا الرجـال الـذين يزيـد عمرهم عن ٧٠ عامًا حيث لا يستطيعوا أن يشاركوا فى أعمال الـشغب أو حمـل السلاح.

أما النساء الموريسكيات المتزوجات من مـسيحيين قـدامى فأبنـاؤهم مـن المسيحيين القدامى وكذلك آباؤهم وأجدادهم وأحفادهم. أما النساء فعلى الرغم مـن أنهن موريسكيات فإنهن يجب أن يتمتعن بالامتيـازات نفـسها التـى لأزواجهـن وآبائهن. لقد تزوج أزواجهن بتصريح من صاحب الجلالة ووفقا لقوانينه وقـوانين الكنيسة المقدسة، لماذا ترغبون فى أخذ زوجاتهم منهم، ومن يـستطيع أن يفعـل ذلك؟ وإذا ذهب أى منهم حتى وإن كان موريسكيا متزوجًا من مسيحية قديمة فـإن هذا سيحطم الأسرة. ثم بعد ذلك يبدأ الشك والتساؤل حول مدى صحة هذا الزواج، وذلك لأنه زواج مع اختلاف الملة. ثم بعد ذلك تأتى أضرار أخرى كثيرة.

أما بالنسبة للأطفال الصغار فلا يوجد منهم أى خطـر، إلـى أيـن سـوف يذهبون؟ وبخاصة أولئك الذين ليس لهم آباء أو أمهـات. فـى أى مكـان سـوف يتحولون إلى عبيد ويفقدون الإيمان والدين. إن عمرهم لا يتحمل العقوبـة، فهـم ليسوا بمجرمين ولم يجرموا. وفى الأطفال يوجد اعتبار آخر خطيـر جـدا. فلـو افترضنا أن تلك القرارات الملكية تفترض أنه إذا كان الآباء مسلمين وأبناؤهم تـم تعميدهم هل يتركوا لآبائهم أم يؤخذوا منهم؟ إنه موضوع خطير جدا.

وإن من بين الرجال المشهور عنهم أنهم موريكسيون وأحفاد لموريـسكيين، يوجد البعض الذين أعطوا أدلة وبراهين تدل على أنهم مسيحيون. وبين الكثير مـن هؤلاء من المؤكد وجود البعض الذين على هذه الصفة، حيث يؤمنـون بالأسـرار المقدسة، ويربون أبناءهم على الفضيلة ويلحقونهم بمراحل التعلـيم. وإن جلالـتكم

تجود عليهم بفضلك وتجعلهم موضع رعايتك فتقبلهم فى المراتب المختلفة فى الكنائس. ولقد قبلت أنا بعضهم فى بعض الجماعات الدينية بعد أن تحققت بدقة من نشأتهم وعاداتهم، وأحد هؤلاء يعلّم الناس أمور الدين علنا فى جامعة هذه المدينة. ولا يبدو، ولا يصدق أن يكون هؤلاء قد تآمروا أو وافقوا على الثورة. الآن فى هذا القرار تتم معاقبتهم ويطردون ويستولى على أموالهم. ماذا سنفعل فى هؤلاء الذين انتموا إلى تلك الجماعات الدينية وهم نماذج للفضيلة، والذين بفضل صاحب الجلالة وإنعامه يمكن أن يكونوا مفيدين فى اعتناق أهليهم للمسيحية؟.

وهناك آخرون خدموا فى الثورة الماضية، تركوا أهلهم وخدموا صاحب الجلالة بصورة واضحة. ولهذا سمح لهم صاحب الجلالة بالبقاء فى هذه المملكة وترك لهم أموالهم. وقد أفاد هؤلاء دائما وبقوا مخلصين عندما تمرد كل أهل المملكة على الرغم من أنهم كانوا وسط النيران مع أهليهم ولا يمكن أن يصدق أن يتمردوا الآن وهم بيننا بمفردهم.

وتحتاج هذه المملكة والمدينة لخدمات بعضهم وهنا يقدمون خدمات لكل إسبانيا وممالكها. وإنه نظرا للحاجة إليهم وعلى الرغم من أنهم قد اشتركوا فى الثورة، فقد وافق صاحب الجلالة وأبقاهم فى هذه المدينة، ومنهم اليوم أرباب مهن عامة يجيدها الموريسكيون فقط، ومن الواضح أن الدخول الأميرية والمعاملات سوف تتضرر كثيرا اذا تم إخراج هؤلاء، حيث ستتوقف تلك المهن التى لا يجيدها المسيحيون القدامى ولا يجتهدون فيها. وسوف تتضرر الدخول الأميرية بصورة كبيرة ثم بعد ذلك الآخرون.

لقد أبدى صاحب الجلالة صور الرحمة التى استخدمها مع هؤلاء الناس فى أثناء التمرد فى هذه المملكة عام ١٥٧٠، حيث [illegible] حملوا السلاح ورفضوا

التعميد والإيمان والدين. وقد تم التغلب عليهم بقوة السلاح وتمت مصادرة أمــوالهم ومحالهم للتاج الملكية. فى تلك المناسبة استخدم صاحب الجلالة الرحمة مع كثيــر منهم ووسعهم بعطفه، وقد ترك الكثير منهم الآن فى فالنسيا. ولدينا كلنا أمل كبيــر فى أن نتمتع بتلك الرحمة التى استخدمها فى غرناطة.

إن الوقت الذى يأمر أن يخرج فيه هؤلاء يعتبر قصيرًا، ولا يعطينى الفرصة لتصحيح أخطاء هذه المسودة؛ لهذا أتوسل إلى صاحب الجلالة أن يعفو عنــى، وأن يقبل رغبتى التى تسعى دائمًا إلى خدمته والنصح له. أدعو الله أن يحمى صـــاحب الجلالة، وأن يرفع ذكر شخصه الكاثوليكى، ولما كنت أنا خادمه فأنا أتوسل إليه.

غرناطة فى ٢٤ يناير عام ١٦١٠م.

الملحق التاسع:

استشارة لمجلس الدولة خاصة بجلب مستوطنين أجانب ليملأوا الفراغ الذى تركه الموريسكيون

الأرشيف العام لإشبيلية، استشارة ٣٠ يناير عام ١٦١٠م.

سيدى – أخبر الكونت دى كاسترو فى خطاب أرسله إلى دوق دى ليرما فى ٢٨ ديسمبر أن صاحب الجلالة أمر بأن يدرس فى المجلس ما يقال من أن صاحب الجلالة يرغب فى أن تأتى إلى إسبانيا بعض العائلات الأجنبية لتملأ الفراغ الذى يتركه الموريسكيون، وأنه كان يرى أنه لن يكون أمرًا سيئًا أن يأتى بعض اليونانيين المسيحيين، الذين يرفعون أكف الضراعة إلى الله ليأتيهم هذا العون ويخرجهم من ألمرية وغيرها من مقاطعات الإمبرطورية التركية، وأن هذا لن يكون أمرًا صعبًا.

وبعد عرض الموضوع على المجلس تم التصويت عليه بالشكل التالى:

أما الرئيس الأكبر لإقليم ليون فقد قال إنه يبدو له أن اليونانيين غير مناسبين بالنسبة للشعب الذى يجب أن يكونوا منه وذلك لما سمعه عنهم، وإنه من الأفضل

جلب عائلات من لومبارديا ومايوركا وبافاريا، حيث يقال إنهم فلاحون مهرة، كما أنهم أناس حسنو السيرة وكاثوليك جيدون.

أما كاردينال مدينة طليطلة فقد رأى أن يترك أمر ملء الفراغ الذى يتركه الموريسكيون لصاحب الجلالة ولوزرائه، ولا يوافق على رأى الكونت دى كاسترو، ويرى أنه من الأنسب أن يستعد المجلس لمعالجة موضوع الأمم التى يجب أن تأتى.

أما رئيس قشتالة فيرى أن الأمة اليونانية ليست مناسبة للسكان لأنهم ليسوا بفلاحين مهرة، وقد مال كثيرا لجلب عائلات من لومبارديا وبافاريا لأنهم فلاحون مهرة وأناس طيبون، وقد قاموا بذلك بصورة طيبة فى أماكن أخرى.

أما دوق إنفانتادو فقد ذكر أنه إذا كان الذين سيأتون سيتوجهون إلى إقليم قشتالة فإنه من المناسب تنفيذ ما قد قيل، ولكن إذا كانوا سيأتون لفالنسيا فعندما تطلب تلك الشعوب أن يقبلوا فإن على صاحب الجلالة أن يطلب معرفة رأى البارونات عن ذلك، بمعنى معرفة رأيهم إذا كان مناسبا أن يأتوا وتحت أية شروط يكون ذلك.

أما دوق البوركيركى فقد قبل رأى دوق إنفانتادو. ثم تحدث مرة أخرى الرئيس الأكبر لليون، وقال إنه فى كل هذه الممالك يوجد نقص شديد فى الناس، ومن هؤلاء يوجد الكثير من الكسالى، وإنه من الضرورى أن يقوم المجلس بمعالجة حل تلك المشكلة، حيث إن المجلس هو الذى اتخذ قرار الطرد ومعالجة هذا الموضوع لحفظ المملكة، ومع هذا فإن على مجلس الحكومة أن يوقع اتفاقياته هناك، حيث إنه من المعروف وجود نقص شديد فى الفلاحين، وعواقب ذلك، ويتأكد من أنه توجد حاجة ماسة للبحث عن علاج من الداخل والخارج. وإنه حتى

يبدأ ذلك يجب من الآن بحث العلاج من الداخل. ويبدأ هذا العلاج بــأن يعــد كــل شخص في بلده قائمة بالأراضى ومزارع العنب التى تزرع والأخرى الباقيــة دون زراعة وأسماء أصحابها وإذا كان يوجد فلاحون أو يمارسون هم الزراعة، والمزيد الذى يمكن أن يوجد تبعا لكمية الأرض ومزارع العنب لأنه ليس من المفيد جلــب أناس من الخارج إذا كانت لا توجد أراض يشغلونها ويعيشون منها.

وبعد معرفة هذا، من المناسب توجيه أوامر لأصحاب الأراضى بزراعتها مع تحذيرهم من أنهم إذا لم يفعلوا ذلك سوف تعطى لآخرين لكــى يزرعونهــا، لأنــه يوجد كثيرون يتركون زراعة الحقول ليقوموا بأعمال تحتاج لمجهود أقل وتعطــى ربحا أكثر، ولهذا يبقى جزء كبير منها دون زراعة، وهــذا يــسبب نقــصا فــى المحاصيل والفواكه. وإنه من العدل إجبار الذين يملكون أراضى خاصــة بهــم أن يزرعوها أو يعملوا على زراعتها وألا يحتقروا القيام بذلك، ففــى الماضــى كــان الجميع يفتخرون بالزراعة.

ويجب أن يكلف المأمورون القضائيون بمتابعة التنفيذ لكى ينفذ القانون علــى من فى الداخل، ويعرف ما يمكن عمله مع الذين سيأتون من الخارج.

وبالإضافة إلى ذلك يجب معالجة الإفراط الذى حدث فــى عمليــة تربيــة الفلاحين لأبنائهم، حيث يتخصص البعض فى القانون والــبعض الآخــر للكنيــسة والحرب ويحتقرون أن يستمروا فى الزراعة، وهذا سبب وجود عــدد كبيــر مــن رجال القانون والقساوسة ورجال الدين ونقص شديد فــى الفلاحــين، ويكفــى أن شخصًا لديه ستة أولاد يستخدم ثلاثة فى تلك المهن، وأن يستمر الآخرون البــاقون فى العمل فى مهنتهم نفسها، وعلى هذا النمط من عندهم أكثر أو أقل، بحيث توجــد

دائما وفرة فى الفلاحين، وإذا لم يفعلوا ذلك فيجب أن يجبروا على ترك أراضـــيهم ومزارع العنب الخاصة بهم لأقاربهم لكى يزرعوها.

وقد أعجب المجلس برأى الرئيس الأكبر لليون، وإن هذا ما يجب أن يـــأمر صاحب الجلالة بتنفيذه.

صاحب الجلالة ،

يدرس هذا ويقدم ما يمكن عمله

مدريد، ٣٠ يناير عام ١٦١٠، خمسة توقيعات

رد الملك:

يوجه جزيل الشكر للكونت دى كاسترو على ما سوف يقــوم بـــه، ويـــسأل الكونت فوينتس كم عدد الفلاحين الذين يمكن أن يجلبوا من مقاطعة مـــيلان، ومـــا رأيه فى ذلك، كذلك يسأل السيد بلتسار دى ثونييغا عن عدد الفلاحين من بافاريـــا. ويبدو جيدا جدا ما طرح فيما يخص هذه الممالك، وسوف أطلب تنفيذه، ويـــسعدنى كثيرا أن يخبرنى المجلس بالأشياء الأخرى التى تعرض عليـــه ســـواء فـــى هـــذا الموضوع أو فى غيره.

الملحق العاشر:

استشارة مجلس المالية فى ١٥ فبراير عام ١٦١١ حول ثروات الموريسكيين

كتب الدوق دى ليرما لى أنا الرئيس إن صاحب الجلالة قد أمر بأنه من الآن يجب الأخذ فى الاعتبار ألا يصرف أى شيء من أموال الموريسكيين التى أمر بتسليمها لكى توزع على إدارة الأموال الأميرية، وأن يعلم ما تم صرفه وما بقى.

وتنقسم أموال الموريسكيين إلى نوعين، النوع الأول: الأصول التى تركوها، والنوع الثانى عبارة عن النقود والحلى التى سلموها ليسمح لهم بإخراج نصفها الآخر. وسوف يحسب فقط فى هذا النصف الجزء الخاص بالأصول لأن النصف الخاص بالنقود والحلى يحسب بشكل منفصل.

وتنفيذًا لما أمر به صاحب الجلالة لهذا المجلس فقد تم تعيين ١٣ قاضيًا، وأمر بأن يتم توزيعهم، وأن يحملوا السجلات التى ربما كتبوها عن الموريسكيين الذين خرجوا من تلك الأقاليم، والسجلات التى ربما كتبها مكاتب قضاة أموال الأصول التى كانت لديها وتم جردها وتقييمها وتم عرضها فى مزاد واستلموا عروض الشراء.

فى ١٦١٠/٤/٧ أمر صاحب الجلالة بأن ترسل له قائمة بالأموال التى تركها الموريسكيون فى أماكن إقطاعياته وألا يتم التصرف فيها بأى صورة حتى يصدر

إشعار آخر. ثم بعد ذلك أمر القضاة بألا يبيعوا تلك الأماكن الخاصة، وأن يبعثوا قائمة بها، وتفصيلاً لما كانوا يقومون به، والأصول الموجودة فى كل الأماكن. ولما كانت تلك الأماكن كثيرة، ولم تنته بعد عملية الطرد فقد حدث تراخٍ وصعوبة فى إرسالها. وبالنسبة لما تم إرساله فقد تم فيها ما سيتم تفصيله، حيث بين فيها الأصول التى وجدوها فى كل حى ، لأنه فى بعض الحالات مازال يوجد الكثير من الأماكن التى لم يتم البحث فيها بعد، وما قامت به الإدارة، وعملية بيع الأصول فى أماكن الإقطاعية سواء نقدا أو بالآجل، مع التنبيه على أن بعض الأصول ستباع أكثر من قيمتها، وأصول أخرى، وتمثل الجزء الأكبر، ستباع أقل من قيمتها ولم يتم الانتهاء من التحقق من عملية الإحصاء والديون التى على تلك الأصول، حيث يظهر كل يوم الجديد من المقرضين ولا يمكن تقديم تلك القائمة الآن بشكل دقيق.

ومن خلال تلك القائمة يبدو أن الأصول الثابتة والأراضى والأشياء الأخرى فى مناطق الأملاك الأميرية تساوى ١٧١٤٤٤٥٥٨ مرابطيا، باستثناء الأماكن التى تم تحديدها حتى الآن، ولم يتم التحقق منها (بصدد ديونها وخلافه) بعد. كذلك كان حاصل بيع الفواكه هو: ٥٢٣٠٩٩٩٧، وذلك بعد طرح حاصل المصاريف الإدارية، وهذا المبلغ ينقسم إلى ١٠٥٠٠٥٦٧حصيلة البيع نقدا، ومبلغ ٤١٨٠٩٤٣٠ يحتسب فى صورة أقساط إجبارية الدفع، آخرها يجب أن يدفع فى عيد القديس خوان عام ٦١٣. ويجب أن يكون واضحا أنه بالنسبة للأصول الباقية التى لم يتم بيعها لن يتم الحصول على المبلغ الذى كانت قد قُيِّمَت به.

ويحتسب أيضا ما قد يوجد فى أماكن لم يتم التحقق منها، بالإضافة إلى المبلغ الذى أخذ من قيمة تلك الأصول وهو ٩٠٣٣٣١٧ مرابطيا، حيث سلم فى إشبيلية إلى ماركيز سان غيرمان وفيسكو وخوستينتيانو فى مدريد وبعض القضاة مصاريف لعمولاتهم.

إن الأصول الثابتة التى وجدت حتى الآن فى الأقاليم الخاصة بجلالتكم تصل قيمتها إلى ١١٣٣٥٠٤٥٢. فى هذا المبلغ لا تدخل القيمة الخاصة بأصول هورناتشوس حيث كلف صاحب الجلالة السيد خوان توماس فابادو بإدارتها ولا تدخل فى عمل المجلس، ومنها ٣٠٣٩٠٤٦١ مرابطيا تم صرفها لفوكاريس.

وتبعا لقرار التحفظ على أموال مدريد وأوكانيا وأماكنها، تم التحقق أن الموجود فى مدريد وأراضيها يساوى ٢٦١٧٨٩٠، أما أوكانيا والأماكن الاثنين والعشرين التابعة لها، وبعد خصم الديون فإنه يساوى ٢٠٨٥٥١٢١، وقيمتها الإيجارية فى العام ٧٤٨٧٣٠. (هذه الأرقام تكون ضمن المبلغ الإجمالى ١٧١٤٤٤٥٥٨.

فى الرد على هذه الاستشارة، اتخذ الملك قرارًا بالإبقاء على أراضى أندلوثيا ومدريد وأوكانيا وأن تتم إحاطته بما فيها من بيوت النبلاء فى الإقطاعيات، "لأن هذه الأماكن تخضع لاعتبار آخر".

الملحق الحادى عشر:

أمر بالاطلاع على مستندات لإعداد استئناف من أجل أن ينفذ قضاة مدينة قرطبة ما يتقرر فيما يتعلق بطلب السيد إيسكاراماان وأقاربه من المسلمين المقيمين فى المدينة المذكورة*

السيد كارلوس... أصحاب السعادة، الموثق أو الموثقون العموميون والـــذين تولوا القضية أو للدعاوى التى ستذكر فيما بعد، تحية طيبة وبعد.

أحيط سعادتكم علما بأننى ألونسو دى توس وأعمــل وكـيلاً فــى مجلــس ومستشارية هذه المدينة: غرناطة. وإننى باسم كل من إيسكارمان وحامــدى وغوثمــان ومانزاوس وبيلغاس ومحمات (محمد) وهاميتى (حامدى)، وهم من البربــر ومــن سكان هذه المدينة، ونيابة عنهم وعن كل المسلمين والمسلمات العبيد، والذين تــم افتداؤهم فى هذه المدينة، وبناء على طلب منهم تم التقدم بدعوى أمام دور العدالــة الخاصة بهذه المدينة. وأقول إنه لما كان الطرف الذى أمثله هو من ســكان هــذه المدينة وتزوجوا فيها وأبناؤهم وأحفادهم مسيحيون، وأنهم عاشوا فيها دائما وسكنوا فيها مع أسرهم. وكانوا يعملون فى أعمالهم الخاصة حيث كانوا يقدمون خــدماتهم لصالح كل السكان دون أن يحدثوا ما يقرره ذلك القضاء ضدهم. حيث قرر طردهم دون سبب هم وعائلاتهم وكل المسلمين الآخرين، وأجبروهم على الخروج منها وفرضــوا عليهم عقوبات خطيرة إذا لم يفعلوا ذلك. مع أنه لم يتم إنذارهم ولم يعطوهم وقتا أو مكاناً لتقديم ما يبين مدى تضررهم من سلب لأموالهم وطرد عام، مع أن قراراتنــا

الملكية لم تكن تحرم عليهم الجوار والإقامة. وقد كان ذلك مسموحًا بـه وممنوحًـا لهم، حيث إن أغلبهم من العبيد والمخصيين وعليهم مبالغ كثيرة لكي يعتقوا. وجزء آخر يمثله إيسكارمان هذا وحامدى، وقد كانوا من المسلمين، أحفاد مسلمى خوفا، وهـم من رعايانا فى مدينة وهران. لقد ولد إيسكارمان هذا فى هذه الممالك فى مدينـة أغيلار ولديه ابنان وأحفاد مسيحيون، أما بيلغاس وحامدى فهم من رعايانـا فـى الريان سفيناس وفى قلاعنا فى مدينة وهران، وقد ساعدنا هـؤلاء ... بـإخلاص شديد فى جميع المناسبات، وبخاصة فى أثناء عمليات الحصار، وعرضوا حيـاتهم وأموالهم للدفاع عن المدينة، ولهذا لم يكن من العدل تطبيق الأمر المذكور. حيـث توسلوا إلينا أن نرسل خطابًا من طرفنا حتى يقوم القضاء بإعادتهم ولا يمنع الإقامة التى لهم فى هذا البلد ولا يلغونها، ويفرضون عليهم غرامات كبيرة إذا لـم يفعلـوا ذلك. كما طلبوا أن نحول عليكم أى دعوى حول ذلك الطرد يمكن أن تكـون قـد تمت، ولما كان ضروريا فقد تم رفع دعوى استئناف والاحتجاج لذلك الحق أمامنا.

وقد راجع ذلك رئيسنا والقضاة الذين اتفقوا على تقديم الدعوى وإرسال هـذا الخطاب، ولهذا نرسله بحيث إنه خلال الأيام الثلاثة التالية يتم رفع الـدعوى كمـا طلب منا من قبل إيسكارمان وشركاؤه من أهل البربر، لكى يعطى لهم ويتم نقـل كل الدعاوى التى ذكرناها سابقا دون أن ينقص منهـا أى شـىء، وتـتم كتابتـه ومراجعته والتوقيع عليه ويغلق ويختم بطريقة موثوق بها على أن يتم دفع أتعابنـا، ويقبلون هذا ويوقعون فى نهايته.

أمر آخر: نطلب من خلال خطابنا هذا من قضاء مدينتنا قرطبـة أن يـرى ويحدد تلك الدعاوى التى درسها رئيسنا ومساعداه المذكوران، ولا يمنع ولا يلغـى حق الإقامة الذى يتمتع به هؤلاء فى تلك المدينة، أما الذين تم حرمانهم من الإقامة

فيها فيجب أن يعاد ذلك دون إذلالاهم، مع لفت النظر إلى أنه سيتم رفـع دعـوى على أى أمر يوجد لهم حق فيه.

لا تفعلوا عكس ذلك ، وإلا عوقبتم بغرامة قدرها ٢٠ ألف مرابطي تدفع إلى خزينتنا .

غرناطة، ١١ يناير عام ١٦٨٩م.

الملحق الثانى عشر:

وثائق خاصة بمقتل فيكونت تشيلبا

خطاب أسقف سيغوربى إلى نائب الملك فى فالنسيا، كونت دى إيتونا.

صاحب السعادة

لقد واصلت زيارة الأماكن المختلفة فى هذه المقاطعة، حيث وصلت فى وقت متأخر بالأمس إلى هذه البلدة. وقد استقبلنى السيد فرانثيسكو لادرون باياس بحفاوة وسعادة، وسمعنا اليوم الوعظ معا. وفى الساعة الخامسة مساء كنا فى محل إقامتى حيث تناقشنا فى بعض الأمور المناسبة الخاصة بإصلاح كنيسة هذه البلدة والمسيحيين الجدد الموجودين بها وبمقاطعتها. وقد ودعنى وترك خادميه وذهب بصحبة مسيحى جديد مقيم فى هذه البلدة يدعى بانيثو، حيث خرج للتنزه بحديقة هذه البلدة، وعندما ابتعد عن الأسوار، دوّى صوت طلقتين، أو ثلاث طلقات لبندقية، وعندما كان فى الطريق الملكى المتجه إلى فالنسيا وفى مكان به أشجار كثيفة ومزارع ذرة طويلة جدا وكثيفة ومعه سيفه والمدعو بانيثا، خرج عليه خمسة رجال يحملون البنادق حيث أطلقوا عليه النار وجرحه أحدهم فى الجانب الأيسر، حيث سقط على الأرض فطعنه آخر فوق ثديه الأيسر وقطعوا نصف أذنه اليسرى. بعد ذلك جاء بانيثو وغلام معه يصرخان وانتشر الخبر.

وعندما عرفت ذلك ذهبت مع خدمى وأناس كثيرين آخـــرين لمعرفـــة مـــا حدث، وقد وجدت جسد الفيكونت ممددًا على الأرض وهـــو ميـــت تمامـــا ومعـــه قسيسان وخمس أو ست راهبات. بعد ذلك قيلت بعض الترانيم والدعوات وطلبـــت من رجال الدين ودير سان فرانثيسكو أن يذهبوا بصلبانهم، وحملنا معنا المـــصابيح التى وجدناها ونقلنا الجسد، ووضع فى إحدى صالات القصر والمنزل حيث يوجد محل إقامته. وهذا الصباح ستدفن الجثة وسيتم القيام بكل الطقوس بكـــل الفخامـــة الممكنة.

ويشتبه فى أن المجرمين هم مجموعة من المسيحيين الجدد من رعايا هـــذه الولاية وكان الفيكونت قد سجنهم فى الأيام الماضية، وفى أثناء غيابه هربـــوا مـــن السجن، ومنذ أيام كثيرة وهم يسيرون فى جبال هذه المناطق حيث يقطعون الطريق ويسرقون السائرين والحيوانات الموجودة فى الجبال....

دى تشيلبا، ١/١٠/١٥٨٤م .

فى اليوم التالى أرسل ماركيز إيتونا هذا الخطاب للملك، وقال إنه قد أرســـل إلى بلدة تشيلبا كل قضاة مجلس الجنايات ومعهم ٧٠ رجلاً وهم يحملون البنادق.

وبعد أن علم مجلس أراغون بمحتوى هذه الخطابات أرسل خطابًا آخر إلـــى الملك يقول فيه:

"يبدو أنه لا يوجد شىء يجب تنفيذه فى هذا الصدد فقد تبـــين أن المتحـــولين الجدد يتجرءون على القيام بأعمال قذرة، ويلاحظ أن الإجراءات التى توضع هناك غير مجدية، ويبقى أن تتم دراسة الأمر المناسب لتقديم حل لكل هذه الشرور".

وقد أجاب فيليبى الثانى قائلاً:

إنه لأمر طيب أن ينظر هذا فى أقصر وقت ويقدم فى المجلـس مـا يكـون مناسبا بصورة أكبر سواء فى فالنسيا أو أراغون أو الأماكن الأخرى حتى لا تبقـى هذه الجريمة دون عقاب ويتهم آخرون، حيث يلاحظ كثرة الجرائم التى ترتكب فى هذه المملكة، وبالضرورة فإن السبب فى ذلك هو العقاب القليل الموجـود أو عـدم وجوده بالمرة. يجب لفت نظر نائب الملك والقضاء الجنائى إلى ذلك".

المراجـــع

Abel, Armando : "Les caracteres historiques et degmatiques de la polemique islamo – chretienne du VII au XIII siecles", IX Congres international des Sciences Historiques, Paris, 1990.

Acien Almansa, M : "Un ejemplo de repoblacion sensorial : la serrania de Villaluenga 1501 – 1502", comunicacion del Primer Congreso de Historia de Andalucia, 1976.

Aguilar, Gaspar : ***Expulsion de los moros de Espana por la S.C.R. Magestad del Rey don Phlipe Tercero,*** Valencia, 1610.

Alarcon y Santos Maximiliano : "Carta de Abenaboo en arabe granadino (estudio dialectal)", ***Miscelanea de Estudios y Textos Arabes,*** Mabrid 1915. pp. 693-752.

Alcala, Pedro de : ***Arte para ligeramente saber la lengua araviga,*** Granada 1505.

Alcantara Godoy, Jose : ***Historia de los falsos cronicones,*** Madrid 1968.

Aranda Doncel, Jose : "Potencial economico de la poblacion morisca en Cordoba", ***Bols. Real Acad. Ciencias, Bellas Letras y Nobles Artes de Cordoba,*** 92, 1972, pp. 127 – 152.

- "Contribucion al estudio de los moriscos en Cordoba", ***III Anales del Instituto de Bachillerato "Luis de Gongora", Cordoba,*** 1972 paginas 69 – 78.

- "La poblacion morisca en el obispado de Cordoba", comunicacion del Primer Congreso de Historia de Andalucia, 1976.

Arie, Rachel : "Acerca del traje musulman en Espana desde la caida de Granada hasta la expulsion de los moriscos", ***Rev. Inst. Est. islamicos,*** 13, 1965, pp. 103 – 117.

- "Les etudes sur lees morisques a la lumiere des travaux recents".

Revue des Etudes Islamiques, Paris, 1967, pp. 225 – 229.

Asin Palacios, Migues : "Un tratado morisco de polemica contra los judios", ***Mélanges Hartwig Derembourg,*** Paris, 1909, pp. 343 – 366.

Publicado en ***obras escogidas de Miguel Asin Palacios,*** t. II y III, C.S.I.C., Madrid, 1948, paginas 246 – 273.

- "El original arabe de la novela aljamiada "El bano de zarieb", Homenaje a Menendez Pidal, vo 1. I, Madrid, 1924, pp. 377 – 388.

- "Noticias de los mss. arabes del Sacromonte de Granada " Rev C. de Estudios ***Historicos de Granada y su reino,*** IV, 1911, pp. 249 – 278.

- "La polemica anti-cristiana de Muhammad al – Qaysi", ***Revue Hispanique,*** XXI, 1909. pp. 339 – 351.

Asso, Ignacio de : ***Historia de la economia politica de Aragon.*** Nueva edicion por Jose. M. Casas Torres, Zaragova, 1947.

Atger, A.: ***Les corporations artisanales en Tunisie,*** Paris 1909.

Ayala, Arzobispo Martin De : ***les instructions e ordinacions per dls novament convertits del regne de Valencia, festes per les autoritats apostolica y real archebispe de Valencia ha manta se guarden en est archebispat de Valencia,*** Valencia 1566. (Publ. en apendice al Concil Prov. Valentinum, cel. MDLXV).

- ***Catecismo para instruccion de los nuevament convertidos de moros,*** Valencia 1599.

- ***Doctrina Christiana en lengua araviga,*** 1566. (Reeditada por Chabas, Roque, Y Ribera, Julian, en Valencia 1911.

Aznar, Jeronico : ***Expulsion justificada de los moriscos espanoles,*** Imprenta de Pedro Cabarte, Zaragoza, 1612.

Aznar Cardona, Pedro : ***Expulsion justificada de los moriscos espanoles y suma de las excelencias christianas de nuestro Rey D. Felipe Tercero deste nombre,*** Huesca 1612.

Azorin : "Los moriscos", ***Clasicos y mordernos,*** Madrid, 1913, pp. 15 – 22.

Barcelo, Miguel : "Els nins moriscos", Primer Congreso de Historia del Pais Valenciano, vol. II, pp. 327 – 332.

Bartolome de los Angeles : ***Manifieisto de las predicaciones en 1528 y 1529,*** manuscrito inedito de la Biblioteca Universitaria de Valencia (citado por Garcia carcel).

Batallon, Marcel : ***Erasmo y Espana,*** F.C.E. Mejico 1967.

- "Les Nouveaux Chretiens de Segovie en 1610", ***Bullt. Hispanique*** LVIII, 1956, pp. 208 – 231.

Bataller, Adela : "La expulsion de los moriscos : su repercussion en la propiedad y la poblacion en la zona de riegos del Verniso, ***Saitabi*** X Valencia, 1960, pp. 81 – 100.

Bauer Landauer, Ignacio : ***Papeles de mi archive. Relaciones y manuscritos (moriscos),*** Madrid. S.f.

Benitez Claros, Rafael : "Antecedentes moriscos al genero aulico", Cu***adernos de literature,*** I 1947, pp. 247 – 254.

Benitez Sanchez-Blalnco, Rafeal : ***Las mutaciones de poblamiento : el caso de los moriscos del senorio de Casares, (Malaga),*** tesis inedita Valencia, departamento de historia moderna.

- "Lectura de las coplas de Sierra Bermeja", ***Revista de literatura,*** 1969 pagians 73 – 90.

- "El diezmo de moriscos en el obispado de Malaga" ***Estudis*** IV, 1975, pp. 162 – 177.

- "Expulsion de los mudejares y reaccion senorial en la Serrania Villaluenga", comunicacion del Primer Congreso de Historia de Andalucia.

- "Guerra y sociedad : Malaga y los ninos cautivos 1569", Extudis III 1974 pp. 31 – 54.

Bennassar, B. : **Valladolid au siecle de or,** Paris 1967.

- **Los espanoles,** Madrid, 1976.

Bermudez de Pedraza, Francisco : **Antiguidad y excelencias de Granada** Madrid, 1608.

- **Historia eclesiastica de la ciudad de Granada,** Granada 1638.

Bernaldez, Andres : "Historia de los Reyes Catolicos escrita por el bachiller que fue cura de la villa do los Palacios y capellan de D. Diego de Deza arzobispo de Sevilla", en **Cronicas de los Reyes de Castilla,** Biblioteca de los Autores Espanoles T. LXX 2 edi. Madrid 1953,

Bernis, Carmen : "Modas moriscas en la sociedad cristiana espanola del siglo XV y principios del XVI", BRAH, 144, 1959 pp.. 328 – 330.

Biarnes I Biarnes, Carmen : **Moros i moriscos en la ribera d Ebre (710 – 1615),** Barcelona, 1962, 63 paginas.

Bibliografia para la condicion juridica de moros y moriscos en el Reino de Valencia. **Catalogo de la Exposicion de Derecho Historico del Reino de Valencia,** Valencia 1955.

Bleda, Jaime : **Coronica de los moros de Espana,** Valencia 1618.

-, **Defensio fidei in causa neophytorum sive morischorum regni valentiae totiusque hispaniae,** Valencia 1610.

Boronal y Barrachina : **Los moriscos espanoles y su expulsion,** Valencia, 1901 2 vols.

Borras Y Feliu, Antoni : El bandeig dels moriscs e el collegi de sant sebastia de Gandia. Repercussions economiques", **Homenatgje a Jaume Vicens Vives,** vol. II Barcelona, 1967, pp. 67 – 74.

Bosch Vila, Jacinto : "Dos nvevos manuscritos y papeles sueltos de moriscos aragoneses", **Al-Andalus** XXII, 1957, pp. 463 – 470.

Bosque Maurel, Joaquin : **Geografia urbana de Granada,** Zaragoza, 1962.

Brahimi, D.: "Quelques jugements sur les maures andalous dans les regences turques au XVIII siecles", **Revue d Histoire et de la civilisation du Magreb,** 9 Argel, 1970, pp. 34 – 51.

Braudel, Fernand : **La mediterranee et le monde mediterraneen a la époque de Philippe II,** Armand Colin, Paris, I edic. 1949, 2 ed. 1966, 3 edic. 1976, trad. Castellana, Mexico, 1953.

- "Conflits et refus de civilisation espagnols et morisques au XVI siecle", Annals ESC, 1947, pp. 397 – 410.

- "Les espagnols et la afrique du nord de 1492 a 1577", **Revue africaine,** XLIX, 1968, pp. 184 – 233 y 351 – 428.

Cabanelas Rodriguez, Dario : "El morisco granadoino Alonso del Casillo, interprete de Filipe II", **Miscellanea de Estudios Arabes y Hebraicos** (MEAH) VI, 1856, pp. 19 – 42.

- **El morisco granadino Alonso del Castillo,** Granada 1965.

- "Cartas del morisco granadion Miguel de Luna", MEAH 1965 – 66, paginas 31 – 47.

- "Proyecto de alianza entre los sultanes de Marruecos y Turquia contra Felipe II", MEAH 1957, pp. 57 – 75.

- ***Juan de Segovia y el problema islamico,*** Madrid, 1952.

Cabezudo Astrain, Jose : "Noticias y documentos sobre moriscos aragoneses", MEAH, V, 1956, pp. 105 – 118.

- "Los conversos aragoneses", Sefarad, 18, 1959, pp. 272 – 282.

Cabrera de Cordoba, Luis : ***Relaciones de la cosas sucedidas en Espana desde 1599 hasta 1614,*** Madrid, 1857.

Cabrillana Ciezar, Nicolas : "Almeria en el siglo XVI : moriscos encomendados", ***Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos,*** 1975 pp. 41 – 68.

- "Esclavos moriscos en la Almeria del siglo XVI", dl-andalus, 1975, paginas 53 – 123.

Caceres Pla, F. : "Los tercios de Lorca en el alzamiento de los moriscos de 1568". ***Bol. Sociedad Esp. de Excurisones,*** VI, 1898 pp. 23 – 25.

- "Asalto de la Villa de Galera por D. Juan de Austria", ***Bol. Sociedad Espanola de Excursions,*** 1908, pp. 63 – 67.

- "Moros y moriscos en el siglo XVI", ***la Espana Moderna,*** agosto 1911.

Cagigas, Isidoro de las : "Una carta aljamiada granadina", ***Arabica I*** 1954, pp. 17 – 38.

- "El caso de las minorias espanolas de la Edad Media", ***Libia,*** LIV 1953.

- "Problemas de minorias y el caso de nuestro mediovo", ***Hispania*** X 1950, pp. 506 –538.

Calera Palacios, Maria del Carmen" : Los ninos de Granada : una fundacion para su ensenanza y educacion", comunicacion del Primer Congreso de Historia de Andalucia, 1976.

Cantineau J. : "Letter du Moufti d Oran aux musulmans d Andalousie", ***Journal Asiatique,*** 210, 1927, pp. 1 – 17.

Carande, Ramon : "Los moriscos de Henri Lapeyre, los de Julio Caro y algun morisco mas", ***Moneda y Credito,*** 78, 1961, pp. 9 – 26.

Cardaillac, Denise : "La polemique anti-chretienne du manuscript n04944 de la ***Biblioteque Nationale de Madrid,*** tesis, Montpellier, 1972.

Cardaillac, Louis : ***Le passage des morisques en Languedoc,*** tesis doctoral de tercer ciclo, Montpellier 1970.

- "Morisque en Provence", ***Les Langues Romanes,*** Montpellier LXXIX, 1971, pp. 259 – 298.

- "Le passage des morisques en Languedoc", ***Annales du Midi,*** 83, Toulouse, 1971, pp. 259 – 298.

- "Morisques et protestants", ***Al-Andalus*** XXXVI, 1971, pp. 29 – 63.

- ***Morisques et chretine un affrontement polemique (1492 – 1640),*** Paris, 1977.

- "Quelques notes sur la communaute morisque de catalogne au 17 eme siecle", ***Revue d Histoire maghrebine,*** 1977, num 7 – 8 pp. 91 – 98.

- "Le probleme morisque en Amerique", ***Mélanges de la casa de Velazquez,*** 1976.

- "Los moriscos de Sevilla y la Inquisicion", comunicacion al Primer Congreso de Historia de Andalucia, Diciembre de 1976.

Caro Baroja, Julio : ***Los moriscos del reino de Granada. Ensayo de historia social,*** Inst. Estudios Politicos, Madrid 1957 2 ed. 1976.

- "Los morisques aragoneses segun un autor del siglo XVII", ***Razas pueblos y linajes,*** Rev. De Occidente, Madrid 1957 pp. 81 – 98.

Carrasco Urgoiti, Soledad : ***El moro de Granada en la literatura (del siglo XV al XVII),*** Madrid 1956.

- ***El problema morisco en Aragon al comienzo del reinadoo de Felipe II*** (Estudio y apendices documentales), Edit. Castalia, Valencia 1969.

Cascales, Francisco : ***Discursos historicos de la mui noble I mui leal ciudad de Muricia,*** Murcia, 1621.

Casey, James : "Las consecuencias de la expulsion de los moriscos en la agricultura valenciana", ***Actos del III Congreso de Historia de Medicina,*** Valencia, 1965.

- "Moriscos and the depopulation of Valençia", ***Past and Present,*** 50, 1971 pp. 19 – 40.

- "La situacion economica de la nobleza valenciana en visperas de la expulsion de los moriscos", ***Homenaje al Dr. Juan Regla Campistol,*** vol. I Valencia, 1975, pp. 515 – 526.

Castaneda, Vicente : "Manifestacion de los hijos de moriscos que quedaron en Onteniente", BRAH LXXXII, 1923.

Castillo, Alonso del . "Sumario y recopilacion de todo lo romancado mi el licenciado .... romancador del Santo Officio desde antes de la Guerra del reyno de Granada hasta oy ... 1575", ***Memorial Historico Espanol*** III, 1854, pp. 1 – 164.

Castro, Americo : ***Espana en su historia. Cristanos moros y judios,*** Buenos Aires, 1948.

Cepeda Adan, Jose : "Andalucia en el ano 1508", ***Hispania,*** 1962.

- El gran tendilla medieval y renacentista", ***Cuadernos de Historia,*** 1967.

Circa Estopinian, Sebastian : ***Los procesos de hechiceria en la Inquisicion de Castilla la Nueva (Tribunales de Toledo Y Cuenca),*** Madrid 1942.

- ***Registros de los documentos del Santo Oficio de Cuenca y Siguenza,*** Cuenca – Barcelona, 1965.

Circout, Albert de : ***Histoire des maures mudijares et des morisques ou des arabes d Espagne sous le domination des Chretiens, Paris,*** 1845 – 1848, 3 vol.

Cirot, Georges : "La maurophilie literaier en Espagne au XVI eme siecle", ***Bulletin Hispanique,*** 1938 – 44, XL, 1938, pp. 150 – 157, XLVI, 1944 paginas 5 – 25.

Ciscar Pallares, Eugenio : "El endeudamiento del campesinado valenciano en el siglo XVII (El caso de las baronias de la zona de Alberique)". ***Estudis IV,*** 1975, pp. 147 – 162.

- "Prestamistas moriscos en Valencia", ***Cuadernos de Historia*** n 0 5 1975.

- Ventas de tierras de moriscos expulsados (reflexiones sobre el caso de Agullent)", Actas del Primer Congreso de Historia del Pais Valenciana, vol. III, pp. 333 – 337.

Codera, F. : "Almacen de un librero morisco descubierto en Almonacid de la sierra", BRAH, 5, 1884, pp. 269 – 276.

Coindreau, Roger : "Les corsairs de Sale", ***Publications des Hautes Etudies Marocaines,*** XLVII, 1948, pp. 1920.

Colin, Georges : "Projet de traite entre les morisques de las Casaba de Rabat et le roi d Espagne en 1631", ***Hesperis*** XLII, 1955, pp. 17 – 25.

Cologne, Chantal : "Reflet litteraire de la question morisque entre la guerre des Alpujarras et l expulsion (1571 – 1610)", ***Bolt Real Academia Buenas Letras de Barcelona*** XXXIII, 1969 – 70 pp. 137 –243.

Contreras, Rafael : "Nuevos datos sobre la guerra de expulsion de los moros", ***Revista de Espana,*** LXVIII 1879, pp. 185 – 209.

Corral y Rojas, Antonio De : ***"Relacion de la rebelion y expulsion de los moriscos del reyno de Valencia",*** Valladolid, 1613.

Correspondencia... de Felipe II y de otros personajes con don Juan de Austria desde 1568 sobre la Guerra contra los moriscos de Granada, CODOIN, XXVIII, Madrid 1856, pp. 5 – 154.

Credilla, C.P. : "Ceremonias de moros que hacen los moriscos", RABM, 1874, pp. 165 – 169.

Cueva, Luis de la : ***Dialogos de las cosas notables de Granada,*** Sevilla, 1603.

Chabas, Roque : "Los moriscos de Valencia y su expulsion", El archivo IV, pp. 231 – 234 y 373 – 388.

Chaunu, Pierre : Minorites et conjuncture. I expulsion des morisques en 1709", ***Revue Historique,*** CCXXV, I, 1961.

Davila y Collado, Manuel : ***La expulsion de los moriscos espanoles,*** Madrid, 1889.

- "Ajuar de una morisca de Teruel en 1538", BRAH, VI, 1885, pp. 410 – 416.

- "Desarme de los moriscos en 1563", BRAH, X, 1887, pp. 275 – 306.

Deny, J. : "Les pseudo-propheties concernant les Turcs au XVI eme siecle", ***Revue des Etudes Islamiques,*** X, 1936, pp. 201 – 220.

Despois, J. : ***Tunisie orientale : Sable et Basse Steppe,*** Paris, 1955.

Documents · .. relatifs a la guerre de Grenade, publ. par R. FOULCHE-DELBOSC, ***Revue Hispanique,*** XXXI, 1914, pp. 486 – 523.

Dollfus, I. : "Morisques et Chretiens de 1942 a 1570", ***Rev. d Histoire des Religions,*** XX, 1889.

Dominguez Ortiz, Antonio : "Los cristianos nuevos. Notas para el estudio de una clase social", ***Bol. Uni. ed Granada XXI,*** 1949, pp. 249 – 297.

- "Los moriscos granadinos antes de su definitiva expulsion", MEAH, XII-XIII, 1963 – 64, PP. 113 – 129.

- La esclavitud en Castilla durante la edad modena", ***Est. de H. Social de Espana*** II, 1952 pp. 369 – 428.

- "Felipe IV y los moriscos", MEAH VIII, 1959, pp. 55 – 65.

- "Notas para una socilolgia de los moriscos espanoles", MEAH, XI, 1962 pp. 39 – 54.

- ***Politica y hacienda de Felipe IV,*** Madrid 1960.

- ***Crisis y decadencia de la Espana de los Austria,*** Madrid, 1969 (ver "Delitos y suplicios en la Sevilla imperial").

- "Algunos documentos sobre moriscos granadinos", ***Miscelanea de estudios dedicados al profesor Antonio Martin Ocete,*** Granada, 1974, vol. I, pp. 274 – 254.

Dressendoerfer, Peter : ***Islam unter der Inquisition Die moriscos Prozesse in Toledo,*** 1575 – 1610, Wiesbaden, 1971.

Echegaray, Bonifacio : Se establecieron los moriscos en el Pais Vasco de Francia ?", ***Bulletin Hipanique,*** XLVII, I, 1945, pp. 92 – 102.

E [plaza Mikel de y Petit, Ramon : ***Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie,*** Inst. Hispano - Arabe, Madrid, 1974.

Epalza, Mikel de : "Moriscos y andalusies en Tunez durante el siglo XVII", ***Al-Andalus,*** XXXIV, 1969, pp. 247 – 329.

- "Sobre un posible autor espanol del Evangelio de Bernabe", ***Al-Andalus,*** 28, 19063, pp. 479 – 481.

- "Notes pour une histoire des polemiques anti-chretiennes dans l Occidente musulman", ***Arabica,*** IXIII, 1971, pp. 99 – 106.

- "Recherches recents sur les emigrations des moriscos en Tunisie", ***Cahiers de Tunisie,*** XVIII, Tunez, 1970, pp. 139 – 147.

- La tuhfa autobiografia y polemica contra el cristianismo de Abdallah al-Taryuman (Fray Anselmo Turmeda), Roma, 1971.

Escolano, Diego : ***Memorial a la Reina N.S. cerca de las muertes que en odio de la fe y religion christiana dieron los moriscos revelados a los christianos viejos (y algunos nuevos) residentes en las Alpuxarras deste Reyno de Granada en el levantamiento del ano 1568,*** Imp. Real Granada, 1671.

Escolano, Gaspar : ***Decades de la insigne y coronada ciudady Reyno de Valencia,*** ed. Por Perales, Valencia, 1878 – 80.

Espadas Burgos, Manuel : "Aspectos sociorreligiosos de la alimentacion Espanola", ***Hispania,*** no 131, 1975, pp. 537 – 565.

Espinel, Vicente : ***Marcos de Obregon,*** Clasicos Castellanos tomo LI, Madrid, 1960.

Fajardo, Luis : ***Relacion verdadera sacada de una carta que vino al Ilustre Cabildo y regimiento desta ciudad de lo sucedido al Marques de los Velez... con los moriscos revelados,*** Sevilla, 1569.

Ferchiou, S. : ***Technique et societe : la fabricacion de la chechia en Tunisie,*** Paris 1971.

Fernandez y Gonzalez, Francisco : "De los moriscos que permanecieron en Espana despues de la expulsion decretada por Felipe III", ***Revista de Espana*** XIX, 1877, pp. 103 – 114, y XX, 1871, pp. 363 – 376.

Fernandez y Gonzalez, Manuel : ***Los monfies de las Alpujarras,*** Madrid 1856.

Fernandez Guerra, Aureliano : ***Reflexiones sobre la rebelion de los moriscos y censo de poblacion,*** Granada, 1840.

Fernandez Nieva, Julio : "Un censo de moriscos extremenos de la Inquisicion de Llerena (ano 1594)", ***Rev. de Est. extremenos,*** XXIX, 1973, numero I, pp. 149 – 76.

- ***Los moriscos en extremadura (1570 –1614). Aspectos demograficos, socioeconomicos y religiosos,*** tesis de la Universidad Compultense de Madrid, 1974.

Ferrer Nasanso, Pau : ***Los moriscos de la Corona de Aragon a traves de las listas de embarque,*** tesis de la Universidad Autonoma de Barcelona, 1974.

Fleury, V. : ***Les industries indignes de la Tunisie,*** Paris 1960.

- "L industrie tunisienne des sasiyas", ***Revue du Commerce et de l Industrie,*** Paris, 1895.

Fonesca, Demian : ***Justa expulsion de los moriscos de Espana, con la instruccion apostasia y traicion dellos y respuesta a las dudas que se ofrecieron acerca desta material,*** Roma, 1611.

- ***Del giusto scacciomento de Moreschi da Spagna libri sei del Padre ... dell ordine dei predicatori, tradotto dal Spagnolo in italico da Cosino Gaci,*** Roma 1611.

Foradada, Jose : "La insurreccion de los moriscos de las Alpujarras y el Marques de Mondejar", ***Rev. Contemporaned,*** XXX, 1880, pp. 268 – 272.

Ford, J.D.M. : ***Old Spanish Sibilants,*** Boston 1900.

- ***Relacion de lo que paso en la expulsion de los Moriscos del Reino de Valencia,*** Roma 1618. Reedicion en Valencia, 1878.

Foulche-Delbosc, R. : "Memorial de Francisco Nunez Muley", ***Revue Hispanique,*** 1899, pp. 205 – 239. (Es la primera publicacion integral de este texto).

Fradejas, Jose : "Musulmanes y moriscos en el teatro de Calderon", ***Tamuda,*** V, 1967, pp. 185 – 228.

Friedman, Ellen G. : "Moriscos and Corsairs an intensified anti-spansh offensive", Conferencia en la Society for Spanish and Portugueses Historical Studies, 8 Conferecia annual, 1977.

Fuster, Joan : ***Poetas moriscos y curas,*** ed. Ciencia Nueva, Madrid, 1969.

- ***Rebeldes y heterodoxos,*** Barcelona, 1972.

Galiay Saranana, Jose : ***Arte mudejar aragones,*** Zaragoza, 1950.

Gallego y Burin, Antonion : ***Granada, Guia artitica e historica de la ciudad,*** 2 ed, Madrid, 1961.

Gallego y Burin, Antonio y Gamir Sandoval, Alfonso : ***Los moriscos del Reino de Granada segun el sinodo de Guadix en 1554.*** Granada, 1968.

Galmes De Fuentes, Alvaro : ***El libro de las Batallas (narracciones caballeriscas aljamiado - moriscas),*** Universidad Oviedo, 1967.

- ***Historia de los amores de Paris y Viana,*** Ed. Gredos, Madrid, 1970.

- "Le-yeismo y otras cuestiones linguisticas en un relato morisco del siglo XVII", ***Estyduis deducadis a Menendez Pidal,*** VII, Madrid 1956.

- "Interes en el orden linguistico en la literatrtura espanola aljamiadomorisca", ***Actes du X Congres Interntional de Lingustique et de Philology romanes,*** t. II, 1965, pp. 527 – 546.

Gamir Sandoval, Alfonso : ***Organizacion de la defensa de la costa del Reino de Granada desde su reconquista hasta finales del siglo XVI",*** Granada 1947.

- "Repartimientos ineditos del servicio de la guarda de la costa granadina (siglo XVI)", ***Homenaje a Don Ramon Carande,*** tomo 1 pp. 87 – 131.

- "Las fardas para la costa granadina (siglo XVI)", ***Carlos V, Homenaje de la Universidad de Granada,*** Granada, 1958, pp. 293 – 330.

Garcia Arenal, Mercedes : ***Los moriscos,*** Madrid, 1975.

- ***Los moriscos de Cuenca y la Inquisicion,*** tesis inedita, Madrid, 1974.

Garcia Ballester, Luis : ***El ejercicio medico morisco y la sociedad cristiana,*** Universidad de Granada, 1975.

- ***Medicina mudejar y morisca,*** Madrid, 1976.

Garcia Carcel, Ricardo : ***Origenes de la inquisicion Espanola. El tribunal de Valencia,*** 1478 – 1530, barceona, 1976.

- "La revuelta morisca de Espadan", ***Al-Andalus,*** 1976, pp. 121 – 146.

- "Granada para los moriscos valencianos : mito abstracto o modelo operative ?", comunicacion al Primer Congreso de Historia de Andalusia, diciembre, 1976.

- "Las rentas de la inquisicion de Valencia en el siglo XVI", ***Anuario de Historia Moderna y Contemporanea,*** num. 2 – 3, 1975 – 76, pp. 57 – 58.

Garcia Carcel, R. y Ciscar Pallares, E. : ***moriscos y agermanats,*** Valencia 1974.

Garcia Chico, Esteban : "Los moriscos de Tordesillas", Simanca, I, 1950, pp. 240 – 341.

Garcia Martinez : "Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II", ***Estudis*** I, Valencia 1972, pp. 85 – 167, Reimpresion, Universidad de Valencia, 1977 con indices.

Garcia Sanz, Arcadio : "Mudejares y moriscos en Castellon", ***Bol. Sociedad Castellonense de Cultura,*** 1952, pp. 94 – 114.

Garrad, K. : "The original memorial of Don Francisco Nunez Muley", ***Atlante,*** II, no 4, 1954, pp. 168 – 226. (Ver Foulche – Delbosc).

- "La Inquisicion y los moriscos granadinos", ***Bullet Hispanique,*** LXVII, 12, 1965, pp. 63 – 77.

- La renta de los habices de los mezquinos de las Alpujarras y Valle de Lecrin. Algunos datos sobre su administracion a mediados del siglo XVI", MEAH, II, 1953, pp. 41 – 48.

- La industria sedera granadina en el siglo XVI y su conexion con el levantamiento de las Alpujarras", MEAH, V 1956, pp. 73 – 104.

- ***The Causes of the second Rebellion of the Alpujarras (1568 – 1571),*** tesis inedita, Universidad de Cambridge, 1955.

Garrido Aranda, Antonio : "Papel de la Iglesia de la Granada en la asimilacion de la sociedad morisca", ***Anuario de Historia Moderna y Contemporanea,*** num. 2–3, 1975 – 1976, pp. 69 – 103.

Garrido Atienza, Miguel : "Los moriscos granadinos. Agueros hechizos, encantamientos y otros moleficios", ***La Alhmabar,*** II, 1899, pp. 349 – 350.

- ***Las capitulaciones para la entrega de Granada,*** Granada, 1910.

Garzon Pareja, Manuel : ***La industria sedera en Espana. El arte de la seda en Granada,*** Granada, 1972.

- ***Diezmos y tributes del clero de Granada,*** Granada, 1974.

Gaspar Remiro, Mariano : ***Granada en poder de los Reyes Catolicos,*** 1492 – 94, Granada, 1912.

- "Emigracion de los moros granadinos allende", ***Rev. Centro Est. Hcos. de Granada y su reino,*** 1911.

- "Granada en poder de los Reyes Catolicos. Primeros anos de su dominacion", ***Rev. Centro Est. Hcos de Granada y su reino,*** 1911.

- ***Ultimos pactos y correspondencia entre los Reyes Catolicos y Boabdil sobre la entrega de Granada.*** Granada, 1910.

Gautiel Dalche : "Des mudejares aux morisques deux articles, deux methods", ***Hesperis,*** 45, 1958, pp. 271 – 289.

Gayangos, Pascual de : "Language and literature of the Moriscos", ***Journal of the Royal Asiatic Society,*** 1868 – 1873.

- "Suma de los principales mandamientos y devedamientos de la ley y cunna", ***Memorial Historico Espanol,*** V, 1853.

- "Glosario de las palabras aljamiadas y otras que se hallan en dos tratados y en algunos libros de moriscos", ***Memorial Historico Espanol,*** V, Madrid 1853, pp. 423-449.

Gil, Pablo : "Los monuscritos aljamiados de mi coleccion", ***Homenaje a don Francisco Codera,*** Zaragoza, 1904, pp. 537 – 49.

Gil, Pablo - Ribera, Julian Sanchez, Mariano : ***Coleccion de textos aljamiados,*** Zaragoza, 1888.

Giner, Francisco : "Cervantes y los moriscos valencianos", ***Anales del Centro de Cultura,*** Valencia, 1962, pp. 131 – 149.

Gonzalez, Tomas : ***Censo de poblacion de las provincias y partidos de la corona de Castilla en el siglo XVI,*** Madrid, 1829.

Gonzalez Asensi, Ana Maria : "Disposciones sobre el control de moriscos al comienzo del virreinato del Duque de Segorbe (1559 – 1560)", Primer Congreso de Historia del Pais Valenciano, 1975, pp. 181 – 188.

Gonzalez de Cellorigo, Martin : "Memorial al Rey sobre asesinatos, atropellos e irreverencias contra la religion cristiana cometidos por los moriscos", en ***Memorial de la politica necesaria y util restauracion de la politica de Espana,*** Imp. J. de Bostıllo, Valladolid, 1600.

Gonzalez Palencia, Angel : "Un curandero morisco del siglo XVI y las Fuentes de la comedia "Quien mal anda mal acaba" de Juan Ruiz de Alarcon", BRAE, XVI, 1929, pp. 199 – 222, y XVII, 1930, pp. 247 – 274.

- ***Historia de la literatura arabigo-Espanola,*** Barcelona, 1945.

- "Noticıas y extractos de algunos manuscritos arabes y aljamiados de Toledo y Madrid", ***Miscelanea de estudios y textos arabes,*** Madrid, 1915, paginas 117 – 145.

- "Cervantes y los moriscos", BRAE, 1947 – 48. pp. 107 – 122.

Gozalbes, Busto : "La Republica andaluza de Rabat en el siglo XVII", ***Cuadernos de la Biblioteca Espanola de Tetuan,*** n0 9 – 10, 1974, p. 464.

Guadalajara y Javier, Marcos : ***Memorable expulsion y iustismo destierro de los moriscos de Espana,*** Pamplona, 1613.

- ***Prodicion y destierro de los moriscos de Castilla hasta el valle de Ricote. Con las disensiones de los hermanos Xarifex y presa en Berberia de la fuerca y Puerto de Alarche,*** imp. Nicolas de Assiayn, Pamplona, 1614.

Guerra de Lorca, Pedro : ***Catecheses mystagogicas pro aduenis ex secta mahometano in gratiam parochorum et saecularium potestatem***, Madrid, 1586 .

Gullen Robles, F.: ***Leyendas moriscas sacadas de varios manuscritos existentes en las bibliotecas Nacional, Real y de P. Gayangos,*** Madrid, 1885-1886

-" Historia de los amores de Paris y Viana" , ***Rev. Historice***, XXII, Barcelona, 1876 .

- ***Leyendas de Jose y de Alejandro Magne,*** Zaragoza, 1888

Haedo, Fr. Diego : ***Topografia e historia general de Argel,*** Madrid, Sociedad de Bibliofilos Espanoles, 1927 .

Haperin Donghi, Tulio : " Un conflicto nacional : moriscos y cristianos viejos en Valencia" , ***Cuddernos de H. de Espana,*** Buenos Aires, XXIII, XXIV, 1955, pp. 5-115, y XXV - XXXVI, 1957, pp.83 - 250.

- " Recouvrements de civilization : les morisques du royaume de Valence au XVIeme siecle " , ***Anales*** ESC., XI, no 2, 1956, pp. 154 - 182 .

Harvey, L.P.: "Crypto-islam in sixteenth century Spain" , Actas del ***Primer Congreso de Estudios Arabes e Islamicos*** , Cordoba, 1962 pp. 163 - 178, Madrid, 1964.

- " A Morisco Reader of Jean Lemaire des Belges ? " , ***Al-Andalus*** XXVIII, 1963, pp. 231 - 236.

- A Morisco Manuscript of the Godolphim Colleccion at Zadham College, Oxfoord: , Al- Andalus, 23, 1958 , pp. 46-74.

- The Morisco who was Muley Zaidan s Spanish Interpreter: Ahmad ben qasim Ibn al - Faquih Qasiim al -Shaikah al-Hajari al-Andlusi" , . MEAH, VIII, 1959, pp. 67 - 97 .

- " El mancebo de Arevalo y la tradicion cultural de los moriscos" , ***Actas del primer***

coloquio sobre literatura aljamiado - morisca, Gredos, Madrid, 1972 - 1973 .

-:" The Arabic dialect of Valencia in 1595". Al-Andalus, XXXVI, 1971, pp. 81- 117.

- " A maho desamago, maho, amahar ...a Family of words common to the Spanish speech of the jews and the moriscos", ***Bullerin of Hispanic Studies,*** XXXVII, 1960, pp. 69 - 74.

- ***The literary culture of the moriscos (1492 - 1609) A Study Based on the Extant mms. In Ardbic and aljamia,*** Oxford , 1958 .

- " Yuse Benegas, un moro noble en Granada bajo los Reyes Catolicos" , ***Al-Andalus,*** XXXI, 1956, pp. 297 - 302 .

- ***The Moriscos and don Quixote,*** University of London , King s college, 1974 .

Hegyl, Ottmar : ***Edicion yestudio del mauscrito aljamiado no 4953 de la Biblioteca Nacional de Madrid,*** Toronto, 1969 .,

Herrearra Aguilar, Ana-Segunda : ***Don Pedrom de Deza y la Guerra de Granada (1568 - 1570) .*** Resumen de tesis doctoral , 1974 .

Herrerra Puga, Pedro: ***Socidad y delinciuencia en el siglo de oro ,*** Granaa 1971 .

Herrerro, Guillermo : " ***La poblacion palentina en los siglos XVI y XVII" , Publicaciones de la Inst. Tello Tellez de Meness***, 21, Palencis, 1961, paginas 1 - 115 .

Gerrerro Garcia , M. ***Ideas de los espanoles del siglo XVII,*** Ed. Voluntad , Madrid, 1926 .

Hess, Anderew : " The moriscos : An Ottoman Fifth Column in Sixteenth Century Spain" , ***The American Gistorical Revue ,*** LXXIV, 1968 - 69, pp. 1 - 25.

Hitos, Francisco : ***Martires de la Alpujarras en la revelion de los moriscos*** , 1568, Madrid, 1935 .

Goenerbach, Wilhaem : ***Spanish - islamicshe Urkunden aus der Zeit der Nastiden und morisco,*** Bonn, 1965 .

Horozco, Sebastian De : ***Relacion verdadera del levantamiento de los moriscos en el renio de Granada e histora de su Guerra.*** Inedito.

Hurtado de Mendoza, Diego: ***Guerra de Granada hecha por el rey de Espana don Felipe II contra los moriscos de aquel reino sus rebeldes,*** Biblioteca de Autores Espanoles (B.A.E.) , Historiadorss de sucesos particulares , I , Madrid, 1946, pp. 65 - 122.

- " De la Guerra de Granada" , ed. Critica de Manuel Gomez Moreno , ***Memorial Historico Espanol,*** LXIX, Madrid , 1948.

- Guerra de Granada , ed. Blanco-Gonzalez, Madrid, Catalia, 1970.

Inan , Muhammad Abdallah : Nihayat al al-Andalus wa-ta rih al arab al mutanasirin, Cairo, 1958.

Janer, Florengio : ***Condivion sociql de los moriscos en Espana, Causas de su explulsion y consecuencias que esta produjo en el orden ploitico y economice,*** Madrid, 1857.

Joquin, Jeanne : " Documents sur le costume des Musulmans d espagne" , ***Revue Afrucaine,*** 1934 (Vid moriscos, pp. 43 - 46) .

Kamen, Henry : ***The Spanish Inquisition,*** Londres, 1965 , ***La Inquisisicion Espanola*** , trad. Madrid, 1973.

Kendrick, T.D. : ***Saint James in Spain,*** Londres, 1960 v. pp. 69 - 72 Penk, Ursula : " La leyenda de Yusuf ein aljamiadotext" , Beibefte zur Zeitschriftf. ***Romanische Philolgie,*** Be. 134, 1972.

Kontzi, Reinhold : ***Aljamiado texte,*** Wiesbasden, 1973, 2 vol.

- " Aljamiado elem als erstes zeugnis, fur spanish elemi- franzosisch elemi", ***Verba et vocabula,*** Ernst Gamilscheg zum 80, Geburstag (Munich, 1968), pp. 285 - 289

- " Aspectos del estudio de textos aljamiados", ***Thesaurus,*** XXV , 1970, paginas 196 - 213.

Labib, Gisela : " Der Maure in den dramatishen Werk Lope de Vega", Universit, Hamburgo, 1961.

- " Spanische Lautentwicklung und arabisch - islamischer Geist en einem Al-jamiado-manuscript des 16 Jahrhundrerts (ms. 5301 der Biblioteca Nacional de Madrid" ,

Voz Romana, 26 , 1967 , pp. 37 - 109 .

Lacarra, Jose M. : " Aragon en el pasado" , en ***Aragon, cuatro ensayos***, I Zaragoza, 1960, pp. 316 - 320 .

Ladero Quesada : ***Los mudejares de Castille en tiempos de Isabel*** I, Valladolid , 1969.

M.A, - Granada. ***Historia de un pais islamico (1323 - 1571),*** Madrid 1959.

Lepeyre, Henri : " Geographie de l Espagne morisque" SEVPEN, Paris, 1959.

La Rigaudiere : ***Histoire des persecutions religieuses de Espagne : Juife, Maures et Protestants.*** Paris 1860

Larrea Palacin, Arcadio : ***El dance aragones y las representaciones de moros y cristianos,*** Teruan, 1952.

Latham, J.D. : " Towards a study of andalusian immigrations and its place in Tunisian history" , ***Cahiers de Tunisie***, 5 , Tunez, 1957, pp. 203 - 252.

Lea, Henry Charles : ***A History of the Inquisition of Spain ,*** Nueva York, 1906 - 07, 4 vol. (vid Vol III, pp. 323 - 409) .

- The Moriscos fo Spain, their Conversion and Expulsion, Londres, 1901, y Nueva York, 1968.

- " The Decadence of Spain " , . ***Atlantic Monthly,*** vol LXXXII.

Leclerc : ***Histoire de la tolerance an siecle de la Reforme,*** Paris, 1955.

Le Flem, Jean Paul : " Un censo de moriscos de Segovia y su provincial", ***Estudios Segovianos,*** Segovia, 1964, XVI, pp. 433 - 364.

- " Les moriscos du Nord-ousest de l Espagne d après un recensement de l Inquisition de Valladolid", ***Mélanges de la Casa de Velazquez*** I, 1967, pp. 223 - 245 .

Levi-Provencal, E. : "Moriscos: art. En Encyclopedie de l Islam, Leyden, Paris 1960 .

- Y Harvey, L.P. : " Aljamiado: , art. En Encyclopedie de l Islam, Leyden, paris 1960 .

Loncoln, Joseph N. : " Aljamiado prophecise: , ***Publications of the Modern Language Association,*** 52. 1937 , pp. 613 - 644 .

- " Aljamiado Texts: legal and religious: , ***Hispanic Review,*** XIII, 1945, paginas 102 - 124.

- " An itinerary for Moriscos Refugces form Sixteenth Century Spain: , ***American Geogrqhical Review, 29 , Nueva York, 1939*** , pp. 283 - 487 .

Longas, Pedro : ***Vida religiosa de los moriscos,*** Madrid, 1915 .

Lopes, D. : ***Textos en aljamia portuguesa,*** Lisboa, 1897.

Lopez Martinez, Celestino : Mudeiares y moriscos sevillanos, Sevilla 1935

Lopez Mata, Teofilo : " Burgos en la sublevacion de los morisc os ed Granada en 1570", BRAH, CXLI, 1957, pp. 331 - 372 .

Lopez de Mendoza, Inigo : " Memorie presente au roi Philippe par - pour justifier sa conduite pendant les campagnes qu il dirigea contre les Morisques en 1569" , en l Espagne qu XVIeme et au XVIeme siecle. Documents historque et litteraires publies et annotes par Alfred Morel; Fatio, Heilbrood 1878 .

Lopez Mata, Teofilo : " Burgos en la sublevacion de los noriscos de Granada en 1570" , BRAH, CXLI, 1957, pp. 331 - 372X.

Lopez Ruiz, Emilio.: " La Guerra contra los moriscos vista desde Jaen" , Boletin del Instituto de Estudios Giennenses , no 60, 1969, pp. 9 - 97 .

Loupias, Bernard : " la practique secrete de l Islam dans les dioceses de Cuence et de Siguenza au XVI et XVII siecles" Hesperis Tamuda, 1965, paginas 115 - 132 .

- " En marge de un revensement des Morisques de la villa de El Toboso" (1954), Bulletin Hispanique, 1976, tomo 78, pp. 74 - 96 .

- Marques de Lozoya: " Lo morisco en America" , Archivo del Instituto de Estudios Africanos, tomo 14 , no 50 , 1960

Llorens y Raga, Peregrin Luis : Los moriscos y la parroquia de San Pedro de la ciudad de Segorbe, Inst. Laboral, Segorde. 1958 .

Llorente, Juan Antonio : Historia critica de la Inquisicion de Espana, Barcelona, 1835.

Magraner, R. : La expulsion de los moriscos , sus razones juridicas y consecuencias

economicas para la region valenciana, Balencia.

Manzanares de Cirre, Manuela : " Notas sobre la Aljamia : , Anuario de Estudios Medivales, 5, Barcelona, 1968, PP. 479 - 783 .

- " El otro mundo en la literatura aljamiado - morisca" , Hispanic Review, XLI, 1973, pp. 599 - 608 .

- : Dos manuscritos aljamiados ineditos: , Modern Philology, 52 1965, paginas 130 - 136 .

- " Textos aljamiados. Poesia religiosa morisca" ,, Bulletin hispanique, XXII, no 3 - 4 1970, pp. 325 - 372 .

Marc, Marie-Jose : " La communaute morisque d Hornachos (Esremadure) dans les annees 80 de XVI siecle : analyse d une fidelite musulmane: , comunicacion al coloquio de Privas (mayo 1977) " Histoire et clandestinite".

Marcais, Georges : " Testour te sa grande mosque. Contribution a la etude des Andalous en Tunisie" , ***Revue Tunisienne,*** Tunez, 1942, pp. 147 - 169. Reed. Tunez, 1969 .

March, Jose M.: " Sobre la conversion de los moros del reino de Granada. Nuevo documento" , ***Razoon y Fe,*** 79 , Madrid, 1927 , pp. 338 - 348 .

Marin Ocete, Antonio : ***El arzobispo Don Pedro Guerrero y la politica coniliar Espanola en el siglo XVI,*** Madrid, 1970 2 volumene.

Marmol Carvajal, Luis De : ***Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada,*** Bibl. de Autores Espanoles, XXI.

Marquez Billanueva, Francisco: Personajes y tfemas del Quijote. " Parte carta : el morisco Ricote", Madrid, Taurus, 1975 .

Martinez Ruiz, Juan : " Escritura bilingue en el Rfeino de Granada)s. XVI) segun documentos ineditos del Archivo de la Alhambra" , ***Actas del Primer Congreso Internacional de hispanistas,*** Oxford, 1964, pp. 371 - 374 .

- " Lexico de origen arabe en documentos granadinos del siglo XVI" ***Revista de Fi-***

lolgia Espanola, XLVIII, 1965, pp. 121 - 133 .

- " Siete Cartas de dote yarras del archivo de la Alhambra (1546 - 1609) " ***Rev. de Dialectologia y Tradiciones Populares*** RDTP XXII, 1966, pp. 41 - 72

- ***Inventarios de bienes moriscos del Reino de Granada*** (s. XVI) , Madrid, CSIC. 1972 .

- " La indumentaria de los moriscos segun Perez de Hita y los documentos de la Alhambra " , ***Cuadernos de la Alhambra*** , 3 , 1967 , pp. 55 - 124 .

- " Almoahadas y calzados moriscos. Secuestros de bienes en Mondejary Granada (1557 - 1569) " , RDTP, XXX, 1967, pp. 289 - 313 .

- " Notas sobre el refinado del azucar de cana entre los moriscos Granadinos", RDTP, XX, 1964, pp. 271 - 288 .

- " Un Nuevo texto aljamiado : el recetario de sahumerios en uno de los manuscritcs arabes de Ocana", RDTP, XXX, 1974, pp. 3 - 19 .

- " Un capitulo de topnimia arabe granadina en el siglo XVI" , ***Tamuda***, 1954, pp. 326 - 339 .

- " Fuentes ineditas de lexico hispano - arabe" , ***Revista de Filologia Espanola,*** 1965 , pp. 421 - 435 .

- " Antroponomia morisca Granadina en el siglo XVI y su interes para la onomastic hispanica" , ***Actas del XI congreso internacional de linguistica y filologia romanica*** (Madrid 1965) , pp. 1935 - 1956 .

- " Cautivos precervantinos. Cara y cruz del cautivario" . ***Revista de Filologia Espanola,*** 1967, pp. 203 - 256 .

- " Mauraca, moraca", ***Revista de Filologia Espanola***, 1963, pp. 461 - 463 .

- "Documentos moriscos granadinos del siglo XVI y lexico andaluz" , comunicacion del primer congreso de Historia de Andalucia, diciembre de 1976 .

- Y Albarracin, Joaquina : ***Libros arabes aljamiado - mudejres y bilingue descubiertos en Ocana*** (Toledo 1969).

Marty, P. : " Folklore tunisien : 1 onomastique des noms propres de personne", ***Rev. des Etudes Islamiques,*** X 1936. pp. 363 - 434 .

Mas Albert : ***Les Turcs dans la literature espagnole du sievle d or***, Paris, 1967 .

Mateo, I.Di : ***Un codice espagnolo inedito del secolo XVII di Ibrahim Taylibi,*** Palermo, 1912

Melon Ruiz de Gordozuela, Amando : ***Lupercio Latras y la Guerra de moriscos y montaneses en Aragon a fines del siglo XVI,*** Zaragoza, 1917 .

Moreno Casado, Jose : "Los gitanos de Espana bajo Carlos I" , Chronica Nova, 4 - 5 , 1970 .

- " Las capitulaciones de Granada en su asecto juridico", Bol. Univ. de Granada, t. 21 , 1949 , pp. 301 - 331

Moreno Manzano, J. : " La Proteccion Real de los moriscos en su expulsion del Ducado de Sesa, 1609 - 1610" , comunicacion del Primer Congreso de Historia de Andalucia .

Morf, H. : " Poema de Jose" , Gratulationsschrift der Universitat Bern an die Universitat Zurich, Leipzig, 1883

Moron, Ciriaco : " Una vision inedita de la expulsion de los moriscos" , Salmanticensis, VI, 1959, pp. 483 - 502.

Muller, Marc Jos : " Morisco Gedichte", Sitzungberichte der konigl bayerischen. Akademie der Wissenchaften zu Munchen, 860, pp. 201 - 253 .

Munoz y Gaviria, J. : Hisistoria del alzamiento de los moriscos, su expulsion de Espana y sus consecuencias en todas las provincias del Reino, Madrid, 1861

Navarro del Castillo, V. : " Elproblema de la revelion de los moriscos granadinos y sus repercusiones en Extremadura, principalmente en la comarca emeriense (1570 - 1609) " , Rev. de Estudios Extremenos XXVIII, 1972, pp. 551 - 569.

Nykl, A.R. : " Acompendium of aljamiado literature" , Revue Hispanique , 77, 1929, pp. 448 - 587 .

- " El rrekontamiento del rrey Alisander" , Revue Hispanique, LXXVII, 1929, pp. 409 - 611 .

Ocana Ocana, Carmen : La vega de Granada , Granada, 1974

Oliver Asin, Jaime : El Quijote de 1604 , Madrid, 1948

- Vida de Bon Felipe de Africa , principe de Fez y Marruecos , Madrid - Granada, 1955

- " Un morisco de Tunez, admirador de Lokpe" , Al-Andalus , I, 1933, paginas 413 - 518 .

Oriol Catena, F. : " La repoblacion del reino de Granada despues de la expulsion de los moriscos" , ***Bol. Univ. de Ganada ,*** VII, 1935, pp. 305 - 331, 449 - 528 .

Oshaughnessy , T. J. : " Islamic Law and non-Muslim Governments" , ***Philippine Studies,*** XII, 1964 , pp. 439 - 442

Palacio Atard : ***Derrota agotamiente, devadencia de Espana en el sigle XVII,*** Madrid, 1949 .

Palanco Romero, Jose : ***Aben-Humeya en la historia y en la leyenda,*** Granada, 1915 Pano y Ruata Mariano : ***Las coplas del Peregrino de Puey Moncon, viaje a la Meca en el siglo XVI,*** zaragoza, 1897 .

- " El Racontamiento de Almicded y Almayesa" , Homenage a Codera, Zaragoza. 1904, pp. 35 - 50 .

Pareja, Felix : " Un relato morisco sobre la vida de Jesus y Maria" , ***Estudios Evlesiasticos,*** XXXIV, Madrid, 1960, pp. 859 - 871 .

Pelorson, Jean Marc : " Recherches sur la comedia : Los moriscos de Hornachos " , ***Bulletin Hispanique,*** LXXIV, 1972 pp. 5 - 42 .

- Toujours sur la comedia : Los moriscos de Hornachos" , ***Bulletin Hispanique,*** 1975 , pp. 391 - 394 .

Penella, J . : ***Los moriscos espanoles emigrados al Norte de Africa despues de la expulsion,*** tesis doctoral, Barcelona , 1971 .

Perez, Pero : "Moriscos , cuchilladas y favor a la justicia" , Rev del ***Centro de Estudios Extremenos ,*** 1941 .

Perez Bustamente, Ciriaco: " El pontifice Paulo V y la expulsion de los moriscos" , BRAH CCXXIX, 1951, pp. 219 - 233 .

Perez de Culla, Vicente : ***Expulsion de los moriscos rebeldes de la Sierra y Muela de Cortes*** , Valencia 1695 .

Perez de Hita, Gines : ***Guerras civiles de Granada,*** Cuenca, 1619 .

(Reproduccion de la ed. de Cuenca por P. Blanchard-Demonge, Madrid, 1913. La 2 parte, en ***Biblio. Autors Espanoles,*** III)

Pertegas, Jose Rodrigo :"Lamoreria de Balencia. Ensayo de descripcion topografico-historica", BRAH LXXXVI, 1925 .

Pieri, H. : " laccueil par les tunisiens aux morisques expulses d Espagne : un temoignage morisque" , ***Ibla*** (Tunez), 118, 1968, pp. 63 - 70

Pieri, J.: " Une geographie de l Espagne morisque", Cahiers de ***Tunisie,*** 14, Tunez, 1966, pp. 286 - 300.

pike, Ruth : " An Urban minority : the Moriscos of Sevilla" , ***Journal of Middle East Studies,*** II, 1971, pp. 368 - 377

Piles, Leopoldo : ***Aspectos sociales de las Germanias de valencia,*** CSIC, Madrid, 1952 .

Pinta Llorente, Miguel De la: ***La Inquisicion Espanola y los problemas de la cultura y de la intolerancia,*** Madrid. 1953 .

Planella, J. : " Judıos y moriscos espanoles . Rectificacion de un juicio erroneo" ***Razon y Fe,*** I 1901, pp. 496 - 506 .

Ponce de Leon, Brigido : ***Historia de alhendin ,*** Madrid, 1960 (vid capittulos 10, 11, 12, y 13) .

Pons Boigues, Franciso : " La Inquisicion y los moriscos de Valencia" , El ARchivo, II, 1887 - 55, pp. 251 258 y 309 - 314

Ponsot : " Les morisques, la culture irriguee du ble et la probleme de al decadence de laagrculture espagnole au XVIIeme siecle ", ***Mélanges de la Casa de Velazquez,*** VII, 1971, pp. 237 - 262

Ravadan, Mohamet : ***Mahometism Fully Explained.. Written in Spanish and Arabic in the Year MDCII for the Instruccions of the Moriscos of Spain by an Aragonian Moor. Translated and. .Jiustratedwith Large Explanatory Notes by Mr. Morgan,*** Londres 1723.

Rabasco Valdes, Jose Maria: " DOS aspectos de la esclavitud morisca" ,Malaga, 1569, ***Homenaje al Doctor Juan Regia Campistol,*** vol. I,Valencia, 1975, pp. 293 - 302. Rahn Phillips :" The Morisco Expulsionfrom Castile: Notes for Further Study" , comunicacion al Congreso Anual de la Society for Spanish and Portuguese Historical Studies .

Resumen en ***Newsletter***, mayo, 1975, paginas 52 - 54.

Redondo, Agustın: ***Antonio de Guevara et l Espagne de son temps,*** Paris, 1977.

Regia, Joan :" Valencia i els moriscos de Granada" , Primer Congreso de Historia del Pais Valenciano , vol. III, pp. 209 - 214.

-" Estudios sobre los moriscos", ***Anales de la Universidad de Valencia,***1964, y Ariel, Barcelona, 1975.

- " La cuestion morisca y la coyuntura intemacional en tiempos de Felipe II", ***Estudios de Historia Moderna,*** III, 1953, pp. 217 - 234.

- " La expulsion de los moriscos y sus consecuencias. Contribucion a su Estudio", ***Hispania***, 1953, pp. 215 - 267, 447 - 461.

- " Los moriscos : estado de la cuestion y nuevas aportaciones documentales", ***Saitabi***, X, 1960, pp. 106 y sigs.

- " Valencia i els moriscos de Granada" , I Congreso de Historia del Pais Valenciano (14 - 18 de abril de 1971).

Reichir, R. : " Muculmanos no Brasil" , ***Almenara***, I, Madrid, 1971,paginas 27 - 46.

Ribera, Julian :" Supersticiones moriscas", ***Disertaciones y opusculos, I, Madrid*** ,

1928, pp. 493 - 527.

-" Vida religiosa de los moriscos " , **BRAH**, abril 1918.

- Y Asin Palacios, Miguel : ***Manuscritos arabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta,*** Madrid, 1912.

- Y Sanchez, M. : ***Coleccion de textos aljamiados ,*** Zaragoza, 1888.

Ricard, Robert :" 1 Espagne et la fabrication des bonnets tunisiens", ***Revue Africaine,*** Argel, 1956, pp. 423 - 432.

- " Les morisques et leur expulsion vue du mexique" , ***Built. Hispanique,***33, 1931, pp. 252-254.

- " Indiens et morisques", ***Etudes et documents pour l histoire missionaire de l Espagne et du Portugal,*** Lovaina, 1931.

- " Les minorities religieuses dans 1 Espagne medievale" , ***Rev. Moyen AgeLat.***8, 1952, pp. 92 - 96.

Ripol, Juan : ***Dialogo de Consuelo por la expulsion de los moriscos de Espana,*** Pamplona, 1613.

Rivera, Juan de : ***Instancias para la expulsion de los moriscos,*** Barcelona, 1612.

Robles, R. :" Catalogo y nuevas notas sobre las rectories que fueron de moriscos en el arzobispado de Valencia y su repoblacion 3 1527- 1663",

Anthologica Annua, 10, Roma, 1962.

Rochau, A.L.: ***Die moriscos in Spain,*** Leizpig, 1853.

Rodriguez Rivero, Adolfo :" Un documento relativo al alzamiento de los moriscos, 1570'\ ***Mauritania,*** 182, 1943, pp. 22-24.

Rojas, J. L.: ***Relaciones de algunos sucesos celebres nuevos y postreros de Berberiay salida de los moros de Espana,*** Lisboa, 1613

Ramon de la Higuera, Jeronimo :" ***Historia del levantamiento y marcha de los nuevamente convertidos en el Reino de Granada y algunos ilustres martirios***

que en ella padecieron algunas personas por la confesion de su fe catholica, manuscrito de la Real Academia de la Historia, Coleccion Salazar ,1-139- 749 fols. III y ss.

Ron de la Bastida, C. : " Manuscritos arabes en la Inquisicion granadina 1582", ***Al-Andalus,*** XXIII, 1958, pp. 210 - 211.

Ruiz Martin, Felipe : " Movimientos demograficos y economicos en el Reino de Granada, durante la segunda del siglo XVI", ***Anuario de H. Economica y Social,*** I, 1968, pp. 127 y sigs.

Rull Villar, Baltasar : " La rebelion de los moriscos en la sierra de Espadan y sus castillos", ***Anales del Centro de Cultura Valenciana ,*** 44,1960,paginas 54-71.

Saavedra, Eduardo: ***Literatura aljamiada,*** Discurso de recepcion en la Real Academia Espanola. Madrid, 1878.

- " La historia de los amores de Paris y Viana", ***Rev. Historica,*** XXII, 1876, pp. 40-41.

Salva y Ballester, Adolfo:" Los moriscos valencianos en 1527 y 1528", ***Bol. de la Sociedad Castellonense de Cultura,*** XVI, 1935.

Salva y Sainz de Baranda: Coleccion de documentos ineditos para la ***historia de Espana*** (CODOIN), Madrid, 1842 - 95. Vid. T. XIII.

Salvador, Emilia : " Sobre la emigracion mudejar a Berberia . El transito legal a traves del Puerto de Valencia durante el primer cuarto de siglo XV", ***Estudis,*** IV, 1975, pp. 39 - 68.

Salvador, L. : ***Bizerte et son passé, Paris,*** 1900.

Salyer, John : " La importancia economica de los moriscos en Espana", ***Anales de Economia,*** 1949, pp. 117 - 133.

Sanahuja, P.: ***Lerida en sus luchas por lafe, judios, moros, converses , Inquisicion, moriscos,*** Instituto Estudios Llerdenses, Lerida, 1946, 209 pags.

Sanchez-Albornoz, Claudio : " Despues de leer a Lapeyre", ***Miscelanea de estudios literarios e historicos,*** III, Leon, 1970, pp. 509 - 517.

Sanchez Perez, A.:" Los moriscos de Homachos, corsarios de Sale ", ***Revista de Estudios Extremenos***, XX, Badajoz, 1964, pp. 93 - 152.

Sanchis Guamer : " Como era el arabe vulgar que hablaban los moriscos valencianos", ***Levante***, 4 - XI - I960, Valencia.

- ***Els valencians i la llengua autoctona durant els segles XVI-XVJI i XVIII,*** Inst. Alfonso el Magnanimo , Valencia, 1963,

Sangrador y Vitores, M.: ***Memoria historica sobre la expulsion de los moriscos de espcma en el reinado de Felipe III,*** Valladolid, 1958.

Santiago Simon , Emilio De:" Algunos datos sobre la posesion de bienes raices moriscos en el lugar de Cenes de Granada (1572)", MEAH, 1073

- ***Un texto morisco granadino,*** Publicaciones de la Catedra-Seminario de Historia del Islam, Universidad de Granada, 1973, 17 pags.

Santos Nella, Francisco: "El problema hispano- morisco (siglo XVII)", ***Revista de Estudios Extremenos,*** XXIX, 1973, pp. 5-104.

Sanz, J.M.: " Alarifes moros aragoneses", ***Al-Andalus,*** III, 1953, pp. 63 - 67.

Sarnelli Cerqua, Clelia: " La fuga in Morocco di as-Sihab Ahmad al- Hagari al-Andalusi" , ***Studi Magrebini***, I, Napoles, 1966, pp. 215 - 229.

- " Lo scritore ispano - maroccino al-Hagari e il suo kitab Nasir al - din", ***Atti de III Congreso di Studi Arabi e Islamici,*** Ravello, 1966, pp. 595 - 614., Napoles, 1967.

-" Al-Hagari in Andalusia", ***Studi Magrebini,*** III, Napoles, 1968, pp. 1 - 43.

Seco de Lucena, Luis : " Sobre la favorable disposicion de los Reyes Catolicos hacia los musulmanes vencidos", MEAH, II, 1953, pp. 127 - 129.

Serrano y Sanz, Manuel :" Nuevos datos sobre la expulsion de los moriscos andaluces", ***Rev. Contemporanea,*** XC, 1893, pp. 113 - 127.

Sicoroff, A.:" ***Les controverses des statuts de purete de sang en Espagne auXVIeme etXVIeme siecle"*** , Paris, 1960.

Sola Sole, Josep :" Un texto aljamiado sobre la articulacion de los siglos hispano-

arabes", ***Romande Philology***, 24, no I, 1970 - 71, pp. 86 - 89.

Soulah, Mohamed : " ***Une elegie andalouse sur la guerre de Grenade",*** Argel, 1914.

Skhiri, F. :" Les traditions culinaires andalouses a Testour" , ***Cahiers des Arts et Traditions Populaires,*** 2, Tunez, 1968, pp. 21 - 28.

- " Deux convertures de Testour", ***Cahiers des Arts et Traditions Populaires***, 3, tunez, 1969, pp. 21 - 40.

Sloman, Albert : " The phonology of Moorish Jargon in the Works of Early Spanish Dramatists and Lope de Vega", **Modern Language Review,** XL VI, 1949.

Spivakosky, Erika: " Un episodic de la Guerra contra los moriscos: la perdida del gobiemo de la Alhambra por el quinto conde de Tendilla (1569)", ***Hispania***, 1971. pp. 399-431.

Vera Delgado, Ana Maria :" Revuelta mudejar de 1500 - 1501, el estudio de los vencidos n , comunicacion del I Congreso de Historia de Andalucia 1976.

Verdu, Bias : ***Enganos y desenganos del tiempo con un discurso de la expulsion de los moriscos de Espana ,*** Barcelona. 1612.

Vernet, Juan: " Traducciones moriscas del Coran", ***Der Orient in der Forschung.*** Festschrift fur 0. Spies, Wiesbaden, 1967, pp. 686 - 705.

- Y Moraleda, Luisa : " Un Alcoran fragmentario en aljamiado" , Bol, ***Real Academia de Buenas Letras de Barcelona,*** XXXIII, 1969 - 70, pp. 47-75.

Vilar, Pierre :" El tiempo del Quijote", en ***Crecimiento y Desarrollo,*** Ariel, Barcelona , 1974, pp. 332 - 346.

Villanueva Rico, Carmen: ***Habices de las mezquitas de la ciudad de Granada y sus alquerias,*** Instituto Hispano- Arabe , Madrid, 1961.

- Casas, mezquitas y tiendas de los habices de las iglesias de Granada, Madrid, 1966.

Villegas Molina, Francisco: ***Elvalle de Lecrin,*** Granada, 1972.

Vincent, Bernard : L expulsion des morisques du royaume de Grenade et leur reparti-tion en Castille (1570 - 15 71)", ***Melanges de la Casa de Velawquz,*** VI, 1970, pp 210 - 246.

- " L Albaicin de Grenade au XVIeme siecle", ***Melanges de la Casa de Velawquz*** VII, 1971, pp. 187 - 222.

- " Combien de morisques out etc expulses du royaume de Grenade", ***Melanges de la Casa de Velazaquz,*** VII, 1971, pp. 397 - 399.

- " Les bandits morisques en andalousie au XVIeme siecle", Revue de ***Histoire Mod erne et Contemporaine,*** 1974, pp. 389 - 400.

- " Les morisques d Estremadure au XVIeme siecle", ***Annales de Demographic His torique,*** 1974, pp. 431 -448.

- Consommation alimentaire en andalousie orientale (les achats de 1 hospital roy de Guadix, 1581- 1582)", Annales E.S.C, 1975, pp. 445 - 453.

- " Un modele de decadence : royaume de Grenade dans le dernier tiers c XVIeme", ***Actas de las I jornadas de metodologia aplicada de las ciencias his toricas,*** Santiago de Compostela, vol. III, 1975, pp. 213 - 217.

- " La presencia morisca en el reino de Granada despues de la expulsion de 1570' comunicacion del I Congreso de Historia de Andalucia 1976.

- " La famille morisque", comunicacion del XIII, ***Congres national des hispanist francais de l enseignement superieur,*** Tours, 1977.

Vinas Mey, Carmelo : ***El problema de la tierra en Espana en los siglos XVI y X*** Madrid, 1941.

Wagner Claus : Un pardon desconocido de los mudejares de Sevilla y la expulsi de 1502" (***Al-Andalus,*** vol. XXXVI).

Zamora Lucas, Florentine: " El comendador don Alonso Mesia y la Guerra de los m riscos granadinos" , ***Hidalguia,*** I, 1953, pp. 356 - 380.

Zapata, Simeon : ***Expulsion de los moriscos rebeldes de la Sierra y Muela de Cortes hecha por Simeon Zapata, valenciano, compuesta por Vicente Perez de Culla,*** Valencia, 1635.

Zbiss, S.M.: ***Presence espagnole a Tunis***, Tunez, 1969.

Zettersteen, K.V. : " Some Chapters of the Coran in Spanish Transliteration" , ***Le Monde Oriental,*** V, Uppsala, 1911, pp. 39 - 41.

-" Ein Handbuch der religosen Pflichaten der mohammedaner in aljamia" ,***Le Monde Oriental,*** 15, 1921, pp. 1-174.

- " Notice sur un ritual musulman en langue espagnole en caracteres arabes et latins", ***Centenario delta nascita di Michele Amari,*** I, pp. 277 - 291.

المؤلفان فى سطور :

أنطونيو دومينغيث أورتيث

- أستاذ التاريخ فى عدة مراكز بحثية إسبانية.
- عضو الأكاديمية الملكية للتاريخ.
- حاصل على جائزة أمير أستورياس فى العلوم الاجتماعية (١٩٨٢).
- من أبرز المتخصصين فى تاريخ الموريسكيين .

برنارد فينسينت

- حاصل على درجة الدكتوراه فى التاريخ (جامعة باريس ٨) وعلى الدكتوراه الفخرية من جامعة أليكانتى .
- متخصص فى تاريخ الأقليات وفى العلاقة بين الإسلام والمسيحية.
- عضو مراسل للأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد.
- تولى إدارة عدة مشروعات بحثية فى فرنسا وإسبانيا ، وعدة مجلات علمية .

المترجم فى سطور:

عبد العال صالح طه

- حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة الأوتوما (مدريد)
- مدرس الأدب الإسبانى فى كلية الألسن – جامعة المنيا .
- له دراسات عديدة حول الأدب الإسبانى .

المراجع فى سطور:

جمال أحمد عبد الرحمن

– حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) من كلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر).

– الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد.

– حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).

– فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر).

– له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية .

التصحيح اللغوى : آمال الديب

الإشـراف الفنـى : حسن كامل







يعالج هذا الكتاب - الذى ينقسم إلى اثنى عشر فصلاً، ويتضمن اثنتى عشرة وثيقة لم تنشر من قبل - عدة جوانب من تاريخ الموريسكيين استنادًا إلى الوثائق، لطرح افتراضات لا نظن أن الصواب يجانبها كثيرًا، وتصحيح معلومات كان الدارسون يتداولونها على أنها حقائق مسلَّم بها، وعليه فإنه يكتسب أهمية خاصة وتزداد إذا وضعنا فى الاعتبار شخصيتى مؤلفيه.

يتحدث المؤلف عن وجود مظاهر الفن الإسلامى الموريسكى فى بلاد العالم الجديد، وهو موضوع لم يكن مطروقًا فى الدراسات الموريسكية، ويتناول مسألة الوجود الموريسكى فى إسبانيا بعد الطرد، وهو موضوع مهم للغاية، وأعتقد أن الكتاب فريد فى هذا الجانب الذى لم يتوقف عنده الباحثون إلا قليلاً. الكتاب جرىء فى آرائه التى يطرحها، وإن كان فى بعض الأحيان يرتكب أخطاء يرتكبها المؤلفون الغربيون عادة.

فى كثير من الأحيان أشرنا إلى توافق الرؤى بين هذا الكتاب وكتاب "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" لماركيث بيانويبا الذى صدر عن المشروع القومى للترجمة منذ أقل من عام، ولعل هذا يؤكد أن تقديم وجهة النظر الأخرى يكاد يشكل تيارًا فى الفكر التأريخى الإسبانى المعاصر.



تصميم الغلاف: هند سمير